

نفس السيرة الهادية

البقرة والعمارة

محمد صالح المنجد

دار

Abekkan

تفسير الزهراء

تفسير أثري، تربوي، مُعاصر
تسهيلاً للتدبر، والعيش مع القرآن

مجلد صالح المنجد

② مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

تفسير الزهراوين. / محمد صالح المنجد، ط١. - الرياض، ١٤٣٧هـ

٨٦٤ ص، ١٦، ٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٨٣-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. القرآن - تفسير

أ. العنوان

١٤٣٧/٤٧٠٥

ديوي: ٢، ٢٢٧

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

امتياز التوزيع

العبيكان
Obekon

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٩٠٢٣

هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

الناشر

مجموعة زاد
Zad Group
للنشر

المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٢٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

قصة كتاب: (تفسير الزهراوين)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلكل كتاب قصة، وقصة كتابنا هذا تعود لأكثر من خمسة عشر عامًا؛ حيث بدأ الشيخ محمد صالح المنجد دروس التفسير بجامع (عمر بن عبد العزيز) بالخبر، شارحًا تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ المعروف باسم (تفسير القرآن العظيم)، وانتظم في تدريسه لمدة تزيد عن ثلاث عشرة سنة.

ثم تطوّر هذا الدرس إلى إملاء «تفسير» على الطلبة، مع الاعتناء بجمع الفوائد، والنكت، واللطائف، والإشارات، من كتب التفاسير المختلفة، القديمة، والمعاصرة -والتي زادت عن الثلاثين- وترتيبها بأسلوب سهل، واضح.

ومع اكتمال تفسير سورة (الفاتحة) و(الزهراوين) -البقرة وآل عمران- ونظرًا لعموم الفائدة، وحاجة الناس إلى مثل هذا التفسير الذي سيكون فيه إثراء للمكتبة الإسلامية -بإذن الله-؛ فقد عكف الفريق العلمي بمجموعة زاد على مراجعة التفسير، وإعادة صياغة المادة العلمية، وترتيبها، وتهذيبها، وزيادة بعض الفوائد والاستنباطات من الآيات، مع تخريج الآيات، والأحاديث النبوية المرفوعة، والآثار الواردة عن السلف.

ونرجو من الله تعالى أن يكون (تفسير الزهراوين) باكورة إخراج هذا المشروع الكبير إلى النور (تفسير المنجد)، وأن يكون إسهامًا من الشيخ في هذا الباب من أبواب العلم؛ ويكون تحقيقًا عمليًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ونسأل الله تعالى أن يوفّقنا والمسلمين لما يحبّه ويرضاه، وأن يرزق الجميع الإخلاص والقبول.

مجموعة زاد



المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. وبعد:
فلإن شرف العلم إنما يُنالُ بشرف ما يتعلّق به، وبموضوعه، وغايته، وشِدّة الاحتياج إليه.

ولذا، فتفسير القرآن الكريم، وتعلّمه وتعليمه؛ من أشرف ما تُصرف فيه الأوقات، وتُبدل فيه الأموال، وأصحابه هم كالتاج على الرؤوس، وكالشمس للدُّنيا.
فالقرآن الكريم هو كلامُ الله تعالى، ووحيه إلى نبيه ﷺ، ورسالته إلى خلقه.
وهو هدى، ورحمة، ونور، وبلاغ، وبصائر، وذكر، وفرقان، وموعظة، قال الله تعالى:
﴿تَنبِئُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾
[يونس: ٥٧].

وأهل القرآن -تعلّماً وتعليماً- هم خير الناس؛ كما ثبت في الحديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(١).

ومن المعلوم أن كُتُب التفسير قد كُثرت، وبُسِطت، واختُصرت، وتنوّعت مشاربها، واختلفت مناهج أصحابها.

وقد جرّت المحاولة في هذا التفسير أن يكون تفسيراً قرآنياً -يفسّر القرآن بالقرآن- أثرياً، تربوياً، دَعَوِيّاً، عَصْرِيّاً، واقعيّاً، يُسهّل تدبّر كتاب الله، والانتفاع بآياته ومواعظه، والعيش

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

مع القرآن، ويَرْبِط القرآن بواقع الناس، ويكون -مع كلِّ هذا- مُصاغًا بأسلوبٍ سهلٍ ميسرٍ، يَجْمَع بين الأصالة والمُعاصرة -أصالة القديم، وجِدَّة الحديث- ومناسبًا لعموم الراغبين من طبقات المجتمع المختلفة.

أهدافُ هذا التفسير:

- * رَبُّط الناس بكلام ربِّهم عَزَّوَجَلَّ.
 - * إبراز هدايات القرآن المختلفة للتي هي أقوم، في جميع المجالات: العقائد، الأحكام، المعاملات، الآداب، الرِّقائِق، فقه الواقع... إلخ.
 - * التربية على استنباط الفوائد، والنُّكُت، والأحكام، واللُّطائف، والإشارات القرآنيَّة من الآيات، وربُّط القرآن بالواقع، بطريقةٍ سهلةٍ، من خلال الفوائد، والاستنباطات، واللُّطائف الماثورة في ثنايا التفسير.
 - * الاهتمام بأسباب النُّزول، واختيار أصحِّ الروايات الواردة في الباب، واستنباط الفوائد والعبر منها.
 - * الإشارة إلى كثيرٍ من المستجَدَّات؛ كربط القرآن بفقه الواقع، والرَّد على الشُّبهات، ونحو ذلك.
 - * خدمة الدُّعاة والمرِّين من خلال ربط التفسير بالدعوة والتربية.
- ونسأل الله تعالى التوفيق، والسَّداد، والقبول، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وآله، وصحبه.



سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

وهي سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

آياتها: سبعُ آيات - عند جميع علماء العدد -؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧].

لكن اختلف العلماء: هل البسملةُ آيةٌ منها - فتكون الآية السابعة هي قوله: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ - أم ليست منها - فتكون الآية السابعة هي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ -؟^(١).

أسماءها: تُسَمَّى (أم الكتاب)، و(أم القرآن)؛ لأنها اشتملت على مقاصد القرآن كله، ولأن معاني الكتاب العزيز ترجع إليها. وتُسمى أيضًا: (السبع المثاني)^(٢).

فَضْلُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: هي السَّبعُ المثاني التي تُشْنَى وتُكْرَرُ في كُلِّ صلاة، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧].

وسَمَّاها النبي ﷺ صلاة؛ كما في الحديث: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَحْدَنِي عَبْدِي».

وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَحْدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: قَوْصَ إِلَيَّ عَبْدِي -.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٦)، تفسير القرطبي (١/ ٩٢)، تفسير ابن عطية (١/ ٦١)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٧٥).

(٢) وأُطلق عليها عدة أسماء أخرى، كالحمد، والصلاة، والشفاء، وغير ذلك، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠١-١٠٢).

فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ② قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ③.

وهي أعظم سُورَةٍ في القرآن، كما أخبر النبي ﷺ أبا سعيد بن المَعْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك، وقال له: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةٌ هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ»، ثم قال له: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ ④. وقال ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ» ⑤.

وَالرُّقِيَّةُ بِالْفَاتِحَةِ نَافِعَةٌ، كما فعل أبو سعيد الخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأقره النبي ﷺ على ذلك ⑥. وقد فُتِحَ بَابُ مِنَ السَّمَاءِ، فنزل منه مَلَكٌ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: «أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا، لَمْ يُؤْتِهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتهُ» ⑦.

وَلَا تُجْزَى الصَّلَاةُ دُونَ قِرَاءَتِهَا؛ لِأَنَّ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ؛ فَهِيَ خِدَاجٌ -ثَلَاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ» ⑧. وقال النبي ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» ⑨.

مقاصد السورة:

جاءت السورة كالمقدمة لكتاب الله؛ فَحَوَّتْ جميع مقاصده وأغراضه على جهة الإجمال. وهي منزلة من القرآن منزلة الدِّيَابِجَةِ لِلْكِتَابِ، أو المقدمة للخطبة. ويحتوي أسلوب الفاتحة على ثلاث قواعد للمقدمة:

- (١) رواه مسلم (٣٩٥).
- (٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).
- (٣) رواه الترمذي (٣١٢٥)، والنسائي (٩١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٦٠).
- (٤) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).
- (٥) رواه مسلم (٨٠٦).
- (٦) رواه مسلم (٣٩٥).
- (٧) رواه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

الأولى: إيجاز المقدمة؛ لئلا تملّ نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السُّور الطوال، مع أنّها سُورَة قصيرة.

الثانية: أن تشير إلى الغرض المقصود، وهو ما يُسمّى «بِراعة الاستهلال»؛ لأنّ ذلك يُهيئ السامعين لسماع تفصيل ما سيُرد عليهم، فيتأهبوا لتلقيه.

الثالثة: أن تكون المقدمة من جوامع الكلام، وقد بيّن ذلك علماء البيان، عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلّم أن يتأنق فيها.

موضوعات السُّورَة:

الثناء على الله تعالى، والتوكُّل عليه، وتقوية الرجاء برحمته، والاستعانة به، واستمداد التوفيق منه سبحانه، وطلب الهداية والثبات منه وحده.

وترقُّب العبد للحساب والجزاء يوم القيامة.

وتخليص العبادة من الشُّرك.

والاستقامة على الدين.

وطلب الأمان من غضب الله والضلال عن سبيله، ومجانبة اليهود والنصارى، وعدم التشبه بهم.

تفسير الاستعاذة:

أمر الله بها عند البدء بقراءة القرآن؛ فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وكذلك أمر بها إذا نزع الشَّيطان الإنسان بمعصية، وإذا خشي من حضوره، وإذا وسوس له في الصَّلَاة، وعند الغضب، كما ثبتت بذلك السُّنة.

والأمر بالاستعاذة قبل قراءة القرآن لتدبراً وسوسة الشَّيطان؛ وذلك ليحصل التدبُّر والاستمرار في القراءة، وكان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاته قبل أن يقرأ الفاتحة: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(١)، وهَمْزِهِ: الجنون، وَنَفْخِهِ: الكبر، وَنَفْثِهِ: الشُّعر القبيح.

(١) رواه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وحسنه الألباني في الإرواء (٥٤/٢).

والاستعاذة طهارة للنفوس من اللغو والرَّفَث، والتجاء إلى الله، وطلب الحماية منه، من شرِّ الشَّيْطَان؛ لأنَّه عدوٌّ باطن خفيّ، لا ينفع معه المداراة والمصانعة.

و(الشَّيْطَان): مشتقٌّ من «شَطَنَ» إذا بَعُدَّ، وهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيدٌ بفسقه وكُفْرِهِ عن كلِّ خير.

وقيل: هو من باب «شاط»، وهو أصلٌ يدلُّ على ذهاب الشيء، إمَّا احتراقًا وإمَّا غَيْرَ ذلك، ومنه: «استشاط الرَّجُلُ» إذا احتدَّ غَضَبًا، والنون في «الشَّيْطَان» زائدة، على وزن «فعلان»^(١). و(الرَّجِيم): فعيل بمعنى مفعول؛ أي: المرجوم المطرود عن الجنة، وعن الخير كلِّه.

تفسير البسملة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١):

افتتح الصَّحَابَةُ كتاب الله بالبسملة، واتفق العلماء على أنَّها بعض آية من سُورَةِ النمل، واختلفوا: هل البسملة آية من الفاتحة، أم لا؟

وثبت أنَّها نزلت للفصل بين السُّور، كما روى ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَعْرِفُ فَضْلَ السُّورَةِ، حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢).

وقد ثبت أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ بِهَا؛ فَقَدْ سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، «يَمْدُ بِـ» ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، «يَمْدُ بِـ» ﴿الرَّحْمَنِ﴾، «يَمْدُ بِـ» ﴿الرَّحِيمِ﴾^(٣).

وذهب كثيرٌ من العلماء - وهو الثابت عن الخلفاء الأربعة - إلى عدم الجهر بها قبل الفاتحة في الصَّلَاة.

وقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: أبتدئ قراءتي بـ (بسم الله)، أو: ابتداء القراءة بـ (بسم الله)؛ للاستعانة به عَزَّ وَجَلَّ، والتماس البركة بتقديم ذِكْرِ اسمه قبل العمل.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٥)، تفسير القرطبي (١/ ٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٥٤).

(٣) رواه البخاري (٥٠٤٦).

﴿اللَّهُ﴾: لفظ الجلالة، اسم لا يُسَمَّى به غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو أكثر الأسماء ورودًا وتكرارًا في الكتاب والسنة.

وهو مشتق من «أَلِه» يألَهُ، ومعناها: العبادة بمحبة ودلّ وخضوع، وأصل هذه اللفظة «الإله»، فلما حُذِفَت الهمزة والتقت اللام باللام؛ أُدْغِمَتَا، فصارتا في اللفظ حرفًا واحدًا مشدّدًا، وفُخِّمَ تعظيمًا.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: كلاهما مبالغة من «الرحمة»، وكلاهما يدلّان على ذاته، وعلى صفة الرحمة، وهي رحمة حقيقية تليق بجلاله وعظمته.

وإذا اجتمع الاسمان - كما في هذا الموضع -؛ فـ «الرحمن» يدلّ على الرحمة التي هي صفته، و«الرحيم» يدلّ على فعله المتعدّي بإيصال الرحمة إلى المرحوم.

و(الرحمن) اسم مختصّ بالله سبحانه، لا يُسَمَّى به غيره، بخلاف «الرحيم».

وهذا الاسم: (الرحمن) هو الذي أنكره مشركو العرب؛ كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، لكنّه إنكار جحود واستهزاء، لا جهالة واستبعاد، فقد كان الاسم معروفًا في أشعارهم، كقول أحدهم:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتِنَا عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

وقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: إثبات كلّ المحامد لله. و(الحمد) وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، واللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص والاستحقاق.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الرّبُّ): هو الخالق، المالك، المُدَبِّر.

و(العالمين): جمع عالم، وهو كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ، من الملائكة والإنس والجنّ والطير وغيرها. وقد وُصِفُوا بذلك؛ لأنّهم علّم على خالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ففي كلّ شيء من المخلوقات آية تدلّ على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزّته، وغير ذلك من معاني ربوبيّته.

الفرق بين المدح والحمد:

المدح: وُصِفَ الممدوح بالصفات الحميدة، لكن لا يلزم منه أن يكون محبوبًا معظّمًا،

فقد يمدحُه من أجل أن ينالَ غَرَضًا له، وقد يمدحُه من أجل أن يتَّقي شرَّه، لكن الحمد لا يكون إلا مع محبةٍ وتعظيمٍ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثناء على الله، وأنه تعالى مستحقُّ للحمد؛ لجليل صفاته، حتى قبل أن يخلق الخليفة.
وفيها: تحقيق التوحيد، بإثبات اختصاص الله بجميع المحامد، وهذا لا يُشاركه فيه غيره.
وفيها: إثبات ربوبية الله تعالى لجميع أصناف الخليفة.
وفيها: تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ تنبيهًا على أهمية هذا النوع من التوحيد الذي أنكره المشركون وأكثر الأمم الذين بعث الله إليهم الأنبياء.
وفيها: تربية الله خلقه عمومًا؛ بهدأته لهم لما فيه مصالحهم، وتربيته لأوليائه خصوصًا بهدأيتهم، وتعليمهم وتوفيقهم لعبادته.
وفيها: أن من أسماء الله (الرب)، ولا يُطلق على غير الله إلا بالإضافة - مثل: «رَبُّ الدار» -.

وفيها: إثبات عظمة الله بخلقِه للعوالم المختلفة في السماوات والأرض، التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو.

وفيها: ثناء الله على نفسه، وحمده لنفسه، أمَّا البشر: فإنَّهم لا يُزَكُّون أنفسهم.

وفيها: تعليم العباد حمده بالافتداء به عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: فضل افتتاح الكلام بحمد الله.

وفيها: فضل التحميد، وهو أفضل من التسبيح، وقد قال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ»^(١).

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

وقوله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: كلاهما مبالغة من «الرحمة»، فـ (الرحمن) يدلُّ على الرحمة التي هي صفته، و(الرحيم) يدلُّ على فعله المتعدِّي بإيصال الرحمة إلى المرحوم.

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٤).

و﴿الرَّحْمَنُ﴾ يدلُّ على ذاته، ويدلُّ على صفة الرحمة، وهو رحمن بجميع الخلق، وكلُّ النعم من آثار رحمته، ولا يجوز أن يُطلق هذا الاسم على غير الله.

و﴿الرَّحِيمُ﴾: وهذه صيغة مبالغة، تُقال لمن كثرت منه الرحمة، ويدلُّ على الرحمة المتعلقة بفعله، وهو رحيمٌ بالمؤمنين، بهدايته لهم ولطفه بهم.

والرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

النوع الأول: رحمة ذاتية، موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به، كسائر صفاته.

والثانية: رحمة مخلوقة، أنزل الله عز وجل منها جزءاً يتراحم به الخلائق فيما بينهم.

وهذه الرحمة المخلوقة أثر من آثار رحمته، التي هي صفته الذاتية الفعلية.

وفي الآيتين من الفوائد:

إثبات هذين الاسمين الكريمين لله تعالى.

وفيها: بيان أن ربوبيته عز وجل متضمنة ومبنية على رحمته الواسعة، وجارية على وجه الرحمة والرفق واللين، لا على وجه الشدة والأذى والخرج.

وفي قوله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ترغيب بعد الترهيب؛ لأنَّ الرَّبَّ هو القادر القوي، وهو السيّد المالك المتصرّف في خلقه من غير منازع، وإتباع الترهيب بالترغيب أعون على طاعته وعبادته.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء علمه صاحبه معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا»^(١).

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾:

وقوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: له المُلْكُ التَّامُّ في ذلك اليوم - يوم القيامة - لا يملك أحدٌ فيه حكماً مع الله.

وقراءة (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) صحيحة متواترة؛ فـ (مَلِكٍ) صفة لذاته، و﴿مَلِكِ﴾ صفة لفعله.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠ / ١٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٢١).

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أَنَّ مُلْكَهُ جَلٌّ وَعِلَا مُلْكٍ حَقِيقِيٍّ؛ لِأَنَّ مِنْ الْخَلْقِ مَنْ يَكُونُ مَلِكًا، وَلَكِنْ لَيْسَ بِمَالِكٍ؛ يُسَمَّى مَلِكًا اسْمًا، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ التَّدْبِيرِ شَيْءٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَالِكًا، وَلَا يَكُونُ مَلِكًا، كَعَامَّةِ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ: مَالِكٌ مُلِكٌ.

و﴿الَّذِينَ﴾: هُوَ الْحِسَابُ وَالْجِزَاءُ، بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

إثبات المُلك المطلق لله تعالى يوم القيامة، وَمَنْ مَلَكَ الزَّمَانُ فَقَدْ مَلَكَ مَا فِيهِ، وَأَمَّا مُلْكُهُ لِلدُّنْيَا: فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وفيها: أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ اسْتِحْقَاقِ اللَّهِ لِلْحَمْدِ: مُلْكُهُ النَّامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ عَزَّيْزٌ يَبْعَثُ كُلَّ الْعَوَالِمِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - حَتَّى الطَّيْرَ وَالِدَوَابَّ - وَيَكُونُ الْقِصَاصُ بَيْنَهَا مِنْ تَمَامِ الدِّينِ، وَهُوَ الْجِزَاءُ وَإِقَامَةُ الْعَدْلِ.

وفيها: مَوْعِظَةُ الْعِبَادِ بِذِكْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيَعْمَلَ الْعَبْدُ بِمَا يُنَجِّيه فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَأْخُذَ حِذْرَهُ وَيَحْتَاطُ وَيَسْتَعِدُّ.

وفيها: ظُهُورُ مُلْكِ اللَّهِ جَلِيًّا لِمَجْمَعِ الْخَلَائِقِ.

وفيها: زَوَالُ مُلْكِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أَي: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ. وَ(الْعِبَادَةُ): كِمَالُ الْمَحَبَّةِ وَالْخُوفِ وَالذُّلِّ وَالطَّاعَةِ لِلْمَعْبُودِ.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الباطنة والظاهرة. وتُبنى على أركان ثلاثة:

كِمَالُ الْحُبِّ، وَكِمَالُ الرَّجَاءِ، وَكِمَالُ الْخُوفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ يَبْتُغُونَكَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلْوَسِمِلَّةَ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ وَرَجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلا بك على طاعتك، وعلى أمورنا كلها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إخلاص العبادة لله، والاهتمام بإفراده بالعبادة، والاستعانة الكاملة به سبحانه. وقد دلَّ على هذا تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنَّ العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم. وفيها: حُصْرُ العبادة والاستعانة الكاملة بالله، كما دلَّ عليه تقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾.

وفيها: البراءة من الشرك.

وفيها: التبرُّؤ من حول العبد وقوَّته، وإعلان توكلُّه واعتماده على ربِّه.

وفي تحوُّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب: إشارة إلى اقتراب قارئ الفاتحة وحضوره بين يدي الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ هذا الإقرار بالعبودية لله والاستعانة به يؤهِّل العبد للطلب والدعاء؛ ولذلك يسأل بعدها ويقول: ﴿أَهْدِنَا﴾.

وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»، وفيه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١).

وفيها: تقديم الأهم على المهم؛ لأنَّه قدَّم العبادة - وهي المقصودة - على الاستعانة - وهي الوسيلة -.

وفي نون الجمع في قوله ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾: إشارة إلى اجتماع المؤمنين على ذلك، وأنَّ قارئ الفاتحة ليس وحده في هذا الأمر، فيأنس في الوحشة وغربة الدِّين، وتسهِّل عليه العبادة إذا شعر باشتراك إخوانه الأوَّلين والآخرين معه فيها.

وفي قراءة الإمام لها: معنى الإعلان بذلك هو والمؤمنون.

وفي نون الجمع أيضًا: إشارة إلى أنَّ العبد تَعْظُم منزلته ويَشْرُف مقامه عند ربِّه بالعبادة والاستعانة.

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وفي نون الجمع في قوله ﴿نَعْبُدُ﴾: إشارة إلى أن عبادة الصَّلَاة مبنية على الاجتماع. وفيها: أن العبد لا يتمكن من عبادة الله إلا إذا أعانه الله على ذلك، وفي هذا منع للعُجْب والغرور الذي قد يصيب بعض المُكثِرِينَ من العبادة؛ فإنه إذا علم أن اجتهاده هذا لم يكن ليحصل لولا إعانة الله؛ فإنه لا يقع في العُجْب والغرور.

وفي هذه الآية: شاهدٌ لمعنى الحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله)؛ فالعبد يستعين بالله تعالى في إنجاح حوائجه وأموره.

وفيها: إشارة إلى أنه لا ينبغي التوكُّل إلا على مَنْ يستحقُّ العبادة، كما قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وفيها: ردُّ على مذهبي الجبرية والقدرية الضالِّين؛ فإن قوله ﴿نَعْبُدُ﴾ يدلُّ على أن للعبد اختياراً للفعل وإرادة له في القيام بذلك، وهذا ردُّ على الجبرية الذين يقولون: لا اختيار للعبد وأنه مجبور على أفعاله.

وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه: بيان أن العبد لا يمكن أن يفعل إلا بعون الله ومشيتته وتمكينه، وفي هذا ردُّ على القدرية الذين يقولون: إن العبد يُخْلَقُ فِعْلُهُ بنفسه، دون إرادة ومشية الله!

وفيها: حَضْرُ الاستعانة بالله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأن استعانة التفويض الكامل خاصةً بالله عَزَّوَجَلَّ، وتجاوز الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر على المعاونة فيه.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:

وبعد الثناء على الله في الآيات المتقدمة؛ نَاسَبَ أن يسأل العبد حاجته؛ ولذلك قال: ﴿أَهْدِنَا﴾ أي: أرشدنا، ودُلَّنَا، وألهمنا.

﴿الصِّرَاطَ﴾ الطريق الواضح ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي لا اعوجاج فيه، وجاء تفسيره بـ: كتاب الله أو القرآن، والإسلام، والنبى ﷺ، والحق.

وكلُّ هذه التفسيرات ترجع إلى أمرٍ واحدٍ؛ وهو: طاعة الله، والمتابعة لرسوله ﷺ، فمن اتَّبَعَ النبي ﷺ فقد اتَّبَعَ الحقَّ، ومن اتَّبَعَ الحقَّ فقد اتَّبَعَ الإسلام، ومن اتَّبَعَ الإسلام فقد اتَّبَعَ القرآن. فكلُّها صحيحة يُصدَّق بعضها بعضاً.

وقال النبي ﷺ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا»، ثم فسّره فقال: «والصِّرَاطُ: الإسلام»^(١).

وتكرارُ العبد للدُّعاء بطلب الهداية في قراءة الفاتحة في كلِّ صلاة - وإن كان مستقيمًا على الحق - ليس تحصيل حاصل؛ فإنَّ تكرار طلب الهداية هو طلب الثبات عليها، والرسوخ فيها، والازدياد منها، والاستمرار عليها، وزوال موانعها وصوارفها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المطلوب بعد العبادة والاستعانة هو: اتِّباع الشريعة؛ ولذلك يطلب العبدُ من ربِّه أن يذِّله عليها، ويوفِّقه إليها.

وقوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ أبلغُ من قول (اهدنا إلى الصِّرَاط)؛ لأنَّ العبارة الأولى تعني هداية التوفيق، وليس مجرد هداية الدلالة، وتتضمن معنى (أهمنّا) و(ألزمنّا).

وفيها: التحذيرُ من البدع، واتِّباع السُّبُلِ المنحرفة.

ويؤخذ منها: إثبات النبوة؛ لأنَّ الصِّرَاط المستقيم لا يمكن معرفته إلا بالوحي.

وفي هذه الآية مع ما قبلها: أهميةُ الثناء على الله قبل سؤاله ودعائه.

وفي تلاوة المُصَلِّي لهذه الآية عدَّة فوائد؛ منها: طلب المقصود - وهو الهداية - وحصول أجر العبادة باللجوء إلى الله بالدُّعاء، وأجر تلاوة القرآن (لكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ).

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾:

ثم بيَّن تعالى الصِّرَاط المستقيم؛ فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بطاعتك وعبادتك، وتفسير هذا موجودٌ أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم: اليهود، الذين علِمُوا الحقَّ وكنموه وجحدوه، فاستحقُّوا غضب الله.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم: النصارى، الذين فقدوا العِلْمَ، فهامُوا في الضلالة وتيه الجهالة.

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

فهذا دعاء المؤمنين أن يسلك الله بهم صراطه المستقيم، صراط النبي ﷺ والمؤمنين، لا صراط اليهود المغضوب عليهم، ولا النصاري الضالين.

وقد جاء في الحديث الصحيح، في بيان حال الرب مع العبد إذا قرأ الفاتحة في الصلاة: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»، وفيه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٢).

ولهذا يقول العبد في آخر مسأله هذه: «آمين»؛ أي: اللهم استجب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن عقيدة المؤمنين واحدة، وليست سُبُلًا متفرقة.

وفيها: أن الجهل والعناد من أسباب الخروج عن الصراط المستقيم.

وفيها: أن كفر اليهود أشد من كفر النصاري؛ لأنهم عرفوا الحق وخالفوه وحاربوه، أمّا النصاري: فقد جهلوه وعادوه، ولذلك كان الغضب من أخص صفات اليهود، والضلال من أخص أوصاف النصاري.

وفيها: أن طريقة أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم هي: الجمع بين العلم بالحق، والعمل به.

وفي هذه الآية: مثال عظيم لتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وهما أعلى أنواع التفسير:

فأما تفسير القرآن بالقرآن؛ فهو ما تقدّم من تفسير قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بقوله في سورة النساء: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وأما تفسير القرآن بالسنة؛ فهو ما ورد من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ (الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ) الْيَهُودُ، وَإِنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى»^(٣).

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣).

وفيها: إيناس أهل الحق وتثبيتهم في أوقات الغربة؛ بالنص على أن طريقهم قد سلكه ويسلكه وسيسلكه الذين أنعم الله عليهم.

وفيها: بيان نعمة الله على المؤمنين، بسلوك الصراط المستقيم في الدنيا الموصول إلى جنته في الآخرة، وأن من سلكه في الدنيا عبر الصراط على متن جهنم سالماً أيضاً.

وفيها: براءة أهل الإسلام - أصحاب الصراط المستقيم - من اليهود والنصارى. وفي هذا: رد على القائلين بتقارب الأديان، أو إمكان الوحدة بين الأديان؛ فإن أهل الحق لا يمكن أن يقتربوا من أهل الغضب واللعنة.

ويؤخذ منها: أن العالم الفاجر فيه شبهة من اليهود، والعابد الجاهل فيه شبهة من النصارى.

وفيها: أن الإنسان مهما بلغ من مراتب الإيمان؛ فإنه لا يزال محتاجاً لطلب الهداية من ربه.

وفيها: تذكير بموالاتة المؤمنين ومحبتهم، ومعاداة الكافرين وبغضهم.

وفيها: تعليم العباد الأدب مع الله، في عدم نسبة الأشياء المكروهة إليه مباشرة؛ مع أنه هو الذي شاءها وقدرها وخلقها:

ففي قوله ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ نَسَبَ الضلال إليهم؛ مع أنه قال في آية أخرى: ﴿مَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُادَى لَهُ﴾ [الأعراف ١٨٦]، وقال هنا أيضاً: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، مع أنه قاله في آية أخرى ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤].

وهذا كما في الحديث: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١).

وفيها: إشارة إلى وجوب اتباع أهل الحق، والحذر من اتباع أهل الضلال.

وفي ختام هذه السورة، يُشرع لتاليها في الصلاة وغيرها أن يقول بعدها: «آمين»؛ ومعناها: اللهم استجب.

والسنة الجهر بها إذا جهر بالقراءة؛ لحديث وائل بن حجر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقال: «آمين»، وَمَدَّ بِهَا صَوْتَهُ^(٢)، وفي رواية: «رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ»^(٣).

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨).

(٣) رواه أبو داود (٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٨٦٣).

وقد ورد في فضل التأمين:

حديث: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ؛ عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

وفي رواية: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى؛ عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢).

وجاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَإِذَا قَالَ (يعني: الإمام) ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ؛ يُجِبْكُمْ اللَّهُ»^(٣)، يعني: يستجب دعاءكم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا حَسَدْتُكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدْتُكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»^(٤).

وفيها: أن اليهود مغضوب عليهم من الله، ومن عباده المؤمنين. وأن غضب المؤمنين تبع لغضب الرب.

وفيها: تقديم نعمة الدين؛ وهي التي رزقها عباده المؤمنين.

وفيها: الحث على الاطلاع على سير الذين أنعم الله عليهم من الأنبياء والصالحين؛ لأجل الاقتداء بهم.



(١) رواه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).

(٢) رواه البخاري (٧٨١).

(٣) رواه مسلم (٤٠٤).

(٤) رواه ابن ماجه (٨٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥١٥).

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهي سُورَةٌ مدنيّة - بلا خلاف - وهي مِن أوائل ما نزل بالمدينة، وقد تأخّر نزولُ بعض آياتها.

آياتها:

ستٌ وثمانون ومائتان - على خلافٍ بين علماء العدد -.

قال بعضُ العلماء: «وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهْي».

أسمائها:

تُسَمَّى (البقرة) و(الزَّهْرَاءُ)؛ لحديث: «أَقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوَّيْنِ: الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ...» الحديث^(١).

وتُسَمَّى سَنَامُ الْقُرْآنِ؛ لحديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقْرَةِ»^(٢). والسَّنام: الرَّفْعَةُ.

مقاصد السُّورة:

المقصود من هذه السُّورة: إقامة الدَّلِيلِ على أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُدًى لِلنَّاسِ، لِيَتَّبِعَ فِي كُلِّ حَالٍ.

وأعظم ما يهدي إليه: الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ، وَمَجْمَعُهُ: الْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ، ومداره: الْإِيمَانُ

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٧٤٨ / ١)، مرفوعاً، وموقوفاً، وحسنه الألباني في الصحيحه (٥٨٨).

بالبعث، الذي أعربت عنه قِصَّة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سُمِّيت بها السُّورَة، وكانت بذلك أحقَّ من قِصَّة إبراهيم عليه السَّلام؛ لأنَّها في نوع البشر.

من موضوعات السُّورَة:

مَدَحُ الْمُتَّقِينَ ومُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَذَمُّ الْكُفَّارِ - وَمِنْهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ - وَالْمُنَافِقِينَ - وَمِنْهُمْ مُنَافِقُو الْمَدِينَةِ -.

وَالرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي النُّبُوَّةِ، وَالتَّحْدِي بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِ سُورِ الْقُرْآنِ.

وَقِصَّةُ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَتَعْلِيمِهِ وَتَلْقِينِهِ.

وَذَمُّ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ - فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ -.

وَقِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، وَاسْتِسْقَائِهِ، وَمَوَاعِدَتِهِ رَبَّهُ، وَقِيَادَتِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَشُكْوَاهُ مِنْهُمْ، وَحَدِيثُ الْبَقَرَةِ.

وَتَحْرِيمُ السَّحَرِ، وَقِصَّةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَهَارُوتَ وَمَارُوتَ.

وَالرَّدُّ عَلَى النَّصَارَى.

وَابْتِلَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَبِنَاءُ الْكَعْبَةِ، وَوَصِيَّةُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِأَوْلَادِهِ.

وَتَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ.

وَبَيَانُ الصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ وَثَوَابُهَا.

وَالْأَمْرُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَوَجُوبُ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِيهِمَا.

وَبَيَانُ حُجَّةِ التَّوْحِيدِ.

وَالْأَمْرُ بِصِيَامِ رَمَضَانَ.

وَحُكْمُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ.

وَذِكْرُ بَعْضِ أَحْكَامِ الْحَيْضِ، وَالطَّلَاقِ، وَالْأَنْكَحَةِ، وَالْعِدَّةِ.

وَذِكْرُ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْإِنْفَاقِ وَذِكْرُ أَجْرِهِ.

وَتَحْرِيمُ الرِّبَا.

وبيان المُداينات.

واستِسْلام النبي ﷺ وأصحابه لخبر الله، ونزول التخفيف في حديث النفس، والخطأ، والنسيان.
وغير ذلك.

فَضْلُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

سورة البقرة تمنع دخول الشَّيْطَانِ الْبَيْتِ، وتطرَّده إذا كان في البيت؛ لحديث: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»^(١).

والملائكة نزلت لسماعها؛ كما جاء في حديث أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، يَقُولُ: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا». وَأَنَّهُ لَمَّا حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ قَالَ لَهُ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِمُصَوَّتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَا صَبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»^(٢).

وقد أمر النبي ﷺ بتعلمها؛ فقال: «اقْرَءُوا - وفي رواية: تعلَّمُوا - سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»^(٣)، والبطلة هم: السحرة.

وَتُظَلُّ صَاحِبَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ»؛ كما في الحديث: «اقْرَءُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، مُتَحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِيَّهَا»^(٤).

والمعنى: يأتي ثوابها كأنه سحابتان تُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا عَنْ حَرِّ الْمَوْقِفِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا طَائِفَتَانِ مِنْ طَيْرٍ واقفة على الصَّفِّ، أو باسطة أجنحتها متصلاً بعضها ببعض، تُدَافِعُ وَتُجَادِلُ عَنْ أَصْحَابِيَّهَا.

(١) رواه مسلم (٧٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).

(٣) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٥٧).

(٤) رواه مسلم (٨٠٤).

وفي حديث آخر: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ»^(١).

وكان مَنْ يَحْفَظُهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ يَعْظُمُ فِي أَعْيُنِ الصَّحَابَةِ، كَمَا قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ؛ جَدَّ فِينَا - يَعْنِي عَظُمَ -»، وفي رواية: «عُدَّ فِينَا ذَا شَأْنٍ»^(٢). وربما جُعِلَ أَمِيرًا عَلَى الْبُعُوثِ بِسَبَبِ ذَلِكَ^(٣).

وفي الحديث: «مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأَوَّلَ؛ فَهُوَ حَبِيرٌ»^(٤)؛ أي: عَالِمٌ. وقد قال النبي ﷺ: «أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ الطُّوَالُ»^(٥). والسَّبْعُ الْأَوَّلُ هِيَ: السَّبْعُ الطُّوَالُ، وَهِيَ: الْبَقَرَةُ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءُ، وَالْمَائِدَةُ، وَالْأَنْعَامُ، وَالْأَعْرَافُ، وَالتَّوْبَةُ.

﴿الْعَمَّ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

﴿الْعَمَّ﴾: فِي هَذِهِ الْأَحْرُفِ الْمُقَطَّعَةِ أَقْوَالٌ عِدَّةٌ؛ مِنْهَا: أَنَّ لَهَا مَعْنَى، فَقَالُوا: أَسْمَاءٌ لِلشُّورِ، وَقَالُوا: أَسْمَاءٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ: مِفَاتِيحٌ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ، وَقَالُوا: أَقْسَامٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا. وَمِنْهَا: أَنَّ لَهَا مَعْنَى لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فَتَوَقَّفَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْأَحْرُفِ. وَقِيلَ: لَا مَعْنَى لَهَا؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِكَلِمَاتٍ، وَلَا تُقْرَأُ عَلَى حَسَبِ الْكِتَابَةِ، وَلَكِنْ عَلَى حَسَبِ اسْمِ الْحَرْفِ، فَلَا يَقَالُ «أَلَمْ»، وَإِنَّمَا يُقَالُ: «أَلَفٌ لَامٌ مِيمٌ»؛ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى. وَلَكِنْ لَهَا مَغْزَى؛ وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا تَحَدَّى الْعَرَبَ بِالْإِتْيَانِ بِوِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، وَبِهَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا مِنْ كَلَامِهِمْ، وَلَيْسَ بِحُرُوفٍ خَارِجَةٍ عَنْ نِطَاقِ الْبَشَرِ، فَلَمْ يَأْتِ الْقُرْآنُ بِجَدِيدٍ مِنَ الْحُرُوفِ، فَهَاتُوا مِثْلَهُ - يَا مَعْشَرَ كُفَّارِ الْعَرَبِ - لَكِنْ أَهْلُ اللُّغَةِ الْبُلْغَاءِ الْفُصَحَاءُ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ.

(١) رواه مسلم (٨٠٥).

(٢) رواه أحمد (١٢٢١٥، ١٢٢١٦)، وابن حبان (٧٤٤) - [إحسان].

(٣) رواه الترمذي (٢٨٧٦)، وقال: «حسن»، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٨٦٤).

(٤) رواه أحمد (٢٤٤٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٠٥).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢١٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٩).

وقوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هذا القرآن ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك. و(الرَّيْب): هو الشك المُقْلِق للنفس.

﴿فِيهِ﴾ لا ريب في مصدره، ولا في أحكامه، وأخباره، فأمنوا ولا ترتابوا.

﴿هُدًى﴾ نورٌ وَتَبَيَّنَ وهداية من الضلالة، وخروجٌ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية؛ بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، واتقوا الشُّرك وما حَرَّمَ الله.

والوقوف على قوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَوَّلَى وَأَبْلَغُ مِنَ الوقف على قوله ﴿لَا رَيْبَ﴾؛ لتكون ﴿هُدًى﴾ صفة لـ ﴿الْكِتَابُ﴾ وهو: القرآن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإشارة إلى الكتاب بأداة البعيد؛ دالَّةٌ على علُوِّ مكانة القرآن، وشرف منزلته.

وفي وصف القرآن بـ(الكتاب)، بمعنى: مكتوب؛ إشارة إلى العناية به؛ لأنَّ الله كتبه عنده في اللُّوح المحفوظ، وجعله مكتوبًا في صُحُف الملائكة، وفي المصاحف التي بأيدي الناس كذلك.

وفيها: أنَّ القرآن هدايةٌ للمتقين، وليس للكفار المعاندين، والمنافقين المرتابين؛ فإنَّ هؤلاء يكون القرآن عليهم عَمًى، وربما ازدادوا به ضلالة، فَهُمْ في ريبهم يترددون.

وفيها: أنَّ هداية القرآن تزداد بازدياد التَّقوى؛ لأنَّ الحُكم -وهو (الهداية)- إذا عُلِّقَ بَوْصُفٍ -وهو (التَّقوى)- فَإِنَّهُ يزداد بازدياده؛ ففي الآية فضيلة التَّقوى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢):

ثم ذكر تعالى صفةً عظيمةً للمتقين، وهي إيمانهم بالغيب؛ فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصدقون ويعملون ويخشون ربهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم؛ ممَّا أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وقَدَره، وجَنَّتَه، وناره، ونحو ذلك.

﴿يُتِمُّونَ الصَّلَاةَ﴾: يُتِمُّونَهَا بِشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحَبَّاتِهَا، فَرَضًا وَنَفْلًا.
﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: أَعْطَيْنَاهُمْ، وَوَهَبْنَاهُمْ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ ﴿يُنْفِقُونَ﴾: يُخْرِجُونَ النِّفَقَاتِ
المُسْتَحَبَّةَ وَالْوَاجِبَةَ، كَالزَّكَاةِ، وَالْإِنْفَاقَ عَلَى الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْلُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَدَرَجَتُهُ الْعَظِيمَةُ؛ فَإِنَّ التَّصَدِيقَ بِالْمُشَاهَدِ الْمَحْسُوسِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى
إِيمَانٍ؛ لَكُونِهِ لَا يُمْكِنُ إنْكَارُهُ، أَمَّا التَّصَدِيقُ بِمَا غَابَ: فَيَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةِ إِيمَانٍ.

وَلِذَلِكَ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِ أَصْحَابِهِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَلَمَّا سَأَلُوهُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا، أَسْلَمْنَا مَعَكَ، وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ
بَعْدِكُمْ، يُؤْمِنُونَ بِي، وَلَمْ يَرَوْني»^(١).

وَيُمْكِنُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ صَدَقَةَ الْغَاصِبِ وَالسَّارِقِ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْمَالُ
الَّذِي تَصَدَّقَ بِهِ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْإِنْفَاقَ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ مُحَدَّدٌ إِلَّا مَا عَيَّنَتْ الشَّرِيعَةُ، وَمَا لَمْ تُعَيِّنْهُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى
الْعُرْفِ، وَكَلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ كَانَ خَيْرًا وَأَطْيَبَ.

وَفِيهَا: ذَمُّ الْبَخْلِ، وَأَنَّهُ يُنَافِي التَّقْوَى.

وَفِيهَا: أَنَّ الْأَمْوَالَ وَدَائِعَ عِنْدَ بَنِي آدَمَ، يَوْشِكُ أَنْ يَدْعَوْهَا.

وَفِيهَا: أَنَّهُ لَا يَجِبُ إِنْفَاقُ كُلِّ الْمَالِ؛ لِأَجْلِ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

وَفِيهَا: مَنَعُ التَّبْذِيرِ وَالْإِسْرَافِ.

وَفِيهَا: أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ: عِبَادَةُ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٢):

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةً رَابِعَةً لِلْمُتَّقِينَ؛ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ وَيُوقِنُونَ ﴿بِمَا أُنْزِلَ

(١) رواه أحمد (١٦٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٠٧/٧).

إِلَيْكَ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ﴾ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على الأنبياء السابقين، كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وصُحُف إبراهيم، وغيرها، يؤمنون بها إيماناً مجملاً، وإن لم يعلموا تفاصيلها.

﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ سُمِّيت (الآخرة)؛ لأنها بعد الدنيا ﴿هَرِيقُونَ﴾ يؤمنون بلا ريب ولا شك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الإيمان بجميع كتب الله المنزلة، ومن فوائد ذلك: إدراك أن الله لم يترك البشرية هملًا؛ بل أنزل عليهم كتبًا، وأن البشرية لا تصلح بغير حكم إلهي، يحكم بينهم.

ومن فوائد الإيمان بما أنزل على من قبلنا: استجلاب قلوب أهل الكتاب لهذا الدين، الذي يوجب الإيمان بما أنزل على أنبيائهم.

وفي الآية مع ما سبقها: بيان أن كل صفة من صفات المتقين المذكورة تستلزم الأخرى، وشرط معها؛ فلا يصح الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا مع الإيمان بما أنزل على النبي ﷺ، وعلى الرسل من قبله، مع اليقين بالآخرة.

وفيها: فضيلة للذين يدخلون في الإسلام من أهل الكتاب، ويؤمنون بما أنزل إلينا، وما أنزل إليهم، فيؤتون أجرهم مرتين.

وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَذَرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ، وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»^(١).

وفيها: فضيلة وشرف لكل مؤمن عربي وعجمي، وإنسي وجني.

وفيها: أن عدم معرفة تفاصيل كتب الله السابقة لا يمنع من الإيمان بها.

وقد قال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿عَٰمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الْآيَةَ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٥٤٢).

وَيُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، أَوْ يُقْسِرُونَهُ بِغَيْرِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ، وَيُخْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ: لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

ثم بيّن تعالى جزاء مَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الْخَمْسِ الْمُتَقَدِّمَةِ؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ وهذه إشارة إلى البعيد؛ وذلك لِغُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ ﴿عَلَى هُدًى﴾ على عِلْمٍ ونور وبصيرة وتوفيق ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بيان مصدر الهدى، وأنه مِنْ تَسْدِيدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وتوفيقه لهم.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. و(الفلاح): هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْهُدَى الْحَقِيقِيَّ مِنَ اللَّهِ، لَا مِنْ غَيْرِهِ.

وفيها: أَنَّ الْوَسِيلَةَ لِنَيْلِ الْفَلَاحِ هُوَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ.

والتعبير بـ ﴿عَلَى﴾ الذي فيه معنى الاستعلاء والفوقية: يُبَيِّنُ تَمَكُّنَ هَؤُلَاءِ مِنَ الطَّرِيقِ الذي يسرون عليه، وهو طريق الهدى الواضح المستقيم، وهذا يدلُّ على سلامة منهجهم. وفيها: حَضْرُ الْفَلَاحِ فِيمَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وفي الشَّاءِ عَلَيْهِمْ إِظْهَارُ لَقْدَرِهِمْ، وترغيبٌ للاقتداء بهم.

وفيها: أَنَّ غَيْرَ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَيْسُوا عَلَى هُدًى، ولا ينالون الفلاح.

وفيها: أَنَّ الْفَلَاحَ غَايَةٌ، والاعتقاد الصحيح والعمل الصالح وسيلة للفوز به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

وبعد أن بيّن تعالى حال المتقين المؤمنين، ذَكَرَ مَا يَقَابِلُهُمْ - وهم الكفار - فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما يجب الإيمان به، وغطّوا الحقَّ وجحدوه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يستوي الأمر عندهم ﴿أَنْ تُنذَرْتَهُمْ﴾ عذاب الله ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ ذلك. و(الإنذار): هو الإعلام المقرون بالتحذيف.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك، ولا بما أُنزل عليك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عناية الله بنبيه ﷺ، وتخفيفه عنه وتسليته؛ حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات، ولا يهلك ويحزن من أجلهم، ولا يغتم إذا رآهم مُصِرِّين على الكفر.

وفيها: أنَّ الدَّاعية إلى الله إذا بَلَغَ الحَقَّ، وقام بما يجب عليه من البيان والإنكار؛ فإنَّه لا يضرُّه إصرار مَنْ أَصَرَ على الباطل.

وفيها: أنَّ الدَّاعية مُكَلَّفٌ بالبيان والدَّعوة، لا بالتأجج وهداية قُلُوب الخَلْق.

وفيها: أنَّ مَنْ كَتَبَ الله عليه الشقاء فلا فائدة تُرجى من إنذاره.

وليس في الآية تيثيس الدُّعاة، ولا أمر بترك الدَّعوة؛ بل عليهم القيام بالواجب الشرعي في ذلك، فإذا أَصَرَ المدعوُّون على الباطل: تولَّوا عنهم، ووكلُوا أمرهم إلى الله.

ويؤخذ من الآية: أنَّ مَنْ لا يشعر بالخوف عند الموعظة، فيه شَبَهٌ مِنَ الكُفَّارِ مِنْ هذا الوجه.

وفيها: أنَّ النبي ﷺ وغيره لا يعلمون ما هو مكتوبٌ على مَنْ يدعونهم، من الشقاوة والسعادة.

وليس معنى الآية: تَرَكَ دعوة الكفار؛ فإنَّه من فوائد دعوتهم إقامة الحُجَّة وبيان الحَقِّ، وأجر الدَّاعية في الصَّبْر على دعوتهم، وعلى الاقتداء بالأنبياء في ذلك - كنوح عَلَيْهِ السَّلَام - ثم قد تكون هداية هؤلاء تدريجيَّة؛ فيتأثرون شيئاً فشيئاً، ثم يُسلمون.

وقد تأخر إسلام عددٍ مِنَ الكُفَّارِ المُصِرِّين على الكفر في عهد النبي ﷺ.

ثم إنَّ الدَّاعية لا يَعْلَم ما جرى في عِلْم الله السابق، ولا ما هو مكتوب على هؤلاء مِنَ الهداية أو عدمها؛ ولذلك فهو يقوم بالدَّعوة ويستمرُّ عليها، فإذا أَصَرَ المدعوُّون على الباطل وعاندوا: تولَّى عنهم، واشتغل بغيرهم.

وفيها: تزويد الدَّاعية بما يحتاج إليه من معرفة أحوال المدعوِّين عند مواجهتهم.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧):

ثم بيّن تعالى سبب إعراض المعرضين وعناد المعاندين من الكافرين؛ فإنهم لما زاغوا وأعرضوا ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أي: طبع ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ فلا يدخل إليها خير، ولا يخرج منها خير. ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ختم عليها أيضًا؛ فلا تستمع خيرًا تنتفع به.

والوقف هنا تام؛ لتمام المعنى في الجملة السابقة.

ثم بدأ جملة جديدة: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ﴾ أي: غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ فهم لا يرونه نتيجة ظلمات الكفر التي يعيشون فيها.

﴿وَلَهُمْ﴾ هؤلاء الكفار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأنه لا عذاب أشد منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورة الختم على القلب، والطبع عليه، وأنه أخطر من الران الحاصل بتراكم الذنوب، فإذا طبع عليه صار لا يعقل الحق ولا يقبله، والقلب ملك الأعضاء، وهي جنوده، وتبع له. وهؤلاء استحقوا الطبع على قلوبهم؛ لإعراضهم وتكبرهم على الحق لما دُعوا إليه، وهذا جزاء الله العادل فيهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فقلوبها؛ لأنهم لم يؤمنوا بالحق أول مرة لما عرض عليهم.

وفيها: خطر الذنوب؛ فإنها إذا تابعت على القلب أغلقته، فإذا أغلقته أتاها الطبع والختم من الله تعالى، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا طريق.

وفيها: شرف السمع؛ ولذلك قدّمه على البصر، وهو من أحوج الحواس للتعلم.

وفيها: خطر القلب، وقد سُمّي (قلبا) من تقلبه، والختم إحدى العقوبات الواقعة عليه إذا تبع هواه، فلا يعقل الحق ولا يقبله، وإذا قسا القلب وعلاه الران صار قلبا منكرا للحق.

وفيها: خطر حية الجاهلية والنفاق؛ فمن ابتلي به يصرفه الله عن الحق، ويزيغه، ويحول بينه وبين صاحبه، ويطبع عليه بختم لا ينفك، فيموت القلب حينئذ -نسأل الله السلامة-.

وهذا الختم عليه بسبب كفرهم، كما قال تعالى ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

[١٥٥]، وكما قال في الآية الأخرى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّثَاتِهِمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، فلم يكن الختم من الله عليها بلا سبب منهم.

وفيها: ذُكر العذاب العاجل - وهو ختمه والغشاوة - وذُكر العذاب الآجل - وهو عذاب النار العظيم -.

وفيها: أَنَّ عُقُوبَةَ اللَّهِ لِلْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا شَامِلَةٌ؛ فَعَطَّلَ عَلَيْهِمْ مَرْكَزَ الْإِنْتِفَاعِ وَآلَاتِهِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨):

ولمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَّ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُمُ الْكَفَّارَ الْخُلَصَّ، ثَلَّثَ بِذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ وَافَقُوا فِي الظَّاهِرِ الطَّائِفَةَ الْأُولَى، وَفِي الْبَاطِنِ الطَّائِفَةَ الثَّانِيَةَ؛ وَلِأَجْلِ خِفَاءِ أَمْرِهِمْ، زَادَتْ الْآيَاتُ فِي وَصْفِهِمْ.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أربع آياتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثُ عَشْرَةٍ فِي الْمُنَافِقِينَ»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: بعض الناس، وأصلها «الأناس» مِنْ «الأنس»؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَأْنَسُ بَعْضًا وَيَرْكُنُ إِلَيْهِ، وَيَجْبُونَ الْاجْتِمَاعَ.

﴿مَنْ يَقُولُ﴾ بِلِسَانِهِ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ﴾ صَدَّقْنَا وَأَيَّقْنَا، وَلَكِنَّهُمْ كَاذِبُونَ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ نَفَى اللَّهُ عَنْهُمْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ، فَقَالَ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنبيه على خطر المنافقين، وفَضَحِهِمْ، ووصفهم؛ لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

وقد كان ذِكْرُهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْمَدَنِيِّ مُبَكَّرًا جَدًّا؛ فَإِنَّ سُورَةَ «الْبَقَرَةِ» مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَهَذَا أَعْوَنُ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَاِكْتِشَافِهِمْ مُبَكَّرًا لِلْحَذَرِ مِنْهُمْ.

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٩).

والنفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، ومنه اعتقادي يُخَلَّدُ صاحبه في النار لكُفْرِهِ، ومنه ما هو عملي من كبائر الذنوب.

قال ابن جرير: «المنافق يُخَالِفُ قَوْلَهُ فِعْلَهُ، وَسِرُّهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمُدْخَلُهُ مَخْرَجُهُ، وَمَشْهُدُهُ مَغْيِبُهُ»^(١).

وقد ذَكَرَ المنافقون في السُّورِ المدنية؛ لأنَّه لم يكن بمكة نفاق؛ فالمؤمنون كانوا فيها مستضعفين، والنفاق يوجد عادة في مكان قوَّة المسلمين.

فلَمَّا تَمَّتْ الهجرة النبويَّة، وانتصر المسلمون في بدر، وأظهر الله كلمته وأعلى الإسلام وأهله؛ أظهر عبدُ الله بنُ أبيٍّ -رأس المنافقين- الدُّخُولَ في الإسلام، وأبطن الكُفْرَ، وصار معه عدد من أهل المدينة والأعراب على طريقتِهِ؛ لحفظ دمائهم وأموالهم، ولذلك لم يكن في المهاجرين منافقٌ واحدٌ.

وفي الآية مع ما سبقها وما يليها من فوائد:

حُسْنُ التَّقْسِيمِ في عرض أحوال الناس، وذكُر أنواعهم؛ لمعرفة كيف يكون التعامل معهم.

وفيها: أنَّ القول باللسان وحده دون اعتقادٍ بالقلب لا ينفع الإنسان، وأنَّ الإسلام الحقيقي: هو استسلام الظاهر والباطن، وإسلام القلب والبدن.

وفيها: أنَّ المنافقين يُظهِرون الإيمان عند الناس، فإذا خلا بعضهم ببعض صار له شأنٌ آخر.

وفيها: لُطْفُ الله بالمؤمنين في كشف عدوِّهم.

وفيها: نفى الإيمان بالجملة الاسميَّة في قوله ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، مع الإخبار عن ادِّعائهم الإيمان بالجملة الفعلية: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِينَا الْآخِرُ﴾؛ لأنَّ النفي بالجملة الاسميَّة أقوى وأبلغ.

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٠).

وفي هذا تأكيدُ تكذيبهم، وعُمومه يشمل نفْيَ إيمانهم بكلِّ ما يجب الإيمان به.
وفيها: ردُّ على بعض المبتدعة، الَّذِينَ يقولون: إِنَّ الإيمان قول باللسان فقط.
وفيها: أَنَّ القول والفعل لا يكفيان للإيمان؛ بل لا بُدَّ من الأساس، وهو إيمان القلب.
وهذا معنى قول العلماء: الإيمان مُرَكَّبٌ من قول القلب (وهو التصديق الجازم)، وعمل القلب (من الخوف والرجاء والمحبة ونحوها)، وقول اللسان (وهو النطق بالشهادتين)، وعمل الجوارح (كإقامة الصَّلاة وغيرها).

﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١):

ثم قال تعالى في وَصْفِ حال المنافقين: ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ﴾ بإظهار الإسلام وإبطان الكُفر، ويظنون أَنَّ هذا ينفعهم عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يُخَادِعُونَ بذلك أيضاً، تَقِيَّةً؛ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّيِّئِ وَالْعَذَابِ العاجل بأيدي المؤمنين، ولكي يعصموا دماءهم وأموالهم.

﴿وَمَا يُخَذِّعُونَ﴾ في حقيقة الأمر ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُمْ يَضُرُّونَهَا وَيُورِدُونَهَا الْعَذَابَ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لَا يَفْطِنُونَ، وَلَا يُحْسِنُونَ بِأَنَّ الضَّرَرَ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيُفْضِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

وقد صحَّ عن قتادة قوله: «نَعْتُ الْمُنَافِقَ: خَنِيعَ الْأَخْلَاقِ، يُصَدِّقُ بِلِسَانِهِ، وَيُنْكِرُ بَقَلْبِهِ، وَيُخَالِفُ بِعَمَلِهِ، وَيُصْبِحُ عَلَى حَالٍ وَيُمْسِي عَلَى غَيْرِهِ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْبِحُ عَلَى غَيْرِهِ، يَتَكَفَّأُ تَكَفُّوَ السَّفِينَةِ، كُلَّمَا هَبَّتْ رِيحٌ هَبَّ مَعَهَا»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَهْلَ مَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

وفيها: أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِنِفَاقِهِمْ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/٤٣).

وفيها: تنبيه المؤمنين بضرورة الحذر من المنافقين، وعدم الاغترار بمخادعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وأن الحذر منهم يكون بتتبع أقوالهم وأفعالهم، وموازنتها من حيث التطابق، والتناقض، والانتباه لسقطاتهم، وما يزلُّون به في لحن القول؛ لأن الله أمر بذلك؛ بقوله: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾، ولأن في كشفهم فائدة عظيمة للإسلام والمسلمين. وفيها: أن المكر السيئ لا يحق إلا بأهله؛ فإن مخادعتهم هذه رجعت عليهم.

وفيها: أن النفاق يُعمي البصيرة، فلا يشعر صاحبه أنه يضُرُّ بنفسه من حيث يظن أنه ينفعها. وفيها: جهل المنافقين برُبِّهم؛ لأنهم لو قدروه حقَّ قدره لعلموا أن الخير بالبوطن والنيات لا يمكن أن يُخدع.

واستعمال صيغة المفاعلة في قوله ﴿يُخَادِعُونَ﴾ يقتضي: الاشتراك في حصول الفعل من الطرفين، وهذا معناه: أن الله يُخدع المنافقين. وسيأتي ذكر خداعه لهم - إن شاء الله -.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠):

قوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: هذا الوصف يدلُّ على تمكُّن المرض من قُلُوبِهِمْ واستقراره فيها، وليس المقصود مرض الأجساد؛ وإنما هو مرض مُركَّب من الشبهة والشهوة، وهو شك، ورياء، وجحود، ونفاق.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾: لما أرادوا الكُفْرَ عاقبهم بزيادة مرضهم، وزيادتهم رجسًا إلى رجسهم، وشرًا إلى شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُوجِعٌ شديدٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب كذبهم فيما يدَّعون من الإسلام، وتكذيبهم لله ولرسوله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن سبب إضلال الله للعبد هو من العبد نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكما قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الحق ﴿فَاعَلَمْنَا أَنَّهُمْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وفي المُقَابِل: فَإِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا وَهُدًى بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وفيها: أَنَّ الْكُفْرَ وَالنِّفَاقَ وَالْفُسُوقَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. وفيها: أَنَّ الْعُقُوبَاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِأَسْبَابٍ، وَلَا يُعَذَّبُ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبٍ وَسَبَبٍ؛ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وفيها: خَطُورَةُ الْكَذِبِ، وَالتَّكْذِيبِ لِلْحَقِّ، وَأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. وفيها: أَنَّ مَرَضَ النِّفَاقِ يُضْعِفُ الدِّينَ؛ كَمَا يُضْعِفُ الْمَرَضُ الْبَدَنَ. وفيها: جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾: أَنَّهُ دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ.

وفيها: أَنَّ كَذِبَ الْمُنَافِقِينَ مُتَجَدِّدٌ وَمُسْتَمِرٌّ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿كَانُوا﴾. وفيها: أَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ تَنَالَمَ نَفْسُهُ بِسَبَبِ نِفَاقِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ ﴿مَرَضًا﴾، وَهَذَا مِنْ عَاجِلِ الْعَذَابِ لَهُ فِي الدُّنْيَا.

وفيها: أَهْمِيَّةُ اعْتِنَاءِ الْمُؤْمِنِ بِقَلْبِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ عَارِفًا بِالْحَقِّ، مُرِيدًا لَهُ، مُحِبًّا لَهُ، وَعَامِلًا بِهِ. وفيها: أَنَّ مَرَضَ الْمُنَافِقِينَ يَتَجَدَّدُ وَيَزْدَادُ كُلَّمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ النِّعَمِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢):

قَوْلُهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الْقَائِلُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ النَّاصِحُونَ الْعَارِفُونَ بِهِمْ. ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ وَمَوْلَاةِ الْكُفَّارِ، وَإِفْشَاءِ أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَنْفِيرِ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ، وَعَمَلِ الْمَعَاصِي فِي الْأَرْضِ، وَإِفْسَادِ أَهْلِهَا.

﴿قَالُوا﴾ فِي رَدِّ التَّهْمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَي: لَيْسَ حَالُنَا إِلَّا

الإصلاح، وليس فينا فساد ولا إفساد إطلاقاً، وما غرضنا إلا التقريب، وإزالة الخلاف بين
الفرقاء المتخاصمين من المؤمنين وأهل الكتاب وغيرهم، فنُدَارِي الفريقين!
ودَعَوَاهُمْ هذه تشتمل على الكذب من جهة، وعلى أن بعض ما يظنونهُ إصلاحاً هو عينُ
الفساد - من جهة أخرى -.

وجوابهم هذا هو من دعاواهم الكاذبة الكثيرة؛ كقولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا
وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

ولذلك كَذَّبَهُم الله وردَّ دعاوَاهُمْ، بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾؛ فكان الفسادُ
مُنْحَصِرٌ فيهم؛ لِشِدَّةِ ضررهم. أو لَأَنَّهُ لا فسادَ أعظم من فسادهم، فقد فاقوا كُلَّ المُفْسِدِينَ.
﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جهلهم وبِلادتهم، وَغَلِظَ حجاب قُلُوبِهِمْ، وانطَاس بصائرهم،
لا يشعرون بفسادهم، مع أن الفساد أَمْرٌ حِسِّيٌّ يُدْرِكُ بالشعور والإحساس.

وفي الآيتين من الفوائد:

أن التفاق من أعظم الفساد في الأرض.

وفيها: أن من البلايا العظيمة: أن يُزَيَّنَ للإنسان سوءُ عمله فيراه حسناً.

وفيها: خطورة انقلاب الأفهام، بحيث يظنُّ المُفْسِدُ أَنَّهُ مُصْلِحٌ.

وفيها: قَصْرُ نظر المنافقين، وأنهم لا يُدْرِكُونَ الأبعاد الحقيقية للأمور.

وفيها: أن من سياسة المنافقين وتلبسهم وخداعهم: ادِّعَاءُ الإصلاح، والتظاهرُ
برفع لوائه ورايته؛ فقد يُقَرَّرُونَ وَيُنْفَذُونَ أموراً، في العمل بها إفسادٌ للدين والأخلاق،
وإشاعةُ الفاحشة بين الناس، وإيقاعُ العداوة والبغضاء بينهم، وحصولُ الفساد الإداري
والاجتماعي والنفسي.

وفيها: أَنَّهُ ليس كُلُّ مَنْ ادَّعى شيئاً يُصَدَّقُ في دَعَوَاهُ.

وفيها: أهمية الردِّ على أهل الباطل، وكشف حقيقة ما هم عليه، وتبيين كذبهم، وقوَّة الردِّ
عليهم؛ كما يتضح في المؤكِّدات المتعددة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

وَيُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّهُ لَا صَلَاحَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ.

وفيها: توعية المؤمنين بعدم الانخداع لدعاوى المنافقين العريضة، والجميلة في الظاهر.

وفيها: أَنَّ المنافقين قد لا يشعرون بانفضاح أمرهم، وانكشاف حالهم عند المؤمنين.

وفيها: أَنَّ أهل الباطل يُسَمُّونَ الأشياءَ القبيحةَ بالأسماءَ الحسنة؛ لنشر الفساد وترويجه بين الناس، كما يُسَمُّونَ الشُّرَكَ تَوْسَلًا، والرُّبَا فَوَائِدَ، والغِنَاءَ المحرَّم فَنَاءً، والمسكرات مشروبات روحية، والرُّشُوةَ حلاوة وإكراميةً، والتَّبَرُّجَ والاختلاط المحرَّم نُحْرَرًا، وفِعْلَ المُنْكَرَاتِ حُرَيَّاتٍ شخصية!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣):

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ۖ نُصَحَّا وَمَوْعَظَةٌ ۖ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر وقدره، الذين صدَّقوا بالوحي، وأطاعوا وامتثلوا.

﴿قَالُوا﴾ في ردِّ الناصحين: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ الاستِفْهَامُ للنفي والتحقير، والمعنى: لا نُؤْمِنُ ﴿كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون -لعنهم الله- أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمع «سفيه»، وهو: الجاهل بلا رُشد ولا عقل، الذي لا يميِّز بين المصلحة والمفسدة، ضعيف الرأي، قليل المعرفة.

قَرَّدَ اللَّهُ عليهم، بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ تأكيدًا وحصرًا للسفاهة فيهم ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ من تمام جهلهم وعماهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ المنافقين لا تنفعهم دعوة الخير غالبًا، وأنَّ إعجابهم بباطلهم يدعوهم إلى رفض الحق.

وفيها: تنبيه المؤمنين على عدم التأثر بالدعايات الباطلة التي يُطلقها المنافقون.

وفيها: دفاع الله عن الصَّحابة والمؤمنين.

وفيها: إثبات جهل المنافقين.

وفيها: عناية الله بالمؤمنين؛ حيث أطلعهم على ما يقول المنافقون في الخفاء.

وفيها: أن كل صاحب باطل لا يُدرك بطلان ما هو عليه؛ فهو سفيه.

وفيها: أن من طريقة أهل الباطل رمي المؤمنين الصادقين بالصفات السيئة؛ لتشتيت همهم، وتنفير الناس عنهم، ومهاجمتهم بتشويه سمعتهم؛ لإشغالهم عن فضح المنافقين، والتصدّي لهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالى في فضح المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قابلوهم أو جلسوا إليهم؛ ﴿قَالُوا﴾ أي: قال المنافقون للمؤمنين: ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم، وصدقنا، فأظهروا لهم الموالاة والمتابعة نفاقاً وتقيّة، وليعصموا دماءهم، ويشاركوا المؤمنين في الغنائم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ انصرفوا، وانفردوا بسادتهم وكبرائهم، وقادة الشرّ والشرك المتعاونين معهم، من اليهود والمشركين. و(الشياطين): جمع «شيطان»، وهو المتمرد العاقي البعيد عن الخير، ويكون من الجن والإنس.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على الكفر وحرب المسلمين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نُظهِرُ مَا نُظْهِرُهُ؛ سخرية وخديعة ولعباً بالمؤمنين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ ذلّ المنافقين وخوفهم، وطمعهم في الدنيا، هو الذي يحملهم على النفاق.

وفيها: أن كل من استعمل التقيّة وتسترّ بغير حق؛ فهو ذليل.

وفيها: تعاون المنافقين مع بقيّة أعداء الإسلام من الكافرين، واشتراكهم في المكر والحرب على الإسلام.

وفيها: حِرْصُ المنافقين على طَمَأْنَةِ الكُفَّارِ أَنَّهُمْ تَبِعَ لَهُمْ، وَأَنَّ تَظَاهُرَهُمْ بِالْإِيْمَانِ مَزِيْفٌ، وفي هذا: تحقيقُ مُوَالَاةِ المنافقين للكافرين.

وفيها: فضيحةُ الله للمنافقين؛ بكشف ما يقولونه في الخلوة والسر.

وفيها من بلاغة القرآن: استعمالُ الجملة الفعلية عند ذكر إيمانهم، وهي أضعف من الجملة الاسمية في التقرير والإثبات؛ حيث إن إيمان المنافقين مزيفٌ، بينما استعمل الجملة الاسمية في قوله ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لتقرير مُوَالَاةِ المنافقين للكُفَّارِ، وإثبات استهزائهم بالمؤمنين.

وفيها: خطورة الاستهزاء بالمؤمنين، وأنه من صفات أهل النفاق والسخرية واللَّعِبِ. ومن أنواع الكُفْرِ المُخْرَجَةِ عَنِ الْمِلَّةِ: الاستهزاء بالله، أو برسوله، أو بشيء من دينه، أو بعباده المؤمنين لأجل إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَعَآيِنِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُحُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

ثم قال تعالى في مجازاتهم على صنيعهم: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يسخر بهم؛ للانتقام منهم، واستهزاء الله بالمنافقين صفة كمال لا صفة نقص؛ لأنها على سبيل الانتقام والمُقابَلَةِ بِالْعَدْلِ والمجازاة، وليست لَعِبًا وَعَبَثًا.

﴿وَيَمْدُحُهُمْ﴾ يزيدهم استدراجًا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ (الطُغْيَانُ): مجاوزة الحدِّ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتهادون في ضلالتهم، ويترددون حيارى في كُفْرِهِمْ، لَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا، ولا يهتدون سبيلًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مُقَابَلَةَ الاستهزاء بِمِثْلِهِ في المجازاة والمعاقبة هو كمالٌ، وليس نقصًا، وكذلك يُقال في المكر، والخديعة، والكيد، والسخرية.

وفيها: أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما يستهزئون بعباد الله المؤمنين فإن الله يستهزئ بهم، وهذا يدل على علو شأن المؤمنين، وعظم قدرهم عند ربهم؛ حيث إن الله يستهزئ بأعدائهم.

وفيها: أن الله يملي للظالم؛ ليأخذه أخذاً أليماً.

وفيها: أن من الناس من يحدث الله لهم نعمة كلما أحدثوا ذنباً؛ لتكون نعمة عليهم.

وفيها: التحذير من الاغترار بالنعم؛ لأنها قد تكون استدراجاً لمزيد من الطغيان، وإذا كان الشخص مستقيماً كانت زيادة الله له في النعم وتواليها عليه خيراً، وجزاء في الدنيا قبل الآخرة، وإذا كان مقيماً على معصية الله كان توالي النعم استدراجاً ونقمة.

وفيها: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، ويحجبه طغيانه عن معرفة الحق.

وفي التعبير عن الاستهزاء بالفعل المضارع ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾: إفادة لتكراره وتجدد حدوثه، وفي هذا زيادة عقوبة وإيلاء لهؤلاء المنافقين.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ بِحَرَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦):

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المنافقون ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا﴾ اختاروا واستحبوا ﴿الضَّلَالَةَ﴾ العمى والكفر ﴿بِالْهُدَىٰ﴾: بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، فأخذوا الضلالة واستحبوها، وتركوا الهدى وعدلوا عنه.

فإن قيل: وكيف اشترى هؤلاء القوم الضلالة بالهدى، مع أنهم إنما كانوا منافقين، ولم يتقدم نفاقهم إيمان، فيقال فيهم: باعوا هداهم الذي كانوا عليه بضلاتهم، حتى استبدلوا منه؟

فالجواب: أن المراد هنا: أنهم أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى؛ وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كُفراً، باكتسابه الكفر الذي وجد منه، بدلاً من الإيمان الذي أمر به، وهذا هو معنى الشراء؛ لأن كل مشتري شيئاً فإنما يستبدل مكان الذي يؤخذ منه - من البذل - آخر بديلاً منه.

فكذلك المنافق والكافر، استبدلا بالهدى الضلالة والنفاق، فأضلَّها الله، وسلبها نور الهدى، فتركهم جميعاً في ظلمات لا يبصرون.

﴿فَمَارِجَتْ يَجْرَتْهُمْ﴾: ما زادت، ولا نجحت صفقتهم في هذه البيعة.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: ليسوا براشدين في صنيعهم؛ بل هم خاسرون في تجارتهم. ويدخل في هذا: المنافقون الذين حصل لهم الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكفر، وكذلك الذين استمروا في الضلالة واستحبوها على الهدى، ولم يدخلوا في الإيمان أصلاً، بل تظاهروا به نفاقاً.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان سَفَه المنافقين بتقديمهم الضلالة على الهدى، ومن السَفَه أن يدفع الإنسان الثمن النفيس ليقبض ويأخذ سلعة رديئة!

وفيها: سَعَف المنافقين بالضلالة وتعلقهم بها؛ فَإِنَّ المشتري في العادة شغوف بالسلعة محب لها، وقد مثلت الآيات حالهم بتجارة فيها بيع وشراء، وثمن مدفوع وسلعة مقبوضة. والباء في قوله ﴿يَالْهُدَى﴾ هي باء الثمن والعوض، فالهدى مبدول مدفوع، وهذا يدل على كُرْهِهم له، والضلالة عندهم مرغوبة مطلوبة.

وفيها: أَنَّ المنافقين يظنون أَنفسهم رابحين بهذه الصفقة، والتاجر يرجو الربح من وراء تجارته، بينما هم في الحقيقة خاسرون أشدَّ الخسارة!

وفيها: بيان أَنَّ الهدى هو الربح الحقيقي، فالمهتدي رابح، ومن خالفه خاسر، وبما أَنَّ التجارة فيها ثلاثة احتمالات: أن يربح التاجر، أو يخسر، أو لا يربح ولا يخسر؛ فَإِنَّه بَيَّن هنا أنهم لم يربحوا بقوله: ﴿فَمَارِجَتْ يَجْرَتْهُمْ﴾، وأكد خسارتهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

(١) تفسير الطبري (٣١٧/١)

ورأس المال الذي خسروه في تجارتهم: الفطرة التي كانوا عليها قبل النفاق، والعقل الذي أوتوه.

وقيل: الأعمال الظاهرة، كالصلاة، والشهادتين اللتين دخلوا بها الإسلام في الظاهر، أو الإيمان الذي بدعوا به إذا كانوا ممن أسلم ثم ارتد.

وفيها: ضرب المثل بما يفهمه الناس ويتعاملون به، ويقبلون عليه ويرغبون فيه، وهو هنا البيع والشراء، والتجارة والربح.

وفي الإشارة إلى المنافقين باسم الإشارة المستعمل للبعد ﴿أُولَئِكَ﴾: تنبيه على شدة دونيتهم، والبعد عنهم، والبراءة منهم.

وفيها: أن المنافقين لا يهتدون غالباً.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧):

ثم ذكر تعالى مثلاً نارياً للمنافقين؛ فقال: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وصفهم وحالهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ طلب والتمس إيقادها في أرض موحشة مظلمة، وهو خائف مما فيها.

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ وأنارت؛ انتفع بها، وأنس واطمأن برؤية ما حوله؛ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وأطفأ ما يستفاد منها، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ شديدة في سواد الليل، ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ مما حولهم شيئاً.

فشبه الله تعالى المنافقين في محبتهم للضلال، وتقديمه على الهدى، وكفرهم بعد إيمانهم، بالذي استوقد ناراً، فاستفاد منها، وأنارت طريقه، فهذا مثل المنافق في حال إيمانه قبل أن يكفر. فلما كفر في الباطن، وبقي على الإسلام في الظاهر؛ ذهب النور، وبقي في ظلمات الشك والكفر والنفاق، لا يبصر حقاً، ولا يهتدي سبيلاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثل ضربه الله للمنافقين، أنهم كانوا يعتزّون بالإسلام (يعني: يتظاهرون بذلك)، فيناكحهم المسلمون، ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفیء، فلما

ماتوا سلبهم الله ذلك العِزَّ، كما سلب صاحب النار ضوؤه، ﴿وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلُمْتٍ﴾ أي: في عذاب^(١).

وقال الحسن رحمه الله: «فذلك حين يموت المنافق، فيُظلم عليه عمله - عملُ السوء - فلا يجد له عملاً من خيرٍ عمل به، يُصدّق به قول (لا إله إلا هو)»^(٢).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أنه قال: «ضرب الله مثلاً للمنافقين، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ أي: يُبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفأوه بكفرهم ونفاقهم فيه، ﴿وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلُمْتٍ﴾: الكفر؛ فهم ﴿لَا يَبْصِرُونَ﴾ هدى ولا يستقيمون على حق»^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

بلاغة القرآن بضرب الأمثال، للتفهم وترسيخ المعاني.

وفيها: أن المنافق الذي كان مؤمناً ثم ارتد؛ قد ذهب نفاقه بأثر إيمانه ومحاه، فلم يعد لتلك المدة من حياته الأولى فائدة وأثر بعد الردّة والنفاق.

وفيها: أن المنافقين يندسّون بين المؤمنين ويظهرون الإسلام لمغانم الدنيا، وليدرءوا عن أنفسهم العذاب فيها، وأن الموت يُذهب تلك العِزة والمصالح، ويرُدُّهم إلى عذاب أشنع ممّا فروا منه في الدنيا.

وفيها: أن المنافقين لا يستفيدون شيئاً من ضوء الوحي، ونور نصوص الشريعة، وإذا حضروا مجلساً يرشدهم ويهديهم أذهبوا كلَّ فائدة فيه بكفرهم ونفاقهم.

وفيها: أن معرفة الحق لا تُغني شيئاً إذا لم يحصل الإذعان والطاعة والاتباع والامتثال.

وفيها: معاناة المنافقين وتألمهم في الدنيا والآخرة، ولذلك قال الله في الآية: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ سُنُورَهُمْ﴾ ولم يقل: (بنارهم)، فأخذ الفائدة وترك لهم الإحراق.

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢١)

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩)

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣١٢)

وفيها: عذابهم أيضًا بالخير، وأن نفوسهم في ظلمات وليس في ظلمة واحدة.
 وفيها: أن طريق الحق واحد، كما ذكره بصيغة المفرد في قوله: ﴿يُؤْتِيهِم﴾، والباطل سُبُل كثيرة ومختلفة، كما ذكره بصيغة الجمع في قوله: ﴿ظَلَمْتُمْ﴾.
 وفيها: تحلى الله عن المنافقين، وحرمانهم من مَعِيَّتِهِ وبركته وتأيدته، كما يدل عليه قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، ومن تحلى الله عنه حُرْم التوفيق والعودة إلى الحق.
 وفيها: أن المنافقين - وإن أوقدوا نار الفتنة بين المؤمنين -؛ فإن الله يُطفئها ولو بعد حين، كما فهم بعضهم من هذه الآية.
 وفيها: أن المنافقين لا يستفيدون من مخالطة الصالحين؛ بل إن نفاقهم يمنعهم من التأثير.

قال مجاهد رحمه الله في قوله ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: «أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى»^(١).

وفيها: أن المنافقين قد يميزون بين الحلال والحرام، والخير والشر، ويعرفون هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾، لكن هذا العلم لا يُفيدهم.
 وفيها: أن الله ينتزع الفضل ممن لا يستحقه، كما قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.
 وفيها: أن قول المنافقين في الدنيا: لا إله إلا الله، لها إضاءة وفائدة، ويأمن بها على نفسه بين المؤمنين، لكن يُسلبها عند الموت؛ لأنها لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله؛ ولذلك فإن نور الشهادة بالنسبة للمنافق ليس أصلياً داخلياً؛ وإنما هو ظاهري خارجي، كما دل عليه قوله: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾، فالضوء عارض والظلمة أصلية؛ ولذلك ذهب النور، ولو كان أصلياً لَمَا ذهب ولَبَقِيَ بُضِيء.

وفيها: أن الذي يعرف الحق ثم يتركه، أسوأ من الذي لم يعرفه أصلاً، كما أن انطفاء الضوء بعد حصوله أسوأ أثراً على النفس مما لو كانت معتادة على الظلمة.

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢٣)

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ١٨ :

ثم وصف الله هؤلاء المنافقين بقوله: ﴿صُمٌّ﴾ عن الحق، لا يسمعون سماع قبول واستجابة.

﴿بُكْمٌ﴾: لا ينطقون بالحق؛ لكرهيتهم له، وعدم إقرارهم به.

﴿عُمَىٰ﴾: لا يرونه رؤية بصيرة وانتفاع.

فهؤلاء المنافقين يملكون الحواس، لكنهم لا يستفيعون بها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٦٢].

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن غيبتهم، ولا يرجعون إلى الإسلام والحق، ولا يتوبون، ولا هم يذكرّون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عدم انتفاع المنافقين بما وهبهم الله من الحواس.

وفيها: أن عمى القلب والبصيرة أشد من عمى البصر، وأن المنافقين لا يرجعون عن الباطل؛ لاستحسانهم له.

وفيها: جواز نفي الشيء لانتفاء الانتفاع به.

وفيها: أن من اتصف بهذه الصفات في الدنيا؛ عوقب في الآخرة بعقوبة من جنسها، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وفيها: أن رجوع من ترك الحق بعد معرفته، أبعد من رجوع من لم يعرفه أصلاً.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَ إِذَا نَهُم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَدَرَتِ أَلْمُوتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ١٩ يكاد البرق يخطف أبصرهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصرهم إنا لله على كل شيء قدير ﴿٢٠﴾ :

ثم ضرب تعالى مثلاً آخر مائياً للمنافقين في خيبتهم وترددهم وشكهم واضطراب قلوبهم، وهم صنف آخر يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى.

فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أي: صفتهم وحالهم في التردّد والحيرة كحال أصحاب صَيِّب.
 و(الصَيِّب): هو المطر، وكان النبي ﷺ إذا رأى المَطَرَ قال: «اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا»^(١).
 ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العُلُوّ نازل ومنحدر، ﴿فِيهِ ظُلُمْتُ﴾: ظلمة الليل في إطباقه،
 وظلمة السحاب في تكاثفه، وظلمة المطر في تتابعه، ﴿وَرَعْدٌ﴾: الصوت القاصف الشديد،
 وهو صوت المَلَك إذا زجر السَّحاب، ﴿وَبَرْقٌ﴾: وهو النور الذي يلمع في السَّحاب.
 وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن اليهود أقبلوا إلى رسول الله
 ﷺ فقالوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ حَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا مِنْهُنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ
 نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ.

فكان منها: قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: «مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مُوَكَّلٌ
 بِالسَّحَابِ، يَدِهِ - أَوْ فِي يَدِهِ - مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ»،
 قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «صَوْتُهُ»، قَالُوا: صَدَقْتَ^(٢).
 والمِخْرَاق: هُوَ فِي الْأَصْلِ عِنْدَ الْعَرَبِ ثَوْبٌ يُلَفَّ وَيَضْرِبُ بِهِ الصَّيَّانُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،
 أَرَادَ أَنَّهَا آلَةٌ تَزْجُرُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ السَّحَابَ وَتُسَوِّقُهُ^(٣).

فهذا مثلُ المنافقين في ظُلُمَاتِ الشُّكِّ والكُفْرِ والنِّفَاقِ، التي أَظْلَمَتْ مِنْهَا قُلُوبُهُمْ، وَرَعْدُ
 الخوف من وعيد القرآن الذي يُزْعِجُهُمْ مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ، وَبَرْقٌ مِنْ وَعْدِ الْقُرْآنِ يلمع فيها،
 ويُخيفُهَا مِنْ جِهَةِ الْبَصَرِ.

وهكذا المنافق يخشى انكشاف أمره، فهو فزع خائف، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
 عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وكما قال ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم إن هؤلاء القوم المُمَثِّلَ بِهِمْ، الَّذِينَ أَصَابَهُمْ هَذَا الصَّيِّبُ بِمَا فِيهِ ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ
 فِي عَادَتِهِمْ﴾ المراد: يجعلون أناملهم ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ خوف الصواعق، و(الصواعق): جمع

(١) رواه البخاري (١٠٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧٢).

(٣) لسان العرب (٧٦/١٠).

صاعقة، وهي: قطعة نار تنفصل من مخراق المَلَك، والمخراق: هي الآلة التي بيده يزجر بها السحاب، ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مخافة الهلاك من صوتها.

وهذا المَثَلُ يبيِّن إصرار المنافقين على إحكام إغلاق المنافذ التي يصل الحقُّ عبرها، كما قال تعالى عن الكفار من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ وَاسْتَغْشَوُا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].
﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ بعلمه وقدرته، فلا يقوته منهم شيء، وهم تحت مشيئته وإرادته، ولن ينفعهم الحذر.

و(الإحاطة): تأتي بمعنى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢].

ثم قال تعالى في تنمة المَثَلِ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي: يقرب أن يختلسها بسرعة من شِدَّةِ ضوئه، وضمَّع البصر؛ فتعمى.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ لأصحاب الصَّيْب، ولو شيئاً يسيراً؛ ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾: انتهزوا الفرصة وتقدَّموا على حَسَبِ الرؤية.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾: انطفأ الضوء، وأظلم الطريق؛ ﴿قَامُوا﴾ أي: وقفوا في أماكنهم متحيرين.

وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمنافقين في موقفهم من القرآن، الذي فيه وعيد وزجر كالرعد، وحُجَجٌ تبهرهم كالبرق، فيكاد ضوء الحقِّ يُذهِبُ أبصارهم، ويكاد مُحْكَمُ القرآن أن يدلَّ على عوراتهم.

وهؤلاء كلُّهم أضاء لهم الحقُّ، وكلُّهم تكلموا بما يُظهرونه منه، وكلُّهم أصاب أهل الإسلام عِزٌّ ونَصْرٌ؛ اطمأنوا ومشوا مع المسلمين، وكلُّهم نزلت تكاليف شرعية يكرهونها -كالجهاد والزكاة- وكلُّهم أتاها ما لا يُوافق هواهم، وكلُّهم أصاب الإسلام نكبة، أو أصابتهم فتنة وبلاء؛ قاموا متحيرين، ووقفوا يريدون الرجوع إلى الكُفْرِ.

وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: لو أراد أن يأخذ أسماعهم التي في الرأس، وأبصارهم التي في العين؛ لأخذها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تركهم، أو الانتقام منهم ﴿قَدِيرٌ﴾: ذو قُدرة عظيمة.

وفي الآيتين من الفوائد:

أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ؛ اسْتَحَقَّ ذَهَابَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ بِدُونِ أَسْبَابٍ، فَيَذْهَبَ السَّمْعَ دُونَ صَوَاعِقٍ، وَالْبَصَرَ دُونَ بَرَقٍ.

وفيها: تهديد الكفار.

وفيها: أَنَّ مَنْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ اجْتِنَابُ مَا يُهْلِكُهُ؛ لقوله ﴿قَامُوا﴾، ولقوله ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ﴾.

ولذلك قيل: ينبغي الحذر من النظر إلى البرق الشديد؛ لئلا يخطف البصر.

وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُلْجَأَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَسْأَلَهُ أَنْ يُمَتِّعَهُ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، كما ورد في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا»^(١).

وفي قوله ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: تذكرة بحال المنافقين يوم القيامة، عندما يذهبون مع المؤمنين إلى الصراط، وتُقَسَّمُ الأنوار على المؤمنين على حسب أعمالهم، ولا يُعطى المنافقون شيئاً من النور، فيسيرون وراء المؤمنين ليستنبروا بنورهم في عبور الصراط المظلم، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي قُسمت فيه الأنوار، فالتمسوا نوراً هناك، فيرجعون، فيضرب الله بينهم وبين المؤمنين سُورٍ يحجزهم عنهم، ويمنعهم من اللحاق بهم، فيقعون في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وفيها: شِدَّةُ ظُلْمَةِ قَلْبِ الْمُنَافِقِ، وَأَنَّهَا ظُلُمَاتٌ بِأَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وفيها: أَنَّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ تَكُونُ فِيهِ شُعْبَةٌ إِيْمَانٍ، وَشُعْبَةٌ نِفَاقٍ اعْتِقَادِيٍّ، فَحُكْمُهُ بِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا، وَفَرْقٌ بَيْنَ الْمُنَافِقِ الْخَالِصِ، وَالْمُنَافِقِ الْمُرْتَدِّدِ.

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٨).

وفيها: أَنَّ من الناس مَنْ لا يرى نور الحقِّ بالرغم من قوّته، وأنَّ نفسه لا تتحمّل الحقَّ، كما أنَّ البصر لا يتحمّل لمعان البرق الشديد.

وفيها: أنَّ نور العلم والإيمان للمؤمن ذاتي لا يفارقه، فهو يُنير طريقه، بخلاف المنافق؛ فإنّه لا يرى الطريق.

وفيها: أنَّ الإعراض عن سماع الحقِّ لا يُنجي، ولا يعني أنَّ صاحبه معذورٌ في عدم إقامة الحُجّة عليه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾﴾:

ولمّا ذكر تعالى أصناف الخلق، وبيّن أنَّ منهم المؤمنين والكافرين والمنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء؛ دعا الناس جميعاً إلى توحيدِهِ، وعبادته وحده لا شريك له، وذكّرهم ببعض نِعَمه عليهم؛ فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المكلفون من الإنس والجن ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: تذلّلوا له بالطاعة، امتثالاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه، مع المحبة والتعظيم. و(الربُّ): هو الخالق، المالك، المدبّر لشؤون الخلق، ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من العدم، وابتدعكم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم الماضية.

فاعبدوه؛ لخلقهِ إياكم ومن سبقكم؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فتجعلوا عبادته وقايةً لكم من عذابه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنبية بالنّداء في تبيان المقاصد العظيمة.

وفيها: العناية بالعبادة؛ إذ كان النّداء بها لجميع الناس.

وفيها: أنَّ الإقرار بالربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

وفيها: بيان علّة الأمر بالعبادة؛ وهي أنّه تعالى الربُّ والخالق.

وفيها: أنَّ التّقوى مرتبةٌ عاليةٌ، لا تُنالُ إلّا بإخلاص العبادة.

وفيها: أنَّ نعمة الخلق أعظم النّعم الدنيوية، وكلّ النّعم الأخرى مترتبةٌ عليها.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢):

ثم ذكر تعالى تيمنة لبعض نعمه، وعلة الأمر بعبادته، وبعض خصائص ربوبيته؛ فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ صَيْرَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾: بساطاً، تقعدون وتنامون عليه، وُسِّمَتْ (الأرض) أرضاً؛ لأنها تتأرض؛ أي: تأكل ما في بطنها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾: سقفاً مبنياً فوق الأرض.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (السَّاء): كل ما علاك وأظلك، من (السُّمُو) أي: العلُو، وهو المراد هنا، وتُطلق أيضاً على السماء المبنية التي لها سُمُكٌ وأبواب وزينة وحرسٌ وسكان. وهي السماوات السبع التي تقدّم ذكرها.

﴿مَاءً﴾: المطر النازل من السحاب من جهة العلُو.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ وأنبَت بقدرته ﴿بِهِ﴾ بسبب ذلك الماء ﴿مِنْ﴾ أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: المأكولات، من الحبوب والفواكه وغيرها ﴿رِزْقًا﴾: غذاءً وقوتاً ﴿لَكُمْ﴾ من الله تعالى، أنعم به عليكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: لا تتخذوا شركاء معه في عبادته، وعُدلاء ومشابهين بزعمكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن هذه الأنداد لا تخلق ولا ترزق، وأن الله هو الخالق الرّازق.

وفي «الصحيحين»، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذَّنْبِ أعظمُ عند الله؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: «الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل، على صفاة سوداء (الحجارة الملساء) في ظلمة الليل»^(٢).

وقال أيضاً في معنى الآية: «لا تُشركوا بالله غيره من الأنداد، التي لا تنفع ولا تضر،

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/١٩٦).

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرِّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَوْحِيدِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله تعالى بخلقه، وبيان قُدْرته العظيمة.

وفيها: إثبات الأسباب؛ كما دلَّت عليه الباء السَّبَبِيَّةُ في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ أي: بسبب ذلك المطر.

وفيها: أَنَّ الأسباب لا تكون مُؤَثِّرَةً فاعلةً إِلَّا بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾.

وفيها: بيان قُدرة الله تعالى في إحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

وفيها: أَنَّ الله يرزق الناس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم.

وفيها: تحريم اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ لله، وقد يكون شِرْكًا أَكْبَرُ أو أَصْغَر، جَلِيًّا أو خَفِيًّا، بِحَسَبِ اعتقاد صاحبه.

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الأنداد: «هو الشُّرْك، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البَطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان - لا تجعل فيهما «فلان» -؛ هذا كله به شِرْك»^(٢).

وفيها: أدلة عظيمة لمواجهة الملاحدة الذين يُنكرون وجود الله تعالى؛ فَإِنَّ الْخَلْقَ يَدُلُّ على الخالق، كما أَنَّ الْبَعْرَةَ تَدُلُّ على البعير، والأثر يدلُّ على المسير.

وفيها: دليلٌ على استعمال الْحُجَجِ في المناظرات.

وفيها: ذمٌّ مَنْ ارْتَكَبَ الْحَرَامَ وهو يعلم.

(١) تفسير ابن كثير (١/١٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/١٩٦).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٢):

ولما أمر تعالى بتوحيده، ونهى عن الشُّرك به؛ انتصر لَوَحْيِهِ وكتابه ونبوة نبيه مُحَمَّد ﷺ، وتحدى الطاعين في القرآن، والشاكِّين فيه؛ فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾: في شكٍّ وقلق واضطراب عظيم ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وهو القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّد ﷺ، والإضافة هنا للتشريف.

﴿فَأْتُوا﴾ هذا أمر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة، و(السُّورَة): الطائفة من القرآن، مأخوذة من «السُّور»؛ لأنها محيطة بآيات الله وما فيها، كما يحيط سُور المدينة بأبنيتها وما فيها ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: من مثل هذا القرآن الذي نزلناه على عبدنا، ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾: واستعينوا على ذلك بأعوانكم، وفصحائكم، وحُكَّامكم الذين يحضرون مشاهدكم، وأهنتكم التي تعبدونها ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. فتحدى العابد والمعبود.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إن هذا القرآن مُفترى، أو إنه كذب، أو إن نبينا نقوله من عنده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قوة الحق.

وفيها: تحدى صاحب الشريعة لفُصحاء العرب الكافرين.

وفيها: أن أعظم معجزة للنبي ﷺ تحدى بها المُعَانِدِينَ هو هذا القرآن.

وقد قال النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْ حَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وليس في الكتب السابقة كتابٌ مُعْجِزٌ غير القرآن، وليس هناك معجزة مستمرة إلى قيام الساعة غير القرآن.

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

وفي هذه الآية: الانتصارُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: إشارةٌ إلى كلمة التوحيد الثانية (أشهد أنَّ محمدًا رسول الله)، بعدما أشارت الآيتان السابقتان إلى كلمة التوحيد الأولى (أشهد أن لا إله إلا الله).

وفيها: تشريفُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما تقتضيه الإضافةُ في قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾.

وفيها: شرفُ مرتبة العبودية، ولذلك وَصَفَ نَبِيَّهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، وأضافه إليه في قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾.

وفيها: إثباتُ علوِّ الله تعالى في قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ لأنَّ التنزيل لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

وفي هذه الآية: آخرُ منزلةٍ للتدرُّج في التحدي؛ فإنه قال لهم في مكة: ﴿فَأَتُوا بِكُتُبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [القصص: ٤٩]، ثم قال لهم: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، ثم قال لهم هنا: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾.

فتحداهم أن يأتوا بسورة تُشبه سُورَ القرآن في حُسْنِ النِّظْمِ، وجمالِ الأسلوب والبلاغة والفصاحة، وتفصيلِ أنباء ما قد سبق، والإخبارِ بالغيب الذي وقع وسيقع، وحكمة التشريع من الأمر والنهي والأحكام، والوعْد والوَعِيد، والقصاصِ والأنباء.

فقال لهم: هاتوا سورةً مثلَ هذا، لا يقعُ فيها تحريفٌ ولا تبديلٌ إلى قيام الساعة!

وفي الآية: اضطرابُ الكفار في شأن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أنزل عليه، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿فِي رَبِّ﴾؛ ولذلك اختلفت أقوالهم وعباراتهم فيه؛ فتارةً يقولون: ساحرٌ، وتارةً: كاهنٌ، وتارةً: مُعَلَّمٌ، وتارةً: به جِنَّةٌ، وتارةً: مجنونٌ، وغير ذلك.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٦):

ولمَّا عَجَزَ الكفار عن الإتيان بما تحداهم به، رغم ما في التحدي من استشارة همهم؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما تحديناكم به، من الإتيان بسورةٍ من مثله، ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ذلك أبدًا في المستقبل؛ ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾: اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية، بالإيمان بالله

وكتابه ورسوله، فقد أُقيمت الحُجَّة، وثبتَ عَجْزُكُمْ، فإن لم تؤمنوا: فالنَّارُ مصيرُكم، ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ تلتهب بهم، و(الوقود): ما يُلقَى في النار لِإِضْرَامِهَا.

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «هي حجارةٌ من كبريت، خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض، في السماء الدنيا، يُعَدُّها للكافرين»^(١).

وهذه الحجارة العظيمة السوداء، الصَّلبة، المُتنتة، هي أشدُّ الأحجارِ جَرًّا إذا حُميت. وقيل: المرادُ بـ (الحجارة): الأصنامُ والأندادُ التي كانوا يعبدونها من دون الله، وفي هذا خزيٌّ لعابديها، إذا رأوها تحترق معهم، ويحترقون بها.

﴿أَعَدَّتْ﴾: أرصدت وهيئت، و(الإعداد): التهيئة للشيء. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بالله وكتبه ورُسله.

وفي هذه الآية من القوائد:

الإخبارُ بعَجْزِ الكفار عن الإتيانِ بِمِثْلِ القرآنِ إلى يومِ الدِّينِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ آلِ انْشِ وَالْحِجْنُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وفيها: صدق خبر القرآن، ومعجزةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ كلَّ مَنْ حاول الإتيانَ بِمِثْلِهِ فضحَّه الله، وكان فعُله سخريةً عليه.

وفيها: أنَّ النَّارَ مخلوقةٌ وموجودةٌ الآن، كما دلَّ عليه قوله: ﴿أَعَدَّتْ﴾، وكما ورد في الأحاديث، مثل: تحاجُّج الجنة والنَّار، واستئذان النَّار، والإذن لها بِنَفْسَيْنِ في الصيف والشتاء، وصوت الحَجَرِ الذي أُلقي من شفير جهنم فوصل إلى قعرها في عهد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وسمع صوته الصَّحابةُ رضي الله عنهم.

وفيها: أنَّ جميع سُورِ القرآنِ معجزةٌ -طويلها وقصيرها- لا يمكن الإتيانَ بِمِثْلِهَا.

وفيها: أنَّ المُعَانِدِ كافرٌ، وأنَّ جزاء المعاندين النَّارُ؛ لأنَّهم إذا عَجَزُوا عَمَّا تَحَدَّاهُمْ به ثم لم يؤمنوا؛ فلا يكونون إلَّا معاندين.

(١) رواه الطبري (١/ ٣٨١)، والحاكم (٣٠٣٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

ويؤخذ من الآية: بقاء القرآن إلى آخر الزمان، حتى يأذن الله برفعه قبيل قيام الساعة.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)

ولما كانت طريقة القرآن الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ فقد ذكر عز وجل جزاء المؤمنين بعد جزاء الكافرين؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (البشارة): الإخبار بما يظهر أثره على البشارة، ويكون غالباً في الخبر السار، الذي يظهر أثره والسرور على صاحبه.

﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم، ويا كل من يصلح له الخطاب ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما جاء عن الله ورسوله، تصديقاً وقبولاً وإذعاناً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ دليلاً على صحة إيمانهم، قاموا بالأعمال مخلصين لله، متابعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ (الجنة): البستان ذو الأشجار المثمرة الكثيرة، التي تستر ما فيها.

و(الجنة): اسم دار الثواب التي أعدّها الله للمؤمنين، وهي مراتب ودرجات وجنان، وأعلاها وأوسطها: «جنة الفردوس».

﴿تَجْرَى﴾ تسيل ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: تحت أشجارها ومساكنها على وجه الأرض، من غير أخاديد، وجريان النهر من أسباب طيب طعمه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنهار الجنة تخرج من تحت تلال - أو: من تحت جبال - مسك»^(١).

وطينها المسك الأذفر، ذو الرائحة الطيبة، وحبابؤها اللؤلؤ والجوهر، وهي أنهار متعددة، وقد جاء في القرآن ذكر بعض أنواعها، من الماء العذب، واللبن، والخمر، والعسل.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ أعطوا وأطعموا ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الجنات ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ من الأنواع المختلفة ﴿رِزْقًا﴾ (الرزق): ما يتفّع به.

(١) رواه ابن حبان (٧٤٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٢١).

﴿قَالُوا﴾ للملائكة والولدان: ﴿هَذَا﴾ الذي أتيتمونا به ﴿الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ مثله ويُسبِّههُ، هكذا يظنون أنَّ الذي أُتوا به لاحقاً كالذي أُتوا به سابقاً، ولكنَّه في الحقيقة - وإن تشابه اللون والشكل - فإنَّ الطعم مختلف، والتنويع تكريم، ونعيم الجنة متجدد، يزيد باستمرار.

وما في الجنة من الثمار لا يُشبه ما في الدنيا إلا في الاسم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء»^(١).

﴿وَأُتُوا بِهِ﴾: جيء به إليهم ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ يُشَبِّهُ بعضه بعضاً، في اللون، والمنظر، والجودة، لكنَّه يختلف في الطعم، فإذا طعموه وجدوه الذَّ وأطيب.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿أَزْوَاجٌ﴾: جمع «زوج»، ويشمل: الحُور العِين، والمؤمنات من نساء الدنيا ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ قد جمعن بين طهارة الظاهر - فلا بول ولا غائط ولا حيض ولا قدر - وطهارة الباطن، من الغُلِّ والحقد والبغضاء والغيرة المؤذية، ونحو ذلك.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ما كانوا أحياء، وهذا من تمام النعيم، أنه لا ينقطع، ولا ينقضي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعية تبشير الإنسان بما يسره، والبشارة من سُنن المرسلين.

وفيها: أنَّ الجنَّات لا تكون إلا لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح.

وفيها: أنَّ جزاء أهل الجنة أكبر وأعظم من أعمالهم.

وفيها: كمال قُدرة الله.

وفيها: تمام نعيم أهل الجنة، بما جعل الله فيها من الأمور المتنوعة المتجددة في زيادة.

وفيها: ذكر ألوان من النعيم الحسِّي في الجنة، من الأكل والنكاح؛ لتشتاق إليها نفوس أهل الدنيا.

وفيها: ترغيب النفوس بالجنة؛ ليسهل العمل، وتُخَفَّ مشقة التكاليف والعبادات.

(١) رواه الطبري (٣٩٢/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦/١)، بإسناد صحيح.

وفيها: شرف الجنة؛ فإنَّ المُبَشِّرَ بها هو: الله عَزَّوَجَلَّ، والمُبَشِّر: عباد الله المؤمنون، وناقل البشارة: أعظم رسول ملكي، وأعظم رسول بشري صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: اجتماع نعيم أهل الجنة من جميع أطرافه؛ فلهم نعيم جسدي - ومنه الطعام - ونعيم نفسي - ومنه الأزواج - ونعيم القلب بما يعلمونه من الخلود وغير ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

ولمَّا ضَرَبَ اللهُ الأمثال للمنافقين في أول هذه السُّورة، وردَّ على مَنْ طَعَنَ في الوحي، وحَصَلَ أَنَّ بعض أهل الضلال استنكروا واستهزأوا من ضَرْبِ المَثَلِ في القرآن بالذباب والعنكبوت؛ ردَّ اللهُ عليهم هنا وانتصر لكتابه؛ فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ لا يَمْنَعُهُ الحياءُ ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ من أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا، ولو بشيءٍ حقيرٍ ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما هو أكبر منها - كالذباب - أو ما هو أدنى منها وأصغر - كالذرِّ وصغار النمل - مادام في التمثيل بذلك فائدةٌ وعبرةٌ.

وكما أنَّه تعالى لم يستنكف من خَلْقِها، وفي خَلْقِها فوائد، فكذلك لم يستنكف من ضَرْبِ المَثَلِ بها.

ويضرب اللهُ الأمثال لإيضاح المعاني والحقائق للناس؛ لعلَّهم يعقلون ويتفكرون فيها. ولكن لا يَعْقِلُ هذه الأمثال إِلَّا العالِمون، ولذا قال بعضُ السلف: «إذا سمعتُ المَثَلَ في القرآن فلم أفهمه؛ بكيْتُ على نفسي؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّائِسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»^(١).

والخلاصة: أنَّ الله تعالى يضرب الأمثال بالأشياء، صغيرها وكبيرها؛ فيؤمن المؤمنون، ويستهزئ الكاذبون.

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٠٨).

وينقسمُ النَّاسُ في هذا الأمر إلى قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: المثل المضروب ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ فيعقلون، ويتفكرون، ويزدادون إيماناً.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود والمشركين والكافرين وغيرهم، فإنهم يستهزؤون، ويستنكرون، ويقولون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، فيعترضون، ويجادلون بالباطل، وتنصرف قلوبهم عن الحق.

وقد اقتضت حكمة الله أن يضرب المثل؛ ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ من النَّاس، من أهل الكفر والنفاق، ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى وإيماناً.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ بالمثل المضروب ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: الخارجين عن الإيمان إلى الكفر والنفاق، كما جاءت أوصافهم في الآية التي بعدها.
قال قتادة: «فسقوا، فأضلَّهم الله على فسقهم»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثباتُ صفة (الحياء) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعظمته، وحيأؤه ليس كحياء المخلوق.
وفيها: خطورة الاستهزاء بكلام الله تعالى، والاعتراض عليه.

وفيها: أن الله لا يخلق شيئاً عبثاً، حتى البعوضة مع كونها من أحقر المخلوقات، فله في خلقها حكم؛ فإنَّها تُقَضُّ مضاجع الجبابرة، ويُدُلُّ الله بها الظلمة، وتصلح مثلاً لأهل الدنيا؛ فإنَّها تحيا إذ جاعت، وتموت إذا شبعَت! وهكذا أصحاب الدنيا إذا استغنوا طغوا، فأخذهم الله.

والبعوضة من آيات الله في الخلق؛ فإنَّها على صغرِها يغوص خرطومها في جلد الفيل والجاموس والجمال، حتى إنَّه ربما يموت من قَرَصَتها؛ بما تنقله إليه من الوباء بإذن الله.

(١) تفسير الطبري (١/٤٠٩).

وفي هذا تقوية لقلوب ضُعفاء الناس بِذكر ضُعفاء الأجناس؛ فالبعوضة تُدْمِي مُقْلَةَ الأسد، وهي - على صِغَرِها - أَجْرَأُ مِنَ الأسد!

وفي هذه الآية من القوائد:

أَنَّ الْحَقَّ الثَّابِتَ مِنَ اللَّهِ لَا يَجُوزُ إنْكَارُهُ.

وفيها: أَنَّ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ يَكُونُ سَبَبًا لَهْدَايَةِ أَنْاسٍ، وَسَبَبًا لَضَلَالِ آخَرِينَ.

وفيها: أَنَّ الْكُفَّارَ وَمَنْ شَابَهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يُدْرِكُونَ الْحَقَائِقَ، وَلَا يَعْرِفُونَ الْحُكْمَ.

وفيها: خطورةُ الجِدَالِ بِالْبَاطِلِ؛ كَمَا قَالَ هُؤَلَاءُ: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا...﴾.

وفيها: أَنَّ فَهْمَ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْهَدَايَةِ.

وفيها: أَنَّ أَهْلَ الْهُدَى - وَإِنْ كَانُوا قَلَّةً - لَكِنْ كَثَرَتِهِمْ فِي خَيْرِهِمْ وَنَفْعِهِمْ لِلنَّاسِ، وَأَهْلُ الضَّلَالِ - وَإِنْ كَانُوا كَثِيرِينَ فِي الْعَدَدِ - لَكِنَّهُمْ قَلِيلٌ مِنْ جِهَةِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ.

وفيها: فَضْلُ الْإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنْ مَعَارِضَةِ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ.

وفيها: أَنَّ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ يُنَافِي الْإِيْمَانَ.

وفيها: أَنَّ مَنْ فَسَقَ وَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ؛ اسْتَحَقَّ الْإِضْلَالَ.

وفيها: أَنَّ فَسْقَ الْكَافِرِ هُوَ خُرُوجٌ كُلِّيٌّ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، بَيْنَمَا يَكُونُ فَسْقُ الْعَاصِي خُرُوجًا جُزْئِيًّا.

وفيها: أَنَّ عَلَى الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ الْأَيْمَنَةَ الْحَيَاءُ مِنْ بَيَانِ مَا فِيهِ حَقٌّ وَفَائِدَةٌ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَجَالٌ لَطَعْنُ الطَّاعِنِينَ.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧) :

ثم ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ هُؤَلَاءِ الْفَاسِقِينَ؛ فَقَالَ:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾: يُخَالِفُونَ وَيَتْرَكُونَ ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾: مِيثَاقَهُ الْمُؤَكَّدَ، وَ(النَقْضُ): هُوَ حُلُّ

الشَّيْءِ بَعْدَ إِبْرَامِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: تَوَكِيدُهُ وَإِيجَابُهُ.

و(عهد الله) يشمل: الأمر بطاعته، والنهي عن معصيته. ونقضه: مخالفة ذلك.
 ويشمل: ما أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من العمل بما فيها، وأتباع محمد
 ﷺ إذا بُعث. ونقضهم: تركهم العمل وتكذيبهم النبي ﷺ، وكتبان أمره.
 ويشمل عهد الله أيضاً: ما أخذه على جميع العباد من توحيدِهِ، وما جعل في فطرتهم من
 موافقة ذلك. ونقضه: الوقوع في الشرك.
 ويشمل العهد كذلك: ما أخذه الله على ذرية آدم، من الإقرار بربوبيته. ونقض ذلك:
 ترك الوفاء بهذا الميثاق.

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: «هي ست خصال في المنافقين، إذا كانت فيهم الظهرة
 (الغلبة) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتّمنوا
 خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض.
 وإذا كانت الظهرة عليهم؛ أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا
 أخلفوا، وإذا اتّمنوا خانوا»^(١).

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من القربات النسبية: بقطع الأرحام- والقربات
 الدنيئة: بترك نصرة الرُّسل، وإيذاء أهل الحق بقطع الولاء للمؤمنين، وإيذاء آل بيت رسول الله
 ﷺ، ونحو ذلك.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والفتن، والصدّ عن سبيل الله، وهذا من الفساد
 المعنوي. ويُفسدون كذلك إفساداً حسيّاً، بتخريب الديار، وقتل الأنفس، ونحو ذلك.
 ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: جمع «خاسر»، وهو: الذي فاته الربح. والمراد به هنا: الذي
 فاتته المثوبة والجنة، وصار إلى العقوبة والنار.

وفي هذه الآية من القوائد:

وجوب الوفاء بعهد الله الذي أخذه على عباده، ووجوب الوفاء بما عاهد عليه العبد ربّه
 من الطاعات، ووجوب الوفاء بالمعاهدات المباحة مع الخلق.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١١)

وفيها: خطورة المعاصي، ومن أشدها: التي يتعدى ضررها وينتشر أثرها.

وفيها: خطورة الفسق؛ لأن الله حَصَرَ الخسارة فيه.

وفيها: التحذير من كتمان ما أوجب الله بيانه، وهذا من الميثاق الذي أخذه الله على العلماء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفيها: الأمر بصلة الرحم، والإصلاح في الأرض؛ لأن النهي عن الشيء وذمة يقتضي الأمر ووجوب العمل بضده.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨):

وقوله ﴿كَيْفَ﴾: استفهام للإنكار والتعجب ﴿تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾: نجدونه، وتكذبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتُنكرون بعثه لكم يوم القيامة ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾: عدماً أو تراباً، أو في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾: بإخراجكم إلى الوجود، وخلقكم، ونفخ الأرواح في أجسادكم.

﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾: موتة الحق، بقبض أرواحكم، وخروجكم من الدنيا، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: بنفخة البعث، وعودة الأرواح في أجسادكم.

وهاتان الميتتان والحيتان في هذه الآية هما المذكورتان أيضاً في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِأَنَّكَ تَحْيِيهِنَا وَأُحْيِيَّتَنَا أَفْتِنَا﴾ [غافر: ١١].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: بعد بعثكم تُردُّون إليه للحساب والجزاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاستنكار والتعجب من كفر من يعلم حاله ومآله.

وفيها: توبيخ الكفار.

وفيها: أَنَّ الموتَ يُطْلَقُ على ما لا روح فيه، وإن لم يسبقه حياة؛ ولذلك يَصِحُّ أن يُوصَفَ الجِهادُ بأنه مَيِّتٌ، كما قال تعالى عن الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

ويؤخذ منها: أن الجنين إذا سَقَطَ قبل نَفْخِ الرُّوح فيه فليس له حُكْمُ الحَيِّ، ولهذا لا يُغَسَّلُ ولا يُكَفَّنُ ولا يُصلى عليه، ولا يرث ولا يُورَث.

وفي الآية: تمامُ قُدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ البَعْثِ، وأنَّ مصيرَ الخَلْقِ كُلِّهم الرجوعُ إلى الله.

وفيها: أَنَّ نِعمةَ الإيجاد من العدم تستوجب شُكْرَ المنعم، بعبادته، لا بالكُفْر به.

ويُستفاد من الآية: مُناظرةُ الكفارِ، وتنبيةُ الجاحِدِينَ على أول نِعمة على الإنسان، وهي الإيجاد من العدم.

وفي الآية: التنبيةُ على الاستعداد للرجوع إلى الله، وذلك بالتزوُّد بالصالحات، وترك المعاصي.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

ولما ذكرَ تعالى بعض آياته في الأنفس؛ ذكرَ بعض آياته في الآفاق، ولما ذكَّروهم بنِعمة إيجادهم ذكرَ نِعمةَ خَلْقِ السماوات والأرض؛ فقال تعالى -ممتنًا على عباده-:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ لأجلِكُم، ومنفعتكم ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا يَعُمُّ كُلَّ ما في الأرض من المخلوقات، من الأشجار، والزرع، والمعادن، والحيوانات، ونحو ذلك. وهذا يدلُّ على أَنَّ الأصل فيها جميعًا الحِلُّ والإباحة، حتى يَرِدَ الدليل على تحريم شيء منها.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى﴾ قَصَدَ وأراد ﴿السَّمَاءِ﴾ وكانت دُخَانًا، ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾: خَلَقَهُنَّ وَأَتَمَّهُنَّ ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ طباقًا، مُحْكَمَةً، متينة، لا شقوق فيها، ولا تفاوت.

﴿وَهُوَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: قد أحاط به، فلا يخفى عليه منه شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ خَلَقَ الْأَرْضَ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْأُخْرَى فِي سُورَةِ «فُصِّلَتْ»: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، إِلَى أَنْ قَالَ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴿[فُصِّلَتْ: ١١-١٢].

وَلَا يَتَنَاقَضُ هَذَا مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (١٧) رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا (١٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (١٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿[النَّازِعَاتِ: ٢٧-٣٠]؛ لِأَنَّ الَّذِي حَصَلَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ دَحَى الْأَرْضِ، وَإِخْرَاجُ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى، وَلَيْسَ خَلْقُ الْأَرْضِ وَإِيجَادُهَا؛ فَإِنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١).
وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْإِبَاحَةُ وَالْحِلُّ، وَلَا يَحْرُمُ شَيْءٌ مَّا فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَفِيهَا: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ مَنْ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الدُّنْيَا، لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُسَخِّرَ نَفْسَهُ لَهَا؛ فَإِنَّهَا جُعِلَتْ لِتَخْدَمَهُ لَا لِيَخْدَمَهَا، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ هَلَكَ.

وَفِيهَا: التَّذْكِيرُ بِنِعَمِ اللَّهِ؛ لِيَقُومَ الْعِبَادُ بِشُكْرِهِ.

وَفِيهَا: سَعَةُ عِلْمِ اللَّهِ وَعُجُومِهِ.

وَفِيهَا: تَنْبِيهُ الْعِبَادِ عَلَى التَّذْكَرُّ وَالْإِعْتِبَارِ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِيَسْتَدْلُوا بِذَلِكَ عَلَى عَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ؛ فَيُطِيعُوهُ وَيَعْبُدُوهُ لَا يَشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا.

وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ: تَحْرِيمُ الْخَبَائِثِ، وَتَنَاوُلُ مَنَعَ كُلِّ مَا يَضُرُّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَمْتَنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِهَا.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٠)؛ وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ الْمَسْكَنِ أَرْضًا وَسَمَاءً، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّاكِنِ، وَذِكْرِ مَنِّهِ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢١٥)، (٨/٣١٦).

أخرى من نِعَمه على العباد، وهي: خَلَقَ أَيْبَهُمْ آدَمَ، واستخلافه في الأرض؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴿وَأَذْكُرْ يَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿وَهُمْ عَالِمٌ غَيْبِيٌّ﴾ خَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ، وَأَمَرَهُمْ بِأَعْمَالٍ، وَ(الملائكة): جَمْعُ «مَلَكٍ»، مشتقٌّ من «الألوكة» وهي: الرسالة. ثُمَّ نُقِلَتْ حَرَكَةُ الهمزة إلى اللام، وَخُذِفَت الهمزة تَخْفِيفًا، فَصَارَتْ: «مَلَكٌ»^(١).

﴿إِنِّي جَاعِلٌ ﴿خَالِقٌ وَمُصَوِّرٌ﴾ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أَيُّ: قَوْمًا، يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

وقيل: يَخْلُفُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ المخلوقات التي كانت في الأرض مِنْ قَبْلِهِمْ .

﴿قَالُوا﴾ أَيُّ: الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وهذا سؤال استعلام واستكشافٍ عن الحِكْمَةِ، وليس سؤال اعتراضٍ واستنكارٍ؛ فَإِنَّ الملائكة لَا يعصون الله.

﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالشُّرْكِ والمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فيقتل ظلمًا وعدوانًا.

وقولُ الملائكة هذا عن شيء لم يحدث بعد؛ إِمَّا لِأَنَّ الله أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا سَيَفْعَلُهُ الْبَشَرُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْفَسَادِ، فَلِذَلِكَ سَأَلُوا مُسْتَغْرِبِينَ.

أو أَنَّهُمْ قَاسُوا الْبَشَرَ عَلَى مَنْ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْجِنِّ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَظَنَّتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ سَيَكُونُونَ مِثْلَ أَوْلَئِكَ.

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾: «كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ خَلْقٌ أَفْسَدُوا فِيهَا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾»^(٢).

وقوله ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ أَيُّ: وَالْحَالُ أَنَّا نُنَزِّهُكَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَ، وَعَمَّا افْتَرَاهُ عَلَيْكَ أَهْلُ الشُّرْكِ، وَعَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٢٦٢)، تفسير النيسابوري (١/٢١٣)، الدر المنصور (١/٢٤٩)، المصباح المنير (١/١٨).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/٢٦٤).

﴿يَحْمَدُكَ﴾ أي: تسيبًا مصحوبًا بالحمد، مقرونًا به، فيحمدونه على كماله، وجليل صفاته، سبحانه وتعالى.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ونُعظِّمُكَ، ونُكَبِّرُكَ، ونُصَلِّي لَكَ، ولا نعصيك، ونُصِفُكَ بما يليق بك.

و(التقديس): التطهير، أي: نُطَهِّرُ أنفسنا لطاعتك، ولا يعلَقُ فيها شيء مما لا يليق بك. ﴿قَالَ﴾ عَزَّوَجَلَّ جوابًا لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الحِكْمَةِ والمصلحة في خَلْقِ آدَمَ وذريَّته، وما سأجعل منهم من الأنبياء والصُّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصالحين، الذين يعبدونني في الأرض، ويجاهدون في سبيلي، ويعمرونها بشرِّع الله، وما سيكون من إبليس من المعصية.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يبتلي مخلوقاته، وأنَّ الملائكة ابتليت بخلق آدم، فتبيَّن لهم بعد ابتلائهم عدمُ علمهم بما علَّمَهُ الله من المصلحة في خلق آدم وبنيه.

وفيها: استحقاق الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ للتقديس، كما تفيدُهُ «اللام» في قوله ﴿لَكَ﴾؛ فهو عَزَّوَجَلَّ أهل أن يُقَدَّسَ.

وفي الآية: أنَّ الملائكة ذوو عقول، وأنَّهم سألوا ربَّهم؛ فأجابهم، وخاطبهم.

وفيها: حِكْمَةُ الله في جَعَلِ البشر خلفاء يتناسلون؛ ليبقى جنسهم.

وفيها: الشَّاءُ على مَنْ يَسْتَحِقُّ الشَّاءَ، وإظهار فَضْلٍ صاحب الفضل، وخصوصًا عند مَنْ لا يعرفه، كما أثنى الله تعالى على آدم.

وفيها: أنَّ مَنْ يُقَدَّسَ الله لا يعترض على حُكْمِهِ وَيُسَلِّمَ لأمره.

وفيها: كراهة الملائكة للإفساد في الأرض.

وفيها: أنَّه يجوز أن يُخْبِرَ الشخص عن نفسه بما يفعله من الخير للحاجة؛ إذا كان المقصود الإخبار وليس الافتخار، كما قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وكما قال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وفي حديث آخر: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَيَبْدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ..»^(٢).

وفيها: جواز السؤال عن حكمة الله في خلقه؛ إذا كان المقصود التعلُّم، وليس الاعتراض والاستنكار.

وفيها: إزالة حيرة المُحتار، وهداية السائل إلى ما يريد معرفته.

وفيها: عدم انتهار السائل المستفيد.

وفيها: أن الملائكة لا تعلمُ الغيب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣):

ثم ذكر تعالى فضل آدم، وما شرفه به من العلم، وما فاق به الملائكة في هذا، وإخباره إياهم بما لم يعلموه، وهذه الحادثة وإن كانت بعد أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، لكنها قدّمت هنا للمناسبة؛ ولتعلُّقها بعلم الله، وما خُتمت به الآية السابقة من قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ﴾ أي: الله عز وجل ﴿آدَمَ﴾ اسمُ عَلِمَ لأبي البشر عليه السلام.

وهو اسمٌ أعجميٌّ - كآزر - وقيل: هو مشتقٌّ من الأديم؛ فعن سعيد بن جبّير رحمه الله قال: «سُمِّيَ آدم؛ لأنّه خُلِقَ من أديم الأرض»^(٤)، وأديم الأرض: هو وجهها. وقيل: من الأدمة، وهي السُّمرة.

﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء الأشياء جميعاً، التي كانت موجودةً في العالم في ذلك الوقت.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: الأسماء والمسمّيات، و(العرض): إظهارُ الشيء للغير.

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٢٣/١).

﴿فَقَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أَخْبِرُونِي ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ الْأَشْيَاءِ الْحَاضِرَةِ، فَإِذَا عَجَزُوا عَنْهَا فَهُمْ عَنْ تَسْمِيَةِ الْغَائِبِ أَعْجَزُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنْكُمْ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ، أَوْ فِي ظَنِّكُمْ أَنَّ هَذَا الْمَخْلُوقَ لَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَّا الْفَسَادُ.

وقوله ﴿أَنْبِئُونِي﴾ سَوَّالُ امْتِحَانٍ، وَتَعْلِيمٍ، وَكَشْفٍ لِلْحَقِيقَةِ.

وقد أخرج البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، يَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ؛ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا...» الْحَدِيثُ (١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ آدَمَ مَبَاشَرَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِهِ، فَأَدَمُ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢).

وعن مجاهدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ قَالَ: «بِأَسْمَاءِ هَذِهِ الَّتِي حَدَّثْتُ بِهَا آدَمَ» (٣).
وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ - وَكَذَلِكَ أَصْلُ اللُّغَاتِ - تَوْقِيفِيَّةٌ، مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ، وَلَيْسَتْ تَجْرِبِيَّةً مِنْ اخْتِرَاعِ الْبَشَرِ، وَلَكِنْ وَإِنْ كَانَتِ اللُّغَاتُ مَبْدُوءًا تَوْقِيفِيًّا، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا كَسْبِيٌّ تَجْرِبِيٌّ يَضَعُهُ النَّاسُ، وَيَسْتَعْمِلُونَهُ وَيَشِيعُ بَيْنَهُمْ.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢):

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْمَلَائِكَةِ عَجْزُهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ عِظَمَةُ الرَّبِّ وَقُدْرَتُهُ وَسَعَةُ عِلْمِهِ؛ ﴿قَالُوا﴾ مُنْزَهِينَ لَهُ عَنِ النِّقَاصِ: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ لَا اعْتِرَاضَ عَلَى حُكْمِكَ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعْتِرَافٌ بِالْعَجْزِ، وَثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ بِمَا عَلَّمَهُمْ.

(١) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه ابن حبان (٦١٩٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٣) تفسير الطبري (٤٨٩/١).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أسلوب تأكيد ﴿أَعْلِمُ﴾: الذي أحاط علمه بكل الأشياء، فلا تخفى عليه خافية. ﴿الْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة البالغة، في شرعه وقدره. و(الحكمة): وضع الشيء في موضعه اللائق به.

و(الحكيم) أيضًا: ذو الحكم، لا مُعَقَّبَ لحكمه، يحكم ما يشاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

امتحان ادعاءات الأشخاص فيما يزعمون الإجابة فيه.
وفيها: جواز امتحان الإنسان بما لم يعلمه؛ ليتواضع ويتبين له قدر علمه.
وفيها: أدب الملائكة مع الله وتعظيمهم له؛ حيث اعترفوا بعلمه وكماله، وأقرُّوا بأنَّ علمهم محدود، وأنَّ الفضلَ فيها يعلمون الله وحده.
وفيها: الرجوعُ إلى الحقِّ، والاعترافُ بالعجز، وعدم المُكابرة.
وفي تقديم العلم على الحكمة: إشارة إلى أنَّ الحكمة من آثار العلم، ومرتبعة عليه.
وفيها: أنَّ المستوَلَّ إذا سُئِلَ عن شيء لا يعرفه؛ فإنَّ عليه ألاَّ يستحي من قول: الله أعلم، أو: لا أدري، أو: لا علم لي، ونحو ذلك؛ ولذلك قال العلماء: «لا أدري: نصفُ العلم»^(١).
وفيها: ردُّ العلم إلى الله، وأنَّه لا يحصل علمٌ صحيحٌ إلَّا بما أتى منه عزَّ وجلَّ.
وفيها: أنَّ كلَّ علمٍ لدى البشر هو من تعليم الله إياهم، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

وفي الآية: دليلٌ لتفضيل الأنبياء على الملائكة.

وفيها: قدرة الله تعالى على تعليم الشيء الكثير في الوقت اليسير.

وفيها: أنَّ من حُسن التعليم: أن يكون بالتدريج؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْ﴾، الذي يُفيد إعطاء العلم على مراحل.

(١) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٣٦٨)، جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٤١).

وفيها: الاهتمام بعِلْمِ اللُّغَةِ؛ لِأَنَّهُ يَحْوِي أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَ وَالْمُسَمَّى، وَالرِّبْطَ بَيْنَهُمَا، وَأَنَّ هَذَا الْأَسْمَ هَذَا الْمُسَمَّى.

﴿قَالَ يَكَادُمْ أَنْبِثُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٢):

وَلَمَّا عَجَزَتِ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْأَسْمَاءِ؛ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَكَادُمْ أَنْبِثُهُمْ﴾ أَخْبِرَ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلِمَهُمْ ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ الَّتِي عَجَزُوا عَنِ الْإِتْيَانِ بِهَا.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، وَسَمَّى لَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ؛ تَبَيَّنَ لِلْمَلَائِكَةِ فَضْلُ آدَمَ وَشَرَفُهُ.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ رَبِّهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ اسْتَغْنَاهُمْ تَقْرِيرِي، أَي: قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَا غَابَ فِيهَا عَنْكُمْ ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ مَا تُظْهِرُونَ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تُسَرُّونَ فِي أَنْفُسِكُمْ: أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا أَعْلَمَ وَلَا أَكْرَمَ مِنْهُمْ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدْرَةِ اللَّهِ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَظَوَاهِرِهَا.

وفيها: فَضْلُ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

وفيها: شَرَفُ الْعِلْمِ، وَارْتِفَاعُ مَنْزِلَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: جَوَازُ عِتَابِ مَنْ ادَّعَى دَعْوَى غَيْرِ مُتَأَهِّلٍ لَهَا.

وفيها: امْتِثَالُ آدَمَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ لَهُ.

وفيها: تَقْرِيرُ الْمُخَاطَبِ بِمَا لَا يُمْكِنُهُ دَفْعُهُ.

وفيها: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَهَا إِرَادَاتٌ، وَأَنَّهَا تُبْدِي وَتُخْفِي.

وفيها: عِلْمُ اللَّهِ بِالْمَكْنُونَاتِ، وَمَا فِي الصُّدُورِ.

وفيها: تبليغُ العِلْمِ ونشرُه.

وفيها: فَضْلُ العالمِ العابدِ على الجاهِلِ العابدِ، وأنَّ الجَمْعَ بينَ العِلْمِ والعبادة هو المطلوب من المؤمن.

وفيها: اختصاصُ الله بعِلْمِ الغيبِ.

وفيها - مع ما قبلها -: عدمُ الاستعجال بالحُكْمِ على الأشياء؛ حتى لا يقف المتعجلُ موقفَ النَّدَمِ.

وفيها: أنَّ فوق كُلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ، وأنَّ على الإنسان ألاَّ يغترَّ بنفسه، ولا يزدري غيره؛ فلربما كان أعلمَ منه وأفضلَ.

وفيها: تبيينُ فَضْلِ صاحبِ الفضلِ، وإظهارُ شَرَفِهِ عند مَنْ انتقصه.

وفيها: أنَّ عِلْمَ الملائكة يقبلُ الزيادة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

ولما تبيَّن فَضْلُ آدَمَ، وشَرَفُهُ، وعِلْمُهُ؛ أمرَ الملائكة بالسجود له، كما قال بعض المفسرين. وقال بعضهم: إنَّ الأمرَ بالسجود بعد خَلْقِ آدَمَ وقبل التعليم.

وقد وردَ في آياتٍ أخرى أنَّ الأمرَ بالسجود كان قبل خَلْقِ آدَمَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْنَاهُ وَفَقَّحْتُمْ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢].

وقد ذكرَ تعالى هنا في سُورَةِ «البقرة» أمرَ الملائكة بالسجود لآدمَ، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكريا محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قُلْنَا، وضميرُ الجمعِ للتعظيم، والقائل: هو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ ظاهرُه أنَّ الأمرَ لجميعِ الملائكة.

﴿اسْجُدُوا﴾ (السجود): وضعُ الجبهة على الأرض ﴿لِآدَمَ﴾ سجودَ تحية وإكرام، وليس سجودَ عبادة؛ فإنَّ سجودَ العبادة لا يجوز لغير الله، وقد كان سجودُ التحية جائزا في الأمم قبلنا، كما فعل أهل يوسف له: ﴿وَخَرُّوْا لَهُ سُجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ثم صار في شرعنا ممنوعاً لغير الله على أي وجه كان.

﴿فَسَجِدُوا﴾ على الفور، من غير تأخير؛ امتثالاً لأمر الله.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وهو الشَّيْطَان، سُمِّيَ بـ (إبليس)؛ لَأَنَّهُ أَبْلَسَ؛ أي: أيس من رحمة الله.

﴿أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ﴾: امتنع معاندة، وأظهر كِبَرَهُ، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كما هو في عِلْمِ الله السابق. أو (كان) بمعنى: صار؛ فدخل في جملة الكافرين بسببِ إِبْأَاهِ واستكباره.

ومع أَنَّ إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، إِلَّا أَنَّهُ أُمِرَ مع الملائكة بالسجود.

وقد جاء التصريحُ بأمره بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

كرامة عظيمة لأدم عَلَيْهِ السَّلَام وذريته.

وفيها: بيانُ كُفْرِ إبليس، واستكباره عن الحق، وعلى الخلق.

وفيها: أَنَّ بعضَ المعاصي قد يكون كُفْرًا، وبعضُ الإِباءِ والامتناع يُخْرِجُ عن دائرة الإسلام.

وفيها: فَضْلُ الملائكة بالمسارعة إلى الامتثال والطاعة.

وفيها: أَنَّ الله يحكم ما يريد، فيأمر مَنْ شاء بالسجود لمن يشاء، ويمنع مَنْ شاء من السجود - كما منعه في هذه الأمة -.

واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على كُفْرِ تاركِ الصَّلَاةِ، وأنَّ الذي لا يسجد لله البتة فهو من الكافرين الخارجين عن مِلَّةِ الإسلام.

وفي الآية: وجوب امتثال أمر الله، عُرِفَتِ الْعِلَّةُ، أم لم تُعَرَف.

وفيها: وجوب اتِّبَاعِ أمر الله، سواء وافق هوى النفس، أو خالفه.

وفيها: الإِشَارَةُ إلى وجوب سُرْعَةِ تنفيذ أمر الله؛ اقتداءً بالملائكة.

وفيها: بيانُ فَضْلِ السجود، وأَنَّهُ أَفْضَلُ ما تُقَرَّبُ به إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: أَنَّ الكِبَرَ على طاعة الله سَبَبٌ لِلْكَفْرِ.

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥):

ثم أكرم الله آدم بعدما خلق له زوجته بكرامة أخرى؛ وهي: إسكائه الجنة؛ فقال عز وجل: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ﴾ وهذا يدل على أن الله كلمه بلا واسطة، وهذا شرف عظيم لآدم عليه السلام. وقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم: أنبييُّ كان آدم؟ قال: «نعم، مُكَلِّمٌ»^(١). ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: أقِم وامْكُث، واتخذ الجنة مسكنًا. و(المسكن): محلُّ السكون. والأمر؛ للإذن والإباحة، فأكرم الله آدم وزوجه حواء بالجنة. وهذا السياق يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، وهذا من النعمة: أن يُدْخِلَهَا معه لتؤنسَه، فلا يستوحش.

وأكثر العلماء على أن المقصود بالجنة: هي جنة الخلد المعروفة، ودار ثواب المؤمنين. وقد كان دخول آدم عليه السلام الجنة يوم الجمعة؛ كما دلَّ على ذلك الحديث الصحيح: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»^(٢). ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها، والأمر؛ للإباحة والإكرام ﴿رَغَدًا﴾: أكلاً واسعاً، طيباً، هنيئاً، لا تنغيص فيه ولا عناء. وقال مجاهد رحمه الله: «لا حساب عليهم»^(٣). ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: من أي مكانٍ من الجنة أردتما، فوسَّعَ عليهما في الأكل، مكاناً، ومقداراً. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: نههما عن الأكل من شجرة معينة، ومنعهما من قربانها، مبالغة في اجتنابها.

ولا يضرُّ الجهل بنوع هذه الشجرة، ولو كان في تعيينها فائدة لنا، لبيَّنه الله عز وجل.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: الَّذِينَ يَظْلَمُونَ أَنْفُسَهُمْ بمعصية الله.

(١) رواه ابن حبان (٦١٩٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

(٣) تفسير الطبري (٥١٥/١).

وفي هذه الآية من القوائد:

مِنَّةُ الله على الأبوين.

وفيها: سُنَّةُ الله في النِّكَاحِ بَيْنَ الْبَشَرِ.

وفيها: أَنَّ ثَمَارَ الْجَنَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وفيها: ابْتِلَاءُ الله لعباده بالممنوعات.

وفيها: أَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّهْيِ التَّحْرِيمُ، مَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ قَرِينَةً تَضَرِّفُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

وفيها: أَنَّ الشَّرِيعَةَ إِذَا حَرَّمَتْ شَيْئًا مَنَعَتْ كُلَّ مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ، وَهَذَا مَا يُعْرَفُ بِـ (سَدِّ الذَّرَائِعِ)، وَهُوَ مِنْ احْتِيَاطِ الشَّرِيعَةِ، وَكِمَالِهَا، وَمَحَاسِنِهَا.

فالنَّهْيُ عَنْ قُرْبَانِ الشَّيْءِ مَعْنَاهُ: النَّهْيُ عَنْ تَعَاطِيهِ وَارْتِكَابِهِ، وَتَرْكُ كُلِّ سَبَبٍ وَطَرِيقٍ يُوَدِّي إِلَيْهِ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَحْذَرَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الْوُقُوعِ فِيهَا.

وفي عدم تعيين الشجرة: الْكَفُّ عَنْ الْبَحْثِ فِيهَا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، وَلَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ: تَرَكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»^(١).

وفيها: تَسَاوِي الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى فِي الْخُطَابِ الشَّرْعِيِّ، أَمْرًا وَنَهْيًا، إِلَّا مَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا فِيهِ.

وفيها: أَنَّ الْمَسْكَنَ وَالْمَطْعَمَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ.

وفيها: أَنَّ الْمُبَاحَاتِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ.

وَقَهَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ: فِي النَّهْيِ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْجَنَّةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا لَا يُجْلَدَانِ فِيهَا؛ لِأَنَّ الْمُخْلَدَ فِيهَا لَا يُنْعَمُ مِنْ شَيْءٍ مِنْهَا.

وفيها: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ ظَلَمٌ لِلنَّفْسِ.

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي.

وفيها: ردُّ على المُبتدعة الذين يقولون: إنَّ الجنةَ غير موجودة، وستُخلَق يوم القيامة.
وفي الآية: الترغيب في النِّكاح.

وفيها: أنَّ التعيين يكون بالإشارة، كما يكون بالنَّص على اسم الشيء؛ لقوله: ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢١):

وقوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: أوقعهما في الزَّلَل، فأزالهما وأبعدهما ﴿الشَّيْطَانُ﴾.
والشيطان في لغة العرب: مُسْتَقٌّ مِنْ شَظَن، إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ^(١).

﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنةِ بوسوسته، وتزيينه للمعصية. ولا يمنعُ أن يقدرَ على الوسوسة لهما وهو خارج الجنة، وهما داخلها.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم.

وقد ورد تفصيلُ هذه الوسوسة، واستدراج إبليس لآدم وزوجه، كما في سورة «طه» وغيرها.

وقد كان إخراجُ آدم من الجنةِ يوم الجمعة، كما ثبت في الحديث: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»^(٢).

﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وحواء وإبليس: ﴿اهْبِطُوا﴾ انزلوا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وفي هذا: تقريرُ العداوةِ بينَ آدمَ وزوجِهِ من جهة، وإبليسَ من جهةٍ أخرى.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ﴾: قرارٌ وتمدُّعٌ بالنعيم، لكنَّه مؤقتٌ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاءِ الأجلِ، بالموتِ، وقيامِ الساعةِ.

(١) تفسير ابن كثير (١/١١٥).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

وفي هذه الآية من القوائد:

الحذر من الوقوع في المعاصي والزلل، وهذا ما يسعى إليه إبليس.
وفيها: تذكير العباد بعداوة الشيطان، وحربه على زوال النعمة عن ابن آدم.
وفيها: أن الجنة أعلى من الأرض؛ لقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾، والهبوط: لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

وفيها: أنه لا يمكن لبني آدم العيش إلا في الأرض، وأن كل محاولات العيش على الكواكب الأخرى ستبوء بالفشل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُم فِي الْأَرْضِ مَسْنَعٌ﴾، ولقوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفي الآية: أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا، وأن عيشهم فيها مؤقت؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.
وفيها: رحمة الله بأن أعد السكن للسكان قبل إنزاله، وأن آدم لما هبط إلى الأرض كانت جاهزة لمعيشته عليها، بل قد ثبت عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: «إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فشارككم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير»^(١).

وفي الآية: أن الإخراج من دار الراحة - وهي الجنة - إلى الأرض؛ للعمل والتعب.
وفيها: خطورة الذنب وعقوبته، وعدم الاستهانة بالمعصية؛ فإن آدم وزوجه أخرجوا من الجنة بذنب واحد.

وقد ورد في بعض الآثار: ذكرُ افتتان آدم بزوجه، واستمالة إبليس لحواء في إغواء زوجها.

ويؤخذ منه: التحذير من فتنة الزوجة، وأن الشيطان يستعين بها على تزيين المعصية للرجل، وإذا زينت المرأة المعصية لزوجها فوافقها على ذلك واستجاب لها؛ عوقبا جميعاً، كما قال الله: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٢)، بإسناد صحيح.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا جرى عليه قَدْرُ الله، بالانتقال من معيشة رغيدة، إلى معيشة شاقَّة؛ فإنَّه يُوطَّنُ نفسه على التعامل مع الواقع الجديد، ويرضى بقضاء الله تعالى.

وفيها: أنَّ من سُؤْمِ المعصية: الحرمان من رَعْدِ العيش.

وفيها: أنَّ العداوة بين آدم وذريته مع إبليس هي عداوة دينيَّة، فلا ترتفع ما بقي الدين.

وفيها: تهيجُ النفوس لاسترجاع الإقامة في الجنة، بامتثال أوامر الله، وهذا هو الطريقُ في دفعِ الحسرةِ الناتجة عن فقدان الجنة؛ بسببِ ما حَصَلَ من إيقاعِ الشيطان بالأبوين.

قال ابن القيم رحمه الله:

فَحَيَّ عَلَى جَنَاتٍ عَذِيٍّ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّا سَبِيَّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ^(١)

ويؤخذ منها: أنَّ هبوط آدم إلى الأرض، قَدَّرَ جَرَى عليه من الله، وليس أمراً تكليفيّاً.

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٧):

ثم ذكر تعالى توبته على آدم، وكان ذلك بعد خروجه من الجنة، وبعد الأمر بالهبوط، وقبل أن يحدث الهبوط؛ فقال تعالى:

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ﴾ أي: استقبل بالأخذ، والقبول، والعمل ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ هذه الربوبية الخاصة، الدالة على المحبة ﴿كَلِمَتٍ﴾ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَرَتْقِفَرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَلَبَّ عَلَيْهِ﴾ قَبْلَ توبته، ورجع عليه بالمغفرة والفضل والرحمة؛ ﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ﴾: كثير التوبة على مَنْ تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾: كثير الرحمة الواسعة، الواصلة إلى مَنْ يشاء من عباده.

وفي هذه الآية من القوائد:

مِنَّةُ الله تعالى على أبنائنا آدم، حين علَّمَهُ كيف يتوب، ووفَّقه للتوبة، ولم يتركه للذنوب.

وكذلك مِنَّةٌ أُخْرَى عِنْدَمَا قَبِلَ تَوْبَتَهُ؛ فَكَانَتِ الْمِنَّةُ الْأُولَى قَبْلَ تَوْبَةِ آدَمَ، وَالْمِنَّةُ الثَّانِيَةُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ.

وفِيهَا: أَنَّ لِلْكَلِمَاتِ الَّتِي يَقُولُهَا الْعَبْدُ فِي التَّوْبَةِ أَثْرًا بَالِغًا فِي قَبُولِهَا.
وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ الْمَذْنِبَ إِذَا صَدَّقَ فِي تَوْبَتِهِ قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ بِذَنْبِهِ.
وَالتَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ: نَدَمٌ عَلَى مَا كَانَ، وَتَرْكُ الذَّنْبِ الْآنَ، وَالْعَزْمُ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدَةِ إِلَيْهِ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ، وَرَدُّ مَظَالِمِ الْعِبَادِ - إِنْ كَانَ الذَّنْبُ مُتَعَلِّقًا بِآدَمِيٍّ - وَاسْتِدْرَاكُ مَا فَاتَ.
وَيُؤْخَذُ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِمَّا كَانَ وَقُوعُ الصَّغَاثِرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي نُبُوَّتِهِمْ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى بَشَرِيَّتِهِمْ.

وَأَمَّا عَصَمَتُهُمْ مِنَ الْخَطَا فِي تَبْلِيغِ الْوَحْيِ، وَعَصَمَتُهُمْ مِنَ الشَّرِّ وَالْكُفْرِ، وَعَصَمَتُهُمْ مِنَ الْكِبَايِرِ؛ فَهِيَ بَاقِيَةٌ.

ثُمَّ إِنَّ الذَّنْبَ إِذَا حَصَلَ مِنْهُمْ فَهُوَ نَادِرٌ، وَسَرَاعَانِ مَا يَسْتَغْفِرُونَ وَيَتُوبُونَ، وَذُنُوبُهُمْ مَشْمُولَةٌ بِمَغْفَرَةِ اللَّهِ، وَيَحْتَفُّ بِهَا مَا يُخَفِّفُهَا فِي حَالَةِ وَقُوعِهَا مِنْهُمْ.

فَمَعْصِيَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ مَعَ النَّسْيَانِ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ إِبْلِيسَ حَلَفَ لَهُ؛ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْلِفَ أَحَدٌ كَذِبًا، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِالْأَكْلِ أَنْ يَخْلُدَ أَوْ يَصْبَحَ مَلَكًا، فَيُقَرَّبَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاجْتَمَعَ مَعَ ذَلِكَ تَزْيِينُ الزَّوْجَةِ، وَرَبِّهَا ظَنَّ أَنَّ مَصْلَحَةَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ تَزِيدُ عَلَى الْمَفْسَدَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ.

وَفِي الْآيَةِ: دَرَسٌ لِلدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ فِي تَعْلِيمِ الْمَذْنِبِينَ التَّوْبَةَ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهَا، وَهَذَا أَعْظَمُ مِنَ التَّوْبِيخِ.

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ التَّوْفِيقَ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ، فَيَجِبُ عَلَى الثَّائِبِ أَلَّا يَغْتَرَّ وَلَا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا تَوْفِيقُ اللَّهِ لَمَا تَابَ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَقْوِيَةٌ رَجَاءِ الْمَذْنِبِينَ فِي اللَّهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ جَلٌّ وَعَلَا إِذَا تَابُوا إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِيهَا تَوْبَتَهُ عَلَى آدَمَ، ثُمَّ خَتَمَهَا بِتِلْكَ الْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى تَحْقِيقِ حَصُولِ تَوْبَتِهِ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْتَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أَيُّ: إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ.

وفي الجَمْعِ بينَ التوبة والرحمة، وضمير الفصل (هو) في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾: دلالةٌ على اختصاص الله تعالى بالتوبة والرحمة العظيمةِين الشاملتين، اللّتين لا يقدر عليهما غيره.

وفيها: إعانةُ الله للتائبين، وحفظُهم ورَفْعُ منزلتهم؛ فإنَّ آدم بعد الذنب والتوبة صار خيرًا وأرفعَ منزلةً ممَّا كان قبل الذنب، فما أهبطه إلَّا ليرفعه، وما كتب عليه الذنب إلَّا ليقربه، وما قدر عليه المعصية إلَّا ليرحمه، ولم يشأْ له المُخَالَفَةُ إلَّا ليعلمه. وفي الآية: أنَّ وقوعَ السُّرِّ قد ينقلبُ إلى خير عظيم، وأنَّه قد يَحْصُلُ من الفوائد بعد المعصية ما لا يعلمه إلَّا الله.

ويؤخذ من إغفالِ ذِكْرِ حواء: أنَّ المرأةَ تَبِعَ للرجل، وأنَّ أمرها مبنيٌّ على السُّرِّ والحُرمة؛ ولذلك جاءت أغلبُ الخطابات في القرآن بصيغةِ المُذَكَّرِ.

﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨):

تكرار الأمر بالهبوط في قوله تعالى ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا﴾ يدلُّ على تحثُّبه وتحقيقه لا محالة، واستبعادِ أمنيَّةِ العودة السريعةِ إلى الجنة.

كما أنَّ الأمرَ الأوَّلَ مقرونٌ بِذِكْرِ العداوةِ بينَ آدم وإبليس، والاستقرار في الأرض، والهبوط الثاني مقرونٌ بما سيَحْصُلُ من التكليف، وثواب من أطاع، وعقوبة من عصى.

﴿مِنْهَا﴾ من الجنةِ إلى الأرض ﴿جَمِيعًا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والذرِّيَّة.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ الأنبياءُ والرُّسُلُ والبيان من الله تعالى.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: أطاع رُسلي، وعمل بما أنزلتُ؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أيِّ مكروه في المستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء مضى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الهدى من عند الله؛ ولذلك لا يُطَلَّب ولا يُسأل إلَّا منه سبحانه.

وفيها: أن أتباع الهدى يؤدّي إلى حصول الأمن والطمأنينة النفسية، فلا يخشى مُتَّبِعُ الهدى المكروهات، وكذلك لا يحزن على ما مضى؛ لأنه اغتنمه بالأعمال الصالحة، فلا يخاف ممّا هو آتٍ، ولا يحزن على ما فات.

وفيها: أن الله تعالى ابتلى عباده بشرّعه؛ ليظهر من يتبعه، ممن يكفر به ويكذب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦):

ثم بين تعالى عاقبة المُعْرِضِينَ؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية التي أنزلناها، فجمعوا بين الكفر بالأمر، والتكذيب بالخبر.

و(الآيات): جمع «آية»، وهي: العلامة الظاهرة، والدليل البيّن. وقد تكون شرعية، وهي: ما أنزل الله في كتبه، أو كونية، وهي: الدّالة على ربوبيّته وعظمته، ممّا خلقه في الكون.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: إشارة إليهم باسم الإشارة الدّالة على البعيد؛ لانحطاط رتبهم ﴿أَصْحَابُ

النّار﴾ المُلازمون لها لا يفارقونها، و(الصاحب) لا بُدَّ أن يلزم صاحبه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ما كانوا دائماً وأبداً، لا تحيد عنها، ولا يحيص.

قال النبي ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن من أسباب الخلود في النار: التكذيب بآيات الله، والكفر بها، ومن كان كُفْرُهُ كُفْرًا أكبر فهو خالدٌ في النار، وأمّا أصحابُ الكُفْرِ الأصغر: فغيرُ مخلّدين.

وفيها: أن من كذب بآيات الله الشرعية يكفر، حتى لو آمن بآياته الكونية؛ فإن بعض الكفار يؤمنون بأن من آيات الله: الليل والنهار والشمس والقمر، ولا يمنع هذا من الحكم عليهم بالكفر.

وفي الآية: سوء مَصِيرِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقَلْبِ، وَالْمُكَذِّبِينَ بِاللِّسَانِ.

وفيها - مع الآية التي قبلها - : ذِكْرُ مَصِيرِ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ؛ لِلْجَمْعِ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ؛ وَذَلِكَ أَكْثَرُ أَثْرًا فِي النُّفُوسِ، وَأَظْهَرُ فِي بَيَانِ الْمَقْصُودِ.

وفي الآية: دَلِيلٌ عَلَى بَقَاءِ النَّارِ، وَعَدَمِ فَنَائِهَا؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا كَانُوا خَالِدِينَ فِيهَا فَلَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهُمْ﴾

ولَمَّا تَقَدَّمتْ دَعْوَةُ النَّاسِ جَمِيعًا لِلْعِبَادَةِ؛ بِدَأْ بِالتَّفْصِيلِ بِدَعْوَةِ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِالْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَمَكْتُوبٌ عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

ولَمَّا كَانَتْ الْحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ تَقْتَضِي التَّلَطُّفَ مَعَ الْمَدْعُوعِ، وَحُسْنَ مَنَادَاتِهِ، وَذِكْرَ مَنْزِلَتِهِ؛ نَادَاهُمْ بِاسْمِ مَحَبِّ إِلَيْهِمْ، وَبَيَّنَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ لَهُمْ مَكَانَةً تَارِيخِيَّةً وَشَأْنًا فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ. فَقَالَ: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (إِسْرَءِيلُ): هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالْمَقْصُودُ: يَا أَبْنَاءَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمَطِيعِ لِلَّهِ، كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عَصَابَةَ مِنَ الْيَهُودِ حَضَرُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَءِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا...»، قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ»^(١).

وَقَوْلُهُ ﴿أَذْكُرُوا﴾ بِالِسِّتِّكُمْ ﴿نِعْمَتِي﴾، وَتَدَارَسُوهَا، وَلَا تَغْفُلُوا عَنْهَا. وَاذْكُرُوهَا بِقُلُوبِكُمْ بِالِاسْتِيقَازِ وَالِانْتِبَاهِ إِلَى الْمُنْعِمِ؛ لِتَتَبَّهُوا لَهُ سَبْحَانَهُ فَتُشْكِرُوهُ. وَاذْكُرُوهَا بِجَوَارِحِكُمْ؛ أَيِ: قَوْمُوا بِشُكْرِهَا عَمَلِيًّا.

﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ مِثْلُ: تَخْلِيصِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَبَعْثِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُلُوكِ مِنْهُمْ،

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢٥١٤)، وَحَسَنَهُ عَقْفُ الْمُسْنَدِ.

وإنزال الكتب المعظمة عليهم، والتظليل بالغمام، والرزق باليمن والسئوى، وتفجير الحجر عيوناً لمشربهم، ونحو ذلك.

وقوله ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه النعم فضل محض من الله عز وجل.

﴿وَأَوْفُوا﴾ أتموا ﴿بِعَهْدِي﴾ وهو ما عهد به إليهم، من الإيثار به وعبادته وحده لا شريك له، والقيام بما أمرهم به، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢].

وقيل في (العهد): هو التوراة، وما أخذه الله عليهم من لزوم الإيثار بالنبي الذي سيبعثه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا العهد المجمل هنا، جاء تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [المائدة: ١٨٧].

فلماذا قبلتم هذا الميثاق، وأوفيتهم به، وأتبعتم محمداً صلى الله عليه وسلم؟ ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أتمم لكم جزاءكم بحسن الثواب والقبول، وتكفير السيئات، وإدخالكم الجنة.

و(العهد): هو الميثاق والوصية، والوفاء به: حفظه ومراعاته في كل الأحوال.

وبالجملة: فإن قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي: أدخلوا في الإسلام.

﴿وَلِئَلَّا فَازَهُبُونا﴾: فاحشوني وخافوني، ولا ترهبوا وتخافوا غيري.

وتقديم لفظة (إِيَّاي) على لفظة ﴿فَازَهُبُونا﴾ يُفيد الحصر؛ أي: لا ترهبوا إلا إِيَّاي. والرَّهبة: شدة الخوف، ورهبته تعالى عبادة عظيمة، فأمر الله بها وأمر بإخلاصها.

وهذا انتقالٌ من الترغيبِ إلى التهيبِ، والجَمْعُ بينهما يؤثّر في النفوس.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ تذكير العبد بنعمة الله عليه أقوم للحُجّة عليه، وأدعى لاتباع الحقّ.

وفيها: نعمة الله العظيمة على بني إسرائيل.

وفيها: أنّ النّعمة على الأجداد هي نعمة على الأحفاد. والخطاب في الآية وإن كان لليهود المتأخّرين، إلّا أنّ النّعمة على أسلافهم وصلّ أثرها إليهم، فلولا نجاة أولئك ما جاء هؤلاء.

وكذلك من نعمة الله على بني إسرائيل المتأخّرين: التاريخ الذي شرفوا به، من مجيء الرّسل من آبائهم المتقدّمين، وإنزال الكتب عليهم، ولو أنهم آمنوا بمحمّد ﷺ لأكملت النّعمة عليهم من كلّ وجه؛ فالنّعمة على هؤلاء المتأخّرين ببعثة النّبي ﷺ عظيمة.

وفيها: وجوب إخلاص الرّبهة لله، وأنها عبادة من عبادات القلب. وأمّا الخوف الطّبيعي الجبليّ - كالخوف من سبع وعدوّ - فلا يُنافي ذلك.

وفيها: نداء المدعوّين بالأسماء المحبّبة إليهم، وإن كانوا كفّاراً؛ استجلاباً لقلوبهم، وتألّيفاً لنفوسهم.

وفي الآية: التذكيرُ بشكر النّعم، فالذكرُ شكر، والنسيانُ كفران.

وفيها: وجوبُ وفاء الإنسان بنذره، وبما عاهد الله عليه.

وفيها: الجَمْعُ بين الترغيب والترهيب في الدّعوة.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ (٤١):

ولمّا أمرهم بالوفاء بالعهد، وأن يرهّبوه وحده عزّ وجلّ؛ أمرهم بعد ذلك بالإيمان بالقرآن الذي أنزله؛ فقال:

﴿وَأَمِنُوا﴾: صدّقوا يا أهل الكتاب، واعملوا ﴿بِمَا أُنزِلَتْ﴾ من القرآن، الذي أنزلته

على مُحَمَّد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ومؤكِّدًا ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، المكتوب فيهما صفة مُحَمَّد ﷺ، وبعثته، ووجوب الإيمان به، والأمر بالتوحيد، وشاهدًا بالصدق على نزول الكتب المتقدمة، وتحقق بنزوله ما جاء فيهما من الأخبار عن صفة مبعثه ﷺ.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا معشر أهل الكتاب ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ من الناس؛ أي: لا تُسارعوا إلى الكفر بالقرآن، ولا بالنبي ﷺ، ومن كفر بالقرآن فقد كفر بالنبي مُحَمَّد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن.

﴿يَه﴾ أي: بالنبي ﷺ، أو بهذا القرآن؛ لأن الواجب عليكم أن تكونوا أول مؤمن به، حيث إن صفته ﷺ مكتوبة عندكم في التوراة والإنجيل؛ فلا يليق بكم وأنتم تعلمون الحق أن تكذبوا به؛ لأنكم إذا كفرتم كفر من بعدكم، وصرتم قُدوةً سيئةً لذريئكم، فتبوءوا بإثمكم وإثمهم؛ فإن وُزر المقتدي يكون مثله على المُبتدي -بالإضافة إلى وُزر المُبتدي-.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾: لا تأخذوا على كتمانها وتحريفها ثمنًا قليلًا من الرياسة، أو المال، أو غير ذلك، ولو كان هذا الثمن هو الدنيا كلها؛ فإنها كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

أي: لا تكفروا بما أنزلت خشية فوات عرض الدنيا الذي تأخذونه من أتباعكم، وتخافون فقده إذا آمنتم، وتخافون على جاهكم ورتاستكم.

وقد كان رؤساء اليهود وعامتهم يُعطون أحبارهم نصيبًا من الزروع والثمار، ويهدون إليهم الهدايا، وأحيانًا يكون ذلك مقابل الإفتاء بالباطل، وتغيير بعض الشرائع بتحريف الكلم، فخاف الأحبار إذا آمنوا بالنبي ﷺ أن يفقدوا ذلك المال، وتلك الرياسة والمكانة، فكنتموا أمر النبي ﷺ، وحرّفوا ما في كتبهم من صفته ومبعثه؛ لئلا يفوتهم هذا النصيب من الدنيا!

﴿وَإِنِّي فَأَقُولُ﴾ أي: اتقوا عذابي، بالإيمان بما أنزلت، وأتباع الحق، وإظهاره، وعدم كتمانها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الكفار جميعًا مخاطبون بالإسلام.

وفيها: أن تصديق القرآن لما تقدّم من الكتب كان بالموافقة والمطابقة لما فيها، وتحقيق ذلك عمليًا، وحصوله في الواقع.

وفيها: أن من كفر أو لا صار قُدوةً سيئةً لذريّته ولغيره، فيبوءُ بإثمِهِ وإثمِهِمْ.

وفيها: أن من اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ففيه شبهة من اليهود.

ومن قصد بتعلّمه العلوم الشرعيّة أو تعليمها المالَ ومتاع الحياة الدُّنيا؛ فإنّه داخلٌ في الوعيد الذي أخبر به النبي ﷺ بقوله: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا^(١).

فمن جعل تعلّمه للدين لنيل شهادة يفتخر بها على الناس، أو جعل تعلّم الدين وسيلةً لتحصيل الدُّنيا فقط؛ فهو على خطر عظيم.

أمّا إذا كان قصده نفع المسلمين، وخدمة الدين من خلال ما يكون فيه من المنصب الشرعي، وأنّ ما يحصل له من المال إنّما هو تبعٌ وليس بأصل، وليتمكّن به من التفرُّغ لتعليم الدين؛ فهذا مأجور على نيّته، ولا يدخل في الوعيد.

ومن أُعطي من بيت المال ما يقوم بحاله وعياله، ليتفرَّغ للتعليم، ولا ينشغل عنه بالتكسُّب؛ فلا بأس عليه؛ لأنّ قصده نشر العلم، وما يُعطاه وسيلة لتحقيق ذلك.

وعلى هذا، فيجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، إذا لم يُفرض للمُعَلِّم شيء من بيت المال، وكان التعليم يقطعُه عن التكسُّب، وكان ممّن يتعيّن عليه ويجبُ هذا التعليم، فمثله يدخل في حديث النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»^(٢).

ففرّق بين من يتعلّم الشريعة ليأخذ عَرَضًا من الدُّنيا، وبين من يأخذ لأجل أن يتمكّن

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٥).

(٢) رواه البخاري (٥٧٣٧).

من التعلُّم والتعليم؛ فالأولُ جَعَلَ الْأَخْذَ مِنَ الدُّنْيَا هُوَ الْغَايَةُ وَتَعَلَّمَ الدِّينَ وَتَعْلِيمَهُ وَسِيلَةً، والثاني جَعَلَ خِدْمَةَ الدِّينِ غَايَةً وَالْأَخْذَ مِنَ الدُّنْيَا وَسِيلَةً.

وفي الآية: وجوبُ بيان الحقِّ، وتحريمُ كتمانِه، ويشتدُّ التحريمُ إذا أَخَذَ عَلَى الْحَقِّ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْنُوهَا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢):

ولمَّا نهاهم تعالى عن الكُفْرِ المناقض للإيمان، وأن يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا، وهو يناقض الإخلاص؛ نهاهم عَزَّوَجَلَّ عن أمرين عظيمين، كُلُّ واحدٍ منهما جريمة عظيمة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَا تَلْسُوا﴾: ولا تخلطوا ﴿الْحَقَّ﴾ المنزَّل من عند الله ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ المخترع من عندكم، والصُّدُقُ بالكذب، ولا تستعملوا أساليب التمويه والتضليل لتحسين الباطل وتقييح الحقِّ، وأدوا النصيحة لعباد الله، ولا تشوبوا الصُّدُقُ بالكذب.

وصحَّ عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ: «لَا تَلْسُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِالْإِسْلَامِ؛ إِنَّ دِينَ اللَّهِ الْإِسْلَامَ، وَإِنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِدْعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ»^(١).

وفي هذا: ردُّ على بعض الخُبثاء في عصرنا، الذين يُنادون باحترام جميع أصحاب الأديان، والمساواة بينها، وأن الأديان الموجودة اليوم كلها صحيحة!.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله ﴿وَتَكْنُوهَا الْحَقَّ﴾ أي: لا تتعمدوا إخفاءه، والسكوت عن تبليغه؛ بل عليكم البيان. ومن الحقِّ: نبوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفته التي يجدونها مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لا تقوموا بالتليس والكتمان، وأنتم عالمون بالحقِّ.

أي: لا تكتُموا نبوةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنتم تعرفونه حقًّا، وتجدون وصفه مكتوبًا عندكم، وتعلمون أَنَّهُ هُوَ.

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩٨/١)، بسند صحيح.

فعليكم بالنصيحة وهي ضد التلبس، وعليكم بالبيان وهو ضد الكتمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل، وتحريم كتمان الحق.

وفيها: وجوب القيام بإزالة الإشكالات والشبهات التي تُشوش على الناس؛ لأن هذا من لوازم البيان، وأن من تعيّن عليه أداء علم حاجة الناس إليه، ولا يستطيعه إلا هو؛ فإنه يجب عليه أدائه.

وقد جاء الوعيد على مخالفة هذا، فقال الرسول ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ؛ أَجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفيها: تحريم زخرفة الباطل بالقول لتحسينه، وتحريم إيراد الشبهات على الحق لتقبيحه.

وفيها: أن من أساليب اليهود، خلط الحق بالباطل؛ تليسا على الناس، كما فعلوا في خلط صفة النبي ﷺ بصفة المسيح الدجال.

ويؤخذ من الآية: النهي عن خلط أي نوع من الحق بأي نوع من الباطل، كخلط العدل بالجور، والصدق بالكذب، والحكم بالرشوة، ونحو ذلك.

وفيها: أنه لا يجوز الامتناع عن قول الحق وكتمان، خوفاً أو هيبه من أحد، ولا طمعا في دنيا.

وفيها: بيان الأثر السيء لعلماء الضلالة على الناس.

وفيها: أهمية إعلان الحق وبيانه وتوضيحه؛ لهداية الضالين، وإقامة الحجة عليهم.

وفيها: تحريم ترويح الباطل في صورة الحق؛ لينخدع الناس ويأخذوا به، كما يُقدّم اليوم كثير من المنافقين والمفسدين على أنهم من المصلحين المتنورين، وكما تفعله وسائل الإعلام في إخفاء حقائق الحوادث، وتفسير الناس عن الحق وأهله، بنعتهم بالصفات القبيحة، وتزيين الباطل وأهله، بالثناء عليهم، وهذه طريقة اليهود المغضوب عليهم.

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآزَكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ (٤٣):

ولمَّا أَمَرَ الله بالإيمان في قوله ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ﴾، ونهى عَمَّا يَنَاقِضُهُ، وأَمَرَ بِبَيَانِ الْحَقِّ، ونهى عَمَّا يَنَاقِضُهُ؛ أَمَرَ بِلِزُومِ الشَّرَائِعِ، وأداء العِبَادَاتِ؛ فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

وإقامتها: باعتقادِ قُرْضِيَّتِهَا، وإقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها، والاهتمام بِسُنَنِهَا وآدابها. والصَّلَاةُ تشمل: الفريضة والنافلة، فيكون الأمرُ بها للفريضة للوجوب، والنافلة للاستحباب.

والمقصود بأمر اليهود والنصارى بالصَّلَاة، أي: صلاة المسلمين التي شَرَعَهَا في هذا الدِّين، لا صلاة اليهود والنصارى.

﴿وَأَتُوا﴾ أعطوا ﴿الزَّكَاةَ﴾ الواجبة في أموالكم، وهي النصيب المُعَيَّن في أموال مخصوصة، وتُدفع لأهلها ومستحقِّيها الذين عَيَّنَهُم الله. وَسُمِّيَتْ (زكاة)؛ لأنها تُزَكِّي النفس وتُطهرها.

ويدخل في الآية: زكاة الفطر أيضًا.

ولم يبيِّن هنا مقدار الواجب، ولا الأموال الزكويَّة، ولا أهل الزكاة الذين تُدفع إليهم، ولكنها مبَيَّنَةٌ في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

﴿وَأَزَكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ أي: كونوا مع المؤمنين في أفضل أعمالهم -وهي الصَّلَاة- وصلُّوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

وقد استدَلَّ كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة.

وخصَّ الله سبحانه وتعالى (الرُّكُوعَ) بالذكر لفضله، ولأنَّ اليهود لا ركوع في صلاتهم، ولكونه ثَقِيلًا على أهل الجاهليَّة.

ولا يُتَعَبَّدُ لله بالرُّكُوع المجرَّد، وإنَّما سُمِّيَتْ (الصَّلَاة) ركوعًا؛ لأنَّ الركوع من أفضل أركانها، وهو علامة خضوع لله؛ ولذلك جاء الأمرُ به.

فأمر في هذه الآية بالصلاة تطهيراً للنفوس، وبالزكاة تطهيراً للأموال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الإيمان يتبعه القيام بالعبادات.

وفيها: أمر اليهود بالدخول في الإسلام، والصلاة مع المسلمين، مع أن الصلاة التي فرضت عليهم في شريعتهم فيها ركوع وسجود، كما قال تعالى: ﴿يَكْمُرُ أَقْتَبُ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَرْكَعُ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وهذا يدل على أن الإسلام ناسخ لما قبله من الشرائع.

وفي الآية: كمال الشريعة وحسنها؛ بمجيئها بما يطهر النفوس والأموال.

وفيها: امتحان الله لعباده، بإخراج بعض أموالهم، وعلاج بخل النفوس.

وفيها: جواز التعبير عن الشيء بذكر بعض أجزائه، كما وصف الصلاة بـ (الركوع).

وفيها: فضل صلاة الجماعة.

فيها: أن العبد يضاعف أجره بمشاركته لإخوانه المصلين، مع أن صورة العمل واحدة، وأن اجتماع المؤمنين بعضهم إلى بعض في العبادة يضاعف أجر كل واحد منهم.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَكْثَرُ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤):

ولما أمر تعالى أهل الكتاب بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والصلاة مع الجماعة؛ وبخهم على ما كان منهم من أمر الناس بالبر مع تركهم له، ونهي الناس عن المعاصي مع وقوعهم فيها؛ فقال:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾: وهذا الاستفهام للإنكار والتقريع، والخطاب لبني إسرائيل، وخصوصاً أحبارهم ورهبانهم؛ فقد كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وتقواه، و﴿بِالْبِرِّ﴾ وهو جميع خصال الخير.

وقوله ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾: تتركونها من الخير، ولا تحملونها عليه، ولا تمنعونها من المعاصي. أفليق بكم أن تفعلوا ذلك، ﴿وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَكْثَرُ﴾: حال كونكم تقرأون كتاب

الله، وهو التوراة التي كانت في أيدي أحبارهم ورهبانهم، الذين يأمرُونَ وينهون، ويخالفون، مع أن الواجب البدء بالنفس أولاً في إلزامها بالبرِّ ومنعها من الشرِّ.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢]، وقال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةً أُسْرِيَ فِي رَجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟»^(١).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ»^(٢) فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ، مَا سَأَلْنَاكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(٣).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ؛ كَمَثَلِ السُّرَّاجِ، يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»^(٤).

وقال الشاعر:

لَا تَنَّهُ عَنِ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَئِهَا عَنْ غِيَّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

وقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تُدْرِكُونَ بها خطأكُم وضلالكم؟

والعقل عقلان: عقل الإدراك: وهو فهم الأشياء، ويترتب التكليف عليه.

(١) رواه ابن حبان (٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢٧).

(٢) أي: تخرج أمعاء بطنه من مكانها.

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٦٥/٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣١)، وأعلل بالوقف.

وعقل الرُّشد: وهو الذي يحمل صاحبه على ما ينفعه، ويحجزه عما يضرُّه. وهو المقصود هنا.

وفي هذه الآية من القوائد:

أنَّه ينبغي على المسلم أن يكون إمامًا بفعله قبل قوله.

ويؤخذ من الآية: أهميَّة التربية بالقُدوة.

وفيها: خطورة مخالفة القول بالفعل.

وفيها: توبيخ علماء السوء.

وفيها: أنَّ المخالف الذي يعلم الحُكم، أشدُّ في اللُّوم من الجاهل الذي لا يعلمه.

وفيها: أنَّ مراتب الناس في الأمر بالمعروف والعمل به متفاوتة:

فمنهم مَنْ يأمر بالمعروف ويعمل به، وينهى عن المُنكر ويتركه، وهذا أشرف المنازل.

ومنهم مَنْ لا يأمر بالمعروف ولا يفعله، ولا ينهى عن المُنكر ويقع فيه، وهذا أخطَّ المنازل.

وبينهما الذي يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المُنكر ويأتيه، فهذا مؤاخَذٌ مذموم، ولكنه أقلُّ سوءًا ممَّن تحتَه؛ ولذلك يُقال له: مُر بالمعروف وجاهد نفسك في فعله، وانه عن المُنكر وجاهد نفسك في تركه.

وفي الآية: أنَّ العقل يمنع صاحبه من إتيان القبيح، وهذا عقل الرُّشد، وأنَّه إذا قوِيَ عَوَضَ بعضُ نقْصِ العلم.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١٥):

قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ أي: على أمور الدنيا والآخرة، وما يحدث لكم.

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللهُ: «واستعينوا بالصَّبر والصَّلَاة على مرضاة الله، واعلموا أنَّهما من طاعة الله» (١).

(١) تفسير الطبري (١/١٥).

وهذا الخطاب - وإن كان موجَّهاً لأحبار أهل الكتاب وبني إسرائيل -؛ فإنه عامٌ لجميع الناس.

﴿يَا صَبِرٍ﴾: حَمَلِ النفس على الطاعة، وكفِّها عن المعصية. والصوم من الصَّبَرِ.

﴿وَالصَّلَاةَ﴾: فَرَضُهَا وَنَفْلُهَا، وَ«كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»^(١).

وَنُعِي إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخُوهُ قُتَيْمٌ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ فَأَنَاحَ رَاحِلَتَهُ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ يَمْشِي إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية^(٢).

وَعُثَيْبِي عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَشِيَةً، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ فَاضَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، فَخَرَجَتْ امْرَأَتُهُ أُمُّ كَلْثُومٍ - وَكَانَتْ مِنَ الْمَهَاجِرَاتِ الْأَوَائِلِ - إِلَى الْمَسْجِدِ، تَسْتَعِينُ بِمَا أُمِرَتْ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ^(٣).

﴿وَأَنَّهُمَا﴾ أَي: الصَّلَاةُ، وَقِيلَ: الْاسْتِعَانَةُ، أَوِ الْوَصِيَّةُ بِمَا تَقَدَّمَ ﴿لِكَبِيرَةٍ﴾ شَاقَّةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَى الْخَشِيعِينَ﴾ الْمُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ، الْخَاضِعِينَ لِمَطَاعَتِهِ، الْخَائِفِينَ مِنْهُ، الْمُسْتَكَينِينَ لِأَمْرِهِ، الْمَصْدُقِينَ بِمَا أُنْزِلَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِظَمَ قَدْرِ الصَّلَاةِ، وَأَنَّهَا عَظِيمَةٌ لَكِنَّهَا يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَفِيهَا: أَنَّ الصَّلَاةَ شَاقَّةٌ صَعْبَةٌ الْإِحْتِمَالِ، إِلَّا عَلَى الْمُخْبِتِينَ لِلَّهِ، الْخَائِفِينَ مِنْ عِقَابِهِ، فَإِنَّهَا سَهْلَةٌ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٤).

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ أَخْشَعَ، فَهُوَ لَهُ أَطْوَعُ.

وَفِيهَا: الْاسْتِعَانَةُ بِالْعِبَادَاتِ عَلَى شُؤُونِ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَافِي قَصْدَ وَجْهِ اللَّهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ، وَرَجَاءَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ مَعَ خَيْرِ الدُّنْيَا.

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) شعب الإيمان (٩٢٣٣).

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢٩٨/١).

(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

وفيها: أَنَّ الصَّبْرَ والصَّلَاةَ يُسَلِّيَانِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَيُخَفِّفَانِ الْأَحْزَانَ.
 وفيها: أَنَّ التَّصَدِيقَ بِوَعْدِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ وَالْخَوْفَ مِنْهُ، يُخَفِّفُ ثِقَلَ الْعِبَادَةِ عَلَى النَّفْسِ.
 وفيها: أَثَرُ الْخُشُوعِ فِي حَصُولِ لَذَّةِ الْعِبَادَةِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِهَا.
 وفيها: فَضِيلَةُ الصَّبْرِ، وَهَذَا يَشْمَلُ: الصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَالصَّبْرَ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ،
 وَالصَّبْرَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ.
 وَفَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ الصَّبْرَ فِي الْآيَةِ بِالصُّومِ^(١)، فَالصُّومُ يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَالصَّلَاةُ تُرْغِبُ
 فِي الْآخِرَةِ.

وفيها: أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكْمَلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ.
 وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي تَحْصِيلَ الْخُشُوعِ؛ لِتَحْقِيقِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢):

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى مَنْ هُمُ الْخَاشِعُونَ، الَّذِينَ يَسْهَلُ عَلَيْهِمُ الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ؛ فَقَالَ:
 ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يُوقِنُونَ، وَيَعْلَمُونَ، وَيَعْتَقِدُونَ اعْتِقَادًا جَازِمًا. وَ(الظَّنُّ) يَأْتِي بِمَعْنَى
 الْيَقِينِ، وَيَأْتِي حَامِلًا لِمَعْنَى الشَّكِّ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْأَوَّلُ.
 ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَوْمَ الْبَعْثِ، وَسَيَرُونَهُ، وَسَيُحَاسِبُهُمْ وَيَجْزِيهِمْ عَلَى
 أَعْمَالِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ سَهَّلَتْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ، وَتَنْفِيزَ الْوَصِيَّةِ.
 ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: صَائِرُونَ وَمُنْقَلِبُونَ إِلَى اللَّهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ اعْتِقَادَ مَلَاقَةِ اللَّهِ، يَجْعَلُ الْمُسْلِمَ يُحَسِّنُ الْعَمَلَ الَّذِي يَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسِيءُ فِيهِ؛
 فَيَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ.
 وفيها: أَثَرُ الْإِعْتِقَادِ بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الْخَوْفَ مِنْهُ، وَالْحَيَاءَ،
 وَمُرَاقَبَتَهُ، بِحَيْثُ لَا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ، وَلَا يَجِدُكَ حَيْثُ نَهَاكَ.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٥١).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧):

ثم أعاد تعالى تذكير بني إسرائيل بنعمته عليهم؛ فقال:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الخطاب لليهود: ﴿أَذْكُرُوا﴾ بالسَّتْكُمْ وقلوبكم، قولاً وعملاً ﴿نِعْمَتِيَ﴾ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وتشمّل: جميع النعم الدينية والدنيوية، مثل: أن جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكاً، وأنزل عليهم كتباً عظيمة، ونجّاهم من عدوهم، وأطعمهم المن والسلوى، وظلّل عليهم الغمام، وفجّر لهم الماء من الحجر، وغير ذلك.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ (الفضل): الزيادة في الخير، والمقصود: فضلت أباؤكم، أي: في ذلك الوقت - زمن آبائهم - حيث كانت أمّتهم أفضل الأمم في العالم، وأمّا بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد صارت هذه الأمة أفضل من بني إسرائيل، ومن غيرهم ممن سبق، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنْتُمْ تُوفُونَ - وفي رواية: تُثْمُونَ - سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(١).

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (العالمون): جمع عالم، والمقصود: عالم ذلك الزمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّه يجب على بني إسرائيل شكر نعمة الله عليهم، ومن ذلك: أن يتَّبِعُوا نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم.

وفيها: أن تفضيل بني إسرائيل هو تفضيل في زمن مخصوص؛ لما كان عليه كثير منهم وقت ذاك من العلم والإيمان والعمل الصالح.

ولمّا عصوا وخانوا واحتالوا على شرع الله، وقتلوا الأنبياء، ونقضوا العهد، ضرب الله عليهم الذلّة، ولعنهم، وباءوا بغضب على غضب، وفضل غيرهم عليهم، ونقل الرئاسة الدّينية منهم إلى غيرهم.

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

وفيها: أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضِلُونَ، وَأَتَمُّ دَرَجَاتٍ، وَأَنَّ كُلَّ سَبَبٍ مُشْرِعٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّفْضِيلِ هُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٨):

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَنْعِمُهُ عَلَيْهِمْ؛ حَذَّرَهُمْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ:

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾: اتَّخَذُوا وَقَايَةً مِنْ عَذَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، بِطَاعَةِ رَبِّكُمْ ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: لَا تُغْنِي، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهَا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا تَقْضِي عَنْهَا حَقًّا مِنْ حَقُوقِهَا، وَتَرْوُلُ الْأَسْبَابُ وَتَنْقَطِعُ الْعَلَاقَاتُ، وَيَأْتِي كُلُّ وَاحِدٍ مَا يُشْغِلُهُ عَنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ (الشفاعة): طَلَبُ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ، فَلَا يُقْبَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَفْسٍ -وَلَوْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً- شَفَاعَةٌ، عَنْ نَفْسٍ إِذَا كَانَتْ كَافِرَةً.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (النصر): الْإِعَانَةُ لِدَفْعِ الضَّرَرِ. وَالْمَعْنَى هُنَا: لَا أَحَدٌ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُمِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

شِدَّةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الَّذِي تَبْطُلُ فِيهِ مَنَفَعَةُ الْأَنْسَابِ، وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْأَسْبَابُ -بِمَنْعِ الْعَذَابِ أَوْ تَخْفِيفِهِ- وَهِيَ ثَلَاثَةٌ: الشَّفَاعَةُ، أَوْ الْفِدْيَةُ، أَوْ النَّصْرُ، وَكُلُّهَا مَمْنُوعَةٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وفيها: بَيَانُ الْفَرْقِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي أَدَاءِ الْحَقُوقِ؛ فَفِي الدُّنْيَا تَجُوزُ مَجَازَاةُ الْوَاحِدِ عَنْ صَاحِبِهِ، أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا.

وفيها: نَفْيُ الشَّفَاعَةِ لِلْكَفَّارِ. أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْمَقْبُولَةُ فَقَدْ دَلَّتِ الْإِدْلَةُ عَلَى حَصُولِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِذْنِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لِمَنْ شَاءَ سَبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

وفيها: تذكير الأحفاد بأنهم إذا كفروا فلا ينفعهم صلاح الأجداد.

وفيها: بطلان قياس أمور الآخرة على أمور الدنيا؛ فإن الدنيا يحصل فيها شفاعات وتناصر وفدية، بخلاف الآخرة، والدنيا يمكن فيها فكاك الأسير ومُستحقّ القتل في القصاص بالأموال - من دية وفدية - بخلاف الآخرة.

وفيها: بطلان المحاباة يوم القيامة، وأنّ الحكم يصير إلى الجبار العدل، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء.

وفيها: قطع الطريق على النفوس المراوغة، التي تؤمل إذا أساءت في الدنيا وفرّطت، بأنّها ستنجو في الآخرة، بمثل ما تستعمله في الدنيا من أسباب النجاة والفكاك.

وفي هذا: تحذير بليغ للعصاة والمفرّطين، وبيان أنّه لن ينجو في الآخرة إلا من عمل صالحاً.

وفيها: عدم السكون إلى المخلوقين من نصراء وشفعاء؛ لأنهم لا ينفعون يوم الدين، والتوكّل لا يكون إلا على القويّ المتين، وحده لا شريك له.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٩﴾:

ولما ذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ شرّع بعدها في تفصيل ذلك؛ فقال:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أنقذناكم، وخلّصناكم، والمقصود: نجّينا آباءكم، وإنجاء الآباء نعمة على الأبناء؛ لأنّ ذلك سبب وجودهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم، ويوردونكم، ويكلّفونكم، ويؤلّونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أشدّه وأسوأه. وقيل: ما ساءهم من العذاب.

فإن قال قائل: وما ذلك العذاب - الذي كانوا يسومونهم - الذي كان يسوؤهم؟

قيل: هو ما وصفه الله تعالى هنا وفسّره بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ يبالغون، ويكثرّون من قتل

﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: الذكور من الأولاد. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: يتركونهن على قيد الحياة للخدمة، وليلدن الخدم في المستقبل.

وكان هذا التعذيب قبل بعثة موسى عليه السلام وبعده، كما قال تعالى على لسان قوم موسى: ﴿أَوَذِينَآ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنآ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتِنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، لكنه بعد بعثته عليه السلام أشد؛ لقوله تعالى حكاية عن فرعون وهامان وقارون: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]، ولقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ ءَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: ابتلاء بالمكروه بهذا العذاب، أو ابتلاء بالخير في الإنجاء الذي حصل بعده، وفي تخليصكم مما كنتم فيه نعمة عظيمة عليكم من ربكم. و(البلاء): الاختبار والامتحان، وتارة يكون بما يسر؛ ليشكر العبد ربه، وتارة بما يضُر؛ ليصبر، وتارة بهما معاً؛ ليرغب ويرهب.

وقد كان في تعذيب قوم فرعون لبني إسرائيل ابتلاءً بالمكروه، وفي إنجائهم وتخليصهم بلاءً بالخير.

وفي هذه الآية من الفوائد:

- الابتلاء بتسليط الأعداء، وأنَّ الإنجاء منهم نعمة عظيمة.
- وفيها: مكر قوم فرعون؛ فإنهم أرادوا تحديد نسل بني إسرائيل، وتقليل عددهم.
- وفيها: أن بقاء البنات في حال الامتحان، عذابٌ عظيمٌ على الآباء.
- وفيها: أن من شأن الطُّغاة إذلال الناس، وتسخيرهم للخدمة.
- وفيها: قدرة الله على تخليص الضُّعفاء والمظلومين، من الأقوياء الظالمين.
- وفيها: أن الربَّ تبارك وتعالى له مطلق التصرف في خلقه بالخير والشر؛ فلا اعتراض على حكمه وقدره.

وفيها: نسبة النعم إلى مصدرها، وهو الله عز وجل.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (٥٠):

ولما ذكر أحفاد الناجين بنعمته على وجه العموم؛ فصل بعد ذلك؛ فذكرهم بكيفية إنجائهم؛ فقال:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾: شققنا، وقلقنا ﴿بِكُمْ﴾ لكم وبسبيكم ﴿الْبَحْرَ﴾ ليتيسر لكم سلوك الطريق فيه؛ ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من فرعون وجنوده، وأخرجناكم إلى الساحل، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ في البحر ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ وقع هذا، وأنتم تشاهدون وتبصرون آية الله البالغة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عظيم فضل الله على بني إسرائيل، وأنه أقر أعينهم بإهلاك عدوهم، وقد كانت النعمة على بني إسرائيل مضاعفة.

وكذلك، فإن رؤية عدوهم يهلك فيه شفاء صدورهم، وذهاب غيظ قلوبهم.

وكان ذلك يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟». فقالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم»؛ فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بصيامه^(١).

وفيها: قدرة الله العظيمة؛ حيث جعل البحر ينقلب إلى فرقين، كل منهما كالجبل العظيم.

وفيها: بيان قدرة الله تعالى على تغيير أحوال الطبيعة، وما اعتاده الناس؛ فقد سلب الماء خاصية السيالان، فتجمد على جانبي الطريق الذي سلكه موسى وبني إسرائيل؛ ليعود بعد ذلك وينطبق على فرعون وقومه، فالذي خلقه أثبتته ثم رده.

(١) رواه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) واللفظ له.

وفيها: بيانُ كيف سَخِرَ اللهُ من فرعونَ؛ حيثُ أَهْلَكَه بما كان يفتخر به، وهو الماء، كما قال فرعون: ﴿الَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

وفي الآية: ردُّ على الذين بهرثهم صنائعُ أعداءِ الله اليومَ، حتى ظنُّوا أنَّهم لا يمكن الانتصارُ عليهم؛ فهذه الآية في إهلاك قوم فرعونَ دالَّةٌ على قُدرةِ الله في إهلاك الكفار، مهما كانت قوَّتهم.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١):

ولمَّا أَغْرَقَ اللهُ فرعونَ وقومَه، ونَجَّى بني إسرائيل؛ قَادَهُمُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتَهَيَّأُوا لِقَبُولِ أوامِرِ الله، في الموعد الذي أخبر الله عنه، بقوله: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قِصَّةَ وَعْدِنَا ﴿مُوسَى﴾؛ حيثُ صَدَرَ الوَعْدُ له من الله؛ ليُوحِي إليه بالأوامر إلى بني إسرائيل.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يكون في نهايتها الموعد، وكانت ثلاثين، ثم أتمَّها الله بعشيرة، تَفَرَّغَ فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للعبادة والتهيؤ لتلقِّي وحي الله والتوراة التي سَيَنْزِلُهَا عليه.

وقد جاء بيانُ المواعدة في سُورَةِ «طه»؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَبْنَئُ إِسْرَءِيلُ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ مَّدْوَرَةٍ ۖ وَوَعَدْنَاكَ غَابَ الطُّورِ الْآيَمْنَ﴾ [طه: ٨٠]، وكان مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سبعون رجلاً مُّتَخَبِّطِينَ لِحُضُورِ هذا الموعد.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾: جعلتم تمثالَ الذَّهَبِ الذي صنعه السامريُّ إلهاً تعبدونه، ﴿مِّنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد ذهابِ موسى لميقاتِ الله. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في حال كونكم ظالمين لأنفسكم، بوضع العبادة في غير موضعها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التهيؤ لتلقِّي كلام الله، وما يأمر به من التكاليف.

وفيها: ضَرْبُ الموعد لتلقِّي العِلْمِ.

وفيها: أنَّ بني إسرائيل لم يكونوا معذورين أبداً في الشُّرك الذي وقعوا فيه، وأنَّ من سوءِ بني إسرائيل: انتهازُ فرصة غياب نبيِّهم؛ ليكفروا ويُفْسِدُوا في الأرض وينحرفوا.

وفيها: أَنَّ غِيَابَ الْعَالَمِ عَنِ النَّاسِ مِنْ أَسْبَابِ ظُهُورِ الشُّرْكِ وَالْبِدْعَةِ فِيهِمْ.

وفيها: افْتِتَانُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتِمَائِيلِ الذَّهَبِ.

وفيها: فِتْنَةُ الصُّورِ لِدَوَاتِ الْأَرْوَاحِ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الشَّرْعُ اتِّخَاذَهَا.

وفيها: أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ.

وفيها: اشْتِمَالُ الْمَوَاعِدَةِ بَيْنَ مُوسَى وَرَبِّهِ عَلَى الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ، بِإِيْتَاءِ مُوسَى التَّوْرَةَ وَتَكْلِيمِهِ، وَوَعْدِ مُوسَى لِرَبِّهِ بِتَلْقِيهَا وَقَبُولِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا.

وفيها: التَّأْرِيخُ بِاللَّيَالِي؛ لِأَنَّهَا تَسْبِقُ الْأَيَّامَ، فَتَأْتِي لَيْلَةُ الْيَوْمِ قَبْلَهُ، وَيَبْدَأُ الشَّهْرُ بِاللَّيْلَةِ.

وفيها: أَنَّ مَوَاصِلَ الْعِبَادَةِ تُهَيِّئُ النَّفْسَ لَتَلْقَى الْعِلْمَ.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾:

وَبِالرَّغْمِ مِنْ قُبْحِ جَرِيْمَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَإِنَّ الْحَلِيمَ شَبَّاهُ وَتَعَالَى لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْإِهْلَاكِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أَي: تَجَاوَزْنَا عَنْ عَقُوبَتِكُمْ، وَقَبَلْنَا تَوْبَتَكُمْ، وَمَحَوْنَا عَنْكُمْ جَرِيْمَتَكُمْ ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الشُّرْكَ الَّذِي حَصَلَ مِنْكُمْ، بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلِ إِلَهًا، وَبَقَتْلِ أَنْفُسِكُمْ بَعْدَهَا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تَقُومُونَ بِوَاجِبِ شُكْرِ النِّعْمَةِ، إِيْمَانًا بِالْقَلْبِ، وَتَحَدُّثًا وَاعْتِرَافًا بِاللِّسَانِ، وَقِيَامًا بِالطَّاعَةِ بِالْجَوَارِحِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ظُهُورُ أَثَرِ اسْمِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُوَ الْعَفْوُ.

وفيها: سَعَةُ حِلْمِهِ شَبَّاهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ الْعَفْوَ مُوجِبٌ لِلشُّكْرِ، وَكَمَا أَنَّ حَدُوثَ النِّعْمَةِ يَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ، فَكَذَلِكَ زَوَالُ النِّقَمِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الشُّرْكَ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ.

وفي محيٍ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمُسْتَعْمَلُ لِلْبَعِيدِ: تَنْبِيْهُ عَلَى الْإِبْتِعَادِ عَنِ الشُّرْكِ.

وفيها: أَنَّ الْعَفْوَ تَأَخَّرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣):

ثم أَمَرَ تعالى بني إسرائيل أن يذكروا من نِعَمِهِ عليهم أيضًا: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ أعطينا وأنزلنا عليه، وأوحينا إليه ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

والفرقان: الكتاب الذي فَرَّقَ الله به بين الحق والباطل، وهو نَعَتْ للتوراة وصفة لها. فيكون تأويل الآية حينئذٍ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل.

أو المراد هنا: الحُجَجُ والمعجزات التي أعطاهها الله لموسى عليه السلام، من العصا واليد وغيرهما. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لتهتدوا بما أنزل الله، من الضلالة إلى الحق والهدى، وهذه هداية العلم والتوفيق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحِكْمَةُ الإلهية العظيمة في إيتاء بني إسرائيل التوراة، بعد النجاة من فرعون وقومه؛ لِيُقيموا مجتمعهم على الشريعة الإلهية، وتكون لهم رسالة يَحْيُونَ بها ويعملون بها. وفيها: أَنَّ الوحي بالكتب المُنزلة نعمة عظيمة من الله. وفيها: فَضْلُ التوراة التي أنزلها الله، هدى ونورا وفرقا. وفيها: أَنَّ إنزال الكتب الإلهية هو من أَجَلْ هدايات البشرية، فلا تُطْلَبُ الهداية من الأساطير ومناهج البشر الوضعية، وغيرها من الأباطيل. وفيها: أَنَّ إيتاء الشَّرْع - كقوله ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ - أَفْضَلُ من إيتاء الدنيا، كقوله عن قارون ﴿وَأَبَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ﴾ [القصاص: ٧٦].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُؤْتُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابِعُوا عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤):

ثم عاد السياق لتفصيل ما حصل بين الذنب والتوبة؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل قول موسى لقومه؛ تودُّدًا، أو تحبُّبًا ونُصْحًا: ﴿يَنْقُورِ﴾ يا أصحابي، ﴿إِنَّكُمْ﴾ للتأكيد ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: أنقصتم حقَّها، بإيقاعها في الشُّرك ﴿يَا تَخَذِكُمُ الْعَجَلُ﴾ - وهو ولدُ البقر - إلهًا يُعبد من دون الله.

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾: ارجعوا من معصية الله إلى طاعته، ومن الشُّرك به إلى توحيده. (البارئ): الخالق، الذي خلق جميع الموجودات، وبرَّأها، وأنشأها من العدم إلى الوجود. وفي هذا تنبيهٌ على عِظَم جُرمهم؛ أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره. ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: هذا تفسيرٌ لطريقة التوبة، فسَلِّمُوا بذلك، وارضُوا به، واصبرُوا عليه، فليقتل بعضكم بعضًا، ولتأخذوا أسلحتكم، فيقتل كلُّ واحدٍ من يلقاه - من قريبٍ وغيره -.

وقيل: البريء الذي لم يعبد العجل، يقتل المجرم الذي عبده. وقد قيل: إنَّ الله ألقى عليهم ظُلمة ليحصل القتل فيها، وقيل: إنَّهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضًا عيانًا، وهذا أبلغ في صدق التوبة^(١).

وقوله ﴿ذَلِكُمْ﴾ التوبة التي أمرتم بها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ترك التوبة، وترك القتل ﴿عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾؛ لِمَا في تنفيذ أمره من الثواب والتطهير، ولِمَا في الامتناع من العذاب والعقاب. ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم، وعفا عنكم؛ لِمَا فعلتم ما أمركم به.

﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ﴾: كثير التوبة، يُوفِّق إليها المذنبين، ويتفصَّل بقبولها منهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾: واسع الرحمة، حيث تقبل المقتولين شهداء، وكفَّر عن القاتلين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال الدَّاعية لأسلوب التودُّد والتلطُّف، الذي يستميل به نفوس الناس إليه؛ ليسمعوا كلامه.

وفيها: أنَّ عبادة الأصنام ظُلمٌ عظيمٌ للنفس.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٦٢).

وفيها: وجوب التوبة مباشرة بعد الذنب.

وفيها: أن الأمة كالنفس الواحدة، وكان من قتل من بني إسرائيل غيره في التوبة كأنها قتل نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

وفيها: أن الله يتوب على التائبين مهما عظم الذنب.

وفيها: أن الذي أنشأهم من العدم يحق له تشريع قتلهم.

وفي ذكر اسم (البارئ) في الآية مرتين: تحذير لهم من كفران نعمه، وعبادة غيره، وقد خلقهم وأحسن صورهم.

وفيها: تذكير المذنب بما يشعره بإساءته؛ فإن موسى عليه السلام ذكرهم بأن الله برأهم، فاعتنى بخلقهم وجعلهم في أحسن تقويم، ورزقهم العقول والحواس.

وفي الآية: تذكير هذه الأمة بوضع الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل عنهم، فلا تستلزم التوبة من الشرك في هذه الأمة قتل النفس؛ وإنما يكفي: صدقة التوبة والإنابة.

وفيها: أن من علامات صدق التوبة القيام بما تقتضيه، مهما كان شاقاً على النفس.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِيٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾:

ولما ذكر تعالى محاورة موسى لقومه، ودعوتهم للتوبة من عبادة العجل؛ أعقب ذلك بذكر محاورتهم له؛ كبراً وعناداً، وطلبهم ما لا يحق لهم، ولا يمكن حصوله في الدنيا؛ فقال:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ ۖ أَي: واذكروا نعمتي عليكم أيضاً، لما ذهب السبعون مع نبيهم موسى إلى الطور، للاعتذار إلى الله عن عبادة العجل.

والقول الآخر: أن الذين طلبوا ما لا يحق لهم وعاندوا هم قوم موسى، لما رجع إليهم بالتوراة من عند الله؛ فقالوا: ﴿يَمْوِسِيٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك بأن هذا كتاب الله، ولن نقر بما تأمرنا به، ﴿حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ علانية عياناً، لا ساتر بيننا وبينه!

﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾: صوتٌ عظيمٌ، وصيحةٌ من السماء. وقيل: نار، فماتوا جميعًا. ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُوتُمْ﴾: ينظر بعضكم إلى بعض، تتساقطون أمواتًا. وكان ذلك عُقوبة لهم.

ثم بيّن تعالى منته على بني إسرائيل - وهذا هو الإنعام السادس -؛ فقال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾: أحييناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ موتًا حقيقيًا بالصاعقة، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض، وهو يحيا، وعاشوا بعد ذلك؛ ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على نعمة إحيائه لكم بعد موتكم، فتؤمنوا بما أنزل عليكم، وتشكروا نعمة كتابه الذي أنزله.

وفي الآيتين من الفوائد:

عُقوبةُ الله هؤلاء المتمردين من بني إسرائيل، بالصاعقة المُميتة، ثم بعثهم ليرتدعوا، وليكونَ ذلك كفارة لهم.

وفيها: أن مَنْ سأل ما لا يمكن، فهو حريٌّ بالعُقوبة.

وفرقٌ بين سؤال هؤلاء العصاة وبين سؤال موسى عليه السلام، حين قال: ﴿رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ لأنَّ موسى عليه السلام قال ذلك شوقًا إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولتِلْذُّذَ برؤية ربِّه، وليزدادَ إيمانًا. أمَّا هؤلاء: فقد جعلوا الرؤية شرطًا للإيمان، والفرق كبير بين الحالين.

وفيها: أنْ وَقَعَ العُقوبة على النفس أشدَّ إذا كانت تنظر إليها، كما أنْ وَقَعَ النُّعمة على النفس أكثر تأثيرًا إذا حصلت وصاحبها ينظر.

وفيها: قُدرة الله العظيمة على إحياء الموتى، وهو مثالٌ لتوحيد الربوبية.

وهذا الإحياء أحد الأمثلة الخمسة المضروبة في سُورَةِ «البقرة»، وهي: إحياء القَتيل ببعض البقرة، وقِصَّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموتِ فأَمَاتَهُمُ اللهُ، ثم أحياهم، وقِصَّة الذي مرَّ على قرية، وقِصَّة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام، وهذا الإحياء لبني إسرائيل.

وفي قولهم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أنْ تَرَكَ النُّعمة لأجل طلب الزيادة كُفْرانٌ بها.

وفيها: أن الله لا يرى في الدنيا، ولذا أخذتهم الصاعقة لما سألوا ذلك عقوبة لهم.

وفيها: مكانة موسى عليه السلام عند ربه، لما أحيا قومه له.

ويؤخذ من هذه المواقف لبني إسرائيل وما شابهها: فضل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم على أصحاب موسى؛ فإن أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم لم يسألوا ويتعنتوا ويُعاندوا كهؤلاء، ولم يشترطوا للإيمان مثل ما اشترط قوم موسى عليه السلام.

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧)

ولما ذكر تعالى ما دفع عن بني إسرائيل من العذاب، ذكر الإنعام السابع عليهم في هذه السورة؛ فقال تعالى:

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: جعلناه ظلاً عليكم من الشمس، يقيكم حرّها. و(الغمام): هو السحاب الرقيق الذي يُبرّد الجو.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: جعلناه رزقاً نازلاً على محلّتكم وأشجاركم ﴿الْمَنَّاءَ﴾: طعاماً حلوً لذيذاً، يسقط عليهم في كل يوم ما يكفيهم. وقال بعضهم: إنه شراب.

وقيل: كل ما امتن الله عليهم به، من طعام وشراب وغير ذلك، ممّا ليس لهم فيه عمل ولا تعب؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ»^(١)؛ لأنها تحصل في الأرض بغير زرع ولا ماء ولا تعايد.

﴿وَالسَّلْوَى﴾: طائرٌ لذيذ اللحم، يأتيهم سهلاً فيذبحونه، ويأخذون منه حاجتهم. فَحَصَلَ لهم الظّل والشراب، وكان ذلك في وقت التّيه - ظلّوا أربعين سنة يتيهون في الأرض - فَرَجَّهَم رَبُّهُمْ، ورزقهم هذه النعم.

﴿كُلُوا﴾ الأمر للإباحة والامتنان ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ (الطيب): ما لا تعافه النفس طبعاً، وليس بمحظور شرعاً. ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم، وأنعمنا عليكم.

(١) رواه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).

ولم يكونوا في حاجة للادّخار، فلما ادّخروا اللحم صار يبتن ويفسد، ولذلك قال النبي ﷺ: «لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْتَرْ اللَّحْمُ»^(١)، أي: يبتن.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: ما نقصونا شيئاً بمعصيتهم؛ لأنّ الله لا تضره معصية العاصين، كما أنّه لا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما قال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا صَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(٢).

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: يضرّونها، بتعريضها لعذاب الله في الآخرة، وفي الدنيا بقطع الرزق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ الظلّ البارد، والطعام المفيد، والشراب الهنيء، من أعظم نعم الله. وفيها: أنّ لحم الطيور من أفضل اللحم؛ ولذلك كان لحم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

وفي الأمر ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾: أنّ من تعفّف عن الشيء المباح الطيب، ومن امتنع من أكل الطيبات من غير سبب - كمرض -؛ فهو مدموم.

ويُفهم من الآية: تحريم أكل الخبيث؛ لأنّ الأمر بالشيء ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ نهي عن ضده - وهو تناول الخبائث - سواء كانت خبيثة في ذاتها - كالمة والخنزير - أو خبيثة في كسبها - كمال الربّا والمأخوذ بالغش -.

وفيها: كمال ذات الله، واستغناؤه عن مخلوقاته.

وفيها: كثرة ظلم بني إسرائيل لأنفسهم؛ لقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وهذا بخلاف أصحاب محمد ﷺ الذين صبروا وثبتوا، ولم يتعتّوا بسؤال نبيهم ﷺ المعجزات وصرف العادات.

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفيها: أَنْ مُقَابِلَةَ النُّعْمِ بِالْمَعَاصِي ظُلْمٌ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزَيِّدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨):

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بالوحي الذي أوحيناه إلى النبي الذي كان يقودهم: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: بيت المقدس، وهي التي كان موسى عليه السلام قد أمرهم بدخولها، بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ الأمر للإباحة، أي: أبحنا لكم الأكل منها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: في أي مكان كنتم من البلد، تأكلون ما تشاءون ﴿رَغَدًا﴾: هنيئًا مطمئنين.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي: باب البلد، وكانت المدن لها أسوار وأبواب لحمايتها. ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوها راكعين، أو: اسجدوا إذا دخلتموها سجود الشكر. أو: صلوا لله بعد دخولها، شكرًا على نعمة الفتح، والأول أصح.

فأمرُوا أَنْ يتواضعوا بالفعل، كما أمرُوا بالخضوع لله بالقول أيضًا.

﴿وقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنا ذُنُوبُنَا، واغْفِرْ لنا خطايانا. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم به من الخضوع والتواضع، وطلب المغفرة، والشكر على النصر؛ فإننا سنستر ذُنُوبَكُمْ، ونتجاوز عنها، ولا نعاقبكم عليها.

﴿خَطَايَاكُمْ﴾: جمع «خَطِيئَة»، وهي: ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عمدًا، فيكون خاطئًا، بخلاف ما يرتكبه خطأً دون عمدٍ، فيسمى مخطئًا.

﴿وسَزَيِّدُ﴾ على المغفرة أجرًا وثوابًا، ونعمًا أخرى، هؤلاء ﴿المُحْسِنِينَ﴾: الذين يُحْسِنُونَ عِبَادَةَ رَبِّهِمْ، ويُحْسِنُونَ إلى خَلْقِهِ في المعاملة وبَدَلِ المعروف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الله شكورٌ، يزيد عباده المحسنين.

وفيها: وجوب شكر النعم بالقول والفعل.

وفيها: خضوع الفاتحين لله تعالى، وشُكره على نعمة الفتح؛ ولذلك جاء أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مكة يومَ الفتح خاضعاً لرَبِّه، مطأطئاً رأسه، متواضعاً لله، حتى كادت رأسه أن تمسَّ رَحْلَه^(١).

وفيها: الصَّلَاةُ لله شُكْرًا - أو سجود الشُّكر - عند فتح البلاد، والانتصار على الأعداء.

وفيها: أن الجهاد مع التواضع لله سببٌ للمغفرة.

وفيها: أن الإحسان سببٌ للزيادة من الخيرات والنعم.

وفيها: أنه يجب على المجاهدين في سبيل الله إذا انتصروا ألا يغترُّوا بأنفسهم، ولا يُعجبوا بأعمالهم.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَحَاكَوْا يَفْسُقُونَ﴾^(٢):

ثم ذكر تعالى عن عناد بني إسرائيل ومعصيتهم، أنهم لما أمروا بالخضوع، بالقول والفعل عند دخول الأرض المقدسة، أبوا ذلك:

﴿فَبَدَّلَ﴾: خالف وحرف وغير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بمعصية الله ﴿قَوْلًا﴾ آخر قبيحاً ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقد بيَّنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»^(٢)، وفي رواية: «بَدَّلُوا فَقَالُوا: حِنْطَةٌ فِي شَعْرَةٍ»^(٣).

فبدلاً من أن يقولوا: «احطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا»، استهزءوا، وبدلوا ما أمرهم الله به.

ولما حصلت منهم هذه المخالفة والمعاندة في القول والفعل - استخفافاً بأمر الله تعالى -؛

(١) انظر: المستدرک (٧٨٨٨)، السيرة النبوية لابن هشام (٤٠٥/٢)، زاد المعاد (٤٧٧/٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٣) رواه أحمد (٨١١٠)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ؛ فَقَالَ: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ أي: بعد التبديل والتحريف ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ، يَفْسُقُهُمْ وخروجهم عن طاعة الله ﴿رِجْزًا﴾: عَذَابًا وَغَضَبًا وَبَلَاءً، ومنه الطاعون، كما قال النبي ﷺ: «الطَّاعُونَ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ، أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ» - (١).

﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من فوقهم. ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وخروجهم عن طاعة الله تعالى. فهلك منهم العدد العظيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ ظُلْمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ كَبِيرًا؛ فَقَدْ وَصَفَهُم بِالظُّلْمِ مَرَّتَيْنِ، وَبِالْفِسْقِ أَيْضًا؛ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ مَا فَعَلُوهُ هُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِالتَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ؛ بَلْ أَضَافُوا إِلَيْهِ أَيْضًا فِسْقًا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

وفيها: قُبْحُ تَحْرِيفِ كَلَامِ اللَّهِ، سَوَاءً كَانَ بِتَحْرِيفِ اللَّفْظِ، أَوْ بِتَحْرِيفِ الْمَعْنَى.

وفيها: أَنَّ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ.

وفيها: مَوْعِظَةُ الَّذِينَ يَتَلَاَعِبُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ.

وفيها: عَدْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ كَانَ مَخْصُوصًا بِالَّذِينَ ظَلَمُوا.

وفيها: خَطُورَةُ الاسْتِهْزَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ ظُلْمٌ وَفِسْقٌ عَظِيمٌ.

وَالْفِسْقُ نَوْعَانِ: فِسْقٌ أَكْبَرُ، يُخْرِجُ مِنَ الدِّينِ، وَيُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ. وَفِسْقٌ أَصْغَرُ، وَهُوَ مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي.

وفيها: أَنَّ تَبْدِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ كَلِمًا غَيْرَ الْمَعْنَى تَمَاقًا، وَلَيْسَ جَزْئِيًّا؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ: أَهْمِيَّةُ الْإِتْيَانِ بِالْأَلْفَاظِ كَمَا هِيَ، فِي الْعِبَادَاتِ - مِنَ الْأَذْكَارِ وَالصَّلَوَاتِ وَغَيْرِهَا -.

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) واللفظ له.

وفيها: إثبات حكمة الله في العذاب؛ كما في قوله: ﴿فَأَزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
وفيها: إثبات الأسباب، وتأثير السبب في النتيجة، كما في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

ثم ذكرهم الله سبحانه بنعمته عليهم في إجابة طلب السُّقيا؛ فقال:
﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ طلب السُّقيا ﴿لِقَوْمِهِ﴾. والمعنى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبِيِّكم موسى، حين استسقاني لكم.

وذلك أنهم عطشوا في التِّيه، فسألوا موسى أن يستسقي لهم، ففعل، وأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر، كما قال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾: إمَّا حَجَرٌ مَخْصُوصٌ معلوم عنده، وإمَّا اسم جنس، يشمل أي حجر كان.

﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، لكل سبطٍ منهم عَيْنٌ، وكانت قبائل بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: كل سبطٍ من بني إسرائيل الاثني عشر ﴿مَّشْرِبَهُمْ﴾: مكان شربهم؛ لئلا يضايق بعضهم بعضًا.

﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الأمر للإباحة ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ وفضله وعطائه، يأتيكم من غير كدٍ منكم ولا تعب.

ولمَّا كان توفر الأكل والشرب قد يؤدي للطغيان والإفساد؛ نهاهم عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: لا تعتدوا فيها بالمعاصي، وتنشروا فيها الفساد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء، وقد جاء شرعنا بموافقة ذلك على صفة مخصوصة، بصلاة، أو دعاء.

وفيها: أَنَّ السُّقْيَا تَكُونُ بِمَا يَنْبَغُ مِنَ الْأَرْضِ، كَمَا تَكُونُ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ.
 وفيها: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَلْجَأُ لِلْخَلْقِ، إِذَا مَسَّهُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ يَجْأُرُونَ.
 وفيها: رَحْمَةُ الرُّسُلِ بِأَقْوَامِهِمْ، وَرَأْفَةُ مُوسَى بِقَوْمِهِ بِإِجَابَةِ طَلِبِهِمْ.
 وفيها: كَرَمُ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتُهُ؛ فَإِنَّ الْعَاجِزَ لَا يَسْقِي، وَالْبَخِيلَ لَا يُعْطِي.
 وفي الآية: مَعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِخُرُوجِ الْمَاءِ مِنْ هَذَا الْحَجَرِ الْأَصَمِّ، مِنْ عِدَّةٍ وَجُوهٍ:

أَنَّهُ حَجَرٌ يَابَسٌ مُفْصَلٌ عَنِ الْأَرْضِ.
 وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ مُخْزُونًا فِيهِ عَادَةً.
 وَأَنَّهُ يُخْرِجُ بِمَجْرَدِ ضَرْبِهِ بِالْعَصَا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَفْرِ وَلَا تَنْقِيبٍ.
 وَأَنَّهُ مُوزَّعٌ عَلَى هَذِهِ الْعِیُونَ الْاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ - عِدَدُ قِبَائِلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ -.
 وَأَنَّهُ يُخْرِجُ مِنْهُ مَاءٌ كَثِيرٌ، يَتَدَفَّقُ بِقَدْرِ حَاجَتِهِمْ، وَيَكْفِي الْقَوْمَ جَمِيعًا، ثُمَّ يَنْقَطِعُ عِنْدَ اسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهُ.

وَفِي ذَلِكَ شَاهِدٌ عَظِيمٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ أَخْرَجَهُ بِهَذِهِ الْكَمِيَّةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ غَيْرِ حَفْرِ وَلَا تَعَبٍ، فَأَيْنَ كَانَ الْمَاءُ مُخْزُونًا؟!

وفيها: حُسْنُ تَنْظِيمِ الْقَوْمِ عِنْدَ اِزْدِحَامِهِمْ، أَوْ وَجُودِ الْعَصْبِيَّةِ بَيْنَهُمْ؛ لِئَلَّا يَتَنَازَعُوا، وَلِئَلَّا يَضِيعَ الْوَقْتُ بِالْاِنْتِظَارِ الْكَثِيرِ.

وفيها: اتِّخَاذُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَدْفَعُ الْعِدَاوَةَ وَالنِّزَاعَ.

وفيها: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ كُفْرَانِ النُّعْمِ مُقَابَلَتَهَا بِإِسْأَاعَةِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَفِي الْآيَةِ: تَعْلِيمُ الْعِبَادِ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ الْمَاءَ مِنَ الْحَجَرِ بِغَيْرِ ضَرْبِهِ بِالْعَصَا، وَلَكِنْ أَمَرَ بِضَرْبِهِ بِالْعَصَا - مَعَ كَوْنِهِ سَبَبًا ضَعِيفًا، وَلَا يُخْرِجُ الْمَاءَ فِي الْعَادَةِ -؛ تَعْلِيمًا لِلْعِبَادِ، وَرَبْطًا لِلْمَسَبِّاتِ بِالْأَسْبَابِ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ مُوسَى - عَلَيْهِ وَكَلِيمُهُ - تَكْرِيمًا لَهُ.

وفيها: أَنَّ من حُسْنِ إدارة القوم وقيادتهم: تقسيمهم وتوزيعهم، وتعليم كل فريق حصته وما يخصه، وأنَّ التخصيص بالتوزيع يمنع التداخل المؤدِّي إلى الفوضى والاعتداء والظلم.

وفيها: أَنَّ رزق الله قد يحصل للعبد بغير عمل منه ولا تعب، وما كان بعملٍ وتعبٍ فهو من رزق الله أيضًا.

وفيها: اشتهاة اليهود بالفساد في الأرض، ولا يزالون؛ ولأجل ذلك نهاهم عنه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نَصِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾﴾

ولما كان بنو إسرائيل لا يشكرون النعم؛ أصابهم البطر، وملؤا من الطعام الطيب السهل - وهو المن والسلوى - وبلغ من انحراف أمزجتهم أن يطلبوا من موسى الأطعمة الدنيئة - من البقول وغيرها - ولعلهم تذكروا عيشهم الأول بمصر، وقد كانوا في عهد فرعون يأكلون الثوم والبصل والعدس ونحوه؛ فطلبوا ذلك من موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ كنتم في التيه، فقلتم لنبيكم: ﴿يَمْوِسَىٰ لَنْ نَصِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ وهو المن والسلوى.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أسأله ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُوْجِدُ وَيُظْهِرُ ﴿مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾: من النبات الذي ليس له ساق، كالكراث والسلق والفجل ونحوها.

﴿وَقِثَّائِهَا﴾: نبات معروف، يشبه الخيار، وقيل: خضروات، كالبطيخ والقرع ونحو ذلك. فالبقول: ما يؤكل ساقه، والقثاء: ما يؤكل ثمره.

﴿وَفُومِهَا﴾ (الثوم) المعروف، وقيل: الحنطة، أو الحمص. ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا﴾: طعامان معروفان.

فسألوا هذه الأطمعة التي لا توجد في مكانهم.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الاستيفاهُ للإنكار، والمعنى: أتسألون تبديلَ ﴿الَّذِي هُوَ أَذَنٌ﴾ أي: أردأ، فتأخذونه لأنفسكم، وتختارونه وتفضلونه ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يعني: أحسنَ وأنفس. والمعنى: تأخذون الذي هو أدنى، بدلاً عن الذي هو خير؟! ﴿أَهَيِّطُوا مِصْرًا﴾ أي مِصر من الأمصار، وأي بلد من البلدان. وقيل: هي مِصرُ فرعون. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: يحصل لكم ما تطلبونه، فيبين لهم أنَّ طلبهم ليس بأمير عزيز، وإنما يكفي أن يهبطوا أي بلد؛ ليجدوا مطلوبهم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾: لزمت بني إسرائيل إلى قيام الساعة، وأحاطت بهم بلا انفكاك ﴿الذِّلَّةُ﴾: الهوان، فلا يُقاتلون عدوًّا إلا مع الخوف الشديد منه، والشقاق فيما بينهم، كما قال الله عنهم: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدِّمٍ﴾ [الحشر: ١٤]. ومن الذِّلَّةُ: ما حصل من أخذ الجزية منهم.

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر، سواء كان فقر النفس، أو فقر المال، فليس عندهم كرمٌ، حتى قيل: لا أبخل من يهودي؛ فإنه وإن كثر ماله فهو شديد الطمع لا يشبع، فقير القلب، يده مغلوله.

ولزوم الذل والصغار هم حق على الحقيقة، وخبر صدق ويقين، ومن أصدق من الله قِيلًا؟ فإنهم كانوا عبر التاريخ مقهورين إذلاء- ولا يزالون- قد تسلطت عليهم الأمم، حتى أخذ المجوس الجزية منهم!

فإن قال قائل: فما بالهم اليوم قد صارت لهم دولة وصولة، وعز وقوة؟!

فالجواب: أنهم وإن طغوا وبغوا فهم غثاء كغثاء السيل، والذل مكتوبٌ عليهم، ظاهر لمن تأمله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْوؤُهُمْ سُوًّا الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ثم إن العبرة بالأعم الأغلب؛ فإن أكثر تاريخ اليهود حتى الزمن القريب ظاهرٌ فيه تشريدُهم في الأرض، وتقطيعُهم، وكُرهُ الأمم لهم، ومهما بلغ اليهودي من مال وسلطان،

فإنَّه لا يزال عند أغلب أهل الأرض منبوذاً مُحْتَقَرًا خبيثاً، بل إنَّ الشعوب من حولهم ترفض - في الجملة - مخالطتهم ومصادقتهم والعيش معهم.

ومن جهة أخرى: لا يزالون جُبْنَاء، يبنون الأسوار، ولا يعيشون إلا في المستوطنات المحصنة - ولو كانوا أقوى سلاحاً - ولو صارت مواجهة حقيقة لفروا؛ من دُهم، وجُبْنهم، وهوانهم عند أنفسهم.

﴿وَبَاءٌ وَيَغْضَبُ رَمَاقُ اللَّهِ﴾: انصرفوا، ورجعوا، وتحملوا غضب الله، كما وصفهم بـ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وأما عن سبب حصول كل ذلك لهم وتقديره عليهم: فقد بيَّنه الله تعالى؛ فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ فيَكْذِبُونَ بآياته الشرعية، ويحددون آياته الكونية، وفيها: معجزات نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كيحيى وزكريا وغيرهم، وقد حاولوا قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، فرفعه الله إليه، وتسببوا في موت نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بدسهم السُّم له، في قصة الشاة المعروفة، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا...»^(١).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الجرائم السابقة، وسبب ما نزل بهم؛ ﴿بِمَا عَصَوْا﴾: خالفوا ما أمروا به، ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بتجاوزهم حدود الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سفاهة بني إسرائيل؛ حيث اختاروا الأدنى، وفَضَّلوه على الأعلى.
وفيها: جفاؤهم، في قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا﴾، ولم يقولوا: «ادْعُ لَنَا رَبَّنَا».
وفيها: أنَّ مَنْ اختار الأدنى على الأعلى؛ ففيه شبهة من اليهود، ومن ذلك: الذي يختار الحرام كالزنا ويسلكه سبيلاً، بدلاً من الحلال وهو النكاح.

(١) رواه أحمد (٣٨٦٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٠).

وفيها: أن على المرء أن يرتفع بهمة ويطلب معالي الأمور.

وفيها: إباحة التوسع في المأكَل والمشارب، ما لم يؤدَّ إلى إسرافٍ أو ضررٍ.

وفيها: حُلُّ البقولِ والبصلِ والثومِ ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾.

وفيها: اتصافُ اليهودِ بفقرِ القلوبِ، وشدةِ الطمعِ، وأنَّهم لا يشبعون.

وفيها: أن اليهودَ لا يثبتون أمامَ المسلمين، إذا حاربوهم بصدق وإيمانٍ.

وفيها: أن من صفات اليهود: تعدِّي حدود الله، والاعتداء على عباد الله.

وفيها: خطورةُ احتقارِ نعم الله، وأنَّ فاعلَ ذلك قد يُعاقبُ بالحرمان منها.

وفيها: جوازُ التوسُّلِ بدعاء مَنْ تُرجى إجابته من الأحياء، كالصالحين والوالدين.

وفي الآية: عدمُ الاعتراضِ بما يحصلُ لليهود من قوَّة أو سلطانٍ في الظاهر؛ فإنَّ الدُّلَّ في قلوبهم، والهوانُ مضروبٌ عليهم.

وفيها: أن تعدِّي حدود الله ومخالفة أوامره، يدلُّ على ضعفِ هيئته تعالى في قلبِ المعتدي والمخالف؛ فيكون أهلاً للعقوبة بالدُّلِّ والهوان.

وفيها: تعويدُ النفس على تركِ المألوفات؛ لتكون مستعدةً لمواجهة الطوارئ والأحوال المختلفة.

وفيها: أن خِسة الطبع تؤدِّي إلى دُنُو الهمة، حتى في أمور الدنيا، كالمأكَل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِغِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وََعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦):

ولمَّا ذكرَ تعالى ما فعله باليهود من العقوبات؛ لمَّا تعدَّوا حدوده، وعصوا وخالفوا أوامره، وانتهكوا حرَماته؛ رَغِبَ تعالى في الإيمان به، وإحسانِ العملِ، ويُنَّ ما للمؤمنين عنده من الجزاء في الدنيا والآخرة؛ فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورُسله، وصدقوا إيمانهم بالعمل الصالح. فقيل: هم مؤمنو هذه الأمة، وقيل: من آمن بالأنبياء الماضين قبل بعثة محمد ﷺ، وكان على التوحيد، كقُتُس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وبجيرى الراهب وغيرهم.

وقيل: هم الذين صدّقوا النبي ﷺ واتبعوه من أهل الديانات الأخرى. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ قيل: من «الهوداة»، وهي: المودّة. وقيل: من «التهود»، وهي: التوبة. وقيل: نسبة إلى (يهودا) وهو أكبر أولاد يعقوب عليه السلام^(١).

﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع «نصراني». وقيل: «نصران» - كما في «سكاري» و«سكران»، و«نشاوى» و«نشوان» - سُمُوا بذلك؛ لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في بلدة الناصرة. أو سُمُوا بذلك؛ لتناصُرهم فيما بينهم^(٢).

﴿وَالضَّالِّينَ﴾ «صبأ»: خرج من دين إلى دين. وقيل: هم قومٌ على الفطرة يعرفون الله، وليس لهم دينٌ معيّن يتبعونه.

وقيل: إن دينهم مُركَّبٌ من أديانٍ أخرى كاليهوديّة والمجوسيّة. وقيل: يقرأون الزُّبور. وقيل: يعبدون الملائكة. وقيل: يُصلُّون إلى غير القبلة. وقيل غير ذلك^(٣).

ويوجد في العراق إلى اليوم فرقة تُسمّى «الصابئة»، يعبدون الكواكب، ويعتقدون أن للنجوم تأثيراً في الأرض، وفي حياة الناس!

﴿مَنْ آمَنَ﴾ من هؤلاء جميعاً ﴿بِاللَّهِ﴾ ربّاً، واتبَعَ ما أنزله، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وما فيه من البعث والحساب والجزاء، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ خالصاً لله، وعلى سنة رسوله ﷺ خاتم النبيين؛ صار عمله مرضياً مقبولاً.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابُ أعمالهم، مدخرا لهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يحفظه ويضاعفه لهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة يومَ الفرع، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يومَ يحزنُ المُقْصِرُونَ

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٣٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٨٥)، التبيان في إعراب القرآن (١/١٠٥).

(٣) انظر: زاد المسير (١/٧٣)، تفسير القرطبي (١/٤٣٤)، تفسير ابن كثير (١/٢٨٦).

على تضييع العمر، وتفويت الثواب، فلا يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا؛ لطيب عيشهم، وما سيكونون فيه من النعيم المقيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاهتمام بدعوة أهل الأديان الأخرى.

وفيها: أهمية بيان حكم الله تعالى في أهل الملل الأخرى من غير المسلمين.

وفيها: بيان مصير من بقي على التوحيد، ولم يبلغ دعوة النبي الجديد.

وفيها: فضل الإيمان والعمل الصالح، وأن صاحبه يأمن من الخوف مما يكون في المستقبل، والحزن على ما مضى.

وفيها: فضل من ترك دينه الباطل إلى دين الحق.

وفيها: بيان ضمان الأجر؛ ولذا أضافه إلى الله، في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

وفيها: أن من اتبع الحق فلا يضُرُّه ما كان عليه في ماضيه من ديانة باطلة.

وفي الآية: طريقة حسنة لمخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم، بذكر من هو أحسن منهم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ومن هو أسوأ منهم: ﴿وَالضَّالِّينَ﴾.

ويؤخذ من الآية: أن من اليهود والنصارى قوماً ناجين فائزين، سواء من آمنوا بالتوحيد الذي كان عليه أنبياءهم، وعملوا بما وصل إليهم من شرائع أنبيائهم، وماتوا قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، أو الذين أدركوا الإسلام فدخلوا فيه، وتركوا دينهم الأول.

وفيها: أن العمل الصالح شرط للنجاة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

ثم ذكر تعالى جناية أخرى لأسلاف بني إسرائيل؛ فقال مخاطباً أحفادهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾

أي: واذكروا وقتَ أَخَذْنَا ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: العهد على آبائكم بقبول التوراة، والعمل بها فيها، وعبادة الله وحده لا شريك له، فأبَيْتُمْ الإقرارَ بذلك العهدِ الثقيلِ المؤكَّد، فرفع الله الجبلَ على رؤوسهم؛ لِيُقَرُّوا ويأخذوا العهدَ بقوةٍ وهِمَّةٍ وامْتِثَالٍ:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ وهو: الجبلُ المعروفُ، حتى قَبِلْتُمْ وأعطيتُم الميثاقَ؛ وذلك أَنَّهُمْ لَمَّا رَفَضُوا قَلَعَ اللهُ الطُّورَ مِنْ أَصْلِهِ، وَجَعَلَهُ فَوْقَهُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَمْتثلُوا فسيَهْوِي عليهم. فلما رَأَوْا أَنَّهُ لَا مَهْرَبَ لَهُمْ قَبِلُوا وَسَجَدُوا، فَرَحِمَهُم اللهُ وَكَشَفَ عَنْهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب -وهو التوراة- واعملوا بما فيه ﴿يَقْوَى﴾: بِجِدٍّ وَعَزِيمَةٍ وَاجْتِهَادٍ، ﴿وَاذْكُرُوا﴾ اذْهَبُوا وَاقْرَأُوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من المواعظِ والأحكامِ، وَلَا تَنْسَوْهُ وَتَغْفُلُوا عَنْهُ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تَنْجُونَ مِنَ الْعَذَابِ.

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا عَلَى ذَلِكَ؛ فَقَالَ اللهُ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْمِيثَاقِ الْعَظِيمِ، وَنَقَضْتُمُوهُ، وَتَوَلَّيْتُمْ، بَعْدَمَا رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ!.
﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ، وَقَبُولِ التَّوْبَةِ، وَمُؤَالَاةِ إِرْسَالِ النَّبِيِّينَ عَلَيْكُمْ؛ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ جَمِيعًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وفي الآيتين من الفوائد:

بيانُ قُدْرَةِ اللهِ الْعَظِيمَةِ وَقُوَّتِهِ، بِقَلْعِ الْجَبَلِ مِنْ مَكَانِهِ، وَرَفْعِهِ وَإِمْسَاكِهُ فَوْقَهُمْ مُعَلَّقًا، كَمَا فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَإِذْ نَلَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وفيها: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْعَمَلُ بِغَيْرِ ضَعْفٍ وَلَا مُدَاهَنَةٍ وَلَا فُتُورٍ.

وفيها: أَنَّ الْفَلَاحَ وَالنَّجَاحَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللهِ وَقَضَائِهِ.

وفيها: اسْتِعْصَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَمَرُّدُهُمْ وَعِنَادُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا الْمِيثَاقَ إِلَّا مُكْرَهِينَ.

وفيها: لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخُبْتُ نَفُوسُهُمْ، فَإِنَّهُمْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا بَعْدَ أَنْ رَجَعَ الْجَبَلُ إِلَى مَكَانِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي رَفَعَ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَكَانِهِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرْفَعَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَيَهْوِي بِهِ عَلَيْهِمْ.

وفيها: حُبَّةُ الله لهداية عباده؛ فإنه أراهم من آياته الشرعية والكونية ما يهتدون به.
وفيها: سَعَة رَحْمَةِ الله تعالى، وأنه لم يُهْلِك بني إسرائيل بالرغم مما حَصَلَ منهم.
وفيها: توبيخ اليهود في عهد النبي ﷺ وما بعده؛ لسلوكهم السَّيْلَ الذي سلكه
أجدادهم، من الإعراض عن الحق، والتولي عن العمل به.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥):

ثم خاطب الله تعالى اليهود، مذكِّراً لهم بأمر يعلمونه جيِّداً، ممَّا فعله أسلافهم، من
الاحتيال على شرع الله؛ وذلك أن الله عَزَّجَلَّ كان قد حرَّم العمل على اليهود يوم السبت،
وَمِنْ ضِمْنِهِ الصيد؛ ليتفرَّغوا للعبادة.

فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ والمعنى: لقد علمتم علماء يقييناً، بخبر أهل هذه القرية، ﴿الَّذِينَ
اعْتَدَوْا﴾ تجاوزوا حدود الله؛ ظلماً وطغياناً ﴿مِنْكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وهو
اليوم من الأسبوع الذي حرَّم الله عليهم العمل فيه؛ ليتفرَّغوا للعبادة، ونهاهم عن صيد
الحيتان فيه، وابتلاهم بقدوم الأسماك إلى الساحل في هذا اليوم، ورجوعها في بقية الأيام،
فاحتالوا على شرع الله، فنصبوا الشباك وحفروا الحُفَر، وأخذوا ما علق فيها من الأسماك
يوم الأحد، وقالوا: ما صَدَّنَا في السبت!

وقد فَصَّلَ الله قِصَّتَهُمْ في سُورَةِ «الأعراف»، في قوله: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣].

فلما فعلوا ذلك غَضِبَ الله عليهم ولعنهم، وقال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ قهراً ورغماً عنكم،
وهذا أمر تكوين وتصيير، وليس أمر إيجاب؛ أي: صيروا رغماً عنكم ﴿قِرَدَةً﴾؛ فتحولوا
من أشكال الأدميين، ومُسَخَّوْا على أشكال القردة، ﴿خَاسِئِينَ﴾ ذليلين صاغرين.

وقد روى ابن مسعود، عن النبي ﷺ، أنه ذَكَرَتْ عِنْدَهُ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ؛
فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلَا عَقَباً، وَقَدْ كَانَتِ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ»^(١).

ويؤخذ من هذا الحديث: أنه لا يُطلق على اليهود «أحفاد القردة والخنازير»، ولكن يُقال لهم: «إخوان القردة والخنازير»، كما أطلق عليهم الصحابة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم التحايل على شرع الله، وأن هذه الحيل اعتداء، وهي أشدُّ تحريماً من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأن فيها جمعاً بين المعصية والخداع. كما أن المنافقين أشدُّ جرماً من الكفار الصرّحاء.

وقد اشتهر اليهود بالحيل، كما فعلوا في أنواع الرّبا وشحوم الميتة؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ؛ فَتَسْتَحِلُّوا مُحَارِمَ اللَّهِ بِأَذْنَى الْحِيلِ»^(١).

وفي الآية: مناسبة العقوبة للذنب، فلما كانت صورة ما فعلوه مباحة، والحقيقة أنها غير مباحة، كذلك صارت صورتهم الظاهرة قردة، وفي الحقيقة لا يزالون آدميين.

وفيها: عظمة أمر الله؛ فإنهم تحولوا إلى قردة بمجرد قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، وقد كان المسخ حقيقياً، لا معنوياً فقط.

وفيها: أن من أنواع العذاب الأليم في الدنيا: أن يعيش الإنسان بصورة القرد القبيحة، ويبقى معه عقل وإدراك الإنسان.

وفي الآية مع الحديث المتقدم: إبطالاً لنظرية التطور والارتقاء، التي قال بها دارون وغيره -قاتلهم الله- حيث زعموا أن جنس البشر متطور عن القردة!

ويكفي المسلم أن يعلم أن الله تعالى خاطبنا بـ (بني آدم)، وأخبرنا عن خلق آدم، وأنَّ آدم هو أبونا.

أما غير المسلمين فيقال لهم: هذه نظرية قاصرة فاشلة؛ فهي لم تفسر جميع ظواهر الحياة؛ فلم تقدم تفسيراً لأصل نشأة الحشرات، مع أنها تمثل ٨٠٪ من مجموع الحيوانات، فهل تطورت الحشرات أم بقيت على ما هي عليه؟ ولم يجر عليها قانون التطور؟

(١) رواه ابن بطّة في إبطال الحيل (ص ٤٧)، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٩/٢٩)، وجوّد إسناده ابن كثير في تفسيره (٢٩٣/١)، والألباني في الضعيفة (٦٠٨/١)، لكنّه مال إلى ضعفه في الإرواء (١٥٣٥).

ولذا: فقد ماتت هذه النظرية أو كادت، وتبين للعالم أنها مجرد خدعة، لا حقيقة لها!.
وفي الآية: مُحَاجَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ، ووعظهم بما يعلمونه من الحقائق.
وفيها: تحذيرُ الجيلِ اللاحق من مُشابهة الجيل السابق في التمرد، والعناد، والتحايل، والمعصية.

وفيها: أَنَّ الذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ من عقوبات المتحايلين على شَرعِ الله؛ لَأَنَّهُمْ يُلَبِّسُونَ عَلَى الْآخَرِينَ، ويستَهْزِئُونَ بِالَّذِينَ؛ ولذلك قال العلماء عنهم: «إِنَّهُمْ يُخَادِعُونَ اللَّهَ كَمَا يُخَادِعُونَ الصَّبِيَّانَ»^(١).

وفي ذِكْرِ قَصَصِ هَؤُلَاءِ المتحايلين موعظةٌ لهذه الأمة؛ حتى لَا تَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَآبِيْن يَدِّيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾^(١٦):

ولمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْزَلَ بِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ مِنَ الْعُقُوبَةِ الْبَلِيْغَةِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: صَيَّرْنَا هَذِهِ الْقَرْيَةَ بَعْدَ مَسْخِ الْمَعْتَدِيْنَ مِنْ أَهْلِهَا قِرْدَةً ﴿نَكَالًا﴾: عِبْرَةً، تَرْدَعُ غَيْرَهُمْ مِنْ فِعْلٍ مِثْلٍ مَا فَعَلُوا ﴿لِّمَآبِيْن يَدِّيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: لِمَا حَوَّلَهَا مِنَ الْقَرْيِ، الَّذِينَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ خَبَرُهُمْ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ عِبْرَةً وَتَذَكُّرَةً لِّمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ ﴿لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِتِلْكَ الْقَرْيَةِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَصُّ الْقَصَصِ لِلإِعتبار.

وفيها: أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الإِلَهِيَّةَ تَكُونُ رَادِعَةً لِمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ؛ حَتَّى لَا يَعُودَ، وَلِغَيْرِهِ؛ حَتَّى لَا يَتَشَبَّهُ بِهِ.

وفيها: أَنَّ الَّذِي يَتَنَفَّعُ بِالْمَوَاعِظِ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

وفيها: أَنَّ الْمَوَاعِظَ كَمَا تَكُونُ شَرْعِيَّةً -بِالْآيَاتِ، وَالْأَحَادِيثِ، وَالْكَلَامِ النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ-؛ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ كَوْنِيًّا قَدَرِيًّا، كَذَلِكَ مِنْهَا مَا يَكُونُ بِعُقُوبَاتٍ تَقَعُ، وَعَذَابٍ يَنْزِلُ.

(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٩٩).

فَأَمَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ: فَإِنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِالْمَوَاعِظِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ: فَقَدْ لَا يَتَأَثَّرُونَ إِلَّا بِالْمَوَاعِظِ الْكُونِيَّةِ؛ اضْطِرَارًّا، وَإِكْرَاهًا، كَمَا يَحْدُثُ لِلْكَفَّارِ إِذَا جَاءَهُمْ قَاصِفٌ مِنَ الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ.

وفيها: الاطِّلاع على أخبار الماضين؛ لأخذ العبرة.

وفيها: أَنَّ الْعُقُوبَةَ تَأْتِي عَلَى الذَّنْبِ الْجَدِيدِ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَأَنَّ تَرَكَمِ الذُّنُوبِ سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا جَمِيعًا.

وفيها: أَنَّهُ يَسْتَفِيدُ مِنَ الْمَوَاعِظِ الْمُتَقُونَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.

وفيها: تَحْذِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ.

وفيها: أَنَّ بَعْضَ مَنْ لَمْ يُمَسَّخْ جَسَدُهُ مِنَ الْمَذْنِبِينَ قَدْ مُسِّخَ قَلْبُهُ، فَصَارَ مِثْلَهَا لِبَعْضِ الْبَهَائِمِ - كَالْكَلْبِ فِي الْحِشَّةِ، وَكَالْخَنَزِيرِ فِي عَدَمِ الْغَيْرَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ - وَمِنْ عِلَامَاتِ مُسِّخِ الْقُلُوبِ: أَلَّا يَجِدَ حِلَاوَةَ الطَّاعَةِ، وَلَا يَخَافُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَلَا يَعْتَبِرُ بِمَوْتِ أَحَدٍ.

وفيها: التَّحْذِيرُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ التَّحَايِلِ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

التَّحَايُلُ عَلَى الرِّبَا، وَالتَّحَايُلُ فِي نِكَاحِ التَّحْلِيلِ إِذَا طَلَّقَ ثَلَاثًا، وَالْاِحْتِيَالُ لِإِسْقَاطِ الشُّفْعَةِ، وَإِسْقَاطِ صَاحِبِ الْحَقِّ فِي الْمِيرَاثِ، وَإِسْقَاطِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْاِحْتِيَالُ لِأَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَالْاِحْتِيَالُ فِي الْوَصِيَّةِ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٧):

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِبَائِحَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنْ نَقْضِ الْمَوَاقِفِ وَالْاِعْتِدَاءِ؛ أَرَدَفَهُ بِنَوْعٍ آخَرَ مِنْ مَسَاوِيهِمْ، فِي تَكْذِيبِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ، وَمُخَالَفَتِهِمْ لَهُمْ، وَعَدَمِ مَسَارَعَتِهِمْ فِي امْتِثَالِ أَوْامِرِ الْوَحْيِ، مَعَ كَثْرَةِ اللَّجَاجِ وَالْعِنَادِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أَي: وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ - وَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ مِنْ قَوْمٍ؛ فَإِنَّهُ يَنْصَحُ لَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْصَحُ لغيرهم -: ﴿إِنَّ اللَّهَ

يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ۖ وَسَبَبُ هَذَا الْأَمْرِ: أَنَّهُ كَانَ قَدْ قُتِلَ قَتِيلٌ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ، فَتَخَاصَمُوا فِيهِ وَتَدَافَعُوا، حَتَّى كَادَتْ تَثُورُ بَيْنَهُمْ فِتْنَةٌ.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى نَبِيِّهِمْ يَسْأَلُونَهُ، لِيُخْبِرَهُمْ مِنَ الْوَحْيِ عَنِ الْقَاتِلِ؛ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَبْحِ بَقْرَةٍ.

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ السَّبَبِ مُتَأَخِّرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأُوهَا فِيهَا﴾؛ مِنْ بَابِ التَّفَنُّنِ فِي الْعَرَضِ، وَالتَّجْدِيدِ، وَالتَّشْوِيقِ، وَشَحْذِ الذَّهْنِ؛ لِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ الَّذِي سَيُذَكَّرُ لَاحِقًا.

﴿قَالُوا﴾ -جَوَابًا لِنَبِيِّهِمْ عَلَى أَمْرِهِ لَهُمْ-: ﴿الْتَّخِذُوا هُزُوءًا﴾: تَجْعَلُنَا مَكَانًا لِلْهُزْءِ وَالسَّخَرَةِ، وَتَلْعَبُ بَنَا. وَهَذِهِ جَهَالَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْهُمْ، وَسَوْءُ أَدَبٍ مَعَ نَبِيِّهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَأَجَابَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ مِنْ ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَهْزِئُ بِالنَّاسِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَمْرِ الْوَجُوبُ، وَأَنَّهُ يَجِبُ تَنْفِيزُهُ فَوْرًا، وَأَنَّ التَّرَاحِي فِي التَّنْفِيزِ مَعْصِيَةٌ.

وَفِيهَا: أَنَّ بَعْضَ الْأَوَامِرِ قَدْ لَا يَعْلَمُ الْعِبَادُ الْحِكْمَةَ مِنْهَا، فَعَلَيْهِمُ الْاسْتِسْلَامُ وَالتَّنْفِيزُ.

وَفِيهَا: أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ الشَّرْعِ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يَقْضِي عَلَى الْمُخَاصَمَاتِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَفِيهَا: بَيَانُ سُوءِ أَدَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ نَبِيِّهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَفِيهَا: أَنَّ الِاسْتَهْزَاءَ بِالنَّاسِ جَهْلٌ وَسَفَهٌ وَحَاقَةٌ.

وَفِيهَا: التَّجَاءُ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ، مُحْتَمِيًا بِهِ مِنْ إِيْذَاءِ قَوْمِهِ.

وَفِيهَا: صَبْرُ مُوسَى عَلَى إِيْذَاءِ قَوْمِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقَابِلْ إِيْذَاءَهُمْ بِالْإِيْذَاءِ؛ وَإِنَّمَا وَعَظَهُمْ وَذَكَرَهُمْ بِاللَّهِ لِمَا اسْتَعَاذَ بِهِ.

وَفِيهَا: أَنَّ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يُضَيَّفَ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا إِلَى نَفْسِهِ، لِتُبَيِّنَ الْمَصْدَرَ، وَلِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى قَبُولِ الْأَمْرِ وَالِامْتِثَالِ لَهُ، وَاطْمِئْنَانِ النُّفُوسِ لَهُ.

وفيها: الإشارة إلى أن الإجابة على السؤال بما لا علاقة له به جهلٌ، وفي ردِّ موسى عليه السلام تعريضٌ بجهل قومه.

وفيها: أنه يجب حملُ أوامر الأنبياء وأحوالهم على الجِدِّ، وفي هذا ردُّ على بعض مَنْ يظنُّ في أحكام الشَّرْع وإطلاقاته أنها من المزاح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ﴾ [الطارق: ١٣-١٤].

وفيها: أنه لا يجوزُ المزاحُ والهزُّ عند تبليغ أحكام الله.

وفيها: أن على المدعو والمستفتي أن يستقبل أوامر الله بالإجلال والتوقير.

وفي الآية: أن ذبح البقرة أفضل من نحرها، فالذبح يختصُّ بالبقر والغنم، والنحر يختصُّ بالإبل.

ولعلَّ في أمرهم بذبح البقرة؛ معالجةً لنفوسهم التي عظمت العجلَ بعبادته من دون الله.

وفي القِصَّة: أن مرجع النَّاسِ عند حدوثِ الإشكالات إلى الأنبياء، وورثتهم - وهم العلماء -.

﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ (٦٨)

ولمَّا عَلِمَ القَوْمُ أَنَّ ذَبْحَ البَقَرَةِ عَزْمٌ وَجِدَّ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَوَحْيٌ مِنَ اللَّهِ؛ لَجَأُوا إِلَى التَّعَنُّتِ وَالتَّشَدُّدِ، وَهَذَا مِنْ كَثْرَةِ سُؤَالِهِمُ الْمَذْمُومَ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ.

﴿قَالُوا﴾ يَا مُوسَى: ﴿أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ﴾ اسأله لأجلنا ﴿يُبَيِّنُ لَنَا﴾: يُوَضِّحُ وَيُعَيِّنُ ﴿مَا هِيَ﴾، أَي: مَا سِنَّهَا؟ صَغِيرَةٌ أَمْ كَبِيرَةٌ؟ وَهَذَا تَشْدِيدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَلَمَّا شَدَّدُوا شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا ضَيَّقُوا ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

﴿قَالَ﴾ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ أَي: الْمَأْمُورُ بِذَبْحِهَا ﴿لَا فَارِضٌ﴾: لَيْسَتْ مُسِنَّةً هَرِمَةً، انْقَطَعَتْ عَنِ الْوِلَادَةِ لِكِبَرِ سِنَّهَا ﴿وَلَا يَكْرُ﴾ وَهِيَ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ، أَوِ الَّتِي وَلَدَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ بَلْ هِيَ ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: وَسَطٌ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَقَرِ، وَأَحْسَنُ.

﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ من ذبحها، ولا تكثرُوا السؤال ولا تتعنتوا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التَّنَطُّعَ في الدِّين والتَّشَدُّدَ يُؤدِّي إلى التشديد على صاحبه في الأحكام. وفيها: أنَّ الطَّيْبَةَ السَّيِّئَةَ لبني إسرائيل جعلتهم يسألون عن أمور لا وجه لها؛ فإنَّ البقرة معلومة، واللفظ المطلق لا يحتاج إلى بيان؛ لوضوح معناه، ولكنَّهم لم يكتفوا بما طلبه الله منهم.

وفيها: أنَّه لا يجوز البحثُ والسؤال عن قيود في الأمور المطلقَّة، في وقت نزول الوحي؛ لأنَّ مَنْ شَدَّدَ شَدَّدَ اللهُ عليه، وقد يتسبَّب في التشديد على باقي الأُمَّة، وهذا من أعظم الناس جُرْماً عند الله؛ ففي الحديث: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً: مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»^(١).

أمَّا البحثُ عن قيود للأمور المطلقَّة في النصوص الشرعية بعد انقطاع الوحي؛ فلا بأس به؛ فإنَّ ما أُطْلِقَ وأُجْمِلَ في مكان، يمكن أن يُفَصَّلَ ويُقَيَّدَ في مكان آخر.

وفيها: تذكير المتعنتين المنتطعين بوجوب فعل ما أمروا به، وإعادة تذكيرهم بذلك، كما قال موسى عليه السلام: ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أراد أن يبحث عن الأكمل في ذبح القرابين - كالأضحية والهدي والعقيقة - وما يُخرجه للزكاة؛ فإنه يختار الأوسط بين الهرمة والصغيرة.

﴿قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾^(٢).

ولمَّا كان القومُ أهلَ عنادٍ وتعنتٍ؛ لم يفهم ما تقدَّم من الوصف، ولو أخذوا أيَّ بقرةٍ لأجزأتهم، لكنَّهم جعلوا يزيدون في السؤال والاستفصال، فانتقلوا بعد السَّنِ إلى اللون:

(١) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، ولا وجه لسؤالهم هذا، ولو أنهم أخذوا بقرة بأي لون فذبحوها لأجزأهم ذلك.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ﴾ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾ المأمور بذبحها ﴿بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: شديد الصفرة، صافٍ لونها، لم يخالطه لون آخر؛ فهي ﴿تُسْرُ النَّظِيرِينَ﴾: تعجبهم، وتدخل البهجة والسرور على نفوسهم؛ لحسن صورتها، وتماثل خلقتها، وتوسط سننها، وصفاء لونها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن بعض ألوان القرايين أفضل من بعض؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَمُ عَفْرَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ»^(١)، والعفراء من الغنم: البيضاء المائلة إلى حمرة، والمراد: أن التضحية بعفراء خير من التضحية بالسوداء.

وفيها: أن الأصفر من الزينة؛ ولذلك تُمنع المُحَادَّةُ من لبسه.

﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾:

وعلى الرغم من كل هذا البيان في السن واللون، لم يتوقف بنو إسرائيل عن تعنتهم ومجادلتهم؛ ف﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما حالها؟ هل هي عاملة تسقي وتحرق، أم هي سائمة كريمة عند أهلها، لا يستعملونها في الأعمال الشاقة؟

﴿إِنَّ الْبَقْرَ﴾ الموصوف سابقاً ﴿تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾: أشكل، واشتبه أمرها من كثرة البقر، فلم ندر ما هي المأمور بذبحها؟

وقد كذبوا في هذا، فأين التشابه وقد أخبرهم عن سننها ولونها؟! ولكن هذا من عنادهم وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى هذه البقرة، وسنعرّفها في النهاية. وقيل: مهتدون إلى القاتل. وقيل: إلى الحكمة من وراء ذبح البقرة.

(١) رواه أحمد (٩٤٠٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٦١).

قال عكرمة رَحِمَهُ اللهُ: «لو أخذ بنو إسرائيل بقرّة لأجزأت عنهم، ولولا قولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما وجدوها»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن بني إسرائيل لما زادوا نبيهم أذى وتعتت؛ زادهم الله تضيقاً وتشديداً، والجزاء من جنس العمل.

وفيها: أن السؤال عن الأمر الواضح الذي لا يحتاج إلى سؤال، هو عبث وتنطع.

وفيها: أن الاستثناء بذكر المشيئة يُعَيِّن على تحقيق المقصود.

وفيها: أن الهداية لا تحصل إلا بمشيئة الله.

وفي الآية: مثالٌ لِذِكْرِ معاناة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيل، وما لقيه منهم من كثرة سؤالهم واختلافهم عليه، وهذا هو الاستفهام الرابع لهم في هذه القصة.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا أَأَتْنَحِثَّ بِالْحَقِّ فَدَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٦٧):

ولما زاد بنو إسرائيل نبيهم أذى وتعتت؛ زادهم الله تضيقاً وتشديداً؛ ف ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: ليست مُدَلَّلَةً عند أهلها بالعمل في إثارة الأرض، وتقليبها للزراعة. ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾: غير مُعَدَّةٍ للسقي بالسواقي، وحمل الماء لسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: سليمة من جميع العيوب.

﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: لم يخالط لونها الأصفر الفاقع لون آخر، لا بياض، ولا سواد؛ بل هي صافية خالصة، لا عيب فيها.

﴿قَالُوا﴾ - عندما سمعوا هذه النعوت والتفصيلات -: ﴿أَتْنَحِثَّ بِالْحَقِّ﴾ في إجابتك هذه الأخيرة ﴿جِثَّتْ بِالْحَقِّ﴾ والوصف التام، الذي يوصلنا إلى البقرة المطلوبة.

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٠٤).

﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: وقد كادوا ألا يذبحوها، وأوشكوا على المعصية والامتناع وعدم التنفيذ. فمع كل البيان السابق والأسئلة والأجوبة والإيضاح، ما ذبحوها إلا بعد الجهد!

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذمُّ بني إسرائيل؛ لسوء قَصْدِهِمْ؛ فلم يكونوا يريدون ذبحها في الحقيقة؛ ولذلك تعتوا وكثرت أسئلتهم؛ لأنهم كانوا يريدون الامتناع.

وذمُّهم؛ لعدم مطاوعتهم نبيهم، واستعصائهم عليه، ومراوغتهم، وتسويقهم، فلم يُطيعوه اختياراً ورضاً، وإذا فعلوا فلا يكون إلا بعد رأيٍ وجهْدٍ، فيُحمَلون على فعل الأمر قَصْراً، فهم بطيئون في طاعة الله، سريعون في معصيته سبحانه.

وهذا أولى من أن يقال: إنهم ما كادوا يذبحونها لأجل غلاء ثمنها، أو خشية الفضيحة بمعرفة القاتل.

وفي الآية: دليلٌ لمن ذهب من العلماء إلى صحَّة بيع السِّلَمِ في الحيوان، وهو تقديم الثمن كاملاً في مجلس العقد، لحيوانٍ يمكن وصفه وصفاً منضبطاً، يكون في ذمَّة البائع، يُسَلَّمه في وقتٍ محدَّدٍ، فالآية تدلُّ على أنه يمكن وصف الحيوان وضبط صفاته وتعيينه^(١).

وفيها: أنَّ الدِّينَ الذي يُكَلِّفُ اللهُ به عباده يُسرُّ، ولكنَّ عباده هم الذين يتكلَّفون ويتنطَّعون ويتشدَّدون.

وفيها: درسٌ للدُّعاةِ إلى الله؛ للتعرُّفِ على نفسيَّاتِ العصاةِ المراوغين، وطرائقهم في التهرُّبِ من القيام بالتكاليف الشرعية.

وفيها: أنَّ على المؤمن أن يُنفذَ أوامرَ الله عن رضا وطواعية، وإقبالٍ نفسٍ، وأمَّا المنافقُ: فإنه إذا رضخ فعلى مَضْضٍ وكُرْهِ؛ كما قال تعالى فيهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

(١) انظر: الذخيرة للقرافي (٥/ ٢٤٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٠١).

وفيها: جَهْلُ بني إسرائيل، وسوءُ أدبهم مع نبيِّهم، عندما قالوا: ﴿أَلَنْ جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾؛ فكأنَّه ما جاءهم بالبيان الشافي إلَّا الآن! مع أنَّه عَلَيْهِ السَّلَام قد جاءهم بالبيان الشافي من البداية.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَئُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

ثم ذكر تعالى سببَ الأمرِ بذبح البقرة. وهو أولُ القِصَّة؛ لأنَّ ترتيب أحداثها: أنهم وجدوا قتيلاً بينهم، لا يدرون مَنْ قَتَلَهُ، فأتوا نبي الله موسى؛ ليكشفَ لهم القاتل، فأمرهم بذبح البقرة؛ ليضربَ القاتل ببعضها؛ فيحيا بأمر الله؛ ليُخبرَ عن قاتله.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قِصَّةَ قَتْلِ بعض أسلافكم نفساً محرَّمة ﴿فَادَّارَئُكُمْ﴾: تدافعتم، واختلفتم، واختصمتم ﴿فِيهَا﴾: في شأن قتلها، وتحديد القاتل.

ولمَّا تخاصموا فيها؛ صار كُلُّ واحدٍ من الخصماء يدافع الآخر، فيدفع عن نفسه، ويرمي التهمة على غيره، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾: مُظْهِرُ الحقيقة، ومُبَيِّنُ مَنْ هو القاتل، لا محالة. ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: تُخْفُونَهُ، وتُسْتَرُونَهُ من تعيين القاتل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ظَلَمَ بني إسرائيل بكم الحقائق.

وفيها: أنَّ تبادل الاتهامات يُوَدِّي إلى الفِتنَةِ، وتبين الحقيقة يَقْطَع ذلك.

وفيها: أنَّ الله قادر على إظهار المكنونات، وكشف المخفيات.

قال المسيَّب بن رافع رَحِمَهُ اللهُ: «ما عمل رجلٌ حسنة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله، وما عمل رجلٌ سيئة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله، وتصديق ذلك: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧].

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/١٤٤).

وفيها: إحاطة عِلْمُ الله بما يُظهِره العباد وما يُخْفَوْنَهُ على حَدِّ سواء، وفي ذلك التحذير من المعاصي الظاهرة والخفية كلها.

وفيها: أهمية البحث والتحري في الجرائم الغامضة لكشف الحقيقة؛ حتى ترتفع الفتن، ولا يتفاقم الأمر.

وفيها: أنَّ التوصل إلى كشف أسرار الجرائم نعمة من الله.

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُيُوكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣):

ثم بين تعالى فائدة ذبح البقرة، وعلاقته بكشف القاتل؛ فقال: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ﴾ أي: اضربوا هذا القتيل ﴿بَعْضُهَا﴾ أي: بجزء من أجزاء البقرة.

ولم يُبين لنا ما هو: هل كان الرأس، أو الفخذ، أو اللسان، أو غير ذلك؟ ولو كان في تعيينه فائدة لنا لبيَّنه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه كريم، لا يُمسك عن عباده ما يستفيدون منه.

ثم إنَّ المعجزة حاصلة بإحياء القتيل عند ضربه بأي جزء من أجزاء البقرة، وهذا يكفي للاعتبار.

وفي الكلام حذف يفهم من سياق الآية، تقديره: فضربوه ببعضها، فقام القتيل حيًّا بإذن الله، فأخبر عن قاتله.

وقيل: إنه عاد وسقط ميتًا بعدها.

﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ كما أحيانا هذا القتيل؛ فنبَّه تعالى على قُدْرته على البعث، بما شاهده بنو إسرائيل من إحياء ذلك القتيل، وهو قادر على بعث الأموات بكلمة واحدة؛ كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَرُيُوكُمْ ءَايَتِهِ﴾: يُظهر لكم الدلائل البينات على قُدْرته؛ لأنَّ مَنْ أحيانا نفسًا واحدة بعد موتها، قادرٌ على إحياء جميع النفوس.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لأجل أن تعقلوا عن الله آياته الكونية والشرعية، وتعلموا قُدْرته سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تربية النفس على عدم التطلع والاشتغال بمعرفة ما لا فائدة لها من معرفته.
وفيها: أن من التكلف والتعمق: البحث عن المسكوت عنه، والاستقصاء عن الأشياء الغامضة، وعمّا لا فائدة من ورائه، وعمّا لم نؤمر به، كالسؤال والبحث عن اسم كلب أصحاب الكهف، ولونه، واسم الغلام الذي قتله الخضر، وخشب نوح عَلَيْهِ السَّلَام: من أيّ شجر هو، وكم طول السفينة، وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك ممّا لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على قول فيه.

يقول العلامة الأمين الشنقيطي: «ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته، ولا فائدة فيه»^(١).

وفي الحديث: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا^(٢).

وفيها: حُجَّة على مُنْكَرِي البعث.

وفيها: نقل لمن حضر القصة من بني إسرائيل من مرتبة عِلْم اليقين إلى مرتبة عين اليقين؛ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يُقَرُّونَ بِأَحْيَاءِ الْمَوْتَى، إِلَّا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرِيَهُمْ ذَلِكَ عِيَانًا.

وفيها: التركيز على المعاني والمقاصد الأساسية للقصة، وعدم الاشتغال بتسّع الجزئيات التي تصرف عن المقصود، وتوقع في التكلف، والكلام فيما لا دليل عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي إحياء القتل بهذه الطريقة عدّة فوائد - وكان بالإمكان أن يحيا بأمر الله، دون حاجة إلى ذبح البقرة - فمنها:

أولاً: أَنَّ ضَرْبَ مَيِّتٍ بِمَيِّتٍ لِحْيَا بِأَمْرِ اللَّهِ؛ أبلغ في بيان قدرته تعالى، وتوجيه الأمر لبني إسرائيل بذلك أبلغ في نفوسهم، وأقوى في إقامة الحجة عليهم.

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠).

ثانيًا: التقرب إلى الله بذبح القربان؛ لزيادة الطاعة، والتوسل إليه بها.

ثالثًا: إزالة ما علق في نفوس القوم من تقديس العجل الذي عبده.

رابعًا: في ذلك فائدة لأصحاب البقرة، إذا كانوا فقراء أو يتامى؛ بها حصل لهم من الغنى بشراء البقرة منهم؛ فقد ذكر أنهم اشتروها منهم بمال كثير.

وفيها: بركة تنفيذ أمر الله، ولو لم يُذكر العقل الحكمة منه؛ وذلك بحصول الفوائد المتعددة، وظهور الأوامر الباهرة، وزيادة الإيمان، ورؤية العجائب.

وفيها: العمل بالأسباب المؤدية إلى ظهور الحقائق، وكشف الجرائم.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فِيْخُرْجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

وعلى الرغم من ظهور آيات الله العظيمة، والحكم الباهرة، والمعجزات الخارقة؛ فإن بني إسرائيل لم تَلِنْ قُلُوبُهُمْ، ولم تستقيم نفوسهم؛ فقال تعالى موبخاً لهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: صارت غليظة صلبة، لا تتأثر، ولا تُذعن، ولا تقبل المواعظ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: ممّا من الله به عليكم من الآيات الباهرة في قصّة البقرة، وإحياء القتيل، وكذلك بعد نقض الميثاق، وطول الأمد.

﴿فَهِيَ﴾ أي: قُلُوبُكُمْ ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾: مثلها في الشدّة والقسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: أزيد قساوة وصلابة من الحجارة، فإن لم تكن أشدّ منها، فهي مثلها، لا أقلّ من ذلك. أو: إن قُلُوبَكُمْ على الحالين. أو: بعضكم قلبه كالحجارة، وبعضكم قلبه أشدّ من الحجارة.

ثم بيّن تعالى أنّ الحجارة خيرٌ من قُلُوبِ هَؤُلَاءِ في الفائدة والخشية؛ فقال: ﴿وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ في منفعتيه ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: يتدفق منه الماء بكثرة وسعة، فيسيل أنهاراً ينتفع بها الناس، فيشربون، ويسقون زروعهم ودوابهم.

﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ﴾: يتفتح، ويتشقّق بالماء طويلاً أو عرضاً، ولكن دون الأول،

﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ أي: يَسِيلُ، ولكن دون الأول، كالآبار والعيون والينابيع، ويُفيد الناس بعدوبة مائه.

﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾: ينزل ويردّي بسبب خشية الله، وانقياداً لأمره. و(الخشية): هي خوف مع عِلْم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: نفى عَجَل الغفلة عن نفسه؛ لكمال عِلْمه وإحاطته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال التشبيه لتقريب المعنى؛ فشبه قلوب بني إسرائيل في قسوتها وعدم تأثرها بالمواعظ، ورفضها للحق، بالحجارة في صلابتها وغلظها وشِدَّتْها.

وفيها: عقد المقارنة بين القلوب القاسية والحجارة، وقلوب اليهود لا تلين ولا تخشع، ولا تتحرك من خوف الله، والحجارة تنزاح عن أماكنها من خشية الله وتتحرك، وتنقاد لأمره سبحانه!

وفيها: أن الجمادات تنفعل وتتأثر بقدرة الله، فتكون فيها الخشية كهذه الحجارة، ولو نزل القرآن على جبل لظهر عليه الخشوع وتصدع من خشية الله، وهذه السماوات السبع والأرض وما فيها تسبح بحمد الله، وإن لم يفقه الناس ذلك.

وكان الإباء والإشفاق من السماوات والأرض والجبال عند عرض الأمانة عليها، وكان القول الصحيح: «أتينا طائعين» إجابة السماوات والأرض لنداء رب العالمين.

والجمادات تسجد لله، وتكون فيها المحبة لأولياء الله - كجبل أُحُد - ويكون فيها الحنين لفقد الذكر - كما حصل للجذع الذي كان يخاطب عنده النبي ﷺ - وأنطق الله بعض الحجارة بالسلام على النبي ﷺ، وينطق الحجر الأسود يوم القيامة، فيشهد لمن استلمه بحق، والله يجعل ما يشاء من الصفات فيما يشاء من المخلوقات، وهو على كل شيء قدير.

وفيها من بلاغة القرآن: تشبيه المعقول بالمحسوس.

وفي الآية: تهديد الغافلين؛ بأنه تعالى عليهم بما يفعلون، ومعنى ذلك: أنه سيُجازيهم على أفعالهم.

وفيها: أنَّ الحجارة أقصى شيء يُضْرَب به المثل في القسوة، فهي أقسى من الحديد الذي ينصهر بالنار، والحجر يتفتت ولا ينصهر.

وفيها: أنَّ إعراض القلب بعد رؤية الآيات، أسوأ من إعراضه قبل رؤيتها.

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥):

ولما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم انقيادهم لأمره عز وجل، وتعنتهم مع أنبيائهم الذين مضوا؛ أردف ذلك بذكر قبائح أخرى ارتكبوها مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وخاطب تعالى الصحابة، يُبَيِّنُهم من إيمان اليهود؛ فقال:

﴿أَفَنظَمُونَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم، أنت وأصحابك، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هداية أهل الكتاب، فقصَّ الله عليه ما يُسَلِّي في إعراضهم عنه، وقلة قبولهم واستجابتهم. (والطمع): هو الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة.

والاستفهام في قوله ﴿أَفَنظَمُونَ﴾ إنكاري واستبعادي.

﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾: يُصَدِّقوكم، ويُقرُّوا لكم، وينقادوا معكم.

والمعنى: أستمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، ثم تطمعون في إيمانهم؟!

وذكر الله تعالى بعض أحوال اليهود؛ فقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ طائفة، وهم علماءهم، وأخبارهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وهي: التوراة التي سمعوها من نبيهم موسى عليه السلام، ويتلون فيها بينهم.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾: يغيِّرونه، ويبدِّلونه، ويكثِّمونه، وهذا يشمل تحريف اللفظ: بالزيادة والنقصان، وتحريف المعنى: بتفسيره على غير مراد الله.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: فهموه وضبطوه، ولم يبقَ لهم شبهة فيه، ولا إشكال.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ الْبَاطِلَ، وَيَقُولُونَ الْكَذِبَ، وَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ مَا فِي تَحْرِيفِ الْكَلَامِ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَطَعَ أَطْمَاعَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ إِيْمَانِ الْيَهُودِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: لَا تَطْمَعُوا فِيهَا لَا مَطْمَعَ لَكُمْ فِيهِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ مَعَكُمْ لَنْ يُسْلِمُوا.

وفيها: بَيَانٌ مَا يَعْصُرُ عَلَى الدُّعَاةِ؛ لِثَلَا يُنْفَقُوا فِيهِ الْجُهُودُ وَالْأَوْقَاتُ، فَيُصَابُوا بِالْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ.

وفيها: أَنَّ الْيَهُودَ إِذَا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَ تَحْرِيفَ كِتَابِهِمْ، فَقِيَامَهُمْ بِتَحْرِيفِ كُتُبِ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ فَكَمْ حَاولُوا تَحْرِيفَ الْقُرْآنِ، وَهُمْ الْمُسْتَوْلُونَ عَنْ أَكْثَرِ التَّحْرِيفِ الَّذِي حَصَلَ لِلْإِنْجِيلِ.

وفيها: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا ارْتُكِبَتْ عَنْ عِلْمٍ وَفَهْمٍ؛ فَإِنَّهَا أخطر وَأَسْوَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي تُرْتَكَبُ عَنْ جَهْلٍ.

وفيها: حِرْصُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ - وَمِنْهُمْ الْيَهُودَ -؛ وَلِذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ؛ لِقَطْعِ أَطْمَاعِهِمْ فِي إِيْمَانِهِمْ.

وفيها: جَرِيْمَةُ أَحْبَارِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا يُحَرِّفُونَ الْكِتَابَ، وَيَأْخُذُونَ الرُّشُوءَ، وَيَأْكُلُونَ الْمَالَ بِالْبَاطِلِ.

وفيها: تَسْلِيَةُ الدُّعَاةِ بِمَا يُذْهِبُ عَنْهُمْ الْأَسَى وَالْأَحْزَانِ.

وفيها: أَنَّ صَاحِبَ الْعِلْمِ لَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ، إِذَا لَمْ يُؤْتَ إِيْمَانًا وَزَكَاءَ نَفْسٍ.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦):

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَنْ مَكْرِ الْيَهُودِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: إِذَا قَابَلُوا الْمُؤْمِنِينَ

واجتمعوا بهم؛ ﴿قَالُوا﴾ أي: قال منافقو اليهود بالسِّتِّهم ﴿ءَامَنَّا﴾: دخلنا في الإيمان كما آمَنتُمْ، وصِرْنَا مسلمين مثلكم. وهذا ادِّعاء كاذب وخديعة.

﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: رجع الذين نافقوا من اليهود إلى الذين لم يُنافقوا منهم، وانفرد الأتباع بأخبارهم ورؤسائهم؛ ﴿قَالُوا﴾ لبعضهم: ﴿اتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ الاستِفْهام للإنكار والتعجب، أي: كيف تَحَدِّثُونَ المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما بَيَّنَّه لَكُمْ في التوراة من نبوة مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَتِهِ، وبما قَضَى على أسلافكم من العذاب والعقوبات؛ ﴿لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، فيلوم بعض اليهود بعضًا على كشف الحق الموجود في التوراة للمسلمين؛ لا يستعمله المسلمون في مُحَاصِمَةِ اليهود، وإقامة الْحُجَّةِ عليهم، وإفحامهم؛ فيكونوا أولى بالله منهم، وينتصروا عليهم في الْمُخَاصِمَةِ عند الله يوم القيامة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أين عقولكم، وأنتم تكشفون أمورًا ستُعين المسلمين عليكم؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ في اليهود منافقين، وأنَّهم يتجسَّسون على المسلمين، وأنَّهم يحذرون من اطلاع المسلمين على شيء يستخدمونه حُجَّةً على اليهود، وأنَّهم يتواصون بَكْتَمِ الحقيقة.

وفيها: تأمُّر اليهود على المسلمين في مجالسهم الخاصَّة، وعقد الاجتماعات لذلك.

وفيها: أنَّه إذا كان اليهود يُحَاسِبُ بعضهم بعضًا على طريقتهم مع المسلمين، فإنَّ الدُّعَاةَ إلى الله عليهم أن يتناقشوا فيما بينهم، ويُراجِعَ بعضهم بعضًا في طريقتهم مع المدعَّوين.

وفيها: أنَّه إذا كان اليهود لديهم مرجعيَّة، يرجعونهم إلى كبرائهم وأخبارهم؛ فالمسلمون أولى بأن يرجعوا إلى علمائهم ودُعائهم؛ للاستفادة منهم، والتشاور معهم.

وفيها: أنَّ البيان من الله يُسَمَّى فتحًا؛ لأنَّه قبل أن يُبَيِّنَ كان مُغْلَقًا على الناس.

وفيها: تهَرَّبُ اليهود من الحقيقة، وحَذَرُهم من استعمال أقوالهم في إدانتهم، وحِرْصُهم على عدم الإدلاء بأيِّ تصريح يُفيد المسلمين، وتوبيخ بعضهم بعضًا لو حصل ذلك.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧):

ثم وعظ الله هؤلاء اليهود، وذكرهم بأنَّه يعلم ما يُظهرونه وما يَكْتُمونه؛ فقال تعالى:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: ما يُخْفونه من النِّفاق، والكُفر بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكيد للمؤمنين. وهذا يشمل ما يُسرُّه الواحد منهم في نفسه، وما يُسرُّه لأصحابه المقرِّين منه.

والهمزة في قوله ﴿أَوَلَا﴾ للاستِفهام. وهو استِفهامٌ إنكاري، يتضمَّن توبيخ هؤلاء اليهود. وهو أيضًا استِفهامٌ تقريرِي؛ لحمل المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأنَّ الله يعلم السِّرَّ والعلَن.

والمعنى: إذا كان عِلْمُ الله محيطًا بالظاهر والباطن، فكيف يُنافِق هؤلاء، فيُظهرون شيئًا، ويُبطنون ضده، ثم يُؤثَّب بعضهم بعضًا على كَشْفِ أشياء من التوراة؟!!

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: يُظهرونه لأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من الموافقة والإيمان في الظاهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سَعَة عِلْمُ الله تعالى، وإحاطته بعالم السِّر والعلانية.

وفيها: تهديد المنافقين، وأنَّ المنافق بنفاقه يكون قد نَزَلَ نفسه منزلة الجاهل، فلو كان عالمًا باطلًا لعلم الله عليه ما نافق.

وفيها: لُطف الله بالصَّحابة والمؤمنين؛ فإنَّه أطلَعهم على ما يفعله عدوُّهم في الخفاء. والمؤمنون في هذا الزمان يقيسون ما يفعله أعداء اليوم على ما فعله أعداء الأمس، فقد تشابهت قُلُوبهم، ويعرفون عن أهل النِّفاق ما تَرَلُّ به ألسِنُهم، وما يكون من لحن قولهم، ويكونون على حذر من هؤلاء، ويستعينون بالله عليهم.

وفيها: دَمُّ الذين نافقوا من عامَّة اليهود، والذين لم يُنافِقُوا من خاصَّتِهِم وأحبارهم؛ فالذي أسَرَّه منافقوهم: الكُفر، والذي أعلنوه قولهم: ﴿ءَامِنَّا﴾، والذي أسَرَّه وكتَمَه أحبارهم وخاصَّتُهُم: هو صِفة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوَّتُه، والذي أعلنوه: جَحْدُهُم بذلك، وتكذيبُهُم به.

وفي تقديم لفظة ﴿يُسْرُونَ﴾ على لفظة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في الآية: إيدان بفضيحتهم، وكشف أسرارهم.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨):

ولما ذكر تعالى بعض جرائم كبرائهم وأخبارهم؛ قال عن عامتهم وجهلتهم: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود، رهطٌ ﴿أُمِّيُونَ﴾ لا يعرفون القراءة والكتابة.

و(الأُمِّيُّ): منسوب إلى أمه؛ لأنَّ هذا في النساء أكثر من الرجال، وكذلك كانت حاله حين ولادتها له، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾: لا يدرون ما في التوراة، وإذا قرأوا لا يفهمون المعنى، ومن كان كذلك كان بمثابة الأُمِّيِّ.

وهؤلاء ليس عندهم إلا التقليد والأمانى الكاذبة؛ كما قال الله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ وهو: الكلام الذي لا أساس له، والادِّعاء الكاذب، كقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأنَّ الله لا يعدُّهم بذنوبهم، وأنهم إذا دخلوا النار فلن يمحوا إلا آياتاً معدودات!

وقدر الله كلَّ ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهؤلاء حظُّهم من كتابهم السماع، دون القراءة والفهم: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ غير الحق، ويكذبون.

وهذه الأمانى التي يتمناها هؤلاء الأميون قد تكون من تلقاء أنفسهم، وقد تكون من وحي أخبارهم وعلمائهم، كما يعدونهم بالمغفرة والعفو والجنة؛ ليقبوا ملتجئين حولهم، سائرين خلفهم؛ ولذلك يكثر في كلام هؤلاء الرؤساء والمضللين ذكرُ الأجور الخيالية لمن سلك طريقهم، واعتنق مذهبهم، وعمل به، ويفعلون ذلك ليقبوا منتفعين من أتباعهم، بالمال والجاه والرياسة عليهم.

بينما علماء أهل السنة والتوحيد لا يمتنون من حضر عندهم وجلس إليهم بالأمانى

الكاذبة؛ وإِنَّمَا يُعَلِّمُونَهُمُ الْعَيْشَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَعَدَمِ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَلَا الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا يَقْطَعُونَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ، إِنَّمَا يُعَلِّمُونَهُمْ سُبُلَ تَحْصِيلِهَا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

دُمْ مَنْ لَا يَعْنِي بِمَعْرِفَةِ مَعَانِي كِتَابِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ لَا يَفْهَمُ الْمَعْنَى فَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا الظَّنُّ، وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، وَالظَّنَّ لَا يُسَمَّى عِلْمًا.

وفيها: دُمْ الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِآرَائِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، وَيُخَوِّضُونَ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ، وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ، وَدُونَ مَعْرِفَةِ قَوَاعِدِ الدِّينِ، وَدِرَاسَةِ مَا يَلْزَمُ مِنْ عُلُومِ الْأَلَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وكلام مثل هؤلاء لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ ظَنًّا، وَلَا يُطَلَّقَ عَلَيْهِ عِلْمٌ بِحَالٍ.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ إِذَا لَمْ يُصَاحِبْهَا فَهْمٌ وَعَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ لِلْمَعْنَى وَاسْتِيعَابٌ لَهُ، لَا تَكُونُ مَدْحًا، وَلِذَا نَجِدُ بَعْضَ مَنْ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ رُبَّمَا يَكُونُ فَهْمُهُ وَعَقْلُهُ أَحْسَنَ مِنْ غَيْرِهِ، ثُمَّ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ.

ولِذَا، فَمُكَافَحَةُ الْأُمِّيَّةِ لَا تَكُونُ فَقْطًى بِتَعْلِيمِ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ؛ وَإِنَّمَا بِتَعْلِيمِ الْمَعَانِي وَتَفْهِيمِهَا.

وفي الآية: أَنَّ الْمُقَلِّدَ لَيْسَ بِعَالِمٍ، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمُقَلِّدُ لَا عِلْمَ لَهُ، وَلَمْ يَخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ»^(١).

وفيها: أَنَّ تَعْلُمَ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ مِنْ أَهَمِّ الطَّرِيقِ لِنَيْلِ الْعِلْمِ، وَيُؤْخَذُ أَيْضًا بِالسَّمَاعِ وَالْمُشَافَهَةِ.

وفي هذه الآية مع ما قبلها: عَرُضٌ لِأَقْسَامِ الْيَهُودِ، وَهَذَا مُفِيدٌ فِي فَهْمِ الْقَوْمِ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ؛ فَإِنَّهُ عَرَّجَ ذَكَرَ عُلَمَاءَهُمْ وَعَوَامَّهُمْ، وَمُنَافِقِيهِمْ وَمَنْ لَمْ يُنَافِقْ مِنْهُمْ، وَلِذَلِكَ تَخْتَلَفُ

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٩٢).

طريقة التعامل والأحكام مع كل طائفة؛ فنفرّق في المبتدعة -مثلاً- بين أئمتهم وعوامهم، وبين الدّاعية إلى البدعة وغير الدّاعية.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا قَمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩):

ثم تهدّد الله الكفّرة من أهل الكتاب -وهم اليهود- الذين حرّفوا كتاب الله الذي نزل عليه، وغيروا صفة النبي ﷺ المكتوبة عندهم؛ ابتغاء عرض من الدنيا، فقال عزّ وجلّ:

﴿فَوَيْلٌ﴾: كلمة وعيد، ودعاء بالهلاك. وقيل: وادّ في جهنم، أو: صديد، يسيل في أصل جهنم.

﴿لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وهم: أحبار اليهود، الذين حرّفوا التوراة، واختلقوا من عند أنفسهم كلاماً موافقاً لهواهم، وكتبوه بأيديهم، وقدموه للناس على أنّه كتاب الله.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لأتباعهم الجهلة، ومشركي العرب: ﴿هَذَا﴾ المحرّف المُبدّل ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أنزله الله؛ ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ ليأخذوا مُقابلاً عليه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عوضاً زائلاً من الدنيا، من المال، أو الجاه.

وذلك أنّ رؤساء اليهود لما قدّم رسول الله ﷺ وعرفوا نبوّته؛ خافوا من زوال رياستهم، وانقطاع ما يأخذونه من أتباعهم من الأموال، إذا هم اتّبعوا النبي ﷺ؛ فعمدوا إلى صفتة في التوراة فغيّروها؛ حسداً وبغياً.

قال أبو العالية رحمه الله: «عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ، فحرّفوه عن مواضعه، يبتغون بذلك عَرْضاً من عرض الدنيا»^(١).

ثم أعاد تعالى تهديدهم بالعذاب الشديد؛ فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾؛ وذلك لثبوت العقوبة العظيمة عليهم يوم القيامة ﴿مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما كتبه أيديهم من التحريف.

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٧١).

﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: سيحصل لهم العذاب الشديد، من أجل أخذهم الحرام، وكسبهم له، وكذلك اكتسابهم السيئات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الوعيد بالعقوبة، والعذاب الشديد، والهلاك، والفضيحة، والحسرة، لمن بدل كلام الله، أو كذب على الناس، بتقديمه المُحرّف لهم على أنّه كلام الله؛ ليأخذ على ذلك نصيباً من الدنيا.

ولذلك كرّر ذكر (الويل) ثلاث مرّات؛ ليُفيد استحقاق العذاب لمن فعل أيّ فعل من الثلاث؛ وهي: تحريف الكتاب، والكذب على الله، وأخذ الثمن على ذلك.

وفيها: أنّه مهما حصل لصاحب الباطل من العوّض الدنيوي - من مال أو جاه - فهو قليل، حتى لو أخذ الدنيا كلّها عوّضاً؛ لأنّ الله قال: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]؛ أي: بالنسبة للآخرة.

وفيها: أنّ حبّ الدنيا يحمل على الجرائم العظيمة، كتحريف كلام الله، وخداع الناس به. وفيها: أنّ الجزاء من جنس العمل، وأنّ العقوبة نتيجة للمعصية، كما يُفيده قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

وفيها: أنّ الرؤساء الدّينيين لأهل الكتاب لا يؤثّمون على ما أنزل الله؛ فقد حرّفوه وبدّلوه؛ ولذلك لا يجوز سؤالهم بقصد الاستفادة ممّا عندهم، بل سؤالهم على وجه الإنكار عليهم.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث، تقرأونه مخضاً لم يشب، وقد حدّثكم أنّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وعيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به تمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم»^(١).

(١) رواه البخاري (٧٣٦٣).

وفيها: أَنَّ الْمُبْتَدِعَ فِي دِينِ اللَّهِ يَشْمَلُهُ هَذَا الْوَعِيدُ.

وفيها: عُقُوبَةُ الْعَالَمِ الْمَعَانِدِ.

وفيها: أَنَّ اخْتِذَاكَ الْمَالَ عَلَى تَحْرِيفِ الدِّينِ، أَعْظَمُ إِثْمًا مِنَ السَّرِقَةِ وَالْعُصْبِ؛ لِأَنَّهُ حَرَامٌ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ كَسْبٌ مُحَرَّمٌ، وَمِنْ جِهَةٍ مَخَادَعَةُ النَّاسِ وَالتَّلْيِيسُ عَلَيْهِمْ وَتَضْلِيلُهُمْ.

وَأَنَّ اخْتِذَاكَ الْمَالَ بِغَيْرِ حَقٍّ بِاسْمِ الدِّينِ، أَوْ لِأَجْلِ الْمَكَانَةِ وَالْمَرْجِعِيَّةِ الدُّنْيَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْبَاطِلِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ عَمَلَ عَمَلًا مُحَرَّمًا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ كَسْبُ دُنْيَوِيٍّ؛ فَإِنْ صَاحَبَهُ يَأْثَمٌ عَلَى عَمَلِهِ، وَيَأْثَمٌ عَلَى مَا أَخَذَهُ مِنَ الْكَسْبِ.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْتِ كَمَا مَعَدُّودَةٌ قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

ثم ذكر تعالى بعض ادِّعَاءَاتِ الْيَهُودِ مِنَ الْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ؛ فَقَالَ:

﴿وَقَالُوا﴾ هؤلاء المحرِّفون من اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ﴾ لن تصيبنا نار الآخرة ﴿إِلَّا أَنْتِ كَمَا مَعَدُّودَةٌ﴾ قلائل محصورة، قيل: بعدد أيام عبادة العجل.

وقيل: إِنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ تَقُولُ: مَدَّةُ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ، وَالْعَذَابُ يَوْمَ وَاحِدٍ فِي النَّارِ عَلَى كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا هِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ، ثُمَّ يَنْقُطِعُ الْعَذَابُ، كَمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١).

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ: ﴿أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾، وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ؛ لِلْجَنَائِهِمْ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِأَصْدَقِ الْأَمْرَيْنِ.

و(العهد): هو الميثاق والالتزام المؤكَّد، و(الإخلاف): نقض العهد.

والمعنى: هل لكم مَوْثِقٌ وَأَمَانٌ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا يَعْذِبْكُمْ إِلَّا هَذِهِ الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَةُ، بِحَيْثُ لَا يُخْلَفُ وَعْدُهُ لَكُمْ بِذَلِكَ؟!

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٧٧)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٥).

وحيث إنَّ هذا ادِّعاء كاذب، وأنَّهم ليس لهم عند الله أمان وعهد فيُنجزه لهم، وحيث إنَّ هذا كذب وافتراء على الله؛ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بل تكذبون عليه.

ولذلك جاء في «الصحيح»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود لما فُتحت خيبر: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قالوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُقُونَا فِيهَا! فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «اُخْسَأُوا فِيهَا، وَاللَّهِ، لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود يُقرُّون بالآخرة، وأنَّ فيها النَّار، ولكن إقرارهم لا ينفعهم عند الله؛ لتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وفيها: حُسن مجادلة القرآن لليهود.

وفيها: تحريم القول على الله بلا علم، والقول على الله بلا علم من شأن اليهود، فإنَّهم يفعلونه كِبَرًا أو جَهْلًا.

وفيها: أنَّ الله لا يُخلف الميعاد، وهذا يتضمَّن صفتين عظيمتين؛ وهما: الصِّدْق، والقُدْرَة.

﴿بَكَّى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١):

ولمَّا ادَّعى اليهود ذلك الادِّعاء الباطل، من أنَّهم لن يُخلَّدوا في النَّار، وأنَّ عذابهم سيكون أيامًا معدودة؛ ردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بَكَّى﴾، وهذا إثبات لما بعد النفي؛ أي: بلى، ستمسَّكم النَّار، وتخلَّدون فيها أبدًا.

ثم بيَّن تعالى مَنْ الذي ستمسُّه النَّار، وَمَنْ الذي لا تمسُّه النَّار؛ فقال:

﴿مَنْ كَسَبَ﴾ عمل وارتكب ﴿سَيِّئَةً﴾ المقصود بها هنا: الشُّرك أو الكُفر، كما جاء

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من أئمة التفسير^(١)؛ لأنَّ مَنْ وقع في ذلك يستوجب الخلود في النار.

﴿وَأَخْطَتْ بِهِ﴾: صارت كالحائط والسُّور عليه، واكتنفته من كل جانب، واستولت عليه في قلبه ولسانه ويده. و(الإحاطة): هي الشمول.

﴿خَطِيئَتُهُ﴾ (الخطيئة) هنا: ما دون الكُفر، من الكبائر الموجبة لدخول النار.

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: يُلازمونها وتُلازمهم، كما يُلازم الصاحب صاحبه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ماكنون فيها دائماً.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الثواب والعقاب لا يترتب على الأشخاص بحسب النسب أو الانتهاء؛ وإنما هو بحسب العمل.

وفيها: أنَّ مَنْ ارتكب سيئة دون الشرك ولم يُخطئ به خطيئته؛ فإنه لا يخلد في النار، وإنما يكون تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه على سيئاته، وإن شاء عفا عنه.

وفيها: ردُّ على اليهود الذين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَةً﴾؛ فبيّن لهم أنَّهم إذا بقوا على سيئة الشرك فلن يخرجوا منها أبداً.

وفيها: أنَّ مَنْ أحاطت به خطيئته ولم يكن له حسنة، فإنه يكون ممن لا يخرجون من النار.

وفيها: أنَّ بعض مرتكبي الخطايا تُوثقهم خطاياهم، وتغشى قلوبهم، وتحيط بهم إحاطة العدو، وتُسدُّ عليهم مَسَالِكِ النجاة، ويموتون مُصرِّين عليها. فإنَّ كانت خطاياهم شركاً أو كُفراً؛ فخلودهم دائم في النار، وإنَّ كانت دون الشرك فيكون خلودهم في النار إن دخلوها - بمعنى: الإقامة واللُّبث الطويل، ثم يخرجون منها يوماً من الأيام.

وفي كلام أئمة التفسير - كابن عباس رضي الله عنهما وغيره - في تفسير (السيئة) بالشرك: ردُّ على الخوارج الذين احتجُّوا بهذه الآية على خلود صاحب الكبيرة في النار.

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٨٠)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٥).

ثم فَضَّلَ تعالى هذا الميثاق؛ فقال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ مخلصين له، لا تُشْرِكُونَ به شيئاً، و(العبادة): اسم يجمع كمال الحب لله تعالى، مع كمال الذل^(١).

ولما ذَكَرَ تعالى حَقَّهُ؛ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ حقوق عبادِهِ، وأولها: حَقُّ الوالِدَيْنِ، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدين، وهذا يشمل جميع طُرُق الإحسان، من القول، والفعل، والمال، والجاء، وكل ما يُسَمَّى إحساناً.

فَعَطَفَهُ تعالى حَقَّ الوالِدَيْنِ على حَقِّهِ؛ يُعْظَمُ حَقُّهُمَا؛ فهما سبب وجود الولد، ولهما الفضل عليه في التربية والعناية والإنفاق.

ثم أَتْبَعَ ذلك بالأمر بِصَلَةِ الرَّحِمِ وَبِقِيَّةِ الْأَقَارِبِ؛ فقال: ﴿وَبِالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: أحسنوا إليهم، وهذا يشمل القرابة من جهة الأب ومن جهة الأم، ويقدمون في البرِّ بِحَسَبِ درجاتهم في القرابة.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: أحسنوا إليهم. و(اليتم) من الادميين: مَنْ فَقَدَ أَبَاهُ قَبْلَ بُلُوغِهِ، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُمْ بَعْدَ اخْتِلَامٍ»^(٢).

والإحسان إليه يكون ب: كفالاته، وحُسن تربيته، والعطف عليه، والرافة به، وحفظ حقوقه؛ وذلك لضعفه، وذهاب مَنْ كان يقوم عليه.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ أي: أحسنوا إلى المساكين. و(المسكين): هو الذي أَسْكَنَهُ الْفَقْرُ، وَقَعَدَتْ بِهِ الْحَاجَةُ.

والإحسان إليه: يشمل إعطاءه من الزكاة والصَّدَقَةِ، والسعي في قضاء حوائجه، ومواساته وتصبيره؛ ليرضى بالقضاء ويخفَّ أَلَمُهُ.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْزَمَةِ وَالْمُسْكِينِ؛ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ»^(٣).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤١/٨)، (١٩/١٠)، (١٦٢/١٥)، مدارج السالكين (٩٥/١).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٢٤٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٠٦)، ومسلم (٢٩٨٢).

ولمَّا أمر بالإحسان بالفعل؛ أتبعه بالأمر بالإحسان بالقول؛ فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: ألينوا لهم القول، وتلطَّفوا معهم في الكلام.

ولمَّا كان المال لا يسع الكل؛ كان من حُسن المعاملة ألا يُحرِّموا منك قولاً جميلاً، وكلاماً طيباً، وقد قال النبي ﷺ: «وَحَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنِ»^(١).

وقال أبو العالية في الآية: «قولوا للناس معروفاً»^(٢)، ويدخل في القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -^(٣).

ولمَّا بدأ تعالى الميثاق بالأمر بعبادته على وجه الإجمال، وذكر الإحسان إلى الخلق؛ أتبع ذلك بذكر أشرف العبادات البدنيَّة، وأشرف العبادات الماليَّة، فقال:

﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾: أدوها تامةً، قوِّموا بلا نقص. ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾: أعطوها لمستحقِّها عن طيب نفس؛ تبتغون الأجر من الله.

فكانت هذه التكاليف الثانية هي مقتضى الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، ولكنهم لم يلتزموا بذلك، ولم يقوموا به، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بعد قبولكم للميثاق. و(التولي): ترك الشيء وراء الظهر، علامة على الاستخفاف والرفض. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾؛ فإنَّهم قَبِلُوا الحقَّ، وعملوا به.

﴿وَأَنشَأْتُمْ مَّعْرُضَاتٍ﴾ أي: الذين تولَّوا كانوا في حالٍ من الإعراض، بالبدن والقلب، فكيف يُرجى أن يُقبل هؤلاء؟!؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن الكلام مع الناس، حتى مع الكافر، لكن دون أن يُداهنَه، أو يقرَّه على باطل.
وفيها: مراعاة الأولى فالأولى في المعاملة.

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٢/٢٩٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/١٦١).

وفيها: أهميّة الإحسان في التعامل مع الخلق، وهذا يقتضي عدم الإساءة؛ لأنّ الأمر بالشيء في القرآن والسنة يتضمّن النهي عن ضده.

وفيها: انتقاء الكلام، واختيار الحسّن منه، وأنّ الأفضل ترك الكلام الذي ليس بحسّن ولا سيء.

وفيها: أنّ القواعد العامّة في المعاملة مع الله وخلقه موجودة في سائر شرائع الأمم من قبلنا.

وفيها: تذكير اليهود في زمن النبي ﷺ وما بعده، بما فعله أسلافهم من السوء؛ ليحذروا من متابعتهم في ذلك، وأنّ الخلف لا يجوز له أن يتبع من سلفه في الشر.

وفيها: أنّ من تولّى بجسمه وأعرض بقلبه؛ فهو من شرّ الخليقة.

وفيها: تقديم حقّ الوالدين على حقوق سائر الناس، كما دلّ على ذلك اقتران حقّها بتوحيد الله؛ وذلك أنّ النشأة الأولى من الله، والنشأة الثانية - يعني في الدنيا - من الوالدين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ فَشَاهِدُونَ﴾ (٨٤)

ولمّا ذكر تعالى طائفة من الأوامر التي أمر بها بني إسرائيل؛ أتبع ذلك بذكر طائفة من النواهي التي نهاهم عنها، وكان قد أمرهم في الميثاق بصيانة حقوق الله، وحقوق عباده.

وكان ممّا أخذه عليهم أربعة أمور: ألاّ يسفك بعضهم دماء بعض، ولا يُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، ولا يُعاون بعضهم بعضاً على الإثم والعدوان، وإن وجد بعضهم بعضاً أسيراً فداه - ولو بجميع ما يملك -.

فذكر الله تعالى اليهود بهذا الميثاق، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا أيّها اليهود، وقت أن جعلنا العهد على آبائكم في التوراة ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾: لا تُريقونها ظلماً وعدواناً. وهذا يشمل نهى الواحد منهم عن قتل نفسه، ونهيه عن قتل أخيه من أهل ملّته.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا تُخرج بعضكم بعضاً من داره ووطنه. وكلُّ أهل دين كنفس واحدة، فإذا أخرج أخاه فكأنما أخرج نفسه.

و(الدَّيار): جمع دار، وهو منزل الإقامة، بخلاف منزل الارتحال. ويدخل في هذا: لا تُسيئوا جوار جيرانكم؛ فتضطروهم للرحيل.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق، وقَبِلْتُمُوهُ، فلا يزال مأخوذاً عليكم، كما أخذ على أسلافكم. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليه.

ويدخل في هذا: إقرار مَنْ كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالميثاق الذي أَقْرَبَهُ أسلافهم، وهم يشهدون على أسلافهم بهذا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل المِلَّة الواحدة كالنفس الواحدة، وهذا في المسلمين أيضاً، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَنِعَاطِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(١)، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاؤُهُمْ»^(٢).

وفي الآية: أنَّ إخراج الإنسان لأخيه من داره ووطنه، فيه إيذاء عظيم، ومشقة على النفس؛ ولذلك حرَّمه الشَّرْعُ الخفيف.

وفي الآية: أنَّ مَنْ اعتدى على أخيه في الدِّين، فكأنما اعتدى على نفسه.

وفيها: تحريم الانتحارِ وقَتْلِ الإنسان نفسه، مهما أصابه من الشَّدَّة والبلاء.

وفيها: عِظَمُ جُرْمِ بني إسرائيل؛ لأنَّهم نقضوا عهد الله وميثاقه، بعد أن أَقْرَبُوا على أَنْفُسِهِمْ بالميثاق، وشَهِدَ بعضهم على بعض بذلك.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٣٠٠)، ومسلم (١٣٧٠).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالْعَدُونَ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أَسْرَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾:

ثم بين تعالى كيف خالف بنو إسرائيل هذا الميثاق الذي أخذه عليهم؛ فقال:

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ يا معشر اليهود ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ كما قاتل بعضهم بعضاً، قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: تُجْلُونَ إخوانكم عن ديارهم وأوطانهم. ﴿تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ مستعينين بحلفائكم من المشركين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: متلبسين بالمعصية والذنوب، ﴿وَالْعَدُونَ﴾: التجاوز في الظلم، والاعتداء على الغير بغير حق.

﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ﴾ أي: إذا جاء إليكم إخوانكم الذين اعتديتم عليهم ﴿أَسْرَى﴾: قد استولى عليهم حلفاؤكم من المشركين وأوثقوهم؛ ﴿تَفَادَوْهُمْ﴾: يقومون بفكهم من الأسر، بفدية تدفعونها، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي: قد نص كتابكم على تحريم إخراجهم من ديارهم، فأنتم تخالفون - من جهة - بالاعتداء عليهم، وتوافقون - من جهة - بفدائهم!

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: وهذا الاستفهام، للإنكار والتوبيخ، فكيف يسفكون دماء إخوانهم، ويخرجونهم من ديارهم، ثم يقومون بدفع الفدية عنهم لفكهم من الأسر؟!

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن بني قينقاع من اليهود كانوا حلفاء الخزرج، وبني النضير وقريظة كانوا حلفاء الأوس، فإذا نشبت الحرب بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائهم، فيؤذي ذلك إلى أن يقتل اليهودي أخاه في الدين، ويخرج بعضهم بعضاً من بيوتهم، وينهبون ما فيها، وهم يعلمون أن ذلك محرّم عليهم في التوراة.

فإذا وضعت الحرب أوزارها؛ قام اليهود الذين قاتلوا مع الفريق الغالب بفك أسر

اليهود الذين قاتلوا مع الفريق المغلوب؛ تطبيقاً لما في التوراة - بزعمهم -! فأنكر الله عليهم هذا التناقض، ووبخهم عليه؛ فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(١).

وهذا من اتباع الهوى؛ لأنَّ الإيمان بالأحكام لا يجوز أن يتجزأ.

ثم هددهم على هذا؛ فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: ليس ثوابه ومقابلته على عمله ﴿الْآخِرَى﴾: ذُلٌّ وهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: بما يحصل لهم من الفضيحة، والإجلاء، والقتل، وتسليط العدو، وأخذ الجزية، ونحو ذلك؛ بسبب مخالفة شرع الله وأمره.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ سُمِّيَ بذلك؛ لقيام الناس من قبورهم فيه لربِّ العالمين، وقيام الأشهاد فيه، ولأنَّه يُقام فيه بالعدل. ﴿يُرَدُّونَ﴾ من ذُلِّ الدنيا وخزيها، وعذابِ القبر ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ وأعظمه في نار جهنم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾: نفى عن نفسه صفة الغفلة؛ لكمال علمه وإحاطته ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح والمنكرات.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: اليهود الذين نقضوا العهد، ومن شابههم ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾: استحبُّوها على الآخرة، واختاروها، فالدُّنيا مرغوب فيها عندهم - مع أنها دنيَّة - والآخرة مزهود فيها عندهم - مع أنها خيرٌ وأبقى -.

﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾: لا يُهَوِّنُ عليهم في الزمن، ولا في الشُّدَّة، فلا ينقطع ولا يقلُّ؛ مع كونهم يرجون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]؛ فَهُمْ يَأْتِسُونَ مِنَ الْخُرُوجِ، وَيَأْتِسُونَ مِنَ التَّخْفِيفِ. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ليس لهم ناصرٌ، يدفع عنهم عذاب الله.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ الأمة كالنفس الواحدة.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٠٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٩).

وفيها: أَنَّ الكُفْرَ ببعض الشريعة كُفْرٌ بجميعها.

وفيها: تحذير هذه الأُمَّة ممَّا وقع فيه اليهود.

وفيها - مع التي قبلها - : ذُكر الميثاقين اللَّذَيْن أَخَذَهُمَا اللهُ عَلَى بني إِسْرَائِيلَ، وفي الأول الأوامر، وفي الثاني النواهي؛ وذلك لِأَنَّ التكاليف الشرعيَّة مبنية على الأوامر والنواهي.

وفيها: البدء في الدَّعوة بالأوامر - وهي تتضمَّن أفعالاً - ثم بالنواهي - وهي تتضمن تروكاً - والأفعال أشقُّ من التروك، وتُقدَّم الأوامر لِأَنَّهَا أوجب.

وفيها: توبيخ مَنْ اختار الدُّنيا على الآخرة؛ لِأَنَّ مَنْ اختار الفاني على الباقي فهو مغبون.

وفيها: أَنَّهُ يجب الأخذ بجميع الدِّين؛ لِأَنَّهُ حقٌّ وصدق.

وفيها: التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لِأَنَّهُ إِذَا انتفى تخفيفُ العذاب، فانتفاء رفعه من باب أولى.

وفيها: التحريم الشديد للاستعانة بأعداء الدِّين على الإخوان في الدِّين.

وفيها: أَنَّ أَتْبَاعَ الهوى يُوْدِّي إلى التناقض، كما حصل لبني إِسْرَائِيلَ من مقاتلة إخوانهم، وإخراجهم، ثم افتدائهم!

وفيها: العذاب الشديد لمن جمع بين الإثم اللازم، والإثم المتعدِّي.

وفيها: وجوب صيانة دم المسلم، وتأمينه في داره وبلده، وفكَّه من الأسر، ولو بدفع المال الكثير.

وفيها: أَنَّ بعض عقوبات المعاصي معجَّلة في الدُّنيا - كالخزي - وبعضها مؤخر في عذاب النَّار.

وفيها: أَنَّ الله كتب على اليهود العذابين، وضاعفَ العقوبة عليهم، وجعلهم يوم القيامة في أشدَّ العذاب.

وفيها - مع التي قبلها - : أَنَّ الإيمان يقتضي فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

وفيها: أَنَّ مَنْ قام ببعض الشريعة فقط لا يستحقُّ المدح؛ بل يستحقُّ الذَّم؛ فَإِنَّ الله قد أمر اليهود بِتَرْكِ قَتْلِ إخوانهم، وَتَرْكِ إِخْرَاجِهِمْ من ديارهم، وَتَرْكِ المُظَاهَرة بِالْآخَرِينَ عليهم،

وافتندهم إذا وقعوا في الأسر، فخالفوا ثلاثاً، وقاموا بالرابعة؛ فذمهم أشدَّ الذمِّ، وجعلهم في أشدَّ العذاب.

وفيها: أنَّ الاشتغال بالدُّنيا عن الآخرة يؤدِّي إلى تضييع الأوامر، وارتكاب النواهي.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧):

ولمَّا كانت مخالفة أمر الله ونهيه ذنباً وعادة لازمة لليهود؛ ذكرهم بذلك، وأنهم قد كفروا نعمة الله عليهم، بمخالفة وتحريف ما أنزل عليهم من الكتب، وتكذيب وقتل من أرسل إليهم من الرُّسل؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾: أعطينا، وهذا يشمل: الإنزال، والتفهيم ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران عليه السلام، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق. ﴿الْكِتَابَ﴾: التوراة، التي أنزلها عليه جملة واحدة. وأكدَّ تعالى هذه النعمة بـ (لام التأكيد، و(قد)، والقسم المقدَّر.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتبعنا وأردفنا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى عليه السلام ﴿بِالرُّسُلِ﴾: كيوشع، ودادود، وسليمان، وزكريّا، ويحيى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾: أعطيناه ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ وهي: الآيات الظاهرات، الدالة على صدقه ونبوته. وهي شرعية كالإنجيل، وكونية كإحياء الطير والموتى، وإبراء الأكفم والأبرص، وتنبيه الناس بما يخفون.

وأضيفَ (عيسى) إلى أمّه (مريم)؛ لأنه ليس له أب، وردّاً على من يقول: إنّه ابن الله. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: قوّيناه وأعناهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام. و(القدس): الطاهر، وهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: «اللهم آيذه بروح القدس»^(١).

وكان تأييد عيسى بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمور؛ منها: حمايته من الشَّيْطَان عند الولادة، والنزول بالإنجيل عليه، وتلقيته الحُجَّة، ورَفْعُه إلى السماء حين أراد اليهود قَتْلَه.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِلَاٰهُكُمْ لِيُنذِرَكُمْ فَعَلْتُمْ كَيْدًا﴾: لا تُريدُه، ولا يوافق هواها. ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تعالَيْتُمْ عليه. و(الكِبَرُ): رَفُضُ الْحَقِّ، واحتقار الناس.

﴿فَقَرِيبًا﴾ طائفة من الأنبياء ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كما فعلوا مع عيسى ومحمَّد عليهما الصَّلَاة والسلام. ﴿وَقَرِيبًا نَقُتْلُوكُمْ﴾ كما فعلوا مع زكريَّا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكذلك وضعوا السُّمَّ لمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمات متأثرًا به شهيدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مُؤَالاة الأنبياء؛ لتثبيت الحق.

وفيها: أَنَّ الملائكة تؤيِّد مَنْ أمرهم الله بتأييده.

وفيها: استعمال المؤكِّدات في مخاطبة المنكِر والمتردِّد في تصديق الخبر ذي الأهمية البالغة.

وفيها: أَنَّ مَنْ ليس له أب؛ فَإِنَّهُ يُنسَب إلى أمِّه.

وفيها: أَنَّ الكِبَر يدفع إلى التكذيب.

وفيها: أَنَّ بني إسرائيل لم يكونوا يريدون الحق، وما كانوا يقبلون إِلَّا ما وافق هواهم، وإِنَّمَا سُمِّيَ الهوى بذلك؛ لِأَنَّهُ يهوي بصاحبه في النار.

وفيها: أَنَّ بني إسرائيل استمروا في قَتْلِ الرُّسُل، حتى كان وضع السُّمِّ لنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمات متأثرًا بذلك، حتى قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مرضه الذي مات فيه: «يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ، فَهَذَا أَوْأَنُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»^(١).

وفيها: أَنَّ كُلَّ مَنْ استكبر عن الحق؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود.

(١) رواه البخاري (٤٤٢٨) معلقا، ووصله الحاكم (٤٣٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٢٩).

و(الأبهر): عرق متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.

وفيها: أن من أسباب التكبر عن الحق: مخالفته لهوى المتكبر.

وفيها: أن الناس لا يزالون يحتاجون إلى مواصلة تذكيرهم بالخير، ونهيهم عن الشر.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨):

ثم ذكر تعالى ما قالته اليهود، الذين رفضوا دعوة النبي ﷺ، مقتدين في ذلك بأسلافهم، في إصرارهم على رفض الحق:

﴿وَقَالُوا﴾ لمن دعاهم للإسلام: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ في غطاء، وعليها طابع وغشاوة، فلا تفقه، وبعيدة عن الخير. وقيل: المعني: قُلُوبُنَا غُلْفٌ، وأوعية مملوءة علمًا، فلا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره.

وكلُّ هذا الكلام حُجَّة باطلة عند رب العالمين؛ ولهذا قال ﴿بَلْ﴾ وهذا يدلُّ على إبطال حُجَّتِهِمْ ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: طردهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم؛ لأنهم اختاروه وقدموه على الإيمان، فخذلهم الله تعالى، وتخلَّى عنهم.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمن منهم إلا القليل، أو: إيمانهم قليل، وهو مع ذلك لا ينفعهم؛ لأنهم خلطوه بالكفر.

وفي هذه الآية من القوائد:

محاولة الكفار للإتيان بحُجَج لتقوية موقفهم، ولو كانت حُجَجُهم باطلة.

وفيها: أن من أساليب العُتاة المتمردين من المدعّوين: تئيس الدّاعية، وإخباره أنه لا فائدة من كلامه، وأنه مهما دعاهم فلن يستجيبوا ولن يتأثروا.

وقد استعمل أعداء الرُّسل هذا الأسلوب؛ فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥].

وفيها: استكبار اليهود، وفرحهم بما عندهم من العلم، حتى صرّحوا أنهم مُستَغنون عمّا عند النبي ﷺ من الهدى والعلم.

وفيها: أن من أعرض؛ أعرض الله عنه، واستحقَّ اللّعة.

وفيها: تنفيذ حُجَج الكُفَّار وُسْبُها تهم؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ.
 وفيها: أَنَّ الْقُلُوبَ فِي أَصْلِهَا وَفِطْرَتِهَا تَتَقَبَّلُ الْحَقَّ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْبَاطِلِ يُفْسِدُونَهَا،
 وَيُوجِدُونَ فِيهَا مَوَانِعَ النَّائِثِ.
 وفيها: أَنَّ الْهُدَايَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِوُجُودِ أَسْبَابِهَا، وَانْتِفَاءِ مَوَانِعِهَا.
 وفيها: أَنَّ مِمَّا أَهْلَكَ الْيَهُودَ: تَرْكِيَةُ أَنْفُسِهِمْ، وَمَدْحُهَا الْمَذْمُومَ، وَالْإِغْتِرَارُ بِمَا عِنْدَهُمْ.
 وفيها: أَنَّ الْغُرُورَ يَمْنَعُ التَّعَلُّمَ.
 وفيها: تنفيذ حُجَجِ الْمَدْعُومِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ؛ حَتَّى لَا يَبْأَسَ الدُّعَاةَ، وَلَا تَلْتَبِسَ عَلَيْهِمُ
 الْأُمُورُ.
 وفيها: أَنَّ الْيَهُودَ أَقَلُّ النَّاسِ دُخُولًا فِي الْإِسْلَامِ، وَأَقَلُّ النَّاسِ إِيْمَانًا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩) ﴿٩٠﴾:

ثم ذكر الله تعالى تكذيبَ اليهود بمحمد ﷺ وبما أنزل عليهم؛ فقال: ﴿وَلَمَّا
 جَاءَهُمْ﴾ أي: اليهود في زمنه ﷺ ﴿كِتَابٌ﴾ وهو القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وصفه
 بذلك تشريفاً وتعظيماً، وأنه كتاب جدير بالقبول والعمل بما فيه؛ لأنه نازل من عند الله.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾: موافق لما معهم من التوراة، المذكور فيها صفة النبي ﷺ،
 وكذلك فإن هذا القرآن يشهد بأن ما أنزل على أنبياء بني إسرائيل - من التوراة والإنجيل
 والزبور - حقٌّ من عند الله.

﴿وَكَانُوا﴾ أي: اليهود ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: قَبْلَ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ وَنَزُولِ الْقُرْآنِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ
 عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يطلبون من الله الفتح والنصر على مُشْرِكِي الْعَرَبِ، ويقولون في دعائهم:
 «اللَّهُمَّ انصِرنا على أعدائنا، بالنبيِّ الْأُمِّيِّ الْمُبْعُوثِ فِي آخِرِ الزَّمانِ».

وكانوا يقولون لأعدائهم العرب، من الأوس والخزرج وغيرهم من المشركين قبل
 الْبَعْثَةِ: «إِنَّهُ سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمانِ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرمَ».

وقال أبو العالية: «كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مُشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا، حتى يعذب المشركين ويقتلهم»^(١).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أي: محمد ﷺ، على الصفة المذكورة عندهم؛ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾: جحدوا نبوته؛ بغياً وحسداً.

﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وهي: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تحل عليهم اللعنة، وتنزل بهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي ﷺ سيبعث، وتكون له الغلبة.

وفيها: أن اليهود لم يخضعوا للحق الذي أقرّوا به سابقاً.

وفيها: شدة كفر اليهود؛ لأنهم كفروا وكذبوا بالنبي ﷺ، مع علمهم بنبوته.

وفيها: أن الكافر مستحق لللعنة الله، وأنها نازلة به لا محالة إذا مات على الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١].

وفيها: جواز لعن جنس الكفار، أو الكافر غير المعين.

وفيها: أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق، لا بالرجال.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنت وحدك»^(٢).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين»^(٣).

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٣٥)، هداية الحيارى (٢/ ٣٧١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكاني (١٦٠).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ١٣٦)، مدارج السالكين (١/ ٤٦).

﴿يَتَّخِذُوا دِينَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٥٩﴾:

ثم ذم الله تعالى اليهود على ما فعلوه؛ فقال عز وجل: ﴿يَتَّخِذُوا دِينَهُمْ﴾، و(بئس): فإِذَا يُسْتَعْمَلُ للذم.

﴿يَتَّخِذُوا دِينَهُمْ﴾ المعنى: قُبْحُ الشَّيْءِ الَّذِي اخْتَارُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ؛ حيث دفعوا الإيمان وأخذوا الكفر، ودفعوا الحق وأخذوا الباطل، والذي يبيع الإيمان ويشترى الكفر فهو مغبون؛ قد ضيَّعَ حَقَّ نَفْسِهِ.

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بدلًا مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَكَفَرُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ.

﴿بَغْيًا﴾ أي: كَانَ الْبَغْيُ سَبَبَ كُفْرِهِمْ، وَهُوَ: الظُّلْمُ وَالْحَسَدُ وَالْعَدْوَانُ.

وَكَانَ الْكِبْرُ أَيْضًا مِنْ أَسْبَابِ رَفْضِهِمُ الْحَقَّ، وَالْحَاسِدُ بَاغٍ وَظَالِمٌ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَزِعَ لِنَفْسِهِ مَا آتَى اللَّهُ الْمَحْسُودَ مِنَ الْفَضْلِ.

﴿أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الْفَضْلُ): هُوَ زِيَادَةُ الْعَطَاءِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْوَحْيُ وَالْقُرْآنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

فَالْمَعْنَى إِذَنْ: بئس البيع عندما أعطوا الإيمان وأخذوا الكفر؛ حَسَدًا لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ.

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَهُمْ: الْأَنْبِيَاءُ، الَّذِينَ يَصْطَفِيهِمْ وَيَخْتَارُهُمْ.

﴿فَبَاءُوا﴾: اسْتَوْجِبَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ الْجَاهِدُونَ وَاسْتَحَقُّوا، وَرَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ مِنْ اللَّهِ ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ آخَرَ فَوْقَ الْأَوَّلِ؛ بِسَبَبِ تَوَالِي كُفْرِهِمْ، مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَالْكَفَرِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْإِنْجِيلِ، إِلَى كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنِ. فَبِهَذَا الْكَفَرِ الْآخِرُ السَّابِقُ اسْتَحَقُّوا لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبًا، فِي إِثْرِ لَعْنَةِ وَغَضَبِ.

﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: ذُو إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

- العقوبة الشديدة لمن كفر بنبوّة محمد ﷺ، ورفض وحي الله والقرآن.
- وفيها: أن الحسد والكبر من أعظم أسباب الكفر، وأن من رد الحق بسببها فهو متشبه باليهود.
- وفيها: معرفة نعمة الوحي والنبوّة، وأنها أعظم نعم الله ﷻ.
- وفيها: أن من آتاه الله منه فضلاً، فينبغي أن يكون من أعبد الناس، وأكثرهم تواضعاً.
- وفيها: أن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يتحمل أعباءها، ويصلح لها.
- وفيها: أن توالي الذنوب وتراكمها يؤدي إلى لعنات الله وغضبه، على مكثر فيها.
- وفيها: أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله، وكما رفض الحق تكبراً في الدنيا، فإن الله يذيقه الهوان والصغار والذل في عذاب الآخرة.
- وقد قال النبي ﷺ: «يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ^(١) فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَعْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»^(٢).
- وفيها: أن المراتب الدنيّة من فضل الله تعالى، ولا يجوز الاعتراض على تفضيل الله، ولا حسد من فضله الله، إلا من باب الغبطة.
- وفيها: إثبات الغضب لله ﷻ، على الوجه اللائق به سبحانه.
- وفيها: أن موافقة الجيل المتأخر للجيل المتقدم في الكفر؛ يؤدي إلى اشتراكهم في العذاب، ونزول اللّعة والغضب على الجميع.
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا نَحْنُ بِمَآ أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾:
- ثم قال تعالى - في إفحام اليهود، وبيان تناقضهم، وكذبهم، والرد عليهم -: ﴿وَإِذَا قِيلَ

(١) أي: أمثال النمل الصغير، في الصغر والحقارة.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).

لَهُمْ ﴿١٦١﴾ فِي دَعْوَتِهِمْ وَمَجَادِلَتِهِمْ: ﴿١٦٢﴾ إِيْمَانُؤُا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ ﴿١٦٣﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَذَا جَمِيعَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ.

﴿١٦٤﴾ قَالُوا ﴿١٦٥﴾ فِي جَوَابِهِمْ: ﴿١٦٦﴾ نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴿١٦٧﴾: نَسْتَمِرُّ عَلَى الْإِيْمَانِ بِالتَّوْرَةِ، وَنَكْتَفِي بِذَلِكَ، وَلَا نُوْمِنُ بِسَوَاهَا، ﴿١٦٨﴾ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴿١٦٩﴾ أَي: وَحَالَهُمْ أَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِمَا أُنْزِلَ بَعْدَ التَّوْرَةِ ﴿١٧٠﴾ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴿١٧١﴾ أَي: مَعَ أَنَّهُ مَنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهُوَ صِدْقٌ يُوَافِقُ التَّوْرَةَ فِي أُمُورِ الْإِيْمَانِ وَالْعَقِيدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي التَّوْرَةِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ أَيْضًا.

﴿١٧٢﴾ قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُلُّ دَاعِيَةٍ يُجَادِلُ الْيَهُودَ بِالْحَقِّ، فَيُخَاطِبُهُمْ إِلِزامًا وَبَيَانًا: ﴿١٧٣﴾ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ أَي: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي ادِّعَائِكُمْ الْإِيْمَانَ بِالتَّوْرَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمْ، فَلِمَ إِذَا قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاءَوكُمْ بِحُكْمٍ مِنَ التَّوْرَةِ ١٩

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْإِيْمَانَ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِجَمِيعِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَعَدَمُ التَّفْرِيقِ بَيْنَهَا فِي الْإِيْمَانِ.

وفيهما: أَنَّ الْيَهُودَ أَهْلَ بَغْيٍ وَاعْتِدَاءٍ، فَيَقْتُلُونَ مَنْ خَالَفَ هَوَاهُمْ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، مَعَ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ تَحْرِيمُ الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمَكْتُوبٌ عَنْهُمْ الْإِيْمَانُ بِجَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ.

وفيهما: بَيَانُ كَذِبِ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿١٧٥﴾ نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴿١٧٦﴾؛ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ صِفَةُ الرِّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَفَرُوا بِهِ.

وفيهما: وَجُوبُ قَبُولِ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَ بِهِ.

وفيهما: مِثَالٌ عَظِيمٌ لِإِفْحَامِ الْيَهُودِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانُ تَنَاقُضِ أَصْحَابِ الْبَاطِلِ.

وفيهما: ذِكْرُ حَيْدَةِ الْيَهُودِ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ، وَإِجَابَتِهِمْ الْمُتَلَوِّيَّةَ.

وفيهما: أَنَّ مُوَافَقَةَ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى جَرِيْمَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ، يُعْتَبَرُ مِشَارَكَةً فِيهَا.

وفيهما: أَنَّ مَنْ رَضِيَ بِالْمَعْصِيَةِ فَكَأَنَّمَا فَعَلَهَا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٧):

ثم ذكر تعالى أن اليهود كفروا مع وضوح الآيات أمامهم، وقيام المعجزات فيهم؛ فقال
﴿عِجْلٌ﴾: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: مصحوبًا بالدلائل القاطعة على أنه رسول
من عند الله.

ومن هذه البيّنات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والرّعاف بالدم، أو انقلاب
الماء دمًا، والعصا التي تصير ثعبانًا، واليد التي تُنزع بيضاء من غير سوء، وفلق البحر،
وتظليلهم بالعمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير العيون من الحجر، وغير ذلك ممّا
شاهدوه وعايَنوه بأنفسهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ معبودًا من دون الله، و(العجل): ولدُ البقر، صنعه السّامريُّ
الضالُّ المضلُّ من الحليّ والذهب، على هيئة هذا الحيوان، ودعاهم لعبادته، فأطاعوه.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: اتّخذوه إلهًا، من بعد أن ذهب موسى عليه السّلام إلى الطور لمناجاة الله.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: والحال أنّكم ظالمون لأنفسكم، بوقوعكم في الشّرك،
وبوضع العبادة في غير موضعها. والشّرك ظلمٌ عظيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سفاهة اليهود الذين عبدوا شيئًا مصنوعًا بأيديهم.

وفيها: أنّ طول العهد وبعْد المدة من النّبيّ والعالم والمرّبّي، يُقَسّي القلب، ويوقع في
الشّرك والبدعة والمعصية.

وفيها: هيبة موسى عليه السّلام؛ فإنّهم لم يكونوا يستطيعون في وجوده وحضوره أن يُشركوا.

وفيها: أنّه ينبغي على الدّاعية أن يحرص على مُلازمة المدعوّين ما أمكن؛ حتى تضيق
فرصة الشّيطان في إضلالهم.

وفيها: أنّه يجب التعلّق بالحقّ لا بالأشخاص، وأنّه مهما غاب النّبيُّ أو العالم أو القدوة؛
فلا يجوز ترك الواجبات أو فعل المحرمات في غيابه.

وفيها: أَنَّ اليهود وقعوا في الشُّرك عن ظُلْمٍ وَعِلْمٍ، وليس عن جهلٍ وغفلة.
وفيها: بيان كَذِب اليهود في ادِّعاءاتهم، ومنها قولهم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.
وفيها: أَنَّ من خصال اليهود: مُقَابَلَةُ النِّعَمِ بِالشُّرْكِ وَالْكُفْرَانِ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ
بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾﴾:

ولمَّا ذَكَرَ تعالى مثلاً آخر لمُعَانِدَةِ اليهود، وإصرارهم على الشُّرك، وكَذِبِهِمْ في ادِّعَائِهِمْ؛
قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أَخَذْنَا عَلَيْكُمْ الْعَهْدَ
الْمُؤَكَّدَ لِلْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾: قَلَعْنَا ذَلِكَ الْجَبَلَ، وَحَبَسْنَاهُ
فَوْقَ رُؤُوسِكُمْ؛ تَهْدِيدًا بِسُقُوطِهِ عَلَيْهِمْ، إِذَا امْتَنَعُوا عَنِ الْإِسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ، وَأَبَوْا اتِّبَاعَ مَا
أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾: اْعْمَلُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي أُعْطِينَاكُمْوه ﴿بِقُوَّةٍ﴾
بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ، وَعَزِيمَةٍ وَنَشَاطٍ. ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: سَمَاعَ قَبُولٍ وَاسْتِجَابَةٍ وَطَاعَةٍ.
فَكَانَ رَدُّهُمْ: الْإِعْرَاضَ وَالتَّوَلَّى، فَعَلًّا وَقَوْلًا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سَمِعْنَا
بِأَذَانِنَا فَقَطْ، وَعَصَيْنَا بِأَفْعَالِنَا، وَخَالَفْنَا. وَ(العَصِيَانُ): هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ، بَرَكْ
الْمَأْمُورِ، أَوْ فِعْلُ الْمَحْظُورِ.

وَلَعَلَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ بَعْدَ رَجُوعِ الْجَبَلِ إِلَى مَكَانِهِ، وَزَوَالِهِ مِنْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ!
﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: تَغَلَّغَلْ حُبُّ الْعِجْلِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَامْتَلَأَتْ بِهِ.
قَالَ قَتَادَةُ: «أُشْرِبُوا حُبَّهُ، حَتَّى خَلَصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ»^(١).
﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِمَا بَقِيَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْآثَامِ السَّابِقَةِ،
فَتَنُّوا بِالْعِجْلِ لَمَّا صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ.

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ يَجَادِلْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ: ﴿يَتَسَمَّيَا مُرْكُم بِهِ﴾
﴿إِيمَانُكُمْ﴾ (بئس): مَنْ أفعال الذَّم، أي: بئسما يأمركم به إيمانكم عبادة العجل، فإذا كان
مقتضى الإيمان عندكم أن تعبدوا هذا العجل، فبئس هذا الإيمان. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
أي: صادقين في دعوى الإيمان، والمقصود: إن كنتم مؤمنين حقيقة، فكيف يأمركم إيمانكم
بالعمل القبيح؟

و(الإيمان) في الأصل: ضدُّ الشُّرك والكُفْر.

وفي هذه الآية من القوائد:

أنَّ بني إسرائيل ما آمنوا إلَّا عن كُره، وما أظهرُوا الطاعة إلَّا حين صار الجبل فوق رؤوسهم.

وفيها: عظيمُ قُدرة الله؛ بقَلْع الجبل من مكانه، وإمساكه في الهواء.

وفيها: وجوب تَلَقُّي شريعة الله بالنشاط والجدَّة، وليس بالكسل والفتور.

وفيها: وقاحة بني إسرائيل وعنادهم، في قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وفيها: أنَّ سماع الإدراك لا يعنى الاستجابة، والمؤمن إذا سمع استجاب.

وفيها: أنَّ المؤمن الحقَّ لا يأمره إيمانه بالمعصية والشر.

وفيها: أهميَّة تطهير القلب من الأدران السابقة، والآثام الماضية؛ حتى لا يُصبح قابلاً
للافتتان.

وفيها: أنَّه ينبغي على مَنْ تاب إلى الله وأناب، أن يتخلَّص من كلِّ شوائب الجاهليَّة، سواءً
كانت كُفراً أو بدعة أو معصية؛ حتى لا يعود إلى ما كان عليه، ولا يفتنَّ بها مجدُّ ويُعرض
عليه من أنواع الشُّرك والمعاصي.

وفيها: أنَّ مَنْ تشرب قلبه حبَّ شيء؛ فإنَّه يُعميه عن رؤية عيوبه، ويُصمُّه عن سماع ما
يطعن فيه، وهذا معنى قولهم: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعمِّي ويُصمُّ».

وفيها: أنَّه ينبغي تقوية إيمان مَنْ أسلم خائفاً؛ حتى لا يعود إلى الكُفر، بإزالة ما يُخيفه.

وفيها: التَّهَكُّمُ بَمَنْ ادَّعى الإيَّان وهو كاذِب؛ لينكشف أمرُه أمام نفسه، وأمام الآخرين.
وفيها: أَنَّ مريض القلب مهما رأى من الآيات، فإنَّه لا يؤمن حقيقة؛ بل تكون طاعته
مؤقَّتة ظاهرة، حتى إذا زالت الآيات رجع إلى ما كان فيه.

وفيها: تعلَّم الأدب مع الله، في عدم نسبة فعل الشرِّ إليه مباشرة، مع أنَّه خالقه ومقدِّره،
كما يُفيده بناء الفعل للمجهول في قوله: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمُعْجَلَ﴾، والذي
أشربهم إيَّاه في قُلُوبِهِمْ حقيقة: هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا كقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١)، وقول مؤمني الجن: ﴿أَشْرَأْرِيدُ
يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمَرَأَادِيهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢):

ولمَّا ادَّعى اليهود -عليهم لعنة الله- أَنَّ الجنةَ خالصة لهم من دون الناس، وأنَّ النَّارَ
لن تمسهم إلَّا أَيَّامًا معدودات، وأنَّهم أبناء الله وأحباؤه؛ بيَّن الله تعالى كذبهم، وتحدَّاهم بهذه
الآية؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاء اليهود: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ
الْآخِرَةُ﴾ المقصود: نعيم الآخرة، وهو الجنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي: خاصَّة بكم، وسالمة
من مُشاركة غيركم لكم فيها، ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾: بقيَّة الأُمم، بما فيهم المسلمون.

﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ أي: أريدوه، واشتهوه بقلُوبكم، واطلبوه وادعُوا به بالسِّتكم؛ لأنَّ
مَنْ اعتقد أنَّه من أهل الجنة؛ كان الموتُ أحبَّ إليه من الحياة الدُّنيا.

ولذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أَنَّ الجنةَ خالصة لكم.

ولم يجرؤ اليهود على ذلك، ولم يتمنَّوا الموت ولا سألوه، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ
أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ»^(٣).

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٧١ / ٧).

وقال بعض المفسرين: المقصود بالآية: المباهلة، وهي أن يقوم اليهود بالدعاء على الكاذب من الفريقين (أي: هم والمسلمون)، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

ولكنهم لم يستجيبوا لهذا؛ لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم هم الكاذبون، والحياة عندهم عظيمة عزيزة، فكيف يدعون بشيء يكرهونه، وهم يعلمون أنه سيرجع عليهم، وينزل بهم، وليس بالمسلمين؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

تفنيد مزاعم الكافرين، وإفحام اليهود الملحونين، وتزويد المؤمنين بالحجج والبراهين، وطرق مناظرة هؤلاء اليهود المفسدين.

وهذا من تولى الله للمؤمنين، وتأيده لهم.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١٥):

ولما تحدى الله اليهود أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين؛ قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وفي سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧].

أي: لن يحدث ذلك منهم في المستقبل كله، وفي طول الدنيا؛ لأنهم يعلمون كذبهم، وما لهم بعد الموت من العذاب.

وأما في الآخرة: فإن جميع أهل النار -بما فيهم اليهود- يتمنون الموت؛ لينتهي عذابهم، وما هم بميتين، كما قال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَكْلُكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ تَارُكُكَ قَالَ إِنَّا أَنَا مَلَائِكَةٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما عملته أيدي هؤلاء اليهود وأنفسهم، من المعاصي الموجبة للخلود في النار، كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: محيط علمه بهم، وبالظلمة من بني آدم -على اختلاف مللهم- وبما قالوه وفعلوه. وفي هذا تهديد وتخويف لهم؛ لأنه سيُجازيهم على أعمالهم التي أحاط بها علما.

وفي هذه الآية من القوائد:

أَنَّ مَنْ إعجاز القرآن الكريم: إخباره عن أمر مستمرٍّ في المستقبل، وهو أَنَّ اليهود لن يتمنوا الموت، وهذا ما تراه فيهم حتى الآن.

وفيها: نسبة العمل إلى الأيدي؛ لأنها أكثر ما تُكتسب به الأعمال.

وفيها: أَنَّ مَنْ ساء عمله خاف من الموت، وَمَنْ حَسُنَ عمله لا يكون أمره كذلك.

وفيها: أَنَّ سَبَبَ عدم تمنّي اليهود للموت، يختلف عن سَبَبِ عدم تمنّي المؤمن للموت.

فالمؤمن حاله كما في الحديث: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ»^(١)، أي: يتوب ويرجع عن الإساءة، ويطلب رضا ربّه بالتوبة.

أمّا إذا قدمت الفتنه، وخشي المؤمنُ على دينه؛ فإنه لا بأس أن يتمنّى الموت حينئذٍ، كما في دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا أَرَدْتُ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً؛ فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»^(٢).

﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(١١):

ثم قال تعالى في وصف هؤلاء اليهود: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ﴾ يا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل متأمل في حالهم إلى قيام الساعة ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾: أشدَّ الناس حِرْصًا، مؤمنهم وكافرهم. و(الحِرْص): الطمع في الشيء، مع الخوف من فواته، مع بذل الجهد في تحصيله، وشدة الطلب له.

﴿عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾: أي حياة كانت، ولو لحظة!

﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: أَنَّ اليهود أحرص من المشركين على البقاء أحياء؛ وذلك لأنَّ المُشْرِك المنكِر للبعث يحرص على هذه الحياة الدنيا؛ لأنها فرصته الوحيدة في اعتقاده، فهو يريد البقاء في الدنيا للاستمتاع أكثر ما يمكن.

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣)، وصحّحه الألباني في الإرواء (٦٨٤).

وأما حرص اليهود على الحياة - وهم يؤمنون بالبعث والنشور، وحياة الآخرة -؛ فذلك لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم ما لهم من العذاب في الآخرة.

والذي يتوقع عذاباً بعد الموت، أشدَّ حرصاً على الحياة ممَّن لا يتوقع شيئاً أصلاً.

﴿يُودُّ﴾: يتمنى ويحب جداً. و(الود): خالص المحبة. ﴿أَحَدُهُمْ﴾: أحد هؤلاء اليهود أو المشركين. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: أن يمتدَّ به العمر والبقاء في الدنيا هذه المدة.

﴿وَمَا هُوَ﴾: وليس تعميره وطول حياته ﴿يُزَخَّرُ بِهِ﴾: بمُبْعِدِهِ ومانعه ومُنَحِّهِ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾: عذاب الله بعد الموت، وفي الآخرة ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ هذه المدة الطويلة.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: ذو إِبْصَارٍ بما يعملون، عليمٌ بأعمالهم، في السِّرِّ والعلانية، لا يخفى عليه شيء من ذلك. و(البصير) بالشيء في لغة العرب: المُبْصِر، العالم به، و(البَصَر): العلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهوديَّ يكره الموت؛ لِمَا يعلم من سوء العاقبة.

وفيها: أنَّ الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة.

وفيها: أنَّ المسيء اللاهي يريد طول العمر؛ لمزيد من الاستمتاع بالدُّنيا، وخشية العقاب في الآخرة.

وفيها: أنَّ طول العمر لا يُفيد صاحبه شيئاً، إذا كان في معصية الله.

وفي ذلك الإشارة إلى تقييد الدُّعاء بطول العمر والبقاء، بأن يقول - مثلاً -: «أطال الله عمرك وبقاءك في طاعة الله»، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّبْثَ في الدُّنيا لعمل الشرِّ، فتعميره وبِالٍ عليه. وقد سئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ شَرُّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»^(١).

وأما مَنْ أَحَبَّ البقاء في الدُّنيا لعمل الصالحات، فَنِعِمَّا هو.

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧)

ثم قال تعالى في جواب اليهود الذين صرّحوا للنبي ﷺ بعداوتهم لمن ينزل عليه بالقرآن، وهو جبريل عليه السلام؛ فقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ أي: من أضمر عداوته؛ فليمت غيظاً؛ لأنّ من عاداه فقد عادى الله، وقد جعله الله واسطةً بينه وبين رُسله. وقيل: معنى (جبريل): عبد الله.

﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: جبريل الأمين ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٧٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بأمره ومشئته، فلا وجه للعداوة؛ لأنّ جبريل عليه السلام مأمور.

﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقاً ومطابقاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية المتقدمة، ﴿وَهُدًى﴾ هادياً ودليلاً إلى الحقّ ﴿وَبُشْرَى﴾ أي: بالجنة والنعيم. و(البشارة): هي الخبر السار. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكلّ ما يجب الإيمان به.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: ما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنّ اليهود أقبلوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، إنّنا نسألك عن خمسة أشياء، فإنّ أنبأنا بهنّ عرفنا أنّك نبيّ، واتّبعناك.

فكان منها: فإنّه ليس من نبيّ إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: ﴿جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب، عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر؛ لكان! فأنزل الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

دفاع الله تعالى عن عبده ورسوله جبريل عليه السلام.

(١) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وحسنه محققو المسند.

وفيها: أَنَّ الْقَلْبَ مَحَلٌّ لِلْحِفْظِ؛ ولذلك كان نزول القرآن عليه، كما في قوله: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

وفيها: الموالاة بين المؤمنين، ويدخل فيهم الملائكة، وعلى رأسهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، وموالاته تقتضي الإيمان به، ومحَبَّتَه، ونصرتَه، وبيان منزلته، والدِّفاع عنه.

وفي الآية: بيان كُرمه اليهود لجبريل عَلَيْهِ السَّلَام؛ لَأَنَّهُ كان ينزل بالقرآن المشتمل على فَضَحهم والردِّ عليهم؛ ولَأَنَّهُ كان ينزل مع الملائكة لنُصرة المؤمنين في قتال اليهود، وهو الذي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمضي بعد الخندق لقتال بني قُرَيْظَة.

وفيها: أَنَّ الملائكة التي تنزل بأمر الله وإذنه، بالوحي والعذاب وغير ذلك، لا وجه لبُغْضهم؛ لَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَنْزِلُونَ بأمر ربهم.

وفيها: أَنَّ القرآن بُشْرَى للمؤمنين؛ لَأَنَّهُمْ قَبِلُوهُ وانتفعوا به.

وفيها: أَنَّ مَنْ عادى رسولاً فقد عادى جميع الرُّسُل. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ»^(١).

وفيها: أَنَّ الملائكة لا تنزل إلا بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الآية مع الأدلة الأخرى: أَنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَام يتلو الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يسمعه، فيَعْقِلَه بقلبه.

وفي الآية: فَضْلُ الْقَلْبِ؛ لَأَنَّهُ موضع العقل والعِلْم، وأشرف ما في الجسد.

وفيها: تأييد الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواجهته مع اليهود، بتلقيه الحُجَج، وماذا يقول لهم عند مجادلهم ومناظرتهم.

وقد قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية على عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا سَأَلَهُ عن أسئلة لا يعلمها إلا نبيُّ، وأجابه عنها، وقال له: «أَخْبَرَنِي مِنْ جِبْرِيلُ أَنِّي»، قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ:

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

«نَعَمْ»، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢):

ثم بيّن تعالى حكم مَنْ يُعَادِيهِ وَيُعَادِي رُسُلَهُ -أو واحداً منهم-؛ فقال:

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾: بمخالفة أمره عناداً، ومعصيته مكابرةً، والاستكبار عن عبادته، أو معاداة أوليائه، ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾: عالم غيبي، خلقه الله من نور، يعبدونه ويطيعونه.

﴿وَرُسُلِهِ﴾: صفوة الخلق، الذين أوحى إليهم بشرّعه، وأمرهم بتبليغه، ويدخل فيهم الرسول الملكي، والرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: أفردهما بالذكر -مع كونهما داخلين في (الملائكة)-؛ لبيان شرفهما وفضلهما، وعلوّ منزلتهما عنده سبحانه.

وقرن (ميكال) بـ (جبريل) للردّ على اليهود، وبيان أنّ مَنْ عَادَى أَحَدَهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ، وَعَادَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَيْضًا.

وجبريل موكل بإبلاغ الوحي من الله إلى أنبيائه ورُسُلِهِ، وميكال هو ميكائيل، وهو الموكل بالمطر والنبات، فجبريل موكل بما تحيا به القلوب، وميكائيل موكل بما تحيا به الأرض والأبدان.

وهما مع إسرافيل -الموكل بالنفخ في الصور- أفضل الملائكة، وقد ذكرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُعَائِهِ فِي اسْتِفْتَاكِ قِيَامِ اللَّيْلِ؛ فكان يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٤٤٨٠).

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

﴿فَاتَّكَ اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾: هذا جواب الشرط السابق؛ أي: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ، فَاللَّهُ عَدُوًّا لَهُ، وَمَنْ عَادَاهُ وَعَادَى رُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الْمَتَّقَدِّمِ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

ارتباط أركان الإيمان بعضها ببعض، وأنَّ مَنْ كَفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا فَقَدْ كَفَرَ بِالْجَمِيعِ.
وفي الآية: بيان تناقض اليهود في زعمهم مُوَالَاةَ مِيكَائِيلَ وَمُحَبَّةَ، ثُمَّ كُفْرَهُ جِبْرِيلَ وَمَعَادَاتِهِ، مَعَ أَنَّهَا مَلَكَانِ مَأْمُورَانِ.

وفيها: إثبات صفة (العداوة) من الله لِمَنْ يُعَادِيهِ، أَوْ يُعَادِي أَوْلِيَاءَهُ.

وفيها: انتصار الله لأوليائه.

وفيها: أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ فَاللَّهُ عَدُوٌّ لَهُ.

وفيها: إشارة إلى أَنَّ غِذَاءَ الْقَلْبِ مَقْدَّمٌ عَلَى غِذَاءِ الْبَدَنِ.

وفيها: التحذير من أَنْ يَتَسَبَّبَ الْعَبْدُ فِي مَعَادَاةِ اللَّهِ لَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ عَادَى اللَّهَ فَهُوَ مَخْذُولٌ لَا يُفْلَحُ، وَعَذَابُهُ أَلِيمٌ، وَعَاقِبَتُهُ وَخِيمَةٌ.

وفيها: أَنَّ مَنْ عَادَى رَسُولًا فَقَدْ عَادَى الَّذِي أَرْسَلَهُ، وَمَا أُرْسِلَ بِهِ.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(١١):

وَلَمَّا زَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْتِهِ مِنْ رَبِّهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ، لِيَتَّبِعُوهُ؛ رَدًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾ (اللام) فِي ﴿أَنْزَلْنَا﴾ لِلْقَسَمِ، وَالْمَعْنَى: «وَعَزَّيْ وَجَلَالِي، لَقَدْ أَنْزَلْنَا» ﴿إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ءَايَاتٍ﴾: جَمْعُ «آيَةٍ»، وَهِيَ: الْعَلَامَةُ وَالْدَلِيلُ وَالْبُرْهَانُ، وَالْمَقْصُودُ: آيَاتُ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: وَاضِحَاتٌ فِي ذَاتِهَا، وَفِي دَلَالَاتِهَا، مَقْصَلَاتٌ بِالْحَلَالِ، وَالْحَرَامِ، وَالْأَخْبَارِ، وَالْعِظَاتِ، وَالْأَحْكَامِ.

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾: يمحدها وينكرها، ويكذب بها ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله. والمراد بـ (الفِسق) هنا: الفِسق الأكبر الموجب للخلود في النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الرَّد على مزاعم اليهود.

وفيها: دليل على عُلُوِّ الله على خَلْقِهِ؛ لأنَّ الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها: ذكر أحد نوعي الآيات، وهي الآيات الشرعيَّة، وما أنزل الله على أنبيائه. والنوع الآخر: هي الآيات الكونيَّة من مخلوقات الله، كالشمس والقمر والليل والنهار، واختلاف الألوان.

وفيها: أنَّ اليهود حاولوا إطفاء نور الله، والتنقيص من قَدْرِ كتابه؛ لأنَّه يكشف حقيقتهم، ويبيِّن مخازيهم، ولكن يأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره، وينتصر لكتابه.

وفيها: أنَّ من الفِسق ما يكون سبباً للخلود في النَّار، وهذا هو الفِسق الأكبر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ فهذا من إطلاق الفاسق على الكافر.

وفيها: أنَّه كلما ازداد الإنسان طاعة لله، وابتعد عن الفِسق؛ كانت آيات الله في قلبه أبين وأوضح.

﴿أَوْ كَلِمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

ثم ذكر تعالى خصلة ذميمة في اليهود توجد فيهم دائماً؛ وهي الخيانة، ونقض العهود والمواثيق؛ فقال تعالى:

﴿أَوْ كَلِمَا﴾ (الهمزة) للاستيفهام، وهو إنكاري، و(الواو) للعطف على ما تقدَّم، و(كلِّما): أداة شرط تفيد التَّكرار.

﴿عَهْدُوا﴾: أعطوا الميثاق المغلَّظ المؤكَّد باليمين ﴿عَهْدًا﴾ مع الله عَزَّوَجَلَّ، أو مع رُسُلِهِ، كما عاهدوا باتِّباع ما أنزله الله، والإيمان بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بُعِثَ، ونصرته، والقتال معه.

أو عهودهم مع الخلق، كالمعاهدات التي أبرموها مع المسلمين في المدينة النبوية. **﴿نَبَذَهُ﴾**: طرحه ونقضه، وترك العمل به، وخالف ولم يوف **﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾**: طائفة وجماعة.

قال الحسن البصري رحمه الله: «ليس في الأرض عهد يُعاهدون عليه إلا نقضوه ونبدوه، يُعاهدون اليوم، وينقضون غدا»^(١)!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فلا يرجى إيمانهم؛ لأن الضلال قد استحوذ عليهم، ولو كانوا يؤمنون ما نقضوا العهد.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا إِيمَانَ لِّمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِّمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»^(٢).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن مالك بن الصيف اليهودي، قال حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أخذ الله عليهم من الميثاق، وما عهد الله إليهم فيه: والله، ما عهد إلينا في محمد صلى الله عليه وسلم، وما أخذ له علينا ميثاقاً!

فأنزل الله عز وجل: **﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾**^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الغدر والخيانة من طبيعة اليهود، وأنه لا بُدَّ أن يوجد فيهم من ينقض العهود، وأنهم لا يؤمنون حتى بكتابتهم، وأنه لا يوثق بهم في شيء، وأنهم ينقضون العهود حتى مع غير المسلمين. وفي الآية: أن المؤمن يفي بالعهد، ولا ينقضه.

وفيها: أن من العدل أنه إذا حصل الإثم من بعض القوم، ألا يُعمَّم جميعاً بالحكم؛ لقوله: **﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾**.

وفيها: أن المستخفَّ بالعهد مُشابهٌ لليهود.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/١٨٤).

(٢) رواه أحمد (١٢٣٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/١٤٠)، تفسير الطبري (٢/٤٠٠)، وإسناده ضعيف.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠):

ثم ذكر تعالى امتناع اليهود عن الإيمان بمحمد ﷺ، بالرغم من أن العهد قد أخذ
عليهم بالإيمان به، وأتباعه ونصرته إذا بُعث؛ فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾: أرسل إلى
اليهود وأتاهم ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ موافق ﴿لِمَا
مَعَهُمْ﴾ من التوراة وغيرها من كتبهم المذكور فيها صفته، ووجوب الإيمان به وأتباعه.

﴿نَبَذَ﴾: ألقي ورمى ﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: طائفة من هؤلاء اليهود، وهم
أخبارهم وكبارهم ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ الذي عندهم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا يدل على
الإعراض التام، وعدم الالتفات، والاستغناء، والكُره والإهمال، فجعلوه كالشيء المنبذ
المرمى المحتقر.

قال السَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو بين أيديهم يقرأونه، ولكن نبذوا العمل به»^(١)، وقال سُفْيَانُ بْنُ
عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أدرجوه في الحرير والدُّبْيَاج، وحلَّوه بالذهب والفضَّة، ولم يَحُلُّوا حلاله ولم
يَحَرِّمُوا حرامه؛ فذلك النَّبَذُ»^(٢).

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: تظاهراً بالجهل به، وكأنهم ليس عندهم علم بصفة هذا النبي،
ومبعثه، وحقه.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: أن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم أفسدوا علمهم، وجحدوا،
وكفروا، وكتموا»^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

كُفر اليهود بالنعمة، فبدلاً من أن يؤمنوا بهذا القرآن - لأنه مؤيد لما معهم - كفروا به.
وفيها: مثال لكُفر الإعراض والتولي.

(١) تفسير الطبري (٧/٤٦٣)، تفسير ابن المنذر (٢/٥٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/٤١).

(٣) تفسير الطبري (٢/٤٠٤).

وفيها: أن الرسول محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبرت به الكتب السابقة.

وفيها: شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به.

وفيها: موافقة القرآن لما قبله من الكتب السماوية في أمور كثيرة؛ منها: توحيد الله، وأركان الإيمان، وذكر اليوم الآخر، والمواعظ من الله لحلقه، والقواعد العامة للتشريع، والأمر بأعمال البر والخير، ووجوب الإيمان بالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفته، وصفة أصحابه، وأخبار الأمم الماضية، وغير ذلك.

وفي الآية: قبح التظاهر بالجهل مع كتمان العلم.

وفيها: خطورة ترك العمل بكتاب الله.

وفيها: أن ترك بعض الكتاب كتركه كله.

وفيها: سوء من رد الحق بعد العلم به.

وفيها: أن من لا يعمل بعلمه؛ فهو كالجاهل، أو أشد.

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَكَرُوا بِهِ ۖ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾

ولما اتفقت التوراة والقرآن، وطابق وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هو مذكور عند اليهود في التوراة؛ نبذوا كتاب الله، وأخذوا بكتب السحر، وأعرضوا عن كتاب الله الذي بأيديهم؛ وقد قال الله تعالى عنهم:

﴿وَاتَّبِعُوا﴾ أي: اليهود ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾: ما تأخذ به، وتتبعه، وتقدمه، وما ترويه وتخبر به كاذبة. ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ أي: في زمنه وعهد ملكه، وما أقحموه وزادوه من

السُّحْرَ وَالْكُفْرَ فِي الْكُتُبِ الَّتِي كَانَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْتُبُ فِيهَا مِمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَمَا خَلَطُوهُ مِنَ الْكُذْبِ، مَعَ الْأَخْبَارِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَرْقُونَهَا مِنَ السَّمَاءِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَاتِبٌ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ، وَيَدْفِنُهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْرَجَتْهُ الشَّيَاطِينُ، فَكَتَبُوا بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ سِحْرًا وَكُفْرًا، وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي كَانَ سُلَيْمَانُ يَعْمَلُ بِهِ. قَالَ: فَبَرِئَ جَهَالُ النَّاسِ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَكْفَرُوهُ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ (١).

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِمَّا أَخَذَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَجَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا: أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَانُوا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَأْتِي أَحَدُهُمْ بِكَلِمَةٍ حَقٌّ قَدْ سَمِعَهَا، وَيَخْلُطُ مَعَهَا سَبْعِينَ كَذِبَةً، فَيُسْرِبُهَا قُلُوبَ النَّاسِ؛ فَاطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا سُلَيْمَانُ، فَدَفَنَهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلَّ شَيْطَانُ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا أَذُلُّكُمْ عَلَى كِتَابِهِ الْمُمَنَّعِ الَّذِي لَا كُنْزَ مِثْلَهُ؟ فَأَخْرَجُوهُ - وَهُمْ الْيَهُودُ - وَقَالُوا: هَذَا سِحْرٌ، وَاتَّبَعُوهُ وَعَمِلُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَ سُلَيْمَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (٢).

فَقَدْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْخُذُ بِالسُّحْرِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَحَيْثُ إِنَّ السُّحْرَ كُفْرٌ لَا يُمْكِنُ لِنَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ لَذَا فَقَدْ بَرَأَ اللَّهُ نَبِيَّهَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا افْتَرَاهُ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينُ وَالْيَهُودُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ﴿بِتَعْلُمِ السُّحْرِ، أَوْ تَعْلِيمِهِ﴾. ﴿وَلَنَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بِتَعْلِيمِ السُّحْرِ، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهِ.

وَبَيَّنَ سَبَبَ كُفْرِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، وَ(السُّحْرُ) فِي اللُّغَةِ: كُلُّ شَيْءٍ خَفِيٍّ سَبِيئَةٍ. وَالسُّحْرُ الْمَذْمُومُ شَرْعًا: هُوَ الْعُقْدُ وَالرُّقَى الَّتِي يَنْقُثُ فِيهَا السَّاحِرُ، فَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ تَأْثِيرٌ فِي بَدَنِ الْمَسْحُورِ، أَوْ عَقْلِهِ.

وَمِنْهُ مَا يَقْتُلُ، وَمِنْهُ مَا يُمْرِضُ، وَمِنْهُ مَا يُزِيلُ الْعَقْلَ، وَمِنْهُ مَا يُغَيِّرُ الْحَوَاسَ، فَيَرَى الشَّيْءَ الْمَتَحَرِّكَ سَاكِنًا وَالسَّاكِنَ مَتَحَرِّكًا وَنَحْوَ ذَلِكَ - وَهُوَ سِحْرُ التَّخْيِيلِ وَالتَّمثِيلِ -.

(١) تفسیر ابن کثیر (١/ ٣٤٦).

(٢) تفسیر الطبري (٢/ ٤١٥).

ومنه ما يغيّر مشاعر الإنسان، فيقلب الحب بُغْضًا، والبُغْض حُبًّا - وهو الصَّرْف والعَطْف - فيصرف الرجل عن أحبِّ الناس إليه كزوجته وأولاده وأبويه، ويكرّهُه فيهم، ورُبّما كره نفسه، أو يحبُّ نتيجة السَّحَر شخصًا، ويميل إليه ميلًا قويًّا وينقاد له؛ حتى لا يستطيع الخروج عن أمره!

والسَّحَر قديم في البشر؛ فقد كان معروفًا في قوم صالح، وقوم فرعون.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾، قال كثير من المفسرين: (هاروت) و(ماروت): اسمان للملكين أنزلهما الله في أرض بابل بالعراق؛ لئلا خلطت الشياطين الأمور على الناس، ونشروا السَّحَر والكُفْر فيهم، فميّز الملكان للناس بين السَّحَر والنبوة؛ لتوضيح ماهية السَّحَر، وصاروا يُعلِّمان الناس ذلك، ويحذّرانهم من العمل به، وفي هذا ابتلاء وامتحان من الله، وكان تبيين الشرِّ لتوقيه، لا للعمل به^(١).

ولكن هؤلاء اليهود صاروا يتبعون الشياطين فيها نشرته من السَّحَر، ويعملون أيضًا بها جاء الملكان من التحذير منه.

ومن رحمة الله: أنه أمر هذين الملكين ببيان حكم هذا للناس؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ أي: هاروت وماروت ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من الناس ﴿حَقٌّ يَقُولَا﴾ له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء واختبار من الله؛ ليتبين من يريد السَّحَر ويعمل به، ممن يحذره ويرفضه. ويحذّره بقولهما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بتعلُّم السَّحَر، والعمل به.

وقال بعض المفسرين: إنَّ المعنى: أنَّ اليهود اتَّبَعُوا ما تتلو الشياطين من السَّحَر، وزعموا أنَّ الملكين قد نزلا بالسحر وَحْيًا من الله لسليمان عَلَيْهِ السَّلَام، فبرأ الله سليمان وبرأ الملكين. ويكون المعنى على هذا: وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السَّحَر على الملكين، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، ومنهم هاروت وماروت.

والقول الأول أولى؛ لموافقته لظاهر الآية.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٢٠-٤٣٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٤-٣٦٥)، التحرير والتنوير (١/ ٦٤٣-

٦٤٥)، تفسير ابن عثيمين (٣/ ٣٤٥).

وقد وردت قصص كثيرة في افتتان هاروت وماروت، ووقوعهما في الكبائر، لكن لا يصحُّ منها شيء عن النبي ﷺ، وما جاء عن الصحابة والتابعين في ذلك مصدره كتبُ بني إسرائيل، وما رواه كعب الأحبار وغيره منها، وهذه الإسرائيليات لا يحتج بها^(١). وقوله ﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي: فتعلَّم الناس من هاروت وماروت ﴿مَا يَفْرِقُونُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي: السُّحْر الذي يصرف الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها، فيؤدِّي إلى التفريق بينهما، وهذا عند إبليس من أعظم إنجازات جنوده؛ كما في حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَنْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزِلَةٌ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُذْنِبُهُ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعَمَ أَنْتَ»^(٢).

﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾: ليس المتعاملون بالسُّحْر قادرين على إلحاق شيء من الضرر بأحد من الناس، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمشيئته وإرادته.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «لا يضرُّ هذا السُّحْرُ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِيهِ»^(٣).

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: هذا بيان بأنَّ السُّحْرَ ضررٌ خالص، ودليل على أنَّ تعلُّم السُّحْرِ ضررٌ لا منفعة فيه أبداً، فهو أسوأ من الخمر والميسر، فقد قال الله عنهما: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: علم أهل الكتاب أنَّ من اختار السُّحْرَ وأخذه ورغب فيه، رغبة المشتري في السلعة، واعتمده بدلاً من الإيمان والوحي؛ ﴿مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ خَلْقٍ﴾: ليس له حظٌّ ونصيب في الآخرة.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٠)، البداية والنهاية (١/ ١٠٩)، السلسلة الضعيفة للعلامة الألباني (١٧٠)، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٠.

(٢) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٩٣).

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «قد علم ذلك أهل الكتاب في عهد الله إليهم: أنَّ الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة»^(١).

وقال: «ليس له في الآخرة جنة عند الله»^(٢)، وقال الحسن: «ليس له دين»^(٣).

﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: هذا الكلام يحمل معنى القَسَمِ المؤكَّد، والتقدير: «والله، لبئس ما شَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ». ومعنى ﴿شَكَّرُوا﴾ هنا: باعوا؛ لأنَّهم لَمَّا اشْتَرَوْا السُّحْرَ أعطوا مقابلَه خسارة أَنْفُسِهِمْ، فباعوها بهذا الكُفْرِ، فبئس البيع هو ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا يعلمون مآل أمرهم علماً يقينياً؛ لَمَّا تَعَلَّمُوا السُّحْرَ ولا عَمِلُوا به، فهم لَمَّا لم يعملوا بها عِلِمُوا؛ فكأنَّهم لم يعلموا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عمل اليهود بالسُّحْر، وأتباعهم له، وتَرَك ما أنزل الله عليهم.

وفيها: سَعْي الشياطين في إضلال الناس.

وفيها: دفاع الله عن أنبيائه، وتبرئة سليمان عَلَيْهِ السَّلَام من السُّحْرِ.

وفيها: أنَّ السُّحْر من الكُفْرِ، ومن أعمال الشياطين، وأنَّ تعلُّمه كُفْر، وأنَّ الساحر كافر.

والتحقيق: أنَّ تعلُّم السُّحْرِ وتعليمه حرامٌ بإطلاق، فإن تَضَمَّن ما يقتضي الكُفْر كُفْر، وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكُفْر؛ عَزَّز، واستُيِّب منه.

وفيها: إرسال الملائكة لابتلاء البشر، وقد حصل مثل ذلك في قِصَّة الأبرص والأعمى والأقرع.

وفيها: أنَّ الله يبيِّن الحِكم مع قيام الابتلاء؛ لينجُو مَنْ يريد النجاة.

وفيها: أنَّ الله تعالى قد يبيِّن لبعض الناس أسباب المعصية؛ فِتْنَةً وابتلاءً لهم وامتحاناً،

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٥١).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤).

وهذا كما مرَّ أيضًا في قِصَّة أصحاب السَّبْت، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

فعلى المسلم ألا يعصي ربَّه، ولو توفرت له أسباب المعصية.

وفيها: الإثم العظيم للإفساد بين الزوجين والتفريق بينهما، بالسَّحر، أو النَّميمة والتخيب، ونحو ذلك.

وفيها: أنه ليس كلُّ سحر يضرُّ.

وفيها: أنه لا يحدث ضرر إلا بإذن الله.

وفيها: تحريم تعلُّم العلوم التي تضرُّ ولا تنفع، ومثله ما كانت مفسدته أكبر من منفعتها.

وفيها: أنَّ العِلْمَ النافع يأبى على صاحبه تعلُّم العِلْم الضار.

وفيها: وجوب النصيحة للناس وتبيين الحقِّ، كما قال الملكان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وفيها: أنَّ مَنْ آمَن بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا؛ فإنَّ إيمانه يصرفه عن الشرِّ.

وفيها: أنَّ السَّحر من أعمال الشياطين.

وفيها: أنَّ اليهود يتلقَّون عن الشياطين، والعلاقة بينهم وطيدة.

وفيها: خطورة عمل الساحر؛ ولذلك كان الراجح في حُكمه القتل، واختلف العلماء في قبول توبته، والراجح: أنه إن صدق فيها تُقبل بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا في أحكام الدنيا: فيرجع في قتلِهِ إلى اجتهاد الحاكم -بناءً على القواعد الشرعيَّة-.

وفيها: أنَّ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ فوق الأسباب.

وفيها: أنَّ الأصل في كُفر الساحر أنه كُفرٌ أكبر، مخرج من المِلَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مَالَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾.

والتحقيق: أنَّ في المسألة تفصيلًا: فقد يكون كُفرًا، وقد لا يكون كُفرًا -بل معصيته كبيرة-: فإن كان فيه قولٌ أو فعلٌ يقتضي الكُفر كفرًا، وإلا فلا.

وفيها: أنَّ الشياطين تأمرت بالسَّحَر في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَام، وصنعت الخُطَّة؛ ليفتنوا الناس بعد موت سليمان عَلَيْهِ السَّلَام.

وفيها: اتُّهام اليهود لأنبيائهم بالباطل.

وفيها: أنَّ السَّحَر كُفْرٌ، حتى في شريعة سليمان عَلَيْهِ السَّلَام.

وفيها: أنَّ السَّحَر له حقيقة وتأثير، وليس مجرد خداع للبصر.

وفيها: تبرئة الملائكة من العصيان.

وفيها: أنَّ من العلوم ما يكون فتنة للناس.

وفيها: أنَّ مَنْ فسد إيمانه يشتهي ما يضرُّه.

وفيها: أنَّ اليهود جعلوا السَّحَر إمامًا يَأْتُمُون به، ويسعون خلفه.

وفيها: أنَّ مَنْ ترك الاشتغال بما ينفعه؛ ابتلي بما يضرُّه.

وفيها: بيان الفرق العظيم بين معجزات النبوة، وخوارق السَّحَر.

وفيها: أنَّ الشياطين تُعاوَن مَنْ يتشبه بهم، بنجاسة القول والعمل والاعتقاد.

وفيها: أنَّ السحر مضرَّة في الدِّين والدُّنيا.

وفيها: تحريم أخذ المال أو دفعه من أجل السَّحَر.

وفيها: أنَّ من أثر السَّحَر على الزوجين الانفصال التام، أو عدم القدرة على الإتيان والوطء.

وفيها: وجوب التحقُّق فيما يُنسَب إلى الأنبياء، ونفي المسائل الباطلة عنهم.

وفيها: أنَّ الكتب الباطلة قد تُنسَب إلى بعض الصالحين زورًا وهتانًا.

وفيها: أنَّه لا يجوز التعرُّض للفتنة؛ بل على المسلم أن يبتعد عنها، ويسأل الله العافية.

وفيها: الحذر من كتب الضلال والسَّحَر، ووجوب إتلافها، ومنع وقوعها في أيدي

الناس.

وفيها: أنَّ المسلم لا يحتاج إلى تعلُّم السَّحَر كي يتقيه؛ لأنَّ عنده من المعوِّذات الشرعيَّة

ما يكفيه.

وفيها: خطورة ترك الوحي، والاستعاضة عنه بالعلوم الأخرى.

وفيها: أن غياب المُصلِحين سبَّب في انتشار البدعة والفساد والشُّرك في الأرض؛ فقد نشطت الشياطين بعد وفاة سليمان عليه السلام.

وفيها: مَكْر شياطين الإنس والجن.

وفيها: تحايل شياطين الجن؛ لإيقاع الناس في الشرِّ بكلِّ وسيلة.

وفيها: أن من رحمة الله بعباده: أنه لم يسلِّط السَّحرة على الناس لتفعلَ فيهم ما تشاء، فقد يَكيد سَحرةٌ كثيرون بأسحار متعدِّدة لشخص واحد، لكن لا يضرُّونه بشيء.

وفيها: خطورة الميل ومحبَّة وتقديم علوم الكفَّار على عِلْم الوحي، ومن ذلك: افتتان بعض المسلمين في هذا الزمن المتأخِّر بنظريَّات الشرق والغرب، وأتباعها بدلاً من الوحي.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣):

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ أي: ولو أن اليهود -الذين تركوا وحي الله، وأتبعوا ما تتلو الشياطين، وتعلَّموا السَّحر- ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: بمحمَّد صلى الله عليه وسلَّم، وبما أنزل عليه، بقلوبهم، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما حرَّمه الله -ومنه السَّحر- فآمنوا بقلوبهم، واتَّقوا بجوارحهم، واجتنبوا الكُفر؛ ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ أي: لأجرٌ وثواب ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾: أضاف (الثواب) إلى نفسه ليطمئن العبد إلى حصوله، وليعلم أنه كثيرٌ وافر؛ لأنَّ عطيةَ الكريم كثيرة. و(الثواب): هو الأجر والجزاء على العمل.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: أن ثواب الله في الآخرة خيرٌ لمن آمن واتقى في الدُّنيا، أو: خيرٌ من السَّحر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علماً ينفعهم. أي: لو كانوا من أصحاب العلم؛ ما قدَّموا السَّحر على الإيمان بمحمَّد صلى الله عليه وسلَّم، وأتباعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وعظ المذنبين بعرض الإيمان والتَّقوى عليهم، وبيان سببان لنيل ثواب الله.

وفيها: أن الشيء القليل من ثواب الله خيرٌ من الدُّنيا وما فيها.

وفيها: ضمان الثواب للمؤمن المتَّقى؛ لقوله: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، فيطمئن المؤمن لحصوله؛ لأنَّ الله لا يُخلف الميعاد.

وفيها: أنَّ العِلْمَ النافع يحمل صاحبه على تَرْك المحرّمات، وهو العِلْمُ المتصل بالقلْب، وليس العِلْمُ النظريّ المجرّد.

وفيها: أنَّ مَنْ لا يعمل بما عِلِمَ فَإِنَّهُ جاهل، وأنَّ العِلْمَ الذي لا يَعْمَلُ به صاحبه: وجوده كعدمه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤُولَا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾:

وبعد تناول الآيات السابقة لليهود، وما قابلوا به نِعَمَ الله عليهم من أفعالهم القبيحة؛ توجّه الخطاب للمؤمنين، فنادى الله المؤمنين في أول نداءٍ من نوعه في القرآن في ترتيب المصحف؛ فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وقد ورد هذا النداء في القرآن في تسعة وثمانين موضعاً.

وتصدير الحكم بالنداء دليلٌ على الاهتمام بهذا التوجيه وتنفيذ هذا الحكم؛ لأنَّ النداء يوجب انتباه المنادى، وأنَّ صاحب الإيمان يتلقّى أوامر الله تعالى ونواهيه بالطاعة والامتناع. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعتَ الله يقول: (يا أيُّها الذين آمنوا)؛ فأرْعَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»^(١).

فقال لهم - معلّمًا إِيَّاهم أدبًا من الآداب مع نبيّهم صلى الله عليه وسلّم، ومحدّثًا لهم مشابهة الكفار واليهود في أقوالهم وأفعالهم -: ﴿لَا تَقُولُوا﴾ لنبيكم صلى الله عليه وسلّم: ﴿رَعَيْنَا﴾ أي: أرْعنا سمعك، وراقبنا، والتفت إلينا، من (المراعاة)، وهى: العناية بالشىء والمحافظة عليه. أي: تأتّى بنا يا رسول الله، وأمهل في الإلقاء حتى نفهم كلامك.

وقد كان بعض المسلمين إذا أراد حاجة من النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال له هذه الكلمة، وكانوا أيضًا إذا ألقى عليهم شيئًا من العِلْم، وتابع فيه، وصعبت عليهم الموالاة، وأرادوا الإمهال والتأني في الإلقاء ليحفظوا؛ قالوا: ﴿رَعَيْنَا﴾ أي: أمهلنا وأنظرنا.

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد (٨٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠).

ومع أنَّ هذا المعنى جيّد، والمقصود منه طيّب، لكن جاء النهي عنه؛ حذرًا وتلافياً من الاستعمال السيّء لهذه الكلمة، الذي كان يفعله اليهود بقصد سبّ النبي ﷺ؛ فإنّهم كانوا يقولون: «رَاعِنَا يَا مُحَمَّد»، ويريدون معنى فاسدًا، من (الرّعونة)، وهي: الحُمق والطّيش، وكانوا إذا أرادوا أن يحمّقوا إنسانًا قالوا له: «رَاعِنَا»، بمعنى: «يا أحمق». فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدًا لهذا الباب.

وقيل: إنّها كانت كلمة عبرانيّة، لها معنى عندهم في السبّ والشتيمة، فاستعملوها قاصدين إيذاء النبي ﷺ، فنهى الله المسلمين عنها تفويّتًا للفرصة على اليهود باستعمال هذه الكلمة بمقصودهم القبيح، وقد كان بعض المسلمين يظنّون أنّ الأنبياء كانوا يُفخّمون بهذا، فنهاهم الله عنها.

وقيل: كانت لغة في الأنصار في الجاهليّة، فنهاهم الله عنها.

وأرشد الله المسلمين إلى كلمة أخرى بديلة، تؤدّي المقصود المباح، دون أن يكون لها وجه آخر قبيح؛ فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ أي: انتظرنا وأمهلنا، حتى نفهم عنك ونعيّ كلامك، وراعِ حالنا، وتفقّدنا بنظرك، وانظر في مصالحنا، ونحو ذلك من المعاني والمقاصد التي كان المسلمون يَرَجُونها من النبي ﷺ.

وأمر الله المؤمنين - في المُقابِل - بالاستماع وحضور الذهن، حتى لا يحتاج النبي ﷺ إلى إعادة الكلام، ولا تكثّر مراجعتهم له؛ فقال: ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أي: سماع استجابة وقبول، بآذان واعية، وقلوب حاضرة، فأطيعوا، واستجيبوا له.

ثم حذّر من يخالف ذلك، ودكّر بعقوبته؛ فقال: ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ أي: هؤلاء اليهود، وغيرهم من الذين يؤذون النبي ﷺ ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عقوبة ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم مُوجع.

ووصف اليهود هنا بـ (الكافرين) يدلّ على أنّ تعمّد سوء الأدب في مخاطبة النبي ﷺ يستحقُّ صاحبه عليه العذاب الأليم.

وفي هذه الآية من القوائد:

النهي الشديد والتهديد والوعيد للمتشبهين بالكفار، في أقوالهم وأفعالهم، ويدخل في ذلك: لباسهم وأعيادهم وعباداتهم.

وفيها: لُؤْم اليهود، وحرصهم على إيذاء النبي ﷺ، والتلاعب بالألفاظ لأجل ذلك، كقولهم أيضًا عند التحية: «السلام عليك» أي: الموت.

وفيها: استعمال الأدب في الألفاظ، خاصة في مخاطبة الله ورسوله، وترك الكلام الذي لا يناسب ذلك.

وفيها: استعمال الألفاظ التي لا تحمل إلا الحسن وعدم الفحش، وترك الكلام المشكّل الذي يحمل معنى سيئًا، أو يحمل معنيين أو أكثر، فيها الحسن، وفيها القبيح، أو الألفاظ التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، والعدول عن كل ذلك إلى الكلام البين الواضح، الذي لا يحمل إلا وجهًا واحدًا صحيحًا حسنًا.

وفيها: تجنب الألفاظ التي تُوهِمُ سبًا وشتيًا، خاصة للكبراء والعلماء.

وفيها: النهي عن الأمر الجائر أو التوقّف فيه، إذا كان وسيلة إلى محرم.

وفيها: مراعاة الأخلاق الفاضلة.

وفيها: الإرشاد إلى البدائل الحسنة، وأن الذي ينهى الناس عن شيء فإنّ عليه أن يدبّرهم على بدله من المشروع والمباح قدر الطاقة.

وفيها: ارتباط الأخلاق الفاضلة بالإيمان.

وفيها: أن من آذى النبي ﷺ فهو كافر.

وفيها: إرشاد الطلاب إلى الانتباه للمعلم؛ حتى لا يشقوا عليه بكثرة طلب إعادة الكلام.

وفيها: أن بعض الألفاظ العربية قد تكون موجودة في لغات أعجمية، ولكن بمعانٍ مغايرة لها، فينبغي الانتباه لهذا عند الحديث مع أولئك القوم، أو تلقى حديثهم.

وفيها: العدول عن بعض الاستعمالات اللفظية؛ تفويتًا للفرصة على الكفار والمنافقين بالظن في الدين، والاستهزاء بعباد الله المؤمنين، وحسنًا ومنعًا لطرق الشر والفساد.

وفي الآية: دليلٌ لباب «سَدُّ الذرائع»، وهو من أبواب أصول الفقه المهمة.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥):

ولمَّا نهي تعالى عن التشبُّه بالكافرين، ونهى عن تلك الكلمة التي استعملها اليهود قاصدين بها معنى سيئاً؛ ذكر السَّبَبَ الباعث لهم ولغيرهم من الكفار على مثل هذا، فذكر عداوتهم للمؤمنين؛ ليأخذوا الحذر منهم، ويتنبهوا لكيدهم وشرِّهم، ولا يسلكوا مسلكهم، أو يتشبَّهوا بهم.

فقال تعالى: ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَوَدُّ﴾ (الوَدَّ): خالص المحبة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها أنزل على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء به ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ بالله، من كفار العرب وعبدة الأوثان وغيرهم.

وكان بعض أهل الكتاب يزعمون أنَّهم يحبُّون المسلمين، ويودُّون لهم الخير، فبيَّن الله كذبهم في هذه الآية، وأخبر أنَّهم لا يحبُّون ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُمَّتُهُ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ يشمل: أيَّ خير، ديني أو دنيوي، قليلاً، أو كثيراً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (من) هنا لبيان مصدر النعمة وابتدائها، وأنها من الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

فهؤلاء اليهود والكفار يرون أنفسهم أحقَّ بالنبوة والوحي، وأحقَّ بالخير والثروات، فحسدونا على ما آتانا الله من فضله، ولا يزالون يفعلون، ولا يتمنُّون الخير للمسلمين، وإن قالوا ذلك بأفواههم، ولو أمكنهم أن يمنعوا القطر من السماء عن المسلمين لفعلوا! ولذلك فهم يسعون بكلِّ سبيل إلى تَهْبِ ثروات المسلمين.

وكان اليهود قد حسدوا المسلمين على هذا النبيِّ، وهذا القرآن، وكانوا لا يريدون أن تتعدى النبوة بني إسحاق، فلما صارت النبوة والخير في مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من بني إسماعيل - حسدوا وبغوا. وكذلك المشركون قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ولكن ليس هؤلاء يَفْسِمون رحمة الله، وإنَّها الأمر كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ؛ فهو سبحانه يَخْصُّ بَوَحْيِهِ وَنُبُوءَتِهِ وَرِسَالَتِهِ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ بِحِكْمَتِهِ؛ أي: مَن يَخْتَارُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَصْطَفِي، وَمَشِيئَتِهِ سَبْحَانَهُ مَقْرُونَةٌ دَائِمًا بِالْحِكْمَةِ، فَاخْتِصَاصُهُ مَن يَشَاءُ بِالرَّحْمَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى حِكْمَتِهِ سَبْحَانَهُ.

و(رحمته) تشمل رحمة الدين والدنيا.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: صَاحِبُ الْمَنِّ الْكَبِيرِ، وَالْعَطَاءِ الْوَاسِعِ الْكَثِيرِ، فَضْلُهُ وَاسِعٌ غَيْرُ مَحْدُودٍ، وَقَفْضٌ غَيْرُهُ مَحْدُودٌ.

وَتُطْلَقُ (الرحمة) عَلَى النُّبُوَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْمَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وَكَمَا هُوَ الرَّاجِحُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ءَايَتُنَا رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات رحمة الله، ومشيتته، وإرادته، وفضله.

وفيها: أَنَّ الَّذِي لَا يَوَدُّ الْخَيْرَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ.

وَفِي الْآيَةِ: بَيَانُ عَدَاوَةِ صِنْفَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُمَا: أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ؛ حَسَدًا وَبَغْيًا، وَلَا يَزَالُ الْكُفَّارُ إِلَى الْيَوْمِ يُحْسِدُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ وَالثَّرَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَوَدُّونَ لَوْ لَمْ تَكُنْ بِأَيْدِينَا، فَيَسْعَوْنَ فِي تَهْبِئِهَا بِكُلِّ سَبِيلٍ.

وَفِي الْآيَةِ: تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِمَا يُطْلِقُهُ الْكُفَّارُ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمَعْسُولَةِ، الَّتِي يَزْعُمُونَ فِيهَا إِرَادَةَ الْخَيْرِ لِلْمُسْلِمِينَ.

وفيها: أَنَّ اخْتِصَاصَ شَخْصٍ أَوْ طَائِفَةٍ بِنِعْمَةٍ؛ مِنْ أَسْبَابِ حَسَدِ الْآخَرِينَ لَهُ.

وفيها: أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ نَالَهُ عَبْدٌ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ؛ فَمَصْدَرُهُ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ مُحَضُّ تَفْضِيلٍ مِنْهُ تَعَالَى وَمِنَّةٌ.

وفيها: أَنَّ الْمَتَسَخِّطَ عَلَى قِسْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْفَضْلِ وَالْعَطَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِحِكْمَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُعْتَرِضٌ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.

وفيها: التحذير من الثقة بالكفار؛ فلا يجوز تسليمهم مِهْمَات القيادة أو الريادة أو التخطيط للمسلمين؛ لأنَّ كُرْهَهُم لنا يجعلهم يمنعوننا من التقدُّم في أيِّ مجال.
وفيها: أنَّ فَضْلَ اللهِ لا يمنعه كُرْهُ كاره.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩):

ولمَّا بيَّن تعالى حقيقة الوحي، وذكر تعالى الرَّدَّ على اليهود في أمور متعدِّدة؛ أتبع ذلك بالرَّدَّ على الطاعنين في الوحي والكارهين له - ومنهم اليهود والمشرِّكون - الذين كانوا يُثيرون الشُّبُهَات حول القرآن وناسخه ومنسوخه، واعتاظوا من القرآن الذي نَسَخ التوراة، وكانوا يقولون: ألا ترون إلى محمَّد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولاً ثم يرجع عنه غداً، ونحو ذلك من مقالات الطاعنين.

فقال تعالى - دفاعاً عن كتابه -: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾، وقوله ﴿مَا نَنْسَخْ﴾: أي ما نُبَدِّل ونمَحُّ.

و(النَّسخ): رَفَعَ حُكْمَ دليل شرعيٍّ متقدِّم، أو لفظه، بدليل شرعيٍّ متأخِّر، وقد يكون الرفع للفظ النصِّ وحُكمه معاً، أو لأحدهما دون الآخر، وسواءً كان النَّسخ من أثقل إلى أخفٍّ - كنَّسخ خمسين صلاة إلى خمس - أو من أخفٍّ إلى أثقل - كنَّسخ فرض صوم عاشوراء إلى فرض صوم رمضان - أو النَّسخ إلى شيءٍ مساوٍ في الثَّقَل والحِفَّة - كنَّسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة - أو كان نَسْخاً إلى بدليٍّ - كالأمثلة السابقة - أو نَسْخاً إلى غير بدليٍّ - كنَّسخ وجوب الصَّدَقَةِ قبل مناجاة النبي ﷺ - كما يقول به كثيرٌ من العلماء.

فإنَّ كُلَّ هذا النَّسخ بجميع أنواعه صادرٌ عن مشيئة الله تعالى وحِكمته، وأنَّه إذا نَسَخَ شيئاً أتى بخير منه، أو بمثله.

وقوله ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: من (النَّسيان)، وهو ذَهول القلب عمَّا كان معلوماً. فمعنى ﴿نُنسِهَا﴾ أي: نُذْهِبُها من قُلُوبِكُم.

وفي قراءة (نُنسأها) أي: نُؤخِّرُها، ومعناه: تأخير إنزالها، أو تأخير حُكمها، أو إبقاؤه مع رَفْع تلاوتها ونَسْخ لفظها.

وقوله ﴿ثَابِتٌ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي: ما هو أفضل للعباد وأرفق بهم وأسهل عليهم، وأكثر أجراً وثواباً. ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي: مثل المنسوخة في النفع والثواب والعمل.

وقوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ (الهمزة) للاستيفهام، والمراد به التقرير؛ أي: أن الله يقرّر المخاطب بحقيقة ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لقد علمت قدرة الله على كل شيء، ومن ذلك: قدرته على النسخ؛ فلا يُدَاخِلُكَ شَكٌّ ولا ريب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧):

قوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ فملكها وما فيها وما بينهما له لا لغيره، يحكم فيها، وفيما بينهما، بما شاء من أمر ونهي، ونسخ وتبديل، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فالذي يملك الشيء يَقْدِرُ على التصرف فيه.

والنسخ من أفعال الله، يفعلها متى شاء، كيف شاء، وليس للعباد إلا السمع والطاعة.

وقوله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما لكم سوى الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر أو قريب أو معين، يتولاكم ويحلب لكم خيراً. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا ناصر، يدفع عنكم شراً، ويقيكم عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن فيها تقوية للمؤمنين في وجه شبهات اليهود حول النسخ وغيره. فاعتصموا بالله أيها المؤمنون، ولا تهولنكم شبهات اليهود، وتوكلوا على الله؛ فهو وليكم من دونهم، وناصركم عليهم.

ومما يُردُّ به على هؤلاء اليهود أيضاً: أن يُقال لهم: إنَّ النسخ موجود عندكم في شريعتكم والشرائع السابقة، فلماذا تُنكرون وجوده في شريعتنا؟!

ألم يكن تزويج آدم لبناته من بنيه مباحاً، ثم حُرِّمَ بعد ذلك؟

ألم يكن نكاح الأختين مباحاً ليعقوب وبنيه، ثم حُرِّمَ بعد ذلك؟

ألم يؤمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نُسخ هذا الأمر وجاء الله ببذله، وهو الكبش العظيم؟ إلى غير ذلك من الأمثلة.

وفي الآية: أنَّ القادر على تغيير الأمور الحسِّيَّة في السماوات والأرض، قادرٌ على تغيير الأمور المعنويَّة في الأحكام والشرائع.

وفي النَّسخ حِكْمٌ ومصالح؛ ومنها: اختبار امتثال المكلف بهذه الأحكام.

ومنها: الترفُّق مع المكلفين، بالتدرُّج في فرض الأحكام عليهم، كما حصل في الصَّلَاة والصيام وتحريم الخمر.

وقد يكون النَّسخ جزاءً حَسَنًا من الله على الامتثال والطاعة، كما حصل في قِصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وكما حصل في موقف الصَّحابة من قوله تعالى: ﴿وَلِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فلمَّا خضعوا لله وقالوا: ﴿سَوَّعْنَا وَأُطْعَمْنَا﴾؛ أنزل الله التخفيف في عدم المؤاخذه على الإكراه والنسيان والخطأ^(١).

وقد يكون النَّسخ عُقوبة، كما حصل مع بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿فَظَلَمْنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٠٨):

وقوله ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ أي: محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخطاب للمؤمنين والكافرين؛ فهو رسول الله إلى الجميع، من اليهود والنصارى والمشركين والمسلمين وغيرهم.

وقيل: المقصود بهذه الآية: اليهود، لَمَّا سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السؤال المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقيل: المقصود: المشركون، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رافع بن خريملة

وَوَهَبَ بَنُ زَيْدٍ وَوَهَبُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِئْتِنَا بِكِتَابٍ تُنَزِّلُهُ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ نَقْرَأَهُ، وَفَجَّرَ لَنَا أَنْهَارًا؛ نَتَّبِعُكَ وَنَصَدِّقُكَ»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

وقوله ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾: إِمَّا أَنْ تَكُونَ ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى (بَل)؛ أَي: بَلْ تَرِيدُونَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْاسْتِفْهَامُ، وَالْمَقْصُودُ: الْاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِي؛ أَي: الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ يُكْثِرُونَ سُؤَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد ورد أنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْتَنَعُوا عَنْ سُؤَالِهِ، كَمَا قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلُهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ»^(٢)، وَوَرَدَ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ عَنْ مَسَائِلَ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ مَا سَأَلُوا عَنْهُ غَيْرُ الَّذِي كَفُّوا عَنْهُ، فَمَا كَفُّوا عَنْهُ هُوَ أَسْئَلَةُ التَّعَنُّتِ وَالْمَعَانِدَةِ، وَالتِّي يُقْصَدُ بِهَا رَدُّ الْحَقِّ، وَالتَّلَكُّؤُ فِي تَنْفِيزِ الْأَمْرِ، كَمَا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَفْعَلُونَ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ.

ومثله: كَفُّ الصَّحَابَةِ عَنْ السُّؤَالِ عَنِ الْأَغْلُوطَاتِ، وَعَمَّا يُقْصَدُ بِهِ إِحْرَاجُ الْمَسْئُولِ لَا الْاسْتِفَادَةَ مِنْهُ. وَكَفُّوا أَيْضًا عَنْ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يَقَعُ عَادَةً؛ لِأَنَّهُ تَكَلُّفٌ وَإِضَاعَةٌ وَقْتُ.

وَقَدْ كَفُّوا أَيْضًا عَنْ السُّؤَالِ عَمَّا سَكَتَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْسَى، وَسَكَوْتُهُ عَنْ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى إِبَاحَتِهِ، وَلِذَلِكَ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِهِ مِنْ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ؛ فَقَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا: مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»^(٣). وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمَكْرُوهَةِ.

لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي تَقَعُ لَهُمْ، وَمَا يُفِيدُهُمْ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ؛ عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ مَنْ سَأَلَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْإِعْتِرَاضِ، وَاقْتِرَاحِ الْمَعْجِزَاتِ - فَإِنَّ أَمْرَهَا إِلَى اللَّهِ -.

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٠).

(٢) رواه مسلم (١٢).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

وقوله ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كما سأل بنو إسرائيل أن يُريهم الله جَهْرَةً، وقد سأل كفَّارُ قُرَيْشٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعل الله لهم الصفا ذهبًا.

وقوله ﴿وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: يأخذ الكُفْرَ، ويختاره بديلاً عن الإيمان؛ ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي: انحرف وتاه ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الوسط المستقيم - طريق الحق والهدى -.

والمقصود: أن مَنْ ترك الثقة والإقبال على الآيات البيِّنات المنزَّلة، واستبدلها بأسئلة التعنُّت التي يُقصد منها التكذيب والمُعاندة، وطلبَ حصولَ معجزات أخرى يقترحها على الله، وكأنَّ ما رآه لا يكفيهِ؛ فقد ضلَّ طريق الإيمان ووقع في الكُفْرَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسلم في زمن الوحي مطالبٌ بأن يسكت عما سكت الله عنه؛ حتى ينزل الله عَزَّ وَجَلَّ ما أراد - من أمرٍ أو نهي -.

وفيها: النهي عن مشابهة اليهود والمشرِّكين.

وفيها: أنَّه لا ينبغي إلقاء السؤال على العالم إلا لمصلحةٍ أو فائدةٍ.

وفيها: أنَّه يجب على السائل أن يعمل بما أُجيب به.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩) :

قيل في سبب نزول الآية: أنَّ عددًا من أحرار اليهود ورؤساءهم - ككعب ابن الأشرف، وحُصَيِّ بن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب - كانوا قد حَسَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين على النِّعْمة العظيمة التي آتاهم الله، من الإسلام والقرآن ونبوَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فصار هؤلاء اليهود يتمنون ويودُّون أن يرتدَّ هؤلاء المسلمون، ويرجعوا إلى الكُفْرَ، فصاروا يقومون بكلِّ ما يقدرُون عليه لَصَرْفِ المسلمين عن التوحيد والإسلام؛ فأنزل الله هذه الآية^(١).

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٩).

وقوله ﴿حَسَدًا﴾ أي: الباعث لهم على هذا هو الحسد، وهو الذي حملهم على الكفر بنبيينا وشريعتنا؛ فوبّخهم الله عز وجل، وعيّرهم، ولأثمهم أشدّ اللوم.

وقوله ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ليس من عند الله؛ وإنما من قِبَلِ أهوائهم وزِيغهم وخُبثِ نفوسهم، المنظوبة على الحسد، وغمّي زوال النعمة عن الآخرين.

﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ أي: ظهر بما لا يدع مجالاً للشك ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء اليهود ﴿الْحَقُّ﴾ أي: دين الإسلام، الذي اشتمل على الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام. وقد تبين لهم الحق من خلال الأوصاف الموجودة في كتابهم، ومن خلال الآيات والمعجزات البيّنات الظاهرات التي حدثت للنبي ﷺ أمامهم.

ولما بين خُبث هؤلاء اليهود الذين لا يريدون اتباع الحق، ولا يريدون لغيرهم الدخول فيه، ولا الاستمرار عليه؛ ذكر تعالى طريقة معاملة هؤلاء، في مرحلة زمنية معينة، فقال: ﴿فَاعْفُوا﴾ أي: اتركوهم، ولا تنتقموا منهم. و(العفو): ترك المؤاخذه على الذنب. ﴿وَأَصْفَحُوا﴾ أي: أعرضوا عنهم، واتركوا لومهم، من غير رضا بفعلهم، ولا حالهم. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي: يأذن بقتالهم.

ومن هنا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين: إن قوله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَأَصْفَحُوا﴾ منسوخ بآية السيف؛ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْضِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، وما شابهها، كقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] (١).

وقد روى البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى... وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةُ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا» (٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٨٣)، تفسير القرطبي (٢/١٧).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٦٦).

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: عنده كمال القدرة في الانتقام من هؤلاء الأعداء، بالقتل أو الإجلاء لو شاء، أو هدايتهم إذا أراد، لا يعتريه عجز، ولا يلحقه نقص، سبحانه وتعالى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان شدة عداوة اليهود والنصارى للمسلمين.

وفيها: أن الكفر بعد الإسلام يُسمَّى (رِدَّة)؛ لقول الله تعالى: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾.

وفيها: تحريم الحسد، وأن صاحبه متشبه باليهود.

وفيها: بيان خُبث طويّة أهل الكتاب.

وفيها: مراعاة الله لأحوال المؤمنين.

وفيها: جواز مُهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوّة.

وفي الآية: إشارة للمؤمنين، أن الله سيغيّر حالهم إلى حالٍ يستطيعون فيه الجهاد؛ لقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١).

قوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أي: أدّوها بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنها، على وجه الكمال.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: ادفعوها بطيب نفسٍ إلى مصارفها. وسمّيت (زكاة)؛ لأنّها تزكّي الإنسان وتطهّره.

وقوله ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ (ما): أداة شرط، والمعنى: أي شيء تفعلونه لمصلحة أنفسكم. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي خير وعمل صالح كان. ﴿تَجِدُوهُ﴾: جواب الشرط؛ أي: تجدون ثوابه وجزاءه، وتلقونه يوم القيامة مدخراً لكم، مضاعفاً الأجر.

﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: هذا يبيِّن شَرَفَ هذه الأعمال؛ لأنَّها ما دامت محفوظة عنده فلن تضيع، وسيُضاعَف لفاعلها الأجر؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ شكورٌ كريمٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من الخيرات ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بنياتكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان ما ينبغي أن يكون عليه حالُ المسلمين في زمن الاستضعاف، من الاهتمام بالعبادات، وإعداد النفس بالطاعات، مع الاستعانة بالله والصَّبْر، واستصحاب الأمل بتغيُّر الحال، والقدرة على جهاد الكفار.

وفي الآية: إقامة الفرائض والنوافل.

وفيها: أنَّ الصَّلَاةَ آكد من الزكاة؛ لأنَّه قدَّمها عليها.

وفيها: أنَّ إقامة هاتين الشعيرتين - الصَّلَاة والزكاة - من أسباب النصر والتمكين في الأرض.

وفيها: أنَّه ينبغي للمسلم أن يشتغل بالأهم فالأهم من الدِّين.

وفيها: أنَّ كلَّ عمل يعملُه المسلم - مهما كان صغيراً - فإنَّه يُثاب عليه.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١)

﴿وَقَالُوا﴾ أي: أهل الكتاب، مثل: يهود المدينة، ونصارى نَجْران في العهد النبوي: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ أي: قالت اليهود: «لن يدخل الجنة إلا يهودي»، وقالت النصارى: «لن يدخل الجنة إلا نصراني».

وقوله ﴿تِلْكَ﴾ أي: المقالة الباطلة، والزَّعمُ بغير مستند ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع «أمنية»، وهي: ما يتمناه الإنسان بدون اتِّخاذ سببٍ يوصلُه إلى ما يتمناه. فزَّعمُ اليهود والنصارى هذا تمَنُّ كاذب، وشهوة باطلة، وغرور وضلال وأحلام.

ثم قال تعالى في الرَّدِّ عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿هَكَاثُوا بُرْهَنَكُمْ﴾ أي: أحضروا دليلكم، وحُجَّتكم على اختصاصكم بالجنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في مقالاتكم وزعمكم، وهذا أسلوبٌ تحدُّ هؤلاء من أهل الكتاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان تعصُّب اليهود والنصارى، وتحجيرهم رحمة الله الواسعة. وفيها: أن مَنْ طمع في المنازل العالية بدون عمل؛ فهو مُغترٌّ بالأماني، وفيه شبهة من اليهود والنصارى.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢):

وقوله ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جواب، يُفيد إبطالَ النفيِّ المتقدِّم في قول أهل الكتاب: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾. فكأنهم لما قالوا: لن يدخل الجنة غيرنا؛ أُجيبوا: بلى يدخل الجنة غيركم، وزعمكم باطل!

ثم بيَّن تعالى صفات الذين سيدخلون الجنة؛ فقال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، و(إسلام) الشيء للشيء: جعله سائماً له، بحيث لا يكون لأحدٍ آخر حقٌّ فيه، فمن جعل اتجاهه وقصده وإرادته خالصاً لله عَزَّجَلَّ؛ كان مسلماً له.

وجاء التعبير بـ (الوجه)؛ لأنَّه يدلُّ على قصد الإنسان. وهذا هو الإخلاص، الذي هو الركن الأول من رُكني العمل الصالح.

والركن الثاني هو: إحسان هذا العمل، وهو جعله موافقاً لسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في حال كونه محسناً.

فإذا كان عمله خالصاً صواباً؛ كان جزاؤه ما ذكره الله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ أي: ثوابه. وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يُفيد تعظيم هذا الأجر؛ لأنَّه من عند الله، وأنَّ هذا الأجر محفوظ لا يضيع؛ لأنَّه عند الله الحفيظ الكريم.

وقوله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في المستقبل في الآخرة، فمن خاف الله في الدنيا آمن يوم القيامة.

والخوف إنما يكون مما يُتوقع في المستقبل، كما أن الحزن يكون على ما وقع سابقاً، ولذلك نفاه عنهم بقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى من أمرهم.

فلما جمع هؤلاء بين الإخلاص لله واتباع شرعه؛ جمع الله لهم بين الأمن وعدم الحزن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن إخلاص النية وحده لا يكفي، وأن العمل إذا كان مُبتدعاً لا يقبله الله، ولو كان العامل مخلصاً لله، وهذا مثل عمل الرهبان؛ فلا يُقبل منهم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣):

ثم بين تعالى تباعض أهل الكتاب فيما بينهم، وتعاندتهم، ومُعاندَةً بعضهم بعضاً؛ فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: من الحق والصواب، ولذا: كفروا بعتسى والإنجيل.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾؛ فكفروا بموسى والتوراة.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: قالوا قولهم هذا في حال كونهم يقرأون التوراة والإنجيل.

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: أن وفد نصارى نَجْرَان قد اجتمعوا مع أحبار اليهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا، فقال رافع بن حُرَيْمَةَ اليهودي للنصارى: «ما أنتم على شيء»، وكفر بعيسى والإنجيل، فقال رجلٌ من أهل نَجْرَان من النصارى لليهود: «ما أنتم على شيء»، وجحد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله هذه الآية^(١).

(١) تفسير الطبري (٥١٣/٢)، تفسير البغوي (١/١٣٨).

والحقُّ: أنَّ أوائل اليهود والنصارى كانوا على دين صحيح، ولكنهم ابتدعوا وتفرَّقوا بعد ذلك. وقوله ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يشمل: قول كل جاهل، من اليهود، أو النصارى، أو مُشركي العرب، أو غيرهم؛ فإنَّ بعض كفَّار العرب قالوا: ليس محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شيء.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك القول الذي قالت به اليهود والنصارى ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مُشركي العرب وعبدة الأصنام، وطوائف أخرى من الجهلة والأُمَم السابقة ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثل قول اليهود والنصارى.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل ويقضي في هؤلاء المختلفين، فبيِّن عزَّ وجلَّ مَنْ هم أهل الحق، ومَنْ هم أهل الباطل، ثم يجازيهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: وهو يوم الجزاء والفصل. وسُمِّي بذلك؛ لأنَّ الناس يقومون فيه من قبورهم لربِّ العالمين، ولقيام الأشهاد فيه، ويُقام فيه العدل. ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين، وتعيين الحق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الميل الباطلة يُكفِّر بعضها بعضاً، وأنَّ الإسلام عدوٌّ مشترك لجميع الكفار. وفيها: شدَّة قُبْح مَنْ خالف الحقَّ وهو يعلم. وفيها: إثبات الحكم لله عزَّ وجلَّ.

وحُكْم الله: منه ما هو شرعي - كأحكام الحلال والحرام - ومنه ما هو كوني - كما في قوله تعالى حكايةً عن أخِي يوسف: ﴿أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]؛ فهو القضاء والقدر - ومنه ما هو جزائي، وهو ثمرة الحكم الشرعي، كما هو المقصود في هذه الآية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤):

وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم وأشدَّ تعدياً ﴿مِمَّنْ مَنَعَ﴾ أي: من الذي منع ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾: أضافها إليه جلَّ وعلا تشريقاً لها؛ لأنَّها محلُّ عبادته.

﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: هذا يشمل كل أنواع ذكر الله، من الصَّلَاة، والذِّكْر، والأَذَان، والاعتكاف، ومُدارسة العِلْم، وتدرّيسه، ونحو ذلك.

﴿وَسَعَى﴾ أي: جدّ واجتهد ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ يشمل: التخريب الحِثِّي والمعنوي.

والتخريب الحِثِّي مثل: هدمها، أو قَصْفها، أو إزالتها، أو تحريقها، أو تحويلها إلى متاحف أو دُور لهُو أو مستودعات أو كنائس، ونحو ذلك.

والتخريب المعنوي مثل: تعطيل الصَّلَاة، ومنع الدُّروس، أو الاعتكاف، ونحو ذلك من أنواع ذِكر الله.

وبعض الظلمة يبني المساجد وينقشها ويزينها ويُطوّل مناراتها - ابتغاءً للشهرة والمفاخرة والرياء والسُّمعة - ثم يجعلها خلواً من أنواع ذكر الله! وهذا تعطيلٌ لوظيفة المسجد، ونوعٌ من التخريب بلا شك.

ومن الظُّلم: أَنْ يُجْعَلَ دُورُ المسجد قاصراً على أنواعٍ من الذِّكر، دون أنواعٍ أخرى مُهمّة.

وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هؤلاء الذين منعوا مساجد الله أَنْ يُذَكَّرَ فيها اسمه:

ف قيل: هم النصارى؛ فكانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أَنْ يُصَلُّوا فيه، وقد قام بُخْتَنَصْر - الملك المجوسي - بتخريب مسجد بيت المقدس وحرقه، وقتل العباد فيه، وجعله محلاً للحيف والقاذورات، في قِصّة مشهورة حدثت في التاريخ.

وقيل: هم مُشركو قُرَيْش؛ حيث منعوا رسول الله ﷺ من إتيان البيت الحرام، كما وصفهم الله بأنهم يصدُّون عن البيت الحرام في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥].

والآية - على كلِّ حالٍ - تشمل بلفظها كلَّ نوعٍ من أنواع التخريب الحِثِّي والمعنوي لبيوت الله، في كلِّ عصرٍ ومصر.

ثم قال الله تعالى عن هؤلاء المانعين من ذكر اسمه في المساجد، الساعين في خرابها: ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أَنْ يُذَكَّرَ فيها اسمه، وسعوا في

خَرَابِهَا ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي: من المسلمين أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمْ. وقال قتادة: «لا يدخلون المسجد إِلَّا مُسَارِقَةً»^(١).

وقيل: المعنى: ليس لهم حقُّ أَنْ يدخلوا المساجد إِلَّا خَائِفِينَ.

وقيل: إِنَّ الخبر هنا يحمل معنى النهي، أي: لا تَدْعُوهُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَدْخُلُوهَا - إِذَا تَغَلَّبْتُمْ عَلَيْهِمْ - إِلَّا خَائِفِينَ.

وقيل: إِنَّ هذه الآية بَشَارَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ، بِأَنَّهُمْ سَيَنْتَصِرُونَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ مَنَعُوهُمْ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَا يَدْخُلُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكُونَ عِنْدَئِذٍ الْمَسْجِدَ إِلَّا خَائِفِينَ، تَرْجُفُ قُلُوبُهُمْ.

﴿لَهُمْ﴾ أي: هَؤُلَاءِ الْمَانِعِينَ ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذُلٌّ وَعَارٌ وَهَوَانٌ، بِالْقَتْلِ، وَالسَّبْيِ، وَضَرْبِ الْجَزْيَةِ عَلَيْهِمْ.

وقيل: الخزي بخروج المهديّ، ونزول عيسى ابن مريم؛ فَإِنَّ الشُّرَكَ وَدِينَ أَهْلَ الْكِتَابِ سَيَنْتَهِي مِنَ الْأَرْضِ.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عُقُوبَةٌ عَظِيمَةٌ أَشَدُّ مِمَّا حَصَلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إِضَافَةُ الْمَسَاجِدِ إِلَى اللَّهِ - تَشْرِيفًا لَهَا - يَقْتَضِي تَطْهِيرَهَا وَتَعْظِيمَهَا، وَأَلَّا يُوَضَّعَ فِيهَا مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلشُّرْكِ بِاللَّهِ - كَضَرْبِ وَنَحْوِهِ -؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِخْرَاجَهَا عَنْ مَوْضِعِهَا، فَلَا تَصِحُّ لِلَّهِ حِينَئِذٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [البجن: ١٨].

وفيهَا: أَنَّ النَّاسَ فِي الْمَسَاجِدِ سَوَاءٌ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾، وَالنَّاسُ عِبَادُ اللَّهِ؛ فَكُلُّ مَنْ أَتَى إِلَى هَذِهِ الْمَسَاجِدِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِينَ.

وَبِنَاءُ عَلَيْهِ؛ فَلَا يَجُوزُ حَجْزُ الْأَمَاكِنِ فِي الْمَسَاجِدِ لِيَقْضِيَ أَصْحَابُهَا الْوَقْتَ الطَّوِيلَ خَارِجَ الْمَسَاجِدِ - لِتِجَارَةٍ، أَوْ نَوْمٍ، أَوْ طَعَامٍ، أَوْ اسْتِمْتَاعٍ عِنْدَ الْأَهْلِ - فَيَكُونُ قَدْ مَنَعَ ذِكْرَ اللَّهِ فِيهَا، وَمَنَعَ شَخْصًا أَحَقَّ مِنْهُ بِالذِّكْرِ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْمَحْجُوزَةِ.

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٧).

ويمكن أن يؤخذ من الآية: أنه كما يحرم إغلاق المساجد في وجه الذاكرين لله، ويحرم منعهم من الذكر فيها، فإنه في الجانب المقابل يجوز إغلاقها لمصلحة شرعية، كالمحافظة على مقتنيات الموقوفة من السرقة، وصيانة لأجهزتها من العبث، أو إغلاقها جزئياً أو مؤقتاً للترميم ونحوه، أو إغلاقها في أوقات الفتن إذا خشي عليها الاعتداء والتحريق ونحو ذلك.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥):

ولما ذكر تعالى إثم تخريب المساجد، أتبعه ببيان أن العبادة تكون في كل مكان - وإن لم يوجد مسجد - وأن العبادة ليست خاصة بالمساجد.

وهل هذه الآية منسوخة، أم محكمة غير منسوخة؟ قولان للمفسرين:

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أول ما نُسِخَ من القرآن فيما ذكر لنا - والله أعلم - شأن القبلة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته العتيق، ونسخها؛ فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠]»^(١).

والقول الآخر: أنها محكمة غير منسوخة، وأن المراد بها: صلاة النافلة على الراحلة في السفر؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهَهُ»، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾»^(٢).

ويدخل في هذا أيضاً: الصلاة إلى أي جهة كانت، عند العجز عن استقبال القبلة، كحال الالتحام بالعدو، واشتباك الجيشين، وكذلك الأسير، والمريض الذي لا يستطيع التوجه إلى القبلة، وليس هناك من يوجهه.

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) للاختصاص أي: أن الله مختص بملك المشرق والمغرب؛ فهما له وحده، لا لغيره.

(١) رواه النسائي (٣٤٩٩) مختصراً، والطبري (١٣٨/٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٢١٢/١) - واللفظ له -.

(٢) رواه مسلم (٧٠٠).

و﴿الْمَشْرِقُ﴾: مكان شروق الشمس، ﴿وَالْمَغْرِبُ﴾: مكان غروب الشمس؛ فله الأرض كلها؛ لأنَّ المشرق والمغرب يشملان جميع نواحي الأرض.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي: أينما توجهتم للصلاة، وذلك في حال عدم القدرة على التوجه إلى القبلة - كما تقدم -؛ ﴿فَتَمَّ﴾ أي: هناك ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾: قال بعض المفسرين: يعني: الجهة. وقال بعضهم: بل المراد: وجه الله الذي هو صفة من صفاته تليق بجلاله وعظمته.

والمعنى: أنكم في أي مكان كنتم من الأرض، فتوجهتم في صلاتكم؛ فإنكم تتوجهون إلى الله.

وفي الحديث، في وصايا يحيى بن زكريا عليهما السلام لبني إسرائيل: «فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»^(١).

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الإحاطة، وواسع العلم والقدرة، وواسع الرحمة والفضل، يسع خلقه كلهم بجوده وفضله.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم، وعلمه محيط بكل شيء، ومن ذلك: أعمال العباد، لا يغيب عنه منها شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عموم ملك الله تعالى للمشرق والمغرب وما بينهما، وانفراده بهذا الملك، ولأنه يملك الجهات؛ فهو الذي يأمر باستقبال أي الجهات شاء، لتكون قبلة في الصلاة، فلا يجوز لأحد الاعتراض على الله في هذا - كما فعلت اليهود -.

وفي الآية: إثبات (الوجه) لله تعالى، والوجه صفة عظيمة نعتقدها لله، من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل.

وفي الآية: أن الله تعالى مكاناً، كما دلَّ عليه قوله: ﴿فَتَمَّ﴾، وهي إشارة إلى المكان، وهو عرشه فوق سماواته على عرشه.

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٥٢).

ولمَّا اختبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجارية، فَقَالَ هَا: «أَيَّنَ اللَّهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؛ قَالَ لِمَوْلَاهَا: «أَعْتَقَهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(١)، فصدقها وشهد لها بالإيمان. وهذا يدلُّ على بطلان قول مَنْ قال: إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وفي الآية: أَنْ مَنْ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَسْأَلُهُ مَنْ يَعْرِفُهَا، فَاجْتَهِدْ وَصَلِّ؛ فَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ، وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ.

وفيها: أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالصَّلَاةَ لَا تَخْتَصُّ صَحَّتْهَا بِقَاعٍ مَعَيَّنَةٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ بَلْ كُلُّ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا تَصْلُحُ لِلصَّلَاةِ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾:

وقوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: اشتملت هذه الآية الكريمة على الرَّدِّ على النصارى واليهود ومُشركي العرب وغيرهم، مِمَّنْ زعم الولد لله.

وهذا الولد المزعوم قد جاء مفصَّلًا في آياتٍ أُخَرِ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله عَزَّيْزٌ عَنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧].

وقد كَذَّبَ تَعَالَى هَؤُلَاءَ فِي مَزَاجِهِمْ، وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ كُفْرِهِمْ هَذَا، بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَنَهُ﴾، وهذه كلمة تنزيه، فتعالى الله أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى وَلَدٍ كَمَا يَحْتَاجُ الْمَخْلُوقُ، وَالْوَلَدُ يَتَوَلَّدُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا زَوْجَةٌ، وَالْوَلَدُ يَكُونُ عَادَةً مِنْ جِنْسٍ وَالِدِهِ، وَاللَّهُ أَحَدٌ فَرْدٌ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟! وَالْوَلَدُ يَكُونُ عَادَةً عَنْ جِهَةِ بَيْنِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، وَهَذَا يَقْتَضِي شَهْوَةً وَوُطْأً، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ هَذَا.

ولهذا كَانَ مِنَ الشَّتِيمَةِ الْعَظِيمَةِ لِلرَّبِّ عَزَّيْزٌ: ادِّعَاءُ الْوَلَدِ لَهُ، وَلَا جُلَّ ذَلِكَ أَوْرَدَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِهِ»، فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، الْحَدِيثَ الْقُدْسِيَّ: «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ

أَدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ: فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ: فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا^(١).

وقوله ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يبين أن جميع الأشياء مربوبة مخلوقة، فكيف يكون منها ولدٌ لله تعالى؟ وهل الذي له مُلك السماوات والأرض يحتاج إلى ولد؟ فعموم مُلكه يستلزم استغناءه عن الولد، وكيف يكون المخلوق ولدًا للمخلوق؟!

وقوله ﴿كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ﴾ أي: خاضعون ذليلون. و(القنوت): هو الطاعة والاستكانة لله. والقنوت منه ما هو شرعي خاص، يفعله المؤمن اختيارًا وطاعةً لربه.

ومنه نوعٌ قدرِيٌّ عامٌّ، فَهَرَّ الله العباد عليه، ومنه: قنوت الأشياء لله تعالى في هذا الكون، ومنه قنوت الكافر، بمعنى: الخضوع تحت أمر الله الكوني، وعدم القدرة على الخروج عن قضائه وأمره، إذا قال للشيء: «كُنْ»؛ فكلُّ ذرَّةٍ في بدن هذا الكافر وفي الكون تخضع لله عَظَمًا. والكافر أيضًا تظهر يوم القيامة طاعته لله وقنوته وخضوعه له.

وقوله ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مُبْدِع السماوات والأرض. والمُبدِع: هو الذي يأتي بشيء لم يسبقه إليه أحد، أو يصنع شيئًا ليس له مماثل سابق، ولهذا سُمِّيَ المبتدِع في الدين مُبتدِعًا؛ لأنَّه أحدث قولًا وفعلًا لم يأت به أحدٌ سبقه، ولا دليل عليه، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَالَّةٌ»^(٢).

والله تعالى أبدع الأشياء، وأحدثها وأنشأها على شكل فائق، ليس له مثال سابق. وهو الأول في فعله، فلم يوجد أحدٌ قبله ليفعل أو يخلق شيئًا أصلًا.

وإذا كان هو الذي خلق السماوات والأرض من غير أصل ولا مثال؛ فكيف يكون له ولدٌ؟ تعالى وتقدَّس سبحانه.

وقوله ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: إذا قدر أمرًا وأراد أن يقضيه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢)، باب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢٤٥٥).

وقوله ﴿فَاتِمَا يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لَهُ﴾ أي: لذلك الذي أراد إيجاده: ﴿كُنْ﴾ أي: أحدث، يقولها مرة واحدة؛ ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: يحدث ذلك الأمر كما أراد الله، من غير توقُّف ولا إباء ولا تأخر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

و(الفاء) في قوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ تدلُّ على الترتيب والتعقيب، وهو الحدوث الفوري، فعيسى عليه السلام - مثلاً - هو كلمة الله، أي: مخلوق فوراً بكلمة «كُن»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وفي الآيتين من الفوائد:

إبطال دعوى الكفار الكاذبة بأنَّ لله ولداً، من ستة أوجه:

١. أنه نزه نفسه عن النقص، بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾، والولد في حقه نقص.
٢. وأنه ذكر عموم ملكه، بقوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.
٣. وأنَّ الملك في قوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يترتب عليه أنَّ المملوك لا يكون ولداً للمالك.
٤. وأنَّ قوله ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ ما سوى الله خاضعٌ ذليلٌ له، فكيف يكون العبد الخاضع الذليل ولداً للربِّ؟!
٥. وأنَّ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي أوجدها من غير مثال سابق، قادرٌ على أنَّ يخلق عيسى من غير أب.
٦. وأنَّ قوله ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يدلُّ على كمال قدرته، التي لا يستحيل معها أن يوجِد ولداً بدون أب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزَّلُ عَلَيْنَا ۚ آيَةً ۚ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١١٨):

قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيل: هم اليهود، وقيل: هم النصارى، وقيل: هم كفار العرب.

﴿لَوْ لَا﴾ أي: هَلَّا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي: عَيَانًا مباشرة، بَأَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ.
﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي: حُجَّةٌ وَمُعْجِزَةٌ، تَدُلُّ عَلَى صِدْقِكَ ۱٩

وقد اقترحوا وحددوا أمورًا من ذلك؛ مثل: أَنْ يَفْجُرَ لَهُمُ مِنَ الْأَرْضِ نَبِوَعًا، أَوْ يُسْقِطَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا - أي: قِطْعًا - أَوْ يَأْتِيَهُمُ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا - أي: مُجْتَمَعِينَ - أَوْ يَكُونَ لَهُ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ - أي: ذَهَبٍ - أَوْ يَرْقَى بِسُلْمٍ فِي السَّمَاءِ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهَا وَهُمْ يَرَوْنَهُ! وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ تَقَدُّمِهِمْ عَلَى اللَّهِ بِآرَائِهِمْ وَاقْتِرَاحَاتِهِمْ، وَهَذَا مِنْ عِنَادِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ.

وقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مِثْلُ هَذَا الْقَوْلِ الشَّنِيعِ ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مَنْ كَفَّارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ لِأَنْبِيَائِهِمْ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مِثْلُ هَذِهِ الْاقْتِرَاحَاتِ وَطَلَبِ الْآيَاتِ.

﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تَمَاثَلَتْ وَتَوَافَقَتْ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ قُلُوبَ الْكَفَّارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِثْلَابَةٌ فِي رَفْضِ الْحَقِّ وَالْعِنَادِ وَالْجُحُودِ، فَهُمْ - وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَسَالِيِبُهُمْ، وَالْأَشْيَاءُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْ قَبْلِ كُلِّ مِنْهُمْ - لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ وَاجْتَمَعَتْ عَلَى الْعَمَى وَالْعِنَادِ وَرَفْضِ الْحَقِّ.

وقوله ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ أي: أَظْهَرْنَا وَوَضَّحْنَا ﴿الْآيَاتِ﴾ أي: الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْحَقِّ ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يَطْلُبُونَ الْيَقِينَ. وَ(الْيَقِينَ): هُوَ أَبْلَغُ الْعِلْمِ وَأَكْثَرُهُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

- أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ.
- وفيها: أَنَّ الَّذِي لَا يَنْقَادُ لِلْحَقِّ فَهُوَ جَاهِلٌ.
- وفيها: إثبات المشركين لكلام الله، ومن العجيب أَنَّ بعض المبتدعة من هذه الْأُمَّة يُنْكِرُهُ!
- وفيها: أَنَّ أَقْوَالَ أَهْلِ الْبَاطِلِ تَتَشَابَهُ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ.
- وفيها: أَنَّ تَشَابَهَ الْقُلُوبِ يُوَدِّي إِلَى تَشَابَهِ الْأَقْوَالِ.
- وفيها: أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ: فَلَا يَنْتَفِعُونَ.
- وفيها: أَنَّ الْيَقِينَ يَزِيدُ الْعِلْمَ، وَيَزِيدُ بِالْعِلْمِ.
- وفيها: مَدْحُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ - وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْيَقِينَ - وَالْحَثُّ عَلَى بُلُوغِهَا.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٨):

وقوله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾: حقيقة مؤكدة بـ (إِنَّ)، وهذه الحقيقة هي بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وذكر المرسل والمرسل، ولم يذكر المرسل إليه؛ لإفادة عموم الرسالة، وأن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلٌ إِلَى الْعَالَمِينَ، وإلى الناس كافة.

وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ (الباء) للمصاحبة والملازمة؛ أي: أرسلناك متلبسًا بالحق، حاملاً له، مبلغًا إيَّاه، فبعثتك حق في نفسها، ورسالتك مصحوبة بالحق، والدين الذي أُمِرْتَ بتبليغه حق أيضًا؛ فهو حق، وصدق في الأخبار، وعدل وقسط في الأحكام.

وقوله ﴿بَشِيرًا﴾ أي: مبشِّرًا للمؤمنين بالثواب العظيم وجنات النعيم. ﴿وَنَذِيرًا﴾ (الإنذار): الإعلام بالمكروه وبما يُخَافُ منه. والمقصود: أرسلناك مُنْذِرًا ومُخَوِّفًا للكافرين من العقاب الأليم، وعذاب الجحيم.

وقوله ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي: لا يسألك الله عنهم لماذا لم يؤمنوا، مادُمْتَ بَيِّنَتَ وَبَلَّغْتَ، فإنَّما عليك البلاغ، وعلى الله الحساب.

و﴿أَصْحَابِ﴾: جمع (صاحب)، وهو الملازم. و﴿الْجَحِيمِ﴾: النار العظيمة، وهذا أحد أسمائها.

ووصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه بشير ونذير موجود في التوراة بالنص، كما جاء في حديث عطاء بن يسار، قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرو بنَ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قلتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: «أَجَلٌ، وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وَحَرُزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»^(١).

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠):

قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ﴾ أي: يا محمد ﷺ ﴿الْيَهُودُ﴾، ولن يحبوا دينك ولو خليت شأنهم، ﴿وَلَا النَّصَارَىٰ﴾ (لا) للتأكيد، أي: أن كل طائفة لن ترضى.

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ولعل النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة كان يطمع في أهل الكتاب أن يوافقوه، وأن يرضوا عن ملته، ولذلك كان كثيرا ما يتألفهم ويحاول استجلابهم، فأياس الله نبيه ﷺ من رضاهم عنه وعن المسلمين، وما داموا لن يرضوا عنه فليترك محاولات إرضائهم، والطمع في موافقتهم، وليقبل على الاشتغال برضا الله عز وجل.

لكن هذا الأمل المفقود في رضا الطائفتين عموما، ليس مفقودا في هداية بعض أفرادهم؛ ولذلك فقد بقي النبي ﷺ يدعو أفرادهم، ولم يعد يطمع فيهم مجتمعين.

وستبقى عداوة اليهود والنصارى للمسلمين قائمة في الأرض، حتى يتم الخلاص منهم جميعا على يد عيسى عليه السلام.

وقوله ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: تدخل في دينهم، وتصلي إلى قبلتهم. وفي ذكر (الملة) بصيغة المفرد دليل على أن الكفر كله ملة واحدة، كما قال تعالى عن طوائف الكفار كلهم في سورة «الكافرون»: ﴿لَكَ دِينُكُمْ﴾.

وهذا البيان من الله عن موقف اليهود والنصارى: أنهم لن يرضوا عن أي مسلم حتى يصبح يهوديا أو نصرانيا؛ فيه رد على الذين يحاولون التقريب بين الأديان، ويؤملون الوصول مع اليهود والنصارى إلى حل وسط، أو ميثاق مشترك يلتزم به الجميع؛ فالآية واضحة أنه لا سبيل إلى الاتفاق معهم أبدا على شيء يرضيهم، ويجعلهم يكفون عن عداوتنا وحربنا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم محبييا يا محمد ﷺ: ﴿إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ أي: دين الإسلام الذي أنزل ونحيم به ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي: هو الصراط المستقيم والحق، وليس ما أنتم عليه يا أيها اليهود والنصارى.

ثم قال تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ، خطاباً فيه تهديدٌ ووعيدٌ: ﴿وَلَمَّا أَتَبَعْتَ﴾ أي: على سبيل الفرض والتقدير. وهذه جملة شرطية فيها قسمٌ؛ تقديره: «وعزّي وجلالي، لمن اتبعت»، أي: وافقت وسايرت.

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ جمع (هوى)، وهو الرأي الصادر عن شهوة، والخالي من الدليل، والمؤدّي إلى الضلال، يهوي بصاحبه إلى الهاوية.

والإتيان بصيغة الجمع في قوله ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ لبيان أن كل طائفة لها هوى غير هوى الأخرى؛ بل هم في أنفسهم مفترقين مختلفين!

وقوله ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الوحي الذي أنزله الله عليك، المتضمّن لدين الإسلام، وبيان بطلان ما عليه أصحاب الملل والأهواء من هؤلاء.

﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ﴾ (ما) نافية ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ أي: قريب يحفظك ويمنعك، و(الولي): هو الذي يتولّى غيره بالحفظ والصيانة، ﴿وَلَا تَصِيرَ﴾ أي: ولا ناصر ينصرك ويدفع عنك العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان عناد اليهود والنصارى، وأهمية الحذر منهم، وتحريم اتّباعهم.

وفيها: القيام بالردّ على الكفار، وبيان أن ما هم عليه ليس ديناً، وإنّما هوى.

وفيها: أن من اتبع الهوى بعد العلم أشدّ ضلالة ممن اتّبعه بغير علم.

وفيها: وجوب طلب النصر من الله، والاعتماد عليه في الحفظ.

والخطاب في الآية - وإن كان للنبي ﷺ - فإنه يشمل أمته.

وقوّة الأسلوب في الآية - بما اشتمل عليه من التهديد والوعيد - مع أن الخطاب للنبي ﷺ وهو لا يمكن أن يتّبع ملة الكفر؛ يؤخذ منه: القوّة في التحذير من الباطل، وعدم المجاملة في ذلك، وإذا كان الله قد هدّد نبيّه ﷺ - إن اتبع أهواءهم - وهو أحبّ الخلق إليه، ومعلوم أنّه سيثبت على الحق -؛ فكيف هؤلاء المنحرفين من أمته اليوم، الذين

يُطَالِبُونَ بِالتَّقْرِيبِ بَيْنَ الْأَدْيَانِ، وَيَطْمَعُونَ فِي اسْتِرْضَاءِ الْكُفَّارِ، وَالِاتِّقَاءِ مَعَهُمْ عَلَى حُلٍّ وَسَطٍ بَزَعْمِهِمْ؟!

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦١﴾﴾:

ولمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بَعْضَ قَبَائِحِ الْمُعَانِدِينَ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِمَدْحِ مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَاتَّبَعَهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾، وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، سِوَاةَ مَنْ أَهَلَ الْكِتَابَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُتَابِهِمْ وَنَبِيِّهِمْ، ثُمَّ آمَنُوا بِكُتَابِنَا وَنَبِيِّنَا - كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَالنَّجَاشِيَّ وَغَيْرِهِمْ - وَأَيْضًا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِ، وَبِالْكِتَابِ الْمُهَيْمِنِ وَهُوَ الْقُرْآنُ.

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ تِلَاوَةَ اللَّفْظِ، وَهِيَ: الْقِرَاءَةُ، فَيَقْرَأُونَهُ سَالِمًا مِنْ تَحْرِيفِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَيَعْرِفُونَ تَفْسِيرَهُ، وَيَسَيِّئُونَهُ لغيرِهِمْ. وَيَشْمَلُ تِلَاوَةَ الْحُكْمِ، وَهِيَ: اتِّبَاعُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، فَيُحِلُّونَ حِلَالَهُ وَيَحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيَتَدَبَّرُونَ مَعَانِيَهُ، وَيَقْفُونَ عِنْدَ آيَاتِهِ، فَيَسْأَلُونَ وَيَسْتَفِيدُونَ.

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَي: بِكُتَابِهِمْ، الْمُسْتَلَزِمِ بِالْإِيمَانِ بِنَبِيِّنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ، إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَإِنْ كَانُوا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ: أَيِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أُوتِيَهُ.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَي: بِمُجْحَدٍ وَيَكْذِبٍ بِالْكِتَابِ السَّابِقَةِ، أَوْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَالَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الْمَنْقُوصُونَ الْمَغْبُونُونَ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَصَارُوا هَالِكِينَ فِي النَّارِ.

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلَاكَ وَخُسْرَانَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)، وَهَذَا كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وفي هذه الآية من القوائد:

ذكر نعمته تعالى ومنته على أصحاب الكتب المنزلة عليهم، وأنه آتاهم إياها لتلاوتها، والعمل بما فيها.

وفيها: أن للإيمان علامة، وهي: العمل.

وفيها: التحذير من الكفر الاعتقادي والعملي.

وفيها: أن من خالف شيئاً من القرآن؛ فإيمانه ناقص.

وفيها: فضل مؤمني أهل الكتاب، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل؛ فيؤتون أجرهم مرتين.

وفيها: أن أهل الكتاب إذا أقاموا كتابهم الحقيقي؛ فلا بُدَّ لزماً أن يؤمنوا بكتابنا ونبيّنا.

وفيها: وجوب الإيمان بجميع الكتب، وجميع الرسل.

وفيها: علو مرتبة المؤمنين؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾.

وفيها: وجوب اتباع القرآن لفظاً ومعنى، وتحريم تحريفه لفظاً ومعنى.

وفيها: فضل الصحابة ومؤمني هذه الأمة؛ لإيمانهم بجميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والمرسلين.

وفيها: معرفة قدر هذا الكتاب المنزل، وشكر نعمة الله، بتلاوته، والعمل به.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢):

ولما ابتدأ تعالى قصة بني إسرائيل في هذه السورة بتذكيرهم بنعمته التي أنعم بها عليهم؛ ختم قصصهم أيضاً بالتذكير بتلك النعمة، وذلك من تمام التذكرة والموعظة، وإيداناً بنهاية القصة.

فناداهم بنسبتهم إلى أبيهم إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - فقال: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وهي نعم كثيرة، دينية ودنيوية، ومنها: إنجائهم من فرعون، وإيتائهم

التوراة، وغيرها كثير. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في ذلك الوقت؛ لشكروا هذه النعم، ومن شكرها: الإيمان والعمل، والتصديق بمحمد ﷺ - المكتوب عندهم في التوراة -.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن من أساليب دعوة المُعْرِضِينَ: تذكيرهم بنعم الله عليهم؛ لعلهم يرجعون، ويقومون بشكر تلك النعم.

وفيها: أن من شكر كتب الله المنزلة: الإيمان بنبوّة محمد ﷺ المذكور فيها، وأتباعه. وفيها: تذكير الدعاة بأهمية تذكير الناس بنعم الله عليهم؛ لترقيق قلوبهم، وكذلك تذكيرهم باليوم الآخر.

ولذلك قال تعالى بعدها:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

وقوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي: خافوا عذاب يوم رهيب، واجتنبوا عقاب الله فيه، وهو يوم القيامة.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾: لا تدفع ولا تقضي ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ أخرى ﴿شَيْئًا﴾ من الحقوق التي وجبت عليها الله، وللمخلوقين في الدنيا، فلا تستطيع أن تتحملها عنها يوم القيامة.

وكذلك لا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يؤخذ منها فدية تنجو بها من النار، ولا تجد ما تفتدي به أصلاً. و(العدل) معناه: الشيء المعادل.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ﴾؛ فتنجيها من العذاب. و(الشفاعة): هي التوسط للغير؛ بدفع مضرة أو جلب منفعة. سُميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع صار شفعا، بعد أن كان وترًا.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمن يمنع عنهم عذاب الله. وقد قال النبي ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها: «سَلِّيني مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي، لَا أُعْغِي عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا»^(١).

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

وفي هذه الآية من القوائد:

موعظة المعاندين بتذكيرهم باليوم الآخر، وبيان أنه لا يؤدّي فيه أحدٌ عن أحد شيئاً، وإنّما فيه أداء الحقوق ورّد المظالم إلى أصحابها، والقصاص فيه يكون بالحسنات والسيئات. وفيها: أن بعض الناس - كالخالدين في النار - لا تنفعهم شفاعَةُ الشافعين، ولا تنال الشفاعة إلا مَنْ أذن فيه أرحمُ الراحمين، ولا يستطيع أن يشفع إلا مَنْ أذن له سبحانه. وفيها: أن رأس جَلْب المنفعة في ذلك اليوم هو دخول الجنة، وأعظم دَفْع المضرة فيه هو النجاة من النار.

وفيها: أنه لا يجزي أحدٌ عن أحد، حتى الوالد لا يجزي عن ولده، ولا المولود يجزي عن والده شيئاً، وأن كلَّ إنسان يؤدّي بنفسه ما عليه من الحقوق، كما قال تعالى: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

وفيها: أن أهل النار يريدون يوم القيامة النجاة بكلِّ وسيلة، فيطلبون تقديم الفداء، ثم الاستنجاد بالشفعاء تارة، وتارة يطلبون الشفعاء قبل الفداء، إذا لم ينفع الأول.

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤) :

ولما ذكر تعالى حال أهل الكتاب؛ أشاد بذكر عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم أهل الكتاب محبته وتعظيمه، ويتحلون ملته، مع أنهم ليسوا عليها.

فذكر تعالى حاله ومنزلته؛ فقال: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ﴾ أي: واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم لقومك المشركين، ولأهل الكتابين، قصة ابتلاء الله لإبراهيم. و(الابتلاء): الاختبار والامتحان. ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وفي قراءة (إبراهيم)، وهو اسم أعجمي، قيل معناه: الأب الرحيم.

﴿رَبُّهُ﴾ وهو المُبْتَلَى عَزَّوَجَلَّ. وهذا الابتلاء؛ ليظهر علمه تعالى في الواقع، ولتظهر منزلة الخليل عليه السلام وأحواله؛ فيحصل الاقتداء به.

﴿يَكَلِّمْتِ﴾ شرعية كلّفه بها - من أوامر ونواهي - وقدريّة كتبها عليه. فقام بالكلمات الشرعية وأتمّها ووفّأها، وصبر على القدريّة واحتسب.

فمن الأمور الشرعية: ما صحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية، قال: «ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قصّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسّواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والحتان، وتنفّ الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء»^(١).

ومن ذلك أيضًا: الإسلام، والحج، والإحرام به، والطواف، والسعي، ورمي الجمار. وأمّا ما ابتلاه به ممّا كتبه وقدره عليه: فمخالفة أبيه وقومه، ومناظرته قومه، ومحااجة النمرود، والقاؤه في النار، والهجرة من بلده العراق إلى الشام، وابتلاؤه بذبح ولده، ثم تركه مع أمّه هاجر بواحد غير ذي زرع.

﴿فَأَنذَرْتَهُ﴾ أي: أذاهنّ أحسن التأدية، وقام بهنّ حقّ القيام، من غير تفريط ولا تقصير ولا تأخير، فقام بالكلمات الشرعية ووفّى بها، وصبر على القدريّة واحتسب، وصبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله؛ ولذلك رفع الله منزلته، وكافأه على ذلك في الدنيا قبل الآخرة.

فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يأتئون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون إلى يوم القيامة؛ فتكون قدوة لهم في الدين، يهتدون بهديك، ويستنون بسنتك. و(الإمام): هو من يقتدى به.

فلما رأى إبراهيم ما في ذلك من الخير العميم والثواب العظيم؛ رغب أن يكون هذا في ذريته أيضًا - وهذا من محبته الخير لهم -؛ فقال طالبًا من ربّه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل منهم أئمة.

فاستجاب الله دعاء إبراهيم، مقيّدًا ومشروطًا، فقال: ﴿لَا يَنَالُ﴾ أي: لا يُصيب ولا يحصل على ﴿عَهْدِي﴾ أي: النبوة، والإمامة في الدين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم، ولغيرهم.

(١) تفسير عبد الرزاق (١/٢٨٩)، تفسير الطبري (٢/٩).

فدلّت الآية على: أنَّ الظالمين لا يكونون أئمةً وقدوةً للناس، وفي هذا تنفيرٌ من الظلم. وفسّر بعضُ المفسّرين (العهد) في قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ بأنّه: الأمان والأكل والعيش، كما صحَّ عن قتادة وإبراهيم، قالوا: «لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمون، فأما في الدنيا: فقد ناله الظالم، فأمنَ به، وأكل، وأبصر، وعاش»^(١).

وفسّر بعضهم (العهد) بأنه: الدين، فقال الربيع بن أنس رَحِمَهُ اللهُ في الآية: «عَهْدُ الله الذي عَهِدَ إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين»^(٢).

وقال بعضهم: إنَّ معنى الآية: أنّه لا عهد عليك لظالم أن تُطيعه في ظلّمه، فلو عاهدت أميرًا أو إمامًا على السمع والطاعة، ثم أمرَكَ بمعصية؛ فلا يجوز لك أن تُطيعه في ذلك؛ لأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

منزلة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَام.

وفيها: أنّه بالصبر واليقين والعمل بالشَّرع المتين، تُنال الإمامة في الدين.

وفيها: أنّه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريّته بالصلاح والهداية، وأن يكون منهم قادةً في الخير.

وفيها: أنّ الظالم لا يصلح أن يكون خليفة، ولا حاكمًا، ولا مُفتيًا، ولا إمامَ صلاةٍ، ولا راويًا للعِلْم والحديث.

وفيها: أنّه ليس كلُّ ذريّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام على الحق؛ بل منهم ظالمون، كما قال تعالى: ﴿وَنَرَكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقد استجاب الله بعض دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٣).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٣).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/ ١٩٣)، تفسير الماوردي (١/ ١٨٥).

وفيها: فَضَّلَ الْخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعُلُّوْهُ مَنْزِلَتَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ عَلَى تَعْظِيمِهِ.

وفيها: مَكَافَاةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، بِأَبْوَابِ الْأَجْرِ الَّتِي يَكْتُبُهَا لَهُمْ، بِجَعْلِهِمْ أَئِمَّةً يَقْتَدِي بِهِمُ النَّاسُ.

وفيها: عَاقِبَةُ الظُّلْمِ الْوَحِيمَةِ، وَأَنَّ الظُّلْمَ يَنْزِلُ بِأَهْلِهِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

وفيها: أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ النَّسَبَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمَ وَلَا يَرْفَعُهُ، فَاسْتَشْنَى اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ الظَّالِمَةَ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ ذُرِّيَةِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٢٥﴾:

وقوله ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ أي: واذكُر يا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمِكَ أَنَّنَا صَيَّرْنَا ﴿الْبَيْتَ﴾ وهو: الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَدْ أَفَادَتْ (ال) فِي قَوْلِهِ ﴿الْبَيْتَ﴾ أَنَّهُ الْبَيْتُ الْمَعْهُودُ الَّذِي لَا يُجْهَلُ.

جَعَلَهُ اللَّهُ ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مَرَجَعًا وَمَعَادًا، كُلَّمَا انْصَرَفُوا مِنْهُ اشْتَقَوْا إِلَيْهِ، فَعَادُوا وَثَابُوا إِلَيْهِ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْعِبَادَةِ، فَلَا يَنْقُضِي مِنْهُ الْوَطَرُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ النُّفُوسُ. وَيُثَوِّبُونَ إِلَيْهِ أَيْضًا فِي الصَّلَاةِ بِقُلُوبِهِمْ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ بِأَجْسَادِهِمْ، وَيَتَذَكَّرُونَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

وقوله ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: جَعَلْنَاهُ أَمْنًا، يَأْمَنُ فِيهِ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَيَأْمَنُ فِيهِ حَتَّى الصَّيْدُ وَالْأَشْجَارُ أَنْ تُقَطَّعَ. وَهُوَ مَحَلُّ أَمْنٍ لِمَنْ يَسْكُنُهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَرَى قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ فِي الْحَرَمِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ، وَكَانُوا لَا يُغَيِّرُونَ عَلَى مَكَّةَ مَعَ شُرَكَاهُمْ.

وَلَأَجْلِ تَوْفِيرِ الْأَمْنِ فِيهِ؛ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَمْلِ السِّلَاحِ فِي مَكَّةَ؛ فَقَالَ: «وَلَا يُحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ لِّقِتَالٍ»^(١).

وقوله ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ أي: اجْعَلُوا ﴿مِن مَّقَامِ﴾ أي: مَكَانِ الْقِيَامِ، وَهُوَ الْحَجَرُ الَّذِي

(١) رواه مسلم (١٣٧٤).

قام عليه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة ﴿مُصَلًّى﴾ أي: مكاناً للصلاة، وأداء ركعتي الطواف خلفه.

وقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم بهذا؛ فلما فرغ من الطواف اتجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وصلى ركعتين^(١).

وقيل: (مقام إبراهيم) هو الحرم كله. وقيل: الحج كله، أي: المشاعر وأماكن المناسك، واتخاذها مصلى: يعني: الدعاء فيها.

قوله ﴿وَعَهْدًا نَّآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وأوصيناهما، و(العهد): هو الوصية بما هو مهم. ﴿أَن طَهَّرَا﴾ هذا تفسير (العهد) ﴿بِتَيْبَتٍ﴾ أضاف (البيت) إليه؛ لبيان شرفه.

فأمرهما الله وأوجب عليهما أن يؤسسا البيت ويبنياه على التوحيد والإخلاص لله، ويطهراه من الأوثان والأرجاس الحسية والمعنوية، وأن يحفظاه فلا يُنصب حوله شيء من الأوثان، ويصان عن النجاسات، وعن اللغو والرفث وقول الزور، والتنازع عنده.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي: حوله، فيكون التطهير لأجلهم، ولإعانتهم على عبادتهم، وكثير منهم قد جاء من غربة، ومكان بعيد.

وبدأ بـ (الطائفين)؛ لأن عبادتهم خاصة بالمسجد الحرام. ثم تثنى بـ ﴿وَالْمُكَافِرِينَ﴾ أي: المقيمين عنده، المعتكفين فيه، المجاورين له، لا يرتحلون منه ولا يذهبون. فالطائفون غرباء، والعاكفون أهل المكان.

ثم تلت بـ ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، وهذا يشمل القريب والبعيد من الكعبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرَّدُّ على مشركي قريش والعرب، الذين كانوا يعبدون الأوثان عند الكعبة، بأن الله تعالى قد أمر الخليل وابنه أن يؤسسا على توحيد وإخلاص، ابتغاء وجه الله، ويصوناه عن الشرك، فخالقتم ذلك أيها المشركون.

(١) رواه مسلم (١٢١٨)، في حديث جابر رضي الله عنه، في وصف حجة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيها: اشتراط طهارة مكان الطواف، واشتراط طهارة لباس الطائفين؛ فلا يجوز للطائف أن يطوف بثوب نجس، كما لا يجوز أن يطوف في بقعة نجسة.

واستفاد بعض العلماء من الآية: أَنَّ الطواف لا يكون إلا حول الكعبة، وداخل المسجد الحرام، فلو طاف خارج المسجد لم يُجزئه.

وفيها: فضل الطواف، والاعتكاف، والرُّكوع، والسُّجود.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾:

وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: واذكر يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال إبراهيم، أي: في دُعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: الوادي المهجور الخالي، الذي ليس فيه زرع ولا ماء ولا بناء ﴿بَلَدًا﴾ (البلد): اسم لكل مكان مسكون، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا. ﴿آمِنًا﴾ أي: ذا أمن، يأمن أهله فيه من القحط، والخسف، والقتل، والسلب، والنهب، والرعب والخوف، والمسخ، والجوع، ونحو ذلك.

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام؛ فجعل مكة بلدًا آمنًا، وهذا في الأعم الأغلب على مرِّ العصور وكرَّ الدهور. ولا يُنافي ذلك ما وقع في مكة من حوادث قليلة تُعَكِّرُ هذا الأمن، والقاعدة تبقى قاعدة وإن وُجد لها شواذ؛ لأنَّ الحكم للأعم الأغلب؛ فإنَّ مكة -شرفها الله- كانت آمنة في غالب الأزمان التي مرَّت عليها. هذا من الناحية القدرية.

وأمَّا من الناحية الشرعية؛ فإنَّ الله أوجب علينا أن نحفظ الأمن في مكة، ولا نُخلِّ به، ونعتني به أكثر ممَّا نعتني به في الأماكن الأخرى.

﴿وَارْزُقْ﴾ أي: أعطِ ﴿أَهْلَهُ﴾ أي: ساكنيه والمقيمين فيه ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بأنواعها، فيؤتى بها إلى مكة من سائر أنحاء العالم.

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أراد الخليل عَلَيْهِ السَّلَام أن تكون هذه الدعوة للمؤمنين؛ ليستعينوا بالرزق على طاعة الله.

﴿قَالَ﴾ أي: الله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: سَأَرْزُقْهُ أَيضًا، ﴿فَأَمْتَعُهُ﴾ أي: أمدُّ له من الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ أي: من الزمان، وهو مدَّة حياتهم، والمتاع - بل الدنيا كُلُّها - لو حصلت لشخص فهي قليلة، كما قال الله تعالى: ﴿مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿ثُمَّ أَصْطَرَّهُ﴾ أي: ألجئته وأسوقه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أي: الذي لا محيص له عنه، ولا منجى له منه. وهذا جزاءٌ وفاقًا على كفره. ﴿يُنْسِئُ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع الذي يصير إليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا غنى للإنسان عن دُعاء الله، مهما كانت مرتبته.

وفيها: أنَّ الدُّعاء سببٌ في حصول المقصود.

وفيها: رأفة إبراهيم الخليل بمن يؤمُّ البيت الحرام.

وفيها: احتياظه في الدُّعاء؛ لئلا طلب أن يكون الرِّزق لمن آمن بالله واليوم الآخر.

وفيها: أنَّ الله يرزق المؤمن والكافر.

وفيها: أنَّه لَمَّا كانت الإمامة نعمة دينية استثنى الله الظالمين منها؛ لأنَّهم لا يستحقُّون هذا الشَّرَف. أمَّا الرِّزق: فنعمة دُنْيَوِيَّة؛ فأعطاه الله المسلم والكافر، ولم يستثنِ الكافر منه؛ لأنَّ متاع الدنيا قليل، ولا يُساوي عند الله جناح بعوضة، فلذلك يُعطيه مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)

وقوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: واذكر يا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم إذ يرفع إبراهيم عليهما السلام ﴿الْقَوَاعِدَ﴾ في بناء البيت، وهي جمع (قاعدة)، وقاعدة الشيء: أساسه. ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ أي: الكعبة.

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ ابنه، يُشارك أباه في رفع القواعد.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ أي: يدعو كلُّ منهما الرَّبَّ عز وجل بقبول عملهما، وأن يتلقاه بالرضا،

وهذا كأنه اعتراف من الخليل وابنه بقلّة العمل، والتقصير فيه. و(تقبّل) الله للعمل أي: تلقّيه بالرضا والإثابة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ أي: لدُعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالنا، وتقصيرنا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

المعاونة في فعل الخير.

وفيها: يرّ الابن لأبيه.

وفيها: نظر العبد المؤمن لعمّله بعين النفس مهما كان؛ تواضعاً لله، وفِراراً من الاغترار والعُجب.

ومن فوائد الآية: أن من إحكام البناء تأسيسه على قواعد.

وقد فهم بعض العلماء من الآية: أن أساس البيت كان موجوداً قبل إبراهيم الخليل، فجاء فرعه. لكن لا يلزم من الآية وجود القواعد قبل إبراهيم عليه السلام؛ فهو الذي وضعها، وهو الذي رفعها، وقد كان تحديد مكان البيت وحدود البنيان بوحى من الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ أي: عيّنا له محله وعرفناه به.

وقد روى البخاري رحمه الله في «صحيحه»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن إبراهيم قال لإسماعيل: «يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ.

قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا - قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قَالَ: فَجَعَلَا بَيْنِيَّانٍ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»^(١).

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤).

وقد رأت هذه الأسس قُرَيْشٌ لَمَّا بنوها، بعدما هدمها السَّيْلُ، وكانت القواعدُ حجارةً خضراء متماسكة.

وثبت في «صحيح مسلم»^(١) أَنَّ عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أعَادَ بِنَاءَهَا كشف عن أساساتها، حتى نظر إليها العُدُولُ من أهل مكة، ثم بنى عليها البُنيان وجعلها على قواعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أُعيدت إلى ما كانت عليه بعد مقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨):

ثم قال تعالى في دُعاء الخليل وابنه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنْقَادِينَ لِحُكْمِكَ ﴿لَكَ﴾ أي: مُخْلِصِينَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ. ولا شكَّ أَنَّهُمَا كَانَا مُخْلِصِينَ مُسْتَسْلِمِينَ، ولكنها أرادوا طلب المزيد والتثبيت.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أي: واجعل من أولادنا ﴿أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ أي: جماعة مُنْقادة لأمرِك، مُخْلِصة. و(ذرية) الإنسان: مَنْ تفرَّع منه.

ويدخل في دُعاء الخليل وابنه: العرب؛ لأنَّهم من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغير العرب أيضًا، وَقَدْ كَانَ فِي وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ: العرب وَغَيْرُ العرب.

وقوله ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمنا مواضع نُسْكنا وعباداتنا، وبَصِّرنا بأفعال الحجِّ ومواقيته، ومواضع العِبادة فيه. و(المنسك): مكان العِبادة.

ويؤخذ من هذا: أَنَّ العِبَادَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ، لَا تَصِحُّ إِلَّا بِإِشْرَاعِهِ اللَّهُ، وَتَتَوَقَّفُ عَلَى الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ. ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ أي: وَفَّقْنَا لِلتَّوْبَةِ فِيمَا فَرَطْنَا فِيهِ، وَسَاحِجْنَا فِيمَا قَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ طَاعَتِكَ، وَتَجَاوَزْنَا عَنْهَا. وفي هذا تواضع الخليل وابنه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: كثير الرحمة بمن يشاء من عباده.

(١) صحيح مسلم (١٣٣٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للإنسان أن يشمل ذرِّيَّته بالدُّعاء.

وفيها: أنَّ الأصل في الإنسان الجهل، فيحتاج إلى تعليم من ربِّه.

وفيها: أنَّ الأصل في العبادات المنع، حتى يأتي الدليل على مشروعيتها.

وفيها: أنَّ الناس مُفْتَقِرُونَ إلى توبة الله، حتى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩):

ثم قال تعالى في دُعاء الخليل أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ﴾ أي: أَرْسِلْ ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في الأُمَّة المسلمة من أولادنا، والمقصود هنا: العرب ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي: من أنفسهم ونسبهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ يقرأ عليهم ﴿آيَاتِكَ﴾ أي: يُملِّي عليهم آيات القرآن؛ ليأخذوها منه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: معاني القرآن، وما فيه من دلائل التوحيد، والنبوة، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: السُّنة، وحقائق الشريعة، والفهم في الدين. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يُنَمِّي فيهم طاعة الله، والإخلاص، والأخلاق الفاضلة، ويطهرهم من دَنَسِ الشُّرْك، وأنواع المعاصي والردائل.

ولمَّا دعا إبراهيمُ الخليل بهذه الدعوات الثلاث؛ ختمها بالشَّاء على الله؛ لأنَّه أرجى لقبول الدُّعاء؛ فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يُغْلَب، منيع الجانب. ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي: من له الحكمة التامة. و(الحكمة): وضع الأشياء في مواضعها المناسبة لها، فتصدُّر أفعاله عن حِكْمَتِهِ، ومراعاة مصالح عباده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حاجة الناس إلى الرُّسل، وقيامهم بتعليم الوحي.

وفيها: أهمية تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣):

ثم قال تعالى، ردًّا على الكفار فيما أحدثوه من الشرك بالله، وعلى اليهود والنصارى فيما ابتدعوه من الكفر بالله، والمخالفة لملة إبراهيم الخليل إمام الخنفاء: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾: وهذا استيفهام إنكارى توبيخي، المراد به النفي؛ أي: لا يرغب ولا يعرض ﴿عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الملة) هي: الدين والشرعة.

وملة الخليل عليه السلام قائمة على التوحيد، والبراءة من الشرك، وإخلاص العبادة لله، والبراءة مما يُعبد من دون الله، والشكر لنعم الله، والصلاح في النفس، والإصلاح للغير، وإنكار المنكر، كما جاء في آيات كثيرة في وصف ملة الخليل عليه السلام؛ ومنها: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقوله ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (السفه): ضد الرشد. والمعنى: لا يترك ملة إبراهيم إلا من أذل نفسه، وأهلكها، وظلمها، وضيعها، وأي سفه أعظم من الوقوع في الشرك؟!

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ أي: اخترناه، وجعلناه صفيًا من الخلق ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اتخذناه خليلًا، وبعثناه بحمل أعباء الرسالة، والقيام بالدعوة والبلاغ. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالرضا والكرامة يوم القيامة، المشهود له بالخير والاستقامة على رؤوس الأشهاد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن المخالفين لدعوة الرسل سفهاء، وإن كانوا أذكىء في الدنيا، مهما كان عندهم من العلم بالصناعة، والخبرة بالسياسة والإدارة، ومهما أوتوا من قوة وهيمنة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣):

وقوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي: واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم لأمتك، إذ قال الله لإبراهيم: ﴿أَسْلِمَ﴾ أي: أخلص دينك وعملك لله؛ فاستجاب، وأجاب قائلاً: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

الْعَلَمِينَ ﴿١٠٠﴾ أي: أخلصت ديني له، وفوضت أمري إليه. وهذا يشمل إسلام الباطن والظاهر.

وما أكثر الذين أمروا بالإسلام، ولم يسلموا!

وقوله ﴿لِرَبِّ الْعَلَمِينَ﴾ أي: مالك الخلاق ومدبرها. وهذا يتضمن: توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضَّلَ إبراهيم الخليل؛ حيث لم يستكبر عن تنفيذ الأمر، بل أذعن وأقر.

وفيها: أن الذي يستحق الاستسلام له: هو الرب الخالق.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢):

وقوله تعالى ﴿وَوَصَّى﴾ (التوصية): هي العهد المؤكد في الأمر الهام ﴿بِهَا﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة، وهي: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَلَمِينَ﴾، وهذه الملة - وهي ملة التوحيد والإسلام - ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصى بهذه الكلمة يعقوب بنيه، كما وصى بها جدّه إبراهيم - من قبل - بنيه.

والظاهر - والله أعلم - أن يعقوب عليه السلام وُلِدَ في حياة إبراهيم وسارة؛ لأن البشارة به وبأبيه جاءت لإبراهيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، وهذا يقتضي أن يعقوب وُجِدَ في حياة جدّه.

﴿يٰبَنِيَّ﴾ أي: يا أبنائي. وإنا ناداهم بهذا اللّين؛ ليكون أقرب إلى القبول والاستجابة. ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام، اصطفاه لكم من بين سائر الأديان. و(الدّين) أيضًا هو: العبادة والعمل.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ أي: لا يأتاكم الموت وينزل بكم ﴿إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: وحالكم البقاء والاستمرار على الإسلام.

ومعنى هذه الوصية: اثبتوا على الإسلام حتى تموتوا عليه، وأحسنوا في حال الحياة، والزمو هذا الدين؛ ليرزقكم الله الوفاة عليه؛ فإنَّ المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويُبْعَثُ على ما مات عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاهتمام بالأولاد، والحرص على صلاحهم، وأهمية الوصية إليهم قبل الموت، وحثهم على التمسك بالدين.

وفيها: أنه ينبغي للإنسان أن يتعهد نفسه دائماً بالحق والصبر؛ حتى لا يأتيه الموت وهو غافل.

وفي الآية: أن الأعمال بالخواتيم.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

ثم بين تعالى تفصيل ما قال يعقوب عليه السلام لبنيه؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ﴾ أي: يا أهل الكتاب، ويا أيها اليهود، ويا أيها المجادلون في التوحيد، الواقعون في الشرك، يا مَنْ تنسبون إلى الأنبياء أقوالاً لم يقولوها. هل ﴿كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾: جمع (شاهد) أو (شاهد)، بمعنى: حاضر. أي: هل كنتم حاضرين وصيته؟! وهم بالتأكيد لم يحضروا، فليسمعوها من الله الشهيد، الذي يُخبر بأنباء الغيب، وما حصل في الماضي.

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: أسباب الموت ومقدماته ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ الاثني عشر: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: مَنْ هو إلهكم الذي تعبدونه من بعد موتي؟ وإنما قصد العبادة الصحيحة المشروعة فقط.

وهذا من باب أخذ الميثاق عليهم؛ وليتأكد الأب من رؤوخ ما ربى عليه أبنائه في حياته، وليؤكد عليهم عند مماته، وليكون ذلك رداً على مَنْ سيفتري عليه من أهل الكتاب بعد ذلك.

فَكَأَنَّ فِي الْآيَةِ حَاجَّةً لِلْيَهُودِ، مَفَادُهَا: إِذَا كُنْتُمْ لَمْ تَحْضُرُوا وَصِيَّةَ يَعْقُوبَ؛ فَكَيْفَ تَنْسُبُونَهُ إِلَى دِينِ الْيَهُودِيَّةِ الْبَاطِلِ؟!

وَقَوْلُهُ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، الَّتِي يَتَوَجَّهُ بِهَا الْعَابِدُ إِلَى رَبِّهِ.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ رَبِّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. ثُمَّ يَنْسُو هَؤُلَاءِ الْآبَاءَ، فَقَالُوا: ﴿إِزْرَاهُمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وَإِبْرَاهِيمَ هُوَ الْجَدُّ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْجَدِّ أَبٌ وَلَوْ كَانَ بَعِيدًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ أَيْبُكُمْ إِزْرَاهِمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وَقَدَّمُوا (إِسْمَاعِيلَ) عَلَى (إِسْحَاقَ) -مَعَ أَنَّهُ عَمٌ-؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَ سِنًا مِنْ إِسْحَاقَ. وَإِطْلَاقُ الْأَبِ عَلَى الْعَمِّ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، كَمَا تُطْلَقُ الْأُمُّ عَلَى الْخَالَةِ.

﴿إِلَهُهَا وَحِدًا﴾؛ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَصَرَفِ الْعِبَادَاتِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: مُطِيعُونَ، خَاضِعُونَ، مُتَقَادُّونَ. فَحَصَرُوا الْعِبَادَةَ فِي رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ التَّوْحِيدَ وَصِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ.

وفيها: أَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وفيها: أَنَّ أَبْنَاءَ يَعْقُوبَ -وَهُمْ إِخْوَةُ يُوسُفَ- كَانُوا عَلَى التَّوْحِيدِ.

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْوَصِيَّةِ عِنْدَ حُضُورِ الْأَجْلِ، وَمِنْ شَرْطِ صِحَّتِهَا: أَنْ يَكُونَ الْمُوصِي يَعْيَ مَا يَقُولُ.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ أَي: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَأَبْنَاءُ هُمْ، وَ﴿أُمَّةٌ﴾ أَي: جَمَاعَةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: مَضَتْ وَسَلَفَتْ بِالْمَوْتِ.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أَي: جِزَاءُ مَا فَعَلَتْهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ ﴿وَلَكُمْ﴾ أَي: يَا أَيُّهَا الْمَتَأَخِّرُونَ، أَوْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ مِنَ الْعَمَلِ. ﴿وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: لَا

تُؤَاخِذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالٍ مِّنْ سَبْقِكُمْ، فَلَا تَنَالُونَ مِمَّا كَسَبُوا شَيْئًا، وَلَا يَنَالُونَ مِمَّا كَسَبْتُمْ شَيْئًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الاعتماد على أعمال الآباء لا يُجدي شيئًا، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

وفيها: أن الآخر لا يُسأل عن عمل الأول.

وفيها: إثبات سؤال الناس يوم القيامة عن أعمالهم.

ويُستفاد من الآية: الإمساكُ عَمَّا حصل من الفتن بين الصالحين؛ لأنَّ ذلك قد يؤدي إلى الوقعة في بعضهم، ونقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، ولا تُسأل عَمَّا عَمِلُوهُ.

وفي الآية: إثبات عدل الله تعالى.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥):

ولمَّا ذكر تعالى أنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هي الحنيفية السمحة؛ دعا أهل الكتاب إلى اتِّباعها، وردَّ على دعواهم: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى - يخاطبون المسلمين -: ﴿كُونُوا هُودًا﴾ أي: على مِلَّةِ اليهود ﴿أَوْ نَصَارَى﴾ أي: على مِلَّةِ النصارى؛ ﴿تَهْتَدُوا﴾ أي: تكونوا مهتدين، وتصلوا إلى الخير، وتظفروا بالسعادة!

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الهدي إلَّا ما نحن عليه، فأتبعنا يا محمد تهتد! وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ الآية^(١).

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد صلى الله عليه وسلم في جوابهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: لا تتبع إلَّا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ؛ فالهدي فيها، ونحن أولى به.

﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، فهو مستقيم مخلص.
وُحِصَّ إبراهيم بالذكر هنا دون غيره من الأنبياء؛ لمكانته عند أهل الكتابين، وإمامته،
ومنزلته من رب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تبرئة إبراهيم عليه السلام من الشرك الأكبر والأصغر.
وفيها: تعريض بأهل الكتابين؛ للإشارة إلى ما هم عليه من الشرك.
وفي الآية: أن أصحاب الأديان الباطلة، وكذا أصحاب البدع، يدعون دائمًا أنهم على
حق، وأن أتباعهم يؤدي إلى الهداية.

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦):

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكُتُبهِ كُلِّهَا، وبرُسُلِهِ، ويؤمنوا بما
أنزل على أنبيائه المتقدمين على وجه الإجمال، وألا يفرقوا بين أحدٍ منهم في الإيمان، وأن
يقولوا ذلك لليهود والنصارى؛ ردًا على دعواهم المتقدمة.

فقال تعالى: ﴿قُولُوا﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّتِهِ جميعًا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي:
تصديقًا بالقلب، ونطقًا باللسان، وعملاً بما يترتب على ذلك. ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي:
من القرآن، وبيانه - وهو السُّنَّة - ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: في صُحُفِهِ - كما في سُورَةِ
«الأعلى» - ومما جاء فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ فهو نبيٌ منزلٌ إليه قطعًا، ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كذلك، وإن لم نعلم ما أنزل
عليهم بالتحديد والتفصيل.

﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ جمع (سبط)، وهو: ولد الولد، والقبيلة من اليهود، والمراد بهم هنا:

أولاد يعقوب - وهو إسرائيل عليه السلام - وكان عددهم اثني عشر، منهم يوسف عليه السلام، وقد خرجت منهم قبائل وشعوب بني إسرائيل.

وقوله ﴿وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي: من الآيات الشرعية في التوراة، والآيات الكونية - كاليد والعصا - . ﴿وَعِيسَى﴾: الذي أوتي آيات شرعية في الإنجيل، وآيات كونية - كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله - .

﴿وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ عموماً. وهذا من باب عطف العام على الخاص.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾؛ فالجميع أنبياء الله، ولا نفرق في الإيمان بين أحد منهم، كما فعلت اليهود والنصارى - فآمنوا ببعض وكفروا ببعض - وهذا يبين فضل المسلمين على غيرهم.

وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُستسلمون، مُنقادون ظاهراً وباطناً، له سبحانه، لا لغيره.

ومن فضائل هذه الآية: ما رواه مسلم رحمه الله^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ، فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

وفي رواية: أنه «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وَالتِي فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ صَلَاةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾»^(٢).

وهذا الحديث يبين سنة أخرى في القراءة بعد الفاتحة، في ركعتي الفجر، بالإضافة إلى سورتي «الكافرون» و«الإخلاص».

ومن فضائل هذه الآية أيضاً: ما رواه البخاري رحمه الله^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كَانَ

(١) صحيح مسلم (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢٧).

(٣) صحيح البخاري (٧٥٤٢).

أَهْلَ الْكِتَابِ يَفْرُؤُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾» (الآية).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تقديم الأهم، وإن كان متأخراً في الحدوث؛ فإنه قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ فقدّم ذكر (ما أنزل إلينا) على ذكر (ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل).

وفيها: أننا أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، مع أننا لا نعمل بما فيها. وفيها: الإشارة إلى رباط الأخوة الإيمانية بيننا وبين جميع المؤمنين المتقدمين.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) :

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا﴾ أي: الكفار - من أهل الكتاب وغيرهم - ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورُسُله، إيماناً مماثلاً لإيمانكم.

﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي: فقد أصابوا الحقَّ والرُّشد، وسلكوا سبيل التوفيق، فحصل بينكم الاتفاق، وصاروا مسلمين مثلكم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الحقِّ إلى الباطل، وأعرضوا بعد قيام الحُجَّة عليهم؛ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ أي: في الحقيقة ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ أي: فراق وخلاف عظيم، وبعُد عن الحقِّ، وعداوة لكم. و(الشَّقَاقُ): خلافٌ، مع ابتغاء المشقة على الخصم، وتباعد كُلِّي، بحيث يكون أحد الطرفين في شقٍّ، والثاني في شقٍّ آخر.

وقوله ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ يُفِيد: أَنَّ الشَّقَاقَ محيط بهم من كل جانب، وهم مُنْغَمَّسُونَ فيه.

وهذا يحسم الأمر في الموقف مع أهل الكتاب؛ فإمّا أن يؤمنوا بمثل ما آمنّا به فيكونوا مؤمنين مثلنا، وإمّا أن يتولَّوا فيُصبح بيننا وبينهم عداوةٌ وتباعدٌ، ممّا يؤدي إلى المواجهة.

وبما أن هذا قد يُلْقِي في قُلُوب بعض المسلمين الرّهبة من هؤلاء الكفار؛ فَقَدْ طمأن الله

المؤمنين بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيكفيك بأسهم وشرهم، ويُبطل مكرهم، ويخذلهم، وينصرك عليهم عاجلاً غير آجل، كما تفيده (السّين) في قوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾؛ فإنّها تفيد تحقّق وقوع الكفاية والحماية، وقُرب الوقوع أيضاً.

وقد أنجز الله وعده؛ فكفى نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرّ اليهود وأهل الكتاب، ونصر نبيّه عليهم؛ فقتل بني قريظة وسبّاهم، وأجلّ بني النضير وأخرجهم من ديارهم، وفتح خيبر وانتصر على أهلها، وغنم المسلمون غنائم عظيمة منها، ومكّن نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نصارى نجران وسلّطه عليهم، وجعلهم في ذلّ، يؤدّون الجزية إلى نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوال الكافرين، ودُعاء المؤمنين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الجميع، ونياتهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّه لا يمكن أن يلتقي المسلمون وأهل الكتاب في منتصف الطريق، ولا أن يتفقوا. وفي هذا: بطلان دعوة التقارب بين الأديان، فإنّما أن يُسلموا، وإنّما أن يتولّوا، فتقوم العداوة، ثم المواجهة، فيأتي نصر الله للمسلمين الصادقين.

وهذا هو طريق الحق، فلا تميع لحقائق العقيدة، استرضاء لهؤلاء الكفرة من أهل الكتاب، وهم لن يرضوا عنّا أبداً، مهما تنازلنا، حتى نتبع ملّتهم، ونكون على دينهم.

وفي الآية: أهميّة التوكّل على الله، وأنّه يكفى المسلمين عدوّهم، ويحفظهم من شرورهم. وفيها: موعظة بمراقبة الله تعالى في السرّ والعلن، وإصلاح الظاهر والباطن؛ لأنّه سميع للأقوال، عليم بالبواطن والنيات.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ (١٣٨)

وقوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره بـ: دين الله^(١). وسُمّي الدّين صبغة؛ لظهور أثره على صاحبه، مثلما يظهر أثر الصّبغ في الألوان في الأشياء

(١) انظر: تفسير الطبري (١١٨/٣)، تفسير عبد الرزاق (٢٩٤/١)، تفسير البغوي (١٥٧/١).

المصبوغة، فكذلك المتدين بدين الله يظهر أثر الدين عليه في صفحة وجهه، ومسلكه، وسمته، وهيئته.

وبما أن الصبغة تلزم الشيء المصبوغ وتبقى عليه؛ فكذلك المتدين يثبت على هذا الدين ويستمر عليه، ويلزمه كلزوم اللون للشيء المصبوغ.

ومن جهة أخرى: فإن الله عز وجل صبغ الأشياء في الطبيعة بالألوان المختلفة، وشتان بين اللون الطبيعي الذي خلق الله الأشياء عليه، وبين ألوان البشر الصناعية.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة، ولا أحد أحسن منه ديناً وشرعة ومنهاجاً؛ لأن دين الله يشتمل على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد، بما لا يوجد مثله في أي دين وملة أخرى من أهواء البشر.

والنفي بطريقة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يحمل معنى التحدي؛ فكأنه يقول: هاتوا أحسن من الله صبغة، ولا شك أن هذا أبلغ في الإقناع.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ (العبادة): التذلل إلى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فمن كان على صبغة الله ودينه لزم العبادة، وزين نفسه بطاعة الله.

وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ يدل على حصر العبادة واختصاصها بالله عز وجل.

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩):

وقوله ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل من يقوم بدعوة هؤلاء الكفار من أهل الكتاب: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ يا أيها اليهود والنصارى، تقولون -مثلاً-: إن دينكم أقدم، وإنكم على الحق، وإن أكثر الأنبياء منكم، وإن الأنبياء على دينكم، ولن يدخل الجنة غيركم، ونحو ذلك؟!

و(المحاجة): أن يُدلى كل خصم بحجته؛ ليدحض حجة الخصم الآخر.

فمعنى قوله ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا

وَرَبُّكُمْ ﴿١٤٠﴾ أي: خالقنا وخالقكم، والمتصرف فينا وفيكم، وهو أعلم في تدبير خلقه، وبمن يصلح للرسالة، وبما ينسخ من الدين؟

﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا﴾ أي: نُجَازِي عليها - خيرًا أو شرًا - ولا تُسألون عنا. ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: التي كَسَبْتُموها، وستُحاسَبون عليها، ولا تُسأل نحن عنها. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: في عبادته والتوجه إليه. و(الإخلاص): تنقية الشيء من كل شائبة. والمعنى: أننا نُخْلِصُ العبادة لله، ولا نشوبها بشيء من الشرك.

ومن تعريفات الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، فالعمل لأجل الناس شرك، وترك العمل الصالح من أجل الناس رياء، والإخلاص: المعافاة منهما.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب البراءة من أعمال الكفار؛ لقوله: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

وفيها: أنه ينبغي على المسلم أن يفتخر بالحق؛ لقوله: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا﴾.

وفيها: أنه لا يجوز التشبه بأعداء الله، وأنه يجب التميز عنهم؛ لقوله: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾:

وقد انتقل السياق القرآني من توبيخ هؤلاء الذين يحاجون في الله ويجادلون في توحيده، إلى توبيخ آخر، وهو: دعواهم أن رسل الله هؤلاء كانوا هودًا أو نصارى، فزعمت اليهود أن إبراهيم كان يهوديًا، وزعمت النصارى أنه كان نصرانيًا!

قال تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ (أم) هنا: للانتقال من موضوع إلى موضوع.

وقد نفى الله هذه المزاعم في سورة «آل عمران» بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وكانت الحجة في إثبات بطلان دعواهم هي استعمال التاريخ؛ فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبَ لِمَ تَعَاجُزُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فموسى والتوراة كانا بعد إبراهيم بزمن، وعيسى والإنجيل كانا بعد إبراهيم بزمن، فكيف يكون إبراهيم يهوديًا أو نصرانيًا؟!

وقوله ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو: أكبر أولاد إبراهيم ﴿وَإِسْحَاقَ﴾: أخو إسماعيل - الولد الثاني لإبراهيم - ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو: ابن اسحق، ويُسمى إسرائيل أيضًا ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم: أبناء يعقوب الاثنا عشر.

وقوله ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي: تزعمون أن كل هؤلاء كانوا على الديانة اليهودية أو النصرانية؟!

وبالإضافة إلى استعمال حجة التاريخ في الرد على مزاعمهم؛ فقد أبطل الله تعالى دعوى اليهود والنصارى هذه بطريق آخر؛ فقال هاهنا: ﴿قُلْ مَا أَعْلَمُ أَمْرَ اللَّهِ﴾، ولا يستطيعون أن يقولوا: إنهم أعلم من الله. فمن المعلوم أنه أعلم. وهذا كقوله: ﴿مَّا لِلَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وهذا الاستفهام من أجل إفحام الخصم وإلزامه، فإذا قال الله شيئًا، وقال هؤلاء شيئًا يُعارضه، فكلام من المعتبر والمصدق؟! لاشك أنه كلام الله. فكأنه يقول للمُجادلين: أنتم أعلم بدين هؤلاء الرُّسل، أم الله أعلم بدينهم؟!

وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ﴾ أي: لا أحد أشدَّ ظلمًا في باب كتمان الشهادة، ممن أخفى وستر عن الناس شهادةً ثابتةً عنده، في كتاب دينه. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صادرة منه عز وجل.

فال قتادة وأبو العالية في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: «هم اليهود والنصارى، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية والنصرانية، وكتموا محمدًا صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه رسول الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»^(١).

(١) تفسير الطبري (٣/١٢٦)، تفسير ابن أبي حاتم (١/٢٤٦).

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يغفل ولا يسهو سبحانه عن عمل هؤلاء الكافرين المشركين؛ فهو عالم بهم، وسوف يحاسبهم عليه.

وقوله ﴿تِلْكَ﴾ الشخصيات المذكورة - من إبراهيم عليه السلام ومن معه - ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿فَدَخَلَتْ﴾ أي: مضت وسلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: من الأعمال - خيراً أو شراً - ﴿وَلَا تُنْتَلُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: في الدنيا.

وفي الآيتين من الفوائد:

إبطال الدَّعَاوى الكاذبة، والردُّ عليها.

وفيها: عِظم جريمة مَنْ كتم العلم.

وفيها: مسئولية العامل عن عمله.

وفيها: وَعَظ اليهود وكلَّ مَنْ يتكل على فَضْلِ الآباء وشرفهم، وأنه لا ينفع الإنسان إلا عمله.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تعالى في الآيات السابقة ادِّعاء اليهود والنصارى، أَنَّ إبراهيم عليه السلام ومن معه من الأنبياء هم على مِلَّتِهِمْ ودينهم، وكانت قِبْلَةُ اليهود على قِبْلَةِ الأنبياء، إلى بيت المقدس، وكان النبي ﷺ مأموراً بالتوجُّه إلى بيت المقدس، وكان اليهود يُعْجِبُهُمْ ذلك ويفرحون بهذه الموافقة في قِبَلَتِهِمْ، فلَمَّا نَزَلَ الأمر بتحويل القِبْلَةِ؛ استاء اليهود، وقاموا بالظعن والتشكيك، وانطلقت ألسنتهم بإثارة الشُّبُهَات، هم وأهل النِّفاق.

وكان من المعجزات النبوية: أَنَّ الله أخبر نبيّه ﷺ بما سيقوله اليهود قبل أن يقولوه، وَلَقِنَّه الحجة الدامغة ليرُدَّ عليهم، بعد أن يُعِدَّ نفسه لتحمل أذاهم.

فقال عز وجل - مخبراً نبيّه ﷺ والمسلمين بأقوالهم -: ﴿سَيَقُولُ﴾ أي: سيقع هذا

القول يقيناً عما قريب ﴿السُّفَهَاءُ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اليهود»^(١)، و(السُّفَهَاءُ): جمع «سفيه»، وهو: كُلُّ مَنْ لَا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ وَيُخَالِفُ الْحِكْمَةَ فِيهِ. فهؤلاء الكفار سُفَهَاءٌ فِي دينهم، وإن كانوا يُحْسِنُونَ التَّصَرُّفَ فِي الْأُمُوالِ. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾: بيان لنوع هؤلاء السفهاء.

﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ﴾: استيفهام للإنكار، يعني: ما الذي صرفَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين إلى جهة الكعبة ﴿عَنْ قِبَلِهِمُ الْمَقْدِسَ﴾ وهي: بيت المقدس. و(قِبلة) المصلي: هي الجهة التي يستقبلها في صلاته، سُمِّيَتْ بذلك؛ لِأَنَّهَا تُقَابِلُهُ وَيُقَابِلُهَا.

وجاء في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لَمَّا صُرِفَتْ الْقِبْلَةُ عَنْ الشَّامِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فِي رَجَبٍ عَلَى رَأْسِ سَبْعَةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ؛ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ - سَمَّاهُمْ - فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَلَّاكَ عَنْ قِبَلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ؟! أَرْجِعْ إِلَى قِبَلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا نَتَّبِعُكَ وَنُصَدِّقُكَ! وَإِنَّمَا يَرِيدُونَ فِتْنَتَهُ عَنْ دِينِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الْمَقْدِسَ﴾»^(٢).

﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في إجابة هؤلاء: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: الذي صرفنا هو الْمَلِكُ الْقَهَّارُ، مَالِكُ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَمِنْهَا الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

وقوله ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يُفِيدُ الْحَضَرَ، أي: أَنَّ مُلْكَ الْجِهَاتِ لَهُ، لَا لِغَيْرِهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَإِذَا كَانَ مَالِكًا لَهَا فَإِنَّهُ يَتَصَرَّفُ فِي تَوْجِيهِ عِبَادِهِ لَهَا شَاءَ، وَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ.

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يَدُلُّهُ وَيُوقِّفُهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح قويم واسع، يَسْهُلُ سَلُوكُهُ، وَتَظْهَرُ عَلَامَاتُهُ، وَهُوَ طَرِيقُ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ. وَاسْتِقْبَالُ الْكَعْبَةِ مَعْلَمٌ مِنْ مَعَالِمِ هَذَا الطَّرِيقِ.

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَهْدِيهِمْ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْفِتَنَةِ»^(٣).

(١) وكذا قال البراء بن عازب ومجاهد والحسن، انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٣٠)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٨).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ كُلَّ مَنْ اعْتَرَضَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ؛ فَهُوَ سَفِيهٌ.

وفيها: إعداد نفوس الصَّحابة للمواجهة، وتجهيزهم بالردِّ القويِّ القاطع الذي سَيَسْتَعْمِلُونَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الشُّبُهَاتِ.

وفيها: أَنَّهُ يَكْفِي لِلإِيمَانِ وَالانْقِيَادِ مَعْرِفَةُ أَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرِ عِلَّتُهُ وَحِكْمَتُهُ لِلْعَبْدِ.

وفيها: أَنَّ الْهُدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٣).

قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما جعلناكم مُهْتَدِينَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهَدَيْنَاكُمْ إِلَى هَذِهِ الْقِبْلَةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَكَذَلِكَ ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: صَيَّرْنَاكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خِيَارًا عُدُولًا، مَمْدُوحِينَ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، مُؤَهَّلِينَ ﴿لِتَكُونُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿شُهَدَاءَ﴾ أي: تَشْهَدُونَ عَلَى النَّاسِ وَالْأُمَمِ، بِأَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ بَلَّغْتَهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ.

وقد روى البخاري^(١)، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فيَقُولُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فيَقُولُ: نَعَمْ، فيَقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغْتُمْ؟ فيَقُولُونَ: مَا أَنَا مِنْ نَذِيرٍ! فيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.»

وقوله ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ أي: مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: يَشْهَدُ

بعد التكم وصدقكم في شهادتكم على الأمم الأخرى، وكذلك يشهد على أمته يوم القيامة بأنه بلغ البلاغ المبين، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي: صيرنا ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي: اتجاهك لبيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر علمنا في الواقع، فيترتب عليه الجزاء، وتقوم الحجة على الناس، والله يعلم من يزيغ ومن يثبت قبل تحويل القبلة، وقبل أن يخلق العباد أصلاً، فشرع تحويل القبلة؛ ليتحقق علمه في الواقع، ويظهر للناس.

﴿مَنْ يَتَّبِعْ أَرْسُولَ﴾ في التوجه إلى القبلة الجديدة ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ فيرجع كافراً مرتداً شاكاً في الدين، فيتميز أهل اليقين من أهل الشرك والريبة، ويظهر حال من يتبع ويطيع ممن يزيغ وينقلب.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: هذه التولية، وهي: صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة على النفوس، ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾؛ فإنها يسيرة خفيفة؛ لتوفيق الله لهم باتباع رسول الله ﷺ، وتثبيتهم على الإيمان.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ﴾ أي: يذهبه سُدى، ويتركه بدون جزاء ﴿إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم نحو بيت المقدس، وتصديقكم بالقبلة الأولى.

فسمى الله الصلاة (إيماناً)، وهذا يدل على أن العمل من صميم الإيمان.

ولعل من مكّر اليهود: أنهم لما اغتاضوا من تحويل القبلة؛ صاروا يقولون للمسلمين: إن الذين صلّوا منكم إلى القبلة الأولى، وماتوا قبل التحويل إلى القبلة الثانية، ضاعت صلاتهم، وليس لهم ثواب عليها! فجاءت الآية ردّاً عليهم.

وقد صحّ في سبب نزول هذه الآية: عن البراء رضي الله عنه، «أنه مات على القبلة قبل أن تحوّل رجالٌ وقُتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾».

﴿إِنَّكَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ﴾ أي: كثير الرأفة ﴿رَحِيمٌ﴾ كثير الرحمة، فلا يمكن أن يضيع إيمان من آمن، وثواب من عمل صالحاً.

و(الرحمة) أعمُّ من (الرأفة) - كما قال بعضهم -؛ لأنَّ الرأفة تختصُّ بدفع المكروه وإزالة الضرر، والرحمة تشمل - بالإضافة إلى ذلك - جلب المنفعة، وتحقيق المصلحة، والتفضلُّ بالنعم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حَسَدَ الْيَهُودَ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَمِنْ ذَلِكَ: حَسَدُهُمْ لَنَا عَلَى هَذِهِ الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا.

وفيها: أَنَّ الشَّاهِدَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا، أَي: مُسْتَقِيمًا عَلَى دِينِ اللَّهِ.

وفيها: وَجُوبُ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٤)

صَحَّ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحِبًّا أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ»^(١).
وقوله ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: حَقًّا نَرَى تَحَوُّلَ وَجْهِكَ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَرَدُّدَ نَظَرِكَ فِيهَا، طَالِبًا قِبْلَةَ تَتَمَنَّاهَا.

ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَرْجُو - وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ - أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، وَلِأَنَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى اسْتِجَابَةِ الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ. وَلِإِذَا فِي ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ مَخَالَفَةِ الْيَهُودِ، وَلَكِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كِمَالِ أَدْبِهِ مَعَ رَبِّهِ انْتَظَرَ وَلَمْ يَسْأَلْ، فَحَقَّقَ اللَّهُ رَجَاءَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي: فَلَنُوجِّهَنَّكَ، وَلَنُحَوِّلَنَّكَ إِلَى ﴿قِبْلَةٍ تَرْضَاهَا﴾ أي: تُحِبُّهَا، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا.

(١) رواه البخاري (٣٩٩).

قال أبو العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وذلك أَنَّ الكعبة كانت أَحَبَّ الْقِبْلَتَيْنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ، وَكَانَ يَهْوَى الْكَعْبَةَ، فَوَلَّاهُ اللَّهُ قِبْلَةً كَانَ يَهْوَاهَا وَيَرْضَاهَا»^(١).

﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ﴾ أي: استقبل بوجهك، ويبدنك أيضًا ﴿شَطْرَ﴾ أي: جهة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: تلقاء الكعبة، فيستقبل ذات الكعبة وعينها إذا كان قريبًا منها، وجهتها إذا كان بعيدًا عنها.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾: في أي جهة من جهات الأرض، برًا أو بحرًا أو جَوًّا؛ ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: فاصرفوا وجوهكم جهة الكعبة.

ولا يُستثنى من هذا شيء سوى: النافلة على الراحلة في السفر، وحال الالتحام في القتال مع الأعداء، ومطاردة العدو والهرب منه، في صلاة الطالب والمطلوب.

وكذلك مَنْ جاز له الاجتهاد في معرفة جهة القبلة فأخطأ، فصلَّى إلى غير جهتها؛ لا تجب عليه الإعادة.

وكذا مَنْ صَلَّى داخل الكعبة؛ صلى إلى أي جهة شاء.

وَمَنْ عَجَزَ عَنْ اسْتِقْبَالِهَا لِحَالٍ مَرَضٍ، أَوْ تَوَثُّقٍ بِقَيْدٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِ الْعَجْزِ عَنِ الاسْتِقْبَالِ؛ صَلَّى عَلَى حَسَبِ حَالِهِ.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مِنْ قَبْلِكُمْ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: استقبال المسجد الحرام بعد بيت المقدس ﴿الْحَقُّ﴾ الأمر الثابت، والحكم العادل، والخبر الصادق ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ممَّا أوحاه الله إلى أنبيائهم، وما وجدوه في كتبهم، من صفة نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخبره، وأنه يصلي إلى القِبْلَتَيْنِ، وأنَّ آخرهما الكعبة.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ﴾ (الغفلة): هي اللهُو والسَّهْو عن الشيء - تعالى الله عن ذلك - ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عن أي عمل يعملونه، بجوارحهم أو بقلوبهم، وما قاموا به من التكذيب والتشكيك والكتمان، وسيجازيهم عليه. وهذا تهديد لهم بالعقاب.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/٢٥٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات صفة (الرؤية) لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أَنَّ النظر إلى السماء قد يكون عبادة، كما لو كانَ لتمييز القبلة، أو للتفكر في خلق السماء، أو التماس الفرَج من الله.

وفيها: أدبُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ربِّه؛ حيث إنَّه لم يسأله تغيير القبلة ولكنه انتظر الوحي.

وفيها: أَنَّ الوجه أشرفُ الأعضاء؛ لقوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ﴾.

وفيها: مظهر من مظاهر وَحدة المسلمين، في توجُّههم جميعاً إلى قبلة واحدة.

وفيها: أَنَّ من أسباب كُفر أهل الكتاب: معاندتهم الحقَّ، مع عِلْمهم بأنَّه حقٌّ.

وفيها: دليلٌ لصِحَّة تقسيم صفات الله تعالى إلى: صفات نفى وصفات إثبات، وأنَّ قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ﴾ مثالٌ للصفات المنفية، وهذا كقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن المواضع التي اجتمعت فيها صفةٌ مُثَبِّةٌ وأخرى منفية: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن الفوائد التي تُؤخذ من قصَّة تحويل القبلة أيضًا:

١. اهتمام الصَّحابة بتعليم إخوانهم.
٢. الحرص على نقل العلم.
٣. العمل بخبر الواحد الثقة.
٤. حُجِّيَّة خبر الآحاد؛ فالصَّحابة الذين كانوا يُصَلُّون بمسجد قُبَاء، عندما جاءهم الأمر بتحويل القبلة من شخص عدلٍ؛ نفَّذوا الأمر ولم ينتظروا خبراً آخر.
٥. يطعنُ أعداءُ الله بالقول بالنسخ في الدين.
٦. فقه الصَّحابة، الذين داروا في الصَّلَاة كما هم، حتى استقبلوا جهة الكعبة، وفي هذا سرُّعة امتثال الأمر، والاستجابة له.

٧. من رَأْفَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ: تَثَبُّتِ أَجُورٍ مَنْ نَفَّذُوا الْأَمْرَ الْأَوَّلَ بِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَعَدَمِ تَضْيِيعِهَا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُمْ؛ بَلْ هُمْ مُمْتَثِلُونَ مُخْلِصُونَ.

٨. كِمَالِ إِيْمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا اسْتَمَرَّ عَلَى تَنْفِيزِ الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيَّ غَيْرَهُ.

٩. عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْمَلَ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَلَوْ خَالَفَ هَوَاهُ.

١٠. السَّفَاهَةُ فِي الدِّينِ أَسْوَأُ مِنَ السَّفَاهَةِ فِي الْمَالِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الشَّخْصُ ذَكِيًّا فِي التَّصَرُّفِ فِي الْمَالِ، لَكِنَّهُ سَفِيهٌ فِي أُمُورِ الدِّينِ - كَالْيَهُودِ -.

١١. شَفَقَةُ الصَّحَابَةِ عَلَى إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، وَسُؤَالِهِمْ عَنْ حَالِهِمْ، وَاهْتِمَامِهِمْ بِأَمْرِهِمْ.

١٢. فِي فَرَحِ أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ فِي قِبْلَتِهِمْ قَبْلَ تَحْوِيلِهَا؛ تَأْكِيدٌ عَلَى أَهْمِيَّةِ مَخَالَفَةِ الْكُفَّارِ، وَعَدَمِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ.

١٣. تَزْوِيدُ الدُّعَاةِ بِالْحُجَجِ، وَإِعْلَامُ الْمُسْلِمِ بِمَا يُتَوَقَّعُ لِيَكُونَ مُسْتَعِدًّا لَهُ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: وَصِيَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَاحِبِهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...» الْحَدِيثُ (١).

١٤. الْاِحْتِجَاجُ بِمَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنْ سَأَلَ: لِمَاذَا شَرَعَ اللَّهُ كَذَا؟ وَلِمَاذَا أَمَرَ بِكَذَا؟ فَيُقَالُ لَهُ: رَبُّكَ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ، وَيَفْعَلُ مَا يَرِيدُ.

١٥. عَلَى الدُّعَاةِ وَالْعُلَمَاءِ اسْتِخْدَامُ الْأَسَالِيبِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي الرَّدِّودِ عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَالِدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ.

١٦. مِنْ أَشَدِّ مَا يَغِيظُ أَعْدَاءَ اللَّهِ: اجْتِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، كاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْقِبْلَةِ، وَالتَّأْمِينِ، وَصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَالْجُمُعَةِ، وَالْعِيدَيْنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

١٧. مِنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ، بهدائيتهم وتثبيتهم على الحق، بخلاف غيرهم من المنافقين وأهل الشك والارتياب.

١٨. نَسَخَ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ يَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا وَتَثْبِيئًا، ويزيد المنافقين شكًا وارتيابًا، فإذا كان في القلب إيمانٌ استقبل الحكم الجديد بالاستسلام والامثال، وإذا كان في القلب مرضٌ استقبل الحكم الجديد بالاعتراض والارتياب والرفض والتشكيك.

١٩. أَهْمِيَّةُ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، والتأسي بأفعاله وأقواله.

٢٠. خطورة وعظم شأن الثبات على الدين، وأنه لا يُرْزَقُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَثَبَّتَهُ وَأَعَانَهُ.

٢١. ابتلاء الله للعباد بالأحكام والشرائع.

٢٢. الحذر من حملات تشكيك أعداء الدين في أحكام الإسلام؛ فقد يتأثر بها بعض ضُعفاء الإيمان، فيزيغون ويسقطون.

٢٣. الحكم الواحد قد يكون ثقیلاً على قوم، خفيفاً على آخرين، بحسب حال كل من الطرفين.

٢٤. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ أَهْلَ الْإِيمَانِ قُوَّةً تُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ تَنْفِيزَ أَمْرِهِ، فيصبح عليهم سهلاً ميسوراً، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-٧].

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ ۖ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَوْلَهُمْ ۖ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَوْلَ بَعْضٍ ۖ وَلَيْنَ أَتْبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۖ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٥)

ثم أخبر تعالى عن مزيد من كفر اليهود ومُعادنتهم، بأنه لو أُقيمت عليهم كل الأدلة على نبوة محمد ﷺ وصحة ما جاء به؛ فلن يتبعوه، ولن يسلموا له.

فقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ﴾ أي: جئت ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي: مصطحباً كل حجة ودليل وعلامة تدل على صدقك؛ ﴿مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ﴾ أي: الكعبة، ولا دخلوا في دينك؛ لعنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿بِتَابِعِ قِبَلَتَهُمْ﴾.

فيه: بيان استحالة اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدين أهل الكتاب وقبيلتهم، وفي هذا قَطْعٌ لأطماعهم في استمالته.

والنفي في قوله ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يحمل معنى النهي؛ أي: ينهى الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين عن اتباع قبيلة اليهود والنصارى، ويطلب منهم الدوام والاستمرار بالبقاء على القبلة التي وجههم الله إليها.

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿بِتَابِعِ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾ أي: لن يتبع اليهود قبلة النصارى - وهي مطلع الشمس - ولن يتبع النصارى قبلة اليهود - وهي بيت المقدس -.

﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ﴾: هذا يحمل معنى القَسَم، وتقدير الكلام: «وَعَزَّيْ وَجَلَالِي، لَنْ أَتَّبَعْتُ يا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ما يشتهونه ويميلون إليه ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الوحي بدين الإسلام، وتحويل القبلة إلى الكعبة؛ ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم، المعتدين على حُكْمِ رَبِّهِمْ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ فيها تهديدًا عظيمًا، وزجرًا بليغًا، للمتبعين للهوى، فإذا خاطب الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو أحبُّ الخلق إليه - بهذا الأسلوب الشديد، مع كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المحال أن يتبع أهواءهم؛ فكيف بمن هو دونه ممن يتبعون الأهواء والبدع والضلالات؟

وفي الآية: حِرْصُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هداية أهل الكتاب.

وفيها: أهمية عدم صرف الداعية وقته فيما لا فائدة من ورائه، وحتى لا يُصاب بالإحباط.

وفيها: أَنَّ الكُفْرَ لو كان عن جهل أو شبهة؛ فَيُرْجَى زواله بالعلم والبيان، ولكن إذا كان كُفْرَ عناد واستكبار؛ فليس لزواله رجاء، إلا أن يشاء الله.

وفيها: أَنَّ اليهود لن يَنْصَرُّوا، وَأَنَّ النصارى لن يَتَّهَدُوا، إلى قيام الساعة.

وفيها: وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت دلائله.

وفيها: بيان استحالة خروج النبي ﷺ عن شريعة الإسلام.
وفيها: تحريم اتباع اليهود والنصارى في شرائع دينهم، وحرمة التشبه بهم.
وفيها: أنَّ الإنسان لا يؤخذ إلا بعد قيام الحجة عليه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٥٦):

ولما ذكر تعالى أنَّ أهل الكتاب كفروا بالنبي ﷺ وبالقرآن وبالقبلة - وهي الكعبة - وهم يعلمون أنَّه الحقُّ من ربِّهم؛ زاد ذلك تأكيداً بأنَّهم يعرفونه حقاً لا شك فيه عندهم ولا مِرية، كما يعرف الواحد ولده، ويميزه من بين سائر أبناء الناس.

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: أعطيناهم عِلْمَ التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: يعرفون محمداً ﷺ بأنَّه نبيُّ الله، معرفة جليَّة واضحة، ويميزونه عن غيره، وكذلك يعرفون القرآن، وأنَّ البيت الحرام هو القبلة.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: الذين من صلبهم، لا يلتبسون عليهم بغيرهم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ﴾ أي: جماعة من أهل الكتاب، وهم: علماءهم وأخبارهم ﴿الْحَقَّ﴾ ليخفونه، ولا يُبدونه، ويتواصون بذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: كتبهم الحقُّ عن عِلْم، وليس عن جهل، فهُمْ يعلمون أنَّه من عند الله، ويعلمون تحريم كتمانهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبي ﷺ معروفٌ عند أهل الكتاب معرفة تامَّة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي الآية: أنَّه لا عذر لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة نبيِّنا ﷺ.

وفيها: العَدْلُ مع أهل الكتاب؛ فإنَّ الذين يكتُمون طائفة منهم، وقد يوجد منهم - على قُلَّتْهم - مَنْ لا يكتُم، كعبدِ الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والنجاشي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٥٧):

ثم أخبر تعالى بأن ما أنزله على النبي ﷺ، هو الحق الذي لا مِرية فيه ولا شك؛ فقال
عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: الذي أنت عليه، وأوحى إليك، مما كتّمه هؤلاء، وكذبوا به،
هو من الله حقًا، ومصدره منه عَزَّوَجَلَّ. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ نهي مؤكد ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكّين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَا خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وفيها: تقوية الله تعالى لإيمان نبيه ﷺ وتثبيتته، وهذا ما يجب على الدعاة أن يفعلوه
مع الناس.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى فِي نَفْيِ الشَّكِّ عَنْ نَفْسِهِ، وَاسْتِعْمَالِ مَا يَزِيدُ الْإِيمَانَ
وَالْيَقِينَ مِنَ التَّدْبِيرِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَقِرَاءَةِ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَمَجَالَسَتِهِمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٢٨):

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ﴾ أي: لكل أهل دين، سواء كان حقًا أو باطلاً ﴿وِجْهَةً﴾ أي:
جهة وقبلة يستقبلها؛ فليهودي قبلة، وللنصراني قبلة، وهدي الله هذه الأمة إلى القبلة الحق.
﴿هُوَ مَوْلِيَّهَا﴾ أي: هو تعالى موجه إليها، أو: أَنَّ لِكُلِّ صَاحِبِ مِلَّةٍ قِبْلَةٌ هُوَ مُوجِّهُ نَفْسِهِ
إِلَيْهَا.

وقوله ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: بادروا إلى الطاعات، وسارعوا في الأعمال الصالحة،
وتسابقوا فيها، وقوموا بها وافعلوها، من التوجه إلى القبلة وغير ذلك.

﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا﴾ في أي مكان تكونوا، من بر أو بحر أو جو، تفرقت أجزاءكم أو
اجتمعت؛ ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يبعثكم خلقًا كاملاً، ويحشركم يوم القيامة؛
ليجازيكم على أعمالكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أرادَه وشاءَه، من جمْعِكُم وغيره ﴿قَدِيرٌ﴾ عليه، وعلى البعث بعد الموت، والإثابة على الطاعة، والعقاب للمسيء، وغير ذلك ممَّا أراد، يَقْدِرُ عليه بلا عَجْزٍ سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن توجيه العباد للأُمُور الحِسِّيَّة والمعنويَّة هو من الله، سواء كان في أديانهم، أو قبلاَّتِهم، أو حِرَفِهم وأعمالهم، أو آرائهم ونظرياتهم، أو مجالات طاعاتهم وأنواع قُرْبائهم.

وفيها: أن الإيمان بالبعث والنشور يدفع للتسابق في الخيرات.

وفيها: أن التسابق في الخيرات لا بأس أن يكون بحَسَب ميول النفس في مجالات الطاعات؛ فهذا يجتهد في العِلْم، وآخر يجتهد في الجهاد، وثالث يجتهد في العبادة، ورابع يجتهد في الدَّعوة وإنكار المنكر، وهكذا، مع قيام الجميع بفعل الواجب وترك المحظور.

وفيها: إحاطة الله تعالى بخَلْقِه أينما كانوا.

وفيها: أن من الحِكْمة بذل الجهد، والعمل في الباب الذي يفتحه الرَّبُّ تعالى للعبد، ويهيئه ويسره له، ويوجِّهه إليه.

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩):

وقوله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكلِّ مسلمٍ. والمعنى: من أيِّ موضع خرجت في أسفارك ومغازيك، من المنازل القريبة والبعيدة؛ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أي: في الصَّلَاة ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جهته.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا التوجُّه شَطْرَ المسجد الحرام ﴿لَلْحَقُّ﴾ أي: هو حقيقة الأمر الموافق للحِكْمة، الثابت ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: الصادر من الله، المُنَزَّلُ حُكْمُه من عند الله.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يا أيُّها المسلمون، من عباداتكم؛ فيثيبكم عليها.

ويا أيُّها الكُفَّار: ليس الله بغافل عن شرِّكم، وظُلْمكم، وعداوتكم للمسلمين، وإثارتكم للشُّبهات، وسوف يجازيكم بما تستحقُّون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأكيد حرمة المسجد الحرام.

وفيها: وجوب التوجه إلى القبلة حيثما كان الإنسان.

وفيها: أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة هو حق ليس بباطل، وأنه من عند الله، وليس رأياً ولا اجتهداً من البشر.

وفيها: إشارة للإشارة بفتح مكة، وانتشار الإسلام في الأرض.

وفيها: إضافة العمل والكسب إلى الإنسان - من خير أو شر - وأن العبد ليس مجبوراً على فعله، وكذلك ليس مستقلاً عن إرادة الله؛ فللعبد إرادة واختيار يحاسب عليها، وما أَرَادَهُ واختاره فهو مكتوبٌ وواقعٌ بأمر الله ومشيئته.

﴿وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ يَفْعَلِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

تكرر الأمر باستقبال المسجد الحرام في هذه الآيات ثلاث مرات؛ فقال بعض العلماء: إنه للتأكيد؛ لأنه أول نسخ وقع في الإسلام.

وقيل: التكرار لاختلاف الأحوال؛ فأمرٌ لمشاهيد الكعبة، وأمرٌ لمن هو في مكة، وأمرٌ لمن هو في بقية البلدان، وأمرٌ لمن خرج في الأسفار. وقيل: غير ذلك^(١).

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: في أي مكان كنتم - يا أمة محمد ﷺ - من الأرض، مقيمين أو مسافرين، في برٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ؛ ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾: توجهوا إلى المسجد الحرام. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي: اليهود وغيرهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي: أيتها الأمة المحمدية ﴿حُجَّةٌ﴾ أي: مجادلة ومعارضة، وشيء يحتجون به بالباطل.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص الدمشقي (٣/ ٦٥)، تفسير القرطبي (٢/ ١٦٨)، تفسير الخازن (١/ ١٢٤)، تفسير النيسابوري (١/ ٣٦٧)، مفاتيح الغيب (٤/ ١٢٥).

والمعنى: حولنا قبلتكم - يا أيها المسلمون - من بيت المقدس إلى الكعبة؛ لئلا يحتج اليهود عليكم بأنكم تابعون لهم في القبلة، فانقطع الطريق عليهم في المجادلة؛ لأنه قد صار لكم قبلة مستقلة ومميزة عنهم.

ومن جهة أخرى: فإن تحويل القبلة منع المشركين - ومنهم كفار قريش - من الاحتجاج على النبي صلى الله عليه وسلم، عندما كانوا يقولون: لماذا ترك قبلة أبيه إبراهيم؟ فلما صار تحويل القبلة جهة الكعبة؛ انقطعت حججهم أيضاً؛ فلم يعودوا قادرين على ادعاء اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ملة أبيه إبراهيم عليه السلام، ثم يخالف قبلته.

ولما سُدَّ الطريق على الأعداء في استعمال الحجج؛ لم يبقَ إلا المعاندون والمكابرون الذين ليس عندهم حجة أصلاً؛ ولذلك قال الله عنهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فبقي هنالك من يقول من الأعداء المعاندين: ترك بيت المقدس واتجه إلى الكعبة؛ حينئذ إلى بلده، ومحبة لقومه!

وهؤلاء المعاندون - أصحاب الأقوال التافهة - لا يضرون المسلمين شيئاً، ولذلك نهانا الله عن خشيتهم، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: مهما استعملوا من زخارف القول والظلم في الكلام، ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾ أي: احذروا عقابي، ولا تخالفوا أمري. و(الخشية): خوف من عظيم، مقرون بالعلم^(١).

﴿وَلَا تَمْنَحْهُمْ عَيْتَكُمْ﴾ (إتمام) الشيء: بلوغ غايته وكماله. والمعنى: شرعنا لكم استقبال البيت العتيق؛ لإتمام نعمة الهداية عليكم إلى القبلة الأعظم والأكرم، ولننعم عليكم بقطع حجج الأعداء.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى مزيد من العلم والعمل الصالح والعبادة، جهة هذه القبلة التي هديناكم إليها، وضل عنها غيركم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تكرار الأمر المُهم؛ لتبينه والثبات عليه، ودفع الشبهة المثارة حوله.

وفيها: تأكيد حرمة المسجد الحرام.

(١) انظر: مدارج السالكين (١/٥١٣).

وفيها: وجوب التوجُّه إلى القِبلة حيثما كان المصلِّي.

وفي الآية: أَنَّ النِّعَمَ من عند الله لا من غيره؛ ولذلك أضاف النِّعْمَةَ إلى نفسه؛ فقال: ﴿نِعْمَتِي﴾.

وفيها: إشارة للإشارة بفتح مكة، وانتشار الإسلام في الأرض.

وفيها: دفاع الله عن المؤمنين وكُتِبَ الظالمين.

وفيها: بيان أَنَّ من الحُجَج ما هو داحض وباطل.

وفيها: أَنَّ على المسلم أن يعمل بشريعة الله، ولا يخاف في ذلك لومة لائم.

وفيها: أَنَّ تنفيذ أوامر الله وخشيته من أسباب الهداية.

وفيها: أَنَّ أحكام الله وشرَّعه فيها مصالح عظيمة للمسلمين، وقد ذَكَرَ الله تعالى في الآية ثلاث عِلَل في تحويل القِبلة، كلها لمصلحة المسلمين، وهي: ﴿لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، ﴿وَلَا تُنِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١).

ولمَّا ذكر تعالى نِعَمه على المؤمنين في تحويل القِبلة، ذَكَرَهم بنِعَمته عليهم في إرسال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم وفيهم؛ فقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾. يعنى: من أنفسكم، تعرفون نسبته وحاله، فهو مفخرة لهم؛ ولذلك عظُمت به المِنَّة عليهم. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾: يقرؤها عليهم، بما اشتملت عليه من الحِكَم والأحكام، مع كونه أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، فتكون معجزته فيهم ظاهرة، وهي أيضًا باقية. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهِّركم من الشُّرك والمعاصي، ويحملكُم على محاسن الأخلاق، ويُنمِّي فيكم الخصال الحسنة، والأفعال الجميلة.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ويبيِّن معانيه لكم. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي السُّنَّة والفقہ في الدِّين، ووَضَعَ الأشياء في مواضعها.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أموراً لم تكونوا عالمين بها قبل بعثته إليكم. وهذا يشمل: أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، وشيئاً من حوادث المستقبل، وتفصيل أمور الآخرة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ على المسلمين من الواجب في فهم الدين، وتعليمه، ونشره، والدعوة إليه، أكثر ممَّا على غيرهم.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية ألا يكتفي بسرد المعلومات؛ وإنَّما يجب أيضاً أن يبيِّن المعنى، ويعمل على تزكية نفوس الناس.

وفيها: أنَّ زوال الجهل نعمة؛ لقوله تعالى -مُتَنِّيًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ-: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢):

قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: كما أنعمتُ عليكم بإرسال هذا الرسول، وبغير ذلك من النعم؛ ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أي: باللسان، والقلب، وأفضله: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله، ومحبته، وكثرة ثوابه^(١).

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ ذكراً حقيقياً، يكون رحمة لكم، ونعمة عليكم، وإحساناً إليكم.

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أي: قوموا بشكري. و(الشكر): الثناء على المنعم، ويكون باللسان والقلب والجوارح. ومن ذلك: الاعتراف بالنعمة، ونسبتها إلى المنعم -وهو الله- لا إلى غيره، واستعمالها في طاعته، لا في معصيته. و(اللام) في قوله ﴿لِي﴾ للاختصاص، أي: اجعلوا شُكْرَكُمْ مختصاً بالله.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي: لا تجحدوا نعمتي عليكم؛ بل اعترفوا بها وأعلنوها.

وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ نَسِيَ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَطِيعَ رَبَّهُ وَلَا يَعْصِيهِ، وَيَذْكُرَهُ وَلَا يَنْسَاهُ، وَيَشْكُرَهُ وَلَا يَكْفُرَهُ.

(١) انظر: الفوائد لابن القيم (ص ١٢٨)، تفسير السعدي (ص ٧٤).

وفي الآيتين من الفوائد:

نِعْمَةُ اللَّهِ الْعَظِيمَةُ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي عَرَّفَنَا كَيْفَ نَعْبُدُ رَبَّنَا.
وفيها: أَنَّ مِنَّةَ اللَّهِ عَلَى قُرَيْشٍ - ثُمَّ الْعَرَبِ - أَعْظَمُ مِنْ مِثَّتِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ فَعَلَيْهِمْ مِنَ الشُّكْرِ أَكْثَرُ مِمَّا عَلَى غَيْرِهِمْ.

وفي الآية: وَجوبِ ذِكْرَ اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ مِنْهُ مَا يَكُونُ وَاجِبًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُسْتَحَبًّا.

وفيها: أَنَّ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى حَصَلَتْ لَهُ مَنَقِبَةٌ عَظِيمَةٌ، أَلَا وَهِيَ ذِكْرُ اللَّهِ لَهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١).

وقد صحَّ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ حِينَ يَذْكُرُنِي رَبِّي»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: «إِنْ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فَإِذَا ذَكَرْتُ اللَّهَ ذَكَرَنِي»^(٢).

وفي الآية: أَنَّ مَعْرِفَةَ النُّعْمِ تَدْفِعُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الشُّكْرِ؛ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي التَّعَرُّفُ عَلَيْهَا وَاسْتِحْضَارُهَا.

وفيها: الْإِخْلَاصُ فِي شُكْرِ النُّعْمَةِ، بِأَنْ يُوَجَّهَ الشُّكْرُ إِلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٣):

وَلَمَّا أَمَرَ تَعَالَى بِالشُّكْرِ - وَهُوَ نَصْفُ الْإِيمَانِ - أَمَرَ بِالصَّبْرِ - وَهُوَ نَصْفُهُ الْآخَرُ -؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وَالْكَلَامُ إِذَا بَدَأَ بِالنَّدَاءِ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ.

﴿اسْتَعِينُوا﴾ أَي: اطْلُبُوا الْعَوْنَ مِنَ اللَّهِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ. وَالصَّبْرُ مَرٌّ، وَلَكِنْ عَاقِبَتُهُ حَمِيدَةٌ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ: صَبْرُ اللَّهِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَصَبْرُ اللَّهِ بِالْامْتِنَاعِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَصَبْرُ لَه عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٠٦/٧).

والصَّلَاةُ داخلَةٌ في الصَّبْرِ؛ لأنَّها صَبْرٌ على طاعة الله، وقد أرشد تعالى هنا إلى أنَّ أجودَ ما يُستعان به على المصائب هو: الصَّبْرُ والصَّلَاةُ، و«كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»^(١). ثم ذكر تعالى معيَّته للمصابرين؛ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وهذه معيَّةُ إعانة وتأييد. وقد عمل الصَّحابة بهذه الآيات:

فلَمَّا نُعِيَ إلى ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه أخوه قُتِمَ وهو في سفر، استرجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأنَاخَ راحلته وصَلَّى ركعتين، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية^(٢).

ولَمَّا غُشِيَ على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه غشية، حتى ظنَّ أنَّه فاضت نفسه فيها، خرجت امرأته أمُّ كلثوم - وكانت من المهاجرات الأوائل - إلى المسجد، تستعين بها أمرت أن تستعين به من الصَّبْرِ والصَّلَاةِ^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذكر معيَّة الله الخاصَّة للمؤمنين، وهي معيَّة النصر والتأييد، وهي غير معيَّة العِلْم والإحاطة، العامَّة لجميع الخلق.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

ولَمَّا قُتِلَ بعض المسلمين في سبيل الله، ووصفَهم بعض الناس بأنَّهم أموات؛ نبَّه الله تعالى بأنَّهم ولو ماتوا، فهم ليسوا كسائر الأموات؛ وإنَّما لهم حياة خاصَّة، في غاية من النِّعَم، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها الناس ﴿لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو: الذي يُقَاتِلُ لتكون كلمة الله هي العليا ﴿أَمُوتَ﴾؛ فليسوا كسائر الأموات، ولو فارقت أرواحُهم أجسادَهم. ﴿بَلْ

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) شعب الإيمان (١١٤/٧).

(٣) جامع معمر بن راشد (٣٠٨/٢).

أَحْيَاءٌ ﴿١﴾ أَي: لهم حياة خاصة؛ فمنهم مَنْ أرواحهم في جَوْف طير خُضِر، لها قناديل معلقة بالعرش، تَسْرَح من الجنة حيث شاءت^(١)، ومنهم مَنْ رُوحه بنهر يُسَمَّى «بارق» عند باب الجنة^(٢) - كما ثبت في الأحاديث الصحيحة - وهذا يختلف باختلاف مراتبهم في الجنة.

وحياتهم هذه حياة بَرَزَخِيَّة، في عالم الغيب الذي لا يعلمه إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بحياتهم، ولا تُدْرِكُون ما هم فيه من النعيم والكرامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهي عن وَصْف مَنْ قُتِلَ في سبيل الله بـ (الميت).

وفيها: التنبيه على الإخلاص في القتال.

وفيها: إثبات حياة الشهداء.

وفيها: إثبات الحياة في البرزخ، بين الدنيا والآخرة.

وفيها: إثبات نعيم القبر والبرزخ.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّعَرُّتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴿١٥٧﴾:

ولمَّا أمر تعالى عباده بالاستعانة بالصَّبر والصَّلاة عند المصائب؛ ذكر أنواع هذه المصائب، ومزِيدًا ممَّا يقال عندها؛ فقال:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: أقسم تعالى بأنَّه يَختَبِرنا ويمتحننا؛ لِيُظْهَرَ الصَّابِرُونَ وليتميَّزُوا عن غيرهم.

وذكر خمس مصائب، نفسية وبدنية ومالية؛ فقال: ﴿بَشِيرٍ﴾ أي: بقليل، ومن رحمته تعالى أَنَّهُ لَا يَأْخُذ كُلَّ مَا عِنْد الْبَشَر؛ بل يترك لهم الأكثر.

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٠)، وابن حبان (٤٦٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

﴿مِنَ الْخَوْفِ﴾ أي: الذُّعْر، سواءً كان عامًّا - كعدوٍّ يهدّد البلاد - أو خاصًّا - كالإنسان الذي يُبتلى بِمَنْ يَخِيفُهُ وَيُرَوِّعُهُ - ﴿وَالْجُوعِ﴾ وهو: ما يكون نتيجة خُلُوِّ البطن من الطعام، وله أسباب؛ كقلة الطعام - كالفحط - أو قلة المال الذي يُشترى به، أو مرض يمنع من الأكل. ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي: ذهاب بعضها. و(المال): كل ما يتموِّله الإنسان - من نقود ومتاع وحيوان - ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ والمراد: الأرواح التي تذهب، بالأمراض أو القتل ونحو ذلك، فيفقد الإنسان بها الأصحاب والأقارب والأحباب. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ وهو: ناتج الشجر، الذي يذهب بالكوارث والآفات وعوامل التلف.

وكلُّ هذا وأمثاله، ممَّا يختبر الله به عباده، فَمَنْ صَبَرَ أَثَابَهُ، وَمَنْ قَنَطَ وَتَسَخَّطَ أو اعترض: عاقبه الله إن شاء.

وليس للعبد عند نزول المُصيبة إلا الصَّبْر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: أخبرهم بما يُسرُّهم ممَّا أعددناه لهم من جنَّات النعيم، والثواب العظيم. ثم بيّن تعالى مَنْ هم الصابرون، ثم علّمنا تعالى ماذا نقول عند المُصيبة؛ فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا﴾ أي: حلّت بهم نائبة وشدة؛ ﴿قَالُوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ (اللام) لام المُلك؛ أي: نحن وما عندنا مُلك الله عزَّ وجلَّ، يفعل بنا ما يشاء ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى لقاءه ﴿رَجِعُونَ﴾ أي: صائرون إليه لا إلى غيره، بالبعث والنشور.

وقد ورد في فضل هذه العبارة العظيمة أحاديث صحيحة:

منها: حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾، اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا».

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وفي الحديث: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ،

فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: ماذا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ^(١).

وقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الصابرون، المسترجعون عند المصيبة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أن الله يُثني عليهم في الملأ الأعلى؛ إعلاءً لشأنهم ورفعاً لذكرهم. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يُنعم بها عليهم، ويحسن بها إليهم، و(الصلوات) تدخل في (الرحمة). ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: إلى الحق والصواب، وطريق الجنة والفوز بالثواب.

وقيل: إن الاسترجاع ذكر علمه الله هذه الأمة، لم تعلمه الأمم من قبل؛ وإلا لقاله يعقوب عليه السلام عند فقد ولده يوسف عليه السلام.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

البُشرى للصابرين.

وفيها: انقسام العباد إلى صابر وغير صابر عند المصيبة.

وفيها: إثبات البعث والنشور.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^(١٥٨):

ولما أمر تعالى بذكره وشكره، ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، وأثنى على الصابرين، وكان الحج من الأعمال الشاقة التي فيها بذل المال والبدن، ويحتاج إلى صبر؛ ذكره بعدما تقدم، وأشار إلى بعض أركانه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ﴾. و﴿الصَّفَا﴾: هو الصخر الصلب الأملس، والمقصود به هنا: رأس نهاية جبل أبي قبيس، وهو الحد الأول للمسعى.

﴿وَالْمَرْوَةُ﴾: الحجارة الصغار البيض، وهو هنا: رأس منتهى جبل قعيقعان، وهو الحد المقابل للمسعى^(٢).

(١) رواه الترمذي (١٠٢١)، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (١٤٠٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٦٠/٢)، لسان العرب (٢٥٧/١٥).

﴿مَنْ شَعَرَ بِاللَّهِ﴾ أي: من معالم الدين الظاهرة، والمقصود: أن السَّعي بينهما من أحكام دين الله وعبادته. وإضافة (الشعائر) إلى (الله)؛ لأنه هو الذي شرَّعها وجعلها من دينه، فليست من أمر الجاهليَّة، وإنما هي من عبادة الله.

﴿فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ﴾ أي: قصد الكعبة، بالعبادة المخصوصة المعروفة في الشَّرع، ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أي: زار الكعبة لأداء عبادة العُمرة، المعروفة في الشَّرع؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب ولا إثم على الحاجِّ أو المعتمر ﴿أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ أي: يَسْعَى بينهما.

وسبب هذا البيان من الله: أن أهل الجاهليَّة كانوا قد نصبوا على جبلي الصفا والمروة أوثاناً يعبدونها، ويطوفون بها، فتحرَّج المسلمون من السَّعي بين الجبلين؛ لأجل ما عليها من الأصنام، فنزلت هذه الآية.

وفي «الصحيحين»^(١)، عن عُرْوَةَ، أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾؟ فَوَلَّى اللَّهُ، مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ إِلَّا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ!

قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي! إِنَّ هَذِهِ لَوُ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِلَّا يَطُوفُ بِهِمَا)، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَّةِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ مِنْ أَهْلِ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الْآيَةَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوْفَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوْفَ بَيْنَهُمَا».

وعن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ؛ فَقَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ

الْصَّافَا وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴿١﴾ .
وقوله ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: تبرّع، وزاد على الواجب، فأتى بحجٍّ مستحبٍّ وعُمْرة نافلة، فيهما سعي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: يُثيب العامل أكثر من عمله، ويقبل منه طاعته. ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بِنَيْتِهِ، وَقَدَّرَ جزائه، وقد أحاط بكلِّ شيء عِلْمًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعية الطواف بين الصفا والمروة، والراجح أنه رُكن؛ لقول النبي ﷺ: «اسْعَوْا؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»^(١).

وفيها: أن بدع أهل الجاهلية ومُحدثاتها لا تُلغى شعائر الله.

وفيها: أن التطوع بالعبادة خيرٌ للعبد.

وفي مشروعية الطواف بين الصفا والمروة: تذكيرٌ بسعي هاجر عَليهما السلام بين الجبلين؛ لطلب الماء لولدها، وهى متذللة فقيرة إلى الله. فعلى الساعي بين الجبلين التفكير في فقره وذُلّه، وحاجته إلى ربه في صلاح قلبه وغفران ذنبه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَيِّنَتِهِ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

ثم قال تعالى في أحبار اليهود، ومن فعل مثلهم من هذه الأمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ أي: يُخفون العلم في حال حاجة الناس إليه ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ أي: من الوحي مما جاءت به الرُّسل ﴿مِّنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الآيات الواضحات ﴿وَأَهْدَىٰ﴾ أي: العلم النافع الذي يهدي الخلق إلى ربهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أَوْضَحْنَاهُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعًا - مؤمنهم وكافرهم - ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: جميع الكتب المنزلة من عند الله.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الكاتمون ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يطردهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ أي: من الملائكة، والمؤمنين، والبهاائم، وجميع الخلائق.

(١) رواه البخاري (٤٤٩٦)، ومسلم (١٢٧٨).

(٢) رواه أحمد (٢٧٣٦٧)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٧٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

وَعِيد مَنْ كَتَمَ عِلْمًا، وَأَنَّ ذَنْبَهُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ؛ أَجْتَمَعُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَيَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعِيدُ: إِذَا كَانَ عَنْدهُ عِلْمٌ يَقِينِيٌّ، لَيْسَ بِظَنٍّْ، وَإِذَا احتَاجَ إليه النَّاسُ - سِوَاءَ سَأَلُوا عَنْهُ بِالسِّتْهِمْ، أَوْ احتَاجَ حَالُهُمْ إلى بَيَانِهِ - وَإِذَا قَصَدَ الإِخْفَاءَ، وَإِذَا لم يَوجَدْ غَيْرُهُ يُخْبِرُ بِهِ.

وفيها: إشارَةٌ إلى مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَحْبَارُ الْيَهُودِ مِنْ كَتَمِ الْعِلْمِ، كَصِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحُكْمِ رَجْمِ الزَّانِي الْمُحْصَنِ، وَتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وفي الآية: أَمِيَّةٌ إِبْلَاجُ الْعِلْمِ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَاللَّهِ، لَوْ لَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الرَّجِيمُ﴾»^(٢).

وفيها: أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: التَّبَيُّنُ وَالتَّوْضِيحُ، عَلَى النُّحُوِّ الَّذِي يَفْهَمُهُ عَامَّةُ النَّاسِ.

وفيها: إشارَةٌ إلى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَنزَلْنَا﴾، وَالْإِنزَالُ يَكُونُ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ.

وفيها: خَطَرُ الْمَعَاصِي وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ لَعْنَةِ الْبَهَائِمِ لِلْمُفْسِدِينَ، كَمَا أَنَّهَا تَسْتَغْفَرُ لِلْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

وفيها: أَنَّ مَا احتَاجَ النَّاسُ إلى بَيَانِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ؛ يَجِبُ بَيَانُهُ بِلا مُقَابِلٍ وَلَا أَجْرَةٍ.

وَأَنَّ مَا يَحْصُلُ الضَّرَرُ بِتَعْلِيمِهِ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ يَجُوزُ كَتَمُهُ أَوْ يَجِبُ، مِثْلُ: تَعْلِيمِ الْمُبْتَدِعَةِ

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٠)، ومسلم (٢٤٩٣).

أصولُ المُناظرة، وتعليمُ بعضِ الكُفَّارِ والمنافِقين أمورًا شرعيَّةً يمكن أن يستعملوها في إثارة الشُّبهات، وخداعِ العامة والبسطاء من المسلمين.

ومثل: تعليم الكافر والفاسق ما يمكنه من تولِّي منصب عند المسلمين؛ ليتوصَّل من خلاله إلى الإفساد.

ومثل: نشر الرُّخص للسُّفهاء، الذين يستعملونها في ارتكاب المحظورات.

ومثل: تعليم الظَّلْمَة بعض النصوص الشرعيَّة التي يوردونها في خُطبهم على المسلمين، فيخدعونهم، أو يحتجُّون بها على ظُلْمهم.

ومثل: إخبار بعض الناس بأمور شرعيَّة لا يفهمونها على حقيقتها، فيفتنون بها. ومثله: إخبار المسلم الجديد، أو الراغب في الإسلام، بأمور تصعَّب عليه الإسلام، فيتظنَّ حتى يحسن إسلامه، ثم يُعلِّم تلك الأمور الشرعيَّة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٠):

ولمَّا ذكر تعالى جُرم الذين يكتُمون العِلْم؛ استثنى من ذلك أهل التوبة منهم؛ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: رجعوا من معصية الله إلى طاعته، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم وما بينهم وبين الله، ﴿وَبَيَّنُّوا﴾ أي: فعلوا ضدَّ ما كانوا يعملونه من الذنب، فبيَّنوا بعد الكتمان.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي: الذين قاموا بهذه الأعمال الثلاثة - التوبة، والإصلاح، والبيان - ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقبلُ توبتهم، ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾: كثير التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾: أحسن إليهم بالرحمة، بعد دفع العقوبة عنهم بالتوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كتمان العِلْم يؤدي إلى حصول الفساد، وأنَّ الفساد لا بُدَّ من إصلاحه.

وفيها: معالجة آثار الجريمة، واستدراك ما فات.

ويؤخِّد منها: أنَّ مَنْ نشر باطلاً، أو روج بدعة، أو أعلن كُفراً، فإنَّ من شروط توبته أن يتبرَّأ ممَّا كان يُعلِّنه على رؤوس الأشهاد، وأنَّ يُبيِّن بطلانه؛ لتنبيه مَنْ اغترَّ به، ولإظهار الحق.

ولا يكفي لأصحاب المذاهب الهدامة إذا تابوا أن يجعلوا توبتهم سرًّا، ويسكتوا عما فعلوه؛ فلا بُدَّ من البراءة مما كانوا عليه، وبيان بطلانه، وإعلان الحق.

وفي الآية: إشارة إلى الحمل الثقيل والعبء العظيم الذي يتحمّله العلماء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا، كذبًا أو استكبارًا ﴿وَمَاتُوا﴾ استمروا على الكفر حتى داهمهم الموت ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: على هذه الحالة من الكفر، لم يتوبوا ولم يرجعوا.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾: مطرودون من رحمته، ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ تلعنهم، ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يمقتونهم، ويلعنونهم، ولاسيما يوم القيامة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة والنار. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لحظة ولا طرفة عين، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون ولا يؤجلون؛ بل يؤخذون إلى العذاب من حين الموت.

وفي الآيتين من الفوائد:

أن الكافر يستحق اللعنة، وأن هذا مشروطٌ ببقائه على الكفر حتى الموت.

ولذلك فالأحوط عدم لعن الكافر المُعَيَّن؛ لأننا لا ندري على أي شيء يموت. لكن يُشرع لعن جنس أصحاب الكفر والمعصية، فنقول: «لعنة الله على الكافرين»، و«لعنة الله على الظالمين»، ونحو ذلك.

ويجوز لعن من لعنه الله ورسوله، وجاء الخبر من الوحي بموته على الكفر بعينه، كإبليس، وفرعون، وأبي جهل، ونحوهم.

وفي الآية: أن الكافر يلعنه الكافر، وقد قال تعالى عن أهل النار: ﴿كَلَّمَادَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٣):

قوله تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ﴾ أيها الناس ﴿إِلَهٌ﴾ أي: مألوه، ومعناه: المعبود حُبًّا وتعظيمًا. ﴿وَجِدٌ﴾: لا شريك له في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

وفي هذا: ردٌّ على المشركين الذين كانوا يعبدون أصنامًا كثيرة، ويقولون: كيف يسع الناس إلهًا واحدًا؟

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبود بحق إلا هو، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿الرَّحِيمُ﴾: الذي يُوصِل رحمته إلى خلقه. وله رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

وقد جاء في حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «اسمُ الله الأعظمُ في هاتين الآيتين: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وفاتحة آل عمران ﴿إِنَّمَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» (١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٦):

ولما ذكر تعالى تفرُّده بالألوهية؛ ذكر دلائل على وحدانيته، لتكون بُرْهَانًا؛ فقد ورد عن أبي الضحى رحمه الله قال: «لما نزلت ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَجِدٌ﴾؛ قال المشركون: إنَّ كان هذا هكذا فليأتنا بآية؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾» (٢).

(١) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٦٩/٣).

فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ أي: إيجاد ﴿السَّمَكَاتِ﴾: جمع (سماء)، ومن آياته فيها: أنه ابتدَعَهَا على غير مثال سابق، وجعل لها سَمَكًا (سقفًا) وأبوابًا وسُكَّانًا وحرَسًا، وزَيَّنَّهَا بالنجوم، ورفعها بغير أعمدة.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ في خَلْقِهَا على غير مثال سابق، وفي مَدَّهَا وبَسَطَهَا، وما فيها من الجبال والبحار والأشجار والمعادن والدواب، وغير ذلك من المنافع المُعَدَّة لسُكَّانِهَا.

﴿وَاخْتَلَفَ أَلْوَانُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في الطول والقصر، والزيادة والنقصان، والنور والظلمة، وتعاقبهما، وطلب أحدهما للآخر حيثما، وما يحصل فيهما من الحوادث التي لا يعلمها إلا الله.

﴿وَالْفُلُوكِ﴾ أي: السُّفُنِ ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ أي: تسير طافية ولا تغرق. ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: من الأمتعة والأرزاق والتجارات، فلو لم يجعل الله قانونًا للطفوف؛ لتعطَّلت أكثر تجارات الناس؛ فالسُّحْنُ الْبَحْرِي هو الأكثر شيوعًا في العالم في نقل السِّلَع، ومنها النُّفُط. ومهما كانت الناقلات والحاويات ضخمة؛ فهي تسير بأمر الله فوق الماء ولا تغرق، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن آيات الوجدانية أيضًا: ما ينزل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من جهة العلو. ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: المطر، فيجتمع في السَّحَاب، ويتكثف فيها، وينزله الله بقَدَرٍ ليحصل الانتفاع. ﴿فَأَنْحَسَ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿الْأَرْضَ﴾ أي: النبات الذي في الأرض ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد أن كانت يابسة هامدة، مُجْدِبَةً، فتصبح مُخْضِرَّةً.

وقد جاء في حديث أبي رزِين العُقَيْلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ فَقَالَ: «أَمَّا مَرَزَتْ بِوَادٍ مُمَجِّلٍ، ثُمَّ مَرَزَتْ بِهِ خِصْبًا - وفي رواية: ثُمَّ مَرَّ بِهِ خَضِرًا -؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى»^(١)، و(الوادي المُمَجِّل) أي: المُجْدِب.

ففي إنزال المطر من السماء رحمة وحكمة، وآية على قُدرة الله تعالى على بَعثِ الْعِبَادِ بعد الموت.

﴿وَبَشِّرْ﴾ أي: نشر، و﴿فَرِّقْ﴾ أي: في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ وهي: ما يدبُّ

(١) رواه أحمد (١٦١٩٣، ١٦١٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٣٤).

وَيَتَحَرَّكَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، وَهَذَا التَّنَوُّعُ فِي الْخَلْقَةِ وَالشَّكْلِ وَطَرِيقَةِ الْحَرَكَةِ آيَةٌ تُبْهِرُ الْعُقُولَ، شَاهِدَةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى.

﴿وَنَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أي: تنويعها، في اتجاهاتها وشِدَّتِها وَمَنَافِعِها، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، وتجمع السَّحاب، وتُفَرِّقُهُ، وتُسَوِّقُهُ.

﴿وَالسَّحَابِ﴾ سُمِّيَ بذلك؛ لِأَنَّهُ يَنْسَحِبُ انْسِحَابًا فِي الْجَوِّ بِإِذْنِ اللَّهِ. ﴿الْمُسْحَرِ﴾: الْمَذَلُّ لِمَصَالِحِ الْمَخْلُوقِينَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْمِلُ الْمَطَرَ، وَيُظِلُّ النَّاسَ. فِي هَذَا كُلِّهِ ﴿لَا يَكُنْ﴾ أي: دلائل وبراهين عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يَتَفَكَّرُونَ بِعَيْنِ الْعَقْلِ؛ فَيَنْتَفِعُونَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرَّدُّ عَلَى الْفَلَسَفَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَأَزَلِّيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ بَدَايَةٌ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَهُ وَابْتَدَأَهُ.

وفيها: أَنَّ تَنْوُّعَ الْخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ.

وفيها: مَدْحُ الْعَقْلِ الَّذِي يَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى الْحَقِّ.

وفيها: التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ الْإِيمَانَ، وَيَهْدِي إِلَى الرَّحْمَنِ.

وفيها: أَنَّ الْإِزْدِيَادَ مِنَ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ وَآيَاتِهِ؛ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْعَقْلِ، وَيَقُودُ لِمَزِيدِ الْإِيمَانِ.

وفيها: تَنْوِيعُ ذِكْرِ الْآيَاتِ لِيَتَعَطَّ بِهَا أَنْوَاعُ النَّاسِ، عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِ عُقُولِهِمْ.

وفيها: أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ لَا تُدَبِّرُ نَفْسَهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَدَبِّرُ أَمْرَهَا وَشُؤْنَهَا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ٢٦٥:

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْحِيدَ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَذَكَرَ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الشِّرْكِ، وَمِنْهُ: شِرْكُ الْمُحِبَّةِ، وَذَكَرَ عَاقِبَةَ الْمُشْرِكِينَ وَمَصِيرَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ فَقَالَ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: من الكفار والمشرِكين ﴿مَنْ يَتَّخِذُ﴾ أي: يعبد ويجعل ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ غير الله ﴿أَنْدَادًا﴾: أمثالاً وأشباهاً ونظراء، من الأحرار والرؤساء والأصنام والأوثان. فقد كان أهل الكتاب يتخذون أحرارهم ورهبانهم أُنْدَادًا، يُحِلُّونَ لَهُمْ وَيَحْرُمُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وكان المشركون من العرب وغيرهم يتخذون الأصنام والأوثان أُنْدَادًا، يعتمدون عليها في جلب المنفعة، ودفع المضرة.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يُؤَدُّونَهُمْ ويعظمونهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: كحُبِّهم لله، فيسوّون بين أحرارهم وأصنامهم وبين الله في المحبة.

وهذا شرك؛ فلما قال رجل للنبي ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ! قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجْعَلْتَنِي وَاللَّهِ عَدْلًا - وفي رواية: نَدًّا -؟ بَلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(١).

وفي «الصحيحين»، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: المؤمنون يحبون ربهم أشدَّ من حبِّ هؤلاء المشركين للأنداد التي اتخذوها؛ وذلك لأنَّ محبة المؤمنين لربهم خالصة، ومحبة الكفار لربهم فيها شوائب، كما أنَّ محبة المؤمنين لربهم تكون في السراء والضراء، أما المشركون: فينادون ربهم ويلجأون إليه في الضراء دون السراء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، والمعنى: ولو رأى وشاهد الذين ظلموا أنفسهم بالشرك في الدنيا، عذاب الله يوم القيامة؛ لعلموا وأيقنوا أنَّ القوَّةَ لله جميعاً، وأنَّ الله شديد العذاب، وأنَّ الأنداد عاجزة لا تنفع ولا تضر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ليس لله تعالى نِدٌّ في الحقيقة، وأنَّ اتِّخَاذَ المشركين للأنداد مبنيٌّ على تصوُّراتهم

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

الفاسدة واعتقاداتهم الباطلة، بأنَّ الله شبيهاً ونظيراً، وإلا فلا يوجد في الحقيقة لله شبيهة ولا نظير ألبتة.

وفي الآية: بيان شناعة شرك المحبة.

وفيها: أنَّ المحبة أساس العبادة، وأنَّ عبادة الله مبنية على الحبِّ والتعظيم؛ فبالحب يُفعل المأمور، وبالتعظيم يُجتنب المحظور.

وفيها: أنَّ مَنْ جعل لله ندّاً فهو ظالم؛ لقوله: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وفيها: اختصاص الله بالقوَّة يوم القيامة؛ لأنَّ (اللام) في قوله ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ هي لام الاختصاص.

وفيها: أنَّ عِلْمَ اليقين بالآخرة يدفع إلى ترك الشُّرك والمعصية في الدُّنيا.

وفيها: انكشاف أمر المعتقدات الباطلة يوم القيامة، حينما يرى المشركون أنَّ الأنداد التي اتخذوها لا قوَّة لها ألبتة، بل تُجْعَل في النَّار - مع هؤلاء المشركين - إذا كانت جمادات، أو كانت أحياء عُبِدَتْ من دون الله وهي راضية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وفيها: أنَّ مَنْ طُرِق دعوة المشرك: أن يبيِّن له عاقبة الشُّرك الوخيمة، في الدُّنيا والآخرة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٣٧):

ثم أخبر تعالى عن كُفر المشركين بأوثانهم، وتبرُّؤ المتبوعين من أتباعهم؛ فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: ولو يرى الذين ظلموا وأشركوا حالهم، عندما يتبرَّأ الرؤساء من أتباعهم، وهكذا يكون حال رؤساء الكُفر والضلال - كُفِرَ عَوْنٌ وغيره - مع جنوده وأتباعه: يَكُفِّر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً.

وَأَمَّا مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُوَ كَارِهٌ؛ فَإِنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِّنْ عِبَادَتِهِ، لَكِنْ لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَعَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِِنَّا نَاعْبُدُوكَ﴾ [القصص: ٦٣]، وكما يتبرَّأ عيسى مِّنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى - حَاكِياً قَوْلَهُ -: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

والتعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾، مع أنَّ الأمر في المستقبل يوم القيامة؛ لبيان أنَّه واقع لا محالة، فهم يرون العذاب بأعينهم.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، كما ينقطع الحبل بمن تمسك به للنجاة من الغرق. و(السَّبَب): هو ما يتوصل به إلى غيره. فكلُّ علاقة كانت موجودة في الدنيا، وكلُّ سبب كانوا يؤملون أن ينتفعوا به في الآخرة، قد انقطع وزال، وانقلبت المودة عداوة، والعبادة لعنة وبراءة، وانقطعت الأرحام التي كانت في الدنيا فلم تعد تنفع، وتقطعت أسباب الخلاص، فلم يجدوا عن النار مخرجاً ولا مخرجاً.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن رؤساء الضلال لا ينفعون أتباعهم يوم القيامة، بل يتبرأون منهم، ثم يُجمع بينهم في النار؛ زيادة لحسراتهم، حيث يُجمع بين التابع والمتبوع، وجهاً لوجه، في نار جهنم! وفيها: أنَّ جميع الأسباب الباطلة والمحرمة لا تنفع أصحابها يوم القيامة، وكلُّ علاقة لم تكن لله في الدنيا فستزول يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٧٧):

ثم ذكر تعالى جملة من الحوار الذي يكون يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين؛ فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وهم الأتباع: ﴿لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَّا كَرِهْنَا﴾ أي: رجعة وعودة إلى دار الدنيا، ﴿فَنَتَّبِعَهُمْ﴾ أي: حتى نتخلص منهم، ونلزم سبيل الحق في الدنيا، أي: إذا رجعنا إليهم. ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ في هذا اليوم العصيب يوم القيامة، ولكن هذا التمني لا ينفعهم؛ لأنَّ الله قضى ألا رجوع إلى الدنيا، فلم يبقَ لهم إلا الندم والحسرة!

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أراهم شدة عذابه ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ من الشرك والسيئات ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات شديدة، وحزنًا، وخيبة، وخسرانًا. ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ بعد دخولها؛ بل هم فيها خالدون.

وفي هذه الآية من القوائد:

تمني الكفار في الآخرة الرجوع إلى الدنيا.

وفيها: أن خلود الكفار في النار أبدي. وهذا من أدلة بطلان قول من قال بأن النار تنفنى وتزول؛ وذلك لأن خلود الماكث فيها يعنى خلوده مكانه.

وفيها: قدرة الله تعالى أن يقلب المعنوي في الدنيا جسدياً يوم القيامة، كما تصبح أعمال الكفار المعنوية حشراتٍ حسية مرئية، وكما يأتي العمل الصالح في القبر على هيئة رجل جميل المنظر طيب الرائحة، والعكس للكافر والفاجر، وكما يؤتى بالموت يوم القيامة على هيئة كبش أملح، وكما تصبح الأعمال المعنوية كالخسوع والنفاق ذات وزن حسي في كفتي الميزان يوم القيامة.

وفيها: أن من حسرة الكفار يوم القيامة أن يروا أعمال الخير التي عملوها في الدنيا -كبر الوالدين، وإعانة المحتاج، وإطعام الجائع، والمساعدة بالشفاعة والجاه- كلها تذهب وتضمحل، وتصبح سراباً لا يستفيدون منها؛ لأن الأساس فاسدٌ -وهو الشرك- كما قال تعالى فيهم: ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ حَبْكَةً مِّنْ سُورٍ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٨٨)

ولما ذكر تعالى التوحيد ودلائله، والشرك وعاقبته؛ ذكر نعمة على عباده وإحسانه لجميع الخلق؛ فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ المراد: بنو آدم، ويشمل المؤمن والكافر ﴿كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من أصناف الأطعمة التي خلقها الله لكم، ولا تحرّموا منها شيئاً بأهوائكم. ﴿حَلَالًا﴾ أي في حال كونه حلالاً مباحاً. و(الحلال): هو ما أباحه الشرع.

﴿طَيِّبًا﴾ أي: في حال كونه طيباً. و(الطيب): هو ما استطابه الشرع والطبيعة السليمة، وما يُستلذُّ أيضاً. وقيل: هو الطاهر؛ لأن النفس السليمة تكره النجس وتعافه.

وقيل في معنى الآية: الحلال في الكَسْب الطَّيِّب، أي: في ذاته، وهو ضِدُّ الخبيث والرجس.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أي: لا تسلكوا، وتقتدوا بـ ﴿خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾: طُرُقَه، ووساوسه، وأعماله، وهذا يشمل الشُّرك وما دونه، ومن ذلك: تحريم الحلال الطَّيِّب؛ فَإِنَّه من أعظم خُطُواتِ الشَّيْطَانِ. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة. وقد أكَّـد عداوته لنا؛ للتنفير عنه، والتحذير منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إبطال ما كان عليه أهل الجاهليَّة من تحريم الحلال.

وفيها: أنَّ تحريم المباحات هو من القول على الله بغير عِلْم، ومن الكبائر العظيمة؛ لأنَّه اعتداء على حقِّ الله في الحُكم والتحليل والتحريم.

وفي الآية: النهي عن التشبُّه بالشَّيْطَان، ويدخل في ذلك: التشبُّه به في الأكل والشرب، والأخذ والإعطاء بالشَّمال، والمشي في النَّعْل الواحدة -لأنَّها مشية الشَّيْطَان- ونحو ذلك.

ومن خُطُواتِ الشَّيْطَان: ما يَحْمِل عليه بعضُ الناس عند الغضب، من تحريم زوجاتهم، وما أباحه الله لهم -من طعام وغيره-.

وفيها: بيان حقيقة العدوِّ، والتأكيد على عداوته؛ ليُحذَّر منه؛ فالعاقل إذا علم عداوة شخص فلا يمكن أن يتَّبِعَه.

وفيها: أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة، إلَّا ما دلَّ الدليل على تحريمه.

وقد يكون محرَّمًا لذاته -كالمَيْتة فلا تحلُّ إلَّا للمضطر- وقد يكون محرَّمًا لعارض، مثل: ما أُخِذَ بِالْغَضَب والسَّرِقة والرُّبا والغش، فهو محرَّم -وإن كان في الأصل طَيِّبًا- كالحُبْز والماء واللَّبَن ونحوها.

وفي الآية: أنَّه لا يجوز تناول الأشياء الضارَّة، ولو كانت حلالًا، كالتراب.

وفيها: وجوب أكل ما يُبْقِي الإنسان على قيد الحياة.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (١١١):

ثم بيّن تعالى أفعال هذا العدو الشَّيطَانِي، وفَصَّلَ لنا في كَيْفِيَّةِ إفساده؛ فقال:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ أي: الشَّيْطَانُ، والخطاب للناس ﴿بِالسُّوءِ﴾ أي: ما يسوء من المعاصي والسيئات، ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وهي: الكبائر، كالزَّنا والزَّنا، ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ من الكلام في الدِّين والأحكام، بغير عِلْم ولا يقين ولا ظنٍّ غالب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الشَّيْطَان لا يأمر بالخير؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾، ومن ذلك: وسوسته في قلب العبد بالسيئة، فإذا هممتَ بِشَرٍّ فاعلم أنَّه من أوامر الشَّيْطَان.

وفيها: أنَّه لا يجوز الكلام في الأحكام الشرعية بغير عِلْم أو يقين أو ظنٍّ غالب مبني على الاجتهاد السائغ شرعاً. فلا يجوز أن يُنسبَ العبد إلى الله أشياء بمجرد الظنِّ، فيحرَّم ويجوز بدون عِلْم ويقين.

ويدخل في القول على الله بغير عِلْم: الخوض في تفسير القرآن والسُّنَّة بلا عِلْم، وإثبات ما لم يُثبتهُ الله تعالى لنفسه من الأساء والصفات، أو نفي ما أثبتهُ لنفسه من الأساء والصفات. ويدخل في ذلك أيضاً: كلام المنجمين والكُهَّان.

وفيها: أنَّ على المفتي الحذر من الفتوى بغير عِلْم، وأنَّه لا تجوز الفتوى بالظنِّ إلا عند تعذر اليقين، بشرط أن يكون مؤهَّلاً للنظر والاجتهاد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠):

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للكفار، الذين اتَّبَعُوا خطوات الشَّيْطَان: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: اعملوا بما أوحى الله إلى نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عقيدة وقولاً وفعلاً.

ولمَّا كان الأمر بالشَّيْء نهيًا عن ضده؛ كان قوله ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يتضمَّن: تَرْك ما يخالف وحيَ الله، من الشُّرك والضلال وموروثات الجاهلية.

﴿قَالُوا﴾ أي: هؤلاء المشركون، في جوابهم: ﴿بَلْ نَسْبِعُ مَا الْفَرِيقَانِ﴾ أي: لا نتبع وحي الله، بل نتبع ما وجدنا ﴿عَلَيْهِ أَبَاءَنَا﴾ أي: أسلافنا، من عبادة الأصنام وتحريم الطيبات ونحو ذلك.

وقد أبطل الله جوابهم هذا، بقوله ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءُؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويتبعونهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس عندهم عقل رُشد يهديهم إلى الحق، ولا يعلمون ما أنزل إليهم، ولا يعملون عمل المهتدين، فكيف يستحق مثل هؤلاء الاتباع؟!

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه الآية نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ورغبهم فيه؛ وحذرهم عقاب الله ونقمته؛ فقالوا: ﴿بَلْ نَسْبِعُ مَا الْفَرِيقَانِ عَلَيْهِ أَبَاءَنَا﴾؛ فإثمهم كانوا أعلم وخيرًا منا! فأنزل الله هذه الآية ^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

دُمَّ التعصّب للأباء بغير هدى من الله.

ويؤخذ منها: أن من تعصّب لمذهب أو شيخ، مع مخالفة الدليل؛ ففيه شبهة من هؤلاء المذكورين في الآية.

وفيها: أن كل من خالف الحق فليس بعاقل.

والعقل عقلان: عقل إدراك وتدبير المعيشة، وعقل رُشد يُهتدى به للحق. وقد يكون الرجل من الأذكياء، لكن ليس عنده عقل رُشد يهتدي به للحق.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ^(١٧١).

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للكفار، ودعاهم إلى الهدى؛ فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في غيهم وضلالهم وجهلهم ﴿كَمَثَلِ الرَّاعِي﴾ الذي ينعق ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي: يصيح بالبهائم التي لا تفهم ما يقول ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ أي: يقتصر إدراكه على مجرد سماع الصوت، بلا فهم لمعناه. و(الدُّعَاءُ) للقريب، و(النِّدَاءُ) للبعيد.

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٠٥).

فالمعنى: أنَّ مَثَل ما هم فيه من الغي والضلال والجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها، بل إذا نَعَق بها راعيها وصاح بها وزجرها، أي: دعاها إلى ما يُرشدُها؛ لا تفقه ما يقول ولا تفهمه؛ بل إنَّها تسمع صوته فقط.

﴿صُمٌّ﴾: جمع (أَصَمَّ)، وهو الذي لا يسمع. ﴿بُكْمٌ﴾: جمع (أَبْكَمَ)، وهو الذي لا ينطق. ﴿عُمَى﴾: جمع (أَعْمَى)، وهو الذي لا يرى.

فهؤلاء لا يسمعون الحقَّ سماعَ قَبول واستجابة، ولا ينطقون به نطقَ إذعان وقَبول، ولا يرونه رؤيةَ المستجيب الباحث عنه. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يفقهون أمر الله، ولا يتفهمون بعقولهم التي وهبها الله لهم، فصاروا كمن لا عقل له.

وقد ضرب الله تعالى هذا المَثَل للكفار في تقليدهم لأبائهم، وعدم استجابتهم للداعي الذي يدعوهم إلى الحق.

فشبَّههم بالراعي الذي يصيح بغنمه، يدعوها ويناديها، وهي لا تعقل ما يقول، ولا تفهم معناه، وإنَّها تسمع أصواتًا تُقبلُ بها وتُدبر، نتيجة التعويد والترويض، لا نتيجة الفهم والعقل.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٣)

ثم أكَّد تعالى أمره السابق بالأكل من الحلال الطيب، لكنَّه نادى المؤمنين هذه المرَّة؛ فقال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وتصدير الحكم بالنداء - كما تقدَّم مرارًا -؛ يدلُّ على الاهتمام به، واسترعاء انتباه المنادى.

﴿كُلُوا﴾: الأمر للامتنان والإباحة، ويكون للوجوب في حالة حفظ النفس ﴿مِن﴾ وهي هنا لبيان جنس المأكول ﴿طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهو: ما كان حلالًا في ذاته، ومكتسبًا بطريقة شرعية. ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ (الشُّكْر): هو الثناء على المنعم، وقد أمر به هنا بعد ذكر النعمة بالرزق. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم تعبدونه حقًّا، فاشكروه على نعمه. و(العِبادة): هي التذلل لله بالطاعة - مع كمال الحب - بفعل أو امره، واجتناب نواهيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن المؤمن ينتفع بالأكل أكثر من غير المؤمن؛ لأنه يستعين به على طاعة الله.
وفيها: أن الخبائث محرمة؛ لأنه لما أمر بالأكل من الطيبات دل ذلك بالمفهوم على تحريم عكسها - وهي الخبائث -.

وفيها: أن كل ما يحصل للإنسان من مأكل؛ فإنما هو من رزق الله، وليس للعبد فيه إلا السبب فقط.

وفيها: طلب الرزق من الله؛ لأنه هو الذي يرزق.

وفيها: وجوب شكر النعمة.

وفيها: الإخلاص في الشكر؛ وهو مأخوذ من (اللام) في قوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾.

وفيها: أن الشكر من العبادة، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(١).

وفي الآية: رحمة الله للعباد؛ لأنه هيأ لهم الطيبات الكثيرة ليأكلوا منها.

وفيها: الردُّ على من حرَّم الطيبات.

وفيها: تحريم الإضرار عن الطعام حتى الموت؛ لقوله: ﴿كُلُوا﴾، والأمر للوجوب في حالة حفظ النفس.

وفيها: أن العبد يُوجَر على الأكل بالنية الحسنة.

وفيها: الحذر من الشبهات في الأطعمة؛ لأن الطيب هو الحلال الواضح البين.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ، لَغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٧٣).

ولما أباح تعالى لعباده الأكل من الطيبات - وهي كثيرة لا تنحصر -؛ بين لهم المحرمات؛ لأنها قليلة محصورة؛ فقال تعالى:

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٥٥).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ (التحريم) هو: المنع، والمقصود منع الأكل. و(المَيْتَةُ): ما مات حتف أنفه من غير تذكية، والمقصود بها شرعاً: ما مات بغير ذكاة شرعية.

وفي الآية: تحريم المَيْتَةِ، سواءً ماتت حتف أنفها، أو ذبحها كافر ليس من أهل الكتاب، أو ذُكِرَ عليها غيرُ اسم الله، ونحو ذلك. والمشهور عند العلماء: أنَّ لبنها ويبيضها نجس. وكلُّ ما قُطِعَ من حيٍّ فهو كمَيْتته، فإن كانت مَيْتته حلالاً - كالحوت - فهو حلال، وإن كانت حراماً نجساً - كبهيمة الأنعام - فهو حرام نجس.

﴿وَالْدَّمَ﴾ هو: المسفوح الجاري. واستثني من ذلك: الكبد والطحال؛ لحديث: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدِمَانِ: فَأَمَّا الْمَيْتَانِ: فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدِّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»^(١)، وكذلك بقايا الدم في عروق المذبوح؛ لأنَّ تصفيته بالكلية عسير، وفيه حرجٌ على العباد. وقوله ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ وهو: الحيوان المعروف القذر، وجميع أجزائه محرمة، وأكله ضارٌّ، ويصاب آكله بالأمراض، وذهاب الغيرة.

﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما ذُكِرَ عليه اسمُ غير الله عند ذبحه، مثل أن يقول: «باسم اللات»، «باسم العزى»، «باسم المسيح»، ونحو ذلك.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة للأكل، بشرط أن يكون ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير مستحلٍّ، ولا يأكلها عن لذة، ولا خارج في معصية الله، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز للحدِّ بالأكل أكثر من الضرورة، ومتعدِّ الحلال إلى الحرام، وهو يجد بديلاً، وكذلك لا يكون متعدِّياً على المسلمين بقطع الطريق. فإذا كان كذلك: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا عقوبة. والأكل من المَيْتَةِ للضرورة واجبٌ إذا كان يهلك بدونه.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يستر على العبد الذنب، ويقي من العذاب برحمته التي وسعت كلَّ شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الأكل من مَيْتَةِ الْآدَمِيِّ عند الاضطرار.

(١) رواه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٠).

وفيها: أنَّ الضرورة تُقَدَّرُ بقَدَرِها، فلا يجوز أن يأكل أكثر من القَدَر الذي يُزيل الضرورة، ويحمل منه معه ما يُوصِلُه إلى الطعام الحلال، فإذا بلغ الحلال ألقى الحرام.

وفيها: أنَّ التحريم حقُّ الله تعالى.

وفيها: أنَّ جميع أجزاء المَيْتَةِ والخنزير حرام، شحمًا ولحمًا وعظمًا.

وفيها: تأثير الشُّرك في خُبث اللَّحْم.

وفيها: أنَّ الضرورات تُبيح المحظورات.

وفيها: أنَّ صاحب سفر المعصية لا تُباح له المحظورات.

وفيها: عدم جواز الذبح تعظيمًا لأحد غير الله، فسواء ذَكَرَ اسمَ الله على الذبيحة، أو ذَكَرَ اسمَ الله وغيره مقترنًا معه، أو ذبحها تعظيمًا لشخص عند مروره -مثلًا-؛ فكلُّ ذلك حرام، ولا يجوز الأكل منها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤)

ولمَّا بَيَّنَّت الآيات السابقة إباحة أكل الطَّيِّبَات، على خلاف ما كانت عليه كثيرٌ من الملل الأخرى التي تُحرِّم ما أحلَّ الله؛ عاد السياق مرَّةً أخرى إلى ذكر اليهود وأخبارهم، الذين حرَّموا ما لم يحرِّمه الله افتراءً عليه، وكنتموا شرَّعه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهم: علماء أهل الكتاب، وعلى رأسهم: أحبار اليهود، الذين كنتموا ما أنزل الله عليهم في كتابهم من صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرِ نبوته.

وقوله ﴿وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: ويأخذون على كتمانهم عوضًا حقيرًا من حُطَام الدُّنْيَا، فقد كانوا يأخذون من العرب الهدايا والأموال؛ معاونةً لهم على حَرْبِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكنتم شأن نبوته، وحتى لا تضيع رئاستهم إذا اعترفوا به نبيًّا؛ لأنَّه ستَلَزَمُهم متابعتُه حينها.

﴿أُولَئِكَ﴾ الكاتمون، البُعداء، لانهطاط مرتبتهم وسفوها ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا
النَّارَ﴾ أي: هذا الحرام والشُّحْت الذي أخذوه، يكون نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة.
﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ كلام رضا وتَلَطُّفٍ ورحمة، وإنما يكلمهم كلام الغضبان
الساخط عليهم، وهذا نوع من العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يُعَرِّضُ عنهم في ذلك اليوم
ويغضب عليهم، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يُثْنِي عليهم بخير، ولا يطهرهم من الذُّنوب،
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد الألم، يصل ألمه إلى قُلُوبِهِمْ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب نشر العلم الذي تتوقَّف عليه حياة الناس.

وفيها: وجوب معرفة الحق.

وفيها: أنَّ عُقوبة الذين يكتُمون العلم، ويشترون به متاع الدُّنيا، أعظم من عقوبة الذين
يكتُمونه فقط. وقد مضى في آيات سابقة عقوبة الكاتمين، وأنَّ الله تعالى يلعنهم ويلعنهم
اللاعنون. وذكر في هذه الآية عقوبة الذين يكتُمون ويأخذون على كتمانهم ثمنًا وعَرْضًا من
الدُّنيا.

وفيها: فَضْل مَنْ بذل العلم لله دون مُقابل، وهذا بخلاف مَنْ يكتمه بُخلاً به، أو لا يبذله
إلا بمُقابل دُنْيَوِيٍّ.

وفيها: العَدْلُ في الجزاء؛ لأنَّ عقوبة الآخِذِينَ على الكِتْمَانِ بالنَّارِ بقَدْر ما أكلوه في الدُّنيا،
والجزاء من جنس العمل.

وفيها: أنَّ هناك مَنْ يُزَكِّيهِ الله يوم القيامة، ويُثْنِي عليه قولاً بمدحه، وفِعْلاً برفعه،
وإِظلاله، وإيتائه كتابه بيمينه، وجَعَلَهُ على منبر من نور، ونحو ذلك من التكريم.

وفيها: غِلْظُ عقوبة مَنْ كتم الحق واشترى به ثمنًا قليلًا، وأنَّ إِعْرَاضَ الله عنه أمر شديد.

وفيها: أنَّ الإِعْرَاضَ وَتَرَكَ كَلَامِ الرِّضَا من الله تعالى يكون على الذُّنُوبِ العظيمة، ومن
هؤلاء: مَنْ حلف على سِلْعَةٍ كاذِبًا، وَمَنْ حلف على يمين كاذِبة بعد العَصْرِ ليقطع بها

مال مسلم، ومن منع المحتاج مما زاد عن حاجته من الماء، والمُسبِلُ إزاره خيلاء، والمنان بما أعطى، والشيخ الزاني، والملِك الكذاب، والفقير المُختال المستكبر، والعاق لوالديه، والمرأة المتشبهة بالرجال، والديوث الذي يُقر الحُبث في أهله، وغيرهم ممن جاء ذكره في الأحاديث الصحيحة.

ومن فوائد الآية: أن من عذاب الكافرين ما هو نفسي - كالإعراض - ومنه ما هو بدني - كاحتراق الجلود بالنار -.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥):

ثم قال تعالى - مخبراً عن الكائمين للحق -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ﴾ أي: أخذوها واختاروها، ورغبوا فيها، وكذلك يفعل المشتري مع السلعة. و(الضلالة) هنا هي: كتم العلم. وقوله ﴿بِالْهُدَى﴾ أي: بذل الهدى، فجعلوا الهدى هو الثمن المدفوع المبدول الذي تخلصوا منه، وكذلك يفعل البائع.

وقوله ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: اختاروا العذاب على المغفرة؛ فكان العذاب جزاءً لكتبتهم الحق.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: استفهام بمعنى التوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، فما هو الشيء الذي أصبرهم على النار يا ترى؟! وأي شيء جعل عندهم الجسارة لاقتحامها؟ فما أجرهم على العمل الذي يقربهم إلى النار، وما أطول حبسهم فيها!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن نشر العلم من أسباب المغفرة والنجاة من النار.

وفيها: أن من عذاب كاتمي الحق في جهنم: أن تكون النار في بطونهم على الحقيقة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦):

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدّم ذكره من جزائهم وعذابهم. ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بسبب أنه سبحانه وتعالى ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، أو: كل الكتب المنزلة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي:

بيان الحق وتحقيقه، ومنه: صفة محمد ﷺ ونبوته وبعثته؛ لذلك فإن كتمه جريمة يستحق صاحبها العذاب.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي: اختلفوا في معانيه، فحرّفوها وبدّلوها. وقيل: اختلفوا في أصله، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر. ﴿لِي شِقَاقٍ﴾ أي: خلاف ومنازعة ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق والصواب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثناء على كتب الله المنزلة، وأنها نزلت بالحق.

وفيها: إثبات العدل والأسباب.

وفيها: أن المختلفين بالباطل لا يجتمعون على شيء واحد ولا يلتقون؛ بل لا يزالون في منازعة.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

ولما نزل تحويل القبلة، وكان بعض الناس يظن أن من البر لزوم التوجه إلى جهة معينة في قبلة العبادة، وعدم تغييرها، وكان النصارى يتوجهون شرق بيت المقدس، واليهود يستقبلون غرب بيت المقدس؛ بين الله تعالى أن البر ليس لزوم جهة معينة شرقاً أو غرباً، ولكن البر هو طاعة الله وامتنال أوامره، والتوجه حيث وجه المسلم، والعمل بأركان الإيمان وشعبه.

فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ (البر): هو الخير الكثير، وهو: اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله، والمؤدية إلى الجنة.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وهذا أساس البر، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: صدَّق بالبعث وما بعده من الجزاء. وُسِّمِي باليوم الآخر؛ لأنه ليس بعده يوم.

﴿وَأَلَمَلَيْتِكُمْ﴾ أي: وصدَّق أيضًا بذلك العالم الغيبي، الذي خلقه الله من نور، ووكلهم بوظائف وأعمال السفارة بينه وبين خلقه.

﴿وَأَلَكْتِبِ﴾: اسم جنس، يشمل كل الكتب التي أنزلها الله. فمن البر: الإيمان بها كلها.

﴿وَالْيَتِيمَ﴾ أي: صدَّق بنبوَّتهم، وصحَّة ما جاءوا به من عند الله، واقتدى بهم. ويدخل فيهم الرُّسل.

ولما ذكر أساس البر؛ أتبعه بذكر بعض فروعه وأركانه العملية؛ فقال: ﴿وَأَقَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: أن هذا البار -بالإضافة إلى ما تقدَّم من إيمانه بالأركان- فهو يعطى المال لمستحقِّيه، مع تعلق نفسه بالمال وحُبِّه له، كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وحُبُّ الله في قلبه أعظم من حبِّ المال، وهو من الذين يُطعمون الطعام على حُبِّه والرغبة فيه، ويحبُّ إيتاء المال في مرضاة الله.

﴿ذَوَى الْقُرْبَى﴾ وهم: قرابة المعطي بسبب الولادة -من جهة أبيه أو أمِّه-. وبدأ بهم؛ لأنَّ حقَّهم أكد، وإعطاءهم أولى؛ كما قال النبي ﷺ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»^(١)، ولما أعتقت ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جارية لها، قال لها النبي ﷺ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ أُعْطِيتَهَا أَخَوَالَكَ؛ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكَ»^(٢).

ونصح النبي ﷺ أبا طلحة عندما تصدَّق ببستانه بئرحاء، أن يجعله في المحتاجين من أقاربه؛ فقال له: «وَإِنِّي أَرَى أَنْ تُجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه^(٣).

﴿وَالْيَتَامَى﴾: جمع (يتيم)، وهو: مَنْ مات أبوه قبل بلوغه -ذكرًا كان أو أنثى- وُسِّمِي

(١) رواه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٨٨٣).

(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٣) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

يَتِيماً لَا نَفَرَادَهُ عَنِ الْآبِ، وَيُنْتَهِي الْيَتَمُ بِالْإِحْتِلَامِ؛ كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يُتَمَّ بَعْدَ إِحْتِلَامٍ»^(١).

فَيُعْطَى هَؤُلَاءِ الصَّغَارُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَا وَالِدَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبٌ؛ لِحِفْظِهِمْ مِنَ الضِّيَاعِ. ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾: جَمْعُ (مَسْكِينٍ)، وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَهُ الْفَقْرُ وَأَذَلَّهُ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ كِفَايَتُهُ، فَيُعْطَى مَا يَسُدُّهَا.

وَفِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنَّ الْمِسْكِينُ: الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»^(٢).

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: أَيُّ: وَآتَى الْمَالَ ابْنَ السَّبِيلِ، وَهُوَ: الْمَسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ الَّذِي انْتَهَتْ بِهِ نَفَقَتُهُ. فَيُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ. وَ(السَّبِيلُ) هُوَ: الطَّرِيقُ. وَسُمِّيَ ابْنُ السَّبِيلِ؛ لِمُلَازِمَتِهِ السَّبِيلَ وَبِقَائِهِ فِيهِ، يَتَنَظَّرُ الْفَرَجَ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا أَيْضًا - مِنْ وَجْهِ الْبَرِّ -: التَّكْفُلُ بِنَفَقَاتِ مَنْ يَسَافِرُ فِي طَاعَةِ ذَهَابًا وَرَجُوعًا، وَنَفَقَةُ الضَّيْفِ وَإِكْرَامِهِ.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾: أَيُّ: الطَّالِبِينَ لِلْإِحْسَانِ، الَّذِينَ اضْطَرُّوا لِمَدِّ الْيَدِ لَشِدَّةِ فَقْرِهِمْ. وَقَدْ يَسْأَلُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ فَيَقُولُ: «أَعْطِنِي»، وَقَدْ يَسْأَلُ بِلِسَانِ الْحَالِ، فَيَأْتِي عَلَى هَيْئَةِ رُتَّةٍ ذَلِيلَةٍ تَسْتَدْعِي إِعْطَاءَهُ.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أَيُّ: فِي عِتْقِ الرِّقَابِ وَتَحْرِيرِهَا وَفَكِّهَا مِنَ الْأَسْرِ. وَهَذَا يَشْمَلُ شِرَاءَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ثُمَّ إِعْتِقَاقَهُمْ، وَمُسَاعَدَةَ الْأَسْرَى عَلَى تَحْرِيرِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِعَانَةَ الْمُكَاتَبِ - وَهُوَ الْعَبْدُ الَّذِي اتَّفَقَ مَعَ سَيِّدِهِ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ بِأَقْسَاطٍ - فَيُعَانُ عَلَى تَحْرِيرِ نَفْسِهِ.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: أَيُّ: أَتَمَّ أَفْعَاها وَأَقْوَاهَا، فِي أَوْقَاتِهَا، فِي خُشُوعٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، مُتَأَسِّيًا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الْفَرَضِ وَالنَّفْلِ.

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٨٧٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الْإِرْوَاءِ (١٢٤٤).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٧٩)، وَمُسْلِمٌ (١٠٣٩).

﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطى زكاة ماله لمستحقّيها، كاملةً، طيّبة بها نفسه. ويدخل في هذا أيضاً: تزكية النفس، وتخليصها من الرذائل والأخلاق الذميمة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي: المتمّمون للعهد إذا أعطوه، المحترمون له في حالة عقده، فلا ينكثون ولا يغدرون. ومن أعطى عهد الله ثم نقضه انتقم الله منه، ومن أعطى ذمّة رسول الله ﷺ ثم غدر بها؛ فرسول الله ﷺ خصّمه يوم القيامة^(١)، وفي الحديث: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكّل ثمنه، ورجل استأجر أجنبياً فاستوفى منه، ولم يعط أجره»^(٢).

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: كأنه قال: «وأخصّ الصابرين بالذكر»؛ لعلّوا منزلتهم وشرف عملهم. وهذا التغير في أسلوب الكلام أدعى للانتباه. و(الصّبر) ليس هو بذل شيء، ولكنه تحمّل شيء ما. وما سبق من أعمال البرّ كان أفعالاً مبدولة، ولكن (الصّبر) هو حبس النفس على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلّة.

ثم ذكر ثلاثة مواطن عظيمة للصبر؛ لأنّ من صبر فيها كان على غيرها وفي غيرها أصبر، وترقى فيها بذكر الشّدِيد إلى الأشدّ؛ فقال:

﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: المرض، وفقد الأهل والولد والمال، ﴿وَالْبَأْسِ﴾ أي: في وقت شدّة القتال في سبيل الله، وكثرة الضرب والطعن في حال الالتحام بالأعداء، واشتداد المعركة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في دعواهم الإيثار، وصدقوا اعتقادهم وأقوالهم بالأفعال؛ لأنّ (الصّدق) هو: مطابقة الشيء للواقع.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: المجتنبون عذاب الله وسخطه، يفعل ما ذكره في هذه الآية، فجمعوا بين البرّ والتقوى، فمن عمِل بهذه الآية: فقد استكمل الإيثار، ونال رضا الرحمن.

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٤٨)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٧).

وفي هذه الآية من الفوائد:

توسيع الآفاق والمدارك في فهم الكلمات ذات المدلول الواسع، وعدم قسرها على معنى معين؛ ولهذا فائدة عظيمة في تقدير كتاب الله وإجلاله وتعظيمه، وإثراء التفسير بالمعاني الكثيرة.

وفيها: فضل الصدقة في حال قلة المال وتعلق النفس به، وكذلك الصدقة بالشيء النفيس الذي يعجز على الإنسان إخراجُه.

وفيها: أن إعطاء ذوي القربى أولى من إعطاء اليتامى والمساكين، إلا إذا كان في اليتامى والمساكين ضرورة أشد، تُرجح إعطاءهم.

وفيها: أن إعطاء السائل من البر، وإن كان غنيًا، ويكون المعطي ممدوحًا، والمُعطى مذمومًا.

وفيها: الوفاء بالعهد عمومًا، سواء كان مع الله، أو مع الناس في المعاملات، وحتى مع الكفار في المعاهدات.

وفيها: أهمية موافقة العمل للقول، والتدليل على صحة القول بالعمل.

وفيها: تذكير أصحاب النعم بنعم الله عليهم، ووصيتهم بالمحرومين منها، فيعطي المستقر بوطنه وبلده من حرم نعمة الاستقرار واحتياج في الأسفار، وهكذا.

وفيها: أن البر يشمل العبادات القلبية، والبدنية، والمالية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

ولما ذكر تعالى المحرمات في المطاعم، وبعض المحرمات في أخذ المال بغير حق؛ ذكر تعالى هنا تحريم الدماء، وأنه شرع القصاص للمحافظة عليها وصيانتها، وأن من المال ما هو جائز أخذه لأولياء القتيل مُقابل العفو.

وكان بنو إسرائيل ممنوعين من أخذ الدية وليس لهم إلا القصاص، فأنزل الله التخفيف على هذه الأمة في إباحة أخذ الدية مُقَابِلَ الْعَفْوِ فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ^(١).

وكانت اليهود أيضًا لا تعدل في قتل قبائلها، فإذا قتل شخص من قبيلة أعلى عندهم شخصًا من قبيلة أدنى؛ لم يقيموا عليه القصاص ويكتفون بالمُفَاداة، وإذا حصل العكس أقاموا عليه القصاص، كُفْرًا وَبَغْيًا؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على المؤمنين الأمر بالعدل في القصاص، وألا يفعلوا فعل اليهود.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: فَرِض وَكُتِبَ فِي اللُّوحِ المحفوظ ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: القيام به واستيفاءه، والعدل فيه، في إزهاق النفس وما دونها. و(القصاص): هو المساواة والمائلة، ومُقابلة الفعل بمثله.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أي: إذا قتل الحرُّ حرًّا قُتِلَ بِهِ. و(الحرُّ): هو مَنْ ليس بمملوك. ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ أي: العبد يُقتل بالعبد. و(العبد): هو المملوك. ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أي: الأنثى تُقتل بالأنثى. وقد كانوا في الجاهلية لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة؛ فجعل الله الأحرار في القصاص سواءً في قتل العمد - رجالهم ونساءهم -.

وذهب جمهور العلماء: إلى أن الحرَّ لا يُقتل بالعبد ^(٢)، كما ذهبوا إلى أن المسلم لا يُقتل بالكافر، ولكن عليه إثمٌ عظيمٌ، وتلزمه الدية، يدفعها لأهل الكافر - إن كان من أهل الميثاق - واستدلوا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ» ^(٣).

كما ذهب سائر أهل العلم: إلى أن الجماعة لو قتلوا واحدًا فإنهم يُقتلون به، كما فعل عمر رضي الله عنه ^(٤).

ثم حثَّ تعالى على التراحم والفضل؛ فقال: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: فأَيُّ قاتل

(١) رواه البخاري (٤٤٩٨).

(٢) وذهب الإمام أبو حنيفة، وهو رواية عن الإمام أحمد، اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية: إلى أن الحرَّ يُقتل بالعبد؛ لعموم قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» رواه أبو داود (٤٥٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، وهذا القول هو الصواب. انظر: الشرح الممتع (٤٠ / ١٤).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٤) انظر: «الموسوعة الفقهية» (١١٣ / ١٤).

عُفِيَ لَهُ مِنْ دَمِ أَخِيهِ شَيْءٌ؛ سَقَطَ الْقِصَاصُ. وَقَوْلُهُ ﴿شَيْءٌ﴾ يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، فَإِذَا تَنَازَلَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ عَنِ الْقِصَاصِ، وَرَضُوا بِمَا لَمْ يُدْفَعْ إِلَيْهِمْ، أَوْ بِالْدِّيَّةِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهَا، أَوْ تَنَازَلُوا بِلا مُقَابِلٍ، أَوْ تَنَازَلَ بَعْضُهُمْ دُونَ الْبَقِيَّةِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْعَفْوِ، وَيَسْلَمُ الْقَاتِلُ مِنَ الْقَتْلِ قِصَاصًا.

وَيَكُونُ الْوَاجِبُ حِينَئِذٍ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ إِذَا تَنَازَلُوا عَنِ الْقِصَاصِ إِلَى مُقَابِلٍ، أَنْ يُطَالِبُوا الْقَاتِلَ بِهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿فَأَنْبِئْهُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ: يُطَالِبُونَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْرُوفِ شَرْعًا، مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنَفٍ، وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا الْإِمْهَالَ وَالتَّسْهِيلَ.

وَفِي الْمُقَابِلِ: يَجِبُ عَلَى الْقَاتِلِ أَنْ يُوَدِّيَ مَا وَقَعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَيْهِ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ بِإِحْسَانٍ، أَيْ: بِسَهُولَةٍ، مِنْ غَيْرِ مَمَاطِلَةٍ وَلَا تَسْوِيفٍ، وَلَا بَخْسٍ لِلْحَقِّوقِ، مَعَ طِيبِ النَّفْسِ وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَالْقَوْلِ الْجَمِيلِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾.

وَقَوْلُهُ ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: جَوَّازَ الْعَفْوِ عَنِ الْقَاتِلِ، وَالتَّنَازُلِ عَنِ الْقِصَاصِ ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رِّزْقِكُمْ﴾ أَيُّ: تَسْهِيلٌ وَرُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ.

وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَى بَعْضِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْقِصَاصَ مِنْ غَيْرِ اخْتِارِ الْعَفْوِ، وَأَوْجَبَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْعَفْوَ بِلا مُقَابِلٍ، وَكَانَ التَّخْفِيفُ مِنَ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، بِجَوَّازِ تَخْيِيرِ أَهْلِ الْقَتِيلِ بَيْنَ الْقِصَاصِ وَبَيْنَ الْعَفْوِ أَوْ الدِّيَّةِ.

وَقَوْلُهُ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أَيُّ: بِهَذَا الْقَاتِلِ، الَّذِي يَنْفَعُهُ الْعَفْوُ فِي بَقَائِهِ حَيًّا، فَيَسْلَمَ مِنَ الْقَتْلِ، وَيَسْتَفِيدَ أَهْلُ الْقَتِيلِ مِنَ الدِّيَّةِ، إِذَا أَرَادُوهَا.

وَإِذَا تَنَازَلُوا وَقَبِلُوا؛ فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ حِينَئِذٍ الْإِعْتِدَاءُ عَلَى الْقَاتِلِ، وَجَاءَ التَّهْدِيدُ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى﴾ أَيُّ: مَنْ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: بَعْدَ عَفْوِهِ، أَوْ قَبُولِ الدِّيَّةِ وَأَخْذِهَا؛ ﴿فَلَهُ﴾ أَيُّ: فَلِلْمُعْتَدِي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: شَدِيدٌ مُّوْجِعٌ، فِي الدُّنْيَا بِقَتْلِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَذَابِ النَّارِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ تَنْفِيزَ الْقِصَاصِ مِنْ مَقْتَضَى الْإِيمَانِ، وَأَنْ تَرَكَ تَنْفِيزَ الْقِصَاصِ نَقْصٌ فِي الْإِيمَانِ.

وفيها: أن تنازل بعض الورثة يُسقط القصاص، ويكون للبقية نصيبهم من دية قتل العمد.

وفيها: أن الحر يُقتل بالحر، والعبد يُقتل بالعبد، والأنثى تُقتل بالأنثى، ولو اختلفت الصفات؛ فلو أن حرًا عاقلاً غنيًا حسيبًا وجيهاً، قتل حرًا فقيرًا أعمى جاهلاً وضعيفاً؛ فإنه يُقتل به؛ لعموم الآية.

وقد فهم بعض العلماء من ذكر القصاص في الآية: أنه يدخل فيه التماثل في أداة القتل؛ فإذا قتله بخشبة قُتل بها، أو بحجر قُتل به، أو خنقه بحبل خُنق به، وهكذا. واستدلوا على هذا: بحديث أنس رضي الله عنه، أن يهودياً رَضَّ رأسَ جارية بينَ حجرَين، «فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فَرَضَّ رأسه بينَ حجرَين»^(١).

وفيها: ردٌّ على مزاعم ما يُسمَّى بـ «جماعات الرفق بالإنسان»، الذين يُطالبون بإلغاء عقوبة القتل؛ فدعواهم مُصادمةٌ لشرع الله، ولا يجوز الاستجابة لهم ولا التأثر بمطالبهم؛ بل يجب التبرؤ منهم؛ فشرع الله فيه المصلحة والحكمة.

وفيها: أن على المؤمنين تطبيق القصاص، وعدم حماية القاتل، وأن على أهله تسليمه إلى أولياء القتيل؛ ليختاروا بين القصاص، أو قبول الدية، أو العفو.

وفيها: أن القصاص على القاتل أياً كان، ولا يجوز أن يُقتل أحد مكانه.

وفيها: أن القتل بمجرد لا يُخرج القاتل عن الملة، ولا يُصيِّره كافراً، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، في عدم تكفير مرتكب الكبيرة بمجرد الذنب.

وفيها: أنه لا يُقتل بالمقتول غير قاتله، ولا يجوز التعدي على غيره بالثأر، وقتل الآخرين معه من أقاربه أو قبيلته، كما كانت العرب تفعل عُداً وظُلماً.

وفيها: تذكير القاتل وأهل القتيل بالعلاقة العامة بينهم، وهي أخوة الإيمان والدين، وأنهما لم تنتف بالقتل؛ بل هي باقية؛ كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾؛ فيبقى التراحم.

(١) رواه البخاري (٢٤١٣)، ومسلم (١٦٧٢).

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ آلَ لَبِ بْنِ لَعْلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩):

وبعد أن رَغِبَ تعالى في العفو، وتَوَعَّدَ على الغدر؛ بَيَّنَّ الحُكْمَةَ من تشريع القصاص؛ لترسيخ الحُكْمِ في نفوس العباد، وترغيبهم في العمل به؛ فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أي: في مشروعيته بقاء لكم، وحفظ لأرواحكم، وصيانة من اعتداء بعضهم على بعض؛ فبالقصاص يرتدع مَنْ أراد القتل ويخاف، ويكفُّ مَنْ سَوَّلَ له نفسه الاعتداء؛ لأنَّ القتيل إذا عَرَفَ أَنَّهُ يُقْتَلُ، والجراح إذا عَلِمَ أَنَّهُ يُجْرَحُ؛ كان ذلك سبباً لمنعه مما يريد الإقدام عليه.

ولمَّا كانت حِكْمَةُ هذا التشريع عظيمة، وإدراكها يحتاج إلى عقل وبصيرة؛ خاطب الله تعالى أصحاب العقول الراجحة؛ فقال: ﴿يَتَأُولَىٰ آلَ لَبِ بْنِ لَعْلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تجنبون الاعتداء، وتنتهون عن القتل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

دَعْوَةُ أصحاب العقول للتدبُّر والتأمُّل في أسرار وحِكَمِ التشريع، واستعمال عقولهم في فهم عِلَلِ الأحكام.

وفيها: بيانُ فساد مذهب الذين يُنادون بإلغاء عقوبة الإعدام، ونظرة متأنية من أولي الألباب، إلى بلاد أولئك ومجتمعاتهم، وما انتشر فيها من الجريمة، وعمِّ فيها من الاعتداء؛ كفيلةٌ بمعرفة فضل هذه الشريعة وأحكامها، وقدرتها على ضبط النفس وحماية الأبرياء.

وفيها: أنَّ مَنْ ارتاب في حُكْمِ شرعيٍّ، ولم تطمئن إليه نفسه، أنَّ عليه أن يعيد النظر والتأمُّل في أحكام الشريعة، حتى يهدي الله قَلْبَهُ، ويثبتَه على الحقِّ.

وفيها: مثال واضح على إعجاز القرآن البلاغي والتشريعي؛ ففي موت القتيل حياة المجتمع، وبقتل هذا يحيا آخرون، وكان التعبير عن هذا عند العرب: «القتل أنفى للقتل»، فجاء التعبير القرآنيُّ عن ذلك بأبلغ وأفصح وأوجز عبارة؛ فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨٠):

وبعد أن ذكر الله تعالى حكم القصاص المتعلق بالموت؛ ذكر حكمًا آخر متعلقًا به أيضًا، فقال:
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: فُرِضَ عليكم يا معشر المؤمنين ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي:
إذا نزلت به أسبابه ومقدماته وأعراضه، ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ (الخير) يُطلق على: المال الكثير.
﴿ الْوَصِيَّةُ ﴾ وهي في الأصل: العهد إلى الغير بالأمر المهم، وهذا ما يُنصح به مَنْ نزل به
الموت، فيفعله لفظًا أو كتابة، ويُشهد عليه.

فيكون وصية شرعية ﴿ لِلْوَالِدَيْنِ ﴾ وهما: الأم والأب، ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾: مَنْ سواهم من
الأقارب المقربين، كالإخوة والأعمام ونحوهم. ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي: بالعدل الذي عرفه
الشرع وأقره.

﴿ حَقًّا ﴾ مؤكَّدًا ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾: الذين يتقون عذاب الله، بامتنال أو امره، واجتناب نواهيه.
والوصية للوالدين في هذه الآية منسوخة بآيات الموارث التي نزلت في سورة «النساء».
وإنما جرّت الوصية للوالدين والأقربين في أول الأمر؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا يُوصون
للأبعدين - طلبًا للفخر والرياء - ويتركون الأقربين الفقراء، فأمر الله تعالى بعدم نسيان
الوالدين والأقربين، ثم أنزل حقوقًا مفروضة وأنصبة معلومة، وأعطى كل ذي حقَّ حقه،
فلا تجوز الوصية للورثة الذين نصّت الشريعة على توريثهم. وبقيت الوصية للأقربين
وغيرهم مستحبة من الثلث.

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أنَّ الوصية للوالدين والأقربين في الآية مُحْكَمَةٌ؛ قالوا:
وهي - وإن كانت عامة - فمعناها الخصوص، والمراد بها من الوالدين: مَنْ لا يرث،
كالأبوين الكافرين، وَمَنْ هو في الرِّقِّ، ومن الأقربين: مَنْ عدا الورثة منهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الأقارب من غير الورثة يُوصى لهم من الثلث، إذا كان المال كثيرًا، بحسب درجة
قرباتهم وأحوالهم.

وفيها: أَنَّ مَنْ حضره الموت وقد بقي عقله ووعيه؛ فَإِنْ وصيته تصحُّ بالثلث فأقل، وهو المعروف الذي عرّفه الشرع.

والوصية لا تجوز بأكثر من الثلث، ولا تصح لوارث، إلا أن يشاء الورثة المرشدون بنصيبتهم.

ويجب على الموصي إذا عرّف أن وصيته مخالفة للشرع أن يغيّرها؛ لتكون مطابقة للشرع. ويجوز له أن يحدث فيها ما شاء من التغيير بحسب ما يتبيّن له من الحكمة والمصلحة.

وتجب الوصية في حالات، كما لو كان عنده حقوق تضيق لو لم يوص.

وفي الآية: تسمية (المال) خيراً، وفيه إشارة إلى أنّه يجب أن يكون مجموعاً من حلال.

وفيها: أهمية صلة الرّحم.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١)

ولمّا أمر تعالى بالوصية؛ حذّر الشّهداء عليها وغيرهم من التلاعب بها؛ فقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: قول الموصي، أو ما أوصى به، فغيّره بأيّ نوع من التغيير، سواء كان بإنكار الوصية من أصلها، أو بالنقص فيها، أو بالزيادة عليها، أو بإدخال من لم يوص إليهم الموصي، أو حذف بعض من أوصى إليهم، أو التقليل من نصيب البعض، ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ وعلمه، وتحقّقه؛ ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أي: إثم التبديل والتغيير ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، سواء كانوا شّهداء، أو أولياء، أو أوصياء؛ فالإثم عليهم، ويكون أجر الموصي قد وقع على الله، ولا ذنب له بتغيير هؤلاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال الموصين، والمبدّلين ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم، وما يفعلونه.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨٢)

ولمّا كان بعض الموصين قد يخالف الشرع في وصيته، خطأ أو عمدًا؛ فقد استثنى الله تعالى من إثم التبديل من يتدخل لإصلاحها؛ فقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ﴾ أي: من

خشي أو ظنَّ من موصي مخالفة الشرع، أو عَلِمَ بأنَّه خالف الشرع ﴿جَنَفًا﴾ خطأً من غير قصد، ﴿أَوْ إِيثَامًا﴾ أي: ظُلُمًا ومخالفة عن قصد، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أمر الموصي بالعدل، وأن يُصلح وصيته قبل موته، أو يُعدِّل فيها بعد موت الموصي؛ لتكون موافقة للشرع، جامعة بين مقصود الموصي وحكم الشرع.

وحيث إنَّه قد يقع تنازُع بين الموصي والورثة؛ فإنَّه يتدخَّل أيضًا ليُصلح بينهم بما يوافق الشريعة، ويتوسَّط بين الورثة والموصي إليهم، ليُصلح بينهم إذا حدث تنازُع.

وهو في كلِّ هذا مأجور، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا حرج ولا ذنب على هذا المصلح. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أخطأ، ولكلِّ مذنب إذا تاب ﴿رَحِيمٌ﴾: ذو الرحمة الكثيرة الواسعة بخَلْقِهِ.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ العِلْمَ بالوصية يكون بالسمع، لكن لا يُقتصر عليه؛ فقد يكون بالكتابة أيضًا، أو بالإشارة، ونحوها.

وفيها: أنَّ مَنْ فعل ما يقدر عليه من الخير؛ يُكْتَبَ له أجره، ولا يضرُّه مَنْ اعتدى على عمله.

وفيها: أنَّ التبديل في الوصية إذا وقع بطريق الخطأ؛ فلا إثم فيه.

وفيها: ضرورة مُراعاة الدقَّة والاتقان في نقل الوصية وتنفيذها.

وفيها: أنَّ مَنْ عَلِمَ بالتبديل والتغيير في الوصية؛ فلا بُدَّ أن يُنْكِر.

وفيها: أنَّه لا يجوز لمن ليس له حقُّ في الوصية أن يأخذها، إذا عَلِمَ أنَّه نتيجة التبديل، ولو لم يكن هو المبدِّل.

وفيها: أنَّ الوصية إذا اشتملت على منكر - كما لو أوصى بعمارة معابد الشرك وأضرحة الموتى، وطباعة كتب الكفر والبدعة، ودعم أنشطة الفسق والفجور -؛ فلا يجوز تنفيذها، بل يجب تبديلها لتكون موافقة للشرع.

وفيها: إشارة إلى مغفرة الله ورحمته بمن تنازل عن شيء من حقه، ليحصل الصُّلح مع الآخرين، سواء كان من الورثة، أو الموصى إليهم.

وفيها: فضيلة الإصلاح، وما فيه من المصالح، من: ذرء الإثم عن الموصي، أو تخفيفه، وإزالة العداوة والشحناء بين الموصي والورثة، أو بين الورثة والموصى إليهم.

وفيها: أنه على الولي -الذي يقوم على الوصية- الرجوع لأهل العلم لمعرفة حكم الوصية، وهل فيها جَنَفٌ أم لا، وكيف يكون التبديل عند الحاجة إليه، وتعيين ما هو أقرب الأشياء إلى قَصْدِ الموصي، وهل يجوز صَرْفُهَا في وجه أفضل من الوجه الموصى به؟ ونحو ذلك.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣):

ولما ذكر تعالى حُكْمَ الْقِصَاصِ، وما فيه من إسلام القاتلِ نفسه للقتلِ، وأتبعه بذكر الوصية، وما فيها من إخراج المال -وهو أمر شاقٌّ على النفس-؛ أتبع ذلك بذكر الصيام، وهو أقلُّ مشقة مما تقدّم، وقد مضى أيضًا قبله في هذه السُّورَةِ ذِكْرُ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فنادى المؤمنين بهذا الرُّكنِ الرابع؛ فقال:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ناداهم بالإيمان؛ تنبيهًا لهم على استماع ما يُلقَى إليهم من التكليف.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: فُرِضَ عليكم -والذي فرضه هو الله عَزَّوَجَلَّ- ﴿الصِّيَامُ﴾ وهو: التعبُّدُ لله بترك المُفْطَرَّاتِ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: كما فُرِضَ على الأمم السابقة ممَّن قبلنا، كبنِي إِسْرَآئِيلَ وغيرهم. والمقصود: تشبيه الفرضية بالفرضية، وليس الكيفية بالكيفية؛ فصيامنا قد يختلف عمَّن قبلنا في تفاصيله، ولكن المشابهة في الوجوب والحُكْمِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله، وتخافون عقابه، وتجتنبون معصيته، وهذه هي الحِكْمَةُ من الصيام. وفيه مصالح أخرى تأتي تَبَعًا؛ كالفوائد الصَّحِّيَّةِ، والشعور بحال الجوعى،

وتوحيد الأمة، وأجر تفتير الصائمين، والتضييق على الشيطان، وتقليل تسلطه على الإنسان، وجعل الطاعة تَجَرُّ إلى طاعة، وإضعاف الشهوة، وغير ذلك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثارة المنافسة عند هذه الأمة؛ لَتَحْصَلَ جميع فضائل مَنْ سبقها، وتزید عليها.

وفيها: أهمية الصيام؛ لأنَّ الله صَدَّرَهُ بالنداء بالإيمان؛ فَتَرَكُهُ مُحِلٌّ بالإيمان.

وفيها: تسلية المؤمنين بذكر وجوب الصيام على مَنْ قبلهم؛ لِيُهَوِّنَهُ عليهم؛ إذ إنَّ الاشتراك في الشيء الشاقَّ يخففه.

وفيها: فَضْل هذه الأمة، وأنها جمعت إلى فضائلها فضائل مَنْ تقدَّمها.

وفيها: فَضْل التَّقْوَى، والأخذ بالأسباب الموصلة إليها.

وفيها: أَنَّ كُلَّ سَبَبٍ يُوصِلُ إلى فضيلة؛ يأخذ حُكْم تلك الفضيلة.

وفيها: أَنَّ تشبيه صيامنا بصيام مَنْ قبلنا، لا يلزم منه المشابهة في التفاصيل، وقد قيل: إنَّ صيامهم كان ثلاثة أيام من كلِّ شهر، وصيامنا انتقل من الأخفِّ إلى الأثقل في عدد الأيام. وكان الله تعالى قد فرض على هذه الأمة صيام يوم عاشوراء، ثم نُسخ وجوبه بصيام شهر رمضان.

وفي الآية: أَنَّ علينا ألاَّ نتلاعب بالصيام، كما تلاعب مَنْ قبلنا حين فُرِضَ عليهم. وقد قيل: إنَّ النصراني لما شقَّ عليهم الصوم في الصيف؛ نقلوه إلى الربيع، وزادوا عليه عشرة أيام! فعلينا أن نصوم كما أمر الله، بلا تبديل ولا تغيير.

وفيها: أَنَّ ذكر عِلَّة الحكم والحكمة منه؛ يُحَثُّ النفس على العمل به.

وفيها: أَنَّ فائدة الصيام للعباد: هو رجاء تحصيل التَّقْوَى، وليس لله فيه حاجة؛ فالله غنيٌّ عن عبادته، وعن أعمالهم.

وفيها: أَنَّ معنى التَّقْوَى موجود في الصيام؛ لأنَّ معناها: رجاء ما عند الله، بِفَعْلِ المأمور -وهو الإخلاص فيه- وَتَرْكِ المحظور -وهي المفطرات- خَشْيَةَ العقاب.

وفيها: أَنَّ التَّقْوَى لُبُّ الْأَعْمَالِ وثمرتها. وهي مرتبطة بالبرِّ، كما في قوله ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والقصاص مرتبط بالتَّقْوَى، كما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. والوصية مرتبطة بالتَّقْوَى، كما في قوله فيها: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤):

ثم هُوَ اللهُ تعالى الصيام على نفوس المؤمنين، بقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي أيام شهر رمضان، و﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾: جمع قِلَّةٍ، وذلك لتقليله وبيان أنه ليس بأشهر ولا سنوات؛ وإنما هي أيام سرعان ما تنقضي.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ يا أمة الإسلام ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضًا يَشُقُّ به الصيام، أو يتأخر بالصيام الشفاء منه، أو يَفُوتُ به العلاج، أو يزيد به المرض، أو يحدث به. أو كان ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ بشرط أن يكون سفر طاعة، أو سفرًا مباحًا، لا سفر معصية؛ ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فواجب عليه الصيام أيامًا أخرى، بعدد التي أفطرها من رمضان للعذر، متتابعة أو متفرقة.

ويُلْحَقُ بالمريض: الحامل، والمرضع؛ فيجوز لهما الفطر، وعليهما القضاء فقط - على الراجح - سواء لأجل نَفْسَيْهِمَا أو وَلَدَيْهِمَا؛ ففي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ الْمُسَافِرِ الصَّوْمَ وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الْحَامِلِ أَوْ الْمُرْضِعِ الصَّوْمَ»^(١).

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يستطيعون الصوم ويقدرُون عليه: ﴿فِدْيَةٌ﴾ يفدون بها أنفسهم من الصيام، مقدار ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: لكل يوم، فيُعْطِيهِ أو يُعَشِّيه.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: زاد في الفدية على القدر الواجب، أو صام مع إخراج الصدقة؛ ﴿فَهُوَ﴾ أي: ذلك التطوع ﴿خَيْرٌ لَهُ﴾ بالشواب.

(١) رواه أبو داود (٢٤٠٨)، والترمذي (٧١٥)، والنسائي (٢٢٧٤)، وابن ماجه (١٦٦٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٥).

﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ يَا أَيُّهَا الْقَادِرُونَ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنَ الْإِفْطَارِ وَالْفِدْيَةِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مَا فِي الصِّيَامِ مِنَ الْفَضِيلَةِ وَالْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ.

وتخير الصائم القادر بين الصيام وبين الإفطار مع الإطعام، كان في أول الأمر، ثم صار منسوخاً؛ لحديث سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾؛ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؛ فَنَسَخَتْهَا»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مَا لَا يُخْرِجُ الشَّخْصَ عَنْ حَدِّ الصَّحَّةِ إِلَى الْمَرَضِ؛ لَا يُبِيحُ لَهُ الْفِطْرَ، كَالصُّدَاعِ الْيَسِيرِ، وَالسُّعَالِ الْخَفِيفِ.

وفيها: رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ فِي فَرَضِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، دُونَ أَنْ يُخْرَجَ عَنْ وَسْعِهِمْ.

وفيها: أَنَّ الْمَشَقَّةَ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ؛ لِأَنَّ الْمَرَضَ وَالسَّفَرَ مَظَنَّةُ الْمَشَقَّةِ، لَكِنْ الْفِطْرُ مُتَعَلِّقٌ بِالسَّفَرِ لَا بِالْمَشَقَّةِ؛ فَلَوْ كَانَ سَفَرُهُ مَرِيحًا، فَلَهُ أَنْ يَتَرَخَّصَ بِالْفِطْرِ. أَمَّا الْمَرِيضُ: فَإِنْ ضَرَّهُ الصَّوْمُ فَيَحْرُمُ عَلَيْهِ، وَإِنْ شَقَّ عَلَيْهِ كُرْهِهُ لَهِ الصَّوْمُ.

وفيها: أَنَّ الْعَاجِزَ عَنِ الصِّيَامِ، أَوِ الَّذِي يَشُقُّ عَلَيْهِ مَشَقَّةٌ كَبِيرَةٌ - لِكَبَرِ سِنِّهِ -؛ فَإِنَّهُ يُفْطِرُ وَيُخْرِجُ الْفِدْيَةَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ أَفْطَرَهُ.

وفيها: تَفَاضُلُ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ بَعْضَهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ.

وفيها: أَنَّ مِنْ بَرَكَاتِ الْعِلْمِ مَعْرِفَةُ الْأَفْضَلِ؛ لِيَفْعَلَهُ.

وفيها: أَنَّ قِضَاءَ الصَّوْمِ بِصِيَامِ الْأَيَّامِ الْبَارِدَةِ عَنِ الْأَيَّامِ الْحَارَةِ لَا بِأَسْبَحٍ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

(١) رواه البخاري (٤٥٠٧)، ومسلم (١١٤٥).

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِلْمَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾:

ثم بين تعالى شيئاً من فضائل رمضان؛ فقال:

﴿شَهْرٌ﴾: سُمِّيَ الشهر بهذا؛ لاشتهاره وهو: مدة ما بين الهلالين. ﴿رَمَضَانَ﴾: مشتق من (الرَّمَض)، وهو: شِدَّةُ الحرارة؛ لأنه صادف وقت حرٍّ شديد أول ما سُمِّيَ عند العرب. ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: تلك الأيام المحدودات المفروض صومُها، هي الشهر الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ جلةً واحدة، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، أو ابتداء نزول القرآن فيه.

وفي حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعاً: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضْيَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ»^(١).

فرمضان هو الشهر العظيم الذي اختاره الله لإنزال القرآن العظيم فيه، وكذلك الكتب الإلهية المذكورة.

و(القرآن): مَصْدَرٌ - مثل «الْغُفْرَانِ» و«الشُّكْرَانِ» - بمعنى: المقروء.

﴿هُدًى﴾ أي: هادياً للناس، من الشُّرْكِ إلى التوحيد، ومن الضلالة إلى الهداية، ومن الجهل إلى العلم؛ فهو هداية ودلالة، يستدلُّون به على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم. وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يدلُّ على أنه يمكن أن يهتدي به الجميع - المؤمن والكافر - هداية علمية وعمليّة.

﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾: هذا مزيد مدح للقرآن، وبيان أن فيه دلائل وحججاً وآيات بيّنات واضحة ﴿مِّنَ الْهُدَى﴾ أي: الدلالة والإرشاد ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾: ما يفرِّق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر.

(١) رواه أحمد (١٦٩٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٧٥/٢٢)، وفي الأوسط (٣٧٤٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٧٥)، وضعفه محققو المسند، وهو الأقرب.

وقوله ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾ أي: حضر أو عَلِمَ، وقيل: شَهِدَ هلال الشهر، ويدخل فيه: من ثُبُتَ عنده رؤيته بخبر الثقة. ﴿وَمَنْكُمُ﴾ أيها المؤمنون، هذا ﴿الشَّهْرُ﴾ أي: رمضان، وكان حاضراً مقيماً صحيحاً، ليس عنده مانع ولا عذر يمنعه من الصوم: ﴿فَلْيَصُصْهُ﴾ أي: فليصم نهاره.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾ في شهر رمضان - وإن كان مقيماً - ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: في أثناء سفر، فأفطر؛ ﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي: فعليه صيام قضاء ﴿مِنْ أَنْكَارٍ أُخَرَ﴾ أي: من غير رمضان، بعدد الأيام التي أفطرها.

وهذه الآية ناسخة لما تقدّم من تخيير المقيم الصحيح بين الصيام وعدمه مع الفدية؛ فصار الصيام بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُصْهُ﴾ واجباً على كل مُكَلَّفٍ غير معذور بترك الصيام، وتُسخّر التخيير.

لكنه أعاد هنا ذكر المريض والمسافر؛ ليبين أن عذرهما ليس بمنسوخ، وأنه يجوز لهما الفطر، ثم القضاء.

ولا بُدَّ من اعتقاد جواز الفطر في السفر، وإن كان السفر ليس به مشقة؛ فالفطر متعلق بالسفر، لا بالمشقة، ولا يجوز الإنكار على من أفطر في السفر، ولا يحق لأحد منعه من الأخذ برخصة الله.

وقد اختلف العلماء: هل الأفضل الفطر في السفر، أم الصيام؟

والتحقيق: أن لذلك حالات:

الحال الأولى: إذا كان الصوم والفطر سواء، بمعنى أن الصوم لا يؤثر عليه، ففي هذه الحالة يكون الصوم أفضل.

الحال الثانية: أن يكون الفطر أرفق به، فهنا نقول: إن الفطر أفضل، وإذا شق عليه بعض الشيء صار الصوم في حقه مكروهاً؛ لأن ارتكاب المشقة مع وجود الرخصة يُشعر بالعدول عن رخصة الله عز وجل.

الحال الثالثة: أن يشق عليه مشقة شديدة غير محتملة، فهنا يكون الصوم في حقه حراماً.

وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾: فيه بيان سبب التخفيف والرخصة، للمريض

والمسافر، وأنَّ الله يريد التسهيل على المسلمين، وتيسير عباداتهم عليهم. و(الإرادة) المذكورة هنا هي: الإرادة الشرعية.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ أي: لا يريد التشديد عليكم، ولو أراد له لأوجب عليكم الصوم في السفر والمرض.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: ويريد الله منكم -أيها المؤمنون- إكمال عدَّة أيام شهر رمضان، فأمركم بالقضاء؛ لاستدراك ما فات من عدَّة رمضان.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: ولتذكروا الله بالتكبير، فتقولوا: «الله أكبر» ﴿عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ أي: تكبروه على هدايته إياكم إلى هذه العبادة، وتكبروه عند انقضاء الشهر، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال، إلى فراغ خطبة العيد.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقوموا بشكر ربكم على نعمه. و(الشُّكر) هو: الشَّاء على المنعم.

وفيها: إرادة اليسر لكم، وإكمال عدَّة شهركم، وإباحة الرُّخصة لكم، وأنَّه علَّمكم أمر دينكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ثبوت الشهر يكون بالرؤية الشرعية؛ لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَلَالَ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ»^(١)؛ فيثبت دخول الشهر بالرؤية البصرية للثقة، وبالسَّماع عن خبر الثقة.

وفيها: أنَّ تحديد فضائل الأيام والشهور هو من اختصاص ربِّ العالمين وحده، وليس لأحد من البشر ادِّعاء فضيلة أو خاصية شرعية لأيِّ وقت بدون دليل.

وفيها: العلاقة الوثيقة بين الصيام والقرآن، بما يدفع المسلم إلى مزيد العناية بالقرآن في شهر الصيام.

(١) رواه البخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠).

وفيها: مشروعية تكبير الله عند نهاية العبادات التي ثبت بالدليل التكبير بعدها؛ كالتكبير في أدبار الصلوات، والتكبير بعد إكمال عدة رمضان.

واستحبَّ جمهور العلماء التكبير ليلة دخول عيد الفطر؛ لهذه الآية.

وفيها: أنَّ الهداية تشمل هداية العلم والعمل، فيهدينا الله بتعليمنا، ويهدينا ببيان كيفية العمل بما شرع، وكيف نستدرك ما فات.

وفي تذكير النفس بأنَّ الله أكبر بعد الفراغ من العبادة: لئلا تُصاب بالعُجب، وفي التكبير إعلان لعظمة الله وكبريائه، وأنَّه الكبير ذاتاً وصفاتٍ.

وفيها: أنَّه لا يُصام الشهر قبل ثبوت دخوله، وأنَّ صيام يوم الشك - وهو اليوم الذي لا يُدرى: هل هو الثلاثون من شعبان أو الأول من رمضان - هو عملٌ غير مشروع؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فإذا لم نشهده لم نصمه. وقد قال عمار رضي الله عنه: «مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ؛ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ صلى الله عليه وسلم»^(١).

وفيها: أنَّ الشريعة مبنية على اليسر، ورفع الحرج.

وفيها: أنَّ المشقة تجلب التيسير.

وفيها: أنَّ الله لا يُشرع شيئاً إلاَّ للحكمة.

وفيها: الاهتمام بقضاء رمضان، والنَّية له، وعدم تأخيرهِ إلى رمضان الذي بعده؛ لأنَّ الله يريد منا المسارعة بإكمال العدة.

وفيها: أنَّ التمكن من إتمام العبادة نعمة تستوجب الشكر.

وفيها: أنَّ ابتداء التكبير في عيد الفطر يكون بنهاية آخر يوم من رمضان، وغروب شمسهِ، وبداية ليلة العيد.

(١) رواه البخاريُّ معلقاً (٢٧/٣)، ووصله: أبو داود (٢٣٣٤)، والترمذي (٦٨٦)، والنسائي (٢١٨٨) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٤٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٩٦١).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦):

ولما كان الصيام مظنة لاستجابة الدعاء؛ ذكر تعالى شأن الدعاء في ثنايا آيات الصيام؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿عِبَادِي﴾ أي: المؤمنون ﴿عَنِّي﴾ أي: عن قُربى وبُعدي؛ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي: فقل لهم: إِنِّي قريب منهم، بالعلم والإحاطة، والإجابة والسمع لدعائهم. ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ أي: أسمع، وأقبل دعاءه، وأُسرع تلبيته ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ أي: صدق في دعائه إِنِّي، ودعا بقلْب حاضر، وتحققت شروط الدعاء -كالإخلاص فيه- وانتفت موانع الإجابة -كأكل الحرام، والاعتداء في الدعاء-.

وقد بيّن تعالى في آية أخرى ما يخصّص هذه الآية؛ فقال مبيناً تقييد إجابة الدعاء بمشيئته: ﴿بَلْ إِيَّاهُ نَدْعُونَ فَكَيْفُ مَا تَدْعُونَ إِنِ يَشَاءَ﴾.

وقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليُجِيبُوا لي، وليُسْتَسْلِمُوا لأوامري، وينقادوا لشرعي. فـ (الإجابة) من العبد: الطاعة والانقياد، ومن الله: الإثابة والعطاء.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: بقُربى وإجابتي. و(اللام) في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ وفي قوله ﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾ هي لام الأمر، فأمر تعالى عباده بالإيمان به وطاعته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يهتدون. ومن معاني (الرشد): حُسن التصرف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَصُلُّ دَعْوَةَ الصَّائِمِ. وقد فهم بعضهم من ذكر الدعاء في آخر آيات الصيام: أنه ينبغي الاجتهاد في الدعاء في آخر الصيام عند الإفطار.

وفي الآية: أَنَّ إجابة الدَّعوة أَعْمُ من إجابة مسألة الداعي المعينة؛ لأنَّ الله لا بُدَّ أن يجيب دعوة الداعي بوجه من الوجوه؛ فإمَّا أن يُعَجِّلَ له مسألته. وإمَّا أن يؤخِّرها إلى حين، ليزداد الداعي دعاءً وإلحاحاً، فيزداد أجراً وثواباً. وإمَّا أن يدفع عن الداعي من الشَّوْء ما هو أعظم فائدة له من مسألته المعينة التي سألها؛ أو أن يدخِّر له دعوته إلى يوم القيامة، فيعطيه عليها

أَجْرًا وَثَوَابًا، هُوَ أَعْظَمُ لِلدَّاعِي مِنْ إِجَابَةِ مَسْأَلَتِهِ الْمَعِينَةِ؛ فِيهِ الْحَدِيثُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَضْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشُّرِّ مِثْلَهَا»، قَالُوا: إِذَا نَكْثَرُ! قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ، لَكِنْ تَنْتَوِعُ الْإِجَابَةُ: فَتَارَةٌ تَقَعُ بَعَيْنٌ مَا دَعَا بِهِ، وَتَارَةٌ بِعَوَضِهِ»^(٢).

وفيها: أَنَّ الدُّعَاءَ سَبَبٌ قَوِيٌّ لِحَصُولِ الْمَطْلُوبِ. وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ الْجَارِيَةِ: أَنَّ الْأُمُورَ تَقَعُ بِأَسْبَابٍ، وَلَوْ كَانَ الدُّعَاءُ لَا يُوَثِّرُ فِي حَصُولِ الشَّيْءِ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ، لَا يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِشَيْءٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ.

وَالدُّعَاءُ إِذَا لَمْ يُسْتَجَبْ لِلدَّاعِي؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِسَبَبٍ فَقَدْ شَرِطَ فِي الدُّعَاءِ - كَحُضُورِ الْقَلْبِ، وَعَدَمِ غَفْلَتِهِ وَلَهْوِهِ - أَوْ يَكُونَ لَوْجُودِ مَانِعٍ - كَأَكْلِ الْحَرَامِ - أَوْ لِأَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِلدَّاعِي فِي إِجَابَةِ مَسْأَلَتِهِ الْمَعِينَةِ، فَيُعْطِيهِ اللَّهُ عَوَضَهَا، وَقَدْ يَكُونُ التَّأْخِيرُ هُوَ الْأَصْلَحُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ فِي ذَاتِهِ؛ فَيُؤَجَّرُ عَلَيْهِ الدَّاعِي، سِوَاءِ أَجِيبَ أَمْ لَا، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عِبَادِيَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَإِظْهَارٌ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَافْتِقَارُهُ وَذُلُّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ. وَفِي الْآيَةِ: كَرَّمَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَظِيمُ عَطَايِهِ.

وفيها: فَضْلُ الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْإِنْكَسَارِ، كَدَعْوَةِ الصَّائِمِ، وَالْمَسَافِرِ، وَالْمَظْلُومِ، وَالْمُضْطَرِّ. وَفِيهَا: أَثَرُ الصُّدُقِ فِي إِجَابَةِ الدُّعَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا دَعَاكَ﴾.

وفيها: أَنَّ الْإِنَابَةَ وَالِاسْتِجَابَةَ لِلَّهِ سَبَبٌ لِلْهُدَايَةِ إِلَى الرِّشَادِ وَالصَّوَابِ.

وفيها: تَشْرِيفُ اللَّهِ لِمَنْ عَبَدَهُ؛ حَيْثُ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، وأحمد (١١١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٠).

(٢) فتح الباري (٩٦/١١).

وفيها: قُرْبُ الله من أهل الدُّعاء، وأَنَّهُ معهم، وهذه هي المعية الخاصة. أمَّا المعية العامة -وهي معية العِلْم والإحاطة-: فهي لجميع الخلق.

﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفَتُْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

ثم ذكر ربُّنا الرُّؤوفُ بعباده، الرحيمُ بهم، العليمُ بحالهم، رُخصةً أخرى للمسلمين في حال صيامهم؛ فرفع عنهم ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُهُمْ إِنَّمَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجَمَاعُ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ، أَوْ يَنَامُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَمَتَى نَامَ قَبْلَ الْإِفْطَارِ أَوْ صَلَّى الْعِشَاءَ: حُرْمٌ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجَمَاعُ إِلَى اللَّيْلِ الَّتِي تَلِيهَا، فوجدوا من ذلك مشقةً كبيرة؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الرُّخْصَةَ والتخفيف^(١).

وقوله ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ﴾ أي: مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ﴿لَيْلَةُ الصِّيَامِ﴾ وهذه تشمل جميع ليالي رمضان ﴿الرَّفَتُْ﴾ هو: الْجَمَاعُ وَالْإِفْضَاءُ وَالْمُبَاشَرَةُ بِشَهْوَةِ ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يشمل: الزوجات والإماء.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: لا يستغني أحدٌ من الطرفين عن الآخر؛ فهو بمنزلة اللباس له، يخالطه ويهائسه، ويستتر ويحتمي به، ويحفظه عن معصية الشهوة المؤذية، كما يحفظ الثوبُ لابسه عما يؤذيه من الحرِّ والبرد.

وكان سبب نزول هذه الآية: ما حصل لبعض الصَّحابة من المشقة العظيمة، بعدم الأكل في الليل لأجل نومهم، وما حصل لبعضهم من معصية إتيان الزوجة في الليل، وكان ذلك ممنوعاً عليهم إذا صلَّوا العشاء، أو ناموا قبل الإفطار.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٠).

فَعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِئًا، فَحَضَرَ الْإِفْطَارَ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ؛ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمَسِّيَ، وَإِنْ قَيْسَ بْنِ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِئًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدِكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَبِيَّةَ لَكَ! فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيَاضِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ^(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ؛ كَانُوا لَا يَقْرُبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾» ^(٢).

وقوله ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونون أنفسكم وتظلمونها بالجماع في ليالي رمضان، وأنتم ممنوعون منه، وتُنْقِصُونَ أَجْرَ أَنْفُسِكُمْ بما يحصل منكم، وتُخَادِعُونَهَا بِإِتْيَانِ مَا مُنِعْتُمْ مِنْهُ.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسَّعَ لكم أمرًا كان -لولا توسعته- موجبًا للإثم، وكان النسخُ رحمة؛ لأنه لولا النسخُ لوقع الكثيرون في فعل المحظور.

﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أي: محاذنوبكم، وتجاوزَ عما وقع منكم، ولم يعاقبكم.

﴿فَالْتَقَنَ بَشِيرُوهُنَّ﴾: هذا الأمر للإباحة؛ لأنه جاء بعد التحريم، والمراد به (المباشرة): الجماع؛ لما يحصل فيه من التقاء بَشِيرَةِ الرَّجُلِ بِبَشِيرَةِ الْمَرْأَةِ.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: اطلبوا بالجماع ما قَدَّرَ اللَّهُ لكم وقَسَمَ من الولد، وابتغوا أيضًا الأجر والثواب بالحِرْصِ على العبادة في ليالي الشهر الشريف -وفيها ليلة القدر- ولا تشغلنكم الملذَّات عنها.

(١) رواه البخاري (١٩١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٠٨).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

استحباب أن تكون نيّة المُجامع لزوجته ابتغاءَ الولد، لا مجرد قضاء الشهوة.

ويؤخذ من الآية: كراهية العزل، ومنع الحمل.

وفيها: تعليم العباد الأخذ بالأسباب؛ لأنه أمر بالجماع لتحصيل الولد.

وفيها: أنه ينبغي على المسلم ألا ينشغل بالملذّات - ولو كانت مباحة - عن اكتساب الأجر والثواب بالعبادات، وفعل الطاعات.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾: عطفٌ على ما تقدّم، من إباحة مباشرة النساء، وإباحة الأكل والشرب؛ أي: لكم أن تأكلوا وتشربوا ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ﴾: يتضح ويظهر ظهورًا جليًا، ويتميّز ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ والمقصود: بياض النهار، وسواد الليل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: الصادق، وسُمّي (فجرًا)؛ لأنه يتفجّر، ويتشّرع منه النور. ووَصِفُ كُلُّ منهما بـ (الخيطة)؛ لأنه يبدو في الأفق ممتدًا كالخيطة، فإذا تحقّق طلوعُ الفجر الصادق، المعترض في الأفق، المنتشر في جهة المشرق؛ فقد حرّم على الصائم الطعام والشراب والجماع، إلى غروب الشمس.

ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي: أكملوه من طلوع الفجر إلى دخول الليل، وذلك بغروب الشمس.

وكانت هذه الآية قد نزلت دون قوله تعالى ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فلما حصل اللبس عند بعض الصحابة في فهم المقصود من الخيط الأبيض والخيط الأسود؛ أنزل الله تعالى قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ رفعًا للبس، وبيانًا للمقصود.

فعن سهل بن سعيد رضي الله عنه قال: «أُنزِلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، وَلَمْ يُنْزَلْ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، وَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُ رُؤْيَاهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَهُ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فَعَلِمُوا أَنَّهَا يَعْنِي اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ»^(١).

(١) رواه البخاري (٤٥١١)، ومسلم (١٠٩١).

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهَا تَحْتَ وَسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ فِي اللَّيْلِ، فَلَا يَسْتَبِينُ لِي! فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

استحباب السُّحُور؛ فالسُّحُور أعون على الصيام، وفيه بركة، ومخالفة لأهل الكتاب، ويُعين على القيام لصلاة الفجر، والله وملائكته يُصلُّون على المتسحِّرين.

ويؤخذ من الآية: أَنَّ مَنْ جَامَعَ قَبْلَ الْفَجْرِ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ، فَنَزَعَ مَبَاشَرَةً، وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمُ الصَّيَامِ وَهُوَ جُنُبٌ؛ فَصَوْمُهُ صَحِيحٌ، وَجَنَابَتُهُ لَا تَضُرُّ صِيَامَهُ؛ لِأَنَّ لَازِمَ إِبَاحَةِ الْجَمَاعِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ: أَنْ يُذَكِّرَكَ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ، وَلَا زِمَ الْحَقُّ حَقًّا.

وقد ثبت في «الصحيحين»^(٢)، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ كَانَ لَيُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جَمَاعٍ غَيْرِ احْتِلَامٍ، ثُمَّ يَصُومُهُ».

ويؤخذ من قوله تعالى ﴿تُرَاثِمُوا إِلَى اللَّيْلِ﴾: عَدَمُ مواصلة الصوم إلى ما بعد المغرب، بَلْ يُسْتَحَبُّ تَعْجِيلُ الْفِطْرِ، وَفِي ذَلِكَ مَخَالَفَةٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»^(٣).

وفيها: حَايَةُ الْعِبَادَةِ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَمَا وَرَدَ مِنَ التَّعَبُّدِ بِالْوَصَالِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ رَبَّهُ يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ.

ولمَّا أَبَاحَ تَعَالَى مَبَاشَرَةَ النِّسَاءِ فِي اللَّيْلِ فِي شَهْرِ الصَّيَامِ؛ ذَكَرَ حَالَهُ لَا يَجُوزُ فِيهَا الْمَبَاشَرَةُ بِشَهْوَةٍ، لَا فِي اللَّيْلِ، وَلَا فِي النَّهَارِ، وَهِيَ حَالَةُ الْاِعْتِكَافِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ﴾ (المباشرة): مَسَّ الْبَشَرَةِ لِلْبَشَرَةِ، وَأَعْظَمُهَا: الْجَمَاعُ. ﴿وَأَنْتُمْ﴾ وَالْحَالُ أَنْكُمْ ﴿عَنْكُمْ﴾.

(١) رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠).

(٢) رواه البخاري (١٩٣١)، ومسلم (١١٠٩).

(٣) رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

أي: مُلَازِمُونَ وَمَا كَثُورٌ ﴿فِي الْمَسْجِدِ﴾ أي: بِنِيَّةِ الْعِتْكَافِ. وَ(الْعِتْكَافُ): لَزُومُ الْمَسْجِدِ لَطَاعَةَ اللَّهِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: وَلَا تَقْرَبُوا النِّسَاءَ مَا دُمْتُمْ مُعْتَكِفِينَ فِي الْمَسَاجِدِ، فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، حَتَّى تَخْرُجُوا مِنَ الْعِتْكَافِ، فَلَا يَجُوزُ لِلْمُعْتَكِفِ أَنْ يَبَاشِرَ زَوْجَتَهُ بِشَهْوَةٍ، لَا فِي الْمَسْجِدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ - كَمَا لَوْ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ لِحَاجَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا أَثْنَاءَ الْعِتْكَافِ -.

﴿تِلْكَ﴾ أي: مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصِّيَامِ وَالْعِتْكَافِ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ (الْحُدُودُ): جَمْعُ «حَدٍّ»، وَهُوَ فِي اللَّغَةِ: الْمَنْعُ.

وَحُدُودُ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ: حُدُودُ تَمْنَعُ مَنْ كَانَ خَارِجَهَا مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا، وَهِيَ الْمَحْرَمَاتُ، وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وَحُدُودُ تَمْنَعُ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَهِيَ الْوَاجِبَاتُ، وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: الْمَمْنُوعَاتُ وَالْمَحْرَمَاتُ، كَالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ، وَالْجِمَاعِ فِي الصِّيَامِ، وَمُبَاشَرَةِ النِّسَاءِ أَثْنَاءَ الْعِتْكَافِ.

وَالنَّهْيُ عَنِ الْإِقْتِرَابِ مِنَ الْحَرَامِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْوُقُوعِ فِيهِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ: سَدُّ الطَّرِيقِ وَالذَّرَائِعَ الْمَوْصِلَةَ لِلْحَرَامِ، فَيَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَلَّا يَقَعَ فِي الْحَرَامِ، وَأَلَّا يَدْخُلَ فِيهَا يُوْدِّي إِلَى الْحَرَامِ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ أي: مِثْلَ ذَلِكَ الْبَيَانِ يُبَيِّنُهُ اللَّهُ. ﴿ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: مَعَالِمَ دِينِهِ، وَأَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ. وَ(الْآيَةُ): هِيَ الْعَلَامَةُ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يَتَّخِذُونَ مِنْ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ وَقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده، بالنَّسَخِ مِنَ الْأَثْقَلِ إِلَى الْأَخْفِ.

وفيها: جَوَازُ الْكَلَامِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي أُمُورِ الْجِمَاعِ، بِمَا يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهِ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفَصِيَامِ الْفَرْثُ إِلَى فِصَايَكُمُ﴾، ويدخل في الرفث: الكلام المتعلق بالجماع والشهوة.

وفيها: جواز جميع أنواع وأشكال الاستمتاع بالزوجة والأمة، إلا ما حرّمته الشريعة -كالوطء في الدبر، والوطء حال الحيض أو النفاس-.

وفيها: رفع همة المسلم من مجرد فعل المباح، إلى طلب الأجر من الله؛ لقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وفيها: أن من شك في طلوع الفجر؛ فله أن يأكل ويشرب حتى يتأكد من طلوعه؛ لقوله: ﴿حَتَّى يَبَيَّنَ﴾.

وفيها: بطلان بدعة الاحتياط للصوم، بالإمساك قبل الفجر بدقائق، كما يفعله بعض الجهلة، ويخصّصون له خانة في التقاويم المطبوعة، ويحدّدونها بعشر دقائق قبل طلوع الفجر! وفيها: مشروعية الاعتكاف، وهو عبادة عظيمة، وأنه لا يكون إلا في المسجد، وأنه يجوز أن يكون في أي مسجد، ولا يختص بالمساجد الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي الْمَسْجِدِ﴾، وحديث حذيفة: «لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ»^(١) -إِنْ صَحَّ-؛ فالمقصود به: الاعتكاف الكامل.

ويؤخذ من الآية: أن الجماع مُبطل للاعتكاف.

وفيها: استحباب الصيام حال الاعتكاف؛ لأن الله تعالى ذكره في آيات الصيام.

وفيها: أن العلم سبب للتقوى، وأن بيان الأحكام للناس من أسباب إيصالهم إلى مرتبة التقوى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٣٨):

ولمّا كان الذي حبس نفسه عن المباحات ومنعها منها في الصيام، خليقاً وجديراً أن يكون

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥١٩/٤)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٨٦).

مطعمه ومشربه ومكسبه حلالاً، وألا يدخل جوفه الحرام، وهو بهذه المثابة من العبادات؛ فإن الله تعالى نهى عن أكل المال بالباطل، واستعماله في المحرم؛ فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، فذكر التحريم العام في أخذ المال الحرام وإعطائه، بعد التحريم الخاص الذي يحصل في الصيام والاعتكاف.

وقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ أي: لا يأخذ بعضكم مال بعض بطريق محرم، كالربا والغصب والسرقه والقيمار والرشوة والخيانة، وأخذ الأجرة على المحرمات، أو أخذ ما لا يجوز أخذه من أموال الزكاة أو الصدقات، أو أخذ الأجرة على العبادات - كالذين يقرأون القرآن ويسألون به الناس - . وهذا النهي في الآية يشمل - أيضاً - أي انتفاع بالمال المحرم، حتى ولو لم يكن أكلاً؛ فلا يجوز أن يفتش أو يسكن أو يركب أو يلبس محرماً.

وفي قوله ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾: إشارة إلى أنه ينبغي على المسلم أن ينزل أموال إخوانه منزلة ماله، فإذا كان لا يرضى أن يأكل أحد ماله بالباطل؛ فكيف يرضى هو أن يأكل مال أخيه المسلم بالباطل؟!

وقوله ﴿بَيْنَكُمْ﴾: بيان أنه لا يجوز أكل المال بالباطل، انتهاكاً للعقود والمعاملات المبرمة بين الأطراف المختلفة، كالبيع والإجارة والرهن ونحوها. ﴿وَالْبَاطِلُ﴾ أي: كل ما يؤخذ ويتوصل إليه بغير حق.

﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي: تستميلوا بها الحكام والقضاة بالرشوة، ليحكموا لمصلحتكم. ومعنى الآية - أيضاً - : نهى من عليه الحق عن المخاصمة إلى القاضي، والإدلاء بالحجج الباطلة، في أمر ليس فيه بينة لصاحب الحق، ولذلك قال المفسرون: «لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم».

﴿لِتَأْكُلُوا﴾ أي: لتتوصلوا بالخسومة أو بالرشوة إلى أخذ حق الآخرين. ﴿فَرِيقًا﴾ أي: قطعة ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي: مما ملكوه شرعاً، وهذا يدل - بطريق الأولى - على عدم جواز المخاصمة بالباطل لأكل جميع أموال الطرف الآخر.

﴿يَا لَإِثْمٍ﴾ أي: بالظلم والعدوان، كشهادة الزور، واليمين الكاذبة. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا حق لكم في هذا المال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُرْص الشارع على حفظ الأموال، وتحريم الرِّشوة.

وفيها: أن قضاء القاضي لا يغيّر حقيقة الأمر؛ فلو حكم القاضي بالمال المتنازع عليه لغير صاحبه - بحسب ما ظهر له، أو نتيجة استعمال المدّعي بالباطل لشهود الزور أو اليمين الكاذبة -؛ فإن هذا الحكم لا يُصير المال حلالاً للظالم.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْحُصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ؛ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَرْكُهَا»^(١).

وفيها: الحكم بالظاهر، وأن الله لا يكلفنا ببواطن الأمور.

وفيها: تحريم أكل المال الحرام، ولو رضي به من دفعه، مثل: أجرة الزانية، والهدية إلى الساحر والكاهن، وثمر الخمر، ونحو ذلك. فليس مناط حلّ المال هو رضا طرفي العقد فقط؛ بل لا بُدَّ من رضا ربّ العالمين.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۚ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٨٩).

قيل في سبب نزول الآية: أن بعض الناس سألو رسول الله ﷺ عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، وما السرُّ في اختلاف حالها عن حال الشمس، التي هي دائمة أبداً على حالٍ واحدة، فلا تتغيّر بزيادة ولا نقصان؟! فنزلت هذه الآية^(٢).

و(الأهلة): جمع «هلال»، وهو: اسمٌ للقمر في أول الشهر. وسُمِّي هلالاً من «الاستهلال»، وهو رفع الصوت؛ وذلك أن الناس كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته.

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٥٣).

فَلَمَّا سَأَلُوا عَنِ الْأَهْلِ زِيَادَتِهَا وَنُقْصَانِهَا؛ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجِيبَهُمْ: ﴿قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ﴾ أي: علامات ﴿النَّاسِ﴾ أي: في أمورهم الدُّنْيَا والدُّنْيَا، كَأَجَالِ دُيُونِهِمْ، وَأَوْقَاتِ زَرْعِهِمْ، وَبَدَأِ صَوْمِهِمْ وَفِطْرِهِمْ، وَدُخُولِ وَقْتِ حَجِّهِمْ، وَعِدَدِ نِسَائِهِمْ.

﴿وَالْحَجَّ﴾ أي: دخول وقت الحج وخروجه؛ لأنَّ الإحرام للحج يكون في أشهر معلومات، تبدأ بدخول شوال.

وأفرد (الحج) بالذكر؛ اعتناءً بشأنه، ولأنَّه لا يصحُّ فعله أداءً ولا قضاءً إلا في وقت معلوم.

وقد تقدَّم ذكرُ الصيام وارتباطه بالهلال، في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ (البر) هو: الخير الكثير ﴿بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ﴾ أي: في حال الإحرام. وقيل: كانت العرب تفعل ذلك في الاعتكاف والعيد وعند إلغاء السفر أيضًا. فكانوا يعتقدون أنَّهم إذا أحرَمُوا؛ فلا يجوز لهم أن يدخلوا بيوتهم من أبوابها، ويزعمون أنَّ هذا من التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ! فنفى الله هذا وأبطله، وبَيَّنَّ أنَّ ذلك ليس من البر؛ وإنما هو تعسيرٌ وسَفَهٌ ومخالفةٌ للحكمة^(١).

وقوله ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ حقيقةٌ ﴿مَنْ أَتَقَى﴾؛ فعَرَّفَ (البر) بأنَّه (التَّقْوَى)، وهي: أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، يفعل ما أوجبه وترك ما حرَّمه.

ثم أمر تعالى بذلك وأكَّده؛ فقال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في تنفيذ أحكامه، وغير ذلك؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تنالوا (الفلاح)، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وفي هذه الآية من القوائد:

حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَى السُّؤَالِ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَعِنَايَةُ اللَّهِ بِهِمْ فِي الْإِجَابَةِ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ.

(١) انظر: صحيح البخاري (٤٥١٢)، تفسير ابن كثير (١/٥٢٢).

وفيها: أنَّ الميقات العالمي الصحيح للناس في أمورهم الدنيوية والدنيوية هو الأشهر القمريَّة، لا الميلاديَّة ولا الشمسيَّة، وأنَّ التوقيت بالهلال سهلٌ يسيرٌ، يُناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم؛ فهو آية بيَّنة يرونها في السماء، يعرفون بها بدايات الشهور، ونهاياتها. وفيها: تَرْكُ المعتقدات الخاطئة والعادات الجاهليَّة، والالتزام بالتعريفات الصحيحة للكلمات الشرعيَّة، وعدم إدخال ما ليس منها فيها، وعَرْضُ العادات على الشَّرْع؛ فما وافقه أُخِذَ به، وما خالفه نُبِذَ وتُرِكَ.

ويؤخَذُ منها: أنَّ التزام المُحَرِّم بكشف رأسه للسَّماء طيلة فترة الإحرام -بلا سَقْف ولا مظلَّة- ليس من البرِّ، ولا من الدِّين في شيء، بل يجوز له التظلل بالمظلَّة وسقف السيارة، وليس هذا من محظورات الإحرام.

وفيها: اختيار الطريق الأسهل والأيسر للقيام بالأُمور، ما لم يكن إثمًا.

وفيها: إجابة السائل بما يُفيدُه، ولو لم يكن قصده بسؤاله؛ تنبيهًا على أنَّ ما صُرِف إليه هو المُهِمُّ، لأنَّهم في مبدأ تشريع جديد، والمسئول هو الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان المُهِمُّ لهم أن يسألوه عما ينفعهم في صلاح دُنياهم وأخراهم، وهو معرفة كون الأهلَّة ترتب عليها آجال المعاملات والعبادات -كالحج، والصيام، والعِدَّة-.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٠):

ولمَّا ذكر تعالى بعض أركان الإسلام من العبادات؛ أتبع ذلك بذكر ذرِّوة سَنَامِه، وهو: الجهاد في سبيل الله؛ فقال: ﴿وَقَاتِلُوا﴾ أي: جاهدوا. و(المقاتلة) تكون من طرفين؛ أي: بين المسلمين والكفار. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته وطلبِ رِضْوَانِه، ولأجلِه، ولإعلاء كَلِمَتِه وإعزاز دينِه؛ ليكونَ القتال مبنياً على الإخلاص.

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي: القادرون على قتالكم، المستعدُّون له، قاصدين صدَّكم عن دينكم. وهذا القيد ليس المقصود منه وجوب القتال في حال مقاتلة الكفار لنا فحسب، فإذا لم يُقاتلونا لم نُقاتِلْهم! وإنَّما هو للإغراء لقتال الكفار؛ لأنَّهم لا يزالون يُقاتلوننا دائماً وأبداً؛ فكأنَّه يقول: أليسوا يُقاتلونكم، أليسوا يعتدون عليكم؟ وإن كُفُوا عنكم

اليوم قاتلوكم غداً، فالعدوان من طبعهم، وقتال المسلمين من غاياتهم. فلذلك أمر تعالى بجهادهم، وأغرى عباده المؤمنين لقتالهم؛ لتقوى العزائم على القيام بأمر الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: في القتال، بعدم مجاوزة الحد الشرعي في قتال الكفار، بترك التمثيل بجثثهم - بقطع أعضائها - وترك قتال من لم يشارك في القتال من الأطفال والنساء والشيخوخة والرهبان، لكن إن بذل الشيخوخة رأيهم وخبرتهم قوتلوا، ولا نقاتل من رضي بدفع الجزية، ولا نقطع شجراً بغير مصلحة شرعية.

وقد كان النبي ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية؛ أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»^(١).

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: هذه الجملة لتعليل الحكم، وهو النهي عن الاعتداء. و(الاعتداء): تجاوز ما لا يحل تجاوزه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الجهاد في سبيل الله، وأنه لكسر شوكة الكفار، المعارضين لتحكيم شرع الله في الأرض.

والكفار يُعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا: عُرض عليهم دفع الجزية - ليعيشوا تحت حكم المسلمين - فإن أبوا: قوتلوا.

وفيها: تحريم الاعتداء، ولو على الكفار.

وفيها: ربط الحكم بالحكمة، كما في قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ (١١٩) **فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٢٠﴾ :

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ﴾ أي: أينما وجدتموهم، في الحِلِّ أو الحَرَمِ.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من المكان الذي أخرجوكم منه، فإذا أغار الكفار على بلاد المسلمين، وأخرجوا المسلمين منها؛ وجب على المسلمين قتالهم وطردهم من بلاد المسلمين؛ في إزالة الاحتلال واجب.

ولمَّا كان الجهاد فيه إزهاق النفوس، وإتلاف الأموال، وحصول الضحايا والأضرار العظيمة؛ نبه تعالى أنه شرَّعه لما يترتب عليه من دَرءِ المفسدة الكبرى، وإزالة الضرر الأعظم من هذا كله؛ وهو الشُّرك والكُفر بالله.

فقال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (الفِتْنَةُ) هي الشُّرك والكُفر بالله. فالشُّرك بالله أشدُّ من قتل النفوس، وصدُّ الناس عن دينهم أشدُّ من قتلهم. والكفار لا يزالون يقاتلوننا حتى يردُّونا عن ديننا إن استطاعوا، وردُّنا عن ديننا هو الفِتْنَةُ؛ فوجب ردُّ الفِتْنَةِ ولو بجهادهم، مهما ترتب على ذلك من الأضرار، ولو كان القتل في الحَرَمِ.

ثم نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن قتال الكفار في منطقة الحَرَمِ الذي حرَّمه الله، إلَّا إذا بدأوا هم بالقتال، فحينئذ يجب قتالهم دفعًا لعدوانهم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾ أي: لا تبدأوا قتالهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهذا يشمل: مكة، ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبدأوا قتالكم في الحَرَمِ.

﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ﴾ في الحَرَمِ؛ ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ ولا تُبَالُوا؛ لأنَّهم هم الذين هتكوا الحُرمة؛ فاستحقُّوا العذاب.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾: يُفعل بهم مثل ما فعلوا.

﴿فَإِنْ أَنَّهُوَا﴾ أي: كفُّوا عن قتالكم، وعن كُفرهم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لهم ما سلف من الكُفر. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، بقبول توبتهم.

وفي الآيتين من الفوائد:

- وجوب قتال الكفار، وأنه مشروط بالقُدرة على ذلك، وأنه في كلِّ زمان ومكان.
- وفيها: مبدأ المعاملة بالمِثل.
- وفيها: أنَّ المسلمين أحقُّ بأرض الله؛ لأنَّهم يُقيمون فيها التوحيد والعَدْل، والكفار يُشركون فيها بالله تعالى، ويظلمون، ويعتدون على الحُرُمات.
- وفيها: أنَّ الفِتنَةَ بالكُفر أسوأ وأشدُّ من إراقة الدِّماء، وسلبِ الخيرات، وإتلافِ الأموال.
- وفيها: دليلٌ على القاعدة الشرعيَّة: «ارتكاب أدنى المفسدتين».
- وفيها: تعظيم حُرمة المسجد الحرام.
- وفيها: تمام عَدْل الله سبحانه وتعالى، بوجوب الكفِّ عن الكفار إذا انتهوا عن الكُفر.

﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣):
 ﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ أي: الكفار، في الحِلِّ والحَرَم؛ ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شُرْكٌ، وصَدٌّ عن سبيل الله، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: حتى يكون دين الله ظاهراً وغالباً على بقية الأديان.
 ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ أي: كفوا، ورجعوا عن الكُفر وقاتل المسلمين؛ ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ أي: فلا اعتداء ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: المُصرِّين على الكُفر، أو المبتدئين بالقتال.

وفيها: أنَّ الأمر بالقتال مُقيَّد بغايتين:
 الأولى: ألا توجد فِتْنَةٌ، وهي الشُّرك، والصَّدُّ عن سبيل الله.
 والثانية: أن يكون الدِّين لله، أي: ظاهراً، غالباً، عاليّاً على غيره.
 وفيها: أنَّ الكفار إذا انتهوا عن القتال؛ وَجِبَ الكفُّ عنهم، فإمَّا أن يُسَلِّموا، أو يدفعوا الجزية.

وفيها: أنَّ الظالم يُجَازَى بمِثل عُدوانه.
 وفيها: أنَّ تسمية المجازاة (اعتداءً)؛ هو من باب مُقابلة الشيء بمثله، والجزاء من جنس العمل.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١١٤) :

ولما ذكر تعالى حكم انتهاك حرمة المكان في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتَّلُوا فِيهِ﴾؛ ذكر حكم انتهاك حرمة الزمان؛ فقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: إذا قاتلكم الكفار في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه.

ولذلك لما خرج النبي ﷺ في ذي القعدة - وهو شهر حرام - قاصداً العمرة، ونزل في الحديبية - قريبا من الحرم - ولم يبدأ المشركين بقتال، لكن لما أشيع أن أهل مكة قتلوا عثمان رضي الله عنه، وكان النبي ﷺ قد أرسله ليفاوضهم في دخول مكة؛ تجهز وأصحابه للحرب والقتال في الشهر الحرام، وفي المكان الحرام؛ لأن المشركين هم الذين انتهكوا حرمة الحرم.

وكذلك لما امتدَّ قتال هوازن بعد معركة حنين إلى حصار الطائف؛ استمرَّ ﷺ في القتال في الشهر الحرام^(١).

وقوله ﴿وَالْحُرُمَتُ﴾ (الحُرُمات): جمع حُرمة - كـ (ظُلُمات) و (ظُلُمة) - وهي: كل ما يجب احترامه، ولا يجوز انتهاكه.

وفائدة جمع (الحُرُمات) هنا؛ لأنه أراد: الشهر الحرام، والبلد الحرام، وحرمة الإحرام. ﴿قِصَاصٌ﴾ أي: يجري فيها القصاص والبدل؛ فمن انتهك حرمة شيء فإنه تُنتهك حرمة؛ كمن انتهك نفساً معصومة؛ فتنتهك نفسه بقتله، ومن انتهك حرمة الشهر الحرام بالقتال: قُوتل.

ثم بيّن ذلك تعالى، بقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالقتال في المكان الحرام، أو الزمان الحرام، وتجاوز الحد في معاملتكم، بأخذ المال، أو بقتل النفس، أو الاعتداء على العرض، ونحو ذلك؛ ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾: سِماه (اعتداء)؛ لأنه مسبب عن الاعتداء الأول، والبادئ أظلم، والقصاص عدل، فعاقبوه وقابلوه بمثل الجناية التي اعتدى عليكم بها. ولذا قال:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٧).

﴿يُمِثِّلُ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: ليكن انتقامكم مماثلاً ومطابقاً للاعتداء الأول؛ في هيئته وكيفيته، وزمانه ومكانه.

ونظراً لأن ردَّ الاعتداء قد يحدث فيه ظلمٌ وتجاوزٌ؛ ذكَّر تعالى بالتَّقْوَى، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا عذابه؛ فلا تَعْتَدُوا في القصاص. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بنصره وحِفظه ورعايته لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَدَلُ الله تعالى في التشريع.

وفيها: مشروعية القصاص في الحُرُمات.

وفيها: أَنَّ رَدَّ الْعُدْوَانِ بِمِثْلِهِ إِنَّمَا لِأَخْذِ الْحَقِّ، وليس للتشفي.

وفيها: أَنَّ مُقَابَلَةَ الْكُفَّارِ وَالرَّدَّ عَلَى اعْتِدَائِهِمْ، علامةُ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَقُدْرَتِهِمْ، وَأَنَّ عَدَمَ الرَّدِّ علامةُ ذُلٍّ وَضَعْفٍ وَمِهَانَةٍ.

وفيها: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُرَوِّا الْكُفَّارَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ قُوَّةً، حَتَّى لَا يَفْكُرُوا فِي الْعُدْوَانِ وَلَا يَسْتَمِرُّوهُ.

وفي الآية: معية الله للمؤمنين وتأيدته لهم؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا افْتَخَرَتْ بِمَنْعِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ لِلْعُمْرَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ عَامِ الْحُدَيْبِيَّةِ؛ مَكَّنَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْقِصَاصِ مِنْهُمْ، فَدَخَلَ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ الَّتِي بَعْدَهَا - فِي ذِي الْقَعْدَةِ -؛ فَقَضَى عُمْرَتَهُ.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥):

ولمَّا كَانَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَحْتَاجُ إِلَى بَذْلِ الْمَالِ فِيهِ؛ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابدلوا الأموال في الجهاد في سبيل الله. ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ أَيْضًا: الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَائِرِ وَجُوهِ الْقُرْبَاتِ وَالطَّاعَاتِ، كَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى النَّفْسِ وَالْعِيَالِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: لا تَوْقِعُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي: الْهَلَاكِ. وَعَبَّرَ بِـ (الْأَيْدِي)

عن الأنفس؛ لأنّها جزءٌ مُهمٌّ منها، وبها البطش والحركة. والمعنى: لا تُلقُوا أنفسكم فيما يُهلكها، وهذا يشمل الإهلاك الحِسِّي - كاللقاء النفس في النار، أو من علُوّ شاهق، أو في ماء يغرق فيه، أو الخروج في السفر بغير زادٍ يحصل معه الهلاك من الجوع والعطش، ونحو ذلك - والإهلاك المعنويّ - مثل: البخل، والاستكثار من الذُّنوب مع عدم التوبة، والانشغال بالدُّنيا وترك الجهاد في سبيل الله، وترك الإنفاق في سبيل الله -.

ويدلُّ على ذلك: ما جاء عن أسلمَ أبي عمَرَانَ، قَالَ: غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!

فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيْنَا - مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ - لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فَالِلِقَاءِ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ: أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا، وَنَدَعَ الْجِهَادَ»^(١).

ويتعلّق بهذا الأثر مسألة، وهي: أن يحمل رجلٌ على العدوِّ وحده، ويقتحم صفوفهم، وينغمس فيهم، فما الحكم؟

فالجواب: إن غلب على ظنه أنّه يسلم ويُنكِي فيهم نكايَةً كبيرة، ويقتل منهم ويجرح قبل أن يقتلوه؛ فهذه جُرْأةٌ محمودة وثوابها عظيم؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِرْهَابِ الْأَعْدَاءِ، وَالْفَتْ فِي عَصْدِهِمْ، وَتَشْجِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اقْتِحَامِ صُفُوفِ الْعَدُوِّ، وَأَنْ يَرَى الْعَدُوُّ شَجَاعَةَ الْمُسْلِمِ؛ فَتَضَعُفُ مَعْنَوِيَّاتُ الْأَعْدَاءِ.

وأما إذا غلب على ظنه أن هذا الاقتحام والانغماس في صفوف العدوِّ، سيكون بلا فائدةٍ مرجوّة، وسيترتب عليه قتله بلا مصلحة؛ فلا يجوز؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إِهْلَاكِ النَّفْسِ بِلا مُقَابِلٍ، وَاغْتِرَارِ الْكُفَّارِ بِقُوَّتِهِمْ، وَسُرُورِهِمْ بِقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ إِضْعَافِ مَعْنَوِيَّاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَحُزْنِهِمْ عَلَى قَتْلِهِمْ.

(١) رواه أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٨٨).

وقوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أي: في عبادة الخالق، ومعاملة الخلق، وأحسنوا أعمالكم، وأحسنوا في الإنفاق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا تعليل للأمر بالإحسان؛ فإذا عَلِمَ العبد أن الله يحبه إذا أحسن؛ بادَرَ إلى الإحسان.

وفي هذه الآية من القوائد:

فَضْلُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَاصَّةً فِي الْجِهَادِ.
وَفِيهَا: الْإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
وَفِيهَا: تَحْرِيمُ مَا يُهْلِكُ الْإِنْسَانَ فِي دِينِهِ، وَدُنْيَاهُ.
وَفِيهَا: أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِلضَّرَرِ فَهُوَ حَرَامٌ، وَيَدْخُلُ فِيهِ: مَسَبِّبَاتُ الْأَمْرَاضِ - كَالْتَدَخُّينَ وَغَيْرِهِ -.

وَفِيهَا: الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ فِي الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ.
وَفِيهَا: إِثْبَاتُ صِفَةِ (الْمَحَبَّةِ) لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.
وَفِيهَا: أَنَّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَعَلِيهِ أَلَّا يُغَاوِرَ بِهِمْ، وَلَا يَفْعَلَ مَا يُوْذِي إِلَى هَلَاكِهِمْ، فَلَا يَدْخُلُ بِهِمْ فِي مَفَازَةٍ أَوْ صَحْرَاءٍ مُهْلِكَةٍ، وَلَا يَقْتَحِمَ بِهِمْ فِي عَدُوٍّ يَتِمَكَّنُ مِنْ تَصْفِيَتِهِمْ، وَإِذَا رَأَى أَنَّ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْإِنْسِحَابَ أَوْ عَقْدَ هُدْنَةٍ مَعَ الْكُفَّارِ - إِبْقَاءَ عَلَى نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى لَا يُقْتَلُوا بِلا فَائِدَةٍ -؛ فَلَهُ فِعْلُ ذَلِكَ.
وَقَدْ تَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِصَارَ الطَّائِفِ، لَمَّا كَثُرَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ الْجِرَاحَاتُ، وَأَقْرَّ خَالِدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى إِنْسِحَابِهِ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُؤْتَةِ.
وَفِيهَا: أَنَّ التَّفْرِيطَ فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِلْجِهَادِ حَرَامٌ؛ لِأَنَّهُ إِبْقَاءُ نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَوَبَالَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى

الْحَجَّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ. حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣٦﴾:

ولمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَحْكَامَ الصِّيَامِ؛ أَتْبَعَهَا بِذِكْرِ أَحْكَامِ الْحَجِّ؛ لِأَنَّ شَهْرَ الْحَجِّ بَعْدَ شَهْرِ الصِّيَامِ مَبَاشَرَةٌ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أَي: أَدُّوهُمَا تَامِّينَ، بِشُرُوطِهَا، وَأَرْكَانِهَا، وَوَاجِبَاتِهَا، وَإِذَا أَحْرَمْتُمْ بِهَا فَلَا بُدَّ مِنْ إِتِمَامِهَا.

وَمِنْ تِمَامِهَا: أَنْ يَخْرُجَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِهِ لَا يَرِيدُ إِلَّا الْحَجَّ أَوِ الْعُمْرَةَ، لَا لِتِجَارَةٍ وَلَا لِحَاجَةٍ. وَمِنْ تِمَامِهَا: أَنْ يُفْرِدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْآخَرِ.

وَمِنْ تِمَامِهَا: أَنْ يَخْرُجَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِهِ لِقَصْدِ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ، ثُمَّ يَمُرَّ بِالْمِيقَاتِ فَيُحْرِمَ مِنْهُ، وَهَذَا أَكْمَلُ مَنْ سَافَرَ لِحَاجَةٍ، ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ قَصْدُ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ؛ فَأَحْرَمَ مِنْ مَكَانِهِ.

﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أَي: مُنِعْتُمْ مِنْ إِتِمَامِ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ لِأَيِّ سَبَبٍ قَاهِرٍ، كَالْعَدُوِّ، أَوِ الْمَرَضِ، أَوْ كَسَرِ عَظْمٍ مِنَ الْأَعْضَاءِ، أَوِ السَّجَنِ، أَوِ التَّرْحِيلِ - كَمَا فِي عَصَرِنَا -؛ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ أَي: فَعَلَيْكُمْ ذَبْحُ مَا تَيْسَرُ وَسَهْلٌ عَلَيْكُمْ ﴿مِنْ الْهَدْيِ﴾ أَي: مِنَ الْإِبِلِ أَوِ الْبَقَرِ أَوِ الْغَنَمِ الْمُجْزِئَةِ، فَإِنْ كَانَ مُوسِرًا وَذَبَحَ بَدَنَةً فَحَسَنٌ، وَإِنْ أَهْدَى شَاةً فَهُوَ كَافٍ، وَإِنْ اشْتَرَكَ مَعَ سَبْعَةٍ فِي بَدَنَةٍ أَوْ بَقَرَةٍ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ.

﴿وَلَا تُحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أَي: لَا تُزِيلُوا الشَّعْرَ ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أَي: يَصِلَ زَمَانُ حُلُولِهِ - وَهُوَ يَوْمُ الْعِيدِ - وَمَكَانُ حُلُولِهِ - وَهُوَ الْحَرَمُ -. وَقِيلَ: حَتَّى يَذْبَحَ الْهَدْيُ، وَتَكُونَ الْآيَةُ - حِينَئِذٍ - فَيَمْنُ سَاقُ الْهَدْيِ.

وَقَوْلُهُ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ أَي: فَاحْتَاجَ إِلَى حَلْقِ رَأْسِهِ لِمَرَضِهِ، ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ مِثْلُ: الْقُمَّلِ أَوْ غَيْرِهِ، فَاحْتَاجَ إِلَى الْحَلْقِ، أَوْ إِلَى تَغْطِيَةِ رَأْسِهِ - مِثْلًا -؛ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أَي: فَعَلِيهِ عِنْدَ فِعْلِ الْمَحْظُورِ فِدْيَةٌ ﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ وَهِيَ: ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، تَجُوزُ فِي الْحَرَمِ، وَفِي غَيْرِهِ.

﴿أَوْ صَدَقَةٌ﴾ (أَوْ) هُنَا لِلتَّخْيِيرِ؛ أَي: إِنْ شَاءَ صَامَ، وَإِنْ شَاءَ أَخْرَجَ الصَّدَقَةَ. وَهِيَ: إِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نَصْفُ صَاعٍ مِنَ الطَّعَامِ - مِنَ الْقَمْحِ، أَوِ الْأُرْزِ، أَوْ نَحْوِهَا -.

﴿أَوْ نُسْكِ﴾ أي: وإن شاء ذبح شاة، وتصدق بها، ولا يأكل منها شيئاً.

ويكون ذلك في مكة، أو في مكان فعل المحذور.

فما وجب من الفدية بسبب ارتكاب محذور من محظورات الإحرام، يغير فيه الإنسان بين فعله في الحرم، أو في محل ارتكاب المحذور، إلا جزاء الصيد فإنه يكون في الحرم.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ من العدو والمنازع؛ فأتيموا الحجَّ والعُمرة.

ثم شرع تعالى في تفصيل المناسك؛ فقال: ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾، وهذا يشمل مَنْ أحرم بهما معاً - وهو «الفرار» - أو أحرم بالعمرة أولاً، ثم إذا فرغ منها تمتع بها أحله الله له ممّا كان محظوراً عليه وقت الإحرام، ثم أحرم بالحجّ - وهو «التمتع» المعروف في كلام الفقهاء -.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه ذبح ما تيسر وسهل من بهيمة الأنعام المُجزئة.

ويجب دمُ التمتع الخاص على مَنْ أتى بالعمرة في أشهر الحجّ، ثم حجّ من العام نفسه، ولم يرجع بينهما إلى بلده، بشرط ألا يكون من حاضري المسجد الحرام.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ من المتمتعين الهدْيَ أو ثمنه؛ ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيام ﴿فِي الْحَجِّ﴾ أي: في أثناء الحجّ، أو حال إحرامه بالحجّ.

والأفضل أن يصومها قبل يوم عرفة، فإن فاتته أو فاتته بعضها؛ صامها أو أتمّها في أيام التشريق - وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة -؛ لحديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهما: «لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ، إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ»^(١).

﴿وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: يصوم سبعة أيام - تكملة العشرة - إذا رجع إلى وطنه؛ لحديث: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا؛ فَلْيُصِّمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ»^(٢).

﴿تِلْكَ﴾ أي: الثلاثة والسبعة ﴿عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي: أتموا عددها، فهي كاملة في الثواب والأجر، قائمة مقام الهدْي. ويجوز أن تكون متتابعة، أو متفرقة.

(١) رواه البخاري (١٩٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٦٩١)، ومسلم (١٢٢٧).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: المذكور من وجوب الهدي -أو بدله- على المتمتع ﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ﴾ أي: مَسْكَنَهُ، وَمَنْ يَسْكُنُ إِلَيْهِمْ مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ ﴿حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قِيلَ: مَكَّة، وَقِيلَ: أَهْلُ مَنْطِقَةِ الْحَرَمِ، وَقِيلَ: مَنْ كَانَ دُونَ الْمَوَاقِيتِ، وَقِيلَ: مَنْ كَانَ عَلَى مَسَافَةٍ مِنَ الْحَرَمِ لَا تُقْصَرُ فِيهَا الصَّلَاةُ.

والأقرب: أن حاضري المسجد الحرام: هم أهل الحرم^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوا الله في هذه المناسك وغيرها، فافعلوا ما أمر به، واجتنبوا ما نهى عنه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لَنْ تَرْكَ التَّقْوَى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب إتمام الحج والعمرة، فرضاً ونفلاً؛ فَمَنْ تَلَبَّسَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، وَأَحْرَمَ بِأَيِّ مِنْهُمَا؛ صَارَ فَرَضًا عَلَيْهِ إِتِمَامُهُ، وَلَوْ كَانَ نَافِلَةً.

وفيها: أَنَّ الْخُرُوجَ مِنَ الْإِحْرَامِ بِدُونِ طَوَافٍ وَلَا سَعْيٍ، جَهْلٌ عَظِيمٌ، بَلْ لَا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ أَصْلًا.

وَيُكْرَهُ قَطْعُ النَّفْلِ فِي غَيْرِهِمَا، إِلَّا لِعَرَضٍ صَحِيحٍ.

وفيها: أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْإِسْتِنَابَةُ فِي أَفْعَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ -كَالْإِحْرَامِ وَالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ- وَيجوز التوكيل في الرمي للضرورة.

وفيها: وجوب الإخلاص لله في المناسك؛ لقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: له لا لغيره.

وظاهر الآية: أَنَّ كُلَّ إِحْصَارٍ يَمْنَعُ مِنْ إِتِمَامِ النَّسْكِ؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ التَّحَلُّلُ بِهِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾. وَمَنْ اشْتَرَطَ عِنْدَ إِحْرَامِهِ فَقَالَ: «إِنْ حَبَسَنِي حَابِسٌ؛ فَمَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»؛ ثُمَّ مَنَعَهُ مَانِعٌ مِنْ إِتِمَامِ النَّسْكِ؛ جَازَ لَهُ التَّحَلُّلُ وَالرُّجُوعُ، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، لَا فِدْيَةٍ، وَلَا هَدْيٍ، وَلَا حَلْقٍ.

(١) وهو اختيار علماء اللجنة الدائمة، والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: فتاوى اللجنة (١١/ ٣٨٩)، مجموع فتاوى ابن عثيمين (٧٠، ٧١/ ٢٢).

وفيها: أَنَّ الْمُحْضَرَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْلِفْهُ بِذَلِكَ.

وفيها: تَحْرِيمُ حَلْقِ الرَّأْسِ عَلَى الْمُحْرِمِ، وَأَلْحَقَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ شَعَرَ بَقِيَّةِ الْبَدَنِ.

وفيها: فَضِيلَةُ حَلْقِ الشَّعْرِ فِي النَّسْكِ، وَهُوَ إِزَالَتُهُ إِزَالَةً تَامَّةً بِالْمُوسَى وَنَحْوِهَا، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ التَّقْصِيرِ.

وفيها: رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْعِبَادِ؛ أَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْفِدْيَةَ، كَفَّارَةً عَنْ فِعْلِ الْمَحْظُورِ، إِذَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجِبُ الْاِقْتِرَاضُ عَلَى مَنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ؛ فَمَنْ تَعَذَّرَ أَوْ تَعَسَّرَ عَلَيْهِ الْهَدْيُ فَلَا يُلْزَمُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ صِيَامُ السَّبْعَةِ فِي الْحَجِّ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ صِيَامِ الثَّلَاثَةِ إِلَى مَا بَعْدَ الْحَجِّ، دُونَ عُذْرٍ.

وفيها: تَيْسِيرُ اللَّهِ تَعَالَى؛ أَنْ جَعَلَ السَّبْعَةَ - وَهِيَ الْعِدَّةُ الْأَكْبَرُ - بَعْدَ رَجُوعِ الْحَاجِّ إِلَى بَلَدِهِ.

وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِالآيَةِ عَلَى: وَجُوبِ الْعُمْرَةِ.

وَفِي الْآيَةِ: فَضْلُ التَّمَتُّعِ.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى ۚ وَاتَّقُوا بَنَاتُؤُنِي الْأَلْبَابِ ۚ﴾ (١٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ أَي: الْحَجُّ ذُو أَشْهُرٍ مَعْلُومَاتٍ، أَي: مَعْرُوفَاتٍ بَيْنَ النَّاسِ. وَأَشْهُرُ الْحَجِّ هِيَ: شَوَالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ يَفُوتُ بِطُلُوعِ فَجْرِ يَوْمِ النَحْرِ، فَلَا يَجُوزُ الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ بَعْدَ فَجْرِ يَوْمِ الْعَاشِرِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يُحْرِمُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ؛ فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ الْحَجِّ: أَنْ تُحْرِمَ بِالْحَجِّ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ» (١).

(١) رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ (٢٥٩٦). وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُ الصَّحَابِيِّ: «مِنْ السُّنَّةِ كَذَا» فِي حَكْمِ الرُّفُوعِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ، وَلَا يَسِيئُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ تَرْجُمَانُهُ». تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (١/٥٤١).

وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما، أنهما كانا يُجَيِّبان الاعتبار في غير أشهر الحج، وينهيان عن ذلك في أشهر الحج^(١). ولهذا كَرِهَ مَنْ كَرِهَ من العلماء الاعتبار في بقية ذي الحجة، ومعلوم أن أعمال الحج تنقضي بانقضاء أيام منى.

وقوله ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم بالحج، وهو ركن من أركانه. وتشمل الآية العمرة أيضًا.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: فعليه أن يجتنب الجماع، ودواعيه - كاللمس بشهوة، والتقبيل، والكلام في شأن الجماع - والفحش من الكلام عموماً. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: وعلى المحرم اجتناب جميع المعاصي، ومن ذلك: الوقوع في محظورات الإحرام.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في أجر من ترك الرفث والفسوق في الحج: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفَثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٢).

﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: لا منازعة، ولا خصومة، ولا مراء، ولا فعل ما يُغضب الرفقة ويورث الشحناء. ومن ذلك أيضًا: التعصب لأراء وأقوال الرجال، والجدال العقيم مع الباعة ومن يستأجرهم. ولا بأس بالزجر والتأديب والضرب - لولد أو عبد - إذا احتاج إليه، وتركه أولى.

ولا يدخل في النهي عن الجدال: المناقشات المفيدة في مسائل الحج العلمية، من غير تعصب، والجدال بالتي هي أحسن في مقام الدعوة.

ولما نهى الله تعالى عن الشر؛ أرشد إلى فعل الخير، وأخبر أنه به عليم؛ فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ أي: بالخير، يقبله، ويجازي عليه خيرًا، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أي: أخذوا من الزاد ما يكفيكم في السفر، حتى لا تحتاجوا إلى الناس، وتزودوا - مع غذاء الجسم - غذاء القلب؛ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ﴾ أي: أفضله ﴿التَّقْوَى﴾ وهي: اتقاء عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).

وَمِنْ خَيْرِ زَادِ الدُّنْيَا لِلْحَاجِّ: مَالٌ حَلَالٌ طَيِّبٌ، يُعْفَقُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ، وَالْإِثْقَالِ عَلَيْهِمْ.
وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ
 وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ! فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾»^(١).

﴿وَأَتَّقُوا﴾ أي: خافوا عقابي، بامتنال ما أمرت واجتناب ما نهيت ﴿يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾:
 يا أصحاب العقول والأفهام.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم شأن الحج، وأن الله جعل له شهراً، مع أن مناسكته تتم في أيام.
 وفيها: أنه لا يجوز تأخير أي عمل من أعمال الحج إلى ما بعد أشهر الحج.
 وفيها: أن الإحرام بالحج قبل أشهره لا ينعقد؛ لقوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ﴾.

وفيها: النهي عن الترفّث، وهو درجات: فمنه ما يفسد الحج ويُبطله -وهو الجماع قبل
 أعمال يوم النحر- ومنه ما لا يبطله ولكن يآثم به صاحبه ويجب عليه فدية أذى -وهو
 المباشرة بشهوة- ومنه ما يآثم به صاحبه ويُنقص أجره، لكن لا فدية عليه -كالكلام في
 أمور الجماع ونحوه-.

وفيها: أن محظورات الإحرام تبدأ بمجرد عقد نية الإحرام، ولو بقي عليه شيء من
 المخيط مثلاً.

وفي الآية: أن على الحاج الابتعاد عما ينافي معنى الحج، من الترفّث والتنعّم، ويدخل
 فيه: الطيب، والمخيط، وقص الشعر، ويتعد كذلك عن الشهوة وأسبابها؛ فيغض البصر،
 ويتحاشى الكلام في أمور الجماع، ولا يمس امرأته بشهوة، ويجوز مسّها بغير شهوة -كأن
 يقودها في الزحام-. وإذا كان يحرم عليه تعاطي الفسوق قبل الإحرام؛ فابتعاده عنه في حال
 الإحرام أكد وأوجب.

(١) رواه البخاري (١٥٢٣).

وفيها: أن على الحاج أن يتعد عن كل ما يُقَسِّي القلب، ويُسْوِس الفكر، كالجدال والمراء.

وفيها: الحثُّ على الزيادة من فعل الخير في مواسم الطاعة؛ فأجر العامل فيها يعظم ويُضاعف.

وفيها: تنبيه العباد للأخذ بالأسباب.

وفيها: الأخذ بالأسباب في الدنيا، بما يُعين على طاعة الله.

وفيها: أن العبد يُوجَر على الأخذ من الدنيا بما يُعينه على الآخرة.

وفيها: أن العبادة لا تُنافي تحصيل ما يحتاجه الإنسان في الدنيا.

وفيها: أن زاد الآخرة أفضل من زاد الدنيا؛ لأنَّ زاد الدنيا فاني، ويحقق مراد النفس ويوافق شهواتها، أمَّا زاد الآخرة: فهو يُوصِل إلى النعيم المقيم في الجنة.

وفيها: أهمية التقوى في أداء العبادات، وأن التذكير بها ليس خاصًا بمن يفعل المحرمات.

وفيها: التذكير بالزاد الظاهر في سفر الدنيا، والزاد الباطن في سفر العبد إلى الدار الآخرة.

وفيها: العمل على الاستغناء عن الناس، وبذل الأسباب للتعفف عما في أيديهم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (١١٨):

ولمَّا نهى تعالى في مطلع الآية عن أمور تُنافي الحج - وهي الرِّفْت والفسوق والجدال - وأمر سبحانه بالتزوُّد في السفر، وعدم نسيان التقوى؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ حُكْم التَّكْسُّب - بالإجارة والبيع والشراء ونحوها - للحاج في موسم الحج، وأنها من الأمور التي لا تُنافي الحجَّ، وإن كان تركها والتفرُّغ للعبادة أولى وأفضل.

فقد يسأل سائل: هل يجوز عمل الدنيا في هذه العبادة العظيمة؟ وهل تُقبل عبادة من تعاطى أنواع المعاملات والتجارة في موسم الطاعة العظيم هذا؟

فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةٌ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ تَأَثَّمُوا مِنَ التَّجَارَةِ فِيهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ»^(١).

فليس على المسلمين حرج من الاتجار في موسم الحج، في الأسواق التي أنشأها المشركون لهذا الغرض.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ التَّيْمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نُكْرِي^(٢)، فَهَلْ لَنَا مِنْ حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَتَأْتُونَ الْمُعَرَّفَ^(٣)، وَتَرْمُونَ الْجِمَارَ، وَتَحْلِقُونَ رُءُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى.

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِي سَأَلْتَنِي، فَلَمْ يُجِبْهُ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»^(٤).

وقوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يا عبادة الله، من الحُجَّاجِ ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: حَرَجٌ وَذَنْبٌ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: رِزْقًا، بالتجارة والإجارة ونحوه.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ أي دفعتم، وذهبتم، ورجعتم. و(الإفاضة) هي: الاندفاع ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ وهو اسم للمكان المعروف، وهو عمدة أفعال الحج؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَجُّ عَرَفَةٌ»^(٥).

(١) رواه البخاري (٢٠٩٨).

(٢) أي: نؤجر دوابنا في عمل الحج، ونحج معهم تبعًا.

(٣) أي: تقفون عرفة.

(٤) رواه أحمد (٦٤٣٤)، وصححه محققو المسند.

(٥) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصححه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

قيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام عَرَفَهُ لَمَّا زاره مع جبريل عليه السلام، وكان قد رآه قبل ذلك. وقيل: لأنَّ آدم تعارَفَ وزوجته فيه، بعد ما أُهبطا إلى الأرض. وقيل: لأنَّ الناس يتعارَفون فيه فيما بينهم. وقيل: لأنَّهم يعترِفون فيه بذنوبهم. وقيل: لأنَّ عرفة مرتفعة على غيرها.

ووقت الوقوف بعرفة - عند أكثر العلماء -: من بعد زوال الشمس يومَ التاسع، إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر. واستدلُّوا على ذلك بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولقوله: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»^(١)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(٢)؛ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ»^(٣).

وقال بعض العلماء: وقتُ الوقوف يبدأ من أول يوم عرفة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نُدْفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا؛ فَقَدْ أَتَمَّ حَجَّهُ وَقَضَى تَفَتُّهُ»^(٤).

وتُسمَّى عرفة بـ «المشعر الحلال» - لأنها خارج الحرم - و«المشعر الأقصى» - لأنها أبعد ما يصل إليه الحُجَّاج في مناسكهم -. فيكون الحاجُّ بوقوفه فيها قد جمع في تُسكِّه بين الحِلِّ والحَرَم. ﴿فَآذِكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: بالتلبية والدُّعاء والتهليل والتكبير، وأنواع الذِّكْرِ، باللسان والقلْب والجوارح. وصلاة المغرب والعشاء والفجر من ذكر الله. ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهو: الجبل الصغير في آخر مُزْدَلِفَةَ، الذي وقف عليه النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفجر، يذكر الله ويدعو، حتى أسفر جدًا - أي: انتشر النور قبل طلوع الشمس -.

و﴿الْمَشْعَرِ﴾: اسم للمكان الذي تؤدَّى فيه الشعيرة. وهو معلَّم العبادة. وصفه بـ (الحرام) لحُرْمته، ولأنَّه داخل حدود الحرم.

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) يعني: فجر يوم العاشر - يوم النحر -.

(٣) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٢٩٧٥)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

(٤) رواه أبو داود (١٩٥٠)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي (٣٠٤٢)، وابن ماجه (٣٠١٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٦).

وَمُزْدَلِفَةٌ كُلُّهَا مَكَانٌ لِلْوُقُوفِ؛ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ بَطْنِ عُرْنَةٍ^(١)، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ^(٢)، وَكُلُّ فِجَاجٍ مِنْى مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ الشَّارِقِ ذَبْحٌ^(٣)».

قوله ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ﴾: أَمَرَ بِذِكْرِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وفيه دليل على مشروعية الإكثار من الذكر في الحج، وتعليل بأنه هدايا لدينه، ودلنا على هذه المناسك العظيمة.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: قبل هذه الهداية والبيان والإرشاد - عن طريق الكتاب والرسول - ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: لا تعرفون كيف تذكرون، ولا كيف تعبدون ربكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنه ينبغي للمسلم في حال تكسبه أن يرقب فضل الله، ولا يتكبر على قدرته ومهارته. وفيها: منة الله تعالى على عباده، بإباحته التكسب في موسم العبادة العظيم هذا، ولا تزال التجارة في موسم الحج من أعظم وسائل جني الأرباح، وعليها اعتماد كثير من الأفراد والأسر والشركات والهيئات والمؤسسات في دخلهم السنوي.

وفيها: أنه يشترط للوقوف بمزدلفة أن يكون بعد عرفة. ولا يشترط أن يكون واقفاً على رجله؛ فلو كان قاعداً أو مضجعاً أجزأه ذلك. وهواء المناسك له حكم أرضها وقرارها.

وفيها: أن الصلاة من ذكر الله.

وفيها: أن مزدلفة من الحرم.

وفيها: مقابلة نعمة هدايته بكثرة ذكره عز وجل.

وفيها: أن الذكر المشروع هو ما وافق الشرع، وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ﴾، إذا كانت (الكاف) للتشبيه.

(١) وهو وادٍ خارج عرفات.

(٢) وهو وادٍ بين منى ومزدلفة.

(٣) رواه أحمد (١٦٧٥١)، وابن حبان (٣٨٥٤)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٣٨٤٣).

ومن أفضل الذكر في الحج - وفي عرفة خصوصاً -: التلبية، وقول (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير).

وفيها: أن تذكر الإنسان بحاله قبل الهداية؛ مفيدٌ في تعريفه بقيمتها.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩):

قوله ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد وقوف الناس بعرفة ومُزْدَلِفة ﴿أَفِيضُوا﴾ - يا قُرَيْش - ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: عاقمة المسلمين، الذين حضروا موسم الحج، وكان في قُرَيْش أنفة وكبر، فلا يتجاوزون مُزْدَلِفة، ولا يقفون مع الناس بعرفة، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا نخرج من حدود الحرم!

فقد جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقْفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْحُمْسَ^(١)، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقْفُونَ بِعَرَقاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَأْتِيَ عَرَقاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضُ مِنْهَا؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾»^(٢).

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضي أن المراد بـ (الإفاضة) هنا: الإفاضة من المُزْدَلِفة إلى منى، لرمي الجمار^(٣).

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم، وما وقع منكم من التقصير في أعمال الحج.

وقد ورد الاستغفار بعد العبادات في مواضع متعددة - غير هذا الموضع -؛ ومنها: الاستغفار بعد السلام من الصلاة، والاستغفار في السحر بعد قيام الليل، وفي الذكر بعد الوضوء، وغير ذلك.

(١) سُمُّوا بذلك؛ لأنهم تحمَّسوا في دينهم، أي: تشدَّدوا بما كان عليه آبائهم.

(٢) رواه البخاري (٤٥٢٠)، ومسلم (١٢١٩).

(٣) رواه البخاري (٤٥٢١).

ومن فوائد الاستغفار بعد العبادة: ألا يدخل العُجْبُ إلى النفس بعد أدائها العبادة، والتنبيه على أن العبد لا يخلو من تقصير في أداء العبادات، مهما جودها وأتقنها.

فعلى الحاج ألا ينسى نصيحه من الاستغفار والإكثار منه، وأن يتخير من ذلك أدعية الاستغفار الواردة في الكتاب والسنة، ومنها: سيد الاستغفار.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: هذا تعليل للأمر بالاستغفار، بأن الله ﴿عَفُورٌ﴾ لذُنُوبِ المستغفرين، ﴿رَحِيمٌ﴾ يتقبل توبتهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الناس في أحكام الله سواء.

وفيها: أن الإفاضة تكون مع الناس دون إيذاء لهم، وقد سُئِلَ أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ حِينَ دَفَعَ (يعني: من عرفة)؟ قال: «كَانَ يَسِيرُ الْعَنَقَ، فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ»^(١).

والعَنَقُ: السير بين الإبطاء والإسراع، والنَصُّ: سُرعة للإبل أعلى من العَنَق، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وجد مُتَسَعًا أَسْرَعَ، وإلا سار كما يسير الناس، لا يُؤْذِيهِمْ.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾^(٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢٠٢):

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ أي: أنهيتُمْ وأدَّيْتُمْ ﴿مَنَاسِكَكُمْ﴾ أي: أعمال حجكم، وفرغتم منها، وذبحتم نسائكم، وتحللتم من نسككم، بعد رمي جرة العقبة والاستقرار بمنى؛ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: في أيام التشريق في منى وغيرها. ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ﴾ أي: كما كنتم تذكرون آباءكم -أيها العرب- وتفاخرون بهم بعد الفراغ من

(١) رواه البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (١٢٨٦).

موسم الحج، وتنشغلون بذكر مآثرهم. أو: أكثروا أتيها الحجاج من ذكر الله، كما يُكثر الولد من ذكر أمه وأبيه، وهو لا يعرف غيرهما.

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: بل أشد ذكرًا من الآباء، أو: إن لم يزد، فلا ينقص.

ثم أرشد تعالى إلى دُعائه بعد كثرة ذكره. والدُّعاء في المشاعر في تلك الأيام عظيم، وهو مَظِنَّة الاستجابة، جامع بين شرف الزمان وشرف المكان.

وقد ذمَّ تعالى مَنْ لا يدعوهُ ويسأله إلا في أمور الدنيا، وينسى الآخرة؛ فقال: ﴿فَمَنْكَ النَّاسُ﴾ أي: بعضهم ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا﴾ أي: أعطينا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: من أمور الدنيا، كالمال، والصَّحَّة، والجاه، والدار، والمركب ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: ليس له حظ ولا نصيب في الآخرة البتة؛ لأنه لم يكن يريد إلا الدنيا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ أي: من الحجاج وغيرهم من المسلمين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: ما يُستحسن منها، من الصَّحَّة والعافية، والزوجة الحسنة، والدار الواسعة، والعلم النافع، والمركب الهنيء، وسعة الرزق، ونحو ذلك. وسؤاله يدلُّ على فقهه، بخلاف الأول؛ فإنَّ الثاني يطلب من خير الدنيا ومتاعها ما لا حرام فيه، ولا مضرة عليه.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي: نعيمًا وفضلًا، كنور الوجه، وإيتاء الكتاب باليمين، وتخفيف الحساب، والتظلل في ظلِّ العرش، وسُقيا الحَوْض، وعلى رأس ذلك: الجنة ونعيمها - فهي الحسنة العظمى في الآخرة - وأعظم نعيمها: رؤية الله تعالى.

قال بعض السلف: «مَنْ أُعْطِيَ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَجَسَدًا صَابِرًا؛ فَقَدْ أُوتِيَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَوُقِيَ عَذَابُ النَّارِ»^(١).

وقيل: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَالْقُرْآنَ، وَأَهْلًا وَمَالًا؛ فَقَدْ أُوتِيَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً»^(٢).

قوله ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: ادفعه عنا، بعصمتنا من عمل أهل النار، ومغفرة الذُّنُوب التي تُوجِبُ دخول النَّار.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٣٥٩).

(٢) فتح الباري (١١/١٩٢).

وقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الدَّاعُونَ بِالْحَسَنَتَيْنِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ أي: حظٌّ وافِرٌ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لأجلِ ما عَمِلُوا مِنَ الْحَجِّ وَالِدُّعَاءِ. أو: بسبب ما قاموا به من الأعمال الصالحة. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: سريع المحاسبة للعباد، على كثرتهم وكثرة أعمالهم؛ فلا يَعْسُرُ عليه حسابُهم، ولا يَعْجِزُ عنهم. فيعرض أعمالهم عليهم، ويَرِزُها بميزانه العَدْلُ، ويُقَرَّرُ المؤمنَ بذُنُوبِهِ إذا أدناه منه، ثم يغفرها له، ويُطِيلُ وقوفَ الكافر والفاجر، ويُعَامِلُهُ بما يستحقُّ، وحسابهم جميعًا كحساب الواحد منهم.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أهمية الذكر بعد قضاء العبادَة، وأنه يعوِّض التقصير فيها.

وفيها: تقديم ذكر الله على ذكر الوالدين.

وفيها: انقسام همم الناس إلى: دنيئة لا تهتمُّ إِلَّا بالدُّنْيَا الدُّنْيَةِ، وهم عالية تطلب خير الدُّنْيَا والآخرة.

وفيها: مشروعية سؤال الله حسنات الدنيا، وأنَّ الإنسان محتاج إليها.

وفيها: فضل هذا الدُّعَاء العظيم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

وَكَانَ أَنَسُ رضي الله عنه إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ^(١)، وهو من جوامع الدُّعَاء.

وروى مسلم عن أنس، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ خَفَتْ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجَّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا قُلْت: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» قَالَ: فَدَعَا اللَّهُ لَهُ، فَشَفَّاهُ^(١).

وفيها: أَنَّ الله قد يجيب دعوة الكافر والفاجر وطلبه من الدنيا، ولكنها إجابة فتنية، لا إجابة تكريم.

وفيها: أَنَّهُ تَجِبُ الْغِيْرَةُ لِلَّهِ وَالْحَمِيَّةُ لَهُ وَلِدِينِهِ، أَشَدُّ مِنَ الْغِيْرَةِ وَالْحَمِيَّةِ وَالِدَّفَاعِ عَنِ الْآبَاءِ.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢).

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ يعني: يَا أَيُّهَا الْحُجَّاجُ، بِالتَّكْبِيرِ الْمُطْلَقِ وَالْمَقْيَدِ، وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ. ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي: أَيَّامُ التَّشْرِيقِ الثَّلَاثَةِ، وَقِيلَ: مَعَهَا يَوْمُ النَّحْرِ.

وُسُمِّيَتْ ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾؛ لِقِلَّتِهِنَّ. وَمِنَ الذِّكْرِ فِيهَا: مَا يَكُونُ عِنْدَ رَمِي الْجُمَرَاتِ، وَخَلْفَ الصَّلَوَاتِ، وَذِكْرُ اللَّهِ بِالتَّسْمِيَةِ وَالتَّكْبِيرِ عِنْدَ ذَبْحِ الْهَدْيِ وَالْأَضَاحِيِّ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ - بِالتَّسْمِيَةِ فِي أَوَّلِهِ، وَالْحَمْدِ فِي آخِرِهِ -.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ»^(٣).

وفي حديث آخر: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ؛ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»^(٤).

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فَمَنْ اسْتَعْجَلَ بِالنَّفَرِ مِنْ مَنَى إِلَى مَكَّةَ، فِي ثَانِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ (الثَّانِي عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ)، قَبْلَ الْغُرُوبِ، بَعْدَ رَمِي الْجِمَارِ؛ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لَا حَرَجَ فِي تَعَجُّلِهِ.

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨).

(٢) رواه مسلم (١١٤١).

(٣) رواه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٤/ ١٣٠).

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ أي: بات في منى ليلة ثالث التشريق، ورمى الجمار بعد الزوال؛ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في تأخره.

﴿لَعِنَ اتَّقَى﴾ أي: المتعجل والمتأخر، فيأتي كل واحد منهما بالمأمورات، ويجتنب المحظورات في حجّه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المستقبل بعد الانصراف من الحج، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمعون يوم القيامة، بعد البعث من قبوركم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْلُ الذِّكْرِ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

وفيها: رُخْصَةُ اللَّهِ فِي التَّعَجُّلِ بِالنَّفَرِ مِنْ مَنَى.

وفيها: فَضْلُ التَّأَخُّرِ عَلَى التَّعَجُّلِ؛ لِأَنَّ مَعَهُ زِيَادَةُ عَمَلٍ، وَهُوَ زِيَادَةُ رَمَى إِحْدَى وَعِشْرِينَ حَصَاةً، وَالْمَبِيتَ لَيْلَةً بِمَنَى.

وفيها: أَنَّ انْتِفَاءَ الْإِثْمِ لِمَنْ أَخَذَ بِالرُّخْصَةِ بِالتَّعَجُّلِ، مُقَيَّدٌ بِالتَّقْوَى.

وفيها: اقتران المواعظ بالتحذير من الآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِيَئْسَ الْمِهَادُ ٢٦﴾:

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ قَسَمِينَ مِنَ النَّاسِ، وَهَمَا: مَنْ هُمُّهُمُ الدُّنْيَا وَلَا رَغْبَةُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ يَرِيدُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ نَوْعَيْنِ آخَرَيْنِ مِنَ النَّاسِ، يَنَاسِبَانِ مَا تَقَدَّمَ: نَوْعٌ حُلُوُ الْمُنَطِقِ، لَكِنَّهُ أَسْوَدُ الْقَلْبِ، وَنَوْعٌ تُطَابِقُ سِرِّرُهُ عِلَانِيَتُهُ، وَيَسْعَى لِمَرْضَاةِ اللَّهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: قيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وقيل: هي عامة في المنافقين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن يَقُولُوا نَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهو الصحيح»^(١).

وقوله ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تستحسن قوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، وهؤلاء قومٌ ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرٌ من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن على قلوب الذئاب، وحائهم كما قال الشاعر:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللُّسَانِ حَلَاوَةً وَيُرَوِّغُ مِنْكَ كَمَا يَرَوِّغُ الشَّعْلَبُ

قوله ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: يحلف بالله أن قلبه موافق قوله، وأنه على الإسلام، وهو في الحقيقة كاذبٌ مستمرٌّ على النفاق، مبارزٌ لله تعالى بما في قلبه من الكفر. ولذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي: شديد الخصومة والعداوة، يكذب ويفجر.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في علامات المنافق: «إِذَا أُوْثِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ: الْأَلَدُّ الْحَصِمُ»^(٣)، وهو شديد الخصومة بالباطل، بكذبه وزوره، وميله عن الحق.

وفي الحديث: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ»^(٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ أي: انصرف وذهب. وقيل: تولى مقاليد الأمور؛ ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قصَدَ وعمَدَ ومشى حيثما ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾: بقطع الأرحام، وسفك الدماء، وتفريق الكلمة، ونحو ذلك. ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ﴾: يُتْلِفُ الزرع، بالإحراق ونحوه. ﴿وَالنَّسْلَ﴾: يقتل أولاد البهائم وغيرها، ظلماً وعدواناً، فجمع إلى سيء المقال سيء الأفعال.

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٤٨).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي: يكرهه ولا يرضى به، ويُعاقب عليه.
 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ في وعظه وتذكيره: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: اخشَ عقابه، واترك الكُفر
 والفساد؛ ﴿أَخَذْتُمُ الْعِزَّةَ﴾: الحمية والغضب ﴿بِالْإِثْمِ﴾ أي: بسبب الإثم.
 فكان جزاؤه: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه عذاب السعير، ﴿وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾:
 قُبِحَتْ فِرَاشًا وَعَذَابًا، يضطجع عليه.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أنَّ على المؤمنين ألا يغتروا بظواهر الأحوال، وأن يجتهدوا في تمييز حقائق الناس.
 وفيها: أنَّ القول المجرّد ليس دالًّا على صدق الشخص، حتى يصدّق فعله قوله.
 وفيها: أهمية اختبار الشهود، والنظر في أفعال الأشخاص عند إرادة الحكم عليهم أو
 تركيتهم.

وفيها: خطورة مخالفة الظاهر للباطن.
 وفيها: ذمُّ النِّفاق، والجدل الكاذب، والخُصومة الفاجرة.
 وفيها: علم الله عَزَّوَجَلَّ بما في الصدور.
 وفيها: أنَّ المعاصي سببٌ لهلاك الزرع والبهائم؛ لأنَّ المُفسِد في الأرض يكون فسادُه
 سببًا لمنع المطر، فيموت الزرع، وتهلك الدواب.
 ويؤخّذ منها: أنَّ الذين يعتدون على زُروع الناس اليومَ بالمرَكبات الكيماويّة المُفسِدة
 وغيرها، ويتلاعبون بخلق الله في التَّسل، ويغيِّرون في الجينات الوراثيّة، ليولّد مَسَخَّ ضارًّا في
 أكله واستعماله؛ هم في الحقيقة مُفسِدون في الأرض، داخلون في هذه الآية.
 وفيها: التحذير من معاندة الناصحين، وخطورة التعالي على الحقِّ، وأن يركب الإنسانُ
 رأسه؛ بغيا وعدوانًا.

وفيها: خطورة الولاة الظلمة؛ لأنهم يسعون في الإفساد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٧):

ولمَّا ذكر تعالى أُنْمُوذَجًا لِلْمُفْسِدِينَ؛ أعقبه بذكر أُنْمُوذَجٍ الذي يُضَحِّي بها عنده في سبيل الله لإصلاح الناس؛ فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: بعض الناس ﴿مَنْ يَشْرِي﴾ أي: يبيع ﴿نَفْسَهُ﴾ وما يَمْلِك؛ ﴿ابْتِغَاءَ﴾: لأجل ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: رضوانه.

وجاء في رواياتٍ يَنْقُوى بعضها ببعض: أنَّ هذه الآية نزلت في صُهَيْب بن سنان الرُّومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وَأَرَادَ الْهِجْرَةَ، مَنَعَتْهُ قُرَيْشٌ أَنْ يُهَاجِرَ بِإِلَهِ، وقالوا له: يَا صُهَيْبُ، قَدِمْتَ إِلَيْنَا وَلَا مَالَ لَكَ، وَتَخْرُجُ أَنْتَ وَمَالُكَ! وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا! فقال لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ دَفَعْتُ إِلَيْكُمْ مَالِي تُخْلُون عَنِّي؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قال صُهَيْبُ: «دَفَعْتُ إِلَيْهِمْ مَالِي، فَخَلُّوا عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ». فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ، وَقَالُوا: «رَبِحَ الْبَيْعُ»، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ.

وأكثر المفسرين على أَنَّ الآية نزلت في كُلِّ مجاهدٍ في سبيل الله^(١). وَلَمَّا اقْتَحَمَ رَجُلٌ فِي صُفُوفِ الْعُدُوِّ، وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، قَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: أَلْقَى هَذَا بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِمْ عَمْرٌ: «لَيْسَ كَمَا قَالُوا، هُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾»^(٢).

وَصَحَّ عَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَرَادِ بِالْآيَةِ: «هُمْ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ»^(٣). وَقِيلَ فِي مَعْنَاهَا: وَمَنْ يَبِيعُ وَيَبْذُلُ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ - مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَجِهَادٍ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنِ مُنْكَرٍ -؛ صَارَتْ نَفْسُهُ كَالسَّلْعَةِ، وَهُوَ كَالْبَائِعِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمُشْتَرِي، وَالثَّمَنُ مَرْضَاتُ اللَّهِ.

وقوله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: ذُو رَأْفَةٍ بِالْغَةِ، وَ(الرَأْفَةُ): هِيَ أَرْقُ الرَّحْمَةِ وَالْطَّفْهِ، عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَبِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٨/٤)، تفسير ابن كثير (١/٥٦٤-٥٦٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٣٦٩).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/٣٣٠).

وفي هذه الآية من القوائد:

فَضَّلَ مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ.

وفيها: المكانة العظيمة للإخلاص؛ كما في قوله: ﴿ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضَا) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

وفيها: تقديم مرضات الله على النفس.

وفيها - مع الآيات التي قبلها -: بلاغة القرآن، بذكر المثاني والصُّور المتقابلة، كما في النوعين المذكورين.

ويصلح أن يكون الصَّنْفَانِ المذكوران في الآيات مثلاً لطرفي القتال في المعركة، وهم: الكفار المفسدون، ومن يجاهدهم من المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى.

وفي قِصَّةِ صُهَيْب رضي الله عنه: التضحية بالمال لأجل الهجرة في سبيل الله.

وأنَّ الكفار لا يدعون المسلمين، حتى يتسلطوا عليهم وعلى أموالهم، وينهبوا خيراتهم. وأنهم يتركون المبادئ لأجل الأموال.

وشجاعة صُهَيْب رضي الله عنه.

والثناء على من أحسن عمله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾:

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين أن يأخذوا بجميع شرائع الإسلام، ويعملوا بكل ما ورد فيه؛ فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عقيدة وقولا وعملا ﴿اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ أي: تلبسوا بالإسلام، وادخلوا في طاعة الله ﴿كَآفَّةً﴾ أي: جميعا، واعملوا بجميع أعمال الخير ووجوه البر، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: اجتنبوا ما يأمركم به الشيطان،

ولا يَغُرَّنْكُمْ تَزِينُهُ وَلَا وَسْوَستَهُ، فِي أَخْذِ بَعْضِ الدِّينِ وَتَرْكِ بَعْضِهِ، أَوْ الْعَمَلِ بِغَيْرِ مَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أَي: ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ لِبَنِي آدَمَ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ خُصُوصًا. ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أَي: انْحَرَفْتُمْ عَنِ الْحَقِّ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَي: أَتَتْ وَظَهَرَتِ الدَّلَائِلُ الْوَاضِحَاتُ، وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَاتُ؛ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ قَوِيٌّ، مُنِيعُ الْجَنَابِ، حَكِيمٌ﴾ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

وَفِي الْآيَتَيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

- دخول العمل في الإيمان.
- وفيها: وجوب تطبيق الشَّرْع، جملة وتفصيلاً.
- وفيها: أَنَّ لِلشَّيْطَانِ خُطُوات، يَسْتَدْرِجُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ.
- وفيها: وجوب عداوة مَنْ يَجْعَلُهُ اللَّهُ عَدُوًّا.
- وفيها: خطورة الانحراف بعد العِلْمِ وَتَبَيُّنِ الْحَقِّ.
- وفيها: أثر أسماء الله وصفاته - كـ «العزیز» و«الحكيم» - فِي خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَوَجوبِ عودته إِلَى رَبِّهِ.
- وفيها: أَنَّ النِّهْيَ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ بعد الأمر ﴿ادْخُلُوا﴾؛ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ يَخَالِفُ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ كَافَّةً.
- وفيها: الرَّدُّ عَلَى مَنْ قَالَ بِتَجْزِئَةِ الدِّينِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يَخْتَصُّ بِالشَّعَائِرِ التَّعْبُديَّةِ - كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ - أَوْ الْأَحْوالِ الشَّخْصِيَّةِ - كَالْمِيراثِ وَالنِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ - فَقَطْ!! بَلِ الْوَاجِبُ تَنْفِيزُ أَحْكامِ الْإِسْلَامِ جَمِيعًا، وَعَدَمُ التَّفْرِيطِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا.
- وفيها: أَنَّ الْعَمَلَ بِجَمِيعِ الْإِسْلَامِ يَسْتَلْزِمُ مَخالْفَةَ سَبِيلِ الشَّيْطَانِ.
- وفيها: أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالدُّخُولِ فِيهِ ظَاهِرًا وَباطِنًا، بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ بَعْضَ أَهْلِ الْكُفْرِ أَنَّهُمْ: ﴿قَالُوا ءَأَمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].
- وفيها: أَنَّ عَقوبةَ الْعَالِمِ بِالذَّنْبِ، أَعْظَمُ مِنْ عَقوبةِ الْجَاهِلِ بِهِ.
- وفيها: أَنَّ الْإِسْلَامَ يُغْنِي عَمَّا سِوَاهِ.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١):

ثم قال تعالى، مهذِّداً الكافرين بمجيئه لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون. والمقصود: هؤلاء المكذِّبون، الذين كفروا من بعد ما جاءتهم اليِّنَات، واتبَعوا خُطُوات الشَّيْطَان. والاستِفْهام للنفي، والمعنى: ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: مجيء نفسه عزَّ وجلَّ، مجيئاً وإتياناً حقيقياً، يليق بجلاله وعظمته ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ أي: مع ظُلل ﴿مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وهو: السَّحاب الأبيض الرقيق، فيكون تشقُّق السماء بالغمَام مقدِّمةً لمجيء الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ تأتي صفوفًا، كما قال الله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].
﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فُرِغَ من إهلاك هؤلاء، والفصل بين الخلائق. ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: تُردُّ أمور الخلائق وشؤونهم؛ ليقضي بينهم، ويجازي كلّاً على عمله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وعيدُ الظالمين يومَ القيامة.

وفيها: إثباتُ إتيان الرَّبِّ تعالى بنفسه يومَ القيامة، ليقضي بين عباده. ومن هنا يُعرف ضلال الذين حرَّفوا الكلام عن مواضعه؛ فقالوا في إتيان الله ومجيئه: إتيان أمره، ومجيء أمره!
وفيها: تخويف العباد، بثوران الغمام العظيم من كلّ جانب، مقدِّمةً لمجيء الجبار تعالى.
وفيها: إثباتُ أنَّ الملائكة أجسامٌ تأتي، خلافاً لمن قال: أرواح بلا أجسام.
وفيها: أنَّ الأمور الشرعيَّة والكونيَّة مرجَّعة إلى الله وحده؛ فلا يجوز أخذ التشريع من غيره.

وفيها: إثبات أفعال الله، ومنها: الإتيان والمجيء.

وفيها: زوال سلطان البشر يومَ القيامة؛ لأنَّ مرجع الأمور كلّها إلى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٣١):

قوله تعالى ﴿سَلِّ﴾ أي: اسأل يا محمد ﷺ، ويا أيها المؤمنون الذين يحاورون اليهود ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهم كل مَنْ ينتمي إلى يعقوب عليه السلام: ﴿كَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعطيناهم ﴿مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: مُعْجِزَةٌ واضحة، وَحُجَّةٌ قاطعة، تدلُّ على قُدْرَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وَصِدْقِ نَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم كفروا وجحدوا وأعرضوا.

﴿وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: يجعل بدلها كُفْرًا، مع أَنَّ الواجب عليه أن يؤمن بها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ أي: وصلت إليه وعرفها؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: جزاء مَنْ فعل ذلك هو العذاب الشديد. وسُمِّيَ (العقاب) عقابًا؛ لَأَنَّهُ يَقَعُ عَقِبُ الذَّنْبِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسليّة النبي ﷺ في كُفْرِ اليهود به؛ فقد أخبره الله تعالى في هذه الآية أَنَّ هؤلاء اليهود قد كفروا بالآيات الكثيرة التي أعطاه الله لموسى عليه السلام، فلا غرابة أن يكفروا بك. وفيها: تقرّيع اليهود وتوبيخهم.

وفيها: أَنَّ معجزات الأنبياء من نِعَمِ الله تعالى على عباده.

وفيها: وجوب مُقَابَلَةِ الآيات بالشُّكر - وهو الإيمان بها - والتحذير من مُقَابَلَتِهَا بالكُفْر، وأعظم نِعْمَةٍ هي الإسلام، وكُفْرُهَا: رفض الدُّخُول فيه، وأسوأ منه: الارتداد والخروج منه.

وفيها: مُقَابَلَةُ الله لمن كفر نِعْمَتَهُ بالعقوبة الشديدة.

وفيها: أَنَّ نِعْمَةَ الدِّينِ أخطر من نِعْمَةِ الدُّنْيَا، والكُفْرُ بها أشنع وأقبح.

وفيها: أَنَّ الكُفْرَ بعد المعرفة والعِلْم والاطِّلاع، أشنع وأقبح؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾.

وفيها: وجوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ الله تعالى علينا في هذا العصر، في التقنيات الحديثة، ووسائل

التواصل المختلفة، والتقدم التقني الكبير - في شبكات الإنترنت وغيرها - باستخدامها فيما يُرضي الله تعالى، لا في معصيته، ولا في تضييع الأوقات.

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣١):

قوله تعالى ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: جعلت لهم بهية جميلة جذابة، فرضوا بها، واطمأنوا إليها، وانشغلوا بجمعها. والذي باشر التزيين هو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، والذي قدره هو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤].

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالإضافة إلى افتتانهم بالدنيا، فحالمهم أيضاً هو: السخرية من المؤمنين؛ لفقرهم، أو لاشتغالهم بدينهم وعمل الصالحات، فهم يضحكون من المؤمنين، ويتغامزون إذا مروا بهم، ويصفونهم بأنهم من الضالين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٣١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: اجتنبوا غضب الله، بالاشتغال بعمل الصالحات وعدم الانهماك في الدنيا ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ مرتبة ومنزلة، حسياً ومعنوياً؛ لأن المؤمنين في عليين والكفار في أسفل سافلين، ولأن المؤمنين مكرّمون، والكفار في العذاب يُهانون، يسخر منهم المؤمنون ويضحكون، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٢) عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤْثِرُونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾: يُعطي في الدنيا المؤمن والكافر، وفي الآخرة يرزق المؤمنين جنّات النعيم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يُعطي في الدنيا بغير محاسبة، ويُعطي المؤمنين في الآخرة بلا تحديد ولا عدد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من فتنة الدنيا؛ حتى لا يركن إليها المؤمن.

وفيها: الصبر على أذى الكفار وسخريتهم، وأن العبرة بكمال النهاية؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وفيها: تثبيت الله للمؤمنين، وتصبيرهم على أذى الكافرين.

وفيها: البشارة للمؤمنين، بعلوهم في الآخرة على الكافرين.

وفيها: إثبات أفعال الله ومشيتته.

وفيها: رزق الله الوفير، الذي لا يستطيع الحاسبون عدّه.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣).

ولما ذكر تعالى ضلال الكافرين بسبب الدنيا؛ ذكر بعده كيف كان دين الخلق قبل الانحراف والضلال؛ فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ﴾ من وقت آدم عليه السلام إلى نوح عليه السلام ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: متفقين على التوحيد والحق، واختلفوا بعد ذلك، فوقع فيهم الكفر والشرك.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً» (١).

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾: أرسل ﴿النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة من أطاعه ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ مخوفين بالنار من كفر بالله وعصاه.

وقد سَمَّى الله تعالى منهم جملة - عدددهم خمسة وعشرون - والله تعالى سواهم كثيرون، لا يعرف أَسْمَاءَهُمْ ولا أَعْدَادَهُمْ ولا أَزْمَانَهُمْ ولا تَفَاصِيلَ حَيَاتِهِمْ وَقَصَصَهُمْ مع أقوامهم؛ إِلَّا خَالِقَهُمْ وَمُرْسِلَهُمْ شَبَّاعَهُ وَتَعَالَى.

وقد وردَ تعدادُهم في أحاديث متكلِّم في أسانيدِها؛ فنؤمن بهم إيمانًا مُجملاً^(١).

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: مع كلِّ واحد من الرُّسل كتاب ﴿يَا لِحَقِّ﴾: ببيان الحقِّ، وهي حقٌّ من عند الله، وما جاء فيها من الشرائع فهو حقٌّ وصِدْقٌ أيضًا.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، أو: كلُّ واحد من الأنبياء، أو: ليكون هذا الكتاب حاكمًا ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ﴾: في كلِّ صغيرة وكبيرة من أمور الدِّين والدُّنيا، وفيما اختلفوا فيه من الحقِّ، واختصموا فيه من القضايا.

﴿وَمَا اختلفَ فِيهِ﴾ أي: في الحقِّ والدِّين والكتاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وهم: الأمم والناس الذين أُعطوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الآيات والحُجَج الواضحات. فاختلفوا في الله عَزَّوَجَلَّ: فمنهم مَنْ وَحَدَهُ، ومنهم مَنْ كَفَرَ به وأشرك.

واختلفوا في الكتاب: فمنهم مَنْ تمسَّك به، ومنهم مَنْ حرَّفه وبدَّله. واختلفوا في نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فمنهم مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَنْ كَفَرَ.

﴿بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ أي: لأجل البغي. و(البغي): هو العدوان. فكان الباعث على الاختلاف الحَسَد والعدوان، وإرادة تغلب كلِّ فريق على الآخر.

﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: وهذه هداية التوفيق، المسبوقة بهداية العِلْم والإرشاد ﴿لِمَا اختلفُوا فِيهِ﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿مِنْ الْحَقِّ﴾ أي: فهَدَى اللهُ الذين آمنوا للحقِّ، الذي حصل الاختلاف فيه ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بمشيئته وإرادته.

ومن أمثلة هذا: الاختلاف في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، حيث قالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت النصارى: بل كان نصرانيًا. والحقُّ أنَّه كان مسلمًا حنيفًا.

والاختلاف في عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، حيث كذَّبت به اليهود، وجعلته النصارى إلهًا، وهَدَى اللهُ أهلَ الحقِّ إلى أنَّه رسولُ الله وكَلِمَتُهُ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٤٠٩)، الجواب الصَّحيح (٢/٢٣١)، البداية والنهاية (٣/٨٩)، لوامع الأنوار البهية للسَّفاريني (٢/٢٥٨، ٢٦٤).

والاختلاف في عيد الأسبوع، حيث اتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة؛ وقد قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، يَبْدَأُ اللَّهُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأَوْتَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ - قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ - فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»^(١).

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي﴾ هداية الدلالة، وهداية التوفيق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾: مَنْ يَسْتَحِقُّ، تَبَعًا لِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: طريق الحق.

وكان من دعاء النبي ﷺ في استفتاح قيام الليل: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٢).

وفي هذه الآية من القوائد:

- أن دين الإسلام هو الفطرة، وهو الأصل في البشرية.
- وفيها: أن التبشير والإنذار من الحكمة في إرسال الرُّسل.
- وفيها: أن على الدعاة أن يجمعوا بين هاتين الطريقتين للنجاح في الدعوة: (الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار).
- وفيها: أن من الخطأ والضلال أن يُطلق على دعاة النصارى مبشرين.
- وفيها: أن النبوة لا تُنال بالكسب.
- وفيها: أن الشرائع تنقسم إلى أوامر ونواهي؛ لأنَّ الإنذار هو عن الوقوع في المخالفة، والبشارة لمن امتثل وأطاع.

(١) رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

وفيها: أن الواجب: الرجوع إلى الكتاب والسنة عند النزاع.
 وفيها: أن العقل بلا وحي لا يكفي في الاهتداء إلى الحق بتفاصيله.
 وفيها: أن الرجوع إلى الكتاب سبب التألف والاجتماع.
 وفيها: خطورة الانحراف والاختلاف بعد قيام الحجة.
 وفيها: أن المخالف للحق باغ وضال.
 وفيها: أن إصابة الحق تتناسب طردًا مع قوة الإيمان.
 وفيها: الثبات على الحق والاستمرار عليه عند حصول الاختلاف، والتمسك بما كان عليه الأمر قبل وقوع الاختلاف.
 وفيها: أن الله يُيسر معرفة الحق وأتباعه والثبات عليه، لمن شاء من عباده.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؕ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢١٤):

ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بسنة قديمة جديدة، وطريقة له في عبادته، يُمَحِّصُهُمْ بها ويختبرهم، كما فعل بالمؤمنين قبلهم؛ فقال تعالى: ﴿ أَمْ ﴾: بل ﴿ حَسِبْتُمْ ﴾ أي: ظننتم ﴿ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ﴾ بمجرد دعوى الإيمان، دون ابتلاء واختبار. ولذا قال: ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ ﴾ أي: لم يحدث فيكم بعد، ولكنه متوقع حصوله، فارتقبوه واستعدوا له ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي: سُنَّتْنَا وطريقتنا في الذين مضوا من قبلكم، عندما ﴿ مَسَّتْهُمُ ﴾: أصابتهم مباشرة ﴿ الْبَأْسَاءُ ﴾ من: الفقر، والخوف، والبلايا، والشدائد، والمحن ﴿ وَالضَّرَاءُ ﴾ من: الأمراض، والأوجاع، والمصائب البدنية. ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ أي: زُلْزِلَتْ قُلُوبُهُمْ بالخوف من عدوهم، فاجتمعت عليهم المصائب في النفس والمال والبدن.

﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ من شدة هول ما نزل بهم من البلاء، تساءلوا: ﴿ مَتَى ﴾ يأتينا ﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ الذي وعدنا به!؟

﴿آلَا﴾ وهي أداة تنبيه؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ﴾ لأوليائه ﴿قَرِيبٌ﴾؛ فلا تستبعدوه.
وقد نزل بالصَّحابة من الشَّدَّة في مكة ما جعل بعضهم يأتي إلى النبي ﷺ، يقول: «أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟»^(١).

ونزل بالصَّحابة من الكُرَبات في حصار الأحزاب، حتى بلغ الأمر كما قال الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾^(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠-١١].

ثم جاء الله بالفرج، وكشَفَ غُمَّةَ العدوِّ عن المدينة النبويَّة، ونَصَرَ عباده المؤمنين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسلية المؤمنين في المحنة، بما وقع لغيرهم قبلهم.
وفيها: أنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي، لكنَّه صبر ومثابرة.
وفيها: أنَّ من حِكْمَةِ اللَّهِ في الابتلاء: أن تقام الحُجَّة، لبيان الصادق من الكاذب.
وفيها: أنَّه لا يجوز طلب النصر إلَّا من الله.
وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين عدم اليأس والاستعجال.
وفيها: أنَّ الصَّبر على البلاء في ذات الله من أسباب دخول الجنَّة.
وفيها: تبشير المؤمنين بالنصر، ولو بعد حين.
وفيها: أنَّ الجنَّة حُقَّتْ بالمكاره.
وفيها: أنَّ تنويع المصائب على العباد، فيه مزيدٌ من اختبار إيمانهم في الأحوال والمقامات المختلفة.

وفيها: أنَّ بعض الأذى النفسيَّ أشدَّ من البدنيِّ.
وفيها: أنَّ العاقبة الحسنة بالنصر والتمكين، لا تكون إلَّا بعد الابتلاء والصَّبر.

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

وفيها: أهمية مصاحبة أولي العزم والدين.
وفيها: نضرة الله لعباده من الأنبياء والمرسلين.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٣١٥):

وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَاذَا
يُنْفِقُونَ﴾ في نفقة التطوع، قدرًا وجنسًا.

﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾: من قليل المال أو كثيره؛ ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾: فأجابهم عن قدر النفقة ولمن تُعطى. فأخبرهم أنها تُصرف للوالدين - وهما الأبوان وإن علوا -.

﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾: جمع (أقرب)، وهو: مَنْ كان أدنى إليك من غيره، وهم أخص من الأرحام، ويدخل فيهم: الأولاد، والإخوة، والأعمام، والعَمَّات، ونحوهم.
﴿وَالْيَتَامَى﴾: جمع (يتيم)، وهو: مَنْ مات أبوه ولم يبلغ، ذكرهم لصغرهم وعجزهم عن التكسب في الغالب.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: جمع (مسكين)، وهو: مَنْ أسكنه الفقر وأذله.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ هو: الغريب المسافر المنقطع، نبّه عليه لأنه قد يحتاج ولا يُحسُّ أحدٌ بحاجته - لغُربته -.

ثم جاء الإجمال بعد التفصيل؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مع هؤلاء أو غيرهم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: بنياتكم، وبما أنفقتم وفعلتُم، فهو محفوظ عنده، فيجازيكم ويُثيبكم عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جزء من الصحابة على معرفة أوجه البرِّ والخير.

وفيها: فائدة للمُفتين، في الجود بالعلم، بجواب السائل جوابًا أشمل أو أهم من سؤاله.

وفيها: فَضْلُ الْبَدْءِ فِي النَّفَقَةِ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ.

وفيها: الْحُتُّ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، وَأَلَّا يُخْفِرَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ مِمَّا قَلَّ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣):

ثم أخبر تعالى المؤمنين بإيجاب الجهاد عليهم؛ لينشروا دينه، ويكفوا شر الأعداء؛ فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فُرِضَ ﴿الْقِتَالُ﴾ لأعداء الله الكفار ﴿وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ﴾ أي تَكْرَهُهُ النفس بطبيعتها البشرية؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْخَوْفِ، وَخَطَرِ تَلَفِ الْجَسَدِ أَوْ بَعْضِهِ، وَذَهَابِ الْمَالِ.

قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجهاد واجب على كلِّ أحدٍ، غزا أو قعد، القاعد عليه إذا استُعِين أن يُعِين، وإذا استُغِيث أن يُغِيث، وإذا استُنْفِرَ أن ينفر، وإن لم يُحْتَجْ إليه قعد»^(١).

ولهذا ثبت في الحديث: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِه نَفْسَهُ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَأَنْفِرُوا»^(٣).

قوله ﴿وَعَسَى﴾ أي: «وقد». ويمكن أن تكون (عسى) هنا للتوقُّع والترجية؛ فيرجو المسلم الخير في الشيء الذي شرَّعه له ربُّه. ﴿أَنْ تَكْرَهُوا﴾ بطبيعة النفس، وليس كراهية حُكْمِ اللَّهِ ﴿شَيْئًا﴾ من الأمور المشروعة أو المباحة، ومن الأمور التعبدية أو العادية ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: في عاقبته الحميدة ونتيجته الجميلة، في الدنيا والآخرة. وقد فسرناها الآية الأخرى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وفي الجهاد الذي تَكْرَهُهُ النفس نيل إحدى الحُسَيْنَيْنِ: إمَّا النَصْرَ وَالْغَنِيْمَةَ، وَإِمَّا الشَّهَادَةَ وَالْجَنَّةَ.

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ كالقعود عن الغزو، وغير ذلك من سائر الأمور ﴿وَهُوَ شَرٌّ

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٩١٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

لَكُمْ ﴿بِمَا يَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ وَالشَّرِّ، كَاسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِلْبَاسِهِمُ الدُّلَّ وَالْفَقْرَ نَتِيجَةَ الْقَعُودِ عَنِ الْجِهَادِ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، وَمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ، فِي دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَاجُكُمْ. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ مَا هُوَ الْخَيْرُ لَكُمْ، وَمَا هُوَ الشَّرُّ لَكُمْ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْجِهَادَ تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ لِمَشَقَّتِهِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ يُحِبُّونَهُ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَتَقْدِيمِ رِضَا الرَّبِّ عَلَى التَّعَلُّقِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ.

وفيها: أَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ تَكْرَهُ الْقِتَالَ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْآلَامِ، وَلَكِنَّ نَفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ رَاضِيَةٌ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ؛ فَنَفْسُ الْمُؤْمِنِ - وَإِنْ كَرِهَتْ مَشَاقَّ الْجِهَادِ -؛ فَإِنَّهَا لَا تَكْرَهُ حُكْمَهُ أَبَدًا.

وفيها: الرِّضَا بِمَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، وَرُبَّمَا كَرِهَ الْإِنْسَانُ حَدُوثَ شَيْءٍ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهِ خَيْرٌ عَظِيمٌ.

وفيها: الرِّضَا بِأَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى، سَوَاءَ كَانَتْ خَيْرًا أَمْ شَرًّا، سَاءَ ثَنَّا أَمْ سَرِّ ثَنَّا.

وفيها: أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ.

وفيها: أَدَبُ الْعَبْدِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، بِأَلَّا يَقْتَرِحَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَعْلَمُهُ؛ بَلْ يَقُولُ - كَمَا فِي دُعَاءِ الْاسْتِخَارَةِ -: «وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»، وَذَلِكَ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ بِعَجْزِهِ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ»^(١).

ويؤخذ من الآية: عَدَمُ الْحُجْلِ أَمَامَ الْآخَرِينَ مِنْ الْإِقْرَارِ بِمَا حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ، كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فَلَا يَجُوزُ إِنكَارُهُ، وَإِنَّمَا يُقَرَّرُ بِفَرْضِيَّتِهِ، وَيَبَيَّنُ لغيرِ الْمُسْلِمِينَ: مَتَى يَكُونُ الْجِهَادُ؟ وَمَا هُوَ الْمَهْدَفُ مِنْهُ؟ وَمَا هِيَ شَرْطُهُ؟ وَنَبْذَةُ مِنْ أَحْكَامِهِ.

وفيها: أَنَّهُ يَجِبُ اعْتِقَادُ أَنَّ كُلَّ تَشْرِيعٍ لِلَّهِ فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ.

(١) رواه البخاري (٦٣٨٢).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ -
وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَاوُنَ
يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ
وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: الناس - ومنهم أصحاب محمد ﷺ - ﴿عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ﴾ المراد به: الأشهر الحرم الأربعة، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب.
﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي: يسألك عن حكم القتال فيه ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾
أي: وزره عظيم، وهو كبيرة من الكبائر.

ولكن هناك ما هو أعظم منه وأخطر، بينه تعالى في الرد على الكفار؛ فقال: ﴿وَصَدُّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صدُّ المشركين أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وطريقه الموصِّل إليه،
وهي شريعته التي أنزل. ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي: بالله عز وجل، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: كُفْر
بالمسجد الحرام، بعدم احترامه وتعظيمه، عندما أشركوا بالله فيه، وكذلك صدُّهم المسلمين
عن المسجد الحرام، ومنعهم من دخوله. ولذا قال: ﴿وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد
الحرام، وهم: النبي ﷺ والمهاجرون. ﴿مِنْهُ﴾ أي: من المسجد الحرام، بسبب
الإيذاء والتضييق والاضطهاد.

كُلُّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْجَرَائِمِ ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعظم إثماً وجُرمًا من القتال في الشهر
الحرام.

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ وهي: الشُّرْك، وفتنة المؤمنين عن دينهم وإيذاؤهم، والصدُّ عن سبيل الله
﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وزراً ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: من قتل المؤمنين للمشركين في الشهر الحرام.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: عن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ بَعَثَ رَهْطًا، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَكُتِبَ لَهُ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَقْرَأَ
الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ كَذَا وَكَذَا، وَلَا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ. فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ

الله الكتاب استرجع، وقال: سمعًا وطاعة لأمر الله ورسوله. فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلاً، ومضى بقيّتهم. فلقوا ابن الحضرميّ، فقتلوه، ولم يذروا ذلك اليوم من رجب أو من جمادى. فقال المشركون للمسلمين: فعلتم كذا وكذا في الشهر الحرام؟! فأتوا النبي ﷺ، فحدّثوه الحديث؛ فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية.

قال الطبري رحمه الله: «لا خلاف بين أهل التأويل جميعاً أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في سبب قتل ابن الحضرميّ وقاتله»^(١).

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ أي: المشركون ﴿يَقْتُلُونَكَ﴾ أي: يجتهدون في حربكم، ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم مِّن دِينِكُمْ﴾: يُرجِعُوكُم عنه إلى الكفر، ويُعيدُوكُم إلى دينهم الباطل ﴿إِنْ أَسْتَطْعُوا﴾: إِنْ قَدَرُوا. وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ مَعَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَدْ بَيَّنَّ عَزَّ وَجَلَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا صَرْفَ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿أَلْيَوْمَ يَنسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِّن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِّنكُم مِّن دِينِهِ﴾ أي: يرجع من الإسلام إلى الكفر، ﴿فِيمَت وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: على رِدَّتِهِ، لم يرجع إلى الإسلام؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الْمُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ ﴿حِطَّتْ﴾ أي: بَطَلَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصَّالِحَةُ الَّتِي عَمِلُوهَا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾؛ حَيْثُ تَذْهَبُ آثَارُ طَاعَتِهِمْ، مثل: انشراح الصدر، ونور الوجه، والبركة في الرِّزْق، وتيسير الأمور، والمحبة في قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَيَسْتَحِقُّونَ - مَعَ ذَلِكَ - الْقَتْلَ، وَلَا يَرِثُونَ وَلَا يُورَثُونَ، وَلَا يَغْسِلُونَ وَلَا يُكْفَنُونَ، وَلَا يُدْفَنُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

وتَحَبَّطَ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ﴾، وَحُبُوطُهَا بِضِيَاعِهَا، وَذَهَابُ أَجْرِهَا وَثَوَابِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَقُوا اللَّهَ عَلَى الْكُفْرِ.

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أهلها المَلَاذِمُونَ لَهَا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: مُقِيمُونَ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَلَا يَمُوتُونَ.

(١) تفسير الطبري (٤/٣٠٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن النبي ﷺ مرجع الصحابة في العلم؛ لقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾.

وفيها: اهتمام الصحابة ﷺ بالسؤال عن أمور الدين.

وفيها: أن القتال في الشهر الحرام من كبائر الذنوب. وأكثر العلماء على أن هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وأن الرسول ﷺ قاتل ثقيفاً في شهر ذي القعدة، وكانت غزوة تبوك في رجب، وكلاهما من الأشهر الحرم.

وقد اتفق العلماء على أن الكفار لو بدأوا القتال في الشهر الحرام؛ قاتلناهم فيه، ولو بدأ المسلمون القتال في غير الأشهر الحرم، ثم امتد القتال إلى الأشهر الحرم؛ واصل المسلمون القتال بلا حرج.

وفي الآية: أن الله يختص ما يشاء من الزمان بفضائل وأحكام.

وفيها: تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر.

وفيها: أن الصّد عن سبيل الله وفِتنة عباد الله؛ أعظم من القتال في الأشهر الحرم، ومن الصّد عن سبيل الله: منع الناس من أداء عبادة ما بالقوة، أو إلهائهم وإشغالهم عنها - كما يحدث اليوم في وسائل الإعلام المُفسدة -.

وفيها: تولي الله عز وجل الرد على شبهات الكفار، وهذا من نصره لعباده المؤمنين.

وفيها: أن تفويت الدنيا على الناس بالقتل، أهون من تفويت الدين عليهم بالفتنة.

وفيها: بيان حرص المشركين على ارتداد المؤمنين؛ فلذلك يجتهدون في غزو عقولهم وبلادهم.

وفيها: وجوب الحذر من الكفار.

وفيها: أن الردّة مُبطلّة للأعمال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤُلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨):

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

عن جُنْدُب بن عبد الله رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ رَهْطًا، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، فِي قِصَّةٍ تَقَدَّمَتْ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَفِيهَا: أَنَّهُمْ قَتَلُوا ابْنَ الْحَضَرَمِيِّ، وَلَمْ يَدْرُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ أَوْ مِنْ مُجَادَى؛ فَقَالَ الْمَشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: فَعَلْتُمْ كَذَا وَكَذَا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟! وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وَزَرًا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: فَارَقُوا وَطَنَهُمْ فِي بِلَدِ الْكُفْرِ إِلَى بِلَدِ الْإِسْلَامِ، لِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ هَجَرُوا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَجَاهَدُوا﴾: بِذَلُوا الْجَهْدَ فِي قِتَالِ الْمَشْرِكِينَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ. ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ. وَ(أُولَئِكَ): اسْمُ إِشَارَةٍ لِلْبَعِيدِ، وَفِيهِ التَّنْوِيهِ بِفَضْلِهِمْ، وَعُلُوِّ هِمَّتِهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ. ﴿يَرْجُونَ﴾ (الرَّجَاءُ): هُوَ الطَّمَعُ فِي حَصُولِ مَا هُوَ قَرِيبٌ ﴿رَحِمَتِ اللَّهِ﴾ أي: يَطْمَعُونَ فِي نَيْلِهَا. وَجَنَّتْهُ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ، إِنْ كَانَ حَصْلُ مِنْهُمْ تَفْرِيطًا، أَوْ تَقْصِيرًا. ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ، يُجْزِلُ لَهُمُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

فَضْلُ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ: الْإِيمَانُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجِهَادُ.
وَفِيهَا: تَعْزِيَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ -وإن أخطأوا- بِالثَّنَاءِ عَلَى مَا فَعَلُوهُ.
وَفِيهَا: تَثْبِيْتُ نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، بِالِدَّفَاعِ عَنْهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ هَجَمَاتِ الْكُفَّارِ وَحَرْبِهِمُ النَّفْسِيَّةِ.
وَفِيهَا: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَيَّمُ بِقَبُولِ عَمَلِهِ؛ بَلْ يَكُونُ رَاجِيًا لِرَحْمَةِ رَبِّهِ.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٨٨).

وفيها: عدم الاغترار بالأعمال.

وفيها: حُسن الظن بالله.

وفيها: فضل الله العظيم، بتوفيق عباده الصالحين، بأن يبين لهم ما هو العمل الصالح، ثم أقدرهم عليه، ثم أعطاهم عليه ثواباً مُضاعفاً.

وفيها: بيان نجاح المسلمين في أول عمل جهادي قاموا به؛ فسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه تعدد أول لواءٍ عُقد في الإسلام، وغنيمتهم أول مغنم قُسم في الإسلام.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِمَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾:

ولما ذكر تعالى من مصارف الإنفاق في الطاعات: الإنفاق على الأقارب في الجهاد وغير ذلك؛ ذكر حُكم بعض ما تُنفق فيه الأموال في المحرمات؛ فقال عز وجل:

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: الناس - ومنهم أصحاب محمد صل الله عليه وسلم - ﴿عَنِ الْخَمْرِ﴾ أي: عن حُكم تناوله وتعاطيه. و(الخمر): كل ما أسكر وغطى العقل، على وجه اللذة والطرب. ﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ هو: كل لعب، فيه مخاطرة بين ربح وخسارة.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً»؛ فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(١).

﴿قُلْ﴾ جواباً لمن سأل: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ضرر عظيم كثير؛ لهما يحصل بسببهما من العداوة والبغضاء، وإتلاف المال، وسلب العقل، وصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وسلب أموال الآخرين.

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وقوله ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ أي: مصالح، كأرباح التجارة، وإصابة المال بلا تعب، وحمل البخيل على الكرم، واللذة والطرب، والدفع في البرد.

ولكنَّ كلَّ هذه المصالح مغمورة في أضرارها العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي: المفاسد والعقوبات في الدنيا والآخرة؛ أكبر مما يحصل من بعض المصالح. وفي الآية: حكمة الشارع في التدرج بالتشريع؛ فإنه أنزل في الخمر آية تُبيحها وتغمز فيه؛ وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَمَرَّتِ النَّخِيلُ وَالْأَعْنَبُ لَنُخِذُونِ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، ثم أنزل آية تُنْفِرُ منه؛ ليمتنع عنه أصحاب العقول السليمة؛ وهى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، ثم أنزل آية تمنعه في وقتٍ دون وقت؛ وهى قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]، ثم أنزل آية تحرّمه تحريراً قطعياً؛ وهى آية المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿وَسْأَلُونَكَ﴾ وهذا هو السؤال الثاني في الآيات: ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: أي شيء يُنْفِقُونَ من أموالهم فيتصدقون به؟ يعني: ما مقدار ما يُنْفِقُونَ من أموالهم؟

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ، في الجواب: ﴿الْعَفْوُ﴾ أي: أنفقوا العفو، وهو: ما زاد عن حاجة الإنسان ونفقاته الواجبة. و(العفو) أيضاً: ما سهل وتيسر ولم يشق على النفس.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان والإظهار ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تأملوا ﴿فِي﴾ شؤون وأحوال ﴿الدُّنْيَا﴾؛ فتعرفوا أنها فانية، فتزهدوا فيها. ﴿وَالْآخِرَةِ﴾؛ فتعرفوا أنها باقية، فتقبلوا عليها. وتنفكروا أيضاً في أحكام شريعته، وما فيها من الأسرار العظيمة.

وفيها: أنه لا يجوز التقيرُّ على الأهل، ومنعهم النفقة من أجل الصدقة، فإذا تعلقت حاجة الأهل بالمال؛ فلا يجوز الصدقة به.

ثم قال تعالى ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾:

وسبب نزول هذه الآية: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَامَى إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ عزلوا أموال اليتامى، حتى جعل الطعام يفسد،

وَاللَّحْمَ يَنْتَنُ؛ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، قَالَ: فَخَالَطُوهُمْ^(١).

قوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ هذا هو السؤال الثالث في الآيات. وكانوا في الجاهلية يعتدون على مال اليتيم، وربما تزوجوا باليتيمة طمعاً في مالها، فلما حذرهم الله من ذلك؛ عزلوا مال اليتيم وطعامه، فشق ذلك عليهم، وسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فجاب الجواب: ﴿قُلْ إِصْلَاحُكُمْ خَيْرٌ﴾ أي: عزل أموال الأيتام، أو إصلاح أموالهم واستثمارها من غير مقابل، مع رعايتهم وتربيتهم دون مقابل؛ خيرٌ وأعظمُ أجراً.

﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ﴾ في الطعام، والسكن، والمركب، والنفقة؛ ﴿فإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم؛ لأن الإخوان يُعين بعضهم بعضاً، وهم ليسوا أجنب منكم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ أي: الخائن، الذي يريد بالمخالطة الاستيلاء على مال اليتيم وأخذ أكثره. ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ الذي يقصد الإصلاح، وتلافي الحرج والضيق والمشقة. فيجازي كلًّا على حسب قصده.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ﴾ أي: لأوقعكم في الحرج والمشقة، وشدد عليكم بتحريم المخالطة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: منيع الجانب، لا يُغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدره.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإحسان لليتيم، وابتغاء الأصلح له، ورعايته ورعاية ماله.
وفيها: أن المشقة تجلب التيسير.
وفيها: أثر النية الحسنة والسيئة في الحكم على العمل.
وفيها: التنبيه على ما يجمع اليتيم مع بقية المسلمين، من رباط الأخوة الإيمانية.
وفيها: بيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، في تجنب عباده المشقة والحرج، ورفعها عنهم.
وفيها: تخرج الصحابة من أموال اليتامى، وهذا دليل على ورعهم، وصدق إيمانهم، وخوفهم من الله تعالى.

(١) رواه أحمد (٣٠٠٠)، وأبو داود (٢٨٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

وفيها: أَنْ مَنْ قَصَدَ الْإِحْسَانَ فِي مَالِ الْيَتِيمِ؛ فَلَا يُلَامَ.

وفيها: معاملة اليتيم معاملة الإخوان، والتحذير من إفساد أموالهم والغش في مصالحهم، وتذكير القائمين على اليتامى بعزة الله، وَأَنَّهُ يَقْهَرُ وَيَغْلِبُ؛ حتى لا يقهروا الأيتام ولا يغلبوهم على أموالهم.

وفيها: أهمية تربية اليتيم، وتخليقه بالأخلاق الحسنة، وتأديبه بالآداب الشرعية، وأمره بواجبات الدين، وذرء المفاسد عنه، وموعظته، وتأهيله للكسب الحلال.

وفيها: أَنْ مخالطة الإخوان في الله، وإشراكهم في النفقة؛ مبني على المسامحة.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنْ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣١﴾﴾:

ثم قال تعالى، محذراً من زواج المشركات: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ أي: ولا تتزوجوا وتعتدوا النكاح - أيها المؤمنون - على ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ وهُنَّ: كُلُّ مَنْ جَعَلَتْ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا. وَيُسْتَشْنَى من هذا الحُكْم: الكتابيات، الحرائر، العفيفات - مع كونهن مُشْرِكَاتٍ -؛ فقد خُصَّصَ هذا الحُكْمُ العامُّ بآية أخرى من كتاب الله، في إباحة نساء أهل الكتاب؛ وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]؛ فجعل لهنَّ حُكْمًا خاصًّا في النكاح.

ونهى الله تعالى عن نكاح بقيّة المشركات، ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ أي: يدخلن في دين الله، ويُضَبِّحنَ من الموحّدات المسلمات.

﴿وَلَأَمَةٌ﴾ أي: مملوكة ﴿مُؤْمِنَةٌ﴾ بالله ورسوله؛ فالزواج منها ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أفضل، وأنفع، وأصلح ﴿مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ بالله، ولو كانت حُرَّة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: لجمالها، أو حَسَبها، أو مالها، أو ذكائها، ونحو ذلك.

وقوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾: خطابٌ لأولياء النساء، بالألّا يزوّجوا نساءهم المؤمنات من الكفار والمشركين، ولو كانوا من أهل الكتاب، ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ بالله.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ من الأرقاء المملوكين ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أصحّ لكم، وأفضل عند الله من تزويج المسلمات، ﴿مِنْ مُّشْرِكٍ﴾ بالله، ولو كان حراً ﴿وَلَوْ أَغْنَىٰكُمْ﴾: لحسبه، أو ماله، أو جاهه، أو غير ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكفار والمشركين ﴿يَدْعُونَ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿إِلَى الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ، المؤدّي إلى دخول النار﴾ في الآخرة، فيتسلّط على المسلمة، ويحملها على الكفر، فيؤدّي بها إلى النار.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾ العباد ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾: بتعريفهم الأعمال الصالحة، وحثّهم عليها، ﴿وَالْمَغْفِرَةِ﴾: بدعوتهم إلى التوبة؛ ليغفر لهم ذنوبهم ﴿يَاذُنِهِ﴾ بتوفيقه ومشيتته وكرمه. ﴿وَيَبَيِّنُ مَا يَتَّبِعُهُ النَّاسُ﴾: يوضح لهم الحُجَج والبراهين، في أحكامه وتشريعه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون ويعملون بها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن خير الدّين مُقدّم على خير الدّنيا.

وفيها: حكمة الشريعة في التفريق بين جعل المسلمة تحت المشرك؛ لئلا يُجبرها على الكفر، وبيان إباحة زواج المسلم من الكتابيّة الحرّة العفيفة؛ لأنّه الطّرف الأقوى.

وفيها: أن الأمة المؤمنة خيرٌ من الحرّة المشركة؛ لأنّ المشركة تؤثر على أولاد المسلم بالكفر، وقد تفتنه هو عن دينه.

وفيها: أن الزوج هو وليّ نفسه، فلا يحتاج إلى ولي؛ لأنّه وجه الخطاب إليه بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾.

وفيها: عدم الاغترار بالظاهر والصورة والاعتبارات الدنيويّة؛ بل ينبغي الرجوع إلى الحقائق الشرعيّة، وأنّ التفضيل والاختيار يكون بناءً عليها.

وفيها: الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنَادِي بِالمساواة بين أتباع الأديان، وإعطاء جميع السُّكَّان في البلد الواحد حقوقًا متساوية؛ لأنَّ الله فاوتَ بينهم، ولا يستوي عنده الكُفر والإسلام.

وفيها: أنَّ التَّعَمُّقَ في دراسة الأحكام الشرعيَّة يقود إلى زيادة الإيمان والالتزام به.

وفيها: أنَّ الكُفَّار لا يتوانون عن الدَّعوة إلى كُفرهم، وجذبِ الناس إليهم، وحملهم عليه بكلِّ وسيلة، كما تفعله اليوم الكنائس بإمكاناتها الهائلة.

وفيها: أنَّ الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، ولا يُجيز أن يتسلَّط الرجل الكافر -وهو الأقوى طرفاً- على الزوجة المسلمة -وهي الأضعف-.

وفيها: خَطَرُ جعلِ المسلم أو المسلمة تحت سلطان أو إدارة أو نفوذ كافر أو كافرة، والحذر من مخالطة المشركين بدون مصلحة شرعيَّة راجحة.

وفيها: أنَّ أولياء المرأة هم الذين يُزوِّجونها، وأنها لا تُزَّوج نفسها.

وفيها: أنَّ مسئوليَّة الأولياء خطيرة وعظيمة.

وفيها: أنَّ الحُكم يدور مع عِلَّته -وجوداً وعدمًا-؛ فحُكم غير المؤمن يتغيَّر إذا آمن.

وفيها: إرادة الله الخير لعباده.

وفيها: التشريب على الذين يغتربون بالمظاهر، دون اعتبار الحقائق.

وفيها: عَقْدُ المقارنة بين الأضداد؛ ليزداد الأمر وضوحاً.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ۚ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٣٣٣)

جاء في سبب نزول الآية: ما رواه مسلم^(١)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعِزُّوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ».

فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ!

وقوله ﴿وَسْأَلُونَكَ﴾ أي: أصحابك، أو الناس، أو المسلمون ﴿عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي: عن إتيان النساء في مكان الحيض: أيحِلُّ ذلك أم يحُرِّم؟ وكان أهل الجاهلية يُشابهون اليهود في نَبْذِ المرأة إذا حاضت، وكانت النصراني يطأون نساءهم ولا يبالون بالحيض.

فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﷺ، في جواب السؤال: ﴿هُوَ أَذَىٰ﴾ أي: قَذِرٌ، ضَارٌّ بِالزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِتَرْكِ وَطْءِ الْحَائِضِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعِزُّوا نِسَاءَ﴾ أي: اجْتَنِبُوا جَمَاعَهُنَّ ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: فِي مَكَانِ الْحَيْضِ، وَهُوَ الْفَرْجُ. ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ أي: لَا تَقْرُبُوا جَمَاعَهُنَّ ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: يَنْقُطِعَ الدَّمُ. وَعَلَامَةُ الطُّهْرِ: نَزُولُ السَّائِلِ الْأَبْيَضِ، أَوِ الْجَفَافِ التَّامِ.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغْتَسَلْنَ مِنْ بَعْدِ الْحَيْضِ؛ ﴿فَأَتَوْهُنَّ﴾ أي: جَامِعُوهُنَّ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فِي مَوْضِعِ خُرُوجِ الدَّمِ، وَهُوَ الْقُبْلُ، لَا الدُّبُرُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، التَّارِكِينَ لَهَا بِالنَّدَمِ، الْعَازِمِينَ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالنَّجَاسَاتِ الْحِسِّيَّةِ، وَالْمُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْفَوَاحِشِ، الْجَامِعِينَ بَيْنَ طَهَارَةِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وَسَطِيَّةُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، بَيْنَ إِفْرَاطِ الْيَهُودِ، وَتَفْرِيطِ النَّصَارَى.

وفيها: جَوَازُ الِاسْتِمَاعِ بِالْمَرْأَةِ الْحَائِضِ (مِنْ زَوْجَةٍ وَأَمَةٍ)، فِيمَا عَدَا الْفَرْجَ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُنْتَقَدِّمِ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»^(١)، وَكَمَا صَحَّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا فَرْجَهَا»^(٢).

(١) مسلم (٣٠٢).

(٢) تفسير الطبري (٤/٣٧٨).

وقال بعضهم: يجب تغطية ما حول مكان خروج الدم أيضًا - بإزار ونحوه - إذا أراد الاستمتاع بها؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ»^(١)؛ لثلاثٍ تؤدي مباشرة إلى الوقوع في المحذور - وهو الوطء في الفرج -.

وفهم بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾: ترك مباشرة الحائض فيما بين السرة والركبة؛ خشية الوقوع في المحذور المؤكد - وهو إتيانها في مكان خروج الدم -.

وفي الآية: تحريم وطء الحائض، وأن من فعل ذلك فعليه التوبة.

وقال بعض العلماء: عليه أن يتصدق بدينار إذا أتاها في قورة الدم، أو نصف دينار إذا أتاها في آخره وقبل الغسل. وقد ورد في الباب حديث مرفوع، وصححه بعض العلماء^(٢).

وقال آخرون من أهل العلم: ليس عليه إلا التوبة. ولم يصححوا الحديث.

وفيها: أن المرأة إذا انقطع حيضها؛ لا يَحِلُّ وطؤها حتى تغتسل بالماء، أو تتيمم عند تعذر الاغتسال.

وفيها: حرص الصحابة على السؤال عن العلم، وعدم الاستحياء من السؤال عما لا بُدَّ من معرفته.

وفيها: ذكر علة الحكم؛ لتتبيها النفوس لقبوله.

وفيها: رحمة الله بالمرأة والرجل؛ لأن إتيانها في الحيض مؤذي لها ومُضِرُّ به.

وفيها: أن الله يُحِبُّ طهارة الباطن والظاهر.

﴿فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَنْتُمْ حَرَّتُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢٢٣):

قوله تعالى ﴿فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: مزرعة لأولادكم، فشبه محل الوطء بالأرض، والواطيء بالزارع، وماءه بالحب؛ فكما ينمو الزرع بالبذر والحرث والسقيا؛ فكذلك ينمو ولد الواطيء.

(١) رواه أبو داود (٢١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٤)، والترمذي (١٣٦)، والنسائي (٢٨٩)، وابن ماجه (٦٤٠)، وصححه الألباني في الإرواء (١٩٧).

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ﴾ أي: من أي جهة كان الواطئ، فلا حرج عليه أن يأتي المرأة في الفرج ومكان الولد، سواء كان الواطئ خلف المرأة، أو أمامها، أو عن جنبها. وأمّا الوطء والإيلاج في فتحة الدُّبُر - مكان خروج الغائط -؛ فقد ورد في النصوص الشرعية النهي عنه، ولَعْنُ مَنْ فعله، وأنَّ الله لا ينظر إليه، وهو من الكُفْرِ الأصغر، وهو اللُّوطِيَّة الصغرى^(١)؛ فهو عُدوان وحرام، ويُنافي الحياء. وقيل: إنَّ ذلك كان أول انحراف قوم لوط.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا^(٢)؛ جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ! فَتَزَلَّتْ: ﴿فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ﴾»^(٣)؛ فأبطل الله عز وجل قول اليهود هذا.

وورد في سبب نزول الآية أيضًا: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْتُ! قَالَ: «وَمَا أَهْلَكَ؟»، قَالَ: حَوَلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ^(٤)! قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، قَالَ: فَأَوْحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ﴾، «أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالْحَيْضَةَ»^(٥).

وقوله تعالى ﴿وَقَدْ مُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: قدّموا إلى الآخرة الطاعات والأعمال الصالحة، ولا تنشغلوا بالنساء عنها، وليكن لكم أيضًا في إتيان نسائكم عملٌ صالح تتخذونه للآخرة، وذلك بالنسبة الصالحة في الوطء، من إعفاف النفس، وإعفاف الزوجة، ووضع الشهوة في الحلال، وقبول ما أباحه الله، وابتغاء الولد من هذا الوطء؛ لعلّه أن يكون صالحًا، ونحو ذلك من النيات الحسنة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ومن هذه النواهي: وطء مَنْ لَا تَحِلُّ،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٢)، بلوغ المرام (ص ٣٠٩)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٢٤ - ٢٤٣٤).

(٢) يعني: من الخلف في الفرج.

(٣) رواه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥).

(٤) وهذا أدب لطيف، وكلام عفيف، يريد منه الفاروق رضي الله عنه أنه جامع امرأته في الفرج، لكن كان من ورائها، فلا دية ومراعاة مقام النوبة استعمل هذه العبارة.

(٥) رواه الترمذي (٢٩٨٠)، وحسنه الألباني في آداب الزفاف (ص ١٠٣).

وَالْوَطْءُ فِي الْحَيْضَةِ وَالذُّبُرِ، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَّوهُ﴾ أي: يومَ القيامة بعد البعث؛ فاستعدُّوا لهذا اللقاء.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أخبرهم بما يشترهم، من الفوز العظيم، وجنات النعيم، إذا اتقوا ربهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مُعاشرة الزوجة بالمعروف.

وفيها: الإشارة إلى الحثِّ على تكثير النسل؛ لأنَّ الزارع يزرع أكبر ما يمكن من الأرض. ودعوة تحديد النسل من دسائس أعداء الإسلام، ومن خُبث نواياهم.

وفيها: أنَّ العادات والمباحات تنقلب بالنِّيَّة الطَّيِّبَةِ إلى عبادات.

وفيها: أنَّ الإنسان مع الشهوة يبتغي ما فيه الحكمة والفائدة.

وفيها: أنَّه ينبغي على الزوج أن يحافظ على صحَّة زوجته، وتقوية قُدَّرتها على الإنجاب، كما أنَّ صاحب الأرض يحافظ على حرثه ويتعهده.

وفيها: اجتناب المرأة في الموضع الذي حرَّمه الله، والأحوال التي حرَّمها الله - كحال صيام الفريضة، والإحرام، والاعتكاف، والحَيْض والنِّفَاس -.

وفيها: الإشارة إلى ذكر الله عند الجماع؛ لقوله: ﴿وَقَدِْمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

وفيها: تقوى الله في الأهل.

وفيها: وعظ المخالفين لأمر الله، بأنَّهم سيلاقونه.

وفيها: فضيلة الإيمان؛ لأنَّ الله تعالى علَّق البُشْرَى عليه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤):

قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا الحلف بالله مانعاً

وحاجزًا لكم عن عمل الطاعات، وأن ﴿تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ فلو حلف ألا يصنع خيرًا، أو ألا يصل رحمه، أو ألا يدخل بين اثنين في الصلح؛ فإن عليه أن يأتي الخير، ويكفر عن يمينه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرًا منها؛ إلا أتيت الذي هو خير، وتحللنتها»^(١)؛ أي: جعلتها حلالًا بالكفارة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»^(٢).

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع كل شيء، وما تلتفظون به من الأيمان ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء، وبنياتكم، وأحوالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حفظ اليمين، وعدم الإكثار من الحلف بالله؛ لأنه جُرْأَةٌ على الله، ويدلُّ على قِلَّةِ التَّقْوَى، ويُعَرِّضُ الإنسان نفسه فيه إلى مخالفة يمينه. ومن يُكثِر من الأيمان قلما يُجْرِج الكفارة إذا حنث. ومن أكثر الحلف في كلِّ حقٍّ وباطل، وعظيم وتافه؛ ذهبَت هيبةُ اليمين من نفسه، فينتهكها لأدنى سببٍ - شعر أم لم يشعر - وهذا من أسباب ذهابِ تقوى الله من القلب، وقِلَّةِ فِعْلِ الْبِرِّ.

وفيها: أن مَنْ حلف على ترك واجب أو فِعْلٍ مُحَرَّمٍ؛ فلا يجوز له العمل بمقتضى يمينه.

وفيها: أن التماسي في الباطل، والإصرار على الخطيئة، بحُجَّةِ اليمين التي حلفها؛ أشدُّ إثمًا من مخالفة اليمين وإعطاء الكفارة؛ كما في الحديث: «والله، لَأَنْ يَلْجَ»^(٣) أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ؛ أَنْتُمْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي قَرَضَ اللَّهُ»^(٤).

والمعنى: «أنَّه إذا حلف يمينًا تتعلَّقُ بأهله، ويتضرَّرون بعدم حنثه، ويكون الحنث ليس بمعصية؛ فينبغي له أن يحنث فيفعل ذلك الشيء، ويكفر عن يمينه.

(١) رواه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠).

(٣) أي: يقيم على يمينه ولا يحنث بها.

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٥)، ومسلم (١٦٥٥).

فإن قال: لا أحنث، بل أتورّع عن ارتكاب الحنث، وأخاف الإثم فيه؛ فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله، أكثر إثماً من الحنث^(١).

وفيها: الحثُّ على فعل البرِّ والتَّقوى.

وفيها: فضيلة الإصلاح بين الناس؛ لأنَّ الله أفرده بالذكر - مع أنَّه داخلٌ في عموم البرِّ - والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدلُّ على العناية به.

ويُفهم منه أيضًا: تحريم كلِّ ما يؤدي إلى عكس الإصلاح، كالإفساد بين الناس - بالنميمة ونحوها -.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥):

قوله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ أي: لا يُعاقبكم، ولا يُلزمكم بالكفارة. ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وهو: ما جرى على اللسان، ودرج في الكلام، من غير قصد اليمين وإرادة الحلف، كقول الشخص: «كلا والله»، «بلى والله».

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّه يدخل في اللغو في اليمين: ما لو حلف على شيء يظنُّ نفسه فيه صادقاً، ثم تبين له خلاف ذلك؛ فلا كفارة عليه. وكذا لو حلف ألا يفعل شيئاً، ففعله ناسياً؛ فلا كفارة عليه.

وقال بعضهم: يدخل فيه أيضًا: اليمين في حال الغضب.

أمَّا مَنْ عقد اليمين، وعزم عليه ونواه، وأرادَه وجزمَ به، أو أكَّده وكرَّره؛ فليس قوله لغواً؛ بل يتحمَّل نتيجة ما تلفَّظَ به؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي قصَّده وعقَّده.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لعباده، في لغو أيمانهم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلهم بالعقوبة؛ بل يؤخِّرهم ليتوبوا.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٢٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن المدار على ما في القلوب.

وفيها: أن للقلوب كسبًا، كما أن للجوارح كسبًا.

وفيها: أن من حنث في يمينه، كاذبًا أو عامدًا؛ فإنه يؤخذ بذلك.

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣):

قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ (الإيلاء): الحلف على ترك وطء الزوجة. ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: الزوجات الحرائر - كما قال بذلك أكثر العلماء - وليس الإماء، وقد علم الله ما يكون بين الزوج والزوجة من المغاضبة، وأن بعض الأزواج يمتنع عن إتيان زوجته بالحلف؛ فجعل لذلك أمدًا - وهو أربعة أشهر - لا يجوز للزوج أن يزيد عليه؛ فلذلك قال: ﴿تَرَبُّصُ﴾ أي: انتظار ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ قمرية.

﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي: رجعوا إلى زوجاتهم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ لما حصل من التقصير في حق الزوجات، والتجروء على الحلف بحرمانهن من حقهن. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالأزواج: حيث بين لهم الحكم والكفارة، وبالزوجات: حين جعل أمد الإيلاء لا يزيد على أربعة أشهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم ظلم الزوجة. وقد كان الواحد من أهل الجاهلية إذا أغضبته زوجته حلف ألا يطأها، وربما تركها معلقة السنة والستين؛ فأبطل الله هذه العادة، وجعل للممتنع عن زوجته أمدًا، فإما أن يرجع، وإما أن يطلق؛ حتى لا يقع عليها الضرر.

وفيها: أن الإيلاء ليس من المعاشرة بالمعروف، لكنه قد يكون أحيانًا مطلوبًا للتأديب؛ كما فعله النبي ﷺ، لما آذته زوجته بطلب زيادة النفقة، ولما حصل بينهما بسبب شدة الغيرة، كما في قصة تحريم مارية وتحريم العسل، فامتنع عنهن شهرًا؛ تأديبًا لهن.

كما روى أنس رضي الله عنه: ألى رسول الله ﷺ من نسائه، وكانت انفكت رجله، فأقام

فِي مَشْرُبَةٍ^(١) تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ نَزَلَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آلَيْتَ شَهْرًا، فَقَالَ: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»^(٢).

وقد جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كان إيلاءُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: أُقْسِمُ بالله، لا أقربُكُنَّ شهرًا»^(٣).

وفيها: أن الذي يَخْلِفُ ألا يقرب امرأته أقلَّ من أربعة أشهر، لا ينطبق عليه حكم الإيلاء، في تخييره بين العودة والطلاق.

وفيها: أن رجوع الإنسان عن خطئه، سببٌ للمغفرة من الله.

﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميعٌ عليمٌ﴾^(٢٧):

قوله ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي: قصده. وهذا فعل الشرط، وجوابه محذوف، تقديره: «فليوقعوه».

وفي هذا دليل على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، وهو قول الجمهور.

وقد ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «إذا مضت أربعة أشهر: يُوقَفُ حتى يُطْلَقَ، ولا يقع عليه الطلاق حتى يُطْلَقَ»^(٤).

وفي لفظ عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أيما رجلٍ آلى من امرأته؛ فإنه إذا مضت الأربعة أشهر، وُوقِفَ حتى يُطْلَقَ أو يفِيءَ، ولا يقع عليه طلاقٌ إذا مضت الأربعة أشهر حتى يُوقَفَ»^(٥).

فإن رفض الرجل الطلاق؛ أجبره عليه القاضي، لأنه لا يجوز تعليق الزوجة، ولا يجوز ظلمها في الإسلام.

(١) أي: عُرقه عالية.

(٢) رواه البخاري (١٩١١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤١١/٢).

(٤) رواه البخاري (٥٢٩٠)، معلقًا. وقال: «ويذكر ذلك عن: عثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعائشة، وأبي عبيد بن جراح، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم».

(٥) موطأ مالك (١٨).

والطَّلقة تكون رَجْعِيَّة - عند جمهور العلماء -؛ فله أن يُراجع زوجته في العِدَّة. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالهم، ومن ذلك: الإيلاء والطلاق. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِنِّيَّاتِهِمْ وأحوالهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الطلاق بيد الزوج؛ لقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾. وفيها: أنَّ حكم الإيلاء يقع على غير المدخول بها أيضًا - وهو مذهب جمهور العلماء -؛ لدخولها في عموم قوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾. وفيها: أنَّ الإيلاء بعد الأربعة أشهر حرام. وفيها: أنَّ الله لا يُحبُّ الطلاق، والرُّجوع إلى الزوجة أحبُّ إلى الله من الطلاق؛ لأنَّه قدَّم الفَيءَ عليه. وفيها: أنَّ المغفرة والرحمة للذي يرجع إلى زوجته هو الأحسن، والجزاء من جنس العمل. وفيها: أنَّه لا يجوز للزوج أن يتأخَّر عن وطء زوجته أكثر من أربعة أشهر، إلَّا برضاها، كالسفر لطلب الرِّزق، أو لحصول أمر طارئ، ونحو ذلك.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْلَمْنَ أَحَقُّ بِرِدَّتِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٣٨) :

وقوله ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾: جمع «مطلقة»، وهي: التي أوقع عليها زوجها الطلاق. فما هي عِدَّتُها؟ وكم تنتظر للنظر ومراجعة الحال؟ فالمطلقة قد يُراجعها زوجها في العِدَّة، وقد لا يُراجعها فتخرج من عصمته.

فبيَّنت الآية حكم المطلقات من الحرائر المدخول بهنَّ، غير الحوامل، من اللأئي يحضن. وبقية أنواع المطلقات بيَّنت عِدَّتَهُنَّ نصوصٌ أخرى.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أَي: يَنْتَظِرْنَ فِي الْعِدَّةِ، وَيَحْبِسْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَنْ زَوَاجٍ جَدِيدٍ. وَمُدَّةُ هَذَا الْإِنْتَظَارِ: ﴿ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾ أَي: ثَلَاثَ حَيَضَاتٍ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ وَكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَآخَرِينَ: بَلْ ثَلَاثَةُ أَطْهَارٍ.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَقْرَاءَ هِيَ الْحَيَضَاتُ: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حُبَيْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لَمَّا شَكَتَ إِلَيْهِ كَثْرَةُ الدَّمِّ - : «إِنَّمَا ذَلِكَ عِرْقٌ، فَأَنْظُرِي إِذَا أَتَى قَرْوُوكَ، فَلَا تُصَلِّي، فَإِذَا مَرَّ قَرْوُوكَ فَتَطَهَّرِي، ثُمَّ صَلِّي مَا بَيْنَ الْقُرَى إِلَى الْقُرَى»^(١).

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهِنَّ﴾ أَي: لِلْمُطَلَّقَاتِ ﴿أَنْ يَكْتُمْنَ﴾: يُخْفِينَ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ مِنَ الْحَمْلِ أَوْ الْحَيْضِ، ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: وَهَذَا إِغْرَاءٌ لِهِنَّ بِالتَّزَامِ الْحُكْمِ.

فَلَا يَحِلُّ لِلْمُطَلَّقة أَنْ تَقُولَ: إِنِّي حَائِضٌ، وَهِيَ لَيْسَتْ بِحَائِضٍ، أَوْ الْعَكْسُ. وَلَا تَقُولَ: إِنِّي حُبْلَى، وَهِيَ لَيْسَتْ حُبْلَى، أَوْ الْعَكْسُ.

وَفِي الْآيَةِ تَهْدِيدٌ، أَي: إِنْ كُنَّ صَادِقَاتٍ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلَا يَكْتُمْنَ أَمْرَ الْحَمْلِ أَوْ حَقِيقَةَ الْحَيْضِ.

وَقَوْلُهُ ﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ﴾ أَي: أَزْوَاجَ الْمُطَلَّقَاتِ. وَ(الْبُعْلُ): هُوَ السَّيِّدُ الْمَالِكُ، أُطْلِقَ عَلَى الزَّوْجِ؛ لِقِيَامِهِ بِأَمْرِ زَوْجَتِهِ وَسَيَادَتِهِ عَلَيْهَا. ﴿أَحَقُّ﴾ أَي: أَوْلَى، حَتَّى مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ أَي: بِإِرْجَاعِهِنَّ ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أَي: فِي زَمَنِ عِدَّةِ الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ. ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ أَي: الْأَزْوَاجُ ﴿إِصْلَاحًا﴾: مَعَاشِرَةً بِالْمَعْرُوفِ.

﴿وَهُنَّ﴾ أَي: لِلزَّوْجَاتِ مِنَ الْحَقُوقِ ﴿مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ مِنْ حَقُوقِ الْأَزْوَاجِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: الَّذِي عَرَفَهُ الشَّرْعُ، وَتَعَارَفَ عَلَيْهِ النَّاسُ، مِنَ الْمَهْرِ وَالتَّفَقُّةِ وَالْكِسُوفَةِ وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾: فِي قُوَّةِ الْعَقْلِ، وَقُوَّةِ الْخِلَاقَةِ، وَعِظَمِ الْحَقِّ. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَي: غَالِبٌ، ذُو عِزَّةٍ، مُتَقِمٌ مِّنْ عَصَاهُ. ﴿حَكِيمٌ﴾: ذُو الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، وَفِيهَا حُكْمٌ فِي الزَّوْجَيْنِ.

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٨٠)، وَالنَّسَائِيُّ (٢١١)، وَابْنُ مَاجَةَ (٦٢٠)، وَصَحِّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٢٣٦٣).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

أنَّ المطلقات مؤتمنات على ما في أرحامهنَّ، وأنَّ المرجع إليهنَّ في معرفة انقضاء العِدَّة، بالحِضات أو الأطهار.

وفيها: التخويف باليوم الآخر، والتهديد به على قول خلاف الحق.

وفيها: أنَّ الواجب على المطلقة وغيرها الإخبار بالحق، من غير زيادة ولا نقصان.

وفيها: أنَّه يجب التحري في قول الحق، خصوصًا إذا تعلقت به حقوق الآخرين.

وفيها: مقاومة النفس في إجابة الأغراض الخبيثة؛ فقد تريد نفس المطلقة أن تتخلص من الزوج بسرعة، فتكذب عليه في مرور الحِضات قبل أن تنقضي العِدَّة الحقيقيَّة، فتفوت عليه حقه الشرعي في مُدَّة المراجعة. وقد تدعوها نفسها إلى إطالة مُدَّة العِدَّة كذبًا، فيتضرر الزوج بالإلفاق عليها نفقة لا تستحقُّها. وقد تكتم حملها؛ حتى تجعله لرجل آخر تتزوَّجه بعده. ونحو ذلك من الأغراض الخبيثة.

فأمرهنَّ الله تعالى بقول الحق، وعدم كتمه أو تغييره.

وفيها: تسمية المُطلَّق «بَعْلًا» و«زَوْجًا»؛ لأنَّ علاقة الزوجيَّة لا تزال قائمة؛ حيث إنَّ الطلاق رَجْعِيٌّ.

وفيها: إعطاء كُلِّ من الزوجين الحقوق للآخر.

وفيها: بطلان قول من يقول بالتساوي بين الزوج والزوجة في الدرجة والحقوق؛ لأنَّ الله جعل السيادة للرجل، وجعل له فضلًا على زوجته؛ ولذا فعليتها الاحترام والتعظيم له، بسبب عقله وإنفاقه، ومُعاناته المموم والغمووم والشدائد والأهوال في سبيل ذلك. وفرَّق الشارع بين الذكر والأنثى في: الشَّهادة، والميراث، والدِّيَّة، والإمامة، والقضاء، والتعدد، وجعل الطلاق بيده وحده، والرَّجعة من حقه، وغير ذلك.

وفيها: ذكر عِدَّة المطلقات الحرائر المدخول بهنَّ، غير الحوامل، من اللَّاتي يحضن.

وخرجت من الآية: المطلقة الأُمَّة، والحامل، وغير المدخول بها، واليايسة التي لا تحيض؛ فبيَّنت أحكامهنَّ نصوصً أخرى.

وفي الآية: الحثُّ على حُسن معاشرَةِ المرأة. وصَحَّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ، كَمَا أَحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾»^(١).

وفيها: أَنَّ الدَّرَجَةَ الَّتِي لِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ هِيَ: التَّفْضِيلُ الدُّنْيَوِيُّ، فِي الْخِلْقَةِ وَالطَّبِيعَةِ، وَجَعَلَ الرَّجُلَ أَقْدَرَ عَلَى الْكَسْبِ لِلإِنْفَاقِ عَلَى الْمَرْأَةِ. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ: فَالدرجات عند الله بِحَسَبِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وفيها: أَنَّ حَقَّ الرَّجْعَةِ لِلزَّوْجِ مُشْرُوطٌ بِإِرَادَةِ الإِصْلَاحِ وَالِاتِّلَافِ وَالِالْتِمَامِ مَعَ زَوْجَتِهِ، لَا الْإِضْرَارِ، كَتَطْوِيلِ الْمُدَّةِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَهُوَ لَا يَرِيدُهَا، أَوْ إِمْسَاكِهَا لِتُدْفَعَ لَهُ الْمَهْرُ مُرْغَمَةً.

وفيها: وَجُوبُ الْعِدَّةِ بِثَلَاثِ حَيَضَاتٍ عَلَى الْمَطْلُوقَةِ، سِوَاءَ كَانَتْ بَائِنًا أَمْ لَا، فَتَعْتَدُ بِثَلَاثِ حَيَضَاتٍ بَعْدَ الطَّلَاقِ الْأَوَّلِيِّ، أَوِ الثَّانِيَةِ، أَوِ الثَّالِثَةِ.

وفيها: أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ قَبْلَ النِّكَاحِ؛ فَلَوْ قَالَ: «إِنْ تَزَوَّجْتُكَ فَأَنْتِ طَالِقٌ»؛ لَمْ تَطْلُقْ إِذَا تَزَوَّجْتَ؛ لِأَنَّهُ لَا طَلَاقَ إِلَّا بَعْدَ نِكَاحٍ.

وفيها: الرُّجُوعُ إِلَى قَوْلِ الْمَرْأَةِ فِي عِدَّتِهَا، وَأَنَّهَا مُؤْتَمِتَةٌ فِي الْإِخْبَارِ عَنْ ذَلِكَ.

وفيها: أَنَّ الْمَطْلُوقَةَ الرَّجْعِيَّةَ لَا تَزَالُ زَوْجَةً، لَهَا حَقُّ النِّفْقَةِ وَالسُّكْنَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُعَوِّلُهَا﴾.

وفيها: أَنَّ مَنْ تَشَبَّهَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَخَالَفَ فِطْرَةَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَطْعَنُ فِي رَجُولَتِهِ، وَدَرَجَةِ تَفْضِيلِهِ.

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، وَالنَّهْيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ﴾، وَالْجَوَازَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَحَقُّ﴾، وَالْوَجُوبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُنَّ﴾.

وفيها: تَذْكِيرُ الرَّجُلِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ، لِثَلَا يَطْغَى عَلَى زَوْجَتِهِ.

وفيها: أَنَّ عَلَى كُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ أَدَاءَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقُوقِ لِلْآخَرِ؛ فَكَمَا أَنَّهُ يَلِيقُ بِالرَّجُلِ أَنْ يُنْفِقَ، فَيَلِيقُ بِالزَّوْجَةِ أَنْ تُخْدِمَ وَتُرْعَى.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٩٦/٤).

وفيها: أنه لا يلزم لإرجاع الزوج زوجته في عِدَّة الطلاق الرَّجْعِي ما يلزم من الشروط في عقد النكاح، فلا يُشترط المهر، ولا الولي، ولا رضا الطرفين.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾:

كان الطلاق في ابتداء الإسلام غير مقيد بعِدَّة معين؛ وكان الرجل أحق برَجْعَةِ امرأته، فيحِقُّ له أن يراجعها ما دامت في العِدَّة، وإن طلقها مائة مرة، فلمَّا كان هذا فيه ضرر على الزوجات - وكان البعض يؤذي المرأة بتعليقها، فإذا دنت عِدَّتُها راجعها -؛ قصَّر الله تعالى الطلاق إلى ثلاث طَلِّقات، وأباح الرَّجْعَةَ في المرَّة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، بينونة وفراقًا لا رَجْعَةَ فيه.

فقال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: الذي فيه الرَّجْعَةُ ﴿مَرَّتَانٍ﴾، لكل واحدة من الطلقتين عِدَّة. ولم يقل: «طلقتان»؛ إشارة إلى عدم جواز إيقاعها دفعة واحدة.

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: على الزوج إذا أراد الرَّجْعَةَ أن يُمْسِكَهَا بما هو معروف في الشرع، وما تعارف عليه الناس، من العشرة الطيبة الحسنة. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾: بترك المرأة حتى تنقضي عِدَّتُها، ﴿بِإِحْسَنٍ﴾ أي: يحسن إليها، بأن يُمْتَعَهَا عند الفراق بشيء يجبر كسرهما، وَيُطَيِّبَ قَلْبَهَا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: «إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين؛ فليتق الله في التطليقة الثالثة (يعني: قبل إيقاعها)؛ فإمَّا أن يُمْسِكَهَا بمعروف، فيُحَسِّنَ صُحْبَتَهَا، أو يُسَرِّحَهَا بإحسان؛ فلا يظلمها من حقها شيئاً»^(١).

قوله ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ يعني: يا أيُّها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا﴾ بغير رضا الزوجات ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتُموهنَّ، ووهبتُموهنَّ ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً أو كثيراً. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: يظنُّ الزوجان ويتوقعا ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: ألا يُعْطِيَ كُلُّ مِنْهُمَا الآخر حَقَّهُ: فتخاف

(١) تفسير الطبري (٤/٥٤٣).

الزوجة أن تعصي الله في زوجها، فلا تطيع له أمراً، وتُظهر النشوزَ وسوء الخلق والكراهية للزوج. ويخاف الزوج إن لم تطيعه زوجته أن يتعدى عليها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: خشي ذلك الزوج والزوجة، أو أقاربهما، أو من تدخل للإصلاح، أو الحاكم أو القاضي، ونحوهم ممن له صلة بالخلاف بين الزوجين؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا إثم ولا حرج في هذه الحالة على الرجل في الأخذ، ولا على المرأة في طلب الخلع. ﴿فَمَا أَفْلَدَتْ بِهِ﴾ ودفعته وبذلته، ليرضى زوجها بمفارقتها، كما قال النبي ﷺ لا امرأة ثابت بن قيس، لَمَّا أرادت الخلع من زوجها: «أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَديقَتَهُ؟»، قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقْبَلِ الحَديقَةَ، وَطَلِّقْهَا طَلِيقَةً»^(١).

فأما إذا طلبت المرأة الطلاق أو الخلع من غير سبب شرعي؛ فَإِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهَا؛ لقوله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(٢)، وفي الحديث: «الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ»^(٣).

﴿تِلْكَ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ وهو: ما حدَّه وشرَّعه لعباده. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: لا تتجاوزوها للمخالفة إلى ما نهاكم عنه. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يتجاوز أحكامه؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم، المتعرضون لسخط ربهم.

مسألة:

اختلف العلماء في عِدَّةِ المختلعة:

فقال جمهورهم: إنها ثلاث حيضات، وبنوا ذلك على أَنَّ الخُلْعَ طَلَاقٌ.

وفي قول عن الإمام أحمد: إن عدَّتْها حيضة، وهو المروي عن عثمان بن عفان، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم^(٤).

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٣٥).

(٣) رواه الترمذي (١١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٨١).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية (٢٥٢/١٩).

والراجع: أنَّ عِدَّةَ المختلعة حَيْضَةٌ واحدة - لأنَّ الخُلْعَ فسخ -؛ لِمَا ثَبَتَ أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتَ ابْنِ قَيْسٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ^(١)، وجاء ذلك أيضًا في قِصَّةِ الرُّبَيْعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، أَنَّهَا أُمِرَتْ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ^(٢)، وهو الذي قَضَى بِهِ عُمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تَبَعًا لِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وعلى هذا: فلا يَحْتَقُّ لِلزَّوْجِ أَنْ يُرَاجِعَ المختلعةَ في عِدَّتِهَا، بعد أن بذَلَتْ لَهُ الْفِدْيَةَ وافْتَدَتْ بِنَفْسِهَا - وإلَّا صَارَ فِي الخُلْعِ فَائِدَةٌ - لكنَّ إِنْ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا وَمَلَكَتْ أَمْرَهَا؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا بِعَقْدٍ جَدِيدٍ، إِذَا رَضِيَتْ بِذَلِكَ.

وهل يقع الطلاق إذا طَلَّقَهَا زَوْجُهَا فِي عِدَّةِ الخُلْعِ؟ ذهب جمهور العلماء إلى أَنَّهُ لَا يَقَعُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بالزوجة؛ حيث حَدَّ لزوجها ثلاث طلاقات، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَدَّاهَا.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الإِمْسَاكُ مَعَ الإِضْرَارِ، وَلَا التَّسْرِيعُ بِإِذَاءٍ.

وفيها: جَبْرُ قَلْبِ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّقةِ، إِمَّا بِرَدِّهَا، وَإِمَّا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا إِذَا انْتَهَتْ عِدَّتُهَا، بِتَمَتُّعِهَا بِهَا، وَنَحْوِهِ.

وفيها: الإِحْسَانُ عِنْدَ إِنْهَاءِ الْعَلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ طَلَبُ الخُلْعِ مَعَ اسْتِقَامَةِ الْحَالِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا.

وفيها: عِنَايَةُ الشَّارِعِ بِالمَحَافِظَةِ عَلَى الْأُسْرَةِ، وَعَدَمُ تَفْكِيكِهَا.

وفيها: دَفْعُ أَشَدِّ الْمَفْسَدَتَيْنِ، بَارْتِكَابِ أَهْوَنِهَا وَأَخْفَئِهَا؛ فَقَدْ يَكُونُ إِنْهَاءُ الْعَلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَهْوَنَ مِنَ الْإِبْقَاءِ عَلَيْهَا.

وفيها: جَوَازُ تَصَرُّفِ الْمَرْأَةِ فِي مَالِهَا بِالمَعْرُوفِ.

(١) رواه أبو داود (٢٢٢٩)، والترمذي (١١٨٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (١١٨٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) رواه النسائي (٣٤٩٨)، وابن ماجه (٢٠٥٨)، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود (٤٣١/٦).

وفيها: أَنَّ الخُلْعَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِرِضَا الزَّوْجَةِ، إِذَا كَانَتِ الْفِدْيَةُ مِنْهَا.

وفيها: مَا اسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لَزَوْجِ الْمُخْتَلِعَةِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا أَكْثَرَ مَرَّةٍ أَعْطَاهَا؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

وَالْأَعْدَلُ: أَلَّا يَأْخُذَ مِنْهَا إِلَّا مَا أَعْطَاهَا؛ وَعَلَيْهِ حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَامْرَأَةٍ ثَابِتِ ابْنِ قَيْسٍ، لَمَّا أَرَادَتْ الْخُلْعَ مِنْ زَوْجِهَا: «أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْبَلِ الْحَدِيثَةَ، وَطَلَّقْهَا تَطْلِيقَةً»^(١).

وهذا الأخذ - على كُلِّ حال - يُشْتَرَطُ فِيهِ عَدَمُ الْمُضَارَّةِ مِنَ الزَّوْجِ.

وظاهر الآية: أَنَّ الخُلْعَ لَيْسَ بِطَلَّاقٍ، بَلْ هُوَ فَسْخٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

قَوْلُهُ ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أَي: التَّطْلِيقُ الثَّالِثُ؛ ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ﴾ أَي: مِنْ بَعْدِ الطَّلَاقِ الثَّالِثِ، ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أَي: غَيْرَ الْمُطْلَقِ لَهَا، فَيَنْكِحُهَا نِكَاحًا صَحِيحًا، وَيَدْخُلُ بِهَا وَيُجَامِعُهَا، وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ هَذَا النِّكَاحُ الثَّانِي نِكَاحَ رَغْبَةٍ، لَا نِكَاحَ تَحْلِيلٍ.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يَعْنِي: الزَّوْجَ الثَّانِي، بَعْدَ أَنْ دَخَلَ بِهَا وَجَامَعَهَا، وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ يَعْنِي: عَلَى الْمَرْأَةِ وَالزَّوْجِ الْأَوَّلِ ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ يَعْنِي: بِعَقْدٍ جَدِيدٍ. بِشَرْطِ ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَي: عَلِيمًا وَرَجَوَا أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا الصَّلَاحُ وَحُسْنُ الصُّحْبَةِ، بَعْدَ تَدَمُّمِهِمَا عَلَى عِشْرَتَيْهِمَا السَّابِقَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهَا الْفِرَاقَ.

وَقِيلَ: إِنْ عَلِمَا أَنْ نِكَاحَهُمَا عَلَى غَيْرِ التَّحْلِيلِ.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَي: شُرَائِعُهُ، الَّتِي حَدَّدَهَا وَبَيَّنَّهَا وَوَضَّحَهَا ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ؛ فَهَمُ الْمُتَفَعِّلُونَ بِهَا، النَّافِعُونَ لغيرِهِمْ.

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه يَصِحُّ رجوع الزوجة المطلقة ثلاثاً إلى زوجها الأول، إذا توافرت الشروط، وهي: أن تنقضي عدتها من الزوج الأول، ويتزوجها زوج آخر زواجاً صحيحاً شرعاً، وأن يكون نكاحه لها نكاح رغبة، يقصد فيه استدامة العشرة، وأن يطأها وطئاً مباحاً في هذا النكاح، ثم إذا طلقها وانقضت عدتها منه؛ جاز أن ترجع إلى الأول بعقد جديد. وكذا لو فارقها الثاني بموت، أو خلع، أو فسخ، بعد وطئها.

وفيها: أن نكاح الزوج الثاني إذا لم يكن صحيحاً؛ فلا يصح أن ترجع بعده إلى الأول.

ومن أحكام الآية: بطلان نكاح التحليل، وهو أن يتزوج المطلقة ثلاثاً شخصاً، بقصد أن يُحللها لزوجها الأول. وهذا حرام، سواء شرطوا عليه ذلك في صلب العقد، أو قبل العقد، أو تطوع بذلك من تلقاء نفسه، وقد لعنه النبي ﷺ بقوله: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُحْلِلَ، وَالْمُحْلَلَّ لَهُ»^(١)، ووصف النبي ﷺ المحلل بـ «التيس المستعار»، كما في الحديث^(٢).

ولما سئل ابن عمر رضي الله عنهما عن رجل أراد أن يتزوج من مطلقه أخيه ثلاثاً، من غير مؤامرة منه، ليحللها لأخيه؛ فقال: «كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سِفَاحًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٣).

وفيها: العمل بغلبة الظن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

وفيها: أن التراجع بغير هذا الشرط (وهو غلبة الظن بإقامة حدود الله) يكون إثماً، وشقاءً ونكدًا، وخسارةً ماليةً.

وفيها: تعظيم شأن النكاح؛ لما ورد فيه من التفصيل والبيان.

وفيها: دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصاً الولايات - الصغار والكبار - أن ينظر في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك، وثيق بها؛ أقدم، وإلا أحجم.

(١) رواه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥)، وهو في صحيح الجامع (٥١٠١).

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٣٦)، وحسنه الألباني في الإرواء (٣١٠/٦).

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢١٧/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٣٩/٧)، وصححه الألباني في الإرواء (١٨٩٨).

وفيها: فضيلة أهل العلم؛ لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك دون غيرهم؛ فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُتَيَّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفيها: أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله، والتفقه فيها.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣١).

قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يعني: طلاقاً رجعيّاً، في الطلقة الأولى والثانية. ﴿فَلَنْ أَجْلِهِنَّ﴾ أي: قاربين نهاية العدة، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَيُمَوِّلُهُنَّ أَجَلَ رِزْقِهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: راجعوهنّ إذا شئتم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وهو: ما عُرف من الشرع من إرجاعها، كاللفظ الدالّ على ذلك، مثل قوله: «راجعتك»، والإشهاد على هذه الرجعة، وبما هو معروف في الشرع وعند الناس من حسن الصّحبة والمعاشرة.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ يعني: اتركوهنّ بلا مراجعة، حتى تنقضي العدة تماماً، فتخرج من عصمة زوجها، فيفارقها. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: فيخرجها إلى بيت أهلها مكرّمة، ويمتّعها بما يطيب خاطرها، من غير مخاصمة ولا سوء أدب.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: لا تُراجعهنّ إذا لم يكن لكم بهنّ رغبة، وإنّما تريدون ﴿ضِرَارًا﴾ أي: الإضرار بالزوجة، بسوء عشرة، أو تطويل العدة، ومنعها من الزواج برجل آخر. ومضارة المسلم حرام، بأيّ شكل كانت.

ولذا قال: ﴿لِنَعْتِدُوا﴾ أي: لتقعوا في العدوان على الزوجات، بظلمهنّ، بتطويل العدة، أو إلقائهنّ إلى الافتداء بالمال وطلب الخلع.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ وهو: إمساك الإضرار، المؤدّي للعدوان؛ ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أضرّ بنفسه في الحقيقة، بالإضافة إلى ظلم الزوجة؛ لأنّه جلب على نفسه الإثم وعقوبة الله.

﴿وَلَا تَنَحِّذُوا﴾ أي: لا تجعلوا - أيها الأزواج - ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ التي يبين فيها أحكامه ﴿هَزُوا﴾ أي: موضعًا للاستهزاء والاستخفاف واللعب، ولا تنهاؤنوا بها، أو تركوا العمل بها.

ولا فرق في وقوع الطلاق بين الجادِّ والهازل؛ كما قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدُّ، وَهَزُّهُنَّ جَدُّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ»^(١).

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ - باللسان وبالقلب وبالجوارح - ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بالإسلام، وبعثة النبي ﷺ، وبيان الأحكام، وما سوى ذلك. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو: القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي: السُّنَّةُ النبويَّة، وقيل: أسرار الشريعة. فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه. فاذكروهما بالعمل بهما. وأفرد هذه النعم بالذكر؛ تنبيهًا على شرفها.

ولهذا قال: ﴿يُعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يُذَكِّرُكم ويأمرُكم وينهاكم بهذا الوحي الذي أنزله عليكم، قرآنًا وسُنَّةً.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوا عقابه، بامثال أوامره، وترك نواهيه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، من طاعةٍ ومعصيةٍ، سرًّا وإعلانًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ظُلْمَ الغير هو في الحقيقة ظُلْمٌ للنفس؛ لأنَّه يُعَرِّضُهَا لعقاب الله.

وفيها: أنَّ المراجعة لا تجوز إذا كانت بقصد الإضرار.

وفيها: أنَّ الزوج إذا لم يجد ما يُنفق على زوجته، ولم تصبر عليه؛ فإنَّه يتأكَّد عليه أن يطلقها؛ لأنَّ إمساكها - حيثئذٍ - لا يكون إمساكًا بمعروف.

وفيها: أنَّ لكلِّ طلاق أجلًّا، وأنَّ العِدَّةَ أنواع، وقد جاء في آية أخرى تفصيل العِدَّة والآجال المُجمَّلة في هذه الآية.

(١) رواه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٢٦)، وضعفه غيره.

وفيها: جواز مُراجعة المُطَلَّق لزوجته.

وقد فهم بعض العلماء من ظاهر الآية: أن للزوج أن يُراجع زوجته إذا انقضت الحيضات الثلاث (وهي العدة عندهم)، ما لم تغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَنَ أَجَلَهُنَّ﴾، فإذا بلغت نهاية حيضتها بنزول الطُّهر بعد الحيضة الثالثة، فإما أن يراجع قبل اغتسالها، أو أنها تخرج من عصمتها إذا اغتسلت.

وفي الآية: أن الإمساك بمعروف أو التسريع بإحسان واجب؛ لأنه لا يجوز المضارة بإمساك الزوجة، ولا يجوز تسريحها بإيذاء.

وفيها: أن مضارة المسلم حرام وعُدوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّنَعْدُو﴾، وفي الحديث: «مَنْ ضَارَّ ضَارَّ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١).

وفيها: أن المعصية ظُلم للنفس، وفي هذا ردُّ على مَنْ يقول: «أنا حرٌّ، أفعل ما أشاء، وأصبر على العذاب»!

وفيها: تحريم الاستهزاء بآيات الله وشرائعه وأحكامه. والهُزء درجات: فمخالفة الحُكم درجة، والمُزاح فيه درجة، والسُّخرية به درجة، والاستغفار مع الإصرار درجة.

وفيها: وجوب ذكر نعمة الله، وأن ذلك يكون بالقلب واللسان والجوارح.

وفيها: أنه يجب على العباد أن يُقدِّروا نعمة الكتاب العزيز والسُّنة النبوية حقَّ قدرها، وذلك بالتعلُّم والعمل.

وفيها: أهمية فهم حكمة التشريع وأسراره، وهو: فائدة الحُكم، ومعرفة لماذا شرَّعه الله، وهذا ممَّا يزيد الإيمان والتمسُّك بالأحكام.

وفي الآية: أن أفراد بعض النعم بالذكر - بعد النعمة العامة - دليل على شرف وأفضلية هذه النعم، كما أفرد «الكتاب» و«الحكمة» بالذكر بعد النعمة العامة.

(١) رواه أبو داود (٣٦٣٥)، والترمذي (١٩٤٠)، وابن ماجه (٢٣٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٢).

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرْضَوْنَ
بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ
وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ﴾ - أيها الأزواج - ﴿النِّسَاءَ﴾ أي: الزوجات، ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾
أي: انقضت عدتهن؛ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعهن - أيها الأولياء - من ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ﴾ بعقد جديد، بشروطه، إذا كان الطلاق رجعيًا.

وأيضًا، لا تمنعهن - أيها الأزواج السابقين - من الزواج بأزواج آخرين بعد انتهاء عِدَّة
الطلاق إذا أردن. وكانوا في الجاهلية إذا طلق الواحد زوجته يمنعه من الزواج من بعده،
غيرةً وأنفةً وحميةً.

﴿إِذَا تَرْضَوْنَ﴾ أي: النساء والخطأب ﴿بَيْنَهُمْ﴾، واتفقوا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: ما عرفه الشرع،
من العقد والمهر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾: «هذا
في الرجل يطلق امرأته تطيقةً أو تطليقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن
يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك؛ فنهى الله سبحانه أن يمنعوها»^(١).

وفي هذا دليل على: أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، ولا بُدَّ لها من ولي؛ كما قال النبي
صلى الله عليه وسلم: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: «السُّلْطَانُ وَلِيٌّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»^(٣)، وقال
صلى الله عليه وسلم: «لَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا»^(٤).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن معقل بن يسار رضي الله عنه، أنه زوج أخته رجلًا من
المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة، ولم

(١) تفسير ابن كثير (١/٦٣١).

(٢) رواه أبو داود (٢٠٨٥)، والترمذي (١١٠١)، وابن ماجه (١٨٨١)، وصححه الألباني في الإرواء (١٨٣٩).

(٣) رواه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وصححه الألباني في الإرواء (١٨٤٠).

(٤) رواه ابن ماجه (١٨٨٢)، وصححه الألباني في الإرواء (١٨٤١).

يُرَاجِعُهَا حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ، فَهِيَ بِهَا وَهْيَتُهُ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَابِ، فَقَالَ لَهُ: «يَا لُكْعُ^(١)، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَهَا، فَطَلَّقْتُهَا، وَاللَّهِ لَا تَرْجِعْ إِلَيْكَ أَبَدًا، آخِرَ مَا عَلَيْكَ».

قَالَ: فَعَلِمَ اللَّهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا، وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتَنَ أَجْلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ: «سَمِعْنَا لِرَبِّي وَطَاعَةً»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: «أَزَوَّجُكَ وَأَكْرِمُكَ»^(٢).

وفي هذه القِصَّة: امْتِثَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُخَالَفَةُ هَوَى النِّفْسِ، وَالْعَمَلُ بِرِضَا الْمَرْأَةِ فِي النِّكَاحِ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ، مِنَ النِّهْيِ عَنْ حَبْسِ الْمَرْأَةِ عَنِ الزَّوْجِ بِمَنْ تَرِيدُ ﴿وَعُظْمُ يَدِي﴾ أي: يُؤْمَرُ بِهِ وَيُذَكَّرُ، فَيَمْتَثِلُ وَيَتَنَفَّعُ ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ هُمُ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَيَسْتَسْلِمُونَ.

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الْإِتِّعَاضُ وَالْعَمَلُ بِهَذَا الْحُكْمِ ﴿أَزَكِّي لَكُمْ﴾ أي: أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ، وَأَكْثَرُ خَيْرًا وَبِرَكَّةً فِي أَعْمَالِكُمْ، ﴿وَأُطَهِّرُ﴾ لَكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَلِنَفُوسِ النِّسَاءِ، وَأَشْفَى لَهَا مِنَ الْحِقْدِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَالتَّأَلُّمِ مِنْ مَنَعِهِنَّ مِنَ الزَّوْجِ بِمَنْ يُرَدُّ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا فِيهِ صَلَاحُ أُمُورِكُمْ، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنَ الْمَصَالِحِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بُطْلَانُ نِكَاحِ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجٍ ثَانٍ، إِذَا عَقَدَ عَلَيْهَا فِي عِدَّةِ طَلَاقِ الزَّوْجِ الْأَوَّلِ.

وفيها: أَنَّ التَّرَاضِيَّ مِنْ قَبْلِ الزَّوْجَيْنِ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ عَقْدِ النِّكَاحِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْوَلِيِّ أَنْ يُزَوِّجَ مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، بِغَيْرِ رِضَاها.

وفيها: أَنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ رَضِيَتْ بِزَوْجٍ عَلَى خِلَافِ مَا عَرَفَهُ الشَّرْعُ - كَأَنْ يَكُونَ فَاسِقًا أَوْ فَاجِرًا -؛ فَلَوْلِيَّهَا أَنْ يَمْنَعَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

(١) يعني: يَا لُتَيْم.

(٢) رواه البخاري (٥١٣٠)، وأبو داود (٢٠٨٧)، والترمذي (٢٩٨١)، والسياق له.

وفيها: مُراعاة ما يحدث من ندم الزوجين بعد الطلاق.

وفيها: أن العمل بأحكام الله يُزَكِّي النفس، وَيُنَمِّي الإيمان.

وفيها: الإشارة إلى قُصور الإنسان في عِلْمه، وأنَّ على العبدِ القاصرِ الاستِسْلامَ لأحكام الله تعالى.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ولمَّا ذكر تعالى أمورًا من أحكام النِّكاح، والطلاق، والعِدَّة، والرَّجعة، والعُضْل؛ ذكر بعض الأحكام المتعلقة بما يكون من نتيجة النِّكاح، من حقوق المواليد، إرضاعًا، ونفقةً، وكِسوةً.

وحيث إنَّ الخلافات الزوجية والفراق، قد ينتج عنها الرغبة في انتقام أحد الطرفين من الآخر، فيضُرُّ ذلك بالأبرياء - كهؤلاء المواليد -؛ ندب الله عَزَّوَجَلَّ الوالدات المطلَّقات إلى رعاية الأطفال، والاهتمام بشؤونهم، فقال تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾: الأمَّهات، مطلَّقات، أو متزوَّجات ﴿يُرْضِعْنَ﴾: خبر بمعنى الأمر؛ فكأنَّه شيء مفروغ منه يُخبر عنه ﴿أَوْلَدَهُنَّ﴾ ذكورًا، أو إناثًا ﴿حَوْلَيْنِ﴾: سنتين، والسنة: اثنا عشر شهرًا هلاليًا ﴿كَامِلَيْنِ﴾ دون نقص؛ فالحول يُطلق على الكامل، وعلى مُعظم السنة. وهذا ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ من الآباء والأمَّهات ﴿أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي: لمن أرادها كاملة - على وجه التمام - من الأبوين.

وقوله ﴿أَرَادَ﴾ يدلُّ على: عدم وجوب الإتمام إلى السنتين، وأنه يجوز الاقتصار على ما دونَه، بما لا يضرُّ بالولد.

والإخبار بأنَّ تمام الرِّضَاعَة ستتان، يدلُّ على أنَّ الرِّضَاعَة بعدهما غيرُ مؤثِّرة، ولا اعتبارُ بها، وأنَّ اللبنَ بعدها صار بمنزلة سائر الأغذية، ولا يحُرِّم من الرِّضَاعَة إلَّا ما كان دونَ الحولين؛ فلو ارتضع المولود وعُمُرُه فوقهما لم يحُرِّم. وهذا مذهب جمهور العلماء.

واستدلُّوا بقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ»^(١)، وبقوله ﷺ: «لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءُ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ»^(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَا رَضَاعَ بَعْدَ فِصَالٍ، أَوْ بَعْدَ حَوْلَيْنِ»^(٣)، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا رَضَاعَ بَعْدَ فِصَالِ السَّتِينِ»^(٤).

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وهو الأب؛ لأنَّ الولد يُولَدُ بِسَبَبِهِ ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: رِزْقُ المُرْضِعَاتِ، من الطعام ونحوه ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: اللباس والكِسوة، وهو: ما يكسوه الإنسان بدنه. فإذا كانت المُرْضِعة زوجة فالرِّزْق والكِسوة لأجل الزوجية والإرضاع، وإن كانت مطلقةً بئناً؛ فالنَّفقة لأجل الإرضاع.

وهذه النَّفقة تكون ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما تعارفَ عليه الناس بينهم، من غير إسراف ولا تقتير.

﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ (التكليف): الإلزام بما فيه مشقَّة ﴿نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: في النَّفقة والكِسوة، فلا تُلْزَمُ إلَّا بما تقدِّر عليه. ولا تُكَلِّفُ الأمُّ من الرِّضَاعِ إلَّا بما تقدِّر عليه أيضًا.

﴿لَا تُضَاكِرُ﴾ (المضاربة): فِعْلٌ ما يضرُّ بالغير ﴿وَالِدَةٌ يُوَلِّدُهَا﴾: كأنَّ يُؤْخَذَ ولدها منها دون حقٍّ، أو يُعطى لمرْضِعة أخرى، مع أنَّ والدته رضيت بمثل أجرتها.

﴿وَلَا يُضَارُّ﴾ يُضَارُّ ﴿مَوْلُودٌ لَهُ﴾ أي: للاب ﴿يُوَلِّدُوهُ﴾: كأنَّ يُلقَى عليه ليتورَّط به، أو: إذا أَلِفَ ثدي أمِّه ولم يقبل غيرها؛ طرَحَتْه على أبيه، أو اشترطت إرضاعه بأجرة مُبَالِغٍ فيها.

(١) رواه البخاري (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

(٢) رواه الترمذي (١١٥٢)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢١٥٠).

(٣) تفسير الطبري (٣٧/٥).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٤٦٤/٧).

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: على وارث المولود مثل ما على الأب، من الرزق والكسوة وترك المضاربة. وقيل: المقصود بـ (الوارث): الصبي نفسه؛ فينفق عليه من ماله إن كان له مال؛ لأنه وارث أبيه. وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الوالدان ﴿فَصَالَا﴾ أي: فطامًا للولد قبل تمام الحولين، ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: اتفاق بين الطرفين، لا من أحدهما فقط. ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي تأمل وإمعان لاستخراج الرأي الصواب. ويدخل في ذلك: مشاورة أهل العلم بالشرع، وأهل الخبرة بالطب؛ لمعرفة الأصلح للطفل.

فإذا كان الأمر عن تراضٍ وتشاورٍ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرج ولا إثم في فطامه - حينئذٍ -.

وقوله ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ﴾ - أيها الآباء - ﴿أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ﴾ أي: تطلبوا لأولادكم مريضاتٍ غير أمهاتهم، لوجود عذر أو حاجة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا إثم ولا حرج في هذا الاسترضاع. بشرط: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ أي: أعطيتُم المريضات المستأجرات ﴿مَّا آتَيْتُمْ﴾: من الأجرة المتفق عليها ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بطيب نفس، وبما تعارف عليه الناس، دون نقص، ولا تأخير.

﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه في هذه الحقوق، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: محيطٌ بكم، ومطلعٌ عليكم، وعليمٌ بنيانكم، وأفعالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حفظ الشريعة لحقوق الطفل.

وفيها: أن الأصل وجوب الإرضاع على الأم.

وفيها: أن الله أرحم بالولد من والدته.

وفيها: أن تمام الرضاعة ستان، ويجوز النقص منها والزيادة عليها إذا لم يوجد ضرر بالطفل.

وفيها: أنه لا يجوز استبداد أحد الوالدين برأيه دون الآخر، في فطام الولد.

وفيها: أَنَّ مَنْ قَطَعَتْ مَصْلَحَةُ وَلَدِهَا فِي الرَّضَاعِ، لِمَجَرَّدِ مَصْلَحَةِ نَفْسِهَا وَلَا ضَرَرَ عَلَيْهَا - كَرِشَاقَةِ جِسْمِهَا -؛ فَهِيَ ظَالِمَةٌ.

وفيها: اسْتِعْطَافُ الْمُخَاطَبِ عِنْدَ تَبْلِيغِهِ بِالْأَحْكَامِ.

وفيها: أَنَّ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَكُونُ وَاجِبًا - كَالَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ حَاجَةُ الْوَلَدِ - وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُسْتَحَبًّا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْكَمَالِ.

وفيها: أَنَّ الْوَلَدَ هِبَةٌ لِلْوَالِدِ.

وفيها: أَنَّ الزَّوْجَةَ الْمُطَلَّقَةَ أَوْ النَّاشِزَ لَهَا نَفَقَةٌ إِذَا أَرْضَعَتِ الْوَلَدَ؛ مِرَاعَاةً لِحَقِّ الْوَلَدِ.

وفيها: جَوَازُ الْإِسْتِرْضَاعِ عِنْدَ وَجُودِ سَبَبٍ؛ كَمَوْتِ أُمِّ الْوَلَدِ، أَوْ مَرَضِهَا، أَوْ شَحِّ لَبَنِهَا، أَوْ كَوْنِ لَبَنٍ غَيْرِهَا أَغْنَى لِلْوَلَدِ، أَوْ انْشِغَالِهَا بِحَقِّ زَوْجٍ آخَرَ بَعْدَ طَلَاقِهَا مِنْ وَالِدِ الْوَلَدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وفيها: اعْتِبَارُ الْعُرْفِ بَيْنَ النَّاسِ، مَا لَمْ يُخَالِفِ الشَّرْعَ.

وفيها: أَنَّ الْمَعْتَبَرَ فِي النَّفَقَةِ هُوَ حَالُ الزَّوْجَةِ وَحَاجَتُهَا.

وفيها: أَنَّ أُمَّ الْوَلَدِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى غَيْرِهَا فِي إِرْضَاعِهِ؛ لِأَنَّهَا - فِي الْغَالِبِ - أَشْفَقُ عَلَى وَلَدِهَا، وَلَبَنُهَا أَطْيَبُ، وَيَجِبُ تَقْدِيمُهَا عَلَى غَيْرِهَا فِي الْإِرْضَاعِ، إِلَّا إِذَا اشْتَرَطَتِ الْإِرْضَاعَ بِنَفَقَةٍ مُبَالِغٍ فِيهَا.

وليس لها أَنْ تَطْلُبَ أَجْرَةً وَهِيَ فِي عِصْمَةِ وَالِدِ الْوَلَدِ؛ اكْتِفَاءً بِنَفَقَةِ الزَّوْجِيَّةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَجُوزُ. لَكِنْ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ عِصْمَتِهِ؛ جَازَ لَهَا أَنْ تَطْلُبَ أَجْرَةً عَلَى الرَّضَاعِ.

وفيها: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُسَلِّمَ الْعِوُضَ - كَالثَّمَنِ وَالْأَجْرَةِ - بِالْمَعْرُوفِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْأَجِيرِ طَلْبُ زِيَادَةٍ عَلَى مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ فِي الْعَقْدِ، وَلَوْ تَغَيَّرَتِ الْأَسْعَارُ فِي الْبَلَدِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَلَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وفيها: الْاجْتِهَادُ فِي تَقْدِيرِ نَفَقَةِ الْمَرْضِعَةِ، عَلَى حَسَبِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ.

وَفَهَّمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾: أَنَّ الْغَنِيَّ الْمُقْتَدِرَ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَةُ قَرِيْبِهِ الْمَحْتَاجِ الَّذِي يَرِثُهُ.

وفيها: التأكيد على تسليم الأجرة للمُرْضِعة؛ لأنَّ المِطاطلة والنقص رُبَّما تؤدي إلى إهمال الرضيع ولُحُوق ضرر به.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾ (٢٢١)

ولما ذكر تعالى حُكْمَ مَنْ فارقت زوجها بالطلاق والخلع؛ ذكر تعالى حُكْمَ مَنْ فارقت زوجها بالوفاة، وبينَ عِدَّتِها؛ فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي: يتوفاهم الله ويموتون، ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾: زوجات، حرائر، غير حوامل.

فالحُكْمُ في عِدَّتِهِنَّ أَثْنَيْنِ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن، ويمتنعن من النكاح ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هلالية ﴿وَعَشْرًا﴾، تبدأ من وقت وفاة الزوج، لا من وقت علمها بوفاة. وهذا حكم عام في الزوجات، إلا الحامل والأمة: فعِدَّةُ الحامل - الحرة والأمة - المتوفى عنها زوجها تنتهي بوضع حملها، والأمة المملوكة ملك اليمين تعتد لموت زوجها شهرين وخمس ليالٍ.

وقوله ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عِدَّتِهِنَّ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم ولا حرج ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - أيها الأولياء، والحكام، والقضاة، والخاطبون - ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: من العودة إلى الزينة والطيب، والانتقال من المسكن، والظهور للخاطب، والنكاح، ونحو ذلك من المعروف شرعاً.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عليم ببواطن الأمور.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب العِدَّة على المرأة المتوفى عنها زوجها.

وفيها: وجوب الإحْدَاد على المتوفى عنها زوجها، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، حرة أو أمة، مسلمة أو كافرة.

والإحْدَادُ: هو تَرْكُ الزُّيْنَةِ - من الحُلِيِّ والثِيَابِ الجميلة والكُحْلِ والحِنَاءِ، ونحوها من الأصْبَاغِ - وتَرْكُ الطَّيِّبِ وَكُلِّ ما يجذب الرِّجَالَ، ولزوم بيت الزوج المَيِّتِ في المَبِيتِ، وتَرْكُ عَقْدِ النِّكَاحِ.

فيلزِمُ المرأةُ المَبِيتَ في بيت الزوجيَّةِ، ولا تَخْرُجُ منه ولو لحَجَّ الفريضة، ويُباح له الخُرُوجُ للضرورة، والضرورة تُقَدَّرُ بِقَدَرِهَا.

والإحْدَادُ واجبٌ على مَنْ تُوفِّيَ عنها زوجُها، على أيِّ حال، سواءً كان قَتِيلًا، أو شهيدًا، أو مريضًا، أو مات حتفَ أنفه، أو غير ذلك.

وقد رُوي أَنَّهُ لَمَّا جَاءَتِ الفُرَيْعَةُ بنت مالِك رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْتَفْتِيهِ في الانتقال إلى بيت أهلها بعد مقتل زوجها، ولم يكن بيت زوجها مِلْكًا له؛ قال لها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمْكُثِي فِي بَيْتِكَ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ»^(١).

وفي الآية: بيان مُدَّةِ حِدَادِ المرأة على زوجها المتوفَّى عنها.

أما إذا مات للمرأة مَيِّتٌ غيرُ الزوج؛ فقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ؛ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(٢). وفيها: أَنَّ حُكْمَ الحِدَادِ يشمل الزوجة المدخول بها وغير المدخول بها؛ وقد ثبت أَنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وافق قضاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في امرأة مات زوجها، ولم يدخل بها، ولم يفرض لها الصَّدَاقُ؛ فقال: «إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا، لَا وَكَسَ وَلَا شَطَطَ»^(٣)، وَإِنَّ لَهَا المِيرَاثَ، وَعَلَيْهَا العِدَّةُ»^(٤).

وفيها: منع المُعْتَدَّةِ من الزواج أثناء العِدَّةِ.

وفيها: رحمة الإسلام بالمرأة، بمُراعاة مقتضى طبيعتها البشريَّة، من الحزن على وفاة الزوج.

(١) رواه أبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسائي (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٠٣١)، وضعفه الألباني في الإرواء (٢١٣١).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦).

(٣) أي: لا نقص ولا زيادة.

(٤) رواه أبو داود (٢١١٦)، والترمذي (١١٤٥)، والنسائي (٣٥٢٤)، وابن ماجه (١٨٩١)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٩٣٩).

وفيها: تكريم الشريعة للمرأة ورحمتها، بهذا الإحداد، مقارنة بما كانت عليه في الجاهلية، عندما كانت تُحبس في بيت صغير قدير، سنة كاملة، وعليها شرُ ثيابها، لا تَمَسُّ طيباً ولا شيئاً، ثم تؤتى بدابة - همارٍ أو شاة أو طير - فتَمَسَحُ به فَرَجُها، فيموت في الغالب من نَتْنِها، فإذا خَرَجَتْ أُعْطِيَتْ بَعْرَةٌ لَتَرْمِي بها أمامها، أو تنتظر كلباً يمرُّ لترمي به - إشارة إلى أن قُعودها بعد زوجها أهونُ عليها من بَعْرَةٍ رُمي بها كلباً! - وتخرج بهذا من عِدَّتِها!!

فهذا هو الفرق الكبير بين أحكام الحِداد في الإسلام، وبين ما كان عليه الأمر في الجاهلية. وفي الآية: عِظَمُ حَقِّ الزوج على زوجته، واحتباسها لأجل وفاته عن الزينة والزواج بغيره هذه المدة، ولزومها بيت الزوجية.

وفيها: مسئولية الأولياء عن النساء، وأنه يجب عليهم منعهن من المنكر، ولا يحقُّ لهم منعهن من المعروف.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥):

ولما كانت المتوفى عنها زوجها كثيراً ما تحتاج للزواج بعده، طلباً للعِفَّة والإِنْفَاق عليها، وطلباً للنَّسْلِ، لكن التصريح بِنِكَاحِها في العِدَّة لا يُنَاسِبُ حالَ الإحداد؛ فقد بيَّن الله تعالى أمراً وسطاً في هذا؛ فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - أيها الرجال - ﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ﴾ بالإشارة والتلميح، دون التصريح ﴿مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المُعْتَدَّاتِ من الوفاة، أو في عِدَّةِ الطلاق البائن - وهي المبتوتة ثلاثاً - و(الخطبة): الاستلطاف بالقول والفعل في طلب الزواج من المرأة.

وأمثلة التعريض بالخطبة كثيرة؛ ومنها: أن يقول لها: «إني أريد النِّكَاحَ»، أو: «وددتُ لو أن الله رزقني امرأةً صالحةً»، أو: «إذا انتهت عِدَّتُكَ فأخبرينا»، أو: «مثلُكِ صالحةٌ يُرْغَبُ فيها»، ونحوها من الألفاظ التي فيها إشارة مفهومة غير صريحة.

وَأَمَّا الْمُطَلَّقةُ الرَّجْعِيَّةُ فِي عِدَّةِ الطَّلَاقِ الْأَوَّلِ أَوِ الثَّانِي؛ فَلَا يَجُوزُ خِطْبَتُهَا، لَا تَصْرِيحًا وَلَا تَلْمِيحًا؛ لِأَنَّهَا لَا تَزَالُ فِي عِصْمَةِ زَوْجِهَا.

وقوله ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أخفيتم وأضمرتم في أنفسكم خِطْبَتَهُنَّ، فهذا لا حرج عليكم فيه أيضًا، وهو من تخفيف الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، وترغبون في نكاحهنَّ، ولا تصبرون، أو أنكم تذكرن لبعض خواصكم رغبتكم في نكاحها.

﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لا تُصَرِّحُوا بِالنِّكَاحِ، كقوله لها: «أريد نكاحك»، أو بذكر حُبِّه لها ورغيبته فيها، أو بذكر ما يُرَغِّبُهَا فِي النِّكَاحِ - كَقَوَّةِ الْجِمَاعِ - أو بِأَخْذِ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ عَلَى الْمَرْأَةِ أَلَّا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ. وَ(السِّرُّ): مِنْ أَسْمَاءِ النِّكَاحِ عِنْدَ الْعَرَبِ.

وقال كثيرٌ من المفسرين: ﴿لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لِلزَّنا، فكان الرجل يدخل على المرأة يُعْرِضُ بِالنِّكَاحِ، وهو يريد الفاحشة.

ولا يجوز للرجل أن يتزوج المعتدة سرًّا في عِدَّتِهَا.

﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو: التعريض بالخطبة - كما تقدّم - وأن يعدها بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها ورعاية مصلحتها، ونحو ذلك من القول المعروف.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا﴾ (العزم): إرادة فعل الشيء بلا تردد. ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي: عقده. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: حتى تنقضي العدة. وسماها (كتابًا)؛ لِأَنَّهَا مَفْرُوضَةٌ.

﴿وَأَعْلَمُوا﴾ - أيها الرجال - ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ما استقرَّ في أنفسكم مما أخفيتموه؛ ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ أي: خافوا عقابه، ولا تُضْمِرُوا ما يُغْضِبُهُ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ﴾ لمن تاب، من ارتكاب ما نهى الله عنه ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يُعَاجِلُكُمْ بالعقوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعطيل الوسائل الموصلة إلى الحرام؛ فإن التصريح للمرأة بالنكاح رُبَّمَا يؤدي إلى وقوعها في الكذب بانقضاء عِدَّتِهَا، أو تقع في الفتنه.

وفيها: إحصاء عدّة الوفاة، بضبطها، والدقّة في معرفتها. ولو احتاجت المرأة إلى كتابة تاريخ الوفاة، أو الإشهاد عليه؛ فلتفعل؛ لقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾.

وفيها: جواز ذكر الإنسان المرأة المعتدة من الوفاة، في نفسه، ولغيره.

وفي الآية: أن على المسلم ألا يضمن في نفسه ما لا يرضاه الله عز وجل.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣):

ثم بيّن تعالى بعض أحكام الطلاق، وحقوق المطلقات، فيمن عقد عليها زوجها، ولم يدخل بها، ولم يُسم لها مهراً؛ فقال:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثم ولا تبعة ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ - أيها الأزواج - ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي: تُجامعوهنَّ وتدخلوا بهنَّ. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «المس: النكاح»^(١)، وهو الوطء. ﴿أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: لم تحدّدوا لها مهراً.

والمعنى: لا حرج عليكم إذا طلقتم النساء بعد العقد، وقبل الدخول بهنَّ، ما دُمتم لم تدخلوا بهنَّ ولم تُسموا لها مهراً.

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي: يجب تمتيع غير المدخول بها في هذه الحالة؛ جبراً لخاطرهما، وتخفيفاً لو حشة الطلاق.

و(المتعة) أو (التمتع): شيء من المال، تُعطاه المطلقة غير المدخول بها، وغير المسمى لها مهرٌ معين. ويجوز أن تُعطى نقداً، أو طعاماً، أو ثياباً، ونحوه.

وليس لهذا التمتع حدٌّ محدود؛ بل هو على حسب حال الزوج المطلق، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ﴾ أي: الغني الذي في سعة ﴿قَدَرُهُ﴾ أي: بقدر سعته. ﴿وَعَلَى الْمُقْتَرِ﴾ أي: الفقير ﴿قَدَرُهُ﴾ أي: على قدر إمكانه وطاقته. ﴿مَتَّعًا﴾ مؤكداً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يقتضيه العرف، وتستحسّنه الشريعة والمروءة وأعراف الناس.

(١) تفسير الطبري (٥/١١٨).

﴿حَقًّا﴾ أي: واجبًا، لا تفريط فيه ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يُحسنون إلى أنفسهم بطاعة الله، وإلى غيرهم من خَلَق الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الطلاق قبل الدُّخول والمسيس.

وفيها: جواز النِّكاح بغير تحديد مَهْر، فإن دخل بها كان لها مَهْرٌ مِثْلُهَا، وإن طَلَّقَهَا قبل الدُّخول؛ كان تمتيعها واجبًا - بحسب حاله وقدرته -.

وفيها: مراعاة جانب الأدب في الألفاظ؛ فقد أطلق «المسيس» على «الجماع»، في قوله: ﴿تَمْسُوهُنَّ﴾.

وفيها: مراعاة الشريعة لأحوال الأزواج المالية.

وفيها: أنَّ الشريعة لا تُكَلِّفُ بها لا يُطاق.

وفيها: أنَّ للعرِّف اعتبارًا شرعيًّا.

وظاهر الآية: أنَّ الزوج إذا لم يُسَمِّ لزوجته المَهْر، ولم يطأها؛ فليس لها إلَّا التمتع - وإن خلا بها -.

لكن أَلْحَقَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم الخَلْوَةَ الكاملة بـ «المسيس»، في وجوب المَهْر والعِدَّة إذا طَلَّقَتْ؛ فيجب إعطاؤها مَهْرٌ مِثْلُهَا إذا لم يُحَدِّدْ لها مَهْرًا؛ لِمَا جَاءَ عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى قَالَ: «قَضَاءُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ أَنَّهُ: مَنْ أَغْلَقَ أَبَا وَأَرْخَى سِتْرًا؛ فَقَدْ وَجَبَ الصَّدَاقُ وَالْعِدَّةُ»^(١).

وفي الآية: جَبْرُ خاطر الزوجة الكسير، بالمُقَابِلِ المادي؛ فيكون التمتع عَوَضًا عن خيبة الأمل التي حصلت نتيجة الطلاق.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٤١٧/٧)، وقال: «مُرْسَل»، وقد صحَّحه الألباني عن عمر وعلي رضي الله عنهما، كما في الإرواء (١٩٣٧).

يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾:

ثم بين تعالى حكماً آخر للمطلقة، التي عقد عليها زوجها، ولم يدخل بها، لكنه سمي لها مهرًا؛ فقال: ﴿وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: الزوجات ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي: تجامعوهُنَّ ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: في حال ما إذا كنتم حددتُم وسميتم لهنَّ مهرًا معلومًا. فالحكم هو: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلهنَّ - في هذه الحالة - نصف المهر المسمى، ولا عِدَّة عليها - كما بين في الآية الأخرى -.

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: تتنازل المطلقات، ويسامحن بحقهنَّ في نصف المهر، ﴿أَوْ يَعْفُوا﴾: يُسامح ويتنازل ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج؛ لأنَّ بيده إبرام عقد النِّكَاح - بقوله: «قَبِلْتُ» - وبيده حلُّها بالطلاق. فإذا أرسل لها المهر كاملاً، أو كان قد سلَّمها إيَّاه من قبل، فترك المطالبة بنصفه؛ فقد عفا.

وقيل في المراد بـ ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: وليُّ المرأة، وأنَّ له أن يعفو في هذه الحالة، وإن شَحَّتِ المرأة؛ لأنَّ له نوع سُلْطَة بالولاية، ولأنَّ العفو مرغوب فيه في الشريعة.

لكن هذا يردُّ عليه: أنَّه لا يجوز له أن يتنازل عن حقِّ غيره، فيكون المراد بالآية: الزوج. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ - أيها الرِّجال والنِّساء - عن حقِّكم ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: إلى حصولها. ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا تفضُّل بعضكم على بعض، بالتسامح والعفو. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وفضل وإحسان، أو ضدَّ ذلك ﴿بَصِيرٌ﴾: عليم، لا يُضيع فضلكم، بل يُجازيكم عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الطلاق قبل المسيس، مع تحديد المهر، أو مع عدم تحديده - كما دلَّت عليه الآية السابقة -.

وفيها: أنَّ تعيين المهر موكول إلى الزوج؛ لقوله: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، وللزوجة الموافقة أو عدمها.

وفيها: جواز إسقاط الزوجة ما وجب لها من المهر، ويُشترط لذلك أن تكون حُرَّةً بالغة عاقلة رشيدة؛ لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُو﴾.

وفي الآية: جواز تبرُّع المرأة بما لها، أو ببعضه.

وفيها: الترغيب في العفو، والحثُّ على الإحسان ومكارم الأخلاق.

وفيها: أنَّ الأعمال تتفاضل؛ لأنَّ العفو أقرب للتقوى من ترك العفو.

وفيها: الحثُّ على حُسن المعاملة، وألا ينسى المسلم التفضُّل على إخوانه في معاملتهم.

وفيها: أنَّ الفضل أقرب للتقوى من العدل؛ فالعدل: هو إعطاء الواجب فقط وأخذ

الحق، والفضل: إعطاء ما ليس بواجب والتنازل عن الحقوق.

والخلاصة في حقوق المطلقات:

أنَّه إذا طَلَّقَهَا، وقد دخل بها وسمَّى لها مَهْرًا؛ فلها المَهْر كاملاً. وإن لم يُسمَّ لها مَهْرًا؛ فلها مَهْرٌ مِثْلُهَا.

وإن طَلَّقَهَا قبل الدُّخُول بها: فإن سَمَّى لها مَهْرًا؛ فلها نِصْفُ المَهْرِ. وإن لم يُسمَّ لها مَهْرًا؛ فعليه تمتيعها بما يَقْدِر عليه.

وإن خلا بها خُلوة كاملة، يتمكَّن معها من الوطء - لو أراد -؛ فلها المَهْر كاملاً، وعليها العِدَّة - عند كثير من العلماء -.

وقد استحبَّ أهل العلم تمتيع جميع المطلقات، وهو من مكارم الأخلاق، ومن التسريح بالإحسان.

﴿حَنِفْظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَكَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٣٢٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجًا لَا أَوْرَثَكُنَا فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢٩﴾:

ولمَّا ذكر تعالى أحكامًا كثيرة تتعلَّق بالخلقين - من الأزواج والزوجات - في النِّكاح، والوطء، والطلاق، والرَّجْعَة، والرِّضَاع، والنَّفَقَة، والعِدَّة، والتمتع؛ أَمَرَ عباده بالمحافظة على الصلوات الخمس - وهي من أعظم حقوقه -؛ تنبيهًا للعباد ألا ينشغلوا بحقوق المخلوقين عن حقوق الخالق، وألا ينشغل الرجال بالنِّساء والنِّساء بالرجال عن حق هذه

الفريضة العظيمة - فريضة الصَّلَاة - بل يُستعان بالصَّلَاة على التقوِّي على هذه الأمور، فقال تعالى: ﴿حَافِظُوا﴾ أي: واطبوا، واعتنوا، وداوموا ﴿عَلَى الصَّلَاةِ﴾: بأدائها كما أمر الله، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنها، وآدابها.

وخصَّ من الأمر بالمحافظة على الصلوات: الصَّلَاة الوُسْطَى؛ فقال: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي: الفضلى، من «الوَسْطَى»، وهو الخيار والأفضل.

وقد اختلف العلماء في تعيين الصَّلَاة الوُسْطَى على أقوال متعددة، أقواها: أنَّها صلاة العصر؛ لحديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَلَأَ اللَّهُ بَيْوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ»^(١).

﴿وَقُومُوا﴾ أي: على أقدامكم في الصَّلَاة، محافظين عليها ومواظبين ﴿لِلَّهِ﴾ أي: مُخلصين، تريدون وجهه ﴿قَلِيلَتَيْنِ﴾ أي: مُطيعين، خاشعين، ممتنعين عن كلام الناس.

وفي «الصحيحين»، عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنْ كُنَّا لَتَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُكَلِّمُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ بِحَاجَتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَلِيلَتَيْنِ﴾، فَأَمَرْنَا بِالسُّكُوتِ»^(٢).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٣).

وقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مكروهًا، كعدوٍّ، أو حريق، أو سيل، أو حيوان مفترس، ونحو ذلك، ولم تقدرُوا على الصَّلَاة قِيَامًا، مع إتمام الركوع والسجود؛ ﴿فَرَجَالًا﴾ أي: صَلُّوا ولو كنتم ماشين على أرجلكم، ﴿أَوْ زُكْبَانًا﴾ أي: أو كنتم راكبين، على أيِّ حال كنتم - مُستقبلي القبلة أو غير مُستقبليها -.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ بزوال الخوف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

(١) رواه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

(٢) رواه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

(٣) رواه مسلم (٥٣٧).

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: أقيموا الصَّلَاةَ تامةً. وسَمَّاهَا (ذِكْرًا)؛ لاشتغالها على الأذكار. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ، وَعَلَّمَكُم ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من أحكامه وشرائعه.

وفي الآيتين من الفوائد:

المحافظة على الصلوات: وجوبًا في الفرائض، واستحبابًا في النوافل. وفيها: أن كلَّ ما أشغَلَ عن أداء الصَّلَاةِ في أوقاتها فهو باطلٌ، كالانشغال عنها بالإنترنت، والجوّالات، وتصفح المواقع ووسائل التواصل، والهوس بالتقنيات الحديثة. ومن المؤسف أن هذه الوسائل صارت سببًا في ضياع الصَّلَاةِ، وتأخيرها عن أوقاتها المفروضة، والتعجُّل فيها وعدم الخشوع، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها: فضل صلاة العصر، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الَّذِي تَقُوْتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَأَنَّمَا وَتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ»^(١)، أي: سَلِبَ وَتَرِكَ بِلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَمَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا مَرَّتَيْنِ؛ ففي الحديث: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَعُوهَا، فَمَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا مَرَّتَيْنِ»^(٢).

وفي صلاة العصر مع الفجر: اجتماع الملائكة، وارتفاع الأعمال إلى الله^(٣). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤)، و«البردان»: هما الصبح والعصر. وفي حديث آخر: «لَنْ يَلْجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»، يَعْنِي: الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ^(٥).

وفي الآية: وجوب القيام في الصَّلَاةِ، وهذا مع القدرة في الفرائض، واستحبابًا في النوافل.

(١) رواه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

(٢) رواه مسلم (٨٣٠).

(٣) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٥) رواه مسلم (٦٣٤).

وفيها: أن الكلام في الصلاة - لغير مصلحتيها - والعَبَثُ فيها، يُنافي القنوت، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّهَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(١).

وفيها: تربية النفس بالمداومة على العبادة.

وفيها: التيقُّظ والتحرُّز من النقصان في الصلاة.

وفيها: تعظيم الله، واستحضار أمره، عند القيام بين يديه.

وفيها: تيسير الله على عباده.

وفيها: جواز الحركة الكثيرة في الصلاة للضرورة.

وفيها: أنه يجب أداء العبادة على التمام، متى زال العذر.

وفيها: مُراعاة شُرط الوقت في الصلاة، وأنه يُصَلَّى على حَسَب حاله، ولا يجوز أن يؤخَّرها حتى يخرج وقتها، ولو صَلَّى ماشياً أو راكباً أو مضطجعا، أو يومئذٍ إيماءً، أو بغير إيماء إذا لم يقدر عليه، ولو كانت ثيابه أو فراشه مُتَنَجِّسَةً ولا يستطيع إزالة النجاسة، ولو كان يخرج منه البول باستمرار، ولو كان على غير طهارة ولا يستطيع الوضوء ولا التيمُّم؛ فالصلاة لازمة في وقتها في كل الأحوال، وبحَسَب الإمكان.

وفيها: أن الصلاة في الوقت مع الخوف - ولو مع الإخلال ببعض شروطها وأركانها - أوجب من الصلاة خارج الوقت مُطْمَئِنًّا.

وفيها: مِنَّةُ الله على عباده بتعليمهم، وأنه لو لا تعليمُ الله إِيَّانا ما عَرَفْنَا كيف نعبده.

وفيها: شُكْرُ الله على نعمته.

وفيها: أن الأصل في الإنسان الجهل.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ

إِخْرَاجٌ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾:

ثم عاد السياق مرةً أخرى إلى ذكر حقوق الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي: يُقاربون الوفاة، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي: لديهم زوجات في عِصْمَتِهِمْ، فعليهم ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: عليهم أن يوصوا الزوجاتهم ﴿مَتْنَعًا﴾ بالنفقة، والكسوة، والسكنى ﴿إِلَى الْحَوْلِ﴾ إلى تمام سنة قمرية، تبدأ من موت الزوج. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: للزوجات الحق في البقاء في بيت الزوجية، ولا يملك الورثة إخراجهن منه.

﴿إِنْ خَرَجَ﴾ من منازل أزواجهن، باختيارهن، قبل الحول، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ -يا أولياء الزوج والزوجة- ﴿فِيمَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من الزينة، والاستعداد للخطبة، ونحو ذلك ﴿مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ وهو ما عرفه الشرع ولم ينكره. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: ذو عِزَّةٍ، وغلبة، وقوة ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو حكمة وحُكْم.

وذهب كثير من العلماء إلى: أنَّ هذه الآية منسوخة، وأنَّ حقَّ الزوجة في النفقة والسكنى من مال زوجها سنة كاملة بعد وفاته، منسوخٌ بآية الميراث. وأنَّ اعتدادها في بيت الزوج سنة كاملة، منسوخٌ بالآية التي سبقتها في ترتيب السُّورَة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه في الآية: «فُنسخَ ذلك بآية الميراث، بما فرضَ لهنَّ من الرُّبُع والثُّمْنِ، ونُسِخَ أَجَلُ الْحَوْلِ بأنَّ جُعِلَ أَجَلُهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(١).

وأخرج البخاري^(٢)، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: قلتُ لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾، قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها -أو تدعها-؟ فقال: «يا ابن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئاً منه من مكانه».

(١) رواه أبو داود (٢٢٩٨)، والنسائي (٣٥٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٨٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٣٠).

والمعنى: إذا كان حُكْمُهَا قد نُسخَ بالأربعة أشهر، فما الحُكْمَةُ في إبقاء رَسْمِهَا مع زوال حُكْمِهَا، وهذا يُؤْهِمُ بقاء حُكْمِهَا؟ فأجابَه بأنَّ الأمرَ توقِيفِيٌّ، وأنَّه أثبتَّها كما وجدَها. وذهبَ بعضُ العلماء - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ الآيةَ غيرَ منسوخة، وللمرأة حقٌّ في البقاء في بيت الزوج بعد وفاته سنةً كاملةً^(١). فالله أعلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرحمة بالزوجة.

وفيها: مسئولية الأولياء من الرجال، وأنَّهم مؤاخِذون إذا لم يمنعوا مَوَلِيَّاتِهِمْ من النساء من فِعْلِ الْمُتَنَكَّرَات.

وفيها: أنَّ المرأة لا يجوز لها أن تخرج عن المعروف الذي عرَفَهُ الشَّرْع، وتعارَفَ عليه أصحابُ العقول السليمة والفطر المستقيمة، لا في لباسها أو مشيتها، أو صوتها، أو غير ذلك.

فلا يجوز لها الخِدمة في المطاعم، أو تنظيف الشوارع، أو تنظيم المرور، أو تمثيل البلاد في الرياضات العالمية، أو العمل في البناء في المقاولات العامة، أو التنقيب عن النفط في الصحاري، أو الدُّخول على الرجال في أماكنهم لتسويق السِّلَع وعَرْض المبيعات، أو العمل في الإرشاد السياحي، أو صيانة إطارات السيارات، أو العمل في الحراسات العامة، ونحو ذلك ممَّا لا يليق بها.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٥)

قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾: سُمِّيَتْ (مطلقة)؛ لأنها أُطْلِقَتْ من قيد النِّكاح. و(اللام) في قوله ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ لبيان الاستحقاق.

وظاهر هذا اللفظ عُمومُ المطلقات، سواء سُمِّيَ لها مَهْر أم لا، وسواء كانت مدخولاً بها أم لا.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٦٥٩).

فـلـلـجـمـيـع ﴿مَتَّعٌ﴾ و هو: ما تَمَتَّع به، من نَقْدٍ، أو حُلِيٍّ، أو كِسْوَةٍ، ونحو ذلك.
﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ و هو: ما عَرَفَهُ الشَّرْعُ، ويعرفه الناس، بِحَسَبِ حَالِ الزَّوْجَيْنِ وما يليق بهما.
﴿حَقًّا﴾ أي: حَتْمًا لَازِمًا ثَابِتًا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يتقون عقاب الله، بِفِعْلِ ما أَمَرَهُم به، وَتَرْكِ ما نَهَاَهُم عنه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مَنْ لَمْ يُمَتَّعْ زَوْجَتَهُ الْمُطَلَّقة؛ ففي تقوَاهُ نَقْصٌ.
وفيها: وجوب المُتعة لكلِّ مُطَلَّقة. وَخَصَّصَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ التَّمَتُّعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَفْهُومِ
الآيَةِ السَّابِقَةِ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ﴾، فَقَالُوا: إِنَّ الْمُتْعَةَ خَاصَّةٌ بِمَنْ لَمْ يُدْخَلَ بِهَا، وَلَمْ يُسَمَّ لَهَا مَهْرٌ.
وفي الآية: التَّأْكِيدُ عَلَى الْحَقُوقِ؛ لِثَلَا يَتَهَاوَنَ بِهَا النَّاسُ.
وفيها: الإِغْرَاءُ وَالْحَثُّ عَلَى أَدَاءِ الْحَقُوقِ، بِوَصْفِ مَنْ يُوَدِّيْهَا بِالْصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ، مِثْلُ:
«الْمُحْسِنِينَ» وَ«الْمُتَّقِينَ».
وفيها: تَشْرِيفٌ وَتَعْظِيمٌ أَهْلِ التَّقْوَى.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَحْكَامِ الْمُطَلَّقاتِ وَالْعِدَدِ فِي الْبَيَانِ السَّابِقِ؛
﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: يُظْهِرُ وَيَوْضِّحُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، مَعَاشًا وَمَعَادًا، مِنَ الْآيَاتِ فِي خَلْقِهِ وَفِي شَرْعِهِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لِتَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الْعُقُولِ الرَّشِيدَةِ، وَتَفْهَمُوا مَا يَنْبَغُ لَكُمْ؛ لِتَعْمَلُوا بِهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، بَيَانُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، مِنْ حُدُودِهِ، وَحِلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَالْأَحْكَامِ
النافعة لهم.
وفيها: أَنَّ مَنْ عَلِمَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ وَشَرْعِهِ؛ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كِمَالِ عَقْلِهِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخْيَلَهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٦٧)

ولما ذكر تعالى - فيما مضى - طائفة من آياته الشرعيّة، الدالّة على حكمته؛ أتبع ذلك بذكر بعض الآيات الكونيّة، الدالّة على قدرته؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم، ويشمل أيضًا: كلّ مخاطب بهذا القرآن. وهذا استيفاهم للتعجب والتشويق إلى سماع قصّتهم. ومعناه: ألم تعلم وتنظر في حال ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: من بيوتهم وأحيائهم وأوطانهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرة؛ ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: خوفًا منه وفراًا. قيل: لوباء نزل بأرضهم، وقيل: هربًا من القتال. ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾؛ فماتوا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدّة ﴿أَخْيَلَهُمْ﴾ أي: ردّهم إلى الحياة؛ لطفًا بهم، ولثريّ العباد آياته.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ عظيمٍ ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ جميعًا، فيما يُريهم من آياته الباهرة، والحُجَج القاطعة، والدلالات الواضحة. ﴿وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكره، مع تفضّله عليهم، بل يكفرونه ويعصونه.

وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا؛ قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾؛ فماتوا، فمرّ عليهم نبيّ من الأنبياء، فدعا ربّه أن يحييهم، فأحياهم؛ فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ فيها عبرةً ودليلاً قاطعاً على قدرة الله على بعث الأجساد، يوم القيامة.

وفيها: أنّه لا يُغني حذرٌ من قدر، وأنّه لا ملجأ من الله إلّا إليه. وهذا يُشجّع العبد على الإقدام على طاعة الله تعالى كيفما كانت، ويُزيل الدُعر من الموت عن قلوب المجاهدين في سبيل الله.

(١) تفسير الطبري (٥/٢٦٦).

وفيها: نِعْمَةُ اللَّهِ وَقَضْلُهُ حَتَّى عَلَى الْكَفَّارِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِشُكْرِ اللَّهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يُخْرِجُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْكَلامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُنْ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿مُوتُوا﴾.

وفيها: أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ الْفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ.

وفيها: أَنَّ الْبَلَاءَ إِذَا نَزَلَ وَالْقَدَرَ إِذَا حَصَلَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْفِرَارَ مِنْهُ؛ وَلِذَا صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي نَزُولِ الطَّاعُونَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»^(١).

لَكِنَّ هَذَا لَا يُنَافِي الْإِحْتِرَازَ مِنَ الْمَخَافِ وَالْمُهْلِكَاتِ، وَالتَّوَقُّيَ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ، وَالْأَخْذَ بِأَسْبَابِ النِّجَاةِ، لَكِنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابُ لَا تَنْفَعُ إِذَا قَضَى اللَّهُ بِنَزُولِ قَدَرِهِ، وَقَدْ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ أَخْذٌ بِسَبَبٍ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْجُو بِهِ مِنَ الْمَوْتِ، وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ مَاتَ وَهُوَ فِي طَرِيقِ هَرَبِهِ مِنَ الْمَوْتِ! وَفِي الْآيَةِ: قَصُّ الْقِصَصِ لِلْإِعْتِبَارِ، وَأَهْمِيَّةُ نَشْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَأَمْثَالِهَا بَيْنَ النَّاسِ؛ لِيَتَّعِظُوا بِهَا. وَيُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ: شُكْرُ النِّعْمَةِ، بِمَعْرِفَتِهَا وَنِسْبَتِهَا إِلَى الْمُنْعِمِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْإِقْرَارُ بِذَلِكَ، وَاسْتِعْمَالُهَا فِي طَاعَتِهِ.

وفيها: الْحَثُّ عَلَى النَّظَرِ فِي أَخْبَارِ السَّابِقِينَ.

وفيها: تَرْكُ بَعْضِ التَّفَاصِيلِ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ، لِمَصْلَحَةِ السَّامِعِينَ؛ لِثَلَا يَنْشَغِلُوا عَنِ الْمَقْصُودِ الْأَسَاسِيِّ مِنْ إِيرَادِ الْقِصَّةِ.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ لَا يُنْجِي مِنْهُ؛ أَمَرَ عِبَادَهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَقَاتِلُوا﴾ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَلَا تَهْرَبُوا كَمَا هَرَبَ أَوْلَئِكَ.

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

وأمر أن يكون هذا القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لإعلاء دينه، لا لغنيمة، ولا لعصبية، ولا لإظهار شجاعة. والعبادات - ومنها الجهاد - سبيل وطريق إلى الله، يسلكها صاحبها. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلامكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الأمر بقتال الكافرين. وقد يكون فرض عيني، أو فرض كفاية، أو مستحباً غير واجب، بحسب اختلاف الأحوال.

وفيها: التذكير بالإخلاص في الأعمال.

وفيها: أن سبيل الله - وهي الطريق الموصلة إلى الله - لا بُدَّ فيها من صحّة النية - بالإخلاص - وصحّة العمل - بأن يأتي به على الوجه المشروع -.

وفيها: وجوب موافقة الشريعة في الجهاد؛ كطاعة الأمير، والصبر عند اللقاء، وعدم التولي عند الزحف، وحسن معاملة الأسرى، وطريقة قسمة الغنائم، وغير ذلك.

وفيها: تحذير المُبْطِطِينَ عن الجهاد، بأن الله سميعٌ لأقوالهم، وسيُجازيهم عليها.

وفيها - مع الآية التي قبلها - : التمهيد للنفوس قبل ذكر الأمور الكبيرة؛ فكما أن الفرار من الموت لا يُغني، فكذلك الفرار من الجهاد والامتناع عنه ليس بالضرورة أن يُنجي فاعله من الموت، وفي هذا ردٌّ على المنافقين الذين قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ولما كان الجهاد بالمال رديف الجهاد بالنفس؛ حثَّ الله تعالى عليه بعده؛ فقال:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾: هذا الاستفهام للتشويق والإغراء؛ ومعناه: أين الذي يُقرض الله، فليتقدّم؟ و(القرض) هو القطع، فالمقرض يقطع للمقرض جزءاً من ماله.

﴿قَرَضًا حَسَنًا﴾ أي: طيبًا، مقرونًا بالإخلاص، فيكون من مالٍ طيبٍ حلالٍ، بلا منٍّ ولا أذى.

فمن فعل ذلك فجزاؤه المضاعفة؛ ولذا قال: ﴿فِيضْلَعِفُهُ﴾ بالأجر والجزاء ﴿لَهُ﴾ للمنفق والمتصدق ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ لا يعلمها إلا الله، قد تبلغ السبعمائة وتزيد عليها، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ أي: يُمْسِكُ وَيُضِيقُ على بعض العباد؛ ابتلاء لهم. ﴿وَيَبْصِطُ﴾ أي: يُوسِّعُ على مَنْ يَشَاءُ؛ اختبارًا وامتحانًا. كما أَنَّهُ يَقْبِضُ بَعْضَ الْقُلُوبِ فَلَا تُقَدِّمُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَيَبْسِطُ أُخْرَى فَتَسَارِعُ إِلَى الْخَيْرِ.

﴿وَالَيْتَى﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجِعُونَ﴾ يومَ القيامة، للحساب والجزاء، فيُثِيبُ الْمُنْفِقَ، ويعَذِّبُ الْبَخِيلَ الْمُؤْمِسِك - إن شاء -.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، في الجهاد، وفي غيره.

وفيها: تشريفُ أهل الإنفاق، بمعاملة صدقاتهم على أنها قُرُوصٌ، وأنَّ الله تعالى يرُدُّها بلا ريب، ويضاعفها لأصحابها، مع استغنائه عنهم، وعن أموالهم.

وفيها: نَدْبُ الْعِبَادِ إِلَى الْقَرْضِ الْحَسَنِ، وهو: ما يكون خالصًا لله، من مالٍ حلالٍ، يُخْرِجُهُ الْمُتَصَدِّقُ بِنَفْسٍ طَيِّبَةٍ، وَيَضَعُهُ فِي مَحَلِّهِ الشَّرْعِيِّ، مُرَاعِيًا الْمَصْلَحَةَ الشَّرْعِيَّةَ، وَلَا يُتَّبَعُ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا أُذَى.

وفيها: كَرَمُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُضَاعَفَةِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَأَنَّهُ إِذَا قَبِضَ الصَّدَقَةَ بَسْطَ فِي الْأَجْرِ وَالْجَزَاءِ.

وفيها: إشارةٌ إلى تمامِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، بَأَنَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسِطُ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

وفيها: نَدْبُ الْعِبَادِ إِلَى الصَّدَقَةِ، كُلِّ عَلَى حَسَبِ حَالِهِ وَمَالِهِ.

وفيها: أن على العبد ألا يترك الصدقة خشية النقص والفقر؛ فإن الله يزيدُه ويُعوِّضُه، وَيَسْطُرُ له، وتترك الصدقة لا يُبقي الغني على غناه؛ فقد ينقص ماله نقصاً حقيقياً بأسباب أخرى، وكم من مُسَكِّ بِخيلٍ احترق ماله أو ضاع أو سُرق.

وفي تسمية الصدقة (قرضاً): تأنيس للناس، ومخاطبتهم بما يفهمونه.

وفي الآية: أن من لم يستطع الجهاد بنفسه؛ فإنه يتأكد عليه الجهاد بـماله، ويا لسعادة من جمع بينهما.

وفيها: أن ابتغاء الأجل بالعمل العاجل، يفعلُه الذين يؤمنون بالرجوع إلى الله، ويوقنون بحسن جزائه.

وفيها: تذكير العباد بالمعاد إلى الله؛ كي يرغبوا في الإنفاق، ويحذروا من البخل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِلنَّبِيِّ لَهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ نَقُلْتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦)

ولما أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال في سبيله؛ أخبرهم بأن هذا التشريع قديم، وأن الجهاد كان مطلوباً في الأمم السابقة؛ تشجيعاً وتثبيتاً للمؤمنين؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم علم اليقين كأنك تراه. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من نزل القرآن من أجله. وهذا الاستفهام للتعجب والتشويق وتقرير القصة، والحث على الاعتبار منها.

﴿إِلَى الْمَلَأِ﴾ من الأشراف والوجهاء ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهم أفضل الأمم في ذلك الوقت. ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام، وكان هذا بعد موسى بدهر طويل، وكان في زمن داود عليه السلام.

وكان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة، فكانوا منصورين فاتحين، ثم كفروا وعصوا،

وخالَفُوا وتولَّوْا، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ أَعْدَاءَهُمْ، فَاحْتَلُّوا بِلَادَهُمْ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْهَا، وَسَلَبُوهُمْ التَّابُوتَ، فَاسْتَيْقِظَتْ فِي نَفُوسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الرُّغْبَةُ فِي الْعُودَةِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ.

فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ ﴿إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ﴾ مِنْ أَنْبِيَائِهِمُ الْكَثِيرِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَسُوسُونَهُمْ، وَلَوْ كَانَ فِي مَعْرِفَةِ اسْمِهِ فَائِدَةٌ لَبَيَّنَهُ اللهُ لَنَا.

فَقَالُوا لَهُ: ﴿أَبْعَثْ لَنَا﴾ أَي: أَقِمْ وَعَيِّنْ ﴿مَلِكًا﴾ يَتَوَلَّى عَلَيْنَا، وَنَرْجِعْ إِلَيْهِ، وَيَقُودَنَا، ﴿نُقَاتِلَ﴾ مَعَهُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا. وَقَدْ قَالُوا ذَلِكَ لَنَبِيِّهِمْ؛ إِغْرَاءً لَهُ، وَتَشْجِيْعًا.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ، مَخْتَبِرًا عَزِيمَتَهُمْ وَحَقِيقَةَ ادِّعَائِهِمْ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أَي: هَلْ يُتَوَقَّعُ مِنْكُمْ ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أَي: فُرِضَ ﴿الْفِتْنَالُ﴾ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ وَتُحِبُّنَا، وَتَتَوَلَّوْا؟!

فَأَجَابُوهُ: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: مَا الَّذِي يَمْنَعُنَا مِنْ ذَلِكَ، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ طَرْدًا وَإِبْعَادًا ﴿مِنْ دِيَارِنَا﴾ وَأَوْطَانِنَا، ﴿وَأَبْنَاءِنَا﴾، فَاسْتَوْلَى الْكُفَّارُ عَلَى بِلَادِنَا، وَأَخَذُوا أَبْنَاءَنَا فِي السَّبْيِ؟!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ وَفُرِضَ: ﴿تَوَلَّوْا﴾ أَي: أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقُومُوا بِهِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، فَعَصَمَهُمُ اللهُ وَثَبَّتَهُمْ وَقَوَّى قُلُوبَهُمْ، فَالْتَزَمُوا أَمْرَ اللهِ، وَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَقَارَعَةِ أَعْدَائِهِ، فَحَازُوا شَرَفَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وَهُمْ: الَّذِينَ تَرَكُوا مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَظَلَمُوا الْمُسْتَضْعَفِينَ؛ فَسُيْجَازِيَهُمُ الْعَلِيمُ بِهِمْ، الْخَبِيرُ بِمَا عَمِلُوهُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريمُ تَرْكِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْجِيُوشِ مِنْ قَائِدٍ يَقُودُهَا.

وفيها: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ طَاعَةِ الْقَائِدِ.

وفيها: أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة المُلْك؛ لأنهم طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم مَلِكًا.
وفيها: امتحان المدَّعي للشيء؛ لتستبين حقيقة دَعواه.

وفيها: استنهاض الهِمَم للجهاد في سبيل الله، بذكر حال المظلومين من المسلمين.
وفيها: أن بعض مَنْ يدَّعي فِعْلَ الخير، لا يثبت عليه إذا جاء وقتُ الجِدِّ.
وفيها: أن من مُبيحات القتال: رفع الظُّلم عن المظلومين، وإعادتهم إلى ديارهم، واستنقاذ ذُرِّيَّاتهم من أيدي الظالمين.

وفيها: ابتلاء الله لعباده بفِعْل الواجبات، وترك المحرّمات.
وفيها: أن على العباد الثبات عند الابتلاء.

وفيها: الإشارة إلى أنه لا يصح الاستهانة بالأعداء، وتمنيّ مُقابلتهم؛ لأن كثيرًا ممَّن يدَّعي الشجاعة والثبات أمامهم، رُبَّمَا يَفِرُّ إذا لاقاهم! ولذلك قال النبي ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَأَصِرُّوْا»^(١).

وفيها: أن ترك القيام بما أوجبه الله ظُلْم.
وفيها: أن الأخذ بالأسباب لملاقاة الأعداء، والإعداد لجهادهم، من أجل تحرير بلاد المسلمين، وإنقاذ أسراهم؛ واجبٌ، وهذا يختلف عن التمنيّات والادّعاءات الفارغة، القائمة على الاستهانة بالعدو، والاغترار بالنفس.

وفي الآية: الحذر من تغْيُر النِّيَّات، وانحلال الهِمَم والعزائم في فِعْل الخير.
وفيها: أن سَلْب الأبناء أشدُّ على النفس؛ لأجل الحاجة إليهم، حالًا ومستقبلاً.
وفيها: أن العلماء يَضِطُّون حماس العامة ويُوَجِّهونه.
وفيها: إيقاف المدَّعي على حقيقة نفسه.

وفيها: أن الحياة تهون في نظر المظلوم المقهور المسلوب، فيكون أكثر استعدادًا للقتال.

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

وفيها: أنه لا تنافي بين الجهاد في سبيل الله، وبين استرجاع الديار المسلوبة والذرية المأخوذة؛ بل يُستمر الثاني لتعزيز الاندفاع إلى الأول.

وفيها: تشديد العهود والمواثيق على من يخشى نكوصه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٧)

قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ أي: بما أوحى إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ﴾ واختار واصطفى ﴿لَكُمْ﴾ أي: من أجلكم ومصالحكم ﴿طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ لتكونوا تحت إمرته.

ولأنه لم يكن من بيت مُلك، فقد اعترضوا عليه، وقالوا: ﴿أَنَّى﴾ أي: كيف. وهذا استنفهام للإنكار والاعتراض ﴿يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ والإمرة، وليس من ذرية مُلوكننا؟! ثم زادوا في الإساءة والاعتراض، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ وأولى، وقد تقرر عندهم ألا يرث المُلْك إلا كابر عن كابر، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي: فليس صاحب حَسَبٍ، ولا مالٍ واسع.

فأجابهم نبيهم على هذا الاعتراض: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، فأكد لهم أن اختياره بوحى من الله، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ يعني: عِلْمَ الدِّينِ وَعِلْمَ الْحُرُوبِ، ﴿وَالْجِسْمِ﴾ وطولِ القامة؛ فاجتمعت له القوتان الحسبية والمعنوية؛ فهو أعلم منكم، وأشدُّ قوةً وصبراً في الحرب، ومعرفةً بها.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ بعلمه وكلمته، فلا يُسأل عما يفعل، ولا يجوز الاعتراض عليه سبحانه.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ في فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقُّ المُلْك، ويصلح حال الناس به.

وفي هذه الآية من القوائد:

وجوبُ السمع والطاعة لله ورُسُلِهِ.

وفيها: تعظيمُ الأنبياءِ لربِّهم، وحُسنُ أدبهم معه، وسَعِيُّهم في طاعةِ الناسِ له، وإِقْناعهم بتنفيذِ أمره.

وفي الآية: مراعاةُ الدِّينِ والبدنِ في اختيارِ القائد.

وفيها: أنَّه كلما كان الخليفة والمَلِكُ ذا صفاتٍ ومزايا أعلى؛ كان أعونٌ له على الحُكْمِ، وانقيادِ الرِّعيَّةِ له.

وفيها: أنَّ فضائلِ النفسِ مُقَدِّمةٌ على المال.

وفيها: أنَّ مُلكَ العبادِ هو في الحقيقة مُلكُ الله، وأنَّ الله يؤتيهم إِيَّاه؛ ابتلاءً واختبارًا.

وفيها: أنَّ من الناسِ مَنْ يَنخدِعُ بالأُمُورِ المادِّيَّةِ الدُّنيويَّةِ المحسوسة، ويغفلُ عن الحقائق والفضائلِ النفسيَّةِ والمعنويَّةِ.

وفيها: أنَّ العِلْمَ أفضلُ من قوَّةِ البدنِ؛ لأنَّه قَدِّمه بالذِّكرِ في الآية.

وفيها: أنَّ الإمامةَ لا تُستَحَقُّ بالإرث ولا الغِنَى.

وفيها: أنَّه لا يُشترَطُ في ولاةِ الأمرِ أن يكونوا أغنياء.

وفيها: أنَّ قوَّةَ الرأْيِ اللازمةَ للقيادة تنبُعُ من العِلْمِ.

وفيها: حُسنُ الإجابةِ عن الاعتراضات، وإزالةُ الشُّبُهات؛ فإنَّهم لَمَّا اعترضوا على نبيِّهم وألقوا بِشُّبُهاتهم؛ ردَّ عليهم وفنَّدَ كلامهم؛ فأخبرهم أولاً أنَّ القضيَّةَ اصطفاةٌ من الله -الذي يجبُ له الطاعةُ والتسليمُ والانقيادُ لحُكمه-. ثم لفتَ نظرهم إلى أنَّ هذا الرجلَ الصالحَ فيه من المميَّزاتِ ما هو أَوْلَى من نَسَبِ المُلِكِ وسَعَةِ المالِ. ثم بيَّنَ لهم أنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ للمُلْكِ، وأنَّ اصطفاةَ عَزَّجَلَّ لحُكمه. ثُمَّ ذَكَرَ لهم مِنْ صفاتِ الله ما يُناسِبُ الحالَ والمقالَ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)

ولما كان بنو إسرائيل قوماً فيهم جدالٌ ومنازعةٌ واعتراضٌ على الحق؛ زادهم الله آيةً ومعجزةً، تدلهم على صحة ما أخبروا به من ملك طالوت.

قال عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ -برخي من الله-: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ والعلامة الدالة على أنه حق، هي ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وهو: الصندوق الخشبي الذي كان يحتفظ به بنو إسرائيل، ويضطجكونه في المعارك، حتى استولى عليه أعداؤهم، ففقدوه وعزَّ عليهم فقده. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: رحمة ووقار، وجلال، وطمأنينة لنفوسكم. ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ أي: بقايا ورُضاض الألواح (يعني: فُتاتها) التي كانت التوراة مكتوبة فيها، مع عصا موسى، وغير ذلك من الآثار ﴿مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ والمراد: موسى وهارون أنفسهما. ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وتحرسه وتنقله.

قال قتادة رحمه الله: «تحمُّله، حتى تضعه في بيت طالوت»^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في رجوع التابوت بهذه الطريقة المعجزة ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾، دالة على صدق نبيكم فيما أخبركم به، من تعيين طالوت ملكاً. هذا ﴿إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورُسُلِهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده؛ حيث يبعث من الآيات ويُقيم من المعجزات ما تطمئن به النفوس، ويؤمن عليه البشر.

وفيها: انتفاع أهل الإيمان بآيات الرحمان.

وفيها: أثر السكينة في النفوس.

وفيها: أنَّ الملائكة أجسامٌ تطير، وتحمل وتنضع الأشياء.

(١) تفسير الطبري (٣٣٦/٥).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِيَدِنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾:

ولما جاء التابوت، وأقرّ بنو إسرائيل بالملك لطالوت رَحِمَهُ اللَّهُ، واستلم زمام القيادة؛ جهّز جيش بنى إسرائيل لملاقاة الأعداء.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرج مع جيشه ومن أطاعه من البلد؛ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ أي: مختبركم - وكان قد أصابهم حرٌّ وعطشٌ - ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو: الماء الجاري الكثير. وقيل: هو نهر الشريعة المشهور، الذي بين الأردن وفلسطين.

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس على طريقتي، ولا من أتباعي، وأنا بريء منه. ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يذقه؛ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: على سنتي ونهجي، لصدقه وصبره. ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ وهو: الشيء القليل، الذي يُغْتَرَفُ في الكفِّ مرّةً واحدةً، فمن فعله فلا بأس عليه. وكان هذا الابتلاء من الله ليظهر الذين يثبتون من هؤلاء المتحمسين، المدّعين الاستعداد للقتال.

﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ﴾ أي: كَرَعُوا وشربوا بأفواههم، كما اشتَهَتْ نفوسُهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ فإنهم قد امتثلوا وأطاعوا، ولم يتجاوزوا الغُرْفَةَ.

وقد جاء عددهم، كما قال البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا - أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نتحدّث: أن عدّة أصحاب بدرٍ على عدّة أصحاب طالوت، الذي جاوزوا معه النهر، ولم يُجاوز معه إلا مؤمنٌ: بضعة عشر وثلاث مائة»^(١).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: تعدّاه ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين

اقتصر واعلى الغرقة، أو لم يذوقوا الماء أصلاً. ﴿قَالُوا﴾ وهم: بعض من جاوز معه النهر، ممن ضعفت بصيرته، فليس كل من صبر أمام الماء يصبر أمام الأعداء: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا قدرة، ولا قوة لنا. قالوا ذلك لما رأوا قلة عددهم وكثرة عدوهم. ﴿بِجَاوَتٍ﴾ وهو قائد جيش الكفار، قيل: كن جباراً من العمالة. ﴿وَجُنُودِهِ﴾ الكثيرين عدداً وعدة. ﴿قَالَ﴾ العلماء الصادقون في ردِّهم، وهم ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾، العالمون والموقنون بأنَّ وعد الله حق، والمؤمنون بقاء الله واليوم الآخر. و(الظنُّ) هنا بمعنى: اليقين. قالوا لهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ من المؤمنين ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ من الكافرين، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بقدره ونصره وإرادته. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: بالمعونة، والنصرة، والتأييد.

وقوله ﴿كَمْ﴾ في هذه الآية للتكثير؛ أي: ما أكثر ما تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للقائد أن يتفقد جنوده، ويتدبَّر أحوالهم، في خروجهم ومسيرهم. وفيها: أنَّه يجب على القائد أن يمنع من الخروج أو المواصلة كل من لا يصلح للحرب، سواء كان مخزلاً مثبطاً، أو مرجفاً جبائلاً خائفاً، أو عاصياً متمرداً؛ لما يُسيِّبه هؤلاء من إضعاف عزيمة الجيش، وإلقاء الخوف في قلوبهم، أو إحداث الانشقاق بينهم. وفي الآية: حُسن اختيار الجنود، وتدريبهم، واختبار قدرتهم على التحمُّل والثبات والطاعة.

وفيها: توالى الاختبارات؛ لمعرفة حقائق الجنود، وترويضهم وتمريضهم للصبر على المشاق، والطاعة وامتثال الأوامر.

وفيها: أنَّ أكثر العباد لا يُنقذ أمر الله.

وفيها: جواز الاختبار والامتحان، بما لا يترتب عليه مفسدة أو مهلكة.

وفيها: أنَّ الإيمان يُوجب الصبر والتحمل، ويمنع الوهن والضعف والجبن.

- وفيها: أن الله يبتلي عباده بالحِرمان من بعض المحبوباتِ أحيانًا.
- وفيها: رحمة الله تعالى بعباده، بالإِذن بغرفة اليد، للإبقاء على الحياة.
- وفيها: أن اليقين بوعْد الله ولقائه، يُقوِّي الأمل والرجاء، ويبعث على التفاؤل.
- وفيها: عدم الاغترار بالكثرة، وأنها كثيرًا ما تنهزم.
- وفيها: الحثُّ على الصَّبر، وأهميته في الجهاد.
- وفيها: أن بعض الناس يصبر على أمورٍ دون أمور.
- وفيها: تفاوت المؤمنين في العِلْم والبصيرة.
- وفيها: فَضْل أصحاب العِلْم في تثبيت الناس.
- وفيها: أن القِلَّة رُبما تُنقذ الموقف.
- وفيها: أن المؤمنين يُقاتِلون بأعمالهم أولًا، قبل العِدَّة والعدَد.
- وفيها: أثر التأييد الإلهي في جلب النصر، ومعِيَّة النُصرة والتأييد للمؤمنين.
- وفيها: تمحيص الحماس الظاهر، والادِّعاءات.
- وفيها: أن الله يكشف حقائق العباد، بأقداره من الحوادث، والأوامر والنواهي.
- وفيها: سُنَّة الله في دَفْع الكافرين بالمؤمنين، والمواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل.
- وفيها: وجوب طاعة القائد في غير معصية الله.
- وفيها: تشابُه أحوال المؤمنين على مرِّ العصور وكرُّ الدهور، حتى شابَه أهلُ بَدْرٍ أصحاب طالوت في العدَد - وإن كانَ أهلُ بَدْرٍ أفضلَ منهم -.
- وفيها: أهمية كلام المؤمنين الصادقين، في تثبيت النفوس في المواقف الخطيرة الحاسمة، وتقوية القُلُوب عند المواجهة.
- وفيها: أن القليل من زاد الدُّنيا يكفي الزاهدين، ويكسر حِدَّة الحاجة.
- وفيها: مباركة الله في القليل، إذا أُخِذَ بحقٍّ.

وفيها: أَنْ ذُوقِ الْمَاءَ يُسَمَّى طُعْمًا، وقد قال النبي ﷺ عَنْ مَاءِ زَمْزَمَ: «إِنَّهَا مَبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامٌ طُعْمٌ»^(١).

وفيها: أَنَّهُ لَا تَنْفَعُ الْكَثْرَةُ مَعَ خِذْلَانِ اللَّهِ، وَلَا تَضُرُّ الْقِلَّةُ مَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ.
وفيها: أَنَّ الْجَيْشَ يُهْزَمُ بِالْمَعَاصِي، وَإِنَّمَا يُقَاتِلُ الْمُؤْمِنُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ
وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١):
قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ أي: طالوت وجنوده المؤمنون، وظهروا ﴿لِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ﴾ الكافرين، ودنوا منهم لِلِقَاءِ.

﴿قَالُوا﴾ متضرعين إلى الله، مستعينين به: ﴿رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: املا قلوبنا
بالصبر، وأجسادنا، حتى نثبت. ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ حتى لا نفر ولا نهرب. ﴿وَانصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أعنا عليهم، حتى نغلبهم.

ولمَّا صدقوا، وصبروا، ولجأوا إلى الله تعالى بالدعاء؛ استجاب الله لهم، لمَّا التحموا مع
القوم الكافرين؛ ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ أي: كسر المؤمنون الكافرين، وغلبوهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾:
بأمره، وإرادته، وتقديره.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ وكان جنديًا من جنود طالوت، شجاعًا، مؤمنًا، وقد كتب الله على يديه
هلاك ﴿جَالُوتَ﴾ الجبار، قائد الكفار. وبقتل القائد يهزم الجنود.

ثُمَّ أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكُ﴾؛ فصار ملكًا من بعد
طالوت، وآتاه الحكمة أيضًا؛ ولذا قال: ﴿وَالْحِكْمَةُ﴾ أي: النبوة بعد النبي الذي عين
طالوت؛ فاجتمع لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ الملك والنبوة.

وقيل: لم يجتمعا في بني إسرائيل لأحد قبله.

﴿وَعَلَّمَهُ مَكَايَشَاءَ﴾ أي: أتى الله داود من علوم الدين وعلوم الدنيا، كصناعة الحديد، وكيفية القضاء، والصوت الجميل، وغير ذلك، مما شاءه سبحانه وتعالى.

قوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا دفع شر الطغاة بجهاد المؤمنين لهم؛ ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: لعمها الكفر، والخراب، والإثم، والفساد. و(الفساد): ضدُّ الصلاح. ومن ذلك: تخريب بيوت العبادة، وإزالتها، وذهاب الخير والدين.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾: صاحب النعم، والعطاء الواسع الكثير ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وهم: جميع الخلق.

وفي الآيتين من الفوائد:

اللجوء إلى الله تعالى في الشدائد، والتوكل عليه، وأنه سبب عظيم للإجابة، وعدم الاعتماد على النفس والاعترار بها.

وفيها: حاجة المؤمن إلى ربه، واضطراره إليه.

وفيها: أن ثبات القلب أساس ثبات القدم.

وفيها: الحاجة إلى الصبر الكثير في المعركة؛ لقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾، و(إفراغ) الشيء على الشيء يدلُّ على تعميمه به.

وفيها: أن القتال يكون للعداوة في الدين، لا للعداوة الشخصية.

وفيها: حُسن الدعاء، والترتيب الجيد فيه؛ إذ إنهم سألوا أولاً الصبر في القلب والبدن، ثم ثبات القدم المترتب عليه؛ فسألوا التشييت الظاهر والباطن، ثم النصر المترتب عليهما.

وفيها: أن النصر يُنال مع الصبر، وأن الصبر مجلبة لمعونة الله.

وفيها: أن من أوقات إجابة الدعاء: ما يكون عند لقاء الأعداء؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُتَانِ لَا تُرَدَّانِ - أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ -: الدُّعَاءُ عِنْدَ النُّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

وفيها: أَنَّ التصبير لا يكون إلَّا من الله؛ ولذلك أثنى الله على هؤلاء المؤمنين الذين سألوه أن يصبرهم.

وفيها: أَنَّ مَنْ لجأ إلى الله بِصِدْقٍ، وأحسنَ الظَّنَّ به؛ أجابَ دُعاءه.

وفيها: أَنَّ النصر من الله حقيقة؛ فهو الذي يأذنُ به ويريدُه.

وفيها: شجاعة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أَنَّ الله إذا أرادَ شيئاً مَهَّدَ له، وهياً له أسبابه؛ فكان قَتْلُ داودَ لجالوت تمهيداً لظهور أمرِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإيتائه النبوةَ والقيادةَ والمُلْكَ.

وفيها: أَنَّ الأنبياء ليس عندهم من العِلْمِ إلَّا ما علَّمهم الله.

وفيها: بيان أهمية الجهاد في إنقاذ المؤمنين، وحفظ دينهم، ودرء الشرِّ والكُفْرِ وإزالته من الأرض، أو محاصرته وإضعافه، ورَفْعِ الظلمِ عن المظلومين.

وفيها: أَنَّ الله قد يدفعُ البلاءَ عن الناس بوجود الصالحين والمُصلِحين فيهم.

وفيها: إثبات فَضْلِ الله على جميع خَلْقِهِ، وَفَضْلِهِ في الدُّنْيَا على المؤمن والكافر، وَفَضْلِهِ في الآخرة على المؤمنين فقط.

ويؤخذ من الآيات المتقدمة:

الإعراض عن التفاصيل التي لا حاجة إليها؛ فإنَّ الله تعالى لم يذكر لنا اسمَ ذلك النبي الذي بعث طالوتَ، ولا تفصيلَ ما في التابوت، ولا اسمَ النهر، ولا كيفيةَ قَتْلِ داودَ لجالوتَ، وغير هذا ممَّا لا يتعلَّق بِذكره فائدة.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٥٢):

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه الآيات التي قَصَصْنَاهَا عَلَيْكَ، أو: القرآن كله ﴿ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ المنزلة، التي فيها التوحيد، والتشريع، والأخبار، والقصاص.

﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي: أنَّها حقٌّ، وما جاءت به حقٌّ، وقد اشتملت على الحقِّ، وهو: الصِّدْقُ في الأخبار، والعَدْلُ في الأحكام.

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس كافة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن القرآن نزل من عند الله حقًا، وأنه مشتملٌ على الحق.

وفيها: إثبات رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن هناك مُرْسَلُونَ غيره.

وفيها: تثبيت الإيمان بِقَصِّ الْقَصَصِ.

وفيها: أن قصص الحق تُطابق الواقع.

وفيها: أن تفاصيل القصة المتقدمة لا يعلمها إلا نبيُّ مُرْسَل، وفي هذا إثباتُ لنبوة النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

قوله تعالى ﴿تِلْكَ﴾ أي: جماعة ﴿الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: جعلنا بعضهم أفضل من بعض، في الوحي، والكتب، والمعجزات، والأتباع، والمراتب عند الله.

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: كلمه عَزَّوَجَلَّ بلا واسطة، كموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الطُّور، ومُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة المعراج.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ على بعض ﴿دَرَجَاتٍ﴾ في الجنة، والفضائل، ويدخل في ذلك: المنازل في السماوات، التي لقيهم فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا عُرِجَ بِهِ.

وأعلى الأنبياء درجةً في الجنة: هو نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودرجته هي الوسيلة - وهي أعلى درجات الجنة -.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أعطيناه المعجزات الظاهرة، الدالة على صدقه

ونبؤته - كإحياء الموتى، وإبراء أصحاب العاهات - ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: قوَّيناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل عليه السلام: بالنَّفْخَةِ التي كانت سببَ وجود عيسى عليه السلام، وبالوحي والعلم الذي نقله إليه، ثُمَّ حَمَلَهُ وَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾: أرادَ ﴿مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: لم يحصل الاختلاف في الأمم بعد الرُّسل، اختلافًا يؤدِّي إلى قتالهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: المعجزات، والدلائل الواضحات.

﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ في الدين، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ﴾ بنبِيِّه، وبما أنزل عليه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ وجحد، وأعرض، وتولى.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ - بالرغم من الاختلاف - ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ فلا رادَّ لحُكْمِهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الفضل بيد الله وحده، يؤتیه مَنْ يشاء.

وفيها: إثباتُ التفاضل بين الأنبياء.

وأما النهي الوارد في السُّنة عن التفضيل بينهم، في حديث: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»^(١)؛ فمحمولٌ على إذا ما كان التفضيل بمجرد الرأي والهوى والتشهي والعصبية - بغير دليل - أو إذا كان على سبيل التعالي والافتخار، أو إذا أدَّى إلى توهُّم انتقاص المفضول أو الغَضُّ منه أو الإضرار به، ويزداد النهي إذا كان في مقام المجادلة أو الخصومة، أو أدَّى إلى التخاصم والشجار.

وفي الآية: أنَّ مرجع التفضيل إلى الله وحده، لا إلى آراء البشر.

وفيها: إثبات صفة الكلام لله عزَّ وجلَّ.

وفيها: فَضْلُ اللَّهِ على الرُّسل، بتأييدهم وتقويتهم.

(١) رواه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).

وفيها: الرُّدُّ على النصارى، الذين زعموا أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهٌ.

وفيها: أنَّ قتال الكفار للمؤمنين، إنَّما هو عن عنادٍ واستكبارٍ، وليس عن جهلٍ؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.

وفيها: أنَّه لا يقع شيءٌ من الاقتتال في الدنيا إلَّا بقضاء الله وقدره ومشيئته، وله في ذلك الحِكْمة البالغة جلَّ وعلا.

وفيها: ذمُّ الاختلاف في الدين، وأسوأ ذلك: ما يكون بعد تبيين الحق وقيام الحجة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤):

ولمَّا كان الجهاد في سبيل الله من الاقتتال المذكور في الآية السابقة، وكان الجهاد يحتاج إلى مال؛ أمر تعالى بالإنفاق؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نداءٌ للحثِّ والإغراء: ﴿أَنْفِقُوا﴾ أي: أبذلوا المال في طاعة الله، وتصدَّقوا في سبيل الله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: من بعض ما أعطيناكم وأنعمنا عليكم. والإنفاق في الآية يَعُمُّ الواجب والمستحبَّ.

وبادروا إلى الإنفاق، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يومُ القيامة ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا يؤخذ فيه بدلٌ، ولا يستطيع الإنسان أن يفتدي نفسه من عذاب الله، ويشتريها من الهلاك. ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ ولا أعلى المودة والمحبة والصدقة تنفعه يومئذٍ.

﴿وَلَا شَفْعَةٌ﴾ وهي: الوساطة لدفع الضرر وجلب المنفعة، فلا تفيد أيضًا. ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم. وأعظم (الظلم): هو الشرك والكفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإنفاق في سبيل الله من مُقتَضيات الإيمان.

وفيها: رحمة الله بخلقه؛ حيث لم يأمرهم أن يُنْفِقُوا كُلَّ أموالهم؛ وإنَّما بعضها.

وفيها: أنَّ مانع الإنفاق الواجب - كالزكاة وغيرها - ظالمٌ لنفسه.

وفيها: أَنَّهُ لَا مِنَّةَ لِلْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ فِي الْإِنْفَاقِ مِنْ مَالِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَزَقَهُ إِيَّاهُ.

وفيها: أَنَّ الْكَفَّارَ لَا تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

وفيها: أَنَّ الْمَالَ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ، إِلَّا مَا خَصَّصَهُ الدَّلِيلُ؛ مِثْلُ: مَالِ الْوَصِيَّةِ، وَالصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

هذه آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله تعالى؛ كما دلَّ عليه حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، فقد سأله النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فَضْرَبَ فِي صَدْرِهِ، وَقَالَ: «وَاللَّهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١).

وهذه الآية حُرُزٌ لِنَفُوسِنَا وَأَمْوَالِنَا مِنَ الشَّيَاطِينِ، كما جاء في قِصَّةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، أَنَّهُ سَأَلَ الشَّيْطَانَ الَّذِي كَانَ يَسْرِقُ مِنْ ثَمَرِهِ: فَمَا الَّذِي يُجِيرُنَا مِنْكُمْ؟ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ غَدَا أَبِي إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَ الْحَبِيبُ»^(٢).

وَإِذَا قَرَأْتَ قَبْلَ النَّوْمِ، فَلَا يَزَالُ عَلَى صَاحِبِهَا مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرِبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبَحَ، كما جاء في قِصَّةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه المشهورة، عِنْدَمَا كَانَ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ وَيَحْثُو الطَّعَامَ، وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»^(٣).

وَفِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ أَيْضًا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»^(٤).

(١) رواه مسلم (٨١٠).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٣٠)، وابن حبان (٧٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٤٥).

(٣) رواه البخاري (٢٣١١) معلقاً بمجزوماً، وابن خزيمة (٢٤٢٤).

(٤) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ؛ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»^(١).

وهذه الآية عشرُ جُمَلٍ مستقلة، جمعت أصولاً عظيمة في الأسماء والصفات، من: الإلهية، والحياة، والقيومية، والعلم، والمُلْك، والقُدرة، والإرادة، والإحاطة، والحفظ، والعُلُو، والعظمة؛ ولذلك كانت أعظم آية في كتاب الله، فقراءتها وتدبرها أعظم في الأجر مما سواها من الآيات.

وقوله ﴿اللَّهُ﴾ عَلم على الذات الإلهية. ومعناه: المألوه المعبود، المحبوب، المعظم، ولا يستحق هذا الاسم غيره عز وجل.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿الْحَيُّ﴾: ذو الحياة الكاملة، لم يزل ولا يزال حياً، لم يسبق حياته موتٌ، ولا يلحقها موتٌ، فهو الأول والآخر، سبحانه وتعالى.

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائم بذاته، لا يحتاج إلى أحد، والقائم على غيره، يحتاج إليه كلُّ أحدٍ، يقوم بأمور السماوات والأرض ومن فيهنَّ، وهو القائم على كلِّ شيء.

﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أي: لا تعثره ﴿سِنَةٌ﴾ أي: نُعاس، وهو مقدمة النوم. ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنَّ هذا نقص لا يليقُ بالله تعالى؛ لأنَّ النائم يغيب عما حوله، ولا يغيب على الله شيء، والنوم غفلة، والله لا يغفل عن شيء سبحانه. وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»^(٢).

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: مُلْكًا وَخَلْقًا، يتصرَّف فيه كما يشاء.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده، من أهل السماوات والأرض يوم القيامة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وأمره، وإرادته، وذلك لكمال سلطانته وهيبته عز وجل. و(الشفاعة): التوسط عند الغير، لجلب منفعة، أو دفع مضرة. و(الإذن): هو الأمر.

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩٨٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٥٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشفع يوم القيامة حتى يستأذن ويسجد تحت العرش، ويسأل ربه، حتى يقول له: «اشْفَعْ تُشَفِّعُ»^(١).

وقوله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما هو حاضر أمامهم وشاهد، وما يكون في المستقبل. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: علم الماضي.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ أي: لا يدركون، ولا يطلعون ﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ أي: من علم نفسه وذاته، وأسمائه وصفاته، وما يعلمه في السماوات والأرض، ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يطلعهم عليه.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: شمل وأحاط. والكُرسيُّ أكبر من السماوات والأرض، و«الكُرسيُّ موضع القدمين»، كما قال ابن عباس رضي الله عنه^(٢)، وهو مما لا يقال بمجرد الرأي؛ فله حكم الرفع.

والعرش أكبر من الكُرسيِّ، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُّلتَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ»^(٣).

والعرش والكُرسيُّ حقيقيَّان، ومن فسّرهما بالعلم فقد أخطأ.

﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ أي: لا يُثْقِلُهُ، ولا يُجْهِدُهُ، ولا يُتْعِبُهُ، ولا يُشَقُّ عَلَيْهِ ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي: حفظ السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ أَعْلَى﴾: الذي علا وارتفع فوق كل الأشياء، وله علوُّ القهر والغلبة، وعلوُّ صفات الكمال والجلال، وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد.

وهو سبحانه ﴿الْعَظِيمُ﴾: ذو العظمة، في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٢٤٨/١)، وإحاكم (٣١٠/٢)، وصححه الألباني موقوفاً في مختصر العلو (٤٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في العرش (ص ٤٣٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩)، وضعفه غيره.

وفي هذه الآية العظيمة من الفوائد:

إثبات خمسة أسماء لله عَزَّوَجَلَّ؛ وهي: الله، والحَيُّ، والقيُّوم، والعلِيُّ، والعظيم.

وفيها: إثبات انفراد الله تعالى بالالوهية.

وفيها: إثبات صفة (الحياة) لله. فعلى هذا؛ يجوز الحلف بـ «حياة الله».

وفيها: حاجة المخلوق إلى الخالق؛ لقيومية الله على خلقه، وهو القائم على كل نفس، والمخلوق لا يقوم بنفسه؛ بل هو محتاج إلى غيره، فالله غني عما سواه، وكل شيء محتاج إلى الله.

وفيها: عموم ملك الله؛ لقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وعلى هذا؛ فلا يجوز التصرف في ملك الله إلا بما يرضاه.

وفيها: عدم إعجاب الإنسان بعمله وما حصل بفعله؛ لأن هذا من الله، والمُلك له وحده.

وفيها: إثبات الشفاعة بإذن الله، يعني: بأمره.

وفي الآية: عظمة الكرسي، وعظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق سبحانه.

وفيها: إثبات قوة الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا﴾.

وفيها: أن السماوات والأرض تحتاجان إلى حفظ الله، ولولا حفظه لفسدتا.

وفيها: موعظة لأهل الظلم والطغيان، بأن الله عليّ عظيم، قادر على الانتقام منهم.

وفيها: الرد على من يلجأون إلى المقبورين والأموات، ويسألونهم الحاجات، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وما أدرهم أن لهم شفاعته عنده؟ ولو كانت لهم شفاعته: فما أدرهم أنهم سيؤذن لهم فيهم؟

ففيها: تحذير من يتكبر في نجاته يوم القيامة على شفاعته غيره.

وفيها: إثبات علو الله سبحانه وتعالى أزلاً وأبداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَى﴾.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦):

قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تُكْرَهُوا النَّاسَ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ دَلَائِلَ الْحَقِّ فِيهِ وَبَرَاهِينَهُ وَاضِحَةٌ، وَكَافِيَةٌ لِلْإِقْنَاعِ، وَالدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، وَلَا يُجْتَاجُ إِلَى إِكْرَاهِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَوْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ مُكْرَهًا فَإِنَّ هَذَا لَا يُفِيدُهُ.

وقد قال بعض العلماء: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَاتِ الْأَمْرِ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ - كَأَيَّةِ السَّيْفِ وَنَحْوِهَا -.

وقال بعضهم: هَذِهِ الْآيَةُ خَاصَّةٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ؛ فَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَوْ أَرَادُوا دَفْعَ الْجِزْيَةِ مَعَ تَرْكِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ؛ جَازَ ذَلِكَ.

وقد استدلَّ بعضُ العلماء بهذه الآية على جواز أخذ الجزية من غير أهل الكتاب أيضًا، إِذَا أَرَادُوا الْبَقَاءَ عَلَى دِينِهِمْ.

وقال طائفةٌ كثيرةٌ من العلماء: بَلِ الَّذِينَ تُقَبَّلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ، هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلَ الْعَرَبَ وَالْمَشْرِكِينَ، وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ.

وَلَا تَعَارُضُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَشْرُوعِيَّةِ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يُقَاتِلُونَ النَّاسَ لِإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بِالْقُوَّةِ؛ وَإِنَّمَا يُقَاتِلُونَ مَنْ أَبِي أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ فِي الْأَرْضِ لِلَّهِ، وَلِذَلِكَ لَوْ خَلَّى الْكُفَّارُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بِلَادِهِمْ لَنَحْكُمُهَا بِالشَّرِيعَةِ، وَنَعْمُرَ فِيهَا الْمَسَاجِدَ، وَنُرْتَّبَ فِيهَا الْقُضَاةَ، وَنُقِيمَ فِيهَا الدُّعَاةَ؛ فَإِنَّمَا لَا نُقَاتِلُهُمْ، بَلْ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقَبَلَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ - إِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ مَنْ فِي حُكْمِهِمْ - فِي مُقَابِلِ الْأَمَانِ الَّذِي سَيُنَالُونَهُ فِي عَيْشِهِمْ تَحْتَ سُلْطَانِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ، وَيَكُونُ الْقِتَالُ لِإِزَالَةِ حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَسُلْطَانِ الْكُفْرِ، وَإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ.

وَلَيْسَ مِنَ الْإِكْرَاهِ فِي الدِّينِ: أَنْ نَحُثَّ الْكَافِرَ وَنُنَاصِحَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَكْرَهُ ذَلِكَ وَتَأْبَاهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ قَالَ لَهُ: «أَسْلَمَ»،

فقال: أجدني كارهاً! فقال: «أُسْلِمَ، وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَاً»^(١)، والمعنى: أُسْلِمَ وإن كنت كارهاً؛ فإنَّ الله تعالى سيرزُقكَ حُسن النِّيَّة والإخلاص.

وقد وردَ في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مَقْلَاتًا»^(٢)، فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تَهُودَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٣).

وَيُؤَخِّدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ مَنْ انْتَقَلَ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ قَبْلَ مَجِيءِ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ جَازَ إِقْرَارُهُ عَلَى مَا كَانَ قَدْ انْتَقَلَ إِلَيْهِ، وَيُعَامَلُ مُعَامَلَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْجُزْئِ وَالذَّبِيحَةِ وَالْمَنَاحِكَةِ وَنَحْوِهَا.

وَأَمَّا مَنْ انْتَقَلَ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ بَعْدَ مَجِيءِ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَلَا يُقَرُّ عَلَى ذَلِكَ.

وقوله ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي: قد تميَّزَ الإسلامُ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَاهْتَدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَذَلِكَ لِكثْرَةِ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ أي: يُنْكِرْهُ وَيَتَبَرَّأْ مِنْهُ. وَ(الطَّاغُوت): هُوَ الشَّيْطَانُ، أَوْ: الْأَصْنَامُ، أَوْ: أَحْبَارُ السُّوءِ وَرَهْبَانُهُمْ، وَ: كُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُوَ رَاضٍ.

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: بِرَبُّوبِيَّتِهِ، وَإِلَهِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: ثَبَتَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَمَسَّكَ وَاعْتَصَمَ وَتَعَلَّقَ بِالْعَقْدِ الْوُثْقِيِّ الْمُحْكَمِ فِي الدِّينِ، وَالْمَرْبُوطِ رِبْطًا شَدِيدًا، فَ﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لَا انْفِكَاكَ، وَلَا انْقِطَاعَ مِنْ هَذَا الْعَقْدِ الْوُثْقِيِّ، الَّذِي سَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْحَقِّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ.

(١) رواه أحمد (١٢٠٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٧٤).

(٢) أي: التي لا يعيش لها ولد.

(٣) رواه أبو داود (٢٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وفي هذه الآية من القوائد:

- جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب، ومن في حُكْمهم، مع بقائهم على دينهم.
- وفيها: أنَّ التوحيد لا يَتِمُّ إِلَّا بالتخلُّص من جميع الشُّرك.
- وفيها: وجوب خلع الأنداد، التي تُتَّخَذ من دون الله، والتبرُّؤ منها، والكُفْر بها.
- وفيها: التَّخْلِيَة قبل التَّخْلِيَة.
- وفيها: أهميَّة عَرَض الدلائل والبراهين على الكُفَّار؛ لإقناعهم.
- وفيها: تثبيت الأقدام على طريق الإسلام، والاستمساك بـ (لا إله إِلَّا الله)، وهي: العُرْوَة الوثقى.
- وفيها: أنَّ المُسْتَمْسِك بـ (لا إله إِلَّا الله) يكون ثابتاً، مُطمئن النفس، رابط الجأش، لا يضطرب ولا يترنزل.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١٥٧) يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يُجَبِّهُم وَيُعِينُهُمْ، ويتولَّى أمورهم، ويهديهم، و﴿يُخْرِجُهُم﴾ بنعمته وتوفيقه ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: من ظلمات الكُفْر والضلال، والبدعة، والفِسْق، والجهل ﴿إِلَى النُّورِ﴾: نور الإيمان، والهداية، والطاعة.

وجَمَعَ (الظُّلُمَاتِ)؛ لاختلاف أنواعها، ولأنَّها أجناسٌ كُلُّها باطلة. وَوَحَّدَ (النُّور)؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما يجب الإيمان به، وأصروا على كُفْرهم. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: الذين يتولَّون أمورهم هم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ أي: الشياطين، والمُضِلُّون.

﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوساوس، والتزيين، وغيرها ﴿مِّنَ النُّورِ﴾ أي: نور الإيمان ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾: ظلمات الكُفْر والنفاق والضلال.

﴿أُولَئِكَ﴾ الكفار، وأولياؤهم من الطواغيت ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾: الملازمون لها، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون، لا يخرجون، ولا يموتون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الإيمان بالله يؤدي إلى تولي الله للمؤمنين.

وولاية الله نوعان: ولاية عامّة، بمعنى: أن الله يتولّى شؤون عباده. وولاية خاصّة بالمؤمنين، ومنها: النصرة والتأييد، وهي المذكورة هنا. والله يتولّى المؤمنين في الدنيا والآخرة. وأمّا الطواغيت - وإن تولّوا الكفار في الدنيا - فإنّهم يتخلّون عنهم في الآخرة. ثم ستان بين تولي الخالق للمخلوق، وتولي المخلوق للمخلوق.

وفيها: أن الله لا يتولّى الكفار.

وفيها: أن أهل النور في الدنيا هم أهل نور القبر، ونور الصراط، ونور الجنة في الآخرة. وفي المقابل؛ فإنّ أهل الظلمات في الدنيا هم أهل ظلمات القبر، والحشر، والنار.

وفيها: أن الخلود في النار خاص بالكافرين.

وفيها: أن إخراج الطواغيت للكفار من النور يشمل المرتدين، الذين كانوا في نور الإسلام ثم كفروا، ويشمل الذين كانوا في نور الفطرة ثم اجتالّتهم الشياطين، وأخرجته عنها إلى الكفر.

وفيها: عظم جريمة رؤوس الشر والطواغيت، الذين لا يكتفون بضلال أنفسهم، حتى يضيفوا إلى ذلك إضلال غيرهم.

وفيها: أن التابع بالباطل ومتبوعه في النار.

وفيها: استمرار هداية الله وزيادتها، واستمرار عمل الطواغيت في الإخراج من النور إلى الظلمات، وزيادتهم للكفار كفراً، وهذا ما يقتضيه التعبير بصيغة الفعل المضارع: ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾، و﴿يُخْرِجُونَهُمْ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٨)

ولما ذكر تعالى توليه لعباده المؤمنين؛ أتبع ذلك بذكر مثال على ذلك؛ وهو توليه وتأيينه لخليله إبراهيم عليه السلام؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك - لأنه لم يدرك زمنه حتى يراه بعينه - ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الملك الكافر النمرود ﴿فِي رَبِّهِ﴾ أي: في ربوبيته وإلهيته. وقد حمّله على هذا: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾؛ فحمّله ملكه على الكبر والطغيان، وادّعاء الربوبية.

فكأنه قال في المناظرة والمجادلة: مَنْ رَبُّكَ؟ فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فيجعل الجهاد حيًا، ويميت ما فيه حياة. ففي ذلك إشارة من إبراهيم عليه السلام للملك: بأن الله تعالى هو الذي أحياك، وهو القادر على أن يميتك.

﴿قَالَ﴾ النمرود في جواب إبراهيم عليه السلام: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فادّعى ذلك مكابرة وعنادًا. وقيل: إنه أتى برجل فقتله، وبآخر قد استحققت القتل فعفا عنه، فقال: أنا أحيي وأميت! فادّعى النمرود لنفسه الربوبية، بحجة أنه يحيي ويميت، فيقتل مَنْ يريد، ويستبقي مَنْ يريد! وليس هذا في الحقيقة جوابًا على ما قاله إبراهيم؛ وإنما هو تلييس وادّعاء فارغ.

ولذلك جاء إبراهيم عليه السلام بالدليل الآخر الدامغ، والحجة القوية الباهرة، فكأنه قال له: إن كنت تدّعي أنك تحيي وتميت، وأنت على كل شيء قدير، فتصرّف فيما يتصرّف فيه الله عزّ وجلّ، واعمل عكسه.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: سخرها خالقها ومسيرها، لتطلع كل يوم من المشرق، فإن كنت كما زعمت أنك الذي تحيي وتميت؛ ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ - يا أيها النمرود - ولو يومًا واحدًا، وتصرّف في حرّكتها من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إن كنت صادقًا فيما تدّعيه من الربوبية، وإن كنت صادقًا في أنك ساويت الله في الإحياء والإماتة.

وقد كان النمرود من قوم يعبدون الكواكب، ويعرفون حركتها جيّداً؛ ولذلك اختار إبراهيم عليه السلام له هذا المثال الواضح.

ولما كان في جواب الخليل عليه السلام إثباتاً لرُبوبيّة الله، وتزييفاً ادّعاء النمرود، وبياناً تصرف الله في الكواكب المخلوقة، التي يعبدها هؤلاء القوم، وجاء هذا الطلب المعجز للنمرود، وهو لا يقدر عليه قطعاً؛ أصابته الحيرة والدهشة؛ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ وانقطع وسكت.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يُلهمهم الحجة، ولا يوفّقهم للهداية، بخلاف أوليائه المتّقين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَصُّ أخبار السابقين؛ لأخذ العبرة منها، والاستفادة ممّا جرى لهم.

وفيها: أن الصراع بين أهل الحقّ وأهل الباطل طويلٌ قديمٌ.

وفيها: أهميّة مُناظرة أهل الباطل.

وفيها: جرأة الخليل عليه السلام في الحقّ، وذكاءه وفطنته، وحُسن تدليله، ودقّته، وجمال اختياره، وجودة مدخله في المُناظرة، واستدراجه لخصمه؛ فإنّه بدأ بذكر الإحياء والإماتة - وهما أخصّ خصائص الرّبوبيّة - وأنّ الله متصرّف في الحياة خَلَقاً وإيجاداً، ومتصرّف في الموت نزولاً وقضاءً.

ولمّا ادّعى النمرود أنّه يفعل ذلك، وأنّه على كلّ شيء قدير؛ طلب منه إبراهيم الخليل عليه السلام ذلك الطلب، الذي جعله ينقطع خائباً خاسئاً وهو حسيّرٌ.

وقد تضمّن كلام إبراهيم عليه السلام: إثبات وجود البارئ عزّ وجلّ؛ فإنّ الأحياء لا بُدّ لهم من محيٍّ، والشمس المتحرّكة لا بُدّ لها من محرّك ومتصرّف يتصرّف فيها.

وفي المُناظرة أيضاً: إبطال رُبوبيّة الكواكب التي كان يعتقدها قومه، وأنّ الله هو الذي يصرّفها ويحرّكها.

وفي الآية: أَنَّ الْمَكَابِرَةَ فِي الْمُنَازَظَةِ لَا تَأْتِي بِالْأَجْوِبَةِ الصَّحِيحَةِ؛ فَإِنَّ الثَّمَرُودَ قَدْ كَذَبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأَمِيتُ﴾، فَأَيْنَ خَلَقَهُ لِلْحَيَاةِ فِي شَيْءٍ مَيِّتٍ، وَبَعَثَهُ لَهُ؟ وَأَيْنَ نَفَخَ الرُّوحَ فِيهِ إِنْ كَانَ صَادِقًا؟!

وفيها: أَنَّ الْمَحَاجَّةَ فِي اللَّهِ كُفْرٌ.

وفيها: مُفَاجَاةُ الْخَصْمِ فِي الْمُنَازَظَةِ بِمَا لَا يَتَوَقَّعُهُ، وَنَقْلُهُ مِنْ قَضِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى، لَتَسْتَمِرَّ الْمُنَازَظَةُ، وَيَحْصُلَ الْإِفْهَامُ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْمَجَادِلِ بِالْحَقِّ أَنْ يَأْتِيَ الْمُجَادِلَ بِالْبَاطِلِ بِمَا يُسَكِّتُهُ، وَأَنْ يَدِيرَ الْحَوَارَ بِحَيْثُ يَزْدَادُ الْمُبْطِلُ ضَعْفًا، وَتَوْرِيظًا فِي مَوْقِفِهِ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الدَّاعِيَةِ تَعَلُّمَ أَصُولِ الْمَحَاوَرَةِ وَالْمُنَازَظَةِ؛ لِمُوَاجَهَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ.

وفيها: أَنَّ مُنَازَظَةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ.

وفيها: أَنَّ النُّعْمَ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِلطُّغْيَانِ؛ فَإِنَّ الَّذِي أَوْصَلَ الْمَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ هُوَ الْمُلْكُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَاتِلَهُ اللَّهُ الْمُلْكُ﴾.

وفيها: أَنَّ مُلْكَ الْبَشَرِ لَيْسَ ذَاتِيًّا؛ وَإِنَّمَا هُوَ إِيْتَاءٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

وفيها: الْاِفْتِخَارُ وَالْاِعْتِرَازُ بِاللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ: ﴿رَبِّي﴾.

وفيها: تَفْرِيعُ الْحُجَّةِ عَلَى الْحُجَّةِ، وَبِنَاؤُهَا عَلَيْهَا فِي الْمُنَازَظَةِ.

وفيها: أَنَّ الْمَحَاجَّةَ بِالْبَاطِلِ قَدْ تَوْدِّي إِلَى الْكُفْرِ.

وفيها: أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ؛ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ.

وفيها: الْحِرْصُ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْمُنَازَظَةِ إِلَى النِّهَايَةِ؛ لِيَحْصُلَ الْمَقْصُودُ.

وفيها: الْإِعْرَاضُ عَنْ بَعْضِ الْمَجَادَلَةِ بِالْحَقِّ؛ لِأَجْلِ مَصْلَحَةٍ أَكْبَرَ؛ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَجَادِلِ الثَّمَرُودَ فِي أَنَّ الْعَفْوَ عَنِ الْقَاتِلِ لَيْسَ مِنَ الْإِحْيَاءِ؛ وَإِنَّمَا انْتَقَلَ مَعَهُ إِلَى مَا يَقْطَعُهُ وَيُفْحِمْهُ، بِالْإِزَامَةِ بِطَرْدِ حُجَّتِهِ إِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً كَمَا يَزْعُمُ.

وفيها: أَنَّ الظُّلْمَ مُعَاكِسٌ لأسباب الهداية.

وفيها: إحصاء إبراهيم عليه السلام للمُناظرة؛ فإنه قد فَنَدَ عِدَّةَ أباطيلٍ في وقتٍ واحدٍ وردَّ واحدٍ؛ فبينَ بطلانِ رُبوبيَّةِ النُّمُروذ، وبُطلانِ عبادة الكواكب، وأثبتَ قُدرةَ الله تعالى، وعَجَزَ النُّمُروذ.

وفيها: أَنَّ تحرِّيَ العَدْلِ من أسباب الهداية، كما أَنَّ الظُّلْمَ سَبَبٌ عَدَمِ هداية الظالمين.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾ (٢٥٩)

ثم ضرب الله تعالى مثلاً آخر، على رُبوبيَّته وقُدْرته على إحياء الموتى؛ فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾ أي: ألم تر إلى الذي، والمشهور أنه: عزيزٌ عليه السلام ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ والمشهور أنها: بيت المقدس، وكان ذلك بعد تخريبها، ولذا قال: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطةٌ جدرانها، وسقوفها على الأرض.

فوقفَ متفكراً فيها، ثُمَّ ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي﴾ أي: كيف يُحيي ﴿هَذِهِ﴾ القرية الخاوية ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: قال ذلك متعجباً من قُدرة الله. وهذا اعترافٌ بالعجز عن تصوُّر كيفية الإحياء، وليس شكاً ولا استبعاداً؛ فإرادة الله آيةٌ في نفسها.

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾، وقَبَضَهُ في ذلك المكان، حتى مرَّت هذه المدة الطويلة التي تغيَّرت فيها الأحوال. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ وأحياه.

﴿قَالَ﴾ بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَيْتَ﴾ أي: بعد الموت؟ ﴿قَالَ لَيْتُ يَوْمًا﴾ واحداً، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ - لأنه مات في الصباح، وبُعِثَ في آخر النهار -.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿بَلْ لَيْتَ﴾ ميتاً ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ بتأملها وكمالها.

﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ الذي كان معك قبل الموت؛ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير ويفسد ويتعفن؛ بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه؛ ففيه أكبر دليل على قدرة الله، حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ - وكان قد مات وتمزق لحمه - : كيف بلي الجسد، ولم يبق إلا العظام؟!

﴿وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ وعلامة دالة لهم ولك على قدرة الله على إحياء الموتى، ولربما رأى هذا الرجل ولده أو ولد ولده، وقد صار أكبر منه!

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ قيل: عظام حماره، وقيل غير ذلك. ﴿كَيْفَ نُنشِئُهَا﴾ أي: نرفع بعضها على بعض، ونركبها، ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ ينبت عليها ويسرّها.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وتحقق لديه قدرة الله على إحياء الموتى؛ ﴿قَالَ﴾ معترفًا: ﴿أَعْلَمُ﴾ أي: أزداد إيمانًا وعلمًا، بعدما رأيته ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾؛ فلا يعجزه شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعداد ذكر الأمثلة؛ للتأكيد على الحقائق العظيمة، كالبعث وإحياء الموتى. وفيها: ترك التفاصيل التي لا يحتاج إليها السامع، في القصة المعتبر بها. وفيها: قصور نظر الإنسان، وضعف تصوّره، كما يدلُّ عليه قول الرجل: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وفيها: أن الإنسان إذا تعجّب لوقوع الشيء من أمر الله، فاستغربه، مع عدم شكّه في قدرة الله؛ فلا يكفر بهذا.

وفيها: أن إخبار الشخص بما يغلب على ظنه، لا يُعدُّ كذبًا، ولو خالف الحقيقة.

وفيها: قدرة الله العظيمة.

وفيها: مِنَّةُ الله على بعض عباده، بأن يرزقهم ما يزيد به إيمانهم.

وفيها: الرَّدُّ على مَنْ قال: إِنَّ قَوَانِينَ الطَّبِيعَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَغَيَّرَ! وَالْحَقُّ أَنَّ اللَّهَ يُخْرِقُهَا مَتَى شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ.

وفيها: جَوَازُ تَمَلُّكِ الْحِمَارِ؛ فَإِنْ بَيَعَ الْحِمَارُ الْأَهْلِيَّ لِلانْتِفَاعِ بِهِ فَثَمَنُهُ حَلَالٌ، وَإِنْ بَيَعَ لِأَكْلِ لَحْمِهِ فَثَمَنُهُ حَرَامٌ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ قَدْ يُحْدِثُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلآخَرِينَ.

وفيها: التَّأَكُّيدُ عَلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَالْحَوَادِثِ الَّتِي تُجْرِيهَا عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا أَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾.

وفيها: أَنَّ الْإِنْسَانَ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ يَتَبَيَّنُ لَهُ مَا كَانَ غَافِلًا عَنْهُ، وَيَزِدُّادُ بِهِ إِيمَانُهُ وَيَقِينُهُ.

وفيها: إثبات كرامات الأولياء، أو مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، بِحَسَبِ حَالِ ذَلِكَ الرَّجُلِ - فَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ -.

وفيها: اصطحاب الزاد في السفر.

وفيها: امتحان العبد في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَيْتَ﴾.

وفيها: إخبار الآخرين بِقِصَصِ الْأَوَّلِينَ.

وفيها: أَنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي قُدْرَتِهِ: إِبْقَاءُ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، رَغْمَ مَرُورِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تَفْنَى بِهَا، كَمَا أَنَّ مِنْ قُدْرَتِهِ: إِعَادَةُ الْأَشْيَاءِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَلَوْ مَرَّتْ عَلَيْهَا الْمُدَّةُ الطَّوِيلَةُ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ مَا يَرِيدُ وَمَنْ يَرِيدُ بِحِفْظِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦):

ثم ذكر تعالى قِصَّةَ ثَالِثَةٍ فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى؛ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أَي: وَاذْكُرْ - يَا مُحَمَّدُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، فَسَأَلَهُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ، مَعَ إِيمَانِهِ الْجَازِمِ بِالْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَأَرَادَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرْتَقِيَ بِإِيمَانِهِ، مِنْ دَرَجَةِ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى دَرَجَةِ عَيْنِ الْيَقِينِ، وَهَذَا مِنْ عُلُوِّ اهْتِمَاةٍ فِي طَلَبِ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ.

﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ﴾ أَي: أَلَسْتَ قَدْ آمَنْتَ؟ وَهَذَا الْاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، وَلَيْسَ لِلْإِنْكَارِ وَلَا لِلنَّفْيِ؛ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ أَي: قَدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ.

﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿بَلَى﴾ قَدْ صَدَّقْتُ وَآمَنْتُ، ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أَي: لِيَزْدَادَ يَقِينًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَعْلَمَ أَنَّكَ تُجِيبُنِي إِذَا دَعَوْتُكَ، وَتُعْطِينِي إِذَا سَأَلْتُكَ»^(١). وَ(الطَّمَأْنِينَةُ): هِيَ الْإِسْتِقْرَارُ.

فَأَجَابَ اللَّهُ طَلِبَهُ؛ فَقَالَ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾، وَلَمْ يَبَيِّنْ تَعَالَى أَنْوَاعَهَا، وَلَوْ كَانَ تَعْيِينُهَا مَفِيدًا لَبَيَّنَهُ لَنَا.

﴿فَصَرْهَنَّ إِلَيْكَ﴾ أَي: اضْمُمْنَهُنَّ، وَاجْمَعْنَهُنَّ عِنْدَكَ، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أَي: فَرَّقْهُنَّ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ بَعْدَ الذَّبْحِ، وَالْخَلْطُ، وَالتَّجْزِئَةُ، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ أَي: نَادِهِنَّ بِأَسْمَائِهِنَّ وَقُلْ لَهُنَّ: تَعَالَيْنَّ بِإِذْنِ اللَّهِ؛ ﴿يَأْتِيَنَّكَ﴾ - مَشِيًا أَوْ طِيرَانًا - ﴿سَعْيًا﴾ أَي: مُسْرِعَاتٍ.

فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ مُخْتَلِفَةً - اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَنْوَاعِهَا - فَذَبَحَهُنَّ، ثُمَّ قَطَعَهُنَّ وَمَزَقَهُنَّ، وَخَلَطَ بَعْضَهُنَّ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ جَزَّاهُنَّ أَجْزَاءً، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ دَعَا كُلَّ وَاحِدَةٍ - كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ -؛ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الرَّيشِ يَطِيرُ إِلَى الرَّيشِ، وَالْدَّمُ إِلَى الدَّمِ، وَاللَّحْمُ إِلَى اللَّحْمِ، وَالْأَجْزَاءُ لِكُلِّ طَائِرٍ يَتَّصِلُ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ، حَتَّى قَامَ كُلُّ طَائِرٍ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ أَنَاهُ يَسْعَى! فَرَأَى الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدْرَةَ اللَّهِ الْعَظِيمَةَ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى؛ فَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، وَازْدَادَ يَقِينًا.

﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَي: غَالِبٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى. ﴿حَكِيمٌ﴾: ذُو حِكْمَةٍ بِالْغَةِ، فِي أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من آداب الدُّعاء: التوسُّل إلى الله بالتربويَّة، ومُناداته بذلك. وأكثر أدعية القرآن مُصدَّرة بهذا: (رَبِّ)، (رَبَّنَا).

وفيها: أنَّه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه.

وفيها: أنَّ عَيْن اليقين أقوى من عِلْم وخير اليقين، وقد قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الْخَبِرُ كَالْمُعَايَنَةِ»^(١).

ومراتب اليقين ثلاثة: عِلْم اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وعَيْن اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُْنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وحقُّ اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وفي الآية: قُدرة الله العظيمة على إحياء الموتى.

وفيها: إثبات أنَّ الإيمان يزيد.

وفيها: أنَّ الاختصار بكلمة ﴿بَلَى﴾ في الجواب كافٍ، فلو قيل لرجلٍ عالمٍ بالنحو: ألم تطلق زوجتك؟ فقال: «بلى»؛ فقد طَلَّقَتْ.

وفيها: الكفُّ عن البحث فيما لا فائدة منه، ولا طائل من وراءه، وفي الحديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(٢).

وفيها: امتنان الله على عبده الخليل ﷺ بما زاد إيمانه، وليكون من الموقنين. ولمنزلة الخليل عند ربِّه، وحُسن أدبه في السؤال؛ أراه الله الآية في الحال، وأمَّا الذي مرَّ على القرية؛ فقد أراه ما أراه بعدَ مائة عام.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

ولمَّا ذكرَ تعالى قُدْرته على إحياء الموتى، الدالَّة على البعث؛ ذكرَ ما ينفع يومَ البعث،

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وهو في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٢٢٩).

ومنه: النَّفَقَةُ في سبيل الله. وَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى إِحْيَاءِ الْمَبْعُوثِ؛ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِخْرَاجِ سَبْعِمِائَةِ حَبَّةٍ مِنْ حَبَّةٍ وَاحِدَةٍ.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ﴾ أي: شَبَّهَ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾: يَبْذُلُونَ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَتَمَوَّلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَعْيَانٍ، كَالدِّرَاهِمِ، وَالذُّورِ، وَالْمَلَابِسِ، فَالْإِنْفَاقُ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَنْوَاعِ. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَكُلِّ مَا يُوَصِّلُ إِلَيْهِ. وَ(السَّبِيلُ): هُوَ الطَّرِيقُ.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي: نَفَقَتُهُمُ الَّتِي بَذَلُوهَا تُضَاعَفُ، كَمَا تُضَاعَفُ الْحَبَّةُ الَّتِي زَرَعَهَا الْفَلَّاحُ. ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ أي: خَرَجَتْ وَنَشَأَتْ مِنْهَا. ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾؛ لِحُودَةِ الْحَبَّةِ، وَجُودَةِ مَنْبَتِهَا، وَجُودَةِ رِعَايَتِهَا؛ أَخْرَجَتْ كُلَّ هَذَا الْعَدَدِ.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةِ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَهَذَا بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ، وَيَزِيدُهُ ثَوَابًا بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: ذُو سَعَةٍ، فِي الْفَضْلِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَغَيْرِهَا. ﴿عَلِيمٌ﴾ بِنِّيَّاتِ الْمُتَنَفِّقِينَ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُضَاعَفَةَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْمُضَاعَفَةُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ^(١)، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»^(٢).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ»^(٣).

وَتَصِلُ الْمُضَاعَفَةُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتُهُ وَطَعَامُهُ مِنْ أَجْلِي»^(٤).

(١) أي: لَهَا عِطَافٌ تُقَادُّ بِهِ.

(٢) رواه مسلم (١٨٩٢).

(٣) رواه الترمذي (١٦٢٥)، والنسائي (٣١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٢٣٦).

(٤) رواه البخاري (٥٩٢٧) - مختصراً - ومسلم (١١٥١)، واللفظ له.

وفي هذه الآية من القوائد:

ضَرْبُ الأمثال؛ للتقريب للأفهام.

وفيها: الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، بذكر فَضْلِهِ، ومضاعفَةِ أجره.

وفيها: التنبيهُ على الإخلاص في الإنفاق، وتحريُّ موافقة الشَّرْع، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ ثواب الله أكثر من عمل العامل، وَفَضْلُ الله أعظم من حسنات العباد.

وفيها: إثبات مشيئة الله، ومشيئته بحَسَب ما تقتضيه حكيمته.

وفيها: فَضْلُ القيام بالزَّرع؛ لأنَّ الله ضرب به المَثَل.

وفي الآية: ذِكْرُ جَمْعِ الكثرة في قوله: ﴿سَنَابِلَ﴾؛ لَأَنَّهُ يُنَاسِبُ كثرة الأجر والْفَضْل، بخلاف قوله: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ﴾ - في قِصَّة الرُّؤْيَا في سُورَةِ «يوسف» -؛ فـ (سُنْبُلَات) من جموع القِلَّة؛ لأنَّ المقام لا يقتضي التكثير.

وفيها: أنَّ الأجر يُضاعَف للعامل بحَسَب عمله وحاله، وما يكون في قلبه من الإخلاص.

وفيها: أنَّ على العبد ألاَّ يَسْتَبْعِد المضاعفات العظيمة في الأجر؛ لأنَّ فَضْلَ الله تعالى عظيمٌ.

وفيها: أنَّ أجر العمل المضاعف لا يحصل لكلِّ عامل؛ فعلى المسلم أن يسعى لتحصيل الفضل والأجر، ويرجو ويدعو ربَّه أن يُدْخِلَهُ فيمَن يُضاعَف لهم أجرهم.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٧)

ثُمَّ مدح تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في وجوه الخيرات، الواجبة والمستحبة، ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا﴾ بعد الصَّدقة. و(الْمَنُّ): أن يُعَدِّدَ إحسانه على مَنْ أحسن إليه، ترفعاً عليه، فيؤذيه ويُغص عليه ما أخذ.

وَالْمَنَّاَنَ بِمَا أُعْطِيَ مِنَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ لَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - وَهُمْ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّاَنُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(١) - وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْحَمْرِ، وَالْمَنَّاَنُ بِمَا أُعْطِيَ»^(٢).

﴿وَلَا أَذَى﴾ يشمل كل إيذاء، بالقول أو الفعل.

ثم بين الله تعالى عظيم أجور هؤلاء المنفقين من غير من ولا أذى؛ فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله محفوظ. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، وعلى فراق ما تركوه من الدنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى يُبْطِلَانِ الصَّدَقَةَ. وإذا كان من الشروط السابقة لصحة الصدقة: الإخلاص لله والمتابعة؛ فإن من المبطلات اللاحقة: المن والأذى.

وفيها: التحذير من أنواع المن والأذى - قولاً وفعلًا - كأن يقول: «ألم أعطك كذا وكذا»، ويعتد عليه ما أعطاه، وكقوله: «أنت فقيرٌ دائماً، وقد بليت بك»، و«أراحمي الله منك». أو بالعبوس في وجهه، أو بنهره. أو بأن يذكر أمام الناس أنه أعطى فلاناً؛ فهذا فيه إهانةٌ للآخذ وإحراجٌ له أمام الناس.

وقد قال بعض العلماء: الأفضل لاخذ الصدقة أن يردها إلى المعطي، إذا من عليه أو آذاه؛ تأديباً له، ودفعاً لوسنته.

وفيها: تقديم المن على الأذى؛ لكثرة وقوعه.

وفيها: أَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى يَضُرُّ صَاحِبَ الصَّدَقَةِ، ولو حصل بعد الصدقة بسنين.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْمُتَصَدِّقِ أَنْ يَشْهَدَ مِنْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ رَزَقَهُ، ثُمَّ وَقَّعَهُ لِلصَّدَقَةِ، وَلَا يَمُنُّ وَلَوْ بَقْلِبِهِ، فبعض الناس رُبَّمَا لَا يَمُنُّ بِلِسَانِهِ، لَكِنْ يَشْعُرُ عِنْدَ الْعَطَاءِ بِالْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ، وَهَذَا مُحَرَّمٌ أَيْضًا.

(١) رواه مسلم (١٠٦).

(٢) رواه النسائي (٢٥٦٢)، وهو في الصحيح (٦٧٤).

وفي الآية: تشریف المخلصين في الصدقة عند أدائها، والحافظين لعملهم، بأن أجرهم عند الله.

وهذه الآية نافعة في تسكين خوف بعض المتصدقين، مما قد يحصل لهم من الإيذاء من أهل الباطل، نتيجة الصدقة؛ فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٦١٢):

ثم رغب تعالى بالإحسان بالكلام، مع الإحسان بالمال، ويبرهن أن الإحسان بالكلام مع عدم المال، خير من إعطاء المال مع الإساءة بالكلام؛ فقال تعالى:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: كلام طيب، ودعاء جميل، يُردُّ به السائل، في حالة عدم إعطائه شيئاً، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: تجاوز، وعفو عن ظلم السائل واعتدائه؛ ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي: من المَنِّ والتعيير مع إعطائه.

﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ عن غيره، لا يحتاج إلى أحد. ﴿حَلِيمٌ﴾؛ فلا يُعاجل بالعقوبة من استحقها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضِيلَةُ الْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ، الَّذِي عَرَفَهُ الشَّرْعُ وَعَرَفَتْهُ الْقُلُوبُ.

وفيهما: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَنْتَفِعُ بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، أَكْثَرَ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِالْمَالِ.

وفيهما: فَضْلُ التَّجَاوُزِ عَنِ إِيْذَاءِ السَّائِلِينَ، كِلَا حَاجِهِمْ، وَإِزْعَاجِهِمْ، وَاتِّمَامِهِمْ لِلْمَسْئُولِ بِالْبُخْلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وفيهما: فَضْلُ الْمَغْفِرَةِ، وَيَشْمَلُ: سَرَّ حَالَةِ الْمُحْتَاجِ السَّيِّئَةِ.

وفيهما: أَنَّ الْمَسْئُولَ إِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يُعْطِيهِ السَّائِلَ؛ فَلَا أَقْلَ مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، وَوَعْدٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، وَأَنْ يَدْعَوْهُ بِالْفَرَجِ، وَيُحْسِنَ إِلَيْهِ، رَجَاءَ مَا عِنْدَ اللَّهِ.

وفيهما: تَذْكِيرُ الْأَغْنِيَاءِ بِغِنَى اللَّهِ؛ كَيْ يَجُودُوا بِأَمْوَالِهِمْ؛ لِأَنََّّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَتَذْكِيرُهُمْ بِحِلْمِ اللَّهِ؛ كَيْ يُعَامِلُوا السَّائِلِينَ بِالْحِلْمِ وَالصَّفْحِ، وَيتجاوزوا عنهم.

وفيها: أَنَّ المعروف يَكْتَمِلُ، إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْإِحْسَانِ لِلْغَيْرِ: التَّجَاوُزُ عَنْ إِيْذَانِهِ.
وفي الآية: أَنَّ حَسَنَتَيْنِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةٍ مَقْرُونَةٍ بِمَا يُبْطِلُهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَ الْمَعْرُوفِ لِلْسَّائِلِ حَسَنَةٌ، وَمَغْفِرَةُ إِيْذَانِهِ حَسَنَةٌ أُخْرَى، وَأَمَّا الصَّدَقَةُ الْمَتَّبِعَةُ بِالْأَذَى؛ فَهِيَ حَسَنَةٌ مَقْرُونَةٌ بِمَا يُبْطِلُهَا.
وَيُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الصَّدَقَةَ الَّتِي لَا يَتَّبِعُهَا أَذَى، خَيْرٌ مِنْ قَوْلِ مَعْرُوفٍ بِلا صَدَقَةٍ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: نداءٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، يَحْتُّ عَلَى الْاهْتِمَامِ بِمَوْضِعِ الْخِطَابِ.

﴿لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ أي: لَا تُحْبِطُوا أَجُورَهَا، وَلَا تُفْسِدُوهَا. والمعنى: لَا تُحْبِطُوا أَجُورَ صَدَقَاتِكُمْ، وَلَا تُفْسِدُوهَا. و(إبطال) الشيء يكون بعدَ وجوده، وبعدَ تمامه غالبًا. و(الصَّدَقَةُ): مَا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ.

فَلَا تُبْطِلُوهَا ﴿بِالْمَنِّ﴾ عَلَى الْفَقِيرِ، ﴿وَالْأَذَى﴾ لَهُ، سَوَاءٌ بِنِهَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا.
وَهَذَا الْمَنُّ وَالْأَذَى ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: مَثَلُ إِبْطَالِ الصَّدَقَةِ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، كَمَثَلِ إِبْطَالِهَا بِالرِّيَاءِ.

وقوله ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: لِيَرَوْا نَفَقَتَهُ وَيَمْدَحُوهُ، وَلِيُقَالَ عَنْهُ: فَلَانِ جَوَادٌ كَرِيمٌ.
﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِ؛ فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مَالَهُ ابْتِغَاءَ مَدْحِ النَّاسِ، فَلَا يَرْجُو ثَوَابًا عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِ بِهِ.

﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: هَذَا الْمُرَائِي، وَالْمُنَافِقُ، وَحَالَتُهُ ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ - وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ - ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾: طَبَقَةٌ رَقِيقَةٌ، لَا تَصْلُحُ لِلزَّرْعِ، وَلَا تُنْبِتُ، ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾: مَطَرٌ شَدِيدٌ أَزَالَ التُّرَابَ، ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: أَجْرَدًا أَمْلَسَ يَابَسًا، لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا التُّرَابِ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ.

ومعنى هذا المثل: أن من رأى المنافق في ظاهر حاله؛ ظن أن عمله سينفعه، فإذا كان يوم القيامة أحبط الله عمله، وأبطل أجره؛ فلا يجد عند الله شيئاً، كمثل هذه الطبقة الرقيقة من التراب على الصخر الأملس، يحسبها بعض الناس تصلح للزرع، فإذا جاء المطر الشديد أذهب ذلك التراب، وتبين أنه لا أمل في النبات.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يقدر هؤلاء المُرَاوون والمنافقون على ثواب شيء في الآخرة، نتيجة ما أنفقوه في الدنيا، فكما أزال المطر الشديد التراب عن الصخر الأملس، فكذلك أزال المَن والأذى أجر صدقة هذا المُراني والمنافق.

وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للهداية، ولا يفتح قلوبهم للحق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورة المَن والأذى في الصدقة، وأنها يُبطلان ثوابها. وهذا يدل على أنهما من كبائر الذنوب؛ لأن ترتيب عقوبة خاصة - وهي هنا: الإحباط - على ذنب، يدل على أنه من الكبائر. وفي أول الآية: أن المَن والأذى يُنافيان الإيمان، وآخرها يدل على أنهما من صفات الكفار. وفيها: تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لتقريبه إلى الذهن، كما في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَقْوَانٍ﴾.

وفي الآية: تحريم المراءاة، ومثلها التسميع. و(المراءاة): أن يعمل العمل بحضرة الناس، ليروه فيمدحوه. و(التسميع): أن يُخبرهم بما عمل ليمدحوه.

وفيها: أن إخفاء الأعمال الصالحة من كمال الإيمان. ويُستثنى من ذلك: ما لا يمكن إخفاؤه - كالأذان - وما ترجحت مصلحة إظهاره - كافتتاح الصدق بشيء كثير يُشجع الآخرين، ونحو ذلك -.

وفيها: أن الرياء يُبطل العمل، وقد جاء في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ»^(١).

وفيها: تحسّر المنافق والمُرّائي يومَ القيامة، عند العَجْز عن تحصيل شيء من ثواب أعمال الخير والبرّ.

وفيها: أَنَّ مَنْ قَضَى اللهُ عليه بالكُفْر؛ لا يمكن هدايته.

وفيها: أخذ الحَذَر والحَيْطَة من المَن والأذى، وأنَّ المتصدّق إذا خشي أن يقع منه ذلك، فليؤكّل غيره بتفريقها وإيصالها.

وفيها: التعريض بقساوة قلب المنافق والمُرّائي، وأنّه كالصَّخر الصلب الشديد.

وفيها: أَنَّ أعمال الخير التي يفعلها المُرّائي والمنافق، لا تزكو بها نفسه، ولا تُثبّت على طريق الحقّ، كما أَنَّ البذر لا ينبت على الصفا، ولا يثبّت عليه.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَلَّتْ أَكْلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾:

ثم ضرب تعالى مثلاً للمُخْلِصين في صدقاتهم، في مُقابل المُرّائين -الذي تقدّم ذكرهم-؛ فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: يبذلونها ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: طلباً لرضوان الله عنهم، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يقيناً بثواب الله، وتصديقاً بوَعده؛ ولذلك لا تتردّد أنفُسُهُم بالإنفاق، ولا تشكُّ في الثواب، وثبّت على عمل الخير. فحالمهم وصفتهم: ﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: بستان كثير الشجر، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: على مرتفع ظاهر ومستوٍ، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: مطر كثير، ﴿فَتَأَلَّتْ أَكْلُهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أعطت صاحبها ثمرها مضاعفاً، وقد تحمّل في السنة مرتين، من جودة شجرها وموقعها، وغزارة ما يسقيها.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي: يكفيها المطر الخفيف اللين، والرّذاذ والندى، فتؤثي أكلها أيضاً.

وهذا مثل ضربّه الله تعالى للمؤمن المُخْلِص في صدقته، بأنّ عمله لا يبور، ولا يذهب أجره ولا ينقطع، بل يكتبه الله له ويتقبّله منه، ويكثره ويُنميّه ويُضاعفه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه الحقائق، والبواعثُ على الأعمال.

وفي هذه الآية من القوائد:

أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الْمَالِ الَّذِي يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾. وَأَمَّا الصَّدَقَةُ مِنْ مَالِ الْغَيْرِ؛ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ إِذْنِهِ.

وَأَمَّا الصَّدَقَةُ بِمَالٍ حَرَامٍ، فَتَكُونُ لِلتَّخْلُصِ مِنْ تَبِعَتِهِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ إِثْمِهِ، لَا لِيُزَجَرَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا.

وفيها: أثر النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ فِي قَبُولِ الْعَمَلِ، وَأَنَّ الْإِخْلَاصَ شَرْطٌ فِي ذَلِكَ.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضَا) لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُثَبِّتَ نَفْسَهُ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، بِأَنْ تَكُونَ مُطْمَئِنَّةً لَا تَشُكُّ فِي الثَّوَابِ، فَتُفِيقَ وَهِيَ رَاضِيَةٌ. بِخِلَافِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ.

وفيها: تَدْرِيبُ النَّفْسِ عَلَى الْإِنْفَاقِ، ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يُبَارِكُ فِي الْقَلِيلِ، إِذَا كَانَ طَيِّبًا.

وفيها: اخْتِيَارُ الْمُتَصَدِّقِ الْمَكَانَ الصَّحِيحَ لَصَدَقَتِهِ، وَالتَّثَبُّتُ مِنْ مَكَانٍ وَضَعَهَا، مَعَ الْيَقِينِ بِوَعْدِ اللَّهِ عِنْدَ إِخْرَاجِهَا.

وفيها: أَنَّ نَفَقَةَ الْمُخْلِصِينَ - فِي تَضَاعُفِ أَجْرِهَا - كَمَثَلِ الْبُسْتَانِ الَّذِي يُضَاعَفُ ثَمَرُهُ، نَتِيجَةُ جَوْدَةٍ مَوْقِعِهِ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ بَرَكَاتِ الْمَطَرِ.

وفيها: فَضْلُ الصَّدَقَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ نَفْسٍ سَخِيَّةٍ طَيِّبَةٍ مُوقِنَةٍ، بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا خَوَرٍ وَلَا تَرَدُّدٍ.

وفيها: أَنَّ مَعَالَجَةَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، تَكُونُ بِالْإِخْلَاصِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِ اللَّهِ.

وَأَنَّ مَعَالَجَةَ ضَعْفِ النَّفْسِ وَتَفَاعُصِهَا وَتَرَدُّدِهَا فِي الْإِنْفَاقِ، يَكُونُ بِتَشْجِيعِهَا وَتَقْوِيَتِهَا بِوَعْدِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ، وَالْإِقْدَامِ بِهَا عَلَى الْبَذْلِ.

وفيها: تشبيه نفس المتصدق الطيبة، بالجنة في المكان المرتفع الظاهر المستوي، الذي يكون عرضة للهواء والرياح والشمس في وقت طلوعها واستوائها وغروبها.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

ولما ضرب الله تعالى مثلاً للمنافق المرائي الذي لم ينبت له شيء من عمله؛ ضرب عَزَّوَجَلَّ بعده مثلاً لمن عمل بطاعة الله، وتصدق، وأنفق مُخْلِصاً، فلما نبت زرع أجره انحرَفَ وانكسَ، وعَمِلَ أعمالاً تُفْسِدُهُ، فأبطل عمله، وأذهب أجره!

فقال تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ﴾: أَيُّحِبُّ. و(الوَدُ): المحبة العظيمة للشيء. وهذا استفهام بليغ في الإنكار؛ لأن محبة هذه الحالة المذكورة وتمنيها، أقبح وأشنع من مجرد إرادتها. فقوله ﴿أَيُّودُ﴾ أبلغ من قوله «أريد».

﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ وهي: البستان، عظيم الشجر. ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: خصهما بالذكر؛ لأنهما أشرف الفواكه وأفضلها وأكرمها، وأكثرها نفعاً، فمنهما: القوت والغذاء، والشراب، والفاكهة، والدواء، والحلو والحامض، ويؤكلان رطباً ويابساً.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ وهي: السواقي. فهي منتشرة ومتفرقة في ذلك البستان العظيم، تسقيها بغير مؤنة ولا كلفة.

﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ والأنواع المشتهاة، من الفواكه وغيرها، مما يفيض عن حاجته ويزيد. وهذا هو المشهد الأول من الآية.

والمشهد الثاني: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ أي: تقدّم به السن، فأضعفه عن العمل، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أي: صغار، أو: عاجزون لا يقدرّون على الكسب.

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو: الريح الشديدة القويّة، التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في الجو كالعمود. ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي: مع هذا الإعصار المتحرّك. ﴿فَأَحْتَرَقَتْ﴾ الجنة كلها بما فيها، وأبادت الريح أشجارها، وسيرتها رماداً!

فهذا الرجل قد تعلق قلبه بهذه الجنة من وجوه كثيرة؛ منها: أنها ملكٌ له لا لغيره، وأنها بستان عظيم يحفي ما بداخله من كثرة شجره، وأن أشجاره نفيسة، من ثمار في غاية النفع، والصنف الواحد فيها يتنوع، كما في قوله: ﴿نَخِيلٌ وَأَعْنَابٌ﴾، بالإضافة إلى تنوع الثمرات، وماؤها يجري على أرضها، لا يحتاج إلى تعب ونفقة في استخراجها.

وقد كبرت سنُّ الرجل، وضعف عن الكسب والتجارة، واشتدَّ حرُّه - كما يحصل عادة مع كبر السن - وله ذرية لا ينتفع بقوتهم، ولا يُعينونه لعجزهم، بل هم عالةٌ عليه، وهو مُشفقٌ عليهم من بعده، فأمله في هذه الجنة أن تُقيته وذريته؛ فهي مصدر الكسب والعيش الوحيد لهم.

وبينما هو في غاية التعلق والأمل؛ هبَّ عليها فجأة ما أحرَقها وأتلفها بالكلية؛ فذهبت، وليس عنده قوة أن يُعيد زرعها، ويغرس مثلها، لا هو ولا أولاده، وانقطع مصدر عيشهم جميعاً، فكيف يكون حاله وبؤسه وحسرتة؟ وانظر إلى ما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهَمِّ والغَمِّ والحُزن، فلو قدر أن الحُزن يقتل صاحبه لقتله الحُزن!

فهذا مثل من تصدَّق بالصَّدقات الكثيرة، ثم أذهب أجره بالَمَنِّ والأذى، والشُّكوصِ على العقبين، والتغيير والتبديل، فساءت خاتمته، فيأتي يوم القيامة أحوج ما يكون إلى الحسنة الواحدة، فلا يجد أجراً ولا ثواباً، ولا شيئاً قدَّمه لنفسه، فيُغني عنه في مقام الشدائد والكُرَبات يوم القيامة بين يدي الله.

كذلك من عمل عملاً لوجه الله، فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والشَّار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحُسن والبهاء.

وتلك المُفسِدت التي تُفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار.

والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثوراً، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال، وكان له أدنى ذرة من عقل؛ لم يُقدم على ما فيه

مَضْرُوتُهُ ونهايةُ حَسْرَتِهِ، ولكن ضَعْفُ الإِيَانِ والعقل وقَلَّةُ البصيرة يُصَيِّرُ صاحِبَهُ إلى هذه الحالة، التي لو صَدَرَتْ من مجنون لا يَعْقِلُ؛ لكان ذلك عَظِيمًا وخطِرُهُ جَسِيًّا!

فلهذا أَمَرَ اللهُ تعالى بالتَفَكُّرِ وحثَّ عليه؛ فقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ وَيَضْرِبُ الأمثال؛ لبيان الصَّدَقَةِ المقبولة والمردودة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه الأمثال، وتفهمونها، وتَعْتَظُونَ بها.

ولذا قال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا مَثَلٌ قَلَّ والله مَنْ يَعْقِلُهُ من الناس: شيخٌ كبير، ضَعْفُ جِسْمِهِ وكَثْرُ صَبِيانِهِ، أفقر ما كان إلى جَنَّتِهِ، وإنَّ أحدكم -والله- أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

بلاغة القرآن، في ضَرْبِ الأمثال العظيمة المؤثرة في النَّفْسِ، المَوْضُحَةُ للمقصود.
وفيها: أَنَّ المَنَّ والأذى إعصارٌ يَذْهَبُ بالأجر كُلَّهُ فجأةً، وَيَعْقُبُهُ الحَسْرَةُ والحَيِّية والنَّدَامَةُ.

وفيها: أَنَّ الرِّزْقَ الوفير عند كِبَرِ السِّنِّ وَضَعْفِ الدُّرِّيَّةِ، نِعْمَةٌ عظيمة.
وفيها: أَنَّ غَمَّ القَلْبِ وحَسْرَتَهُ يوم القيامة، بِذَهَابِ أجور الأعمال وثوابها؛ أعظم من هَمِّهِ وحَسْرَتِهِ بِذَهَابِ مصدرِ العيش في الدنيا وتَلَفِهِ.

وفيها: أَنَّ حاجة العبد يومَ القيامة إلى الحسنات، أعظم من حاجته في الدنيا إلى الطعام والشراب.

وفيها: أَنَّ المقصود بالمَثَلِ التشبيه والتقريب، وليس مطابقة الحالين.
وفيها: رحمة الله بالعباد؛ حيث بيَّن لهم الآيات، وضربَ لهم الأمثال؛ ليَمَكِّنَهُم من التَفَكُّرِ.

وفيها: أَنَّ التَفَكُّرَ غاية، والبيان وضَرْبُ الأمثال وسيلة.

(١) طريق المجرتين لابن القيم (ص ٣٧٠).

وفي الآية: الاقتصار على ذكر المشبه به، وترك ذكر المشبه؛ لإعمال الفكر في الاستنباط والمقارنة، التي تؤدّي إلى الاعتبار، وزيادة الإيمان وتثبيته.

وفيها: التحذير من التبديل والتغيير من الحسن إلى السيء.

وفيها: أن الذي يعمل المعاصي بعد الطاعات، قد يُغرق أعماله الصالحة كلّها، وهذا من سوء الخاتمة - والعياذ بالله -.

وثبت في الحديث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم! فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم! أو لا نعلم! فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء - يا أمير المؤمنين - قال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك.

قال ابن عباس: «ضربت مثلاً لعمل»، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: «لعمل». قال عمر: «لرجل غني، يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله»^(١).

وفيها: التحذير من سوء الخاتمة.

وفيها: أهمية ادّخار الحسنات للدار الآخرة.

وفيها: التحذير من إفساد الأعمال الصالحة وتخريبها.

وفيها: أن صاحب العقل والبصيرة لا يُقدم على ما فيه مضرته.

وفيها: أن تقوية العقل والبصيرة يحدث بالتفكير الذي أمر الله به.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغِصُّوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

ولما أمر تعالى بالإنفاق ابتغاء وجهه، وحذر مما يفسد الصدقة؛ بين بعد ذلك ما هي صفة المنفق، ومن أي شيء تُخرج الصدقات؟ فقال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: هذا النداء بالإيمان؛ للإغراء والحث على فعل المأمور به، وهو دليل على أن المأمور به هنا من مقتضيات الإيمان، ومخالفته نقص في الإيمان.

﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: من خير المال، ونفيسه، وحلاله، من مصادر الكسب المختلفة - كالتجارة والزراعة وغيرها - . و(الكسب): كل مالٍ حصل بعمل.

﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: فكل ما أخرجه الله لنا من الأرض طيب، مأمور من ملكه أن يتصدق منه. وهذا الخارج يشمل: الزروع، والثمار، والمعادن، وغيرها.

وتشمل الآية: الإنفاق الواجب والمستحب، في وجوه الخير.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصدوا الرديء ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: تزكون، وتتصدقون. ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِشُّوا فِيهِ﴾ أي: لو أعطاه أحدكم؛ ما أخذتموه إلا عن إغماضٍ وحياءٍ، وتساهلٍ وتنازلٍ عن بعض حقه.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: أن الأنصار كانت إذا كان أيام جُذاذ النخل (أي: قطع ثمره)، أخرجت من بساتينها أقناء البُسر (وهي العراجين أو العناقيد التي فيها ثمر النخل)، فعلقوه على حبلٍ بين الأسطواناتين في مسجد رسول الله ﷺ، فياكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف (وهو: الثمر الرديء، الذي يحف من غير أن ينضج)، فيدخله مع أقناء البُسر، يظن أن ذلك جائز؛ فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.

وفي رواية: «كان أناس ممن لا يرغبون في الخير، يأتي بالقنو فيه الحشف والشيص (وهما نوعان رديتان من التمر)، ويأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه؛ فنزلت الآية».

وفي رواية: «كان الناس يتيممون شرار ثمارهم، ثم يخرجونها في الصدقة، فنزلت الآية»^(١).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفٌ﴾ عن نفقاتكم وصدقاتكم، فلا يحتاج إليها. ﴿حَكِيمٌ﴾: محمود على كل حال، ومستحق للحمد، ويحمد أصحاب الأعمال الصالحة على أعمالهم، فيقبلها ويثيبهم عليها.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٦٩٧-٦٩٨)

وفي هذه الآية من الفوائد:

- إثبات العلاقة الكبيرة بين الإيمان والصدقة.
- وفيها: وجوب الإنفاق من طيبات الكسب.
- وفي الآية: دليل على وجوب الزكاة في عروض التجارة؛ لأنها كسب بالمعاملة.
- وفيها: أن الله لا يقبل الصدقة من المال الحرام؛ وإنما يخرجها صاحبها على سبيل التخلص، لا الصدقة.
- وفيها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض، من الزروع والثمار، وقد فصلت السنة ذلك.
- وفيها: وجوب الزكاة في المعادن والركاز - وهو الكنز المدفون من أيام الجاهلية -.
- وفيها: تحريم تقصيد الرديء في إخراج الزكاة.
- وفيها: أن ما لا ترضاه لنفسك؛ فلا ترضه لأخيك المسلم.
- وفيها: فضل الإنفاق من خيار المال ونفيسه وجيده، وأنه إذا أنفق من الأدنى بغير قصد وتعمد - كأن يكون كل ماله كذلك - فلا بأس، ولا حرج.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾:

ثم بين تعالى مكر الشيطان، الذي يحمل على البخل والإمساك وإنفاق الرديء؛ فقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ أي: يخونكم، ويذكركم عند الصدقة بـ ﴿الْفَقْرَ﴾ يعني: سوء الحال، وقلة ذات اليد، وذلك لئتمسكوا ولا تنفقوا.

﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: يؤسوس لكم بالبخل ومنع الإنفاق، ويغريكم بذلك، ويحسنه لكم.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي: في مقابل ما يأمركم به الشيطان؛ فإن الله يعدكم بستر الذنوب إذا أنفقتم، ﴿وَفَضْلًا﴾ أي: خلفًا وزيادة في الدنيا، وأجرًا وثوابًا في الآخرة.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: وَسِعَ الْعَالَمِينَ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ. ﴿عَلِيمٌ﴾: بَيَّنَّاكُمْ وَصَدَقَّاكُمْ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات تأثير الشَّيْطَانِ فِي إِحْجَامِ الْعَبْدِ عَنْ عَمَلِ الْخَيْرِ.
وفيها: أَنَّ مَنْ نَقَصَ إِيْمَانُهُ زُبِّيًّا يَسْتَجِيبُ لِتَخْوِيفِ الشَّيْطَانِ بِالْفَقْرِ، أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَجِيبُ لَوَعْدِ اللَّهِ بِالْخَلْفِ.

وفيها: أَنَّ الْبُخْلَ مِنَ الْفَوَاحِشِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ ثَبَطَ غَيْرَهُ عَنِ الْإِنْفَاقِ؛ فَهُوَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ الشَّيْطَانِ.

وفيها: كَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْفَضْلِ لِمَنْ أَنْفَقَ.

وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي التَّفَاوُلُ بِوَعْدِ اللَّهِ بِالْخَلْفِ عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَقَدْ يَكُونُ بَرَكَاتٌ فِي مَالِ الْمُنْفِقِ، أَوْ قَايَةً لِمَا بَقِيَ مِنْ مَالِهِ مِنَ الْآفَاتِ، أَوْ فَتَحَ بَابَ رِزْقٍ آخَرَ - فَيَزِدَادُ الْمَالُ - أَوْ انْشَرَحَ صَدْرٌ وَرَضَا، يُسَعِّدُهُ فِي دُنْيَاهُ قَبْلَ آخِرَتِهِ، أَوْ كُلَّ ذَلِكَ.

وفيها: حَثُّ الْعَبْدِ عَلَى أَنْ يَكُونَ بِمَا فِي يَدَيِ اللَّهِ، أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِهِ.

وفيها: أَنَّ تَخْوِيفَ الشَّيْطَانِ لِلْعَبْدِ بِالْفَقْرِ لَيْسَ شَفَقَةً عَلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا لِحَرْمَانِهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ.

وفيها: أَنَّ وَسْوَسةَ الشَّيْطَانِ لِلْعَبْدِ تَدْوِيرٌ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالطَّلَبِ؛ فَفِي الْخَيْرِ يَعْدُهُ الْفَقْرَ، وَفِي الطَّلَبِ يَأْمُرُهُ بِالْفَحْشَاءِ.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: ﴿٣٨﴾

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى جِزَاءَ الصَّدَقَةِ، وَمُضَاعَفَتَهَا، وَنَهَى عَمَّا يُبْطِلُهَا، وَأَمَرَ بِالتَّقَرُّبِ بِأَطْيَبِهَا، وَحَذَّرَ مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لِدَاعِي الْبُخْلِ؛ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَذَكَرَ أَنَّ الْحِكْمَةَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَأَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْقَلِيلِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿يُؤْتِي﴾: يُعْطِي ﴿الْحِكْمَةَ﴾ وهي: القرآن، والسُّنة، ومعانيهما، والعِلْمُ النافع، والفقه، والنبوة، والوحي، والفهم، والإتقان، ووضع الأشياء في مواضعها اللَّائِقَةُ بها. فكلُّ ذلك من الحِكْمة التي يُؤْتِيها الله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ والإصابة، في القول والفعل والرأي؛ ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ في الدارين، وهذا من فَضْلِ الله.

﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ أي: وما يتعظ ويتفكر بالحكمة ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وهم: أصحاب العقول الوافرة الرُّشد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الحِكْمة فضل وإيتاء من الله. ومنها ما يكون غريزة موهوبة مع الخَلْقَة، ومنها ما يكون مُكْتَسَبًا، يحصل بالمران والمُمارَسَة والتجارب ومُخالَطة العقلاء.

وفيها: فَضْلُ النبوة - وهي أعلى الحِكْمة - ويليها: الفقه بالكتاب والسُّنة، وهو ما عند العلماء.

وفيها: أنَّ عدم التفكير والتذكر والتدبر، نقص في العقل.

وفيها: أنَّ إيتاء الله الحِكْمة للعبد تكْمُلُ به القوة العِلْمِيَّة، والقوة العمليَّة.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧﴾:

ثم بيَّن تعالى عِلْمَه بجميع النُّذور والنَّفقات؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أي: أخرجتم وبذلتُم ﴿مِنْ نَفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سرًّا أو علانية، في خير أو غيره، من مالٍ حلال أو حرام.

﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ طاعة أو معصية، مشروطًا أو غير مشروط، متعلقًا بالمال أو بالأفعال. و(النَّذر): إلزام المُكَلَّفِ نفسه بما لم تُلْزِمه به الشريعة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي: يُحْصِيه، فيجازيكم عليه.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ في مَنَعِ النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ، أَوْ الْإِنْفَاقِ فِي الْمَعَاصِي، أَوْ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، أَوْ الْمَنِّ وَالْأَذَى. أَوْ النَّاذِرِينَ نُذُورَ الشُّرْكِ وَالْمَعْصِيَةِ، أَوْ التَّارِكِينَ الْوَفَاءَ بِنُذُورِ الطَّاعَةِ. ﴿مِنْ أَنْفِكَارٍ﴾: أَعْوَان، يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ اللَّهَ يُجَازِي عَلَى النَّفَقَةِ أَيَّا كَانَتْ، قَلِيلَهَا أَوْ كَثِيرَهَا.
وفيها: أَنَّ الْيَقِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ بِالنَّفَقَةِ، هُوَ مِنْ احْتِسَابِ الْأَجْرِ، الَّذِي يُضَاعَفُ بِهِ عَمَلُ الْمُتَّقِ.
وفيها: أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ الظَّالِمِينَ، وَإِذَا انتَصَرُوا: فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ لِيَمَحَقَّهُمْ، أَوْ عِقُوبَةً لِمَنْ انتَصَرُوا عَلَيْهِمْ.
وفيها: مَوْعِظَةٌ لِمَنْ نَذَرَ نَذَرَ مَعْصِيَةٍ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»^(١).

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الْمُتَصَدِّقِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَيَخْذُلُ الْمُتَمَسِّكِينَ الْقَابِضِينَ أَهْلَ الْبُخْلِ.

﴿إِنْ بُدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢٧١).

ثُمَّ حَتَّ تَعَالَى الْمُتَّقِينَ عَلَى إِخْفَاءِ صَدَقَاتِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿إِنْ بُدُّوا﴾ أَي: تُظْهِرُوا
﴿الصَّدَقَاتِ﴾ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ؛ ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ وَهِيَ كَلِمَةٌ مَدْحٌ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ.
﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ أَي: تَتَصَدَّقُوا بِهَا عَلَيْهِمْ سِرًّا؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾
مِنْ إِظْهَارِهَا وَإِبْدَائِهَا.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْفَضِيلَةَ فِي الْإِخْفَاءِ هِيَ لَصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، دُونَ صَدَقَةِ الْفَرِيضَةِ - كَالزَّكَاةِ -. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كِتْمَانَ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ وَإِخْفَاءَهَا؛ أَفْضَلُ وَخَيْرٌ مِنْ إِظْهَارِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ.

(١) رواه البخاري (٦٦٩٦).

وقالوا: السُّنَّةُ في الصدقة الواجبة والأفضل إظهارها؛ لدفع المتصدق الملامة عن نفسه وسوء الظن إذا أخفاها.

والكل مقبول - على كل حال - إذا كانت النية صادقة.

وقد قال النبي ﷺ في السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»^(١)، وقال ﷺ: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»^(٢).

﴿وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التكفير): هو السر. و(السيئة): كل ما يسوء المرء عمله أو جزاؤه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإظهار والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾: عليم ببواطن الأمور.

وفي هذه الآية من القوائد:

أن إخفاء الصدقات أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء وهوى النفس، وأبعد عن إحراج الفقير، إلا إذا كانت هناك مصلحة في إظهارها - كأن يقتدي به غيره، أو يكون في إظهارها إظهاراً لشعائر الدين -؛ فالإظهار - حينئذٍ - أفضل، إذا أمن على نفسه الرياء.

وفيها: أن الصدقة لا تُعتبر إلا إذا وصلت إلى الفقير؛ لقوله: ﴿وَتَوَثُّوْهَا الْفُقَرَاءُ﴾.

وفي الآية: تفاضل الأعمال عند رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

وفيها: أن الصدقة سبب لتكفير السيئات.

وفي الآية: تحرري المحتاج والفقير، والبحث عنه لإعطائه.

وفيها: أن إعطاء المتصدق الفقير مباشرة بنفسه، أفضل من توكيل غيره بإيصالها، إلا إذا ترجح التوكيل لمصلحة - كتأذي الفقير من رؤية المتصدق، لقراية أو معرفة -.

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٦١ / ٨)، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (٨٨٩).

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢):

ولما كانت الحاجة تدعو إلى الصدقة على الكافر أحياناً - لقرابته، أو تأليف قلبه -؛ سأل بعض المسلمين عن حكم ذلك، وماذا لو لم يهتد هؤلاء المتصدق عليهم؟

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المسلمون لا يرضخون لقراباتهم من المشركين (أي: كانوا يكرهون أن يعطوهم شيئاً من أموالهم صدقة)؛ فنزلت هذه الآية، فرخص لهم»^(١).

فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والمقصود: هداية التوفيق إلى الحق، لا هداية البيان والإرشاد، فليس عليك - يا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولا على أمّتك - هداية هؤلاء الكفار إلى الإسلام، بل أعطهم الصدقة بشروطها وآدابها، إذا كانت هناك مصلحة مرجوة، وإذا لم يكونوا محاربين للمسلمين؛ فالله تعالى يهدي من يشاء إلى الحق، ويهدي من يشاء للصدقة ابتغاء وجهه.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ كما أمر الله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أنواع المال والمنفعة؛ ﴿فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾ أي: فتواب هذا الخير والنفع لكم لا لغيركم، فلا تُفسدوه، ولا يضركم كُفر من صدقتم عليه لأجل المصلحة الشرعية.

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾: وهكذا عمل المؤمن ينبغي أن يبتغي به وجه الله وحده، وإذا تصدق مخلصاً مجتهداً؛ فقد وقع أجره على الله.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلاً أو كثيراً؛ ﴿يُوَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُعطون ثوابه وافيّاً، وافراً غير منقوص، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تُنقصون شيئاً منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن ذمة الدّاعية تبرا إذا بلغ ويّين، ولو لم يهتد من دعاهم.

وفيها: أَنَّ هدايةَ التوفيق، ودخولَ نورِ الإيمانِ إلى القلب؛ هي من اختصاصِ الله تعالى ومحضِ فضله.

وفيها: أَنَّ أعمالَ الإنسان لا ينصرف جزاؤها إلى غيره، ولكن قد ينتفع الغيرُ بعمله.

وفيها: أَنَّ الإنفاقَ لغير وجهِ الله لا ينفع صاحبه.

وفيها: إثبات صفة (الوجه) لله عزَّ وجلَّ.

وفيها: أَنَّ الإنفاقَ من الحرام لا يُقبل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، والحرام ليس بخير.

وفيها: حثُّ المسلمين على الصدقة، بوصول أجورهم عليها كاملةً موفورةً.

وفيها: صلةُ القريب الكافر، وتأليفُ قلبه بالمال، وأنَّ إعطاءه لا يُنافي البراءة من شركه.

ويُستنبط من الآية: جواز إعطاء العاصي من الصدقة، ما لم يستعن بها على المعصية. وأمَّا الكافر: فلا يُعطى من الزكاة إلا من أسهم المؤلفة قلوبهم.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٧٣):

ثم بيَّن تعالى مصارف الصدقات، ومن هم الأولى بها؛ فقال تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ أي: الإنفاق وإيتاء الصدقات للفقراء. و(الفقير): هو المُعْدَم، والخالي ذات اليد، أو مَنْ لا يجدُ إلا أقلَّ من نصف حاجته.

﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: حبسوا أنفسهم في طاعة الله، من جهادٍ وغيره، وكذلك الذين حبسهم العدو والمرص.

وقد بيَّن تعالى في سورة «الحشر»، أَنَّ سببَ فقرهم هو إخراج الكفار لهم من ديارهم، واستيلاؤهم على أموالهم؛ فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ٨].

فهؤلاء ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يقدرون على السفر لطلب المعاش، إمّا لاشتغالهم بصلاح الدين، أو لخوفهم من الأعداء، أو لِمَا أصابهم من الجراح والمرض، ونحو ذلك.

﴿يَحْسَبُهُمْ﴾ أي: يظنهم ﴿الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءُ﴾ غير محتاجين؛ ﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: لتركهم المسألة، وإظهارهم الغنى.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بالفراصة والتأمل في أحوالهم وعلاماتهم. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا يلحون في السؤال، ولا يثقلون على الناس، بل لا يسألون أصلاً؛ لأنَّ مَنْ كان متعففًا، ويظنه الجاهل غنيًا، ولا يُعرف حاله إلا بالتأمل؛ فإنه لا يمدُّ يده ولا يسأل، وإلا لصار أمره واضحًا.

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»^(١).

وقوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَيْسَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ﴾: هذا وعُدُّ منه سبحانه بأنه يُجَازِي المتصدِّق على الإنفاق في كلِّ الأحوال، سواء تصدَّق على المُلْحِف أو على غير المُلْحِف، وعلى المُتَّقِن من فقره وعلى المشكوك في فقره، وعلى مَنْ اشتدَّت حاجته وعلى مَنْ لم تستد؛ فإنَّ عِلْمَ الله المحيط ببواطن المُنفِقين، وحقائق السائلين، سترتب عليه الجزاء يوم القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَنْ كان قادرًا على التكسب؛ فلا يُعطى من الصدقة؛ حتى لا يُشجَّع على البطالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

وبعض الناس يشترط عند البحث عن وظيفة شروطًا صعبة، ولا يقبل بالمتيسر له، ولا أن يتدرَّج في الوظائف، ويرضى - مع ذلك - أن يكون عائلة على الناس المدة الطويلة! وهذا فُهِمَّ مغلوطٌ.

(١) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَجِدْ وَظِيفَةً أَصْلًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ مَزَاوِلَ مِهْنَةٍ وَلَا تِجَارَةً، أَوْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ لَا يَكْفِي حَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ أَهْلِهِ؛ فَإِنَّهُ يُعْطَى، وَلَوْ مِنَ الزَّكَاةِ.

وفي الآية: فضيلة التعفف والصبر.

وفيها: الحثُّ على دِقَّةِ النظر، والتفرُّس والتفطُّن لأحوال الناس، والتمعُّن في الأحوال والقرائن؛ لاكتشاف المُحتاج العفيف الذي لا يسأل.

وفيها: إشارة إلى النهي عن إيذاء الناس، في الإلحاح في السؤال، وإحراجهم، والإثقال عليهم.

وفيها: أنَّ المضطر إذا سأل؛ فليتلطف.

وفيها: أنَّه كلما اشتدَّت حاجةُ الشخص، وعظُمت مناقبُه وفِضائلُه؛ كان إعطاؤه أكثرَ أجرًا؛ وذلك أنَّ الله ذَكَرَ لِمُسْتَحَقِّي الصَّدَقَةِ في الآية سِتَّ خِصَالٍ وَصِفَاتٍ، عَزِيزُ أَهْلُهَا، وَمَنْ يَعْرِفُهُمْ أَقْلٌ وَأَنْدَرُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَصُّ بِتَوْفِيقِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وفيها: إشارة إلى تحريم السؤال لمن عنده ما يُغنيه، وفي الحديث: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ: مُهْوَشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ»^(١).

يعني: جاء أثرُ مسأَلته جُروحًا تظهر على الجلد واللحم.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْئِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢):

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: كلُّها أو بعضها ﴿بِالْئِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في جميع الأحوال والأوقات؛ لِحِرْصِهِمْ على الخير، وبتَنَهُّزِهم اللَّيْلَ لِإخْفَاءِ صَدَقَاتِهِمْ، وَإِذَا جَاءَهُمْ صَاحِبُ حَاجَةٍ بِالنَّهَارِ لَمْ يُؤْخَرُوهُ، وَبَادَرُوا بِالصَّدَقَةِ عَلَيْهِ؛ لئَلَّا تَفُوتَ الْمَصْلَحَةُ وَالْأَجْرُ.

(١) رواه أبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٩).

فهؤلاء جزاؤهم كما قال الله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله يوم القيامة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل والآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعميم اليوم والليلة بالأعمال الصالحة، والاشتغال بطاعة الله على مدار اليوم.
وفيها: أن الإنفاق في سبيل الله سبب لانسراح الصدر، وطرْدِ الهَمِّ والغَمِّ.
وفيها: أمانٌ من الله للمتصدقين، وأنه يُذهب عنهم الخوف من كلام المُرجفين، فينبغي عدم الالتفات إلى تخويفهم، والإقدام على الصدقة والاستمرار فيها.
وفيها: فضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية؛ ولذلك قدَّمها بالذكر في الآية.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥):

ولمَّا حثَّ الله تعالى على الصدقة من الكسب الطيب؛ نبه على بعض الكسب الخبيث؛ للتحذير منه، ومن التصدق به.

ولمَّا ذكرَ تعالى حالَ المُحْسِنِينَ في الأموال؛ ذكرَ طَرَفًا من حال المُسِيئِينَ في الأموال، وهم أَكَلَةُ الرِّبَا؛ فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ﴾ أي: يأخذونه، فينتفعون به، بأيِّ وَجْه - كالأكل والشرب، أو اللباس، أو السكن، أو المركب، أو الوقود، وغير ذلك - و(الرِّبَا): زيادة في شيئين، منع الشارع من التفاضل بينهما.

فهؤلاء ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: لا يُبعثون من قبورهم يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: كالمصروع، الذي تلبس به الشيطان، فجعل يتخبط ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: من الجنون والصرع.

ومشية المصروع علامة يُعرِف الناس بها أكل الربا يوم القيامة، فتكون فضيحتة وأول عذابه عند البعث.

وأما في القبر: فقد أخبر النبي ﷺ، أنه رأى أكل الربا يسبح في نهر من دم، وعليه رجل بين يديه حجارة، فإذا أراد أن يخرج رماه بحجر في فيه، فردّه حيث كان^(١).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: عذابهم بقيامهم من قبورهم كهيئة المجانين المصروعين ﴿يَأْنَهُمْ قَالُوا﴾ أي: بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.

وهذه مكابرة وتعام عن الفرق بين البيع والربا، لدرجة أنهم عكسوا التشبيه، فلم يقولوا: «إنما الربا مثل البيع»؛ وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾؛ فالربا عندهم هو الأصل الذي يبيحونه، وقيسون البيع عليه في الحكم! فكان عذابهم بسبب أنهم جعلوا الربا والبيع كلاهما حلالاً.

فكذبهم الله تعالى، وردّ عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي: أباح الله تعالى أرباح التجارة بالبيع والشراء، وحرم الربا -الذي من أنواعه: زيادة في المال، لأجل تأخير الأجل في القرض-. والله يحكم ما يشاء.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: بلغه حكم الربا والتخويف من فعله، بعد أن تعامل به ﴿فَأَنْتَهُنَّ﴾ أي: كفّ عن الربا بالتوبة منه، والتوقّف عن أخذ الزيادة؛ ﴿فَلَهُ مَا سَكَفَ﴾ أي: ما أخذه قبل العلم بالحكم، ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: شأنه في الآخرة راجع إلى مشيئة الله تعالى.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا وأخذه، بعد أن تبين له حكمه؛ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ العائدون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أهلها المُلَازِمون لها، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما يكونون فيها أبداً، باستحلالهم الذي جعلهم كفّاراً.

أما إن اعتقدوا التحريم، وأصرّوا على التعامل بالربا؛ فيستحقّون العقوبة الطويلة في النار.

(١) رواه البخاري (٢٠٨٥).

وفي هذه الآية من القوائد:

- التحذير من الربا، وشناعة مصير صاحبه.
- وفيها: إثبات صَرَع الشَّيْطَانِ للإنسان.
- وفيها: مُبالغة أهل الباطل في ترويح باطلهم.
- وفيها: أنَّ الحرام يبقى حرامًا، سواء عَلِمْنَا بَعْلَةَ التحريم، أم لم نَعْلَم.
- وفيها: أنَّ ما أخذه الإنسان من الربا قبل العِلْم؛ فهو له، بشرط أن يتوب وينتهي.
- وفيها: أنَّ المُرابي لو بقي له شيء من الزيادة؛ فإنه إذا تاب يجب عليه إسقاطها.
- وفيها: التحذير من العودة إلى المعصية بعد الموعظة.
- وفيها: أنَّ التائب يبقى خائفًا من ذنبه؛ لقوله: ﴿وَأْمُرْهُ إِلَى اللَّهِ﴾، ولكن يرجو رحمة ربه.
- وفيها: عقاب ومصير مَنْ يأكلون أموال الناس عن طريق الربا، بالحيل والوسائل المختلفة، والتفنُّن في طُرُق الكَسْب الحرام والاحتيال - معتقدين أنَّ هذا من الذكاء - وأنَّهم سيُعاقبون بقيامهم من القبر كهيئة المجانين المصروعين، الَّذِينَ ذَهَبَتْ عقولهم، وهذا مصير مَنْ استعمل ذكاءه في تحصيل الأموال بالربا.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٣٧٦)

قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي: يذهب، أو يذهب بركته، ويُعاقب عليه. وكثيرًا ما يذهب الربا بالتدريج. و(المحق): هو الإزالة.

وهذه الإزالة مُحتمَل أن تكون إزالة حِسِّيَّة، أو إزالة معنويَّة: فالإزالة الحِسِّيَّة بأن يُسلَط الله على مال المُرابي ما يُثْلِفُه، والمعنويَّة بأن ينزع منه البركة.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا؛ إِلَّا كَانَ عَاقِبَتُهُ أَمْرُهُ إِلَى قِلَّةٍ»، وفي رواية: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»^(١)، أي: قلة.

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٧٩)، وأحمد (٣٧٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٦٣).

أَمَّا الصَّدَقَاتُ؛ فالله تعالى يُنمِّيها ويبارك فيها؛ ولذا قال: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ أي: يزيدها ويُنمِّيها، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ ثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ»^(١)، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٢)؛ فتصير اللقمة والتمر من الصدقة مثل الجبل.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ وهو: كثير الكُفْرِ أو عظيمه، كَفُور القلب. وكُفْره قد يكون كُفْرًا أكبر باستحلال الرِّبَا، وإلا فهو واقع في كبيرة من الكبائر، بالإصرار على الرِّبَا.

﴿أَثِيمٌ﴾ أي: كثير الوقوع في الإثم، ظلومٌ لأخذه المال بالباطل. فهو أثيم القول والفعل. فالمرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التَّكْسِبِ المباح؛ فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحودٌ لما عليه من النعمة، ظلومٌ أثيمٌ بأكل أموال الناس بالباطل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مَحَقَّ الرِّبَا قد يكون حِسِيًّا أو معنويًّا.

وفيها: أَنَّ زيادة المال بالصدقة قد تكون زيادة حِسِيَّة -بأن يُخْلَفَ الله على صاحبها من المال أكثر- أو معنويَّة -بأن يُبارَكَ له فيما بقي من المال- أو بهما معًا.

وفيها: أَنَّ الرِّبَا من شعار أهل الكُفْرِ.

وفيها: أَنَّ المرابي كافرٌ بِنِعْمَةِ الله، ولو شكرَ لأقرضَ بغير زيادة، يرجو ثواب الله تعالى.

وفيها: تنبيه العباد على عدم الاغترار بالظاهر؛ فَإِنَّ الرِّبَا يَزِيدُ المَالَ في الظاهر، والصدقة تُنْقِصُهُ في الظاهر، ولكنَّ الحقيقة هي عكس ذلك.

وفي التفريق بين مَحَقَّ الرِّبَا ونهَاء الصَّدَقَةِ: إشارةٌ إلى أَنَّ الله لا يقبل الصدقة من مال الرِّبَا، وإنَّما يتقبلها من الكَسْبِ الطَّيِّبِ.

(١) وهو: الصغير من الخيل.

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢١٧):

ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين، الذين يقومون بحقه وحق عباده:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم، بالله وأحكامه، ومنها: تحريم الربا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أتموها قويمَةً، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنِهَا ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها.

هؤلاء جزاؤهم كما أخبر الله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة، وهذه (العندية) تفيد شرفاً وضماناً.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه في المستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على محبوب فات في الماضي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اقتران العمل بالإيمان.

وفيها: أن العمل الذي ينفع صاحبه هو ما كان صالحاً، أي: خالصاً صواباً.

وفيها: أهمية هذين الركنين العظيمين العمليتين من أركان الإسلام، وهما: الصلاة والزكاة.

وفيها: حصول الأمن التام للمتصفيين بهذه الصفات في الآية.

وفيها: أن النفس تطمئن إذا انتفى عنها الحزن على الماضي، والخوف من المستقبل.

وفيها: أن الإيمان والأعمال الصالحة - وعلى رأسها الصلاة والزكاة - تجلب الراحة النفسية لمن قام بها.

وفي الآية: فضل عمل الخير، بالأبدان والأموال.

وفيها: أن المرابي مختل الإيمان، وإن صلى وزكى.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨):

ولمَّا بَيَّنَّتْ آيَةٌ سَابِقَةٌ أَنَّ مَا أَخَذَهُ الْمُرَابِي مِنَ الزِّيَادَةِ قَبْلَ الْعِلْمِ بِالتَّحْرِيمِ هُوَ لَهُ؛ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَبَيِّنِ أَنَّ الزِّيَادَةَ الَّتِي يَقْبِضُهَا الْمُرَابِي بَعْدَ عِلْمِهِ بِالتَّحْرِيمِ، لَا يَجُوزُ الْمَطَالَبَةُ بِهَا، وَلَا أَخْذَهَا.

فَأَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِتَقْوَاهِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الرِّبَا الَّذِي يُسَخِّطُهُ؛ فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: اتَّخَذُوا وَقَايَةً مِنْ عَذَابِهِ، بِفِعْلٍ مَا أَمَرَكَ بِهِ، وَتَرَكْ مَا نَهَاكَ عَنْهُ، ﴿وَذَرُوا﴾: أَتْرَكُوا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ عِنْدَ مَنْ أَقْرَضْتُمُوهُ، وَاقْتَصِرُوا عَلَى الْمَطَالَبَةِ بِرُؤُوسِ أَمْوَالِكُمْ فَقَطْ.

هَذَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِاللَّهِ، الَّذِي حَرَّمَ الرِّبَا. وَهَذَا أَسْلُوبُ إِغْرَاءٍ وَإِثَارَةٍ، وَحَثٌّ عَلَى الْإِمْتِثَالِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مِنْ بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ: الْإِشَارَةُ إِلَى أَهْمِيَّةِ الْأَمْرِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَجْعَلُ النَفُوسَ قَابِلَةً لَهُ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ بِالنَّدَاءِ وَغَيْرِهِ.

وفيها: وَجُوبُ تَرْكِ الرِّبَا، وَإِنْ جَرَى التَّعَاقُدُ عَلَيْهِ.

وفيها: إِبْطَالُ الْعُقُودِ بِالرِّبَا، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَنْفِيذُ الْعُقُودِ الْمَحْرَمَةِ.

وفيها: تَحْرِيمُ الرِّبَا، وَإِنْ كَانَ مَأْخُودًا مِنَ الْكُفَّارِ، أَوْ كَانَ بَيْنَ غَنِيِّ وَغَنِيٍّ - كَالتَّاجِرِ صَاحِبِ الْمَصْنَعِ، وَالْبَنَكِ وَالْمَصْرِفِ -.

وفيها: عَدَمُ جَوَازِ الْمَطَالَبَةِ بِالرِّبَا، أَوْ أَخْذُ مَا زَادَ عَلَى رَأْسِ الْمَالِ مِنَ الرِّبَا؛ لِأَيِّ غَرَضٍ كَانَ، وَلَوْ بَنِيَّةُ التَّصَدَّقِ بِهِ، أَوْ صَرْفُهُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ تَخْلُصًا مِنْهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِتَرْكِهِ؛ وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ طَرِيقٌ يُمْكِنُ صَرْفُهُ فِيهِ؛ لَبَيَّنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَضُرُّ الْمُؤَدِّعِينَ فِي مَصَارِفِ الرِّبَا، أَنْ يَتْرَكُوا الرِّبَا لِأَصْحَابِ الْمَصَارِفِ، وَلَوْ اسْتَعْمَلُوهَا فِي حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ.

وفيها: أَنَّ الرَّبَّاءَ لَيْسَ مُلْكًا لِلْمُرَائِي، وَلَا أَحَقِّيَّةٌ لَهُ فِيهِ.

وفيها: أَنَّ التَّعَامَلَ بِالرَّبَّاءِ يُنَافِي الْإِيمَانَ.

وفيها: ابْتِلَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِدَعَاوَى الْعِبَادِ - أَمْرًا أَوْ نَهْيًا -؛ لِمَحْيِصِهِمْ.

وفيها: التَّمْهِيدُ قَبْلَ النَّهْيِ بِالْأَحْكَامِ الْعَظِيمَةِ، بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى؛ لِمَوْعِظَةِ النُّفُوسِ، وَتَهْيِئَتِهَا لِلْعَمَلِ بِالْحُكْمِ.

فَعَلَى الدُّعَاءِ وَعُظِّ النَّاسِ قَبْلَ أَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ بِالْأَحْكَامِ.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالَكُمْ لَا تَحْلِلْنَ وَلَا تَحْلُمْنَ﴾ (٢٧٦):

وَلَمَّا كَانَ تَرْكُ الرَّبَّاءِ شَاقًّا عَلَى النَّفْسِ؛ لِتَعَلُّقِهَا بِالمَالِ، وَأَمْوَالُ الرَّبَّاءِ كَثِيرًا مَا تَكُونُ طَائِلَةً؛ جَاءَ إِعْدَادُ النُّفُوسِ لِدَلَالَةِ ذَلِكَ بِأَسْلُوبِ التَّنْبِيهِ وَالتَّنْذِيرِ، وَالمَوْعِظَةِ، وَالْإِغْرَاءِ بِالْإِيمَانِ، ثُمَّ التَّخْوِيفِ بِالعُقُوبَةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا:

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أَي: مَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنْ تَرْكِ الرَّبَّاءِ؛ ﴿فَأْذَنُوا﴾ أَي: اْعْلَمُوا وَاسْتَيْقِنُوا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فِي الدُّنْيَا: بِالقِتَالِ وَالسَّيْفِ، وَفِي الْآخِرَةِ: بِالعَذَابِ وَالنَّارِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الرَّبَّاءِ لَا يَنْزِعُ عَنْهُ، فَحَقُّ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَتِيْبَهُ، فَإِنْ نَزَعَ وَإِلَّا ضَرَبَ عُنُقَهُ»^(١).

وَقَالَ: «يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَكِلِ الرَّبَّاءِ: خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ»^(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا﴾ أَي: رَجَعْتُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بَعْدَ مَعْصِيَتِهِ، وَتَرَكْتُمْ الرَّبَّاءَ بِشُرُوطِ التَّوْبَةِ؛ ﴿فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالَكُمْ﴾ أَي: أَصُولًا دُونَ الزِّيَادَةِ، فَ﴿لَا تَحْلُمْنَ﴾ بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ، ﴿وَلَا تَحْلُمْنَ﴾ بِالْإِزْمَامِكُمْ بِالتَّخْلِي عَنْ رَأْسِ المَالِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبَّاءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ،

(١) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٦/ ٢٥)، تَفْسِيرُ ابْنِ الْمُنْذَرِ (١/ ٦٠).

(٢) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٦/ ٩).

لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، غَيْرَ رَبِّا الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(١).

وجاء في حديث جابر في حجة النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ... وَرَبِّا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبِّا أَصْحُ رَبَّانًا، رَبِّا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْمُصِرَّ عَلَى الرِّبَا مُعْلِنُ الْحَرْبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وقد جاء في الوعيد على الرِّبَا ما لم يأت مثله على ذنب آخر - غير الشُّرْك -؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ بِمُحَارَبَةِ أَحَدٍ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا؛ لِشِدَّةِ ظُلْمِهِ، وما يترتب على الرِّبَا من المفساد الكثيرة؛ ومنها:

- أَنَّهُ أَخَذَ مَالِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ عَوَظٍ وَلَا مُقَابِلٍ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْمُرَابِي.
- أَنَّ أَكَلَ الرِّبَا يَمْنَعُ مِنَ الْاِشْتِغَالِ بِالتَّجَارَةِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى شَيْئًا مَضْمُونًا بِأَنَّهُ يَأْتِيهِ بِغَيْرِ تَعَبٍ؛ فَلَمَّا إِذَا يَدْخُلُ فِي مَخَاطِرِ التَّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ؟!
- وَمِنْ مَفَاسِدِهِ: أَنَّهُ سَبَبٌ لَانْقِطَاعِ الْمَعْرُوفِ بَيْنَ النَّاسِ، وَاِندِثَارِ الْقَرْضِ الْحَسَنِ.
- وَفِيهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ - خَاصَّةً فِي الْفَوَائِدِ الْمُرَكَّبَةِ -؛ فَيَزِدَادُ أَكْلُ الرِّبَا ثَرَاءً فَاحِشًا، وَيَزِدَادُ الْفَقِيرُ - دَافِعُ الرِّبَا - فَقْرًا مُدْقِعًا.
- وَفِي الْآيَةِ: تَحْذِيرُ أَكْلَةِ الرِّبَا بِحَرْبِ اللَّهِ لَهُمْ، وَمَا يَسْلُطُهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ، وَحَرْبِ رَسُولِهِ ﷺ، وَخُلَفَائِهِ مِنَ الْأَثَمَةِ وَالْوَلَاةِ الَّذِينَ مِنْ وَظَائِفِهِمْ: مُحَارَبَةُ أَكْلَةِ الرِّبَا.

وفيها: رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَمُرَاعَاةُ حَالِهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يَحْرِمِ الْمُرَابِينَ مِنْ رُءُوسِ أَمْوَالِهِمْ.

(١) رواه أبو داود (٣٣٣٤)، والترمذي (٣٠٨٧)، وابن ماجه (٣٠٥٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

ولمَّا بَيَّنَّ تعالى تحريم الرِّبَا؛ أَمَرَ الدَّائِنَ بالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسِرِ؛ فَقَالَ:

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ مِنْ غُرْمَائِكُمْ غَرِيمٌ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ أَي: عَاجِزٌ عَنْ أَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ؛ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أَي: فَعَلَيْكُمْ إِنْظَارُهُ وَإِمَهَالُهُ إِلَى وَقْتٍ يَسَارِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْوَفَاءِ، لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمَنْ عَجَزَ عَنِ السَّدَادِ لَهُ إِذَا حُلَّ الدَّيْنُ: «إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ، وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي»، فَكَلَّمَا تَأَخَّرَ زَادَهُ فِي الرِّبَا!

ثُمَّ حَثَّ عَلَى الدَّائِنِينَ عَلَى التَّسَامُحِ فِي الدَّيْنِ، وَالْوَضْعِ مِنْهُ، أَوْ الْغَاثِ بِإِبْرَاءِ الْمُعْسِرِ، وَوَعَدَ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ؛ فَقَالَ:

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ عَلَى الْمُعْسِرِ بِإِبْرَائِهِ؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ إِنْظَارِهِ وَتَأْخِيرِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: إِنْ كُنْتُمْ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ، فَتَصَدَّقُوا وَتَنَازَلُوا.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ؛ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»^(١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ؛ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حُلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ»^(٣).

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ»^(٤)، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَرُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَرَ عَنَّا، فَتَجَاوَرَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٥).

وَفِي رَوَايَةٍ لِلْحَدِيثِ: «إِنْ رَجُلًا كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَتَاهُ الْمَلِكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: أَنْظِرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي

(١) رواه مسلم (٣٠٠٦).

(٢) رواه أحمد (٢٢٥٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٦).

(٣) رواه أحمد (٢٣٠٤٦)، وصححه الألباني في الإرواء (١٤٣٨).

(٤) أي: يبيعهم بالأجل.

(٥) رواه البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢).

كُنْتُ أَبَايُحُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأَنْظِرُ الْمُؤَسِّرَ، وَأَتَجَاوِزُ عَنِ الْمُعْسِرِ. فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب إنظار المُعْسِرِ، وعدم جواز مُطالبته بالدين إذا كان لا يستطيع الوفاء.
وفيها: فضيلة الإبراء من الدين، وأنه صدقة وسنة. وأما الإنظار والتأخير للعاجز: فهو واجب.
وفيها: أن جهالة الأجل في إنظار المُعْسِرِ إلى حين الميسرة، لا تُضر.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١):

ثم وعظَّ تعالى عباده، وذكرهم بزوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال، وإتيان الآخرة وما فيها من المحاسبة على الأعمال؛ فقال تعالى:

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي: احذروا عذاب يوم. والمراد به: يوم القيامة ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: تُرَدُّونَ إليه للحساب.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾: تُعْطَى وتُسْتَوْفَى ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من ثواب الحسنات، وعقوبة السيئات، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنْقَصُونَ شيئاً من ثواب حسناتهم، ولا يُزَادُ عليهم شيء في عقوبة سيئاتهم.

وهذه الآية هي آخر وصية نزلت على نبيِّنا ﷺ من السماء، وآخر القرآن عهداً بالعرش وربّه تعالى، بعد استقرار نزول الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار والقصص.

قال ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جببر، وعطية العوفي، وغيرهم: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾»^(٢).

(١) رواه البخاري (٣٤٥١)، ومسلم (١٥٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٤٠-٤١)، تفسير ابن المنذر (١/ ٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٥٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٧٢١).

حتى قيل: إنها نزلت قبل موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسع ليالٍ، وقيل: بثلاثٍ، وقيل غير ذلك، ولم ينزل بعدها شيء^(١).

وجاء في «صحيح البخاري»^(٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: آيَةُ الرَّبِّ».

وجمع العلماء بين القولين: بأن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا؛ إذ هي معطوفة عليهن؛ فتكون آيات الربا مختومة بهذه الآية، وهي آخر ما نزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن اتقاء عذاب يوم القيامة يكون بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

وفيها: أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله، حكماً وقدرًا وجزاءً.

وفيها: أن الصغير يكتب له ثواب ما عمل؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾.

وفيها: فائدة في دعوة أكّلة الربا، بتذكيرهم بتقوى الله، واتقاء عذابه في اليوم الآخر، وتذكّر الحساب والجزاء في ذلك اليوم.

وفيها: توجيه الدعاة بوعظ المُرابين بهذه الآية.

وفيها: استحباب ختام الوصايا بالأمر بتقوى الله؛ فإن هذه الآية هي آخر وصية من الله للبشرية.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٧٥)، فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٤٤).

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَاتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُوبُهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقُكُمْ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾:

هذه هي آية الدين. وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين فيها إلى الكتابة، إذا تعاملوا فيما بينهم بمعاملات مؤجلة؛ ليكون ذلك أحفظ لها وأضبط، وأعون على الوفاء بها، وحفظ حقوق أطرافها؛ فقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأحكامه ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ (الدين): كل ما ثبت في الذمة من حق لشخص آخر. والمعنى: إذا عامل بعضكم بعضاً معاملةً فيها دين - كالبيع الآجل، والقرض، ومؤخر صداق الزوجة، وغير ذلك - ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معلوم؛ ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أي: اكتبوا الدين بأجله؛ لأن الكتابة مرجع لحسم الخلاف.

ويدخل في الآية: «بيع السلم»، وهو: بيع شيء مؤجل موصوف في الذمة، بثمن معجل، يعني: البيع الذي يكون فيه تقديم الثمن كاملاً في مجلس العقد، وتأجيل المبيع الموصوف - المتعلق بذمة البائع - إلى أجل معين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى، قد أحله الله في الكتاب، وأذن فيه»، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ^(١).

﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ﴾ أي: بين الدائن والمدين، والبائع والمشتري، ونحوهم. و«البينة» تقتضي ألا ينفرد أحد المتعاملين بالكتابة؛ بل تكون باطلاع الطرفين.

﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالحق والإنصاف والاستقامة، فلا يميل قلمه لأحد الطرفين على الآخر.

(١) رواه الحاكم (٣١٣٠)، والبيهقي (١١٠٨١)، وصححه الألباني في الإرواء (١٣٦٩).

﴿وَلَا يَأْتِ﴾ أي: لا يمتنع ﴿كَاتِبٌ﴾ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ ذَلِكَ، ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، فليكتب على أصول الكتابة وطريقة التوثيق، وشُكْرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي مَكَّنَهُ مِنْ تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ فورًا إِذَا طُلِبَتْ مِنْهُ الْكِتَابَةُ، وَلَا يمتنع، ﴿وَلْيُمْلِلْ﴾ أي: لِيُملِ -و(الإملاء) و(الإملاء) بمعنى واحد- ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وهو المديون. ﴿وَلْيَسْقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا المديون، الَّذِي يُمْلِي وَيُبَيِّنُ مَا فِي ذِمَّتِهِ. ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لا يُنْقِصْ شَيْئًا مِنَ الدَّيْنِ الَّذِي عَلَيْهِ.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: ناقص العقل، لَا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ فِي بَدَنِهِ، أَوْ رَأْيِهِ، كَأَنْ يَكُونَ صَبِيًّا أَوْ مَجْنُونًا أَوْ هَرِمًا، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِمْلَ هُوَ﴾ لِعَجْزٍ -من خَرَسَ، أَوْ جَهْلٍ بِاللُّغَةِ، أَوْ حَبْسٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ-؛ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ الَّذِي يَتَوَلَّى شُؤْنَهُ -من والدٍ، أَوْ وَصِيٍّ، أَوْ مُتَرَجِّمٍ، أَوْ وَكِيلٍ، وَنَحْوِهِمْ- ﴿بِالْمَكْدَلِ﴾ أي: بِالصَّدَقِ وَالْحَقِّ، دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ، أَوْ مُحَابَاةٍ.

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ أي: أَطْلُبُوا شَهَادَتَهُمَا عَلَى الْحَقِّ مَعَ الْكِتَابَةِ. وَهَذَا الْأَمْرُ لِلْإِسْتِحْبَابِ.

﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ يَعْنِي: الْأَحْرَارَ الْبَالِغِينَ الْمُسْلِمِينَ. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الشَّاهِدَانِ رَجُلَيْنِ؛ ﴿فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾ يَشْهَدُونَ. وَشَهَادَةُ النِّسَاءِ هُنَا فِي قَضَايَا الْأَمْوَالِ، أَمَّا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْقَضَايَا -كَالْحُدُودِ وَالنِّكَاحِ وَغَيْرِهَا- فَلَا تُقْبَلُ إِلَّا شَهَادَةُ الرِّجَالِ.

وَاشْتَرَطَ فِي الشُّهُودِ أَنْ يَكُونُوا ﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي: مِمَّنْ عُرِفَ عِنْدَ عُمُومِ النَّاسِ أَنَّهُمْ مَرْضِيُونَ فِي دِيَانَتِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ.

وَاشْتَرَطَ امْرَأَتَيْنِ فِي الشَّهَادَةِ؛ بِسَبَبٍ ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إِذَا نَسِيَتْ ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا﴾ الذَّاكِرَةَ، الضَّابِطَةَ ﴿الْأُخْرَى﴾ النَّاسِيَةَ.

﴿وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَلْبِيَةُ الدَّعْوَةِ لِلشَّهَادَةِ، وَيَكُونُ مَجِيئُهُمْ

ليشهدوا فرض كفاية، ومحيثهم للإدلاء بشهادتهم التي تحملوها فرض عين عليهم، إذا لم يكن الحق يثبت إلا بذلك.

﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أي: لا تملأوا من ذلك، مهما كثرت المداينات ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾: إلى وقت حلوله.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرناكم به من الكتابة ﴿أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أعدل، ﴿وَأَقَوْمٌ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أثبت وأحفظ لها، وأعون للشاهد على إقامتها إذا نسي أو شك، ﴿وَأَذَقَ الْأَتْرَابُوا﴾ أي: أقرب إلى انتفاء الشك؛ لأنه إذا تم الرجوع إلى الكتابة زال الشك.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْدَرَةً حَاضِرَةً﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، وليس بالآجل؛ فلا بأس بترك الكتابة. و(التجارة): كل صفقة يُراد بها الربح، فتشمل: البيع والشراء والإجارة. وأعلى من ذلك كله: ما ذكره الله بقوله: ﴿هَلْ أَذْكَؤُا عَلَى تَجَرُّفِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾ تَزْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الصف: ١٠-١١].

﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتعاطونها، وتتعاملون بها.

فإذا كان الأمر كذلك؛ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: لا إثم عليكم بترك الكتابة في هذه الحالة؛ لأن النسيان والتنازع.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾: وهذا الأمر للاستحباب، والإشهاد على البيع أقطع للتنازع، وأدفع للخلاف.

﴿وَلَا يَضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي: لا يجوز إلحاق الضرر بالكاتب، ولا الشاهد؛ لأن هذا سيؤدي إلى الإحجام عن بذل الكتابة والشهادة، وسيدفع إلى الوقوع في كتابة الزور وشهادته.

﴿وَأِنْ تَفْعَلُوا﴾ هذه المضارة التي تُهتَم عنها؛ ﴿فَإِنَّهُ يُسَوِّقُ لِيَكُمُ﴾ أي: خروج عن الطاعة، وإثم عليكم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره، واتركوا ما نهى عنه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: إذا اتقيتم؛ علمكم ما ينفعكم.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من مصالح الدنيا والآخرة ﴿عَلِيمٌ﴾: واسع العلم بحقائقها وعواقبها.

وفي آية الدِّين من الفوائد:

عناية الله بحقوق العباد؛ فإنَّ هذه أطولُ آية في كتاب الله تعالى. وفيها: أنَّ من شُكر نعمة معرفة الكتابة: الصَّدَقة على مَنْ لا يُحسِنها، بالكتابة له مجاناً. ويجوز أخذ الأجرة على ذلك.

وفيها: قبول شهادة المرأة في المال -دون الحدود والنِّكاح وغيرها-؛ لأنَّ قضايا المعاملات الماليَّة كثيرة، ويطلَّع عليها الرِّجال والنِّساء غالباً؛ فوسَّع الشرعُ في كَيْفِيَّة إثباتها. وفيها: أنَّه لا يجوز إرغام الكاتب على الكتابة، والشاهد على الحضور بدون رضاها، ولا يجوز تكليفها بما يشقُّ عليها -كالإتيان من بعيد، وتحمل تكلفة السفر-.

وفيها: تذكيرٌ بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشرعة، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعدٌ بدوام ذلك.

وفيها: أنَّ التَّقوى سببُ إفاضة العلوم.

وفيها: أنَّ تعليم الله للعبد يزداد بتقوى العبد لله؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وفيها: ردٌّ على مَنْ يقول: إنَّ الدِّين خاصٌّ بالعبادات، وإنَّ الله أوكل إلى الخلق شؤون المعاملات! وهذا ضلالٌ مبين؛ فإنَّ الله تعالى قد بيَّن الحلال والحرام في كلِّ شيء -بما فيها المعاملات- ووضع ضوابط لِمَا يكون بينَ الناس من العقود وأنواع التصرفات.

وفي الآية: الأمر بكتابة الدِّين المؤجَّل. ويتأكَّد ذلك فيمن يُحتَمَل ضياعُ حقِّه، كاليتيم؛ فيجب على وليِّ اليتيم أن يكتبَ الدِّين الذي له.

وفيها: إحسان الكتابة بالأسلوب والخطُّ.

وفيها: أنَّ الإنسان لا يتعلَّم إلَّا بتمكين الله له من ذلك، ولهذا لا بُدَّ له من شُكر النُّعمة.

وفيها: أنَّ الأفضل أن يكون الكاتب طَرَفًا ثالثًا. ويجوز لمن عليه الحقُّ أن يكتب.

وفيها: أنه مجرَّم على المدين بَخْسُ الدائن في كميَّة الدَّين، أو صِفَتَه، أو نوعه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾.

وفيها: أنَّ الوليَّ يقوم مقام المُوَلَّى عليه في الإملاء.

وفيها: أنَّ البيَّنة في القضايا الماليَّة هي شهادة رَجُلَيْن، أو رَجُلٍ وامرأتين، وجاءت السُّنَّة بيَّنةً ثالثة، وهي: شهادة رجل مع يمين المُدَّعي.

وفيها: أنَّ حِفْظَ المرأة وضبطها أقلُّ من حفظ الرجل وضبطه، وهذا على الأعمِّ والأغلب؛ وإلَّا فالنُّبوغ والحِفْظ حاصلٌ في بعض النِّساء أكثر منه في بعض الرُّجال.

وفيها: جواز الشَّهادة على أمرٍ تذكَّره بعد النسيان.

وفيها: مجاهدة النفس في ذرء المَلَل الحاصل بالتَّكرار؛ وذلك لإقامة المصالح.

وفيها: العمل بالكتابة، واعتبارها حُجَّةً شرعية، إذا كانت من ثقةٍ معروفٍ خطَّه.

وفيها: العمل على كلِّ ما يدفع الرِّيبة والشُّكَّ.

وفيها: أنَّ الإشهاد يكون عند التَّبائع، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

وفيها: أنَّ مُضارَّةَ الكُتَّبة والشُّهود فُسُقٌ، يستحقُّ صاحبه الهَجْرَ، ويترتَّب عليه زوالُ الولايات العامَّة والخاصَّة.

وفيها: أنَّ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الفُسُق والطاعة، كما يجتمع فيه الإيَّان والنِّفاق، فلا يكون فاسقًا خالصًا، ولا مؤمنًا خالصًا، فيوالى ويحبُّ بحسَب ما عنده من الإيَّان والطاعة، ويُبغض ويُبْغِزُ منه بحسَب ما عنده من النِّفاق والفُسوق.

وفيها: أنَّ الكتابة ليست تحويَّنًا للأطراف؛ ولكنها ضبطٌ للحقوق.

وفيها: أنَّ وثيقة العَدْل -صاحب الخطِّ المعروف- حُجَّةٌ يُعمَلُ بِها فيها، ولو مات هو والشُّهود.

وفيها: أنَّ إقرار الإنسان على نفسه مقبولٌ.

وفيها: أَنْ تَعْلَمَ الْكِتَابَةُ فَرَضَ كَفَايَةٍ؛ لِكَيْ يَتَحَقَّقَ بِهِ تَنْفِيزُ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ بِكِتَابَةِ الدِّينِ.
وفيها: أَنْ شَهَادَةُ الصَّبِيِّ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾.
وفيها: أَنْ شَهَادَةُ النِّسَاءِ مُتَفَرِّدَاتٍ فِي الْأَمْوَالِ وَنَحْوِهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَرَجُلٌ
وَأَمْرَأَتَانِ﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فَايُودِ الَّذِي
أَوْثِنَ أَمْنَتَهُ، وَلَيَتَّقِ اللَّهُ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٣):

قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين، وتعاملتم بالمُدَايَنَةِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى،
﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ في سفركم، أو لم تجدوا آلة الكتابة؛ ﴿فَرِهَنْ﴾ تكون بدلًا من الكتابة.
و(الرَّهْنُ): توثيق دين بعين، يمكن استيفاؤه منها، أو من بعضها.

﴿مَقْبُوضَةً﴾ في يد صاحب الحق. وكيفية القبض يُرجع فيه إلى العُرْفِ.

و(الرَّهْنُ مشروع في السفر وغيره، وقد توثق رسول الله ﷺ وذرعه مَرْهُونَةٌ عند
يهوديين، بثلاثين صاعًا من شعير^(١)).

﴿فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: وثق كل منكم بالآخر، واتخذ أمينًا؛ فلا بأس ألا تكتبوا
ولا تشهدوا، ولا ترهنوا. وإذا كان الأمر كذلك؛ ﴿فَايُودِ الَّذِي أَوْثِنَ﴾ وهو: المقترض،
الذي أوثق على الدين ﴿أَمْنَتَهُ﴾ أي: حق صاحبه، ﴿وَلَيَتَّقِ اللَّهُ رَبَّهُ﴾ أي: ليخش المدين
ربه في أداء الدين، فيؤديه تامًا، بطريقة حسنة، دون مماطلة.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: لا تخفوها، ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّمٌ قَلْبُهُ﴾ أي:
وقع قلبه في الإيثم، والقلب عليه مدار الصلاح والفساد.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من إقامة الشهادة وبيانها، أو كتمانها - على وجه الخصوص - ومن
الخير أو الشر عمومًا ﴿عَلِيمٌ﴾: محيط بكل ذلك، فيجازيكم به.

(١) رواه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

وفي هذه الآية من القوائد:

- عناية الله تعالى بحفظ أموال عباده، حتى ذكر حُكم هذه الحالة الخاصة.
- وفيها: احتياط الشريعة لقطع النزاع، ومنع حصول الشقاق في المستقبل.
- وفيها: عناية الله بحفظ حقوق العباد؛ فدفعهم على الكتابة والإشهاد والرهن.
- وفيها: أنه إذا وثق المتعاملون بالمداينة؛ لم يجب الرهن ولا الإشهاد ولا الكتابة.
- وفيها: وجوب أداء الأمانة، وتحريم الخيانة.
- وفيها: تحريم كتمان الشهادة، وأنها من الكبائر. وقد أضيف (الإثم) فيها إلى (القلب)، وهو أعظم من إثم الجوارح.
- وفيها: أن الإثم يكون بالتَّرك، كما يكون بالفعل؛ فإن كاتم الشهادة إثمُه بترك أدائها، ومحل هذه المعصية في الصدر والقلب.
- وفيها: تعظيم قدر الدين، وتسمية الوفاء به (أمانة)؛ لما لهذه الكلمة من المهابة في النفوس.
- وفيها: إثبات أعمال القلوب، ومنها أفعال حسنة محمودة - كالإخلاص، والمحبة، والخشية، والتوكل، وغيرها - ومنها أفعال مذمومة أثيمة - كالنفاق، والرياء، وسوء الظن، والعجب، والكبر، وكتمان الشهادة، وغيرها -.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨١):

ولما نهى تعالى عن كتم الشهادة، وهي مما يخفى في النفوس؛ أخبر عز وجل أنه يحاسب عباده على ما يُظهرونه ويُخفونَه؛ فقال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: وهذا ذكر لسعة ملكه سبحانه بعد سعة علمه، فله ما فيها خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَإِنْ تُبَدُّوا﴾: تُظهروا ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وقلوبكم، ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أي: تُسِرُّوا به وتكتموه؛ ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يُؤاخِذُكم به ويُجازِكم عليه إذا شاء.

ولذلك قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يتجاوز بفضله، فيعفو ولا يُعاقب، و(المغفرة): ستر الذنب مع التجاوز عنه. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بعذله. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يُعجزه شيء.

وفي ختم الآية بالقدرة: إشارة إلى البعث الذي ستحدث بعده المحاسبة، وإشارة إلى قدرة الله على محاسبة هؤلاء العباد كلهم، على أعمالهم الظاهرة والخفية.

ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، واشتد عليهم؛ فأنزل الله تعالى التخفيف.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لَلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فاتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نطيق - الصلاة والصيام والجهاد والصدقة - وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها!

قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير».

قالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير.

فلما أقرأها القوم؛ ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن مَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عموم ملك الله تعالى، وسعة علمه.

وفيها: تحذير العبد من أن يُخفي في قلبه ما لا يرضاه الله.

وفيها: إثبات مُحاسبة الرَّبِّ للعبد.

وفيها: أنه لا يلزم من المُحاسبة المؤاخَذة والمعاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، بعد قوله: ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.

وفيها: المُحاسبة على ما في النفوس.

وقد بيّنت نصوص أخرى وفصلت أنواع هذه المُحاسبة:

فمنها: أن الله تعالى لا يؤاخذ على حديث النَّفْسِ المجرد والخواطر؛ كما قال النبي ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأَمْتِي عَمَّا وَسَّوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلِّمْ»^(١).

ومنها: ما جاء في «الصحيحين»^(٢)، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ

وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ

هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا

اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

ومنها: أن مَنْ نوى العمل السيِّء، وجزم به، وأصرَّ عليه، وعوَّل بالأسباب الموصلة

إليه، لكنَّه عَجَزَ عنه؛ فعليه مثلُ إثمِ فاعله؛ لحديث: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالْقَاتِلُ

وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا

عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٣).

ولحديث: «وَعَبْدٌ لَمْ يَرِزْقُهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ

فُلَانٍ. فَهُوَ بَيْنَيْتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦).

ثم ختم الله تعالى هذه السورة العظيمة بآيتين كريمتين لهما خصائص جليلة وفضائل عظيمة؛ وهما قوله سبحانه:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّمُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

فمن فضائل هاتين الآيتين:

ما جاء في حديث النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»^(١).

قِيلَ: مَعْنَاهُ: كَفَتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ مِنَ الْآفَاتِ، وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْجَمِيعِ^(٢).

ومنها: أَنَّهُ لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كُنُزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»^(٣).

ومنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي السَّمَاءِ لَمَّا عُرِجَ بِهِ^(٤).

ومنها: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفَيِّ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»^(٥).

(١) رواه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (٩١/٦).

(٣) رواه أحمد (٢١٣٤٤)، وصححه محققو المسند.

(٤) رواه مسلم (١٧٣).

(٥) رواه الترمذي (٢٨٨٢)، وهو في صحيح الجامع (١٧٩٩).

ومنها: أنَّهما لما نزلتا فُتِحَ بابُ من السماء، فنزل منه مَلَكٌ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ»^(١).

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥):

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية، أَنَّهُ قَدْ آمَنَ، وَحَقُّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ، كَيْفَ لَا وَهذه المعجزات والآيات الَّيِّنَاتِ يَسْمَعُهَا وَيَرَاهَا تَتَرَى؟

فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو: القرآن والسُّنَّةُ. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ كَذَلِكَ تَابَعُوهُ وَآمَنُوا.

﴿كُلٌّ﴾ أَي: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿ءَاَمَنَ بِاللَّهِ﴾: بِرَبوبيَّتِهِ، وَإِلَهِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْكَامِهِ.

﴿وَمَلَكِيَّاتِهِ﴾ الْكَرَامُ الْمُطَهَّرِينَ، الْمَخْلُوقِينَ مِنْ نُورٍ، الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ، الْقَائِمِينَ بِتَنْفِيزِ أَوْامِرِهِ وَمَا كُلَّفَهُمْ مِنَ الْمَهَامِ، وَمِنْهُمْ الشُّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

﴿وَكُتُبِهِ﴾ الْمُنْزَلَةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَمِنْهَا: التَّوْرَةُ، وَالْإِنْجِيلُ، وَالزَّبُورُ، وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَخَاتَمُهَا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

﴿وَرُسُلِهِ﴾: جَمْعُ «رَسُولٍ»، وَهُوَ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فِي الْإِيمَانِ؛ بَلْ نُؤْمِنُ بِهِمْ كُلَّهُمْ، وَلَا نَكْفُرُ بِيَعْضٍ وَنُؤْمِنُ بِيَعْضٍ - كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى -.

﴿وَقَالُوا﴾ أَي: الصَّحَابَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ: ﴿سَمِعْنَا﴾ مَا أَمَرْنَا بِهِ، وَنَهَيْتَنَا عَنْهُ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أَي: امْتَثَلْنَا، بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ، وَتَرَكِ الْمَحْظُورَ.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أَي: نَسْأَلُكَ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ. ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ، يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

وفي هذه الآية من القوائد:

إثبات عُلُوِّ الله على خَلْقِهِ.

وفيها: أَنَّ المؤمنين تَبَعَ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أَنَّهُ كَلَّمَا زَادَ الإِيْمَانُ؛ زَادَ الْإِتْبَاعَ.

وفيها: فَضْلُ أركان الإِيْمَانِ المذكورة.

وفيها: أَنَّهُ يجب أن نؤمن بالرُّسُلِ والكُتُبِ على وجه الإجمال، وإن لم نعرف كلَّ التفاصيل.

وفيها: أَنَّ من صفات المؤمنين: السمع والطاعة، وَأَنَّ السمع طريق العلم، ولا بُدَّ منه قبل الطاعة والامثال. فَمِنْ الناس مَنْ يسمع ولا يُطيع؛ فهو مُعْرِض. ومنهم مَنْ لا يسمع ولا يُطيع؛ فهو مُسْتَكْبِر. ومنهم مَنْ يسمع ويُطيع؛ وهم المؤمنون حقًا.

وفيها: أَنَّ مِنْ أَهمِّ أدعية المؤمنين: طَلَبُ المغفرة، وهو من جوامع الكَلِمِ، وهو قولهم: ﴿عُفِّرْ أُنْثَكَ﴾.

وفيها: التَّوَسُّلُ إلى الله تعالى بالعمل الصالح، من السمع والطاعة، قبل سؤاله ودُعائه، وهذا أدعى لقبول الدُّعاء والإجابة.

وفيها: تواضع الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لله تعالى؛ لَمَّا ذَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمْ بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وفيها: أَنَّ اسْتِسْلَامَ العبد لله من أسباب ثناء الله عليه، والتخفيف عنه؛ لِأَنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَمَّا اسْتَسْلَمُوا بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ ذَكَرَ اللهُ حالهم في هذه الآية، وأنزَلَ التخفيف في الآية التي بعدها.

وفيها: مخالفة الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لبني إِسْرَائِيلَ، الذين قالوا: «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

وفيها: أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُكَلِّفٌ بالإِيْمَانِ بما أنزَلَ إليه، وهذا يقتضي تحمُّله أعباء الرسالة، وقيامه بالتبليغ والعمل.

وفيها: فَضْلُ هذه الأعمال العظيمة؛ وهي: الإِيْمَانُ، والذُّلُّ لله بالسمع والطاعة، والدُّعاء، وطلب المغفرة، والإقرار بالمصير إلى الله يوم القيامة.

وفيها: أن المرجع في الحكم في الدنيا إلى الله تعالى وحده.

وفيها: أن الإيمان بكل ركن من أركان الإيمان، يؤدي إلى الآخر.

وفيها: أن العبد مهما امتثل لأمر الله؛ فلا يخلو من تقصير، ولذلك يحتاج إلى سؤال المغفرة.

وفيها: أنه ينبغي أن يكون المؤمنون على قلب واحد، ومنهج واحد.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)

ولما تمت الاستجابة من الصحابة رضي الله عنهم، وأقروا بالسمع والطاعة؛ أنزل الله تعالى التخفيف؛ فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يكلف أحدا فوق طاقته. و(التكليف): الإلزام بما فيه مشقة.

فكل نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ثواب ما عملته من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: وزر ما عملته من شر؛ فليس للإنسان إلا سعيه، لا يأخذ أحد أجر أحد، ولا يعذب أحد عن أحد.

ثم أرشد الله تعالى عباده إلى سؤاله، وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ أي: لا تعاقبنا ﴿إِنْ نَسِينَا﴾: تركنا واجبا أو فعلنا محرما، نسيانا. و(النسيان): ذهول القلب عن معلوم، فيغيب عنه ما كان يعلمه من قبل.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يفعل ما خالف الصواب جهلا. و(الخطأ): هو ارتكاب المخالفة بغير قصد لها ولا تعميد، كما يحدث في قتل الخطأ - مثلا -.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي: الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أي: لا تكلفنا بما يشق علينا ويثقل، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ من بني إسرائيل وغيرهم، الذين شدد الله عليهم.

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٦).

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: ما لا قدرة لنا على تحمّله، من التكاليف، والمصائب والبلاء.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ فيما قصّرنا فيه من حقك.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذُنُوبَنَا، واسْتُرْ مساوئَنَا.

﴿وَارْحَمْنَا﴾ فيما يُسْتَقْبَل؛ حتى لا نقع في فعل محذور، أو تترك واجب.

ولذا؛ فالمُذْنِب يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه.

وأن يستره بين عباده، فلا يفضّحه بذنبه بينهم.

وأن يعصمه من الوقوع في الذنب مرة أخرى.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: ناصِرُنَا، وحافظُنَا، ومتولّي أُمُورِنَا؛ ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ﴾ أي: بتولّيكَ لنا، انصُرْنَا على مَنْ كَفَرَ بِكَ، وأشْرَكَ معكَ، وعادَى نبيّكَ وأولياءكَ، واكْتُبْ لنا النصرَ التامَّ عليهم، بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، وَالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ.

وقد جاء في الحديث المتقدّم: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا دَعَا اللَّهُ بِهِمْ الدَّعَوَات؛ قَالَ اللَّهُ:

«نَعَمْ»، وفي رواية: «قَدْ فَعَلْتُ»^(١).

فلله الْحَمْدُ على نِعْمته وَفَضْله، والحمد لله ربّ العالمين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ التكاليف الشرعيّة وإن كان في بعضها مشقّة - كالوضوء في البرّد، والقيام من النوم لصلاة الفجر، والجهاد وما فيه من القتل والجراح وذهاب المال -؛ إِلَّا أَنَّ هذه التكاليف تقع في حُدُود قُدرة البشر وطاقاتهم، ويمكنهم القيام بها، فإذا عَجَزُوا لِأَيِّ سَبَبٍ شرعيٍّ معتبرٍ؛ سقط عنهم هذا التكليف.

وفيها: أَنَّ ما لا طاقة للإنسان به؛ فهو غيرُ مكلفٍ به، ولا مُؤَاخَذٍ عليه، كهجوم خواطر الشرّ، أو الوسواس الشَّيطانيّة؛ فَإِنَّه لَا يَمْلِكُ مَنعَ وُروُدِهَا، لكن عليه مُدَافَعَتُهَا.

(١) رواه مسلم (١٢٥).

وفيها: أَنَّ كَسْبَ الإنسان للحَسَنَاتِ وفِعْلَهُ الخَيْرِ، هو في الأصل سهلٌ وميسورٌ؛ لموافقته للشرع والفِطْرة، ولما يحصل للمُطِيع من إعانة الله، ولكثرة طُرُقِ الخير، بل إِنَّهُ يُؤَجَّرُ حتى على نِيَّتِهِ.

وأما اكتساب المعصية: ففيه مُعَالَجَةٌ وتكْلُفٌ؛ لَأَنَّهُ يَحْرِقُ الشريعة، ويُخَالِفُ الفِطْرة، بل يترتب عليه أضرارٌ، وفيه فضيحتة.

وفي الآية: أَنَّ الله يَنْسَخُ ما يشاء، ويفعل ما يُريد.

وفيها: أَنَّ من رحمة الله بعباده: التخفيف، ونَسْخُ حُكْمِ الأَثْقَلِ إلى الأَخْفِ.

وفيها: أَنَّهُ لا واجب مع العَجْزِ، ولا محَرَّم مع القُدْرة.

وفيها: استجابة الله لدُعاء المؤمنين، ورَفْعُ المؤاخِذة عنهم بالنسيان والجَهْلِ والخطأ. لكن لا يلزم من ذلك سُقوط الطلب. فلو نسي صلاةً فريضةً مثلاً؛ فلا يسقط عنه قضاؤها إذا تذكَّرها، مع كونه لا يَأْتُمُّ على هذا النسيان.

وفيها: ضَعْفُ العبد وقصوره؛ فَإِنَّهُ ينسى ويجهل.

وفيها: رحمة الله بعباده المسلمين، بَوَضْعِ الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل عنهم، فلم يُقْبَلْ مَنَّ عَبْدَ الْعِجْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَوْبَتُهُمْ قَتْلَ النفس، ولم يجوز الله لهم أخذَ الغنائم، ولا كانت رُخصة التِيْمَمِ مشروعة لهم؛ فالحمد لله على نِعَمَتِهِ.

وفيها: حاجة الإنسان إلى عَفْوِ رَبِّهِ؛ لَأَنَّهُ لا يخلو من التقصير.

وفيها: أَنَّ الله وليُّ الذين آمنوا.

وفيها: أَنَّ من نعمة الله على عباده المؤمنين: أَنْ ينصَرَهُم على القوم الكافرين.

انتهى تفسيرُ سُورَةِ البقرة

والحمدُ لله ربِّ العالمين



سُورَةُ الْغَمِّ

وهي سُورَةٌ مدنيّة -بالإجماع-؛ لأنَّ صَدْرَهَا إلى ثلاثٍ وثمانينَ آيةً منها نزلت في وفْدِ نصارى نَجْرَان، وكان قُدُومُهُم المدينة في سنةٍ تَسْعٍ من الهجرة. ولأنَّ فيها بعضَ الآيات نزلت في شأنِ غزوة أُحُد.

آياتها:

مائتا آية -عند جميع علماء العدد-.

أسمائها:

تُسمَّى «آل عمران»، و«الزَّهراء».

مقاصد السُّورة:

المقصود من هذه السُّورة: التوحيد.

من موضوعات السُّورة:

توحيدُ الله.

وبيان ما أنزل من الكتب.

وبيان المُحكَّم والمتشابه.

وَدَمُّ الكُفَّار، واليهود.

وَدَمُّ الدُّنيا، ومدح الآخرة، وبيان شرفها.

ومدح الصَّحابة.

ومُناظرة أهل الكتاب من النصارى، وخبر المُباهلة.

وقِصَّة ولادة مريم عَلَيْهَا السَّلَام، وكفالة نبيِّ الله زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَام لها، وولادة عيسى عَلَيْهِ السَّلَام ومعجزاته.

وفَضْل هذه الأُمَّة المحمَّديَّة.

والكلام عن غزوة أُحُد.

وفَضْل الشُّهداء.

وفَضْل التفكُّر في خَلْق السماوات والأرض.

وأدعية المؤمنين.

والوصيَّة بالصَّبر والمرابطة.

وقد تميَّزت سُورَةُ آل عمران بالرَّدِّ على النصارى، كما تميَّزت سُورَةُ البقرة بالرَّدِّ على اليهود.

فضلها:

ثَبَتَ في الحديث أنَّهَا تُظِلُّ صاحبَهَا يَوْمَ القيامة مع سُورَةِ «البقرة»؛ فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْ: البَقْرَةُ وَسُورَةُ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِيهِمَا»^(١).

والمعنى: يأتي ثوابهما كأنَّه سَحَابَتَانِ تُظِلَّانِ صاحبَهما عن حرِّ الموقف، أَوْ كَأَنَّهُمَا طَائِفَتَانِ مِنْ طَيْرٍ واقفة على الصَّفِّ، أو باسطة أجنحتها متصلاً ببعضها ببعض، تُدَافِعُ وتُجَادِلُ عَنْ أَصْحَابِيهِمَا.

وفي حديثٍ آخر: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقْرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ»^(٢).

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾:

نزلَ مَطْلَعُ هذه السُّورَةِ إلى ثلاثٍ وثمانين آية منها في الرَّدِّ على نصارى نَجْران - كما تقدَّم -
لَمَّا جاءوا إلى النبي ﷺ المدينة، وأقامَ الحُجَّةَ عليهم، وناظرهم.

وقوله تعالى في مَطْلَعِ السُّورَةِ ﴿الْم﴾: تقدَّم - في أول سُورَةِ «البقرة» - ذكرُ الخلاف
في هذه الأحرفِ المقطَّعة في أوائل السُّور؛ فقل: إنَّها ليست كلماتٍ، فلا معنى لها، لكن لها
مَغْزَى؛ وهو: تَحْذِي كُفَّارِ العَرَبِ وغيرهم من المكذِّبين أنْ يأتوا بمِثْلِ هذا القرآن - المركَّب
من هذه الحروف - وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿اللَّهُ﴾ هو: المألوه المعبود حبًّا وتعظيمًا ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا معبود بحق ﴿إِلَّا هُوَ﴾
سبحانه.

﴿الْحَيُّ﴾: المتَّصف بالحياة الدائمة، الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء.
﴿الْقَيُّومُ﴾: القائم بذاته فلا يحتاج إلى أحدٍ، والقائم بتدبير خَلْقِهِ فيحتاجُ إليه كلُّ أحدٍ، وهو
المستغني عن غيره، يقوم بأمور السموات والأرض ومن فيهنَّ، وهو القائم على كلِّ شيء.
وقد جاء في فَضْلِ هذه الآية عن النبي ﷺ قوله: «اسمُ الله الأعظمُ في هاتينِ
الآيتينِ: ﴿وَالنَّهْكَزُ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وفاتحة آل عمران ﴿الْم ١﴾ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾».

وفي الآيتين من الفوائد:

التأكيد على حقيقة ألوهية الله ووحْدانيَّته سبحانه، المنافية لعقيدة التثليث عند النصارى.
وفيها: استغناء الله عن خَلْقِهِ.

وفيها: الرَّدُّ على النصارى في ادِّعائهم الولدَ له؛ إذ إنَّه لا يحتاجه عَزَّوَجَلَّ؛ فهو القيُّوم
سبحانه، والكلُّ مفتقرٌ إليه.

وفيها: أنَّ الخَلْقَ يفتَقرون إلى الله في الإيجاد والإمداد.

(١) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾:

ولما أثبت الله وحدانيته؛ أثبت نبوة محمد ﷺ؛ فقال: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﷺ ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، مفرقًا بحسب الوقائع ﴿بِالْحَقِّ﴾: فلا شك فيه ولا ريب، عدلٌ في أحكامه، وصدقٌ في أخباره، أنزله بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: موافقًا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لما تقدّمه من الكتب الإلهية، وهي تصدّقه أيضًا؛ بها أخبرت به، وبشّرت بنزوله.

﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ على الكليم موسى بن عمران عليه السلام، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أنزله على عيسى عليه السلام ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول القرآن.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: يَهْدِيَانِ مِنَ الضَّلَالَةِ فِي زَمَانِهَا - زَمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ -.

﴿وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ﴾ وهو القرآن، الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، المعجز في ذاته. وأعاد ذكره؛ تأكيدًا لنزوله من عنده، وبيانًا لصفة أخرى له.

﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا، وكذبوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ السابقة في الكتب، والملاحقة في القرآن، وكذلك المعجزات. جزاؤهم أن: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بالنار يوم القيامة. والقَتْل، والأسْر، والغَلَبَة، والجِزْيَة، والقوَارِع، في الدنيا.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: مَنِيْعُ الْجَنَابِ، لَا يُغْلَبُ ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى.

وفي الآيتين من الفوائد:

إثبات علو الله على خلقه؛ لأنّ التنزيل لا يكون إلّا من أعلى إلى أسفل.

وفيها: تأنيس النبي ﷺ بالوحي، وأنّه كان يتغشاه، كما يُفِيد قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾.

وفيها: فَضْلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ؛ لأنّ الله تعالى أنزله مفرقًا بحسب الوقائع والأحداث، وأنزل الكتب السابقة جملةً واحدةً، وفي هذا مزيدُ مُرَاعَاةٍ وَعِنَايَةٍ لِمَنْ كَانَ فِي وَقْتِ التَّنْزِيلِ - وَهُمْ: النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ -.

وفيها: أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْحَقَّ؛ فَسَيَجِدْهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

وفيها: أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ تَشَابَهُ، وَيُؤَيِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِنْ تَفَاوَتَتْ فِي الرُّتْبَةِ وَالْفَضْلِ.

وفيها: رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْبَشَرِ، وَإِرَادَةُ الْهُدَايَةِ لِلخَلْقِ.

وفيها: إِذْذَارُ الْمَكْذِبِينَ، وَوَعْظُهُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ وَانْتِقَامِهِ.

وفيها: أَنَّ الْمَكْذِبَ بِبَعْضِ الْكُتُبِ - أَوْ بِبَعْضِ مَا فِيهَا - مَكْذُوبٌ بِالْجَمِيعِ، مَهْدَدٌ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وفيها: كَشَفُ تَنَاقُضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِلْزَامُهُمْ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ.

وفيها: الْإِشَارَةُ إِلَى نَزُولِ الْقُرْآنِ جَمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ كَمَا يُفِيدُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، ثُمَّ نَزُولُهُ مَنْجَمًا مَفْرَقًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ؛ كَمَا يُفِيدُ قَوْلُهُ: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾:

ثم ذكر الله تعالى سَعَةَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتَهُ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَهَذَا مِنْ مُقْتَضِيَاتِ قِيَوْمِيَّتِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ﴾: لَا يَغِيبُ وَلَا يَسْتَرِ ﴿شَيْءٌ﴾ صَغِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ، قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَنَوَاحِيهَا، ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وَأَرْجَائِهَا. وَعِلْمُهُ تَعَالَى أَوْسَعُ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

كَمَالُ عِلْمِهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أَنَّ الْخُلُوقِينَ تَخَفَى عَلَيْهِمْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَصْلُحُ لَخَلْقِهِ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَنْ آمَنَ وَكَفَرَ، وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ.

وفيها: رَدُّ عَلَى النَّصَارَى؛ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الْكَامِلَ لَيْسَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦):

ثم ذكر تعالى مثالا لعلمه وقدرته؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي: يخلقكم في أرحام أمهاتكم ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾: على صور مختلفة، وأطوار متعددة، من نُطفة إلى علقة إلى مُضغة - فما فوق ذلك - ومن ذكورة إلى أنوثة، وطول وقصر، وبياض وسواد، وكمال ونقصان، وحسن وقبح، وشقاء وسعادة.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، فلا يُغلب. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإشارة إلى بطلان ما ادّعته النصارى من ألوهية المسيح عَلَيْهِ السَّلَام؛ فإن الله صوره في رحم أمه مريم عَلَيْهَا السَّلَام، وخلقّه من غير أب، وهذا دليل على قدرته تعالى في خلقه، لا أنه ابن الله، بل هو عبد - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً -.

وفي الآية: كمال قدرته وعلمه عَزَّجَلَّ، وإحياؤه للأجنة.

وفيها: أنَّ عِلْمَ عيسى ببعض الغيوب، وإحياءه لبعض الموتى؛ لم يكن إلا عن تعليم من الله ومشيتته، وإذن منه سبحانه بذلك وتمكين.

وفيها: رَدُّ على الطَّبَعِيِّينَ، الذين يقولون: إنَّ الطبيعة تفعل بنفسها وتُدبِّر وتخلق من دون الله! وهذا باطل؛ فليست الطبيعة هي التي تُصوِّر ما في الأرحام، ولكن الله هو المَصوِّر سبحانه.

وفيها: دليل على عِلْمِ الله بالخفيات، ومن ذلك: ما يخفى في الرَّحِمِ، وأجل الجنين، وعمَلُهُ، وشقيُّ هو أم سعيد.

وفيها - مع التي قبلها -: بيان بعض مراتب القدر، وهي: العِلْمُ، والمشيتة، والخلق، والرابعة هي: الكتابة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾:

ولما كان أهل الزيغ من النصارى وغيرهم، يُوردون - في الاحتجاج على باطلهم - بعض آيات القرآن التي يخفى معناها ويلتبس على الكثير؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾ - يا محمد صلى الله عليه وسلم - ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن العظيم، منقسمًا إلى قسمين:

﴿مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مُحْكَمٍ﴾ أي: واضحات الدلالة، لا يخفى معناها على أحد. و(المُحْكَم): ما عُرف المراد منه، ولا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، ولا يحتاج إلى بيان. فلا شبهة فيه ولا إشكال، مثل: الحلال والحرام، والأحكام، والحدود، والفرائض، والوعد، والوعيد، والقصاص، والأمثال، والناسخ، وكل ما يجب العمل به.

وهذه الآيات المُحْكَمَاتُ ﴿هُنَّ أَمْ الْكِتَابُ﴾ أي: فهنَّ الأصل والعُمدة، يُرجع إليها عند تفسير الكتاب. وقيل: مكتوبات من جميع الكتب، قد أجمع عليهنَّ أهل الأديان. وهذا القسم - وهو المُحْكَمَاتُ - أكثر القرآن.

والقسم الثاني: ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُ آيَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ﴾ أي: تحتل عِدَّة معانٍ، فيخفى على كثير من الناس: أيُّ المعاني هو المقصود، أو يلتبس معناها على كثير من الأذهان؛ لكون دلالتها مُجْمَلَةً، أو يتبادر إلى بعض الأذهان غيرُ المراد منها.

وهي أيضًا: ما وقع الخلاف فيه؛ لاشتباه معناه، وغموض المقصود منه.

وقيل: هي التي تحتاج إلى غيرها من المُحْكَمَاتُ لبيانها.

وقيل: المُتَشَابِهَاتُ: هي المنسوخ، الذي لا يُعمل به.

وقيل: ما أستاذثر الله بعلمه، فلا يعلمه غيره، مثل: وقت قيام الساعة، وكيفية صفات الله، وحقيقة الروح، ونحو ذلك.

وقيل: هو الذي تكرر الفاظه.

وقيل: الذي يُشبه بعضه بعضًا.

وأشهر الأقوال هو الأول، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «التشابه أمرٌ نسبيٌّ؛ فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره»^(١).

ثم بيّن الله تعالى موقفَ أهلِ الزَّيغِ وأهلِ الحَقِّ من المُتَشَابِهَاتِ؛ فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: مَيْلٌ عن الحَقِّ إلى الباطل، وَاتَّبَاعٌ للهوى؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي: يتركون المُحَكِّمَ، ويأخذون بالمُتَشَابِه، لِيُنْزِلُوهُ على مقاصدهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، مستغلِّين جهلَ كثير من الناس بهذا المُتَشَابِه، والغموض الذي فيه، ويستعملون المُتَشَابِه في تشكيك الناس في المُحَكِّمَاتِ؛ ولذا قال: ﴿ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: لِيَفْتِنُوا الناس عن دينهم، وَلِيُزَيِّنُوا لهم البدعة، وَلِيَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطل، وَيَبْتَغُوا الشُّبُهَاتِ.

﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي: يريدون تفسيره على غير مُراد الله، بما يُوافق أهواءهم وعقائدهم الفاسدة.

وقد حذرنا النبي ﷺ منهم، لَمَّا تلا هذه الآية؛ فقال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى جعل المُتَشَابِه في القرآن للابتلاء والامتحان. فلو قال قائل: ولماذا لم يكن القرآن كُلُّهُ مُحْكَمًا؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى يبتلي عباده بهذا المُتَشَابِه؛ ليظهر المؤمنُ مِمَّنْ يَزِيغُ، ويظهر قدرُ العلماء ومنزلتهم في معرفة المُتَشَابِه.

وفي الآية: التحذير من أهل البدع والمنافقين، الذين في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، ويُريدون تفریق الأُمَّة، والتشويش على المسلمين، وتشتيت الأوضاع الحَقَّة؛ فَيَتَّبِعُونَ البدعة، ويبحثون عما يُؤَيِّدُهَا من المُتَشَابِه من الكتاب والسُّنة، ويتنهبون خفاءه على كثير من الناس، واحتمال

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٤).

(٢) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

الفاظه لِعِدَّةٍ وجوهٍ ومعاني؛ فيؤسسون بِدَعَمِهِم؛ ابتغاءَ الفِتْنَةِ في الأُمَّة، وإضلالِ المسلمين عن الحقِّ، وتحريفِ معاني القرآن والسُّنَّة.

وفيها: التحذير من تفسير كلام الله على غير مُرادِهِ عزَّ وجلَّ.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: تأويل المُتَشَابِه. و(التأويل) يُطْلَقُ على معنيين:

الأول: حقيقة الشيء وكُنْهه، وما يؤول إليه. مثل: كيفية صفات الله تعالى، وكيفية ما في الجنة وما في النار. وهذا النوع من التأويل هو المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي كَذَّبُوا﴾ الآية [الأعراف: ٥٣].

والمعنى الثاني: هو التفسير والإيضاح، ومعرفة المعنى والتعبير عنه. وهو المُراد بقوله تعالى: ﴿يَنْتَنَّا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦]، والمذكور في دُعاء النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(١).

ويُكثَّر من استعماله بهذا المعنى شيخُ المفسرين الإمامُ الطبري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فيقول كثيراً في «تفسيره»: «القول في تأويل قوله تعالى...»، «اختلف أهل التأويل في كذا...».

والتأويل على المعنى الأول: لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تعالى؛ فلا يَعْلَمُهُ الراسخون في العِلْم - فضلاً عن غيرهم من البشر - . وعلى هذا المعنى؛ فيجب الوقفُ في التلاوة على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾، وتكون (الواو) في قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ ابتدائية على معنى الاستئناف، و(الراسخون) مُبتدأ.

وعلى المعنى الثاني؛ فلا وَقَفَ إِلَّا في آخر الآية، وتكون (الواو) عاطفة، والمعنى: «ولا يعلم تأويله إِلَّا اللهُ والراسخون في العِلْم»؛ لأنَّ (الرَّاسِخِينَ) يَعْلَمُونَ معنى المُتَشَابِه، ويرُدُّونه إلى المُحْكَم، ولا يكون ذلك ممَّا اختصَّ اللهُ بعِلْمِهِ.

فقوله - على المعنى الثاني - ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي: يَعْلَمُونَهُ أيضاً. و(الراسخ): هو

(١) رواه أحمد (٢٣٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٨٩). وأصله في البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بدون الزيادة في آخره - التي هي محلُّ الشاهد - .

الذي ثبت في العلم وتمكّن منه. ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بالمتشابه، على مُراد الله به. وهذا على القولين، سواء عَلِمُوا التأويل ومعناه، أم لم يَعْلَمُوا حقيقته وكنهه.

﴿كُلٌّ﴾ من المُحكّم والمتشابه ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ نزل، وأوتينا.

﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ أي: يتعظ، ويقبل، وينتفع ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وهم: أصحاب العقول السليمة والقلوب الحية؛ فهم لب العلم، وخلاصة بني آدم.

وعلى أحد القولين في الآية يفهم معنى قول ابن عباس رضي الله عنه: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يَعْلَمُه العلماء، وتفسير لا يَعْلَمُه إلا الله»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من مشيري الشُّبهات، وأنَّ من طُرُقهم: أن يضرِّبوا كلام الله بعضه ببعض. وفيها: أنَّ على طالب العلم العناية بالمُحكّمات، وهي: الأصول والثوابت التي يُرجع إليها عند التشابه، فيُفسَّر بها المتشابه، ويزول بها الغموض.

وفيها: أنَّ من صفات أهل البدع: ترك المُحكّم والإعراض عنه.

وفيها: أنَّ أهل العلم يؤمنون بالقرآن كلّهُ، سواء عَرَفُوا معناه، أو لم يَعْرِفُوا.

وفيها: أنَّ أهل العلم درجات؛ فمنهم المبتدئ، ومنهم المتوسط، ومنهم الرايخ.

وفيها: أنَّ قوّة الإيمان تقود إلى الرُّسوخ في العلم.

وفيها: أنَّ بعض الناس لا ينتفع بكلام الله تعالى.

وفيها: إرشادٌ إلى طريقة الرَّدِّ على النصاري وغيرهم من أهل البدع، بالاحتجاج عليهم بالمُحكّم، إذا أوردوا الإشكالات من الشُّبهات.

وفيها: أنَّ من الحِكم في وجود المُتشابهات في القرآن: امتحان الإيمان، وابتلاء الله لعباده؛

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

لينظر كيف يعملون، وهل يؤمنون، أو يتشككون ويؤمنون. وفيه مجال لإعمال أهل العلم عقولهم، في كشف وتحلية غامضه، ومعرفة معناه؛ فيتميزون عن غيرهم ممن لا يستطيع ذلك، وتظهر أقدارهم، ويترفعون عند الله درجات.

وفيها: أن كلام الله لا يمكن أن يتناقض، ولا أن يُخالف بعضه بعضاً؛ لأنه من عند الحكيم الخبير العليم. والتعارض بين النصوص الشرعية - قرآنًا وسنةً - إنما هو تعارض ظاهري، بحسب عقول البشر وما يبدو لها؛ وإلا، فليس هناك تعارض على الحقيقة.

وفي الآية: أن أهل البدعة يُفسرون القرآن بما يوافق أهواءهم؛ ليكثر أتباعهم، ويستندوا على ذلك في دعوتهم.

وفيها: أنه لا يجوز الكلام في التفسير بلا علم، ولا ابتغاء تأويله وتفسيره ممن ليس أهلاً للتأويل؛ فلا يجوز أن يخوض في التفسير من لا يُحسِنه.

وفيها: أنه لا يجوز الخوض في تفسير ما اختص الله بعلمه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الراسخين في العلم، أنهم - مع إيمانهم بكلامه مُحكمه ومُتشابهه - فإنهم يدعون ربهم بالثبات على دينه، وعدم الزَّيغ والانحراف عنه، فيقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ و(الزَّيغ): هو الميل. أي: لا تُملِ قُلُوبَنَا عن دينك والحق والهدى، ولا تجعلنا ممن يضلُّون بالمتشابه، ممن في قلوبهم زَيغ.

وقوله ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: وفَقَّتنا لاتباع دينك، والإيمان بالقرآن مُحكمه ومُتشابهه.

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: أعطِنَا من عندك، بفضلك وكرمك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قُلُوبَنَا على الحق والإيمان بكتابك، وتزيدنا بها إيماناً وهدى. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾: كثير الهبات والعطايا، بلا عوض ولا مقابل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الزَّيغ والهداية من عنده تعالى؛ ولذلك كان النبي ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلَّبُ

الْقُلُوبِ؛ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»^(١)، ودعا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(٢).

وفيها: سؤال الله التثبيت على الهداية، بعد سؤال الهداية نفسها، كما يفعل المؤمنون.

وفيها: سؤال الله الخير، والاستعاذة به من ضده.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾^(١):

ولا يزال هؤلاء المؤمنون يدعون ربهم، متوسلين إليه بأفعاله - بعد أسماؤه - وربوبيته لهم؛ فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ أي: ستجمع بين خلقك يوم معادهم.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسَمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ»^(٢).

وهذا جمعٌ للجزاء والحساب، فيَحْمِلُ هذا الدعاء معنى: جازنا في ذلك اليوم - يا ربنا - بأحسن الجزاء، وحاسبنا حسابًا يسيرًا.

﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾؛ فالله تعالى سيقى بما وعد، ولا بُدَّ.

وهذا من بقية كلام الراسخين في العلم، فغايته من علمهم ودُعائهم: النجاة يوم القيامة ويوم الجمع، والمُجازاة بأحسن الجزاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خشية الراسخين في العلم لربهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

[فاطر: ٢٨].

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤).

وفيها: أَنَّ الْعِلْمَ بِالْقُرْآنِ يَدْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَى السَّعْيِ لِلنَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وفيها: حُسْنُ دُعَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وفيها - مع الآيات السابقة -: أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: الْإِتِّصَافُ بِالْعِلْمِ الْمُحَقَّقِ، الَّذِي قَادَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ الْقُرْآنِ، وَسُؤَالِ اللَّهِ الْعَافِيَةِ مِنَ الزَّيْغِ، وَاعْتِرَافِهِمْ بِمُنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْهُدَايَةِ، وَسُؤَالِهِمْ رَحْمَتَهُ، وَدُعَائِهِمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَخَشْيَتِهِمْ مِنْ يَوْمِ وَعِيدِهِ، وَتَيَقُّنِهِمْ بِوُقُوعِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠):

ولمَّا ذَكَرَ تَعَالَى سَبَبَ ثَبَاتِ عِبَادَةِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ - بِإِيمَانِهِمْ وَدُعَائِهِمْ -؛ ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَسَبَبَ كُفْرِهِمْ، وَهُوَ: اغْتِرَارُهُمْ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا لَهُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ؛ فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ. وَهَذَا يَشْمَلُ: كُفْرَ الْعَرَبِ، وَكُفْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكُلَّ كَافِرٍ. فَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أَي: لَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمْ، وَلَنْ تُنَجِّيَهُمْ ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ الَّتِي يَجْمَعُونَهَا، ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَفَاخَرُونَ بِهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِمْ فِي النَّوَازِلِ ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَي: مِنْ بَأْسِهِ وَعَذَابِهِ.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أَي: الْكَفَرَةُ ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾: حَطَبُهَا الَّذِي تُسَعَّرُ وَتُوقَدُ بِهِ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَنَسٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ وَقُودَ النَّارِ؛ فَقَالَ: «لَيُظْهَرَنَّ الْإِيمَانُ حَتَّى يَرُدَّ الْكُفْرُ إِلَى مَوَاطِنِهِ، وَلَيُخَاضَ الْبَحَارُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ الْقُرْآنَ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، وَعَلِمْنَا، فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ فِي أَوْلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ؟».

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَمَنْ أَوْلَيْكَ؟ قَالَ: «أَوْلَيْكَ مِنْكُمْ، وَأَوْلَيْكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (١).

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٣٠١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٠٣/٢)، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (١٣٥).

وفي هذه الآية من القوائد:

تفنيد دعوى الكافرين بأن أموالهم وأولادهم تُقَرَّبهم عند الله، وتنفعهم في الآخرة، وتمنع عنهم العذاب.

وفيها: فساد عقل الكفار وسوء رأيهم، حيث قاسوا الآخرة على الدنيا، وظنوا أن الأموال والأولاد ستدفع عنهم عذاب الله، وتنجيهم.

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١﴾:

ثم بين الله تعالى أن حال هؤلاء الكافرين، إذا استمروا في كفرهم، أنهم سيهلكون كما أهلك الله الكفار من قبلهم، ثم يصيرون إلى عذاب النار يوم القيامة؛ فقال تعالى:

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: شأن هؤلاء الكفرة في تكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وسلم كشأن آل فرعون، وحالهم وصنيعهم، وما جرى لهم من الهلاك، وكذلك الأمم الأخرى من قبلهم - كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب - كلهم كذبوا فأهلكهم الله في الدنيا، ثم يصيرون إلى عذاب النار يوم القيامة.

فهؤلاء ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي أنزلناها على أنبيائنا، ومعجزاتنا الدالة على صدق رُسُلنا. ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسببها، وعلى رأسها: كفرهم، وتكذيبهم، وارتكابهم الموبقات - كفاحشة قوم لوط، وتطيف المكيال والميزان في قوم شعيب، وغيرها -.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: أليم العذاب، شديد البطش، لا يفوته شيء، ولا يخشى أحدًا.

وفي هذه الآية من القوائد:

الإنعاط بما حصل للأمم السابقة.

وفيها: ذكر هلاك الأشد والأكثر قوة ومالًا ونفراً؛ ليُعلم أن القدرة على من بعدهم - ممن هو أقل منهم - تكون من باب أولى.

وفيها: أَنَّ الذُّنُوبَ سَبَبٌ لِبَطْشِ اللَّهِ وَأَخْذِهِ.

وفيها: موعظةٌ للعصاة والمكذِّبين، ببيان شِدَّةِ عقابِ الله في الدُّنيا قَبْلَ الآخرة.

وفيها: حِلْمُ الله تعالى؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ الْكَفَّارَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَ دَأْبُهُمْ وَنَشَاطُهُمْ وَعَادَتُهُمْ الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ، وَالْوُقُوعَ فِي الذُّنُوبِ وَالْمُوبِقَاتِ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢):

ثم تهَدَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْكَفَّارَ، بِالْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لِلْكَافِرِينَ، الْمُكْذِبِينَ لَكَ، مِنْ الْيَهُودِ وَمُشْرِكِي مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: سَيَغْلِبُكُمْ الْمُسْلِمُونَ عَنْ قَرِيبٍ فِي الدُّنْيَا. وَقَدْ صَدَّقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَتَحَقَّقَتْ هَذِهِ الْغَلْبَةُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَحَقَّقَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْدَهُ.

وقال بعضُ المفسرين: هذا التهديد لليهود خاصة.

وقد قال ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ مَا أَصَابَ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللهُ بِمَا أَصَابَ قُرَيْشًا»، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ! إِنَّكَ -وَالله- لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنْتَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَنَا! فَانْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١).

ثم بيَّنَ اللهُ تَعَالَى عِقَابَهُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ فَقَالَ: ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجْمَعُونَ وَتُسَاقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (المهاد): هُوَ الْفِرَاشُ. فَبِئْسَمَا مَهَّدْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ، وَبِئْسَمَا أوردتموها من العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

البشارة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والمؤمنين في عَهْدِهِ وَبَعْدَهُ- بِغَلَبَتِهِمْ عَلَى الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا.

(١) رواه أبو داود (٣١٠١)، والبيهقي (١٨٦٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

وفيها: أن انتقام الله من الكفار يشمل الدنيا والآخرة.

وفيها: أن من عذاب النار أن يكون فراش الكافر منها، بل وغطاؤه أيضًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفيها: وعْدٌ من الله تعالى للمؤمنين، ووعدٌ للكافرين.

ووعده تعالى لا يتخلف؛ فقد انتصر المسلمون على اليهود من بني قُرَيْظَةَ، وبني قَيْنُقَاعٍ، وبني النَّضِيرِ، وفتحت خيبر. وانتصروا على مشركي العرب؛ كما حصل في بدرٍ وأُحُدٍ وغيرها من الغزوات.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ تَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْآلَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣):

ثم خاطب الله تعالى اليهود؛ ليعتبروا بما أصاب مشركي قُرَيْشٍ من الهزيمة؛ فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ - يا معشر اليهود - ﴿آيَةٌ﴾ أي: علامة عظيمة على صدق الله في وعده لنبيه، بالنصر عليكم، وأنكم ستُغلبون.

﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ فِرْقَتَيْنِ ﴿الَّتَقَاتَلَا﴾ أي: اجتمعتا في يوم بدرٍ للقتال:

﴿فِئَةٌ تَقَاتَلَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم: النبي ﷺ وأصحابه، فقد كانوا يُقاتلون لإعلاء كلمة الله، وكان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا.

﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ بالله ورسوله، وهم: مشركو قُرَيْشٍ، وكان عددهم نحوًا من ألف.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ يعني: يرى المشركون المسلمين مثلَيْهِمْ؛ ذلك أن المشركين عند التحامهم بالمسلمين رأوا عدد المسلمين ضعفَ عددهم؛ فكثر الله المسلمين في أعين المشركين، فرأوهم نحوًا من ألفين؛ فحصل الدُّعْرُ والهَلَعُ في نفوسهم، وكان هذا من أسباب هزيمتهم. وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية.

وقيل: كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدَدِ أنفسهم؛ فقللهم الله تعالى في أعينهم

حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين، ثم قلَّ لهم الله في أعينهم في حالة أخرى، حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم.

فإن قيل: فما وجه الجمع بين التأويل الأول، وقول الله تعالى في سورة «الأنفال» - في غزوة بدر -: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]؟

فالجواب: أن الله تعالى قلَّل المسلمين في أعين المشركين قبل القتال، ليجترئ المشركون عليهم ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثَّروهم الله في أعين المشركين - ليجبئوا - وقلَّ لهم في أعين المؤمنين - ليجترئوا -؛ فهزَمَ المشركون بفضل الله وعونه.

وقوله ﴿رَأَى الْفَيْنِ﴾ أي: رؤية ظاهرة محققة، ليست وهماً ولا خيالاً.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ ويقوّي ﴿بَنَصْرِهِ﴾ وعونه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده وأهل طاعته.

﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ﴾ النصر لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يوم بدر - وهم قلة - على المشركين - وهم كثرة - ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ أي: عظة عظيمة وآية ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهم: أصحاب العقول السليمة، والأفهام المستقيمة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

كسر غرور اليهود، بتذكيرهم بنصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على المشركين.

وفيها: وعظُ الكفار بمصائر أشباههم.

وفيها: النعمة العظيمة من الله تعالى على المسلمين، وأنه تعالى اصطفاهم وخصَّهم بالنصر.

وفيها: سببٌ عجيبٌ من أسباب النصر؛ وهو: الكثير والتقليل، وأنَّ الله تعالى يقدر هذا تارةً، ويقدر هذا أخرى، بحسب مصلحة أوليائه.

وفيها: عذاب الكفار في الدنيا قبل الآخرة.

وفيها: أنَّ عدد الجيش ليس مقياساً للنصر والهزيمة؛ بل العبرة بالإيمان والكفر، واليقين والشك.

وفيها: أنَّ العاقل هو من اعتبر بغيره، ولا يعتبر إلا أصحاب البصيرة.

﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾:

ولما كان اليهود قد اغترُّوا بالقوَّة والكثرة والمال والسَّلاح؛ وظنُّوا أنَّهم سيَتَّصرون بهذا؛ بيَّن الله تعالى أنَّ هذه الأشياء من متاع الدُّنيا الزائلة، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ فقال تعالى:

﴿زَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: جُعِلَت هذه الأشياء السبعة - الآتية - مُزِينَةً في قُلُوبهم. والمُزِين هو الله عزَّ وجلَّ؛ ابتلاءً واختباراً للعباد. والمعنى: أنَّها جعلت القُلُوب متعلِّقة بها.

وقوله ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وهي جمع «شهوة»، و(الشَّهوة): تَوَقَّان النفس إلى الشيء، وميلُها إليه. والمراد: الأشياء المُشْتَهَاة. وقد انهمك الناس في محبة هذه السبعة المذكورة.

ثم بيَّن تعالى هذه الشَّهَوَات؛ فقال: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾، وبدأ بالنِّساء؛ لأنَّ الفِتنة بهنَّ أشدُّ، وهُنَّ حبائلُ الشَّيْطَان؛ ففي الحديث: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(١). ويدخل فيهنَّ: الزوجات والإماء.

وليس في الآية ذمٌّ للنِّساء؛ فَمَنْ اتَّخَذَ المرأةَ الصَّالحةَ إعفافاً لنفسه، وابتغاءً لكثرة الولد؛ كان مأجوراً، وهذا مطلوبٌ مرغَّبٌ فيه؛ كما في الحديث: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المرأةُ الصَّالِحَةُ»^(٢).

أما إذا كان فيها شُغْلٌ عن الطاعة وأمور الآخرة، أو كان بطريق الحرام؛ فهذا هو المذموم. ﴿وَالْبَنِينَ﴾ خصَّهم بالذكر دون الإناث؛ لِشِدَّةِ المِيلِ إليهم، والفِتنة بهم أشدُّ؛ فهم زينةٌ وفِتنةٌ تُوَدِّي إلى التَّفَاخُرِ والبُغْيِ والتَّكْبُرِ. والأولاد عُمومًا فِتنةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧).

أَمَّا إِذَا كَانَ حُبُّ الْبَنِينَ لِأَجْلِ تَكْثِيرِ النَّسْلِ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِأَجْلِ الْمُنْفَعَةِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ؛ فَهَذَا مَمْدُوحٌ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

﴿وَالْقَنْطَرِ الْمَقْتَطَرِ﴾ أي: الأموال الكثيرة والكنوز الوفيرة. و(القنطار): هو المال الجزيل بعضه على بعض. وقيل: هو ألف دينار من الذهب، وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل غير ذلك.

ثُمَّ بَيَّنَّ نَوْعَيْنِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمُشْتَهَاةِ؛ فَقَالَ: ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾، وَخَصَّ هَذَيْنِ الْجَوْهَرَيْنِ؛ لِتَعَلُّقِ الْقُلُوبِ بِهِمَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمَا.

وَحُبُّ الْمَالِ إِذَا كَانَ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَوَجْهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ؛ كَانَ مَحْمُودًا يُثَابَ عَلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلِ، وَالتَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الضُّعْفَاءِ؛ كَانَ مَذْمُومًا؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّهَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ... وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَحْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ...» الْحَدِيثُ^(٢).

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَوْعًا آخَرَ مِنَ الشَّهَوَاتِ؛ فَقَالَ: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: السَّارِحَةِ بِالرَّعْيِ، وَالْمُعَلَّمَةِ، الْحِسَانِ. سُمِّيَتْ (خَيْلًا)؛ لِأَنَّهَا تَحْتَالُ فِي مَشِيِّهَا، أَوْ لِأَنَّ صَاحِبَهَا يُبْتَلَى بِالْخِيَلِ بِسَبَبِهَا.

فَمَنْ اتَّخَذَهَا لِيُجَاهِدَ عَلَيْهَا؛ فَهُوَ مَأْجُورٌ. وَمَنْ اتَّخَذَهَا فُخْرًا وَخِيَلًا؛ فَهُوَ مَأْزُورٌ، وَمَنْ اتَّخَذَهَا لِيَتَنَاسَلَ عَنْدَهُ، فَيَبِيعَهَا وَيَتَعَفَّفَ مِنْ كَسْبِهَا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا؛ فَهُوَ مُسْتَوْرٌ؛ كَمَا جَاءَ مَعْنَاهُ فِي الْحَدِيثِ^(٣).

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧).

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي المواشي، من الإبل، والبقر، والغنم، وهي جمع «نعم». وفيها المركب، والمطعم، والزينة.

﴿وَالْحَرْثِ﴾: الأرض المتخذة للزراعة والغراس.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: المذكور من الأصناف السبعة المتقدمة ﴿مَتَكِعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يتنعم به أهلها، ثم يذهب ويفنى. وسُميت (دُنْيَا)؛ لِدُنُوِّ مَرَاتِبِهَا بالنسبة للآخرة.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ خُسْرُ الْمَعَابِ﴾ أي: المرجع الحسن الدائم في الآخرة، وهو الجنة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حكمة الله تعالى بابتلاء الناس، بتزيين حُبِّ الشَّهَوَاتِ فِي قُلُوبِهِمْ، ابتلاء لهم. ولولا هذا لم تَقُمِ الْحُجَّةُ، ولم يَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَنْ يَسْتَجِيبُ وَيَطِيعُ مَنْ يَأْتِي وَيَعْصِي.

وفيها: أَنَّ هَذِهِ السَّبْعَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْآيَةِ، لَيْسَتْ مَذْمُومَةٌ بِإِطْلَاقٍ؛ وَإِنَّمَا مَذْحُهَا وَذَمُّهَا بِحَسَبِ مَا اسْتَعْمِلَتْ فِيهِ، وَبِحَسَبِ مَوْقِعِهَا مِنَ الْقَلْبِ.

وفيها: تقديم الأَشَدِّ فَلَأَشَدِّ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الذِّكْرِ.

وفيها: أَنَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ أَشَدُّ خَطَرًا مِنْ بَقِيَّةِ الْأَمْوَالِ؛ لِعِظَمِ الْإِفْتِنَانِ بِهِمَا، وَتَعَلُّقِ الْقُلُوبِ بِهِمَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمَا.

وفيها: أَنَّ الْمَالَ كُلَّمَا كَثُرَ، أَزْدَادَتِ الْفِتْنَةُ بِهِ.

وفيها: أَنَّ الْخَيْلَ أَعْظَمَ الْمَرْكُوبَاتِ مِنَ الدَّوَابِّ فَخْرًا، لِأَسَيِّئِهَا إِنْ كَانَتْ مَعْلَمَةً مَزِينَةً.

وفيها: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُفْتَنَ بِالزَّرْعَةِ، فَيُصْدَهُ ذَلِكَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

وفيها: تزهيدُ النفوس عن التعلُّقِ بهذه الأصناف السبعة، والحثُّ على استعمالها في طاعة الله تعالى.

وفيها: تنقيصُ شأنِ هذه الدُّنْيَا، وبيانُ حقارتِها بالنسبة للآخرة؛ لِئَلَّا تَتَعَلَّقَ بِمَتَاعِهَا الْقُلُوبُ.

وفيها: أنه ينبغي أن تكون محبة الله في القلب، مقدّمة على هذه الشهوات.

وفيها: ابتغاء البيئة الحسنة في استعمال هذه الأشياء في طاعة الله.

وفيها: ذمّ الافتخار بالبنين، وأنه ينبغي الحرص على أن يكونوا أعواناً على طاعة الله.

وفيها: التنبيه على أن نعيم الدنيا لا بُدَّ أن يُحرّم الإنسان منه، أو من بعضه، إمّا بعدم حصوله، أو بفنائه، أو بنقصه، أو بمفارقة صاحبه له.

وفيها: تهذيب النفوس، ومجاهدتها في عدم التعلّق بهذه الشهوات.

وفيها: أنه مهما كان متاع الدنيا مُرْتَبّاً في القلوب، جيلاً في الأعين، مرغوباً إلى النفوس؛ فلا يجوز أن يُبعد عن ذكر الله، بل ينبغي أن يُستعمل في طاعة الله.

وفيها: أنه ليس هناك دار ثالثة غير الدنيا والآخرة، والقبر أول منازل الآخرة.

وفيها: مواساة الفقراء، الذين لا يمكنهم الحصول على هذه الشهوات أو أكثرها؛ ببيان أن متاع الدنيا قليل.

﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنْ اِلٰهِ ۗ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِالْعٰبِدِيْنَ ۝۱۵﴾:

ثم استنهض الله تعالى همّ المؤمنين للعمل للآخرة، وزهّدهم في الدنيا الفانية؛ فقال:

﴿قُلْ﴾ - يا محمد ﷺ - للناس ﴿أُوْنِيْتُكُمْ﴾ أي: أأخبركم بخبر عظيم ﴿بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ﴾ أي: بما هو أفضل من زينة الدنيا وشهواتها؟ و(الميم) في قوله ﴿ذٰلِكُمْ﴾ علامة جمع الذكور، وهي إشارة إلى المذكور من الأصناف السبعة التي تقدّم ذكرها.

﴿لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾: هذا هو جواب الاستفهام، وما تنتظره النفوس. والأصل في ترتيب الجملة هو «جَنّاتٌ للَّذِينَ اتَّقَوْا»، فبدأ بالخبر وأخّر المبتدأ؛ ليُفيد الحَضْرَ واختصاص المتّقين بهذه الجنّات، وهم الذين اتَّقَوْا، فعَمِلُوا بطاعته، على نورٍ منه، يَرْجُونَ ثوابه، وتركوا ما نهاهم عنه - عن عِلْمٍ - ولم تشغَلْهم زينة الدنيا وشهواتها عن عبادة الله؛ خشية عقابه.

وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد: أنَّ هذه الجنَّات مضمونة؛ لأنَّها عند العَلِيِّ الذي لا يُحْلَف الميعاد. وتفيد لفظة «عند» أيضًا: القُرْبَ منه عَزَّوَجَلَّ، ومعلوم أنَّ عَرْشَ الرحمن سقفُ الفردوس الأعلى في الجنة.

وجاءت ﴿جَنَّاتٌ﴾ بلفظ الجمع؛ للإشارة إلى أنَّها كثيرة متنوعة.

﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها وقصورها، لا من تحت أرضها؛ لأنَّ من عجائب الجنة أنَّ أنهارها تجري فوق الأرض، بلا أخاديد، دون أن ينساح الماء ويُغرق. وجمع (الأنهار)؛ لأنَّها مختلفة متنوعة؛ فمنها: أنهار الماء، واللَّبَن، والخَمْر، والعَسَل.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقِيمِينَ، لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يَمْرَضُونَ، ولا يَبْأَسُونَ؛ كما أخبر النبي ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبَّهُوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(١).

ولمَّا ذكر الله تعالى تلذُّذَ البطن؛ ذكرَ تلذُّذَ الفَرْج؛ فقال:

﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ وهي تشمل: زوجاتهم المسلمات اللَّاتي كنَّ معهم في الدُّنيا، والخور العين اللَّاتي يُعْطِيهِنَّ اللهُ لَهُمْ في الجنة.

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: نظيفة، بريئة من الأرجاس الحسِّيَّة - كالبول والغائط، والمخاط، ونحو ذلك - ومن الأرجاس المعنويَّة - كالغِلِّ، والحقد، والفجور، والخيانة، والكذب، والمعاندة، والاستعصاء، ونحو ذلك -.

ولمَّا ذكر تعالى أنواعًا من نعيم الجنة؛ نبَّه على ما هو أعلى وأعظم من جميع ما سبق؛ فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وإنَّما كان رِضْوَانُ اللهِ أَكْبَرُ؛ لأنَّه نعيمُ رُوحٍ وَقَلْبٍ، وما قبله نعيمُ بَدَنِ وَجَسَدٍ، ولهذا

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧).

عندما يَعْرِضُ الله على أهل الجنة المزيّد، وأن يعطيهم أفضل ممّا أعطاهم؛ فيتساءلون: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مجيء الكلام بصورة الاستفهام؛ لتشويق النفس، وتوجّهها إلى الجواب.

وفيها: أن الجنة ليست واحدة؛ وإنّما هي جنات، ومنها: الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وقال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فَضَّةٍ، أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْنٍ»^(٢).

وفيها: فضل التقوى؛ لما ورد من نعيم أهلها، وما لهم من جوار الله؛ كما في قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

وفيها: فضل الجنّات.

وفيها: عناية الله بالمؤمنين؛ حيث أضافهم إليه بالتربويّة الخاصّة؛ فقال: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

وفيها: اكتمال نعيم الجنة، بالجمع بين لذات القلب، ولذات البدن.

وفيها: فضل الأزواج في الجنة؛ بكونهنّ مطهّرات، حسّنا ومعنى.

وفيها: إثبات صفة (الرّضا) لله عزّ وجلّ، كما يليق بجلاله وعظمته.

وفيها: الوعد للمتّقين.

وفيها: الوعيد للمُخالفين، وهو مفهوم من قوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾.

وفيها: أن على الدّعاة الإكثار من تذكير الناس بنعيم الجنة، في مُقابل لذات الدّنيا؛ لتنشيط نفوسهم لطلب الآخرة.

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

وفيها: أَنَّ الشَّهَوَاتِ السَّبْعَةَ - من لذَّات الدُّنْيَا - المذكورة في الآية السابقة، يمكن أن تكون خيرًا لصاحبها؛ كما يدلُّ على ذلك قوله: ﴿يُخَيِّرُ مِنْ ذَلِكَكُمْ﴾.

وفيها: أَنَّ العبد إذا عَلِمَ أَنَّ الله تعالى قد رضي عنه؛ كان ذلك أتمَّ لسُروِّه وفرِّجه.

وفيها: أَنَّ إحلالَ الله برضوانه على أهل الجنة، أعظم من سائر ما فيها من النعيم، ولا يزيد عليه إلا نعيمُ رؤية وجهه الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أَنَّ على العبد أن يحاسب نفسه على التَّقْوَى؛ لأنَّ الله بصير بالعباد، فيعلِّم المتَّقِينَ الذين يُؤثِّرون ما عند ربِّهم، وغيرهم الذين يُؤثِّرون شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وحفظَ النفس.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦):

ثم بيَّن تعالى مَنْ هم هؤلاء المتَّقُونَ، الذين اختصُّوا بتلك الجنَّات؛ فذكر أنَّ أول صفاتهم الإيمان؛ فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ متوسِّلين في دُعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾ استجابةً لأمره؛ ﴿فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: اسرِّها، وامحُ آثارها.

وفي الحديث: «إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَفَّهُ وَيَسْرُّهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيُّ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: سَرَّتُنَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»^(١).

ومن تمام دُعَاءِ المتَّقِينَ: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: ادفع عنا عذابها، بقُصْلِكَ ورحمتك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

توسُّل المؤمنين إلى الله برُبوبِيَّته.

وفيها: استجابة المؤمنين لأمر الله؛ لقوله: ﴿إِنَّنَا أَمْنَا﴾، وهذه الاستجابة تشمل: القلب واللسان والجوارح.

وفيها: أَنَّ الإيمان سبَّبُ لمغفرة الذُّنُوب، وَأَنَّهُ كُلَّمَا قَوِيَ قُوَّةُ المغفرة.

(١) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

وفيها: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُذْنِبُونَ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْصِمِينَ، وَلَكِنَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ.
وفيها: عدم اكتفاء المسلم بطلب سِتْرِ الذُّنُوبِ وَتَرْكِ الْفَضْحِ أَمَامَ النَّاسِ؛ بَلْ يَطْلُبُ أَيْضًا النِّجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ.

وفيها: حُسْنُ الْمُدْخَلِ فِي الدُّعَاءِ، بِالتَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِلدَّاعِي.
وفيها: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ -مَعَ إِيْمَانِهِمْ- يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ، وَلَا يَأْمَنُونَ مَكْرَهُ.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧):

ثم ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَزِيدًا مِنْ صِفَاتِ أَوْلَئِكَ الْمُتَّقِينَ؛ فَتَنَّى بِالصَّبْرِ بَعْدَ الْإِيْمَانِ؛ فَقَالَ:
﴿الصَّابِرِينَ﴾ أَي: عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ، وَعَلَى طَاعَتِهِ، وَيَحْبِسُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ مُعْصِيَتِهِ.
﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: بِالْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، وَالنِّيَّةِ، مَعَ اللَّهِ وَمَعَ خَلْقِهِ.
قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْمٌ صَدَقَتْ أَفْوَاهُهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ وَالسِّيِّئَةُ، وَصَدَقُوا فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ» (١).

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: الْمُطِيعِينَ رَبَّهُمْ، الْمَوَاضِيِينَ عَلَى عِبَادَتِهِ.
﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: الْبَاذِلِينَ أَمْوَالَهُمْ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ.
﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾: السَّائِلِينَ رَبَّهُمِ الْمَغْفِرَةَ فِي وَقْتِ السَّحَرِ - وَهُوَ آخِرُ اللَّيْلِ، قُبَيْلَ الْفَجْرِ - وَهُوَ وَقْتُ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضَّلَ الْإِتِّصَافَ بِالصَّبْرِ، وَالصَّدْقِ، وَالْقَنُوتِ، وَالْإِنْفَاقِ، وَالِاسْتِغْفَارِ فِي الْأَسْحَارِ.
وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَيْضًا ذَمَّ أَضْدَادِهَا، مِنْ: الْجَزَعِ، وَالْكَذِبِ، وَالْعِصْيَانِ، وَالْبُخْلِ، وَالشُّحِّ، وَتَرْكِ الْاسْتِغْفَارِ.

وفيها: أَنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، لَا يَنَالُهَا إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَكَمَّلَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٦٤).

وفيها: أَنَّ الْمُتَّقِينَ مِمَّا عَمِلُوا مِنَ الطَّاعَاتِ؛ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ مُقْصَرِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْاسْتِغْفَارِ. وفيها: تَحْرِي أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ فِي الدُّعَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ: وَقْتُ السَّحَرِ، وَالْإِكْثَارُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ فِيهِ؛ فَهُوَ وَقْتُ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَقَوْلُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(١). وفيها: أَنَّ أَهْلَ الْاسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ؛ فَيُصَلُّونَ قَبْلَ السَّحَرِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَدُّوا الصَّلَاةَ إِلَى السَّحَرِ، ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا»^(٢).

وَيُتَّبَعُونَ الْاسْتِغْفَارَ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: «هُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي الْجَمَاعَةِ»^(٣).

وفيها: فَضْلُ الْعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتِ غَفْلَةِ النَّاسِ وَنَوْمِهِمْ، وَمِنْهَا: وَقْتُ السَّحَرِ؛ فَالْعِبَادَةُ فِيهَا أَشْقَى، وَالنَّفْسُ أَصْفَى، مَعَ قُرْبِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١٨):

وَلَمَّا دَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْكَافِرِينَ، وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ؛ بَيَّنَّ أَصْلَ الْإِيمَانِ وَالْعُرْوَةَ الْوُثْقَى، وَشَهِدَ لِنَفْسِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أَي: حَكَمَ وَقَضَى، وَبَيَّنَّ وَأَخْبَرَ. وَ(الشَّهَادَةُ) قَائِمَةٌ عَلَى الْعِلْمِ وَالْإِعْلَامِ.

﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أَي: شَهِدَتْ أَيْضًا، ﴿وَأَوَّلُوا الْعِلْمِ﴾ شَهِدُوا كَذَلِكَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ. وَالْمُرَادُ بِ(الْعِلْمِ): الْعِلْمُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَشَرْعِهِ. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أَي: مَعَ تَفَرُّدِهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِالْعَدْلِ دَائِمًا فِي أَفْعَالِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَتَدْبِيرِ أُمُورِ خَلْقِهِ.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: حَكَمَ لِنَفْسِهِ أَيْضًا بَعْدَ أَنْ شَهِدَ، فَاجْتَمَعَ فِي كَلَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ الشَّهَادَةُ

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) تفسير البغوي (١٧/٢).

(٣) تفسير البغوي (١٦/٢).

وَالْحُكْمَ بِالْوَهْيَةِ تَعَالَى. ﴿الْمَرْبِيُّ﴾: ذُو الْعِزَّةِ وَالْعِظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: ذُو الْحُكْمِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْإِحْكَامِ، فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْلُ التَّوْحِيدِ.

وفيها: وجوب الشَّهادة بالتوحيد.

وفيها: فَضْلُ الْمَلَائِكَةِ.

وفيها: إقامة الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ، بِشَهَادَةِ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ.

وفيها: إشارة إلى ما يلزم الذي يَشْهَدُ أَنْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، من: الْعِلْمِ، وَالْيَقِينِ، وَالتَّلَفُّظِ، وَالْإِخْبَارِ وَالْإِعْلَامِ.

وفيها: الإلزام للشَّاهِدِ بِمُقْتَضَى مَا شَهِدَ بِهِ.

وفيها: فَضْلُ الْعِلْمِ، وَشَرَفُ الْعِلْمَاءِ وَفَضْلُهُمْ؛ فَإِنَّهُ أَشْهَدُهُمْ عَلَى أَعْظَمِ حَقِيقَةٍ، وَقَرَنَهُمْ بِاسْمِهِ تَعَالَى وَبِمَلَائِكَتِهِ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَشْرَفَ مِنَ الْعِلْمَاءِ لَقَرَنَهُمُ اللَّهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ مَلَائِكَتِهِ.

وفيها: أَنَّ كُلَّ مَا عُيِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ سُمِّيَ إِهًا.

وفيها: ذِكْرُ الشَّهَادَةِ بِالْقَوْلِ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ. وَأَمَّا شَهَادَةُ الْفِعْلِ؛ فَقَدْ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، وَالتِّي يَدُلُّ خَلْقُهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بِلِسَانِ الْحَالِ.

وفيها: التَّأْكِيدُ عَلَى الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَإِعَادَتُهَا؛ لِتَثْبِيتِ فِي النَفُوسِ.

وفيها: إثبات الله لنفسه الْوَحْدَانِيَّةَ الْمُنَافِيَةَ لِلشُّرْكِ، وَالْعَدْلَ الْمُنَافِيَّ لِلظُّلْمِ، وَالْعِزَّةَ الْمُنَافِيَّةَ لِلضَّعْفِ، وَالْحِكْمَةَ الْمُنَافِيَّةَ لِلْعَبَثِ.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١١):

وَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ؛ بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَعْبُدُوهُ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ أَيُّ: الشَّرْعِيِّ، الْمَرْضِيِّ الْمَقْبُولِ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تَعَالَى، هُوَ: ﴿الْإِسْلَامُ﴾ وَهُوَ بِمَعْنَاهُ

العام: الاستسلام، والانقياد التام، والتعبد له بما شرع، خالصاً لوجهه. وأمّا الإسلام بمعناه الخاص: فهو التعبد لله بالشرع الذي أنزله على محمد ﷺ.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلِكْتَبَ﴾ من اليهود والنصارى. وقد وقع الخلاف بينهم في دينهم، فصاروا فرقاً وشيعاً، واختلف النصارى في عيسى عليه السلام، واختلفوا أيضاً في موقفهم من نبينا ﷺ.

﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: التوراة والإنجيل الأصلية، وعرفوا الشريعة وفهموها، وكذلك جاءهم العلم بحقيقة نبينا ﷺ، ودينه.

﴿بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ظلّموا لبعضهم البعض، حملهم على التقاتل والتفرّق والتشتت، ثم حسداً لنبينا ﷺ، وبغياً على المسلمين، ثم تفرّقوا في مواقفهم: فمنهم من كفر بنبينا وحاربه، ومنهم من سالمه ووادعه، ومنهم من آمن به ودخل في دينه.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ أي: ينجحد ويكذب، أو يستكبر ويعاند ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الكونية والشرعية، فيُكر أن الله هو الذي خلق الآيات الكونية، أو ينجحد أو يعاند آياته الشرعية التي أنزلها في كتبه؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: سيحاسبه على كفره، ويُجازيه عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

معرفة الإسلام العام، الذي هو دين جميع الرُّسل، كما قال تعالى -حكاية عن يعقوب عليه السلام في وصيته لبيه-: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد اتحدت شرائع الأنبياء في الدلالة على التوحيد، وإصلاح القلوب، ومكارم الأخلاق، واختلفت شرائعهم في بعض الأحكام؛ لحكم يريدّها الله عزّ وجلّ.

وفيها: معرفة الإسلام الخاص، وهو شريعة محمد ﷺ، والتي قال الله عزّ وجلّ في شأنها: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفيها: أن البغي والظلم سبب عظيم لوقوع الاختلاف في الأمة الواحدة. ومن أسباب ذلك أيضاً: الحسد، وحبُّ الرئاسة.

وفيها: تحذير هذه الأمة مما وقع في الأمم قبلهم.

وفيها: بيان سبب عداوة أهل الكتاب للمسلمين.

وفيها: أنه لم يبق إسلام إلا الذي أنزله الله على نبيه ﷺ، وأن بقية أديان الأنبياء وشرائعهم قد أصابها التحريف والتبديل والتغيير.

وفيها: أن المرجع في الدين إلى الله عز وجل.

وفيها: أن الاختلاف بعد العلم، أقبح من وقوعه عن جهل.

وفيها: سرعة حساب الله، من جهة قربهِ وتحقيقه؛ فالدنيا لا تلبث أن تزول ويأتي الحساب، ومن جهة أن الله سريع في محاسبة الخلق، فيناقشهم ويقررهم بذنوبهم جميعاً، كحسابه لنفس واحدة.

وفيها: قبح المخالفة بعد مجيء العلم وقيام الحجة.

وفيها: أن مجيء العلم إذا لم يُقابل بالانقياد والطاعة، والفهم والاستسلام؛ فلا ينفع ولا يُنجي صاحبه.

وفيها: أن سبب الاختلاف بين أهل الكتاب، ليس هو البحث عن الحق؛ وإنما الظلم والبغي.

وفيها: أن من اختلفوا في نبيهم، فجدير بهم أن يختلفوا في نبينا ﷺ؛ فقد اختلف النصراني في عيسى عليه السلام، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة! واختلفوا في نبينا ﷺ؛ فمنهم من كذبه وعاداه، ومنهم من قال: رجل حكيم، ومنهم من أقر بنبوته ولم يلتزم أتباعه، ومنهم من عرفه وجحدته، ومنهم من منعه حب الرئاسة من أتباعه - كقيصر ملك الروم -.

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ؕ أَسَلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۚ ﴾

ثم بين الله تعالى لنبيه ﷺ ما يقوله في مجادلة أهل الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ

حَاجُّوكَ ﴿١﴾ أَي: خَاصَمُوكَ، وَجَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ وَالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ ﴿فَقُلْ﴾ - رَدًّا عَلَيْهِمْ وَدَعْوَةً لَهُمْ -: ﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ﴾ أَي: أَخْلَصْتُ قَلْبِي وَعَمَلِي وَعِبَادَتِي لِلَّهِ ﴿وَحْدَهُ، لَا أُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ، أَنَا﴾ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴿؟﴾ فَهُمْ أَيْضًا أَسَلَمُوا وَجُوهَهُمْ لِلَّهِ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لَهُ.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ. وَسَمُّوا (أُمِّيِّينَ)؛ نِسْبَةً إِلَى الْأُمِّ؛ لِأَنَّ عَامَّتَهُمْ جَهَالٌ. قُلْ لَهُمْ جَمِيعًا: ﴿أَسَلَّمْتُمْ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ، مَعْنَاهُ الْأَمْرُ؛ أَي: أَسَلِمُوا. وَهُوَ يَحْمِلُ مَعْنَى الْحُضُّ؛ أَي: هَلَّا أَسَلَّمْتُمْ بَعْدَ أَنْ أَتَيْتُمْ الْبَرَاهِينَ وَالْبَيِّنَاتِ ۚ؟

وفيه: تَوْبِيخٌ لِلَّذِينَ لَا يُسَلِمُونَ.

﴿فَإِنْ أَسَلَّمُوا﴾ أَي: اسْتَسَلَمُوا لِلَّهِ، وَانْقَادُوا لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ ﴿فَقَدْ أَهْتَكَدُوا﴾ هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ لِلْحَقِّ، وَالْفُوزِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا عَنِ قَبُولِ الْحَقِّ؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أَي: أَدَيْتَ مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْكَ؛ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَسْتَ بِمَلُومٍ؛ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادُ فَقَطْ. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ، وَيَمَنُ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ، وَالْحِسَابُ عِنْدَهُ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

جِدَالُ الْمُشْرِكِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الاسْتِعْدَادُ بِحُسْنِ الْجَوَابِ فِي مَجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ.

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالتَّابِعَةِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أَنَّ أَتْبَاعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِسْلَامِ.

وفيها: أَنَّ حَقَّ جَمِيعِ الْأُمَّةِ أَنْ يَكُونُوا تَابِعِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَتَّبِعٌ لِدَاثِهِ وَلَا لِيَصِدُقَ حُجَّتُهُ؛ فَالْأَتْبَاعُ لِلشَّرْعِ وَحْدَهُ.

وفيها: أَنَّ الْعَالِمَ -مهما بلغ من الجلالة والمكانة- فلا يُتَّبَع إِلَّا لما عنده من الحقِّ، فإذا تبَيَّن عكسه: فلا يجوز اتِّباعه.

وفيها: مِنَّةُ اللَّهِ على الْعَرَبِ؛ لَبَعَثَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم.

وفيها: أَنَّ مَنْ لم يُسَلِّمْ؛ فهو ضالٌّ منحرفٌ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ تعالى أعلمُ بمن هو أهلٌ للهداية، ومن ليس أهلاً له، وهو أعلم بالدُّعاة: هل بلَّغوا، أم قَصَّروا في التبليغ؟

وفيها: أَنَّ على الدُّعاة هداية الدلالة والإرشاد -وهي البلاغ- وليس عليهم هداية التوفيق والإلهام.

وفيها: أَنَّ الدَّاعِيَةَ لا يُسأل عن عمل المدعُوِّ، إذا دعاه فرفض الحقَّ.

وفيها: مُواساة الدُّعاة إذا أعرَض المدعُوُّون عن دعوتهم.

وقد نُسِخَ الاكتفاء بالتبليغ والأمر بالتوليُّ وترك المُعرِضين -بآيات الجهاد والقتال- وأما البلاغ: فليس بمنسوخ.

وفيها: توبيخ المُعرِض عن الحقِّ، لعِناده وبلادته.

وفيها: أهمية الجدال بالحُسنى في الدُّعوة.

وفيها: أَنَّ الحقَّ قد لا يتَّضح لبعض الناس، إِلَّا بعد الجدال والمُناظرة؛ لِمَا عندهم من الشُّبه، وإلَّا فالنفوس والفطر المستقيمة تقبلُ الحقَّ -في الأصل- بلا جدال.

وفيها: عُموم بعثة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُكُمْ﴾، وأَنَّهُ يجب عليهم الدُّخول في الإسلام الذي جاء به نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ يَكَايَهُمُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفيها: الدُّعوة بالقول، والفعل، والأحوال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١):

ولما ذكر الله تعالى مُعاقبة أهل الكتاب والمُشركين؛ ذكّرهم بجريمة من أعظم الجرائم -أو أعظمها- ممّا اقترّفه بعضهم، وهي: جَمْعهم بين الكُفر بالله، وقَتْلهم خيارَ الناس.

فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الكونيّة -التي لا يستطيع البشر أن يخلّفوا مثَلها- والشرعيّة -التي لا يُمكن للبشر أن يأتوا بمِثلها- فيكذّبون ويَجحدون، استكباراً أو عناداً.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهذا غاية الكِبَر؛ فإنّهم يقتلون الذين يُبلّغونهم شرع الله. وما أكثر حصولَ هذا من اليهود! ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ من الأمرين بالمعروف والناهين عن المعصية والمُنكر. يفعلون هذا عُداً وظُلماً. ثم أخبر عن جزائهم؛ فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بالعقوبة الموحّدة المؤلّمة. و(البشارة): هي الإخبار بما يَسُرُّ -وهذا أكثر- أو بما يَصُرُّ، سُمّيت بذلك؛ بسببِ تغيّر البَشَرَة عند سماعها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن قتل النبيّين من جملة الكُفر، وإنّما خصّهم بالذكر لشناعته.

وفيها: خطورة جريمة القتل، وخصّ قتل الأخيار بالذكر لشناعته.

وفيها: أنّه ينبغي تبشير الكفار المُعرضين بالنار.

وفيها: مُناسبة الجزاء للعمل؛ فقابل كِبَرهم بإذلالهم بالعذاب المهين.

وفيها: فضيلة الثبات على الأمر بالعدّل والخير والمعروف، ولو أدّى ذلك إلى القتل، وهذا القتل من أعظم الشّهادة عند ربّ العالمين.

وفيها: مُواساة الأخيار المقتولين ظلماً في سبيل دعوتهم، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، بأنّهم ساروا في ركب الأنبياء.

وفيها: أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ، لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ؛ فَالْيَهُودَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ اشْتِهَارًا بِهَذِهِ الْجَرِيْمَةِ، وَهِيَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَخْيَارِ، لَكِنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ، فَيَشْمَلُ جَمِيعَ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

وفيها: أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ مِنْ عَمَلِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَهُوَ مِنْ وَرَاثَةِ النَّبُوَّةِ وَخِلَافَتِهَا، وَبِهِ يَتِمُّ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ.

وفيها: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى عُمُومِ النَّاسِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْوُضُوفَةَ لَيْسَتْ مَخْتَصَّةً بِالْأَبْرَارِ.

وفيها: أَنَّ حَيَاةَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَتَمَتُّعَهُمْ بِزِينَتِهَا، لَمْ تُعَدِّ عَلَيْهِمْ بِفَائِدَةٍ تُنَجِّيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢):

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الْمُجْرِمُونَ السَّابِقُ ذَكَرَهُمْ ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ (الْحُبُوطُ): ذَهَابَ الشَّيْءُ وَزَوَالُهُ، وَعَدَمُ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُ. فَهَتَكَ اللَّهُ أَسْتَارَهُمْ، وَأَبْدَى مَخَازِيَهُمْ وَسَوَآتِهِمْ، وَأَبْقَى لَهُمُ الْمَذْمَةَ، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ ذِكْرًا، وَلَمْ يَنَالُوا عَلَيْهَا ثَنَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ بَلْ أَبْغَضَوْهُمْ وَنَالُوا الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ بِالشَّرِّ، وَعُومِلُوا مُعَامَلَةً أَهْلِ السَّيِّئَاتِ بِالذُّلَّةِ وَالصَّغَارِ، وَلَمْ تَنْفَعْهُمْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِعَصْمَةِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؛ فَصَارَتْ مُسْتَبَاحَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

﴿وَالْآخِرَةِ﴾: فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ فِيهَا؛ بَلْ عَقُوبَةٌ وَعَذَابٌ.

وهذا (الْحُبُوطُ) هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ عِقَابَهُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَسْتَفِيدُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ الَّتِي يَعْمَلُهَا فِي الدُّنْيَا.

وفيها: سُؤْمُ الْكُفْرِ، المانع من فائدة العمل في الدنيا والآخرة.
 وفيها: إِذْلالُ اللَّهِ وَخِذلَانُهُ لِمَن استَعلى على عباده المؤمنين في الدنيا.
 وفيها: تعجيل العقوبات على الكافرين، إضافة لِمَا سيحصل في الآخرة.

﴿الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

ولمَّا كان اليهود والنصارى يدَّعون التمسُّكَ بها في أيديهم من التوراة والإنجيل؛ بيَّن الله كَذِبَهُمْ في هذا الادِّعاء؛ فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾: الاستيفهام للتعجب؛ أي: أَلَمْ تَعْلَمْ، وَتَتَعَجَّبْ، وَتَنْظُرَ ﴿إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا﴾ أي: حظًّا، سواءً كان قليلاً أو كثيراً؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا فِيهِ ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الذي أنزله الله على نبيِّهم، وبقيَ بعضُه صحيحاً بين أيديهم - لَمْ يَطْمِثْهُ التحريف - ومنه: ما فيه وَصَفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهؤلاء ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾، وخصوصاً هؤلاء اليهود، الذين دُعُوا لتحكيم التوراة الباقية في أيديهم. وقيل: (كتاب الله) هنا: هو القرآن.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلك الكتاب ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في صحَّة دين الإسلام ونبوَّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعض الحدود التي وقعَ فيها بعضهم - كحدِّ الزَّنا -.

وقيل: بل التحكيم - المدعوُّ له - كان في المُنَازَعة في شأن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتَ المدرَّاس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نُعَيْم بن عمرو والحارث بن زيد - وهما من اليهود -: على أيِّ دين أنتَ يا محمد؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على مِلَّةِ إبراهيمَ ودينه»، فقالا: فَإِنَّ إبراهيمَ كان يهودياً! فقال لهما رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهلُمُّوا إلى التوراة؛ فهي بيننا وبينكم»، فأبوا عليه؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾، إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَفْقَهُوْنَ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: يُدِيرُ بَعْضُهُمْ، وَيُنْصَرِفُ مِنْ مَجْلِسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمَكْذِبِينَ: التَّوَلَّى بِالْبَدَنِ، وَالْإِعْرَاضَ بِالْقَلْبِ، وَلِذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: وَهُمْ قَوْمٌ عَادَتُهُمُ الْإِعْرَاضُ، فَهَذَا حَالُهُمْ. وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ قَدْ هَدَاهُ اللَّهُ، فَلَمْ يَتَوَلَّ -كَابِنَ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ليس كُلُّ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ صَاحِبُهُ؛ بَلْ بَعْضُ الْعِلْمِ قَدْ يَكُونُ وَبَالًا، وَزِيَادَةُ حُجَّةٍ عَلَى أَصْحَابِهِ.

وفيها: قُبْحُ الْإِعْرَاضِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ.

وفيها: وَجُوبُ التَّحَاكُمِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَكِتَابُ اللَّهِ الْحَاكِمُ، النَّاسِخُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَّا سَبَقَ لَهُ: الْقُرْآنُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ دَعْوَةُ الْيَهُودِ لِلتَّحَاكُمِ إِلَى التَّوْرَةِ؛ لِإِلْزَامِهِمْ وَإِفْحَامِهِمْ بِمَا فِيهَا مِمَّا كَفَرُوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يُكْذِبُونَ بِالْقُرْآنِ.

وفيها: أَنَّ تَحْكِيمَ الشَّرْعِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، مِنْ: الْعُقَاثِدِ، وَالْمَعَامَلَاتِ، وَالْحُدُودِ، وَالْجُنَايَاتِ، وَغَيْرِهَا.

وفيها: إِنْصَافُ الشَّرْعِ لِلْيَهُودِ؛ حَيْثُ لَمْ يُعَمَّمِ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِالتَّوَلَّى؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ أَسْلَمَ وَلَمْ يَتَوَلَّ.

وفيها: مَوْعِظَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، بِتَحْذِيرِهَا مِنَ التَّشْبِيهِ بِحَالِ الْيَهُودِ الْمُعْرِضِينَ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْجَمِيعِ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ لِلْقُرْآنِ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤):

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبَبَ التَّوَلَّى الْحَاصِلَ مِنَ الْيَهُودِ، وَأَنَّهُ بِسَبَبِ اغْتِرَارِهِمْ بِمَا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْأَمَانِ الْبَاطِلَةِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التَّوَلَّى وَالْإِعْرَاضُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾

أي: بسبب قولهم: ﴿لَنْ تَمَكَّنَا النَّارُ﴾ أي: لن تُصيِّبنا في الآخرة ﴿إِلَّا أَنْتُمْ مَعْدُودَاتٍ﴾ قلائل، ثم يخرجون منها بزعمهم، ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ﴾ أي: أبقاهم على دينهم الباطل، وخدعهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: يختلقون من الكذب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من الاتكال على الأمان، وخصوصًا الباطلة، وأن ذلك من صنْع أهل الكتاب. وكثير من المقصّر ينسبهم في ذلك؛ فيقعون في المعاصي، اتكالا على رحمة الله، ويؤمنون أنفسهم بالمغفرة!

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا»، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]، «وقال المنافق: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]»^(١).

وفيها: أن الإيمان بالبعث وحده لا ينجي صاحبه يوم القيامة.

وفيها: استخفاف اليهود بعقوبة الله، واغترارهم بما يفترون من أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وبالاتساب إلى الأنبياء، واعتقادهم أن هذا كافٍ في النجاة!

وفيها: أن جزم الإنسان لنفسه بحصول المغفرة له، يؤدي إلى التهاون في الطاعات، وعدم المبالاة في انتهاك الحرمات.

وفي الآية: تحذير العصاة -مرتكبي الكبائر والآثام والفواحش- من جزمهم لأنفسهم بالنجاة من النار، بالشفاعات والكفارات، متناسين أن رحمة الله قريب من المحسنين، لا المسيئين المفرطين، وأنهم معرضون للعقوبة، وأن الشفاعة لا تحصل إلا بإذن الله، وقد لا يأذن في الشفاعة لهم، وأن الكفارات قد لا تفي بجميع الذنوب، فيبقى على العاصي ما يهلكه.

وفيها: أن الإنسان قد يخدع نفسه ويضرها، بأن يطعمها فيما لا يحصل.

(١) الزُّفَند لابن المبارك (٩٨٥)، تفسير الطبري (١٩ / ٤٥).

وفيها: ما كان عليه اليهود -ولا يزالون- من التمسك بدينهم الباطل، ومدحه، وادعاء الفضائل لأنفسهم.

ويؤخذ منها: أن الذين يكذبون على رسول الله ﷺ، ويختلقون أحاديث في عدم دخول أهل فرقته أو طائفته النار؛ هم متشبهون باليهود في افتراءهم.

وفيها: التحذير من تزكية النفس.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥١):

ثم رد الله تعالى على اليهود، في ادعائهم النجاة يوم الدين؛ فقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حالهم في ذلك الوقت. وهذا الاستفهام لتعظيم ما سيذمهم، وتهويل ما سيحقيق بهم من العذاب. ﴿إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: للحساب والجزاء، أي: لما يحدث في يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك في مجيئه ووقوعه.

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: أعطيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بآرة أو فاجرة، من الجن أو الإنس من المكلفين ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في هذه المجازاة والتوفية؛ فلا ينقص أحد من حسناته بغير حق، ولا يزداد في سيئاته بغير حق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن التوفية الكاملة على الأعمال هي في يوم القيامة، وأن الإنسان قد يوفي شيئاً من عمله في الدنيا -بسعة في رزقه على حسنة، أو بمصيبة على سيئة- لكن الجزاء التام لا يكون إلا يوم الدين.

وفيها: إثبات اليوم الآخر، وأن من شك فيه فهو مكذب بالله.

وفيها: ترغيب للمحسنين في الازدياد من الطاعات، وموعظة للمسيئين في الكف عن السيئات.

وفيها: عدل الله الكامل، وتنزيهه عن الظلم، وقضاؤه الفاصل يوم القيامة.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦٦):

ولما ذكر الله تعالى دلائل التوحيد، وصحة دين الإسلام، وحال النبي صلى الله عليه وسلم مع المخاطبين بالدعوة - من المشركين وأهل الكتاب - وكان أهل الكتاب يريدون أن تكون السيادة الدينية لهم، وينكرون أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل: بين الله عز وجل في هذه الآية أنه يجعلها فيمن يشاء، وينقلها وينقل المُلْك إلى من يشاء.

وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه عز وجل أن يجعل مُلْك فارس والروم في أمته، ووعد أصحابه بذلك؛ فقال المنافقون واليهود: هيئات هيئات! من أين لمحمد مُلْك فارس والروم؟! فأنزل الله هذه الآية^(١).

وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يعظموه؛ فقال لهم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ أَي: يا الله ﴿مَلِكُ الْمُلْكِ﴾: له التصرف التام، وتدير الأمور؛ فهو مالك المملوكات، ومالك تدبير الخلائق كلها.

ثم فسّر هذا التصرف والتدبير في المُلْك بالإيتاء والنزع؛ فقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ أي: تعطي السلطان والغلبة ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ وتريد، فتملّكه وتسلّطه على من تشاء. ومن الأنبياء من جمع الله له بين النبوة والمُلْك والسلطان - كداود وسليمان عليهما السلام - ومنهم من آتاه نبوة ولم يؤت مَلِكًا ولا سلطانًا.

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾ أي: تمنعه وتسلّبه ﴿مِمَّنْ تَشَاءُ﴾: بالموت، أو تسليط غيره عليه، وقد يكون ابتلاءً أو عقوبة.

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ (الإعزاز): التقوية، وقد يكون بإعطائه المُلْك والسلطة، أو النصر والغنيمة، أو الغنى، أو بإلقاء الهيبة في قلوب الناس. وأعظم من ذلك: الإعزاز بالنبوة والرسالة، والإعزاز بالإيمان والعلم والطاعة.

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾: بسلب مَلِكِهِ، أو ضرب الجزية عليه. وأسوأ الإذلال: ما يكون بالكفر والمعصية.

ثم أثنى الله تعالى على نفسه؛ فقال: ﴿يَسْأَلُكَ الْخَيْرُ﴾ أي: المصالح والمنافع، الدُّنْيَوِيَّةُ والأُخْرَوِيَّةُ. ولم يذكر (الشر) ها هنا؛ لأنَّ المقامَ مقامُ ثناء ومدح. ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يمتنع عليك شيءٌ، ولا يُعجزك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعليم العباد شكر النعمة.

وفيها: ذكر نعمة الله على هذه الأمة، بنقل النبوة من بني إسرائيل إلى هذا النبي العربيِّ القُرْشِيِّ المكيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاتم الأنبياء، وأفضل الخلق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن.

وفيها: تفويض الأمور إلى الله، وأنه لا يجوز الاعتراض على الله في نقل الملك أو النبوة إلى مَنْ يشاء.

وفيها: تمام ملك الله عزَّ وجلَّ، ونقصان ملك غيره؛ فإنَّ ملك غيره ينتقل ويؤول، وملك الله دائم لا يحول ولا يؤول.

وفيها: أن الله يُذِلُّ الجبابرة، ويذهب ملكهم، كما فعل يفرعون والنمرود.

وفيها: الاستغناء بالثناء، عن الطلب والسؤال في الدعاء.

وفيها: إثبات (اليد) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

وفيها: أن الخير بيد الله، لا بيد غيره؛ ولذلك ينبغي سؤاله، لا سؤال المخلوقين.

ويؤخذ منها: التحذير من ارتكاب الأسباب التي تُزيل النعم.

وفيها: أن انتقال الخير إلى الغير، لا يُجيز رفض الحق، فيجب على بني إسرائيل الإيمانُ بنبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كونها قد انتقلت منهم إلى غيرهم.

وفيها: أن العزَّ الباطن - من الإيمان والعلم - أقوى وأفضل من العزَّ الظاهر - كالسلطان والمال والأعوان -. وأيضاً؛ فإنَّ ذلَّ الباطن - من الكفر والعصيان - أسوأ بكثير من الذلَّ الظاهر - كالْفَقْر والمِسْكَنَة والضعف -.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٤٧):

ثم علّم الله تعالى نبيه ﷺ - وأُمّته من بعده - التوسّل إليه بأفعاليه في الدُّعاء؛ فقال: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: تُدْخِلُهُ فِيهِ، فيكون النهارُ أطولَ بقدر ما نقصَ من اللَّيْلِ - كما يكون في الصَّيفِ - . ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: تُدْخِلُ بَعْضَ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ - كما يكون في الشّتاءِ - . ولا يَقْدِرُ على هذا الإيلاج إلا الله.

وقيل: المراد بـ (الإيلاج) في الآية: تعاقب اللَّيْلِ والنهار، ومجيء هذا بعد هذا.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ويدخل في ذلك: الموت الحِسِّي والحياة الحِسِّيَّة، كإخراج النُّطفة من الإنسان والإنسان من النُّطفة، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، والنواة من النخلة والنخلة من النواة.

ويدخل فيها أيضًا: الموت المعنوي والحياة المعنويَّة، كإخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والعالم من الجاهل والجاهل من العالم.

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: تُعْطِيهِ الرِّزْقَ الكثير الوفير، الذي يَعِجْزُ عَنْ عَدِّهِ وإحصائه ومعرفة مقداره، على سبيل التفضّل من غير استحقاق، ومن غير تضيق ولا تقثير.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله تعالى.

وفيها: إيلاج اللَّيْلِ في النهار وعكسه، ويكون بالتدرّج، وهذا من حِكْمَةِ تعالى ورحمته بعباده؛ لئلا يَحْتَلَّ نظامُ العالم، ولتتابعَ فصولُ السنة الأربعة، ولو أنّ الناس انتقلوا من شِدَّة الحرِّ إلى شِدَّة البرد فجأة؛ لحصلَ عليهم ضررٌ عظيم.

وفيها: مِنَّةُ الله تعالى على العباد، بتفاوت اللَّيْلِ والنهار.

وفيها: أنّ الرِّزْقَ بيد الله؛ فينبغي طلبه منه.

وفيها: أَنْ عطاء الله بلا عَوْضٍ.

وفيها: أَنَّ الله يرزق المؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر، بل والبهايم، كما أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يرزق ما تقوم به الأبدان، ويرزق ما فيه قَوام القلب والروح - من العِلْم والإيمان -.

وفيها: أَنَّ الله يرزق العبد بسبب وسعي منه على رِزقه، وقد يرزقه بلا سبب - كأن يموت قريبه فِيرثُهُ -.

وفيها: أَنَّ الله قد يرزق العبد من حيث لا يَحْتَسِب، ولا يَكْتَسِب.

وفيها - مع التي قبلها - : أَنَّ الله يتصرَّف في المُلْك والنبوة، كما يتصرَّف في اللَّيْل والنهار، والحياة والموت.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨):

ولمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّ المُلْك بيده، يُعزُّ مَنْ يشاء ويُذِلُّ مَنْ يشاء، فلا تُطَلَب العِزَّة إِلَّا منه؛ نهى عباده المؤمنين عن مُوالاة الكافرين، ابتغاء العِزِّ والنصر منهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ أُولِيَاءَ﴾ أي: لا يجعلون ولا يختارون ﴿الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أنصارًا وأعوانًا ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: من غيرهم وسواهم.

فلا يجوز مُوالاة الكافرين، والرُّكون إليهم، والاعتماد عليهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في الآيات الأخرى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١]، وقال: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]؛ فلا يجوز تولِّي الكافرين وترك المؤمنين.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يرتكب هذا النهي، بمُوالاة غير المؤمنين؛ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فليس من ولاية الله ودينه في شيءٍ - قليل ولا كثير - والله بريء منه. وقال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١].

وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ﴾ أي: إِلَّا مَنْ خاف - في بعض الأحوال، أو

الأوقات، أو البلدان - من شرهم وتسلبهم وإضرارهم له، فكان مُستضعفًا؛ فله أن يتقيهم ويُداريهم، بظاهره لا بباطنه ونيتَه، ويتقيهم بلسانه لا بعمله - فلا يستحل دَمًا أو مَالًا حرامًا - ما دام قلبُه مُطمئنًا بالإيمان، مُضمرًا لبُغضهم في الباطن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليست التَّقِيَّةُ بالعمل؛ إِنَّمَا التَّقِيَّةُ بالقول»^(١).

قوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ وَنِقْمَتَهُ، وَسَطَوَتَهُ، وَغَضَبَهُ، وَوَعِيدَهُ.

﴿وَالِ اللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾: المرجع والمُنْقَلَب والمآب، فيُجازي كلَّ واحدٍ بعمله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم اتِّخاذ الكُفَّار أولياء.

وفيها: أَنَّ مُوَالَاةَ الكُفَّار تُنافي أصلَ الإيمان.

وفيها: أَنَّهُ لا يجوز مُوَالَاةَ الكافرين، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا مع المؤمنين.

وفيها: تحريم مُوَالَاةِ الكُفَّار بأنواعهم، ويدخل فيهم: المُرتَدُّون، والغلاة من أصحاب البدع المَكْفُرة.

وفيها: أَنَّهُ لا يجوز نُصرة شيعة الشَّيْطَان وأوليائه، ولا الاستنصار بهم.

وفيها: أَنَّهُ كُلَّمَا كَمَلَ الإيمان؛ كُمَلَّتْ عداوة الكُفَّار وبُغْضهم.

وفيها: أَنَّ الله تعالى يتخلَّى عَمَّنْ تَوَلَّى أَعْدَاءَهُ.

وفيها: مُوَالَاةُ أولياء الله تعالى، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وفيها: أَنَّهُ لا يجوز مُدَاهَنَةَ أَعْدَاءِ الله، ولا إرضائهم؛ وَإِنَّمَا تجوز المُدَاراةُ عند الاضطرار أو الضرورة أو المصلحة.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٦٢٩)، وإسناده ضعيف.

وفيها: أن اتقاء الكفار بكلام يُتَقَى به شرُّهم، لا يكون إلا عند الاضطرار، ولا بُدَّ أن يكون الباطن سليماً، والقلب مطمئناً بالإيمان.

وفيها: أن هذه الثقة إنما هي لدفع ضرر الكفار وأذاهم، وليست رضا بما يفعلونه ولا اطمئناناً إليهم.

وفيها: أنه إذا جاز التحالف مع الكفار، فلا يكون إلا لمصلحة المسلمين، ويكونون هم الطرف الأقوى، ويكون هذا بنية شق صفوف الكفار، كعقد حلف مع بعض الكفار ضد بعضهم الآخر، كما فعل النبي ﷺ في محالفته خزاعة - وفيهم مسلمون - ضد بني بكر وحلفائهم من قريش.

وفيها: تحريم موالاة الكفار ضد المسلمين، بنقل أخبار المسلمين إليهم، أو إظهار عورة المسلمين وضعفهم لهم، أو تفضيلهم على المسلمين. ومن رضي بكفرهم وتولاهم لأجله؛ صار كافراً.

وفيها: رحمة الله بعباده، بالترخيص بمُدَاراة الكفار في حال خوف الضرر منهم، إذا كانوا غالبين ولهم سلطان على المسلمين، أو كان يعيش بينهم ويخاف على نفسه القتل أو السجن ونحوه.

وفيها: مُدَاراة الكفرة والفسقة والظلمة، إذا صاروا أقوىاء مُتسلطين، وإلانة الكلام لهم، وجواز التبسم في وجوههم، وبذل شيء من المال لهم؛ استجلاباً لقلوبهم، أو دفعاً لأذاهم.

وفيها: الفرق بين تقيّة أهل السنة والتقيّة عند أهل البدعة؛ فأهل البدع يُظهرون الحق والإيمان، ويُبطنون الباطل والبدعة.

وفيها: أن التقيّة رخصة، فلو صبر على الحق حتى قتل، أو تحمّل الضرر ليُظهر الحق؛ فله أجرٌ عظيم، كما فعله رسول الله ﷺ مع قريش بمكة، وكما فعله بعض الصحابة معهم، والأمثلة كثيرة على مر التاريخ، وفي حياة العلماء الربانيين.

وفيها: أنه لا تقيّة في عز المسلمين وقوتهم. ولذا قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «كانت التقيّة في جدّة

الإسلام (أي: بدايته) قبل قوّة المسلمين، فأَمَّا اليوم: فقد أعزّ الله الإسلام أن يتّقوا من عدوّهم^(١).

لكن هذا يَخْتَلِف باختلاف البلدان والأزمان والأشخاص والأحوال.

وفيها: أن المِوَالاة المحرّمة هي ما كانت في دين الكفّار، وتعظيمهم، ومحبتهم، ونصرتهم، وقد تصل إلى الكُفر.

ولا يدخل فيها: مُلاطفتهم عند دعوتهم إلى الله، ولا التعامل معهم ببيع أو شراء، ولا نكاح المُحصنات من أهل الكتاب، ولا محبة الزوج لزوجته الكتابيّة المحبّة الطبيعية - كمحبة الجائع للطعام - مع بُغضه لدينها، ولدين قومها.

وفيها: عدم جواز تولية الكافر على شؤون المسلمين ومصالحهم العامّة.

وفيها: التحذير من مُصادقة الكفّار، ومُعاشرتهم، وشهود أعيادهم، والإقامة بينهم، والتقارب معهم.

وفيها: الموعظة بالآخرة وعذاب الله، لمن يرتكب ما نهى الله عنه.

وفيها: التحذير من غَضَب الله.

وفيها: وجوب رَدّ الأحكام إلى الله عزّ وجلّ.

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩):

ولمّا كانت المِوَالاة أمراً قلبيّاً، وقد يخفى على العباد؛ نبّه الله تعالى أنّه لا يخفى عليه شيء؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: تُسِرُّوا مِوَالاة الكفّار ومودّتهم في قلوبكم - أيها المؤمنون - . أو: إن كنتم تُسِرُّون البُغْض والعداوة لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وأتباعه - أيها المنافقون واليهود - ﴿أَوْ بُتُّوهُ﴾: تُظهِروا ذلك.

والآية تشمل: كلّ ما تُخفيه القلوب، من خيرٍ وشرّ.

فَكُلُّ مَا تُخْفُوهُ أَوْ تُظْهِرُوهُ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾، وَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ، وَيَحْفَظُهُ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وما بينهما، عُمُومًا وَتَفْصِيلًا.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: خَتَمَ الْآيَةَ بَيَانُ قُدْرَتِهِ - بعد بيان عِلْمِهِ -؛ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى عِقَابِهِ مَنْ عِلِمَ عَصِيَانَتَهُ وَمُؤَالَاتِهِ لِأَعْدَائِهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ أَصْلَ وَمَحَلَّ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ هُوَ الْقَلْبُ، وَمَحَلُّهُ الصَّدْرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْقُلُوبُ أَلْفِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفيها: التنبية بِالْعِلْمِ الْعَامِّ بعد الْعِلْمِ الْخَاصِّ، فَمَنْ كَانَ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ فَكَيْفَ يُخْفَى عَلَيْهِ مَا فِي قُلُوبِ خَلْقِهِ؟!

وفيها: أَنَّهُ عَزَّجَلَّ عِلِمَ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُ أَوْلِيَائِهِ مِنْ مُؤَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَيَعْلَمُ اطمئنانَ قُلُوبِهِم بِالْإِيمَانِ فِي حَالِ اضْطِرَارِهِمْ إِلَى التَّقِيَّةِ بِاللِّسَانِ؛ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُ أَعْدَائِهِ مِنْ بُغْضِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ مُؤَالَاةِ الْكَافِرِينَ؛ فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَفْعَلُ فِيهِمْ مَا يَشَاءُ.

وفيها: تَذْكِيرُ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَهْلِ الْمَعَاصِي بِعِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ؛ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ كُفْرِهِمْ، وَلَا يَجْتَرِثُونَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ قَبْلَ وَقْعِهَا وَبَعْدَ وَقْعِهَا، لَكِنَّ عِلْمَهُ الْأَزْلِيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، وَأَمَّا عِلْمُهُ بِأَعْمَالِهِمْ بَعْدَ وَقْعِهَا؛ فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ؛ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى الْعِبَادِ.

وفيها: التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَعَاصِي، فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ.

وفيها: إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ تَكُونُ خَفِيَّةً فِي الضَّمَائِرِ أَوَّلًا، ثُمَّ تَظْهَرُ فِي الْعَلَنِ.

وفيها: أَنَّ النَّبِيَّةَ تَسْبِقُ الْعَمَلَ؛ وَهَذَا مَا خُوِّذَ مِنْ تَقْدِيمِ (الْإِخْفَاءِ) عَلَى (الْإِبْدَاءِ) فِي الْآيَةِ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ٣٠﴾:

ثم وعظ الله عز وجل عباده، وذكرهم بيوم الحساب؛ فقال: ﴿يَوْمَ﴾ أي: اذكروا ذلك اليوم، وذكروا به ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من المكلفين - إنسا وجنّا - ﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: في صحائف الأعمال التي تُنشر. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ تجده مُحْضَرًا أيضًا، ولكنها ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وزمنًا طويلًا، ومسافة طويلة.

ثم أكد تعالى تهديده، وكرّر وعيده؛ فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يخوفكم عقابه. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ﴾ (الرأفة) أشد من الرحمة، فهي رحمة مع لين. ﴿بِالْعِبَادِ﴾ أي: رحيم بخلقه. وهذه تَرْجِيَةٌ بعد التخويف؛ ليعيش المسلم بين الخوف والرجاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التذكير المستمر بيوم القيامة.

وفيها: إحضار الأعمال المكتوبة بين أيديهم في ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرتْ﴾ [التكوير: ١٠]، ليقرّ كل واحد ما عمل، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، ولتقوم الحُجَّة من نفسه على نفسه، كما قال في الآية التي بعدها: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفيها: أن العبد يُحب ما عمل من الخير، ويسرّه يوم القيامة قُرْبُهُ منه. ويسوؤه ما عمل من الشرّ وقُرْبُهُ منه، ويتمنى لو كان بعيدًا عنه غاية البعد.

وفيها: التحذير من سخط الله وعذابه.

وفيها: أن على العبد أن يرجح جانب الخير وعمله، على جانب السوء وعمله.

وفيها: أن تكرار التحذير مفيد في تكرار التأثير، وتذكير الغافل.

وفيها: الجمع بين الترغيب والترهيب في الدعوة.

وفيها: أهمية إلحاق التخويف بذكر الرجاء؛ لئلا يقنط العباد من رحمة الله تعالى.

وفيها: أنَّ تحذير الله لعباده من عذابه، هو من الرَّأْفَةِ بهم.

وفيها: تودُّد الله إلى عباده، ورحمته بهم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١):

ولمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قُدْرَتَهُ، وانْفِرَادَهُ فِي مُلْكِهِ، وَأَوْجِبَ مُوَالَاتِهِ، وَحَرَّمَ مُوَالَاةَ أَعْدَائِهِ؛ ذَكَرَ مَحَبَّتَهُ، وَبَيَّنَّ طَرِيقَ الْوَصُولِ إِلَيْهَا، وَأَنَّ الدَّلِيلَ وَالْبُرْهَانَ عَلَى مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ هُوَ طَاعَةُ سَيِّدٍ وَلَدٍ عَدَنَانِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه الآية يُسَمِّيها بعضُ السَّلَفِ «آيةَ المِحنة» -أي: الاختبار والامتحان- وذلك أَنَّ قَوْمًا ادَّعَوْا مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِهَذَا الْمِيزَانِ، فَقَالَ:

﴿قُلْ﴾ لهم -يا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ صِدْقًا، وَلَيْسَ بِمَجْرَدِ دَعْوَى، وَتَرِيدُونَ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ؛ ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ عَقِيدَةً، وَقَوْلًا، وَفِعْلًا وَتَرْكًا، وَاقْتَدُوا بِي، بِامْتِثَالِ مَا أَوْحَى إِلَيَّ. فَإِنْ فَعَلْتُمْ؛ ﴿يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾.

قال الحسن البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: «زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ؛ فَابْتَلاَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾»^(١).

ومَحَبَّةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ أَعْظَمُ مِنْ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ اللَّهُ؛ وَلَكِنَّ الشَّأْنَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ»^(٢).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وهذه الفائدة الثانية لِلاتِّبَاعِ؛ فَيَتَجَاوَزُ اللَّهُ عَمَّا فَرَّطْتُمْ فِيهِ، وَيَمْحُو الذُّنُوبَ، وَيُسِّرُ لَكُمْ أَسْبَابَ الْمَغْفِرَةِ. وَ(الذَّنْبُ): هُوَ الْمَعْصِيَةُ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: بِالْغِ الْمَغْفِرَةِ؛ لِكثْرَةِ الْمَغْفُورِ لَهُمْ وَكثْرَةِ الذُّنُوبِ الْمَغْفُورَةِ. فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَسْتُرُ الذَّنْبَ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُ، وَيَمْحُو أَثَرَهُ. ﴿رَحِيمٌ﴾ بِمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ، بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَجَمَعَ لَهُمُ بَيْنَ الْوَقَايَةِ وَالْعِنَايَةِ.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(٢) روضة المحيين لابن القيم (ص ٢٦٦).

وفي هذه الآية من القوائد:

أنَّ المحبة لله علامة، ونتيجة وثمره؛ فحبُّ المؤمنين لله يكون باتباع أمره، واتباع رسوله، وإيثار طاعته، وابتغاء مرضاته.

وفيها: ابتلاء الله لعباده، وامتحانهم بهذا الميزان؛ ليظهر المحبُّ الصادق من المحبِّ المُدَّعي.

وفيها: أنَّ الدعوى وحدها لا تكفي؛ بل لا بُدَّ من إقامة البيِّنة على صحتها؛ فقد ادَّعى اليهود أنَّهم أحبابُ الله، ويدَّعي كثيرٌ من الناس أنَّهم يُحِبُّون الله؛ فكان الاتِّباع ميزاناً حاكماً في صحَّة هذه الدعاوى.

وفيها: عَرَضُ حال مَنْ يدَّعي ولاية الله على هذا الميزان.

وفيها: وجوب اتِّباع النبي ﷺ، بلا زيادة ولا نقصان، وأنَّ هذا يشمل أعمال القلب والجوارح.

وفيها: بيان طريق نيل محبة الله.

وفيها: كَرَمُ الله تعالى؛ فإنَّه يُقَابِلُ المحبة الصادقة بمحبةٍ أعلى، وزيادة - وهي مغفرة الذُّنوب -.

وفيها: أنَّ حَسَنَةَ الاتِّباع عظيمة؛ فهي تمحو الذنب، وتوجب عدم العقوبة.

وفيها: جواز مُحَاطَبَةِ المدَّعي بالتحدي، وطلب تقديم الدليل والبرهان.

وفيها: ادِّعاء الكفار محبة الرحمن، والرَّدُّ عليهم. وقد قيل: إنَّ المخاطبين بهذه الآية هم اليهود والنصارى، أو المنافقون، لكن العبرة بعموم اللَّفْظ؛ فهي لكلُّ مُدَّعٍ للمحبة.

وفيها: أنَّه كلُّما اشتدَّ اتِّباع العبد للنبي ﷺ؛ اشتدَّت محبة الله له.

وفيها: إثبات صفة (المحبة) لله عَزَّوَجَلَّ، على الوجه اللَّائِقُ به.

وفيها: أنَّ الجزاء من جنس العمل.

وفيها: إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، وأَنَّها تكون من الخالق ومن المخلوق، خلافاً لمن أثبتتها من جانب العبد وحده.

وفيها: أَنَّ الصَّادِقَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ، يَكُونُ مَهْدِيًّا مُسَدِّدًا، مُتَّبِعًا لِلسُّنَّةِ، ذَا قَبُولٍ فِي الْأَرْضِ.
 وفيها: تَعْظِيمُ شَأْنِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالْحِرْصُ عَلَى اتِّبَاعِهَا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ.
 وفيها: تَقْدِيمُ السُّنَّةِ عَلَى كَلَامِ كُلِّ أَحَدٍ.
 وفيها: الِارْتِقَاءُ بِالنَّفْسِ مِنْ مَسْتَوَى التَّقْلِيدِ إِلَى اتِّبَاعِ الدَّلِيلِ، لَكِنَّ هَذَا لِلْمَتَأَهِّلِينَ، بِضَوَائِطِهِ.

وفيها: رَدُّ الْأَعْمَالِ الْمَخَالِفَةِ لِمَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
 وفيها: الْإِشَارَةُ إِلَى شَرْطِي قَبُولِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ وَهُمَا: الْإِخْلَاصُ وَالِاتِّبَاعُ، وَالتَّزَامُ الْهَدْيِ النَّبَوِيِّ فِي طَرِيقَةِ الْعَمَلِ. فَالْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.
 وفيها: تَفَاوُتُ الْعِبَادِ فِي الْإِتِّبَاعِ وَالْمَحَبَّةِ.
 وفيها: أَنَّهُ كُلَّمَا زَادَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ زَادَ اتِّبَاعُهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَازْدَادَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُ.
 وفيها: التَّسْلِيمُ وَتَرْكُ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.
 ومُضْمُونُ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْكُلِّيَّةِ وَالْأُسُسِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي يَنْبَغِي الْبَدْءُ بِهَا فِي دَعْوَةِ النَّاسِ، وَتَرْبِيَّتِهِمْ عَلَيْهَا.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٣):

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ الْإِتِّبَاعَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالطَّاعَةِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
 ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ﴿وَالرَّسُولَ﴾: بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَالتَّزَامِ هَدْيِهِ. وَ(الطَّاعَةُ) هِيَ: الْإِنْقِيَادُ وَالْمُوَافَقَةُ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: أَعْرَضُوا، وَخَالَفُوا أَمْرَكَ؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، وَلَا يَرْضَى فِعْلَهُمْ، وَيَسْخَطُ عَلَيْهِمْ. وَهَذَا (الْكُفْرُ) قَدْ يَكُونُ كُفْرًا أَكْبَرَ، مَخْرَجًا مِنَ الْمِلَّةِ؛ إِذَا كَانَ التَّوَلَّى وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الطَّاعَةِ كَامِلًا. وَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا أَصْغَرَ، لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ؛ إِذَا كَانَ الْإِعْرَاضُ وَالْمَعْصِيَةُ وَمُخَالَفَةُ الطَّاعَةِ فِي أُمُورٍ دُونَ أُخْرَى، مَعَ بَقَاءِ أَصْلِ الْإِيمَانِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخلَةٌ في طاعة الله.

وفيها: أن طاعة الله واجبة، وهي دليل على المحبة.

وفيها: أن من إعظام الله وإجلاله: إيثار طاعته، وأتباع أوامره، واجتناب نواهيه.

وفيها: الرُّدُّ على مَنْ زعم العمل بالقرآن وحده دون السُّنَّة، وبيان ضلال الذين يُسمُّون أنفسهم بـ (القرآنيين)، ويُنكرون السُّنَّة، ولو كانوا صادقين في اتباع القرآن لا تُبِعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذوا بسُنَّتِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا مَأْمُورٌ بِهِ وَمَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآن!

بل قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «نظرتُ في المصحف، فوجدتُ فيه طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة وثلاثين موضعاً»^(١).

وفيها: أن طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هي لكونه رسولاً من عند الله، لا لمجرد صدقه وبشريته.

وفيها: وجوب طاعة الله ورسوله، وعموم الطاعة في جميع الأمور؛ فالآية عامّة، لم تذكر مجالاً للطاعة دون آخر.

وفيها: إظهار في موضع الإضمار؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُمْ»؛ وَإِنَّمَا صَرَّحَ بِتَسْمِيَتِهِمْ فَقَالَ: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، وفي هذا فوائد:

منها: مراعاة فواصل الآيات.

وبيان حكم هؤلاء، وأنهم كفار.

وتعميم الحكم على غيرهم؛ وهو أن محبة الله مُنتَفِية عن كل كافر.

وتعليل الحكم، ببيان أن عدم محبة الله لهم إنما نشأت عن كفرهم.

وليتبين - بالمفهوم - أن الله تعالى يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ، وأن محبته مخصوصة بهم.

(١) الإبانة الكبرى لابن بطّة (١/ ٢٦٠).

وفي الآية: التحذير من تقديس الأشخاص والعلماء، والغلو فيهم، وتقليدهم في كل ما يقولونه؛ لأنهم غير معصومين، وأنَّ مَنْ قَلَّدَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ ففِي طَاعَتِهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ نَقْصٌ.

وهذه الآية أيضًا من القواعد الأساسية والأمور الكلية، التي ينبغي البدء بها في دعوة الناس.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

ولما ذكر الله تعالى دين الحق، واختلاف أهل الكتاب، ووجوب طاعة الله وأتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، وكان سياق الآيات في دعوة وفد نصارى نجران؛ ذكر الله عز وجل نفرًا من الذين أحبهم واصطفاهم ورفع درجاتهم؛ فبدأ بأبرز مَنْ فِي نَسَبِ عِيسَى وَأُمِّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ -وهم ثلاثة كبار-؛ فقال عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿آدَمَ﴾، بأن خلقه بيده، وأسجد له ملائكته. واصطفاه تابعًا لمشيئته. و(آدم): هو أبو البشر، علّمه الله أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة أولًا، وجعله نبيًا.

﴿وَنُوحًا﴾ وهو الأصل الثاني، والأب الثاني للبشرية، اختاره الله واصطفاه، وفضّله بالنبوة والرّسالة؛ فهو أول رُسُل الله إلى أهل الأرض، وجعل الله ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ بَعْدَ الطُّوفَانِ.

﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ومنهم: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط. وعلى رأس آل إبراهيم: إبراهيم نفسه عليه السلام؛ فاصطفاه الله بأن جعله نبيًا رسولًا، وجعله خليله من أهل الأرض، وجعل النبوة من بعده في ذُرِّيَّتِهِ وَحَدَّهِمْ، ومنهم: آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ يعني: أهله. و(عمران): هو والد مريم أم عيسى عليهما السلام.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني: في زمانهم. و(العالم) يشمل كل مَنْ سِوَى اللَّهِ عز وجل.

﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني: في الخلقة، ومُتَنَاسِلُونَ من بعضهم في النَّسَب، ومُتَجَانِسُونَ في الدِّين والتَّقَى والصَّلاح.

وَصَحَّ عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ قال في تفسِير هذه الآية: «في النِّية، والعمل، والإخلاص والتوحيد له»^(١).

و(الذُّرِّيَّة) مأخوذة من «ذَرَأَ» بمعنى: خلق. وعلى هذا فهي تشمل الأصول والفروع؛ لأنَّ الكلَّ مخلوق.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

وفي الآيتين من الفوائد:

أَنَّ من أفعال الله تعالى: الاصطفاء والاختيار؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: ٦٨].

وفيها: أَنَّ البشر جنس واحد.

وفيها: الرَّدُّ على مَنْ زعم أَنَّ البشر متطوِّرون من جنس آخر، كالقِرَدَة أو فصيلة الثدييات؛ فالآية صريحة في أَنَّ أولئك المصطفين الأخيار بعضهم من نَسْل بعض؛ فهم مُتَّصِلو النَّسَب؛ فنوح من ذُرِّيَّة آدم، وأل إبراهيم من ذُرِّيَّة نوح، وآل عمران من ذُرِّيَّة آل إبراهيم؛ فهم جميعاً سُلْسِلَة مُتَّصِلَة الحَلَقَات في النَّسَب والخصال الحميدة، وهم جنس واحد، غير متطوِّر ولا متحوِّل من غيره.

وفيها: أَنَّ الاصطفاء نعمة من الله، ينبغي شكرها. فالمسلم الحقُّ المستقيمُ يحمَد رَبَّهُ أن جعله حيًّا لا جمادًا، وإنسانًا لا بهيمة، وجعله مسلمًا لا كافرًا، وجعله من أهل السُّنَّة لا من أهل البدعة، وجعله مستقيمًا على طاعته غيرَ منحرفٍ بالمعصية والفُسوق، وإذا كان يدعو إلى الله على بصيرة؛ فيحمَد رَبَّهُ أن جعله صاحبَ عِلْمٍ وليس جاهلًا، وجعله داعيةً إلى الله غيرَ قاعِدٍ ولا متكاسِلٍ.

(١) تفسير الطبري (٦/٣٢٨).

وفي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: موعظة للنصارى، بأن الله يسمع قولهم بأن المسيح ابنه - تعالى الله عن ذلك - وأنه عليم بعقوبتهم على باطلهم.

وفيها: ذكر أصفياء الله؛ لتتبعهم، ونقتدي بهديهم.

وفيها: ردُّ على النصارى، الذين يزعمون ألوهية المسيح، وأنه ابن الله، وليس من البشر؛ فبين الله عزَّ وجلَّ أن جدَّ عيسى عليه السلام هو عمران، وهو من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي هو من نسل نوح عليه السلام، وكلُّهم من نسل أبي البشر وأصلهم - وهو آدم عليه السلام -.

وفيها: أن الله يعلم من يستحقُّ الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته سبحانه.

وفيها: فضل تنشئة المسلم لأهل بيته على الدين والتقوى والصلاح، وأنه سبب لثناء الله عليهم، واصطفائهم على غيرهم.

قال قتادة رحمه الله في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالِ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: «ذكر الله أهل بيتين صالحين، ورَجُلَيْنِ صالحين، ففضلهم على العالمين؛ فكان محمد صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم»^(١).

وفيها: أن الاصطفاء ليس خاصاً بالنبوة؛ فإن الله عزَّ وجلَّ يصطفى الصالحين والأخيار والأبرار، ويكون هذا سبباً لوراثتهم العلم، وجعل الخير والبركة فيهم؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْفَيْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ومنهم العلماء.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٥):

ولما كان أول هذه السورة للردِّ على النصارى، وبيان الحق في عيسى عليه السلام؛ بين الله عزَّ وجلَّ مبدأ أمر عيسى، وقصة ولادته، ونسبه، وذكر خبر جدِّه وجدته؛ فقال عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي: واذكر - يا محمد صلى الله عليه وسلم - هؤلاء النصارى وغيرهم،

(١) تفسير الطبري (٣٢٦/٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٦٣٥/٢).

قِصَّةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ - وَهِيَ أُمُّ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانَتْ لَا تَحْمِلُ، فَاشْتَهَتْ الْوَلَدَ، فَدَعَتْ رَبَّهَا أَنْ يَرْزُقَهَا إِيَّاهُ، وَنَذَرَتْ إِنْ وَلَدَتْهُ أَنْ تَهْبَهُ لَخِدْمَةِ مَسْجِدِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَتَوَقَّفَهُ عَلَى خِدْمَتِهِ. وَكَانَ نَذْرُ الذُّكُورِ مِنَ الْأَوْلَادِ لَخِدْمَةِ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَمَلَةِ عِبَادَاتِهِمْ، وَكَانَ مَفْرُوضًا عَلَى الْأَوْلَادِ طَاعَةُ آبَائِهِمْ فِي هَذِهِ النُّذُورِ.

لَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَحْمِلَ بِابْنَتِهَا مَرْيَمَ، وَكَانَتْ تَتَمَنَّى الْوَلَدَ الذَّكَرَ.

فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أَي: التَّزَمْتُ، وَأَوْجِبْتُ عَلَى نَفْسِي ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ مِنَ الْوَلَدِ - أَيَا كَانَ - ﴿مُعَرَّرًا﴾ أَي: عَتِيقًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، خَالصًا لَطَاعَتِكَ، وَمَفْرَعًا لَخِدْمَةِ بَيْتِكَ. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ نَذْرِي وَقُرْبَتِي. وَ(الْقَبُولُ): هُوَ التَّلَقُّي عَلَى وَجْهِ الرِّضَا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لِدُعَائِي، فَتَسْتَجِيبُهُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِنَيْتِي وَمَا فِي قَلْبِي.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

تَعْظِيمُ أَمْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَيِّنَهَا لِلنَّاسِ.

وَفِيهَا: جَوَازُ النَّذْرِ بِمَا فِي الْبَطْنِ - وَإِنْ كَانَ مَجْهُولًا - فَلَوْ قَالَ: «اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمَا فِي بَطْنِ نَاقَتِي»؛ لَزِمَهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ، سِوَاءَ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنَ الْآيَةِ: جَوَازُ تَصَدُّقِ الْمَرْأَةِ بِدُونِ إِذْنِ زَوْجِهَا.

وَفِيهَا: أَنَّ الْوَلَدَ يَخْدُمُ أُمَّهُ وَأَبَاهُ؛ لِأَنَّهَا نَذَرَتْهُ مُحَرَّرًا، بِمَعْنَى: أَنَّهَا لَا تَسْتَخْدِمُهُ فِي خِدْمَةِ نَفْسِهَا وَلَا غَيْرِهَا؛ وَإِنَّمَا تَجْعَلُهُ مَوْقُوفًا عَلَى خِدْمَةِ مَسْجِدِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ.

وَفِيهَا: الدُّعَاءُ بِقَبُولِ الْعَمَلِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ طَرْدِ الْعُجْبِ مِنَ النَّفْسِ.

وَفِيهَا: تَفْرِيعُ النَّفْسِ لِلْعِبَادَةِ.

وَفِيهَا: أَنَّهُ كَانَ مِنْ عِبَادَاتِ مَنْ سَبَقْنَا: الْإِعْتِكَافُ - أَوِ الْعُكُوفُ - عَلَى خِدْمَةِ الْمَسَاجِدِ.

وَفِيهَا: فَضْلُ مَسْجِدِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْذُرُونَ أَوْلَادَهُمْ لَخِدْمَتِهِ.

وَفِيهَا: اخْتِيَارُ مَا يُنَاسِبُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، لِلتَّوَسُّلِ بِهِ فِي الدُّعَاءِ.

وفيها: تخلص العباد من شوائب الدنيا.

وفيها: قَصُرَ بعض ما يَمْلِكُهُ الإنسان على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا قريبٌ من معنى (الوقف).

وفيها: فضيلة ظاهرة للمرأة الصالحة امرأة عمران (وكان رجلاً صالحاً)؛ فإنَّها أثَّرت خدمة بيت الله على حاجة نفسها، وكانت حَسَنَةَ الظَّنِّ برَّبِّها.

وفيها: توجيه الولد لطاعة الله من أول أمره، وحادثةِ سِنِّه.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣١ ﴾:

ولمَّا لم تكن امرأة عمران تَعْلَمُ جنس الجنين الذي في بطنها - وكانت قد نذرت ذلك النذر -؛ فَوَجِثَتْ عند ولادتها بأنَّ المولود أنثى.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ وولدت المندور؛ ﴿ قَالَتْ ﴾ متَحَسِّرَةً، معتذرة إلى ربِّها - لأجلِ عدم استطاعتها الوفاء بالنذر -: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾؛ لأنَّ النذر لخدمة المساجد كان قاصراً على الأولاد الذكور.

قوله ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ أي: أعلم بالذي ولدته، وأعلم بذلك من كلِّ أحد، وأنَّه سيجعل من ابنتها هذه أفضل نساء زمانها، وسيجعل منها ومن ابنتها آيةً للعالمين.

وقرأ ابنُ عامرٍ وغيره - وهي قراءة صحيحة -: (والله أعلمُ بما وضعتُ) - برفع التاء - فيكون هذا من تمام كلام امرأة عمران، ويكون هذا منها من باب كمالِ الأدب؛ احترازاً من أن يُظَنَّ بقولها ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ أنَّها تخبر ربَّها عمَّا لا يَعْلَمُ؛ فيكون التقدير: «إني وضعتها أنثى، والله أعلمُ بما وضعتُ؛ فلست أخبرُ الله بأمرٍ يخفى عليه؛ بل هو سبحانه أعلمُ مِنِّي بما وضعتُ».

قوله ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ يعني: فلا تماثل بينهما ولا مساواة؛ بل لكلٍّ منهما ميزاته وخصائصه.

والنذر لخدمة المساجد يقع على الذكور؛ لأن الذكر أقوى، وأدوم في العمل، وأكثر جلدًا في العبادة، والأنثى إذا حاضت لا تستطيع أن تخدم في المسجد؛ فليس الذكر كالأنثى.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «كانت المرأة لا يُستطاع أن يُصنع بها ذلك، يعني: أن تحرر للكنيسة، فتجعل فيها، تقوم عليها وتكنسها، فلا تبرحها؛ مما يصيبها من الحيض والأذى؛ فعند ذلك قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾»^(١).

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: اختارت لها هذا الاسم، وسَمَّتها به يوم ولادتها، وهو اسم أعجمي، وقد يكون مشهورًا عندهم. قيل في معناه: العابدة، أو الخادمة، أو الجارية.

قوله تعالى ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا﴾ أي: أجيئها وأولادها، بحفظك وعصمتك. و(الاستعاذة): الالتجاء والاعتصام.

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وهو: إبليس، أبو الجن، اللعين، وهو مشتق من «شطن» إذا بعُد؛ لأنه بعيد مطرود من رحمة الله؛ فهو ﴿الرَّجِيمُ﴾ أي: المرجوم المطرود.

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران؛ ففي الحديث: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢).

وفي حديث آخر: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ بِإِصْبَعِهِ، حِينَ يُوَلَّدُ، غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ، فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ»^(٣)، و(الحجاب) هو «المشيمة»، التي يكون فيها الولد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم حق الأم، وكبير فضلها، ووجوب برّها والإحسان إليها؛ لأنها تحمل ولدها في بطنها تسعة أشهر، قاعدة وقائمة، مستيقظة ونائمة، وعلى جميع أحوالها، يصحبها

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٨٦).

حيث كانت، وتتكلف هذا الحمل وتُعاني فيه حتى تضعه؛ كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَضَعَهَا﴾.

وفيها: اعتذار الإنسان لربه، إذا وقع الأمر على خلاف ما أَرَادَه من الطاعة والقربة، كما اعتذرت امرأة عمران لربها.

وفيها: احتراز الإنسان عما يُمكن أن يُوهمه كلامه من المعاني الباطلة.

وفيها: إثبات الفروق العظيمة بين الذكور والإناث، وأن هذين الجنسين لا يستويان، لا في الطبيعة، ولا في الجِسم والخلق، ولا في الفضل والقدرة، ولا في العاطفة والتحمل. ففيها ردٌّ على دُعاة المساواة بين الجنسين، وتولية المرأة وظائف الرجال!

وفيها: أن الرجال هم الأنسب والأفضل لخدمة المساجد.

وفيها: تسمية المولود في يوم ولادته، وقد قال النبي ﷺ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غَلامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»^(١)، وسمَّى النبي ﷺ أخا أنس بن مالك من أمه (عبد الله) بعد ولادته^(٢)، وهو: عبد الله بن أبي طلحة.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «السنة: أن يُسمَّى المولودُ في اليوم السابع من ولادته، أو يوم الولادة»^(٣).

وفيها: تعويد الإنسان أولاده بالله العظيم، من الشيطان الرجيم، ومن شرِّ الخلق.

وفيها: جواز الدُّعاء للمعدوم من الأولاد -الذي لم يُولد بعد-؛ لقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ومعلوم أن ذُرِّيَّةَ مريم لم تكن موجودة عند الدُّعاء لها.

وفيها: أن دعاء الوالدين الصالحين ينفع الولد، ولو كان لا يَعْقِل.

وفيها: التفاؤل، وحُسن الظنِّ بالله تعالى، بالدُّعاء لذُرِّيَّةِ الولد، بالسلامة واستمرار الحياة؛ لِيُنْجِبَ وَيَكُونَ لَهُ أَحْفَادٌ. وفيه تفاؤل وحُسن ظنٍّ لا يَخْفَى.

(١) رواه مسلم (٢٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

(٣) الأذكار (ص ٢٨٦).

وفيها: أَنَّ تسلُّطَ الشَّيْطَانِ عَلَى المولود قوِيٌّ؛ فينبغي الإكثار له من الدُّعاء. وقد قيل: إِنَّ العقيقة من أسباب فكِّ تسلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى المولود؛ فالله أعلم.

وفيها: جواز تسمية الأمِّ للمولود، بشرط موافقة الأب.

وفي قوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾: دليلٌ على عِظَمِ شأنِ المولودة مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وعلوّ منزلتها، وأنها وإن لم تصلح للسّدانة وخدمة المسجد؛ فإنَّ في طاعتها وعبادتها وسبْقها إلى الله ما يُعَوِّضُ عن ذلك.

وفي الحديث: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الحديث^(١).

وفي الآية: التسليم لقَدَرِ الله، إذا جاءت النتيجة على غير ما يتمنى العبد، وهذا على قراءة (بها وضعت).

وفيها: أَنَّ عَلَى العبد أَنْ يُسَلِّمَ بَأْنَ ما قضاه الله له خيرٌ ممَّا كان يتمنى وقوعه.

وفيها: فضيلة لمريمَ وابنها عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في حفظهما من طَعْنِ الشَّيْطَانِ عند الولادة.

وفيها: جواز اختصاص المفضول بخصائص لا ينهاها الفاضل؛ فمريمَ وابنها عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عُصَمَاءُ من طعن الشَّيْطَانِ عند الولادة، ولا يعني هذا أَنَّ مَنْ طعنه الشَّيْطَانُ عند ولادته - من الأنبياء - أقلُّ درجةً أو فيه نقصٌ، أو أَنَّ هذا يُنافي عِصْمَتَهُ؛ بل الأنبياء معصومون من إغواء الشَّيْطَانِ لا من إيذائه، وإيذاؤه من جنس الأمراض والآلام والمصائب التي لا يخلو منها بشرٌ.

وفي الآية: مشروعية نذر البرِّ والطاعة المجرّد - بلا اشتراط، أو تعليقه على حصول شيء -، وأمّا نذر المُعَاوَضَةِ - بتعليق الطاعة على حصول شيء أو دَفْعِهِ، بحيث لو لم يحصل هذا الشيء لم يُقَمْ بالطاعة -؛ فمكروه، وعليه تُحمَلُ النصوص الواردة في النهي عن النذر.

وفيها: التفاؤل بتسمية المولود باسم حَسَنٍ، لَعَمَلٍ يَعْمَلُهُ يكون مُطَابِقًا لمعنى اسمه.

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

﴿فَنَقَّبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْصَرِمُ أَفْنَى لِّلسِّ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

ثم ذكر تعالى استجابته لدعاء امرأة عمران؛ فقال: ﴿فَنَقَّبَلَهَا رَبُّهَا﴾ أي: قَبِلَ النَّذْرَ، ورضي أن تكون مريم محررة للعبادة، وخدمة بيته - على صغرها وأنوثتها - و(التقبُّل) أبلغ من (القبول)؛ فيدلُّ على مزيد من الرعاية والعناية. ﴿يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ أي: يسرها لليسرى، وسهل لها أمرها، وحبَّب إليها الخير.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني: مريم عليها السلام. فأنبتها الله تعالى نباتًا حسنًا، فسوى خلقها وجسدها من غير زيادة ولا نقصان، حتى تمت وصارت امرأة بالغة تامة، وجعل شكلها مليحًا، وجملها بكمال الأدب والأخلاق، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم الخير والعلم والدين.

ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعله كافيًا لها؛ لأنَّها كانت يتيمة، وضمَّها إليه بعد القرعة، فكان مربِّيًّا لها، وقائمًا على شؤونها، وكانت تقتبس منه علمًا جمًّا، وعملاً صالحًا. و(زكريا) عليه السلام من أنبياء الله، من ذُرِّيَّةِ سليمان بن داود عليهما السلام.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ في أيِّ وقت ﴿وَالْمِحْرَابُ﴾ وهو مكان العبادة - أيًا كان شكله - سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ المتعبِّد فيه يُحَارِبُ الشَّيْطَانَ. ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾: طعامًا، لقيام بدنِّها، يُعينها على العبادة. فقيل: كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

قال مجاهد رحمه الله: «عنبًا وجدَّه زكريا عند مريم في غير زمانه»^(١).

وأيًا كان الأمر؛ فوجود طعام - من أيِّ نوع - عند امرأة مُنْقَطِعة للعبادة، لا تكتسب؛ هو كرامة لها.

﴿قَالَ زَكَرِيَّا﴾: ﴿يَنْصَرِمُ أَفْنَى لِّلسِّ هَذَا﴾ يعني: من أين لك هذا الرِّزْق، وكيف يُمَيِّتُك والأبواب مُغلقة عليك؟!

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٥٥)، تفسير ابن المنذر (١/ ١٨٢).

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، لا من عند غيره، يأتي به الرزاق ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الرزق): هو العطاء، وقد يكون رزقاً للبدن، أو رزقاً للروح والقلب. ﴿يَغْنِيْهِ حِسَابُ﴾ أي: يرزق رزقاً كثيراً وفيراً، لغير سبب معلوم، ومن غير مكافأة ولا استحقاق، ورُبما بغير مسألة؛ تفضلاً منه ومنته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات كرامات الأولياء، وأن الله عَزَّجَلَّ قد يَخْرِقُ العادة لبعض أوليائه؛ تثبيتاً لهم، وترغيباً للناس في مثل حالهم.

والفرق بين كرامات الأولياء الإلهية وخوارق السحرة والدجالين الشيطانية، هو حال صاحب كل منهما؛ فقد وصف الله الأولياء بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ [يونس: ٦٢-٦٣].

والضابط في هذا: أن يُعَرَضَ هذا الخارق على الكتاب والسنة، فإن لم يكن مخالفاً لهما، وتوفرت فيه شروط الكرامة - كصلاح صاحبها، وعدم استعانتة بهذا الخارق في المعصية أو ترك واجب، وغير ذلك -؛ كانت كرامة، وإلا، فهو تلبيس من الشيطان الرجيم.

وفيها: أن صلاح الراعي وحسن دُعائه، له أثرٌ في درجة الاستجابة وحسن القبول.

وفيها: أن بركة البنت الصالحة قد تفوق كثيراً من الذكور، وأن البنت قد تكون أصلح لوالديها من كل أبنائهما.

وفيها: أهمية تنشئة الأولاد على طاعة الله.

وفيها: أهمية اقتران الولد بمربٍّ صالح، يعتني به ويتعاهدُه، ويُعَلِّمُه ويؤدِّبُه، ويكون قدوةً صالحةً له.

وفيها: أن مصاحبة الأخيار والصالحين من الصُّغَر، تؤدِّي إلى غرس معاني التوحيد والأخلاق الفاضلة في النفس.

وفيها: أهمية التربية بالافتداء.

وفيها: فَضْلُ كَفَالَةِ الْيَتَامِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى النِّفْقَةِ الْمَالِيَّةِ؛ بَلْ يَتَعَدَّاهَا إِلَى مَا هُوَ أَهَمُّ، وَهُوَ التَّرْبِيَّةُ وَالتَّعْلِيمُ.

وفيها: فَضْلُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سَابَقَ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَسَارَعَ؛ حِرْصًا عَلَى كَفَالَةِ الْيَتِيمَةِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذَا الْبَيْتِ الْمُبَارَكِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفيها: أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَرْزُقُ بِغَيْرِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ، وَعَلَى خِلَافِ مَا يَتَوَقَّعُهُ الْعِبَادُ.

وفيها: اسْتِحْبَابُ تَخْصِصِ مَكَانٍ ظَاهِرٍ طَيِّبٍ لِلْعِبَادَةِ، وَالْخُلُوعَ بِالرَّبِّ تَعَالَى.

وفيها: أَنَّ الْعِبَادَةَ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لَجَلْبِ الرِّزْقِ.

وفيها: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَرْيَمَ، بِالرِّزْقِ الْمُسْتَمِرِّ وَالْعَطَاءِ الْوَاسِعِ.

وفيها: جَوَازُ إِظْهَارِ التَّعَجُّبِ لِحَالِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكَرَامَاتِهِمْ.

وفيها: حُسْنُ اعْتِقَادِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ نَسَبَتْ الرِّزْقَ إِلَيْهِ.

وفيها: أَنَّ الرِّزْقَ تَبَعَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَبَعَ لِحِكْمَتِهِ.

وفيها: أَنَّ صِلَاحَ الْأَبْوَيْنِ سَبَبٌ لِحِفْظِ الْأَوْلَادِ وَرِزْقِهِمْ.

وفيها: اعْتِنَاءُ الْأَخْيَارِ بِأَوْلَادِ الْأَخْيَارِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ تَوَلَّى كَفَالَةَ يَتِيمٍ أَوْ ضَعِيفٍ - كَالْمَرْأَةِ -؛ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَقَّده وَيَصُونَهُ بِاسْتِمْرَارٍ، مَعَ مُرَاعَاةِ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ.

وفيها: أَنَّ النُّمُوَّ الْحَسَنَ لِلطُّفْلِ فِي بَدَنِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَيَجِبُ عَلَى الْوَالِدَيْنِ الْأَخْذَ بِأَسْبَابِهَا، وَوَقَايَةَ الطُّفْلِ مِمَّا يَضُرُّهُ.

وفيها: أَنَّ النَّبَاتَ الْحَسَنَ فِي الدِّينِ وَالْخُلُقِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَيَجِبُ عَلَى الْأَبْوَيْنِ - أَوْ مَنْ يَكْفُلُ الطُّفْلَ - بِذَلِكَ الْأَسْبَابِ لِعَرْسِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ.

وفيها: أَنَّ التَّرْبِيَّةَ الصَّالِحَةَ لِلصَّغِيرِ تَقْوُدُ - فِي الْعَادَةِ - إِلَى جَعْلِهِ طَائِعًا لِلَّهِ؛ فَقَدْ صَارَتْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مِنَ الْعَابِدَاتِ الْقَانِتَاتِ، بِفَضْلِ حُسْنِ تَرْبِيَّتِهَا وَهِيَ صَغِيرَةٌ.

وفيها: أَنَّ لِكُلِّ صَعْفٍ لُطْفًا، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ عِبَادَهُ.

وفيها: الاعتراف للمُنْعِمِ بالنعمة، ونسبُها إليه، وَرَدُّ الْفَضْلِ لِأَهْلِهِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِ مَرْيَمَ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

وفيها: عدم احتقار البنات، والاستهانة بهنَّ؛ فَقَدْ يَوْجَدُ مِنْهُنَّ مَنْ تَكُونُ قُدْوَةً لِلنَّاسِ. وفيها: أَنَّ تَسْخِيرَ اللَّهِ لِلرِّزْقِ، لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ بِتَزْوِيلٍ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ بِإِتْيَانِ الْمَلَائِكَةِ بِهِ؛ بَلْ قَدْ يَخْلُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَكَانِهِ.

وفيها: أَنَّ تَوْحِيدَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَحُسْنَ عِبَادَتِهِ لَهُ؛ يَكُونُ سَبَبًا فِي اسْتِغْنَائِهِ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ، وَعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ.

وفيها: أَنَّ رِعَايَةَ اللَّهِ لِلْمَكْفُولِ، أَعْظَمُ مِنْ رِعَايَةِ كَفِيلِهِ لَهُ.

وفيها: جَوَازُ اخْتِصَاصِ الْمَفْضُولِ بِخَصَائِصٍ لَا يَنَالُهَا الْفَاضِلُ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يُخَصُّ الْأَدْنَى بِفَضِيلَةٍ لَا يُعْطِيهَا لِمَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، مَعَ اخْتِصَاصِ الْفَاضِلِ بِفَضَائِلٍ أَكْثَرَ غَيْرِهَا، كَمَا حَصَلَ مَعَ مَرْيَمَ - وَهِيَ صِدِّيقَةٌ - مُقَارَنَةً بِحَالِ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ نَبِيٌّ - مَعَ الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ مَعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨):

فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ تِلْكَ الْكِرَامَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي حَصَلَتْ لِمَرْيَمَ بِدُونِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ، وَخِلَافًا لِلْمَتَوَقَّعِ؛ طَمَعَ - وَهُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ فِي السَّنِّ - أَنْ يُوَلَّدَ لَهُ وَلَدٌ، وَكَانَ قَدْ أَيْسَ مِنَ الْوَلَدِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أَي: فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَفِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ﴿دَعَا﴾ وَطَلَبَ وَسَأَلَ ﴿زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ بِنِدَاءٍ خَفِيِّ، قِيلَ: فِي جَوْفِ اللَّيْلِ.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي﴾: أَعْطِنِي. وَ(الْهِبَةُ) هِيَ إِحْسَانٌ بِلَا مُقَابِلٍ، وَتَبَرُّعٌ يُقْصَدُ بِهِ مَجَرَّدُ انْتِفَاعٍ الْمَوْهُوبِ لَهُ ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: مَبَارَكَةً، نَقِيَّةً، صَالِحَةً. وَ(الذُّرِّيَّةُ) تُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ، وَالذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، وَهِيَ بِمَعْنَى «مَذْرُوءَةٌ» أَي: مَخْلُوقَةٌ. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أَي: تُجِيبُ سَائِلِيكَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن ظنِّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَبِّهِ.

وفيها: أنَّ رؤية المؤمن لِنِعَمِ الله على الآخرين، تدفعه إلى سؤال ما يحتاجه هو؛ فإنَّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى إتيان الرِّزْق لمريم على وَجْهِ غير معتاد؛ طَمِعَ أن يكون له ولدٌ في حالٍ غير معتاد؛ فقد كان شيخًا كبيرًا، وامرأته عاقراً لا تَلِدُ.

وفيها: أنَّ انغلاق أبواب الدُّنيا لا يَمْنَعُ العبد من سؤال الله حصولَ المقصود.

وفيها: أنَّه ليس من الاعتداء في الدُّعاء سؤال ما لا يحصل عادةً، إذا كان جائزاً شرعاً.

وفيها: أنَّ الله يُعْطِي العباد بلا مقابل.

وفيها: سؤال الله الذُّرِّيَّةَ الصَّالحة -بدناً ودينًا-.

وفيها: خَتَمَ الدُّعاء بما يُناسِبُ من صفات الله.

وفيها: أنَّه ينبغي تقييد الدُّعاء بهبة الولد من الله، بأن يكون طيباً؛ لأنَّ الولد يمكن أن يصير نكداً وفتنةً لو الده؛ كما في قصَّة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَّةُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

وفيها: أنَّ الدُّعاء من أعظم أسباب صلاح الذُّرِّيَّة.

وفيها: أنَّ الذُّرِّيَّةَ الطَّيِّبَةَ سبَبٌ لحصول خير الدُّنيا والآخرة.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣١):

ثم ذكر الله تعالى سرعة إجابته لدُّعاء عبده زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو: جمعاً من الملائكة ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾ أي: في حال قيامه في صلاته، وقيل: المراد بـ«الصَّلَاة» هنا: الدُّعاء ﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾ وهو مكانُ عبادته، ومحلُّ خلوته، ومجلسُ مناجاته وصلاته.

فنادته الملائكة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بولادة ولد. و(البشارة): الإخبار بها يسرًا. سُميت بذلك؛ بسبب تغير البشارة عند سماعها، فيظهر عليها الفرح والسرور. وقد نُستعمل في الشر أيضًا، وقد تقدّم هذا.

فأخبروه أن الله تعالى يُبشّره ﴿بِحَيٍّ﴾ وهو اسم الولد، مشتق من «الحياة»؛ إشارة إلى أنه سيحيا ويكبر. وقيل: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان، أو أحياه بالطاعة.

﴿مُصَدِّقًا﴾: مؤمنًا ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهي كلمة «كن»؛ إشارة إلى عيسى عليه السلام، المخلوق بالكلمة. فقيل: إن يحيى عليه السلام هو أول من صدّق بعيسى ابن مريم، وكان على سُنّته ومنهاجه، وكان يحيى وعيسى ابني خالّة، متقاربين في العمل. وقُتل يحيى عليه السلام قبل رفع عيسى إلى السماء بمُدّة يسيرة.

﴿وَسَيِّدًا﴾ في العلم والعبادة، حليًا تقيًا، وهو الذي لا يغلبه الغضب، والفقيه العالم، الكريم على الله عزّ وجلّ، ساد قومه في الدين والعلم والشرف.

﴿وَحَصُورًا﴾: حاصرًا ومانعًا نفسه عن الرذائل، ومعصومًا من الذنوب والشّهوات المحرّمة، والفواحش، والقاذورات.

وأما تفسير (الحصور) بأنّه: كان لا يأتي النساء، ولا يستطيع ذلك؛ فمردود؛ لأنّ هذا ليس من الكمال اللائق بالأنبياء عليهم السلام، ولا يُستبعد أن يكون ليحيى عليه السلام ذُرّيّة.

وأبعد منه: من زعم أن الآية تدلّ على أن ترك النكاح مُستحبّ! وليس فيها ما يدلّ على ذلك، بل سُنّة الأنبياء بخلافه.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: هذه بشارة ثانية لذكرّيّا عليه السلام في ولده يحيى - وهي أعلى من الأولى - أن ولده سيكون من الصالحين؛ لكونه من نسل الأنبياء، وهو داخل أيضًا في جملة عباد الله الصالحين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن من وظائف الملائكة: الإرسال بالبشرى لعباد الله الصالحين.

وفيها: أَنَّ الملائكة يتكلَّمون بصوت مسموع.

وفيها: مشروعية تبشير الإنسان بما يُسرُّه.

وفيها: جواز تكليم المصلِّي، والأفضل تركُّه، إِلَّا الحاجة مُلِحَّة؛ لئلاَّ يُشَوِّش عليه.

وفيها: جواز اختيار اسم المولود قبل ولادته.

وفيها: أَنَّ من أوصاف (السَّيِّد): أن يكون مُتَّبَاعِدًا عن الفواحش.

وفيها: فَضْل إطالة القيام في الصَّلَاة.

وفيها: فَضْل يحیی عَلَيْهِ السَّلَام، وعِفَّتُهُ، وقد جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا»^(١).

وفيها: رَفَع الصوت بالبشارة، وقد نادى أحدُ الصَّحابة كعبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فوق الجبل، يَبْشُرُهُ بتوبة الله عليه^(٢).

وفيها: جواز مَدْح الشخص بما يَسْتَحِقُّه - ما لم تكن هناك مفسدة من ذلك -؛ فَإِنَّ يحیی عَلَيْهِ السَّلَام استحقَّ السَّيَادَةَ حَقِيقَةً، ومن معاني (السَّيِّد): مَنْ فاق أقرانه في خِصال الخير. لكن لا يُسْرِف في إطلاق المَدْح، وإعطائه مَنْ لا يَسْتَحِقُّه.

وفيها: الحثُّ على تكميل النفس بالصفات الطَّيِّبَةِ، وجمعها في نواحي الكمال، من العبادة والعِلْم والخلق الحسن.

ويمكن أن يؤخَّذ من الآية: أَنَّ مَنْ يحمل نفسه على الخير، ويُجَاهِدُهَا في الامتناع عن الشرِّ - كما هو حال يحیی عَلَيْهِ السَّلَام - أجدرُّ بالمدح ممَّنْ جُبِّلَ على ذلك خِلْقَةً.

وفيها: أَنَّ من أسباب السَّيَادَةِ على الآخرين: بَذْل الندى، وكفُّ الأذى، والجِلْم، وتحمُّل أذى الآخرين.

وفيها: أَنَّ من توفيق الله للعبد أن يُبَاعِدَ بينه وبين الشَّهَوَاتِ المحرَّمة.

(١) رواه أحمد (٢٢٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وفيها: أن الصلاح أعم من النبوة، والنبى لا يكون إلا صالحاً.

وفيها: أن الدعاء سبب لتحقيق ما يتمناه الإنسان، وسبب لنيل عطايا الرحمن.

وفيها: تأييد الله تعالى للأنبياء والدعاة والمصلحين.

وفيها: أن الأصل تصديق صاحب الحق في كلامه ودعواه.

وفيها: الجمع بين القيام بحقوق الله، وحقوق المخلوقين.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾:

ولما بُشِّرَ زكريّا عليه السلام بالولد؛ ﴿ قَالَ ﴾ متعجباً: ﴿ رَبِّ أَنَّى ﴾ أي: كيف. وهذا السؤال للاستعظام والاستشبات، وليس للاستنكار والاستبعاد ﴿ يَكُونُ لِي غُلَمٌ ﴾: وهذا باعتبار ما سيكون - لأنه لم يولد بعد - ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ أي: وحالي أنني قد بلغت من الكبر عتياً، فأصابني الوهن والشيب، ويُسّ المفاصل والعظام، فلا إنجاب ولا إخصاب؛ فكيف سيأتيني الآن، ولم أرزق به حال الشباب؟ كما قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤].

﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾: عقيم، لا تحمل، ولا تلد.

فأجابته الملائكة عن الله عز وجل: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ ﴾ أي: الأمر له ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ من رزقكما الولد، وغير ذلك، ولا يحول دون مشيئته شيء. فالأمر كما كان يقول صلى الله عليه وسلم في دعائه إذا فرغ من الصلاة: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعية طلب الزيادة من الإيمان واليقين، وكان من شأن الأنبياء عليهم السلام الارتقاء في مدارج الكمال، كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام حين قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾.

وفيها: شكوى الضعيف حاله إلى ربه.

وفيها: أن الله يَحْرِقُ العادة مُعْجِزَةً لنبيٍّ، أو كرامةً لوليٍّ. فإذا انخرقت لأهل الكُفر والعصيان كانت استدرأجا وفتنةً؛ ليزدادوا إثمًا.

وفيها: ضَعْفُ الإنسان، وعَجْزُهُ عن إدراك أفعال الله تعالى.

وفيها: بيان قُدرة الله العظيمة؛ فإنَّ عدم الصلاحية للولد حاصلةً من الطرفين؛ فالزوج طاعنٌ في السِّنِّ، والزوجة عقيمٌ، ومع ذلك فقد رزق الله زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ الولدَ دون أن يُرَدَّ إلى الشباب، ودون زواج بامرأة أخرى غير عقيم.

وفيها: مشروعية طلب ما يزداد به المؤمن فرحًا واستبشارًا.

وفيها: جواز وصف الغير بما يكرهه، إذا كان المقصودُ البيانُ للحاجة، وليس العيب والإيذاء.

وفيها: أن أفعال الله اختيارية، تابعة لمشيئته؛ فمنها ما يتعلق به - ككلامه، واستوائه على العرش، ونزوله إلى السماء الدنيا، ونحوها - ومنها ما يتعلق بعباده - كإحيائهم ورزقهم وقبضهم ونحو ذلك -.

وفيها: تطمين نفوس المؤمنين بالله ربِّ العالمين.

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٤١﴾:

ولمَّا كان بدء الحَمَل خفيًّا، لا تكاد تشعر به المرأة ولا زوجها؛ أراد زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ علامةً على بدءه وحصوله، وليكون أتمَّ لفرحه وسُروره، ويزداد ارتباطًا بالنعمة، ويقينًا بقُدرة رَبِّ العالمين.

ف ﴿ قَالَ ﴾ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيما أخبرنا الله عنه - : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي: علامة تدلُّ على حمل امرأتي.

﴿ قَالَ آيَتُكَ ﴾ التي تدلُّك على ذلك عند حصوله: ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ أي: لا تقدر

على كلامهم، ولا تستطيع خطابهم، من غير عِلَّةٍ ولا مرضٍ ولا خَرَسٍ، ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ متوالية، بلياليها ﴿الْأَرْبَعَةَ﴾ أي: إيماء وإشارة، بالشفَتَيْنِ والعَيْنَيْنِ والحَاجِبَيْنِ ونحوها، وفي هذه الأيام الثلاثة يكون زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ خالصاً مع ربه، ولربه، وهذا من إكرام الله تعالى له. ولذلك أمره فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾: باللسان والقلب، عبادةً له، وشُكْرًا على نعمته. ﴿وَسَبِّحْ﴾ (التسبيح): هو تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عما لا يليق به، بقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ» ونحوها. وقيل: بل المقصود بالتسبيح هنا: الصَّلَاةُ. ﴿بِالْعِشِيِّ﴾ وهو آخر النهار، ويبدأ من بعد الزوال. ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ وهو أول النهار، قيل: من طلوع الفجر إلى ارتفاع الشمس. والمعنى: أَنَّهُ يستغرق هَذَيْنِ الوَقَتَيْنِ في التسبيح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز طلب ما يزيد الإيمان.

وفيها: بيان قُدرة الله العظيمة، بخَرْقِ العادة، آيةً لعبده زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أَنَّ الإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام، وخصوصاً عند العَجْزِ عن الكلام.

وفيها: أَنَّ الإنسان إذا انقطع عن الناس؛ فينبغي أن يشتغل بذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: تربية النفس على الذكر الكثير، واستغراق الأوقات فيه.

وفيها: فَضْلُ التسبيح والذكر في هَذَيْنِ الوَقَتَيْنِ العَظِيمَيْنِ، وهما: أول النهار وآخره؛ كما

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وفيها: شُكْرُ الله على النِّعَمِ، بعبادته وذكره وتسبيحه.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءٍ الْمَكَلِيمِ﴾: ﴿١٢﴾

ثم عاد السِّيَاقَ إلى قِصَّةِ مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ لإكمالها، وليحصل البيانُ في تبرئتها ممَّا رَمَاهَا به اليهود، وليكتَمَلَ الرَّدُّ على النصارى فيما ادَّعَوْه من ألوهية ولدها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ﴾ أَي: واذكُر - يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَبَرَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، عِنْدَمَا ﴿قَالَتْ
الْمَلَكُتُكَ يَمْرَيْمُ﴾ مَخَاطِبَةً إِيَّاهَا مُشَافَهَةً، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أَي: اخْتَارَكِ لَهُ - لكَثْرَةِ عِبَادَتِكَ - وَجَعَلَ لَكِ الْخِصَالَ الْحَمِيدَةَ،
وَالْمَزَايَا الْعَظِيمَةَ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ تَقَبَّلَكَ مِنْ أُمِّكَ اسْتِثْنَاءً - فَقَدْ كَانَ لَا يَقْبَلُ فِي نَذْرِ الْأَوْلَادِ
لِلْمَسَاجِدِ إِلَّا الذَّكَورَ - وَأَنْبَتَكَ نَبَاتًا حَسَنًا، وَجَعَلَكَ فِي كِفَالَةِ نَبِيِّهِ زَكَرِيَّا؛ لِيُحْسِنَ تَرْبِيَتَكَ،
وَرَزَقَكَ إِكْرَامًا عَلَى وَجْهِ غَيْرِ مَعْتَادٍ؛ لِتَتَفَرَّغِي لِعِبَادَتِهِ، وَأَرْسَلَ لَكِ مَلَائِكَتَهُ تُحَاطِبُكَ مُشَافَهَةً.
﴿وَطَهَّرَكِ﴾ يَعْنِي: مِنَ الْأَرْجَاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ، كَالْأَفْعَالِ الذَّمِيمَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ،
وَالْوَسَاوِسِّ، وَالْمَعَاصِي، وَمِنْ مَسِيئِ الرِّجَالِ. وَأَمَّا الْأَرْجَاسُ الْحُسِّيَّةُ - كَالْبَوْلِ وَالْغَائِطِ
وَالْحَيْضِ -؛ فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ.

﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَجَعَلَ لَكِ مَزِيدًا مِنَ الْفَضْلِ، كَاخْتِيَارِكَ لِتَكُونِي أُمًّا لِنَبِيِّهِ
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَكَانًا لِنَفْخَةِ رَسُولِهِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَيْضًا، فَضَّلَكَ ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَهَذَا التَّفْضِيلُ خَاصٌّ
بِنِسَاءِ زَمَانِهَا دُونَ الرِّجَالِ؛ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ
نِسَائِهَا: خَدِيجَةُ»^(١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ،
وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»^(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ،
وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الْحَدِيثُ^(٣).

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

الِاعْتِنَاءُ بِقِصَّةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ لِتُذَكَّرَ وَتُنَشَّرَ، وَلِتَكُونَ قُدْوَةً لِنِسَاءِ الْعَالَمِينَ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٣٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٣٠).

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٨٧٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٣١٤٣).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤١١)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٣١).

وفيها: أن من لطف الله ﷻ: تهيئة الأمور قبل وقوعها؛ فهيّا لنبيه عيسى عليه السلام أمّا صالحة، اختارها من بين النساء، وجعل لها المزايا العظيمة.

وفيها: نشر سيرة النساء الفاضلات، والقُدوات في الخير؛ لطمس قُدوات النساء في الشر والضلال.

وفيها: براءة مريم عليها السلام ممّا رماها به اليهود، وافتروا عليها، بوصفها بالبغياء، وقالوا في نبي الله عيسى عليه السلام: إنه ولد زنا - عيادًا بالله -؛ ففي الآية ردّ بليغ على إخوان القردة والخنازير، كما قال الله عنهم في آية أخرى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

وفيها: كرامة لمريم عليها السلام، بسماعها الخطاب المباشر من الملائكة، وليس في هذا أمّا نبية؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا لَا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

وفيها: تفضيل مريم عليها السلام على نساء العالمين في زمانها.

﴿يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾ (٤٣):

ولما أخبرت الملائكة مريم عليها السلام بنعم الله العظيمة عليها؛ أمرتها بكثرة العبادة، شكرًا لله على ذلك، وإعدادًا لها لما يريد الله ﷻ من ولادتها نبيه عيسى عليه السلام؛ فقالت الملائكة: ﴿يَمْرِيْمُ﴾: إعادة النداء بالاسم تكريمًا وتبهيّا ﴿أَقْنِي﴾ (القنوت): الطاعة ودوام العبادة، وإطالة القيام في الصلاة.

قال مجاهد: «أطيلي الركود في الصلاة - يعني: القنوت -»^(١)، وقال قتادة في معنى الآية: «أطيعي ربك»^(٢).

﴿لِرَبِّكِ﴾ (اللام) للاختصاص؛ أي: اجعلي قنوتك خالصًا لله، بلا شرك ولا رياء. فقيل: أطالت القيام حتى ورمّت قدمها، وحطّت الطير عليها؛ تظنّها جهاذا - لسكونها، وطول قيامها -.

(١) تفسير الطبري (٤٠٢/٦).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣٩٣/١).

﴿وَأَسْجُدِي﴾: قَدَّمَ (السُّجُودَ) عَلَى (الرُّكُوعِ)؛ لِفَضْلِهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ شُكْرٍ، وَالسُّجُودَ يَقْتَضِيهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّ السُّجُودَ فِي عِبَادَتِهِمْ كَانَ قَبْلَ الرُّكُوعِ. وَالسُّجُودُ مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(١).

﴿وَأَرْكَعِي﴾ (الرُّكُوعِ): انْحِنَاءُ الظَّهْرِ عِبَادَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿مَعَ الرُّكُوعِ﴾ أَي: مَعَ الْمُصَلِّينَ. فَالْمُرَادُ: أَنْ تَصَلِّيَ مَعَ الْمُصَلِّينَ قِرَاءَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، أَوْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ الَّذِينَ يَرُكَّعُونَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنْ نِعَمَ اللَّهُ إِذَا زَادَتْ؛ شُرِعَتْ مُقَابَلَتُهَا بِمَزِيدٍ مِنَ الْعِبَادَةِ.
وَفِيهَا: أَنَّ الْعِبَادَةَ بِالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالسُّجُودِ وَالرُّكُوعِ هِيَ مِنْ إِعْدَادِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ، وَتَهَيَّئَتْهُ لِمُوَاجَهَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَدَاءِ مَا يُطَلَّبُ مِنْهُ مِنَ الْمِهَامِ الشَّاقَّةِ.

وَفِيهَا: الْأَمْرُ بِدَوَامِ الْعِبَادَةِ، وَعَدَمُ الْانْقِطَاعِ.
وَفِيهَا: فَضْلُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ؛ فَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ بِالْبَدَنِ، وَالْخُضُوعُ وَالْخُشُوعُ بِالْقَلْبِ.

وَفِيهَا: أَنَّ طَوْلَ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ كَانَ دَأْبَ الصَّالِحِينَ قَبْلَنَا.
وَفِيهَا: وَجُوبُ الْإِمْتِثَالِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ.
وَفِيهَا: أَنَّ الْعِبَادَ مِنَ الرِّجَالِ أَكْثَرُ مِنَ الْعَابِدَاتِ مِنَ النِّسَاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعَاتِ».

وَفِيهَا: أَنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ مِنْ عِبَادَاتِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ.
وَفِيهَا: أَنَّ مُلَازِمَةَ الطَّاعَةِ تَحْفَظُ النَّعْمَ، وَتَزِيدُ الْعَبْدَ قُرْبًا مِنْ رَبِّهِ.
وَفِيهَا: أَنَّ جَمَاعَةَ الرِّجَالِ فِي الصَّلَاةِ، أَفْضَلُ وَأَتَمُّ مِنْ جَمَاعَةِ النِّسَاءِ.
وَفِيهَا: تَوَاضُّعُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ؛ حِفْظًا لَهُ مِنَ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهَهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤):

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ، بعد أن أوحى إليه هذا الأمر الغيبي، الذي لا يعلمه إلا الله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي كان من أخبار زكريا ومريم عليهما السلام ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عنك وعن قومك، فلم تعلموا به. و(النبأ): هو الخبر العظيم، أو الخفي.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ (الوحي): هو الإعلام بسرعة وخفاء. ويُطلق على ما ينقله الملك للنبي من كلام الله، وعلى الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصاص: ٧]، وعلى الإشارة، كقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عند زكريا عليهما السلام وقومه المتنافسين في كفالة مريم، ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ﴾: يَرْمُونَهَا، وهي الأقلام المعروفة التي يُكْتَبُ بها. وقيل: بل هي سهامهم، سُمِّيت بذلك؛ لأنها تُشَبِّه القلم. والأقرب الأول؛ لأنه ظاهر القرآن. ﴿أَيْهَهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ﴾: يربيها ويقوم بمصالحها.

فقيل: إنهم ألْقَوْهَا في الماء، وَاتَّفَقُوا أَنْ مَنْ يَثْبُتَ قَلَمُهُ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ؛ فَهُوَ الَّذِي يَكْفُلُ مَرْيَمَ. فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ، فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ وَجَرَى بِهَا، إِلَّا قَلَمَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَدْ ثَبَتَ.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ شاهدًا وحاضرًا ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: يتنازعون؛ تنافُسًا على كفالتها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنافس في الخيرات، ولو أدَّى ذلك إلى إجراء القرعة بين المتنافسين.

وفيهما: الوفاء للصالحين، بتربية أبنائهم وبناتهم، وكفالتهم من بعدهم.

وفيهما: أن الغيب منه ما يكون مطلقًا لا يعلمه إلا الله عز وجل - كحوادث المستقبل - ومنه ما يكون غيبًا نسبيًا، يخفى على بعض الناس دون بعض، كقصة مريم عليها السلام؛ فالنبي ﷺ لم يُدْرِك هذه القصة، لا هو ولا قومه، ولم يجدها في كتاب، ولا تلقاها عن أحد، لكنها ليست غيبًا عمَّن عاش في زمن زكريا ومريم، واطلع على تلك الأحداث.

وفيها: امتنان الله على نبيه ﷺ، وعلى هذه الأمة، بإخبارها خبر مَنْ كان قبلنا؛ لنستفيد من ذلك في الاقتداء والانتعاض والاعتبار.

وفيها: إكرام الله لذكرنا ﷺ، بأن جعلَ بابَ الخير في كفالة مريم عَلَيْهَا السَّلَام من نصيبه.

وفيها: أَنَّ الله يحفظ أولاد العبد بصلاحه.

وفيها: مشروعية استعمال القرعة، عند المشاحة والاختصاص.

وفيها: اتِّخاذ الوسائل لإنهاء النزاع، ومنها القرعة، وقد استعملها ثلاثة من أنبياء الله؛ وهم: يونس، وزكريا، ونبيُّنا مُحَمَّد ﷺ.

وفيها: آية من الآيات البيِّنات الدالَّة على نبوة نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ؛ فإنه أخبرَ الناس عن أمورٍ لا يعلمونها، ممَّا غاب في الماضي. وهذا كما أخبرهم عن أمور في المستقبل، فحدثت كما أخبر، ومنها أمورٌ ستحدث في آخر الزمان.

وفيها: أَنَّ من وسائل دعوة النصارى: إخبارهم بهذه التفاصيل، في قصة مريم عَلَيْهَا السَّلَام؛ فإنَّ أول السُّورَةِ قد نزل في وفد نصارى نَجْران.

وفيها: أَنَّ الحالة أحقُّ بحضانة الطفل - بعد أمه - من بقية أقرابه - ما عدا الجدَّة -؛ فقد كانت خالة مريم تحت زكريا عَلَيْهَا السَّلَام.

وفيها: رعاية الوقف المنذور لبيت الله.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٥)

ثم جاءت الملائكة ببشارة من الله عزَّ وجلَّ لمريم عَلَيْهَا السَّلَام، بأنه سيولد لها ولدٌ عظيم، سيكون له شأنٌ كبير؛ فقال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ ﴾ أي: اذكر - يا مُحَمَّد ﷺ - قصة الملائكة في قولها وندائها. قيل: إنَّهم جُمع من الملائكة، وقيل: إنَّه جبريل عَلَيْهَا السَّلَام.

فقالوا لها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكِ ﴾ أي: يُخبرُكِ بما يسرُّ، ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: مُبتدأة وناشئة من

الله، صدرت منه لا من غيره، وهي كلمة «كُن»؛ فيكون وجود عيسى عليه السلام بهذه الكلمة، وليس عيسى هو الكلمة.

﴿اسْمُهُ﴾ أي: اسمُ ذلك الولد ﴿الْمَسِيحُ﴾ هذا لقبه. قيل: لُقِّبَ بذلك؛ لأنه لا يمسحُ بيده ذا عاهة - من أبرص وأكَّمه وغيره - إلا برا بإذن الله. وقيل: لأنه كان سائحاً في الأرض والبلدان، يسبح فيها يدعو إلى الله. وقيل: لأنه كان عليه مسح من جمال (أي: أثر ظاهر منه).

واسمه: ﴿عِيسَى﴾ قيل: هو اسم أعجمي، مُعَرَّب من «يَشُوع» أو «يَسُوع» أو «إشوع» - ومعناه بالعبرانية: السيد أو المبارك -. وقيل: مُشتَق من «العيس»، وهو بياض يعلوه حُرة. وقيل: بل مُشتَق من «ساس»، إذا قام على الشيء ورعاه.

﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾: هذا نَسَبُهُ، وإِنَّمَا نُسِبَ إِلَى أُمِّهِ؛ لأنه لا أب له.

﴿وَجِيهًا﴾: شريفاً رفيعاً، ذا جاه وقدر وسيادة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: بالنبوة، وبالمُعْجِزَات التي تجري على يديه - مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكَّمة والأبرص بإذن الله - ورفعه إلى السماء سالماً، وبنزوله ليحكم الأرض في آخر الزمان.

﴿وَالْآخِرَةَ﴾: بكونه شافعياً لأُمَّتِهِ، ويكون له حَوْضٌ خاصُّ به، تَرُدُّهُ أُمَّتُهُ - كما لبقية الأنبياء -.

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله يوم القيامة، مع أولي العزم من الرُّسُل، الذين هم في أعلى درجات الجنة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصُّبْحِ﴾ (٤٦):

قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي: زمن الطفولة. و(المهد): فراش الطفولة، وهو الموضع الذي يُهَيَّأ للصبي زمن الرضاعة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى...» الحديث، وفيه كلام الصبي في قصَّة جُرْجِج، والصبي الثالث في قصَّة صاحب الشارة^(١).

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

وقد ثبتَ أيضًا نُطقُ الرضيع في قِصَّة أصحاب الأخدود، في المرأة التي قَالَ لَهَا غُلَامُهَا: «يَا أُمُّهُ، اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ»^(١).

وكلام عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُم في المَهْد، المُراد به غيرُ التكليم المعتاد، بل المراد: أَنَّهُ يَكَلِّمُ الناسَ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وفَلَاحُهُمْ، وهو تكليم المُرْسَلِينَ، ففي هذا: إرسَالُهُ ودَعْوَتُهُ الخَلْقَ إلى رَبِّهِمْ.

﴿وَكَهْلًا﴾ أي: بالغًا كبيرًا. و(الكُهولة): مرحلةٌ في العمر، من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، وقيل: من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين.

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: معدودٌ فيهم. و(الصالح): مَنْ صَلَحَتْ سِرِيرَتُهُ وعِلَانِيَتُهُ، بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فختَمَ الله تعالى أوصافَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصَلاح، وهو رُتَبَةٌ مِنْ أعظم المراتب وأشهر المقامات.

والصلاح يقتضي المواظبة على الطاعات، حتى الممات.

وفي الآيتين من الفوائد:

بيان شَرَف مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، في إرسال الملائكة لتكليمها وتبشيرها.

وفيها: استحباب تبشير المرء بما يَسُرُّه.

وفيها: أَنَّ مَنْ لَا أَبَ لَهُ يُنْسَبُ إلى أُمِّهِ. وَيُكْتَبُ الاسم - حينئذٍ - بإثبات الألف في كلمة (ابن) بين الاسم واسم الأم: (عيسى ابن مريم).

وفيها: جواز استعمال اللقب الغالب على الشخص، ما لم يكن فيه إيذاءٌ وتنقيص.

وفيها: أَنَّهُ ليس كُلُّ وجيه في الدنيا عند الناس، يكون وجيهاً في الآخرة عند الله.

وفيها: بيان حقيقة الوجاهة، وَأَنَّهَا ليست باللباس والمال والسُّلطان والنَّسب، ونحوها من أمور الدنيا؛ وَإِنَّا الوجاهة: بطاعة الله وعبادته، وتعلُّم دينه، والدَّعوة إلى سبيله.

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥).

وفيها: أن تقرب الله لعبده منه يوم القيامة، يُعَدُّ من أعظم المراتب.

وفيها: إظهار قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، بِإِنطَاقِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلامه في حال صِغَرِه - معجزة وآية - وفي حال كُهولته - بالوحي الذي أنزلَه عليه -.

وفيها: رَدُّ على النصارى، الذين ادَّعوا ألوهية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأنَّ مَنْ كان طفلاً يَرْضَع، ثم يأكل وَيَشْرَب، وَيَمْرُض، وَيَتَأَلَّم، وَيَبْكِي، ثم يكْبُرُ فيصير كَهْلاً، كيف يُمَكِّن أن يكون إلهًا؟ وهذا التَغْيَرُ في الثَّمَوِّ والانتقال من سِنٍّ إلى سِنٍّ، يتنافى مع صفات الإله.

وفيها: التوطئة للحوادث العظيمة؛ لتهيئ النفوس لاستقبالها، فقد مهَّدت الملائكة الأمر لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بأنه سيكون لها ابنٌ من غير زوج.

وفيها: بشارة الله لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بأنَّ ولدها سيكون، وَيَصِلُ حَدَّ الكُهولة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٧):

ولما أخبر الله تعالى مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بما سيكون منها، من ولدٍ بغير زوج؛ تعجَّبت من ذلك، و﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ فخاطبت ربَّها تعالى، ولم تُخاطب الملائكة الذين أخبروها. ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي: كيف يوجد هذا الولد مني؟

﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي: وحالي أني لم يَطَّأني بشرٌ، ولست ذات زوج، ولا عَزَمْتُ أن أتزوَّج، ولست بغيا، فلم يَمَسِّنِي رجلٌ، كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

وكلمة (بشر) تُطْلَقُ على الواحد والجمع، وسُمِّيَ البَشَرُ (بَشَرًا)؛ لظهورهم، والبشرة: ظاهر جلد الإنسان، وأبشرت الأرض: أخرجت نباتها.

فأجابها الله تعالى، بالوحي عن طريق ملائكته: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما أخبرتك ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، كيف يشاء، وعلى أيِّ هيئة أراد، وَفَقِ العادة، أو على خلافها، كيفًا وكما ونوعًا، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ سُبْحَانَهُ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

ويمكن أن يكون المعنى أيضًا: مثل هذا الخلق العظيم، والإحداث البديع، يخلق الله ما يشاء.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾: هذا هو القضاء الكوني، الذي لا بُدَّ أن يقع ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ أي: لذلك الأمر ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: يُوجد بسرعة دون تأخير؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعجب المؤمن من أمر ربه، على سبيل الاستثبات.

وفيها: جواز طلب الزيادة في اليقين.

وفيها: أن معرفة كيفية حدوث الأشياء يزيد الإيمان، ويُرسخ اليقين في قدرة الرحمن.

وفيها: عدم اعتراض المؤمن على أمر الله، وعدم الشك في قدرته.

وفيها: عفة المرأة الصالحة، وأنها لا تقرب الرجال الأجانب، ولا تسمح لهم أن يقربوها.

وفيها: استعمال الكلمة الأقوى في الموضع الذي يناسبها؛ فإنه قال في خلق عيسى:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، وفي خلق يحيى: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]؛ لأنَّ خلق عيسى

أعجب في إيجاد ولد بلا أب - فاستعمل (الخلق) - وأما يحيى: فهو من أب وأم، لكنهما لا

يُنْجبان عادة - فاستعمل (الفعل) -.

وفيها: بيان قضاء الله الكوني، الذي لا بُدَّ أن يقع وفق مُراد الله تعالى، كما قال عز وجل:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ الآية [سبأ: ١٤]، بخلاف القضاء الشرعي؛ فإنه قد يقع، وقد لا

يقع، على حسب حال المقتضى بينهم وإليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومن جهة أخرى: فالقضاء الشرعي لا يكون إلا فيما يحبه الله، بخلاف القضاء الكوني؛

فقد يكون بما لا يُحب - ابتلاءً وفتنةً للعباد -؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي

الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية [الإسراء: ٤].

وفيها: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَخْلُقُ أَمْوَرًا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الْمَعْرُوفِ وَالْمُعْتَادِ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِيَكُونَ آيَةً لِلْكَافِرِ، وَعِبْرَةً لِلنَّاسِ، وَلِيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ.

وفيها: اسْتِسْلَامَ مَرْيَمَ لِأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: جَوَازُ السُّؤَالِ عَنِ الْأُمُورِ الْغَامِضَةِ؛ لِمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهَا وَحِكْمَتِهَا.

وفيها: سُهُولَةُ الْخَلْقِ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ إِذْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ، وَهِيَ: «كُنْ».

وفيها: أَنَّ اللهَ يُعْطِي الْوَلَدَ بَغَيْرِ وَجُودِ أَسْبَابٍ، وَيَمْنَعُ الْوَلَدَ مَعَ وَجُودِ الْأَسْبَابِ.

وفيها: تَنْوُّعُ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَمِنْهُ مَا يُخْلَقُ بِالتَّدْرِيجِ، وَمِنْهُ مَا يُخْلَقُ عَلَى الْفَوْرِ.

وفيها: تَفُؤْذُ أَمْرِ اللهِ، بِسُرْعَةٍ دُونَ تَأْخِيرٍ.

وفيها: دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، بِتَنْوِيعِ حَالَاتِ وَجُودِ الْبَشَرِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ وُجِدَ بِلَا ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى - وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمِنْهُمْ مَنْ وُجِدَ مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى - وَهِيَ حَوَاءُ - وَمِنْهُمْ مَنْ وُجِدَ مِنْ أَنْثَى بِلَا ذَكَرٍ - وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمِنْهُمْ مَنْ يَوْجَدُ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى - كَبَقِيَّةِ الْبَشَرِ -.

وَفِي الْآيَةِ: طَرِيقَةٌ رَائِعَةٌ فِي قِصِّ الْقَصَصِ عَلَى النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ أَوَّلًا أَمْرًا عَجِيبًا، فِي خَلْقِ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَزَوْجَةٍ عَاقِرٍ، ثُمَّ ذَكَرَ وَاقِعَةً أَعْجَبَ، فِي خَلْقِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، وَخَتَمَ ذَلِكَ بِذِكْرِ قُدْرَتِهِ، وَأَمْرِهِ النَّافِذِ.

وفيها: أَنَّ غَرَائِبَ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَجَائِبَ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هِيَ مِمَّا يَزِيدُ الْإِيْمَانَ بِاللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ تَعَالَى بِالنَّظَرِ فِي خَلْقِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَلِإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَلِإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَلِإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨)

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى تَوَالِي نِعَمِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَزِيدًا مِنَ الْبَشَارَاتِ لِأُمَّهُ؛ فَقَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي: الْمَكْتُوبَ، فَيَفْهَمُهُ وَيَحْفَظُهُ. أَوْ: يَعَلِّمُهُ الْكِتَابَةَ وَالْخَطَّ بِالْيَدِ.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الشريعة، وتفصيل الدين. ويدخل في تعليم الحكمة أيضًا: إصابة الحق، والعلم المقترن بالعمل، ووضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهو: الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ وهو: الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وكان مكملًا للتوراة. وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَام يحفظ التوراة والإنجيل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الله يُعَلِّمَ البشر؛ ولذلك ورد في الأدعية النبوية: «اللَّهُمَّ أَنْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَارْزُقْنِي عِلْمًا تَنْفَعُنِي بِهِ»^(١)، فينبغي الدعاء، وطلبُ التعليم من الله عَزَّوَجَلَّ. وفيها: أهمية إتباع القول بالعمل.

وفيها: مُوَالاة تتابع البشائر على المؤمن؛ ليزداد فرحًا وسرورًا، والارتقاء من البشارة الأدنى إلى الأعلى.

وفيها: أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَام يعلم التوراة، التي أنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

وفيها: أهمية تعلم الكتابة والخط.

وفيها: أن من نِعِمَّ الله على العبد: أن يَرْزُقَهُ الإصَابَةَ في القول والعمل، وهو أحد الأقوال في تعريف (الحكمة).

وفيها: تبشير الخائف، وإيراد الأنباء المُفْرِحة عليه؛ ليطمئن قلبه؛ فَإِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَمَرَ الملائكة أن تُخَبِّرَ مريمَ عَلَيْهَا السَّلَام بما يَطِيبُ قَلْبَهَا، وَيُفْرِجُ هَمَّهَا، وَكَانَتْ فِي قَلْبِ عَظِيمٍ مِنْ خَوْفِ الْإِثْمَامِ، فَبَشَّرَهَا بِأَنَّ ابْنَهَا سَيَكُونُ رَسُولًا، مُعَلِّمًا، يُوْتَى كِتَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيُوْتَى الْحِكْمَةُ - بِفَضْلِ اللَّهِ -. وفيها: أهمية الجَمْع بينَ تَعَلُّمِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى.

وفيها: تكميل النفس بحياة الفضائل، واجتماعها فيها.

وفيها: ذكر الإشارة بـ (الإنجيل) قبل نُزُولِهِ على عيسى عَلَيْهِ السَّلَام.

(١) رواه الحاكم (١/ ٦٩٠)، والطبراني في الدعاء (١٤٠٥)، وهو في الصحيح (٣١٥١).

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعل عيسى عليه السلام رسولاً. و(الرَّسُولُ): هو الذي أُوحيَ إليه بشرع، وأُمرَ بتبليغه. و(النبي): مَنْ أُمِرَ بتبليغ وتقرير شرع مَنْ قبله من الرُّسل؛ فهو تابعٌ لشرعة مَنْ سبقه.

﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهم: القبيلة من أبناء يعقوب عليه السلام وَمَنْ تناسل منهم. وهذا يعني أَنَّ رسالة عيسى عليه السلام خاصَّةٌ ببني إسرائيل، وليست عامَّةً لجميع البشر - بخلاف رسالة نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم -.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: يأتيهم قائلاً لهم: إِنَّهُ مُرْسَلٌ إليهم بعلامة تدلُّ على صدق رسالته، وهي: ﴿أَنِّي أَخْلَقُ﴾ أي: أصوِّر وأشكِّل ﴿لَكُمْ﴾: من أجل هدايتكم، ولتسبِّعوني وتُصدِّقوني ﴿مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: على شكل طير، ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ قيل: ينفخ في فمه، فيصير طيراً يطير أمامهم.

ولا حاجة لنا لمعرفة نوع هذا الطير، ولو كان فيه فائدةٌ لبيَّنه لنا الله تعالى. ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره وإحيائه؛ فهو الذي يحيي الموتى. ونسب الإحياء إلى الله تعالى؛ لأنَّنا نَظُنُّ أَنَّ عيسى عليه السلام هو الذي يُحييه.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ (البراءة) من الشيء: السلامة منه، و(الأكْمَه): هو الذي لا يُبصر ليلاً ويُبصر نهاراً. وقيل العكس. وقيل: هو الذي لا يُبصر إلَّا بمشقة. وقيل: هو الأعمى، وهذا أبلغ في المعجزة، وأقوى في التحدي.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ (البرص): عيبٌ جلديٌّ، يظهر بسببه بياضٌ شديدٌ في جلد صاحبه. فكان عيسى عليه السلام يُزيل علَّةَ الأكْمَه والأَبْرَص، بالمسح عليهما؛ فيبرأَن بإذن الله تعالى.

﴿وَأُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ (الميت): هو مَنْ فارق الحياة ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره ومشيئته؛ لأنَّه هو

المُحْيِي والمُمِيت عَزَّوَجَلَّ. فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو بعضَ الأموات من قبورهم، فيقومون بين يديه أمامَ الناس، يكلمهمهم.

وقد جَرَت السُّنَّةُ الإلهِيَّةُ: أن تكون مُعْجِزَةُ كُلِّ نَبِيٍّ من جنس ما اشتهر في زمنه، فلَمَّا كان الغالبُ على زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّحَرُ؛ بهَرَت مُعْجِزَاتُهُ السَّحَرَةَ، فانقادوا للإسلام.

وكان قومُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ معروفين بعلوم الطَّبِّ والطبيعة، بارعين فيها؛ فجاءهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالآيَاتِ التي حَيَّرَت الأطباء. فَمِنْ أَيْنَ للطَّيِّبِ القُدْرَةُ على إحياء الجمادات، ومُداوَاة العاهات التي ليس لها علاج؟!

﴿وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾: أَخْبِرْكُمْ بطعامكم، ﴿وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، مع أن ذلك خَفِيٌّ غَائِبٌ، لكن يَعْلَمُهُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإخبارِ الله له، فَيُخْبِرُهُمْ بما يأكلون اليوم، وما يُمَسْكُون لَعَدَهُمْ.

﴿إِن فِي ذَلِكَ﴾ أي: الإبراء، والإحياء، والإخبار بالمغيَّبات ﴿لَايَةً لَّكُمْ﴾: مُعْجِزَةُ قَوِيَّةٌ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِصِدْقِي ورسالتي؛ لأنَّ غير المؤمنين لا يَنْتَفِعُ بِالآيَاتِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله لنبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيان قُدْرَةِ الله العظيمة.

وفيها: ذِكْرُ إِذْنِ الله تعالى. وهو نوعان: إِذْنُ شرعيّ، وإِذْنُ كونيّ.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يحتاج لإِذْنِ الله الشرعيّ في تصوير ذوات الأرواح؛ لأنَّ الأصل أَنَّهُ لا يجوز لأحد أن يُصَوِّرَ على هيئة تصوير الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال الله في الحديث القدسيّ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً»^(١).

ومن الإِذْنِ الشرعي: ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهُ عَلَى أَصُولِهَا فَإِذْنُ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

والإِذْنُ الكونيّ هو: ما لا بُدَّ من وقوعه؛ لأنَّ الله إِذْنٌ بذلك وشاءه؛ ومنه قوله تعالى:

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وفيها: أنه قد يُباح للنبي أو الرسول، ما لا يُباح لبقية البشر.

وفيها: أن الإذن الشرعي - وهو الإباحة والترخيص - يتعلق بالشرعية والأحكام، والإذن الكوني - وهو ما لا بُدَّ من وقوعه - متعلق بالخلق.

وفيها: أن (الخلق) يُطلق على تصوير الأشياء وتشكيلها، كما يُطلق على الإيجاد من العدم.

وفيها: أن ما صدر عن عيسى عليه السلام من الآيات والمعجزات، لم يكن منه استقلالاً؛ وإنما بإذن الله وأمره؛ فلا يملك الإحياء ولا الشفاء ولا علم الغيب إلا هو سبحانه.

وفيها: أن من حكمة الله: أنه يُعطي الأنبياء ما يعجز عنه من كان محل تعظيم الناس في زمن نبوتهم؛ كالأطباء في زمن عيسى عليه السلام، والسحرة في زمن موسى عليه السلام، والشعراء في زمن محمد صلى الله عليه وسلم.

وفيها: رد على النصارى، في ادعاء الربوبية لعيسى عليه السلام؛ لأن الله عز وجل ذكر في الآية أن الإحياء والإبراء تم بإذنه، وهذا من توحيد الربوبية، لكنه أراهم إياه على يد نبيه عيسى، فكان مجرّد واسطة لبيان الآيات والمُعجزات.

وفيها: الاحتياط لمنع تطرّق الشبهة إلى الأذهان، والاحتراز بذكر ما يدفع ذلك؛ فإن عيسى عليه السلام لما ذكر الإحياء والإبراء؛ نسب ذلك إلى الله تعالى، فقال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ولم ينسب إلى الله إخباره لهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ لأن الشبهة مُنتفية هنا؛ فعلم ما في البيوت يمكن حصوله للبشر ببعض الوسائل.

وفيها: أنه لو لا تمكين الله لعيسى عليه السلام من أن يُريهم تلك الآيات؛ ما استطاع أن يفعل ذلك.

وفيها: محبة الله لعبده ونبيه عيسى عليه السلام، بتأييده، وإعانتة في دعوته، وهداية قومه.

وفيها: أن الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات، والانتفاع برؤية المعجزات.

وفيها: أنه ينبغي التكرار في مقام عَرْض الأمور المُهِمَّة؛ فتكرر هنا لفظ (الآية) ولفظ (الإذن)؛ اعتناءً بترسيخ الحقائق، وإبعاد الشبهة عنها.

وفي إطلاع الله عَزَّوَجَلَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَام على ما يخبئه قومه في يومهم: تخويف لهم من إخفاء شيء لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، أو تدبير أمر سوء خفية ضد نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَام.

وفيها: أن إجراء الآيات على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، لم يكن لرؤيته؛ وإنما هو من نعمة الله عليه؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقد أثبت عيسى عَلَيْهِ السَّلَام الربوبية لربه، بغاية البيان؛ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وفيها: أن اجتماع الحجج، وتوالي الدلائل والبراهين؛ أجدى وأنفع في إقناع المدعوين.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٠﴾:

ثم قال تعالى في نعمته على بني إسرائيل، بإرسال عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، حاكياً قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ أي: وجئتكم مؤكداً ومقرراً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: لما سبقني من الكتاب الذي أنزله الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَام، ولأكون شاهداً على صديق ما جاء في التوراة من بعثتي ونبوتي.

وقد جاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَام مؤكداً على شريعة التوراة، وعاملاً بها، إلا في أحكام معينة كانت حراماً في التوراة، فخفف الله عن بني إسرائيل؛ فأحلها لهم في الإنجيل، وهي المذكورة بقوله: ﴿وَلَأَجَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: ولأبين لكم نسخ الحكم السابق، وإباحة بعض الطيبات التي حُرِّمت عليكم في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَام - بسبب ظلمكم وكثرة سؤالكم - مثل: الإبل، والشحوم، وأشياء من الطير، والحيتان، وبعض المشروبات، والعمل في يوم السبت، وغيرها.

وقد جاء تفصيل بعض هذه الأمور المحرمة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَةِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وفي قوله: ﴿فِي ظُلُمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

قوله ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: دلائل وبيّنات متوالية، شاهدة على صحّة رسالتي. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوا عذابه، واجعلوا بينكم وبينه وقاية، ﴿وَأَطِيعُوا﴾: امثلوا أمري ونهيي؛ فإنما أخبركم عن الله عزّ وجلّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١):

(الرَّبُّ) هو: الخالق، المالك، المتصرّف.

فبيّن لهم عيسى عليه السلام أنّه مربوبٌ - مثلهم - وليس ربّاً، وأنّ الله ربّ الجميع؛ ولذلك طالب قومَه بعبادة الله وحده؛ فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: وخذّوه، ولا تُشركوا به شيئاً، وأطيعوه فيها بأمركم وبينهاكم.

﴿هَذَا﴾ أي: الجَمع بين التوحيد والعبادة ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: دين قويم، وطريق مستقيم، يؤدّي إلى مرضاة الله عزّ وجلّ ودخول جنته.

وفي الآيتين من الفوائد:

التأكيد على الحقّ؛ لحمل الناس على اتّباعه.

وفيها: نعمة الله على بني إسرائيل ورحمته بهم، بنسخ بعض الأحكام من الأثقل إلى الأخفّ.

وفيها: أنّ العقوبة لم تستمرّ على بني إسرائيل، بما فعل أجدادهم؛ بل خفف الله عنهم، وأباح لهم بعض ما حرّم على من قبلهم.

وفيها: أنّ توحيد الربوبية يقود إلى توحيد الألوهية، وأنّ الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية.

وفيها: أنّ عبادة الله عزّ وجلّ مبنية على أنّه هو: الرّبُّ، الخالق، المالك، المتصرّف.

وفيها: الرَّدُّ على النصارى، الذين ادَّعَوْا ألوهية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبيَّن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم أَنَّهُ مربوبٌ - مثلهم - وليس ربًّا، والله ربُّ العالمين.

وفيها: إصلاحُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في بني إسرائيل؛ فبيَّن لهم التوراة والإنجيل، وأزال التحريف الذي حصلَ من بني إسرائيل، ونقَضَ ما حرَّمه الأَحْبَارُ على الناس، وبيَّن فَضْلَ النَّزاع فيما اختلفَ فيه بنو إسرائيل؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَإَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا﴾ [الزخرف: ٦٣].

وهكذا المُصْلِحُ يبيِّن الحقَّ، وينقُضُ الباطل، ويُنهي النزاع، ويَحْمِلُ الناس على الصُّراطِ المستقيم.

وفيها: أَنَّ ما جاء به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من التَّخْفِيفِ، كان في طَيِّبَاتِ حُرْمَتِ على بني إسرائيل عقوبةَ لهم، وليس تحليلاً لأُمُورٍ محرَّمةٍ في الأصل - كالزَّنا، والرِّبا، والقَتْل، والسَّرقة، ونحوها -.

وفيها: أَنَّ الإنجيل أَلَيَّن من التوراة.

وفيها: بَدْءُ الدَّاعِيَةِ بنفسه؛ ليكون أولَ مُذْعِنٍ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، قبل أن يأمرَ غيره، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيَ وَرَبُّكُمْ﴾، فبدأ بنفسه قبل الآخرين.

وفيها: أَنَّ الجَمْعَ بين التوحيد والعبادة هو الطريق الواسع المستقيم المعتدل، الذي يُوصِلُ مَنْ سَلَكَه سُرْعَةً إِلَى الْجَنَّةِ وَرِضْوَانِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ كَلَامَ أَهْلِ الْحَقِّ - كالأنبياء وغيرهم - يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ويؤكد بَعْضُهُ بَعْضًا، بخلاف كَلَامِ أَهْلِ الْبَاطِل؛ فَإِنَّهُ مُتَضَارِبٌ وَمُتَنَاقِضٌ.

وفيها: إظهار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الخُضُوعَ لِرَبِّهِ.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشَارَةَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْزِلَتِهِ، وَشَيْئًا مِنْ آيَاتِهِ؛ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ خَبَرَهِ مَعَ قَوْمِهِ، وَمَا لَقِيَهِ مِنْهُمْ مِنَ الصَّدِّ وَالْإِعْرَاضِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى أَي: استشعرَ وأدركَ ﴿مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾؛ فاستشعرَ تصميمَ قومه على الكُفر، واستمرّازهم على الضلال والعناد. ولقيَ من بني إسرائيل السخرية والاستهزاء، بالرَّغم من الآيات التي أراهم إياها.

فلجأ عيسى عَلَيْهِ السَّلَام - حينئذٍ - إلى اختيار الأصفياء، وانتخاب الأكفء للدَّعوة؛ ف﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إذا لم تُؤمنوا جميعاً؛ فَمَنْ مِنْكُمْ يَتَّبِعُنِي إلى الله، وينصُرني لأبْلغ دين ربِّي. وحالُه كحالِ نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد كان يَعْرِضُ نَفْسَه على الناس في الموقف قبل الهجرة، ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي»^(١)، وفي رواية: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسُ فِي مَنَازِلِهِمْ بَعُكَاظٍ وَبِحَنَّةٍ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِوَنَى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي، حَتَّى أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟»^(٢).

فانتدب لعيسى عَلَيْهِ السَّلَام طائفةً من أصحابه، ﴿قَالَ الْخَوَارِثُوتُ﴾ الأصفياء من أتباعه وخواصَّهم. و(الخواري) : مأخوذٌ من الحور، وهو البياض. سُمُّوا بذلك؛ لبياض قُلُوبِهِمْ، وسلامتها من أثر المعاصي. والخواري: الناصر.

فقالوا: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نصُر دينه، ونصُرَكَ - يا عيسى - لتبْلُغه.

﴿عَامِنًا بِاللَّهِ﴾: بتصديق وإقرار، وقيام بما يلزمه هذا الإيمان، من نُصرة دين الله، والدَّبُّ عن أوليائه، والمحاربة لأعدائه.

﴿وَأَشْهَدُ﴾ - يا نبيِّنا عيسى - ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُنقادون لأوامر الله، مُخلصون له. وأشهدُ لنا يوم القيامة حين تَشْهَدُ الرُّسُلُ لأقوامهم.

وفي هذه الآية من القوائد:

أهميَّة استشعار الدَّاعية لمواقف المدعوِّين وأحوالهم وكلامهم؛ ليتَّخَذَ الموقفَ المناسبَ لكلِّ واحدٍ منهم ولكلِّ حالة.

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٤٧).

(٢) رواه أحمد (١٤٠٤٧)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٦٢٤١).

وفيها: تمييز الصفوف، بالدعوة إلى نُصرة الحق، والتفريق بين الذين يَقِفُونَ مع الحق، والذين يُعَادُوهُ.

وفيها: أهمية الجنود والأتباع في نُصرة الدعوة.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية: اتِّخَاذَ السُّبُلِ الكفيلة بتمكينه من تبليغ دين الله.

وفيها: الاستعانة بعد الله بالمُخْلِصِينَ في الحماية والنُّصرة.

وفيها: أنَّ المواقف الصعبة تميِّز الأشخاص، وتُظهِر الحقائق.

وفيها: أهمية الأصحاب المُقَرَّبِينَ، والأصفياء والخواصَّ المُخْلِصِينَ؛ لأنَّهم أفقهُ وأفهمُ وأعلمُ في نقل الدين، وأصبرُ وأثبتُ وأقوى في الدِّفاع عنه.

وفيها: أنَّ على مُريد القيام بأمر الله، أن يبيِّن ذلك لمن يتتدبَّه، كما قال الحواريون: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ؟﴾. ومثل هذا البيان في مثل تلك المواقف العصبية، ليس من الرِّياء ولا السُّمعة؛ بل هو محمودٌ، ممدوحٌ صاحبه.

وفيها: الجَمْعُ بين حُسن الباطن وحُسن الظاهر؛ فقد قيل: إنَّ سَبَبَ تسمية (الحواريين) بهذا الاسم: بياضُ قُلُوبِهِم ونقاؤُها، وبياضُ ثيابِهِم وطهارتُها.

وفيها: طَلَبُ النجاة في الآخرة؛ أَجْرًا على العَمَلِ للدين في الدنيا.

وفيها: استِشهاد مَنْ تُعْتَبَرُ شهادته عند ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ الرُّسُلَ كانوا يَدْعُونَ إلى الله، لا إلى أنفُسِهِم، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية أن يُوجِّهَ مَنْ يَتَّبِعُهُ لخدمة دين الله، لا لخدمته هو.

وفيها: أنَّ الرُّسُلَ - مع عُلُوِّ مقامِهِم وتأْيِيدِهِم من الله - يَحْتَاجُونَ إلى مَنْ يَنْصُرُهُم من الناس، وبهذا جَرَتْ سُنَّةُ الله، مع استغنائِهِ عن هؤلاء الناصرين؛ ليُظْهَرَ فَضْلُهُم، وَيَعْظَمَ أَجْرُهُم، وتَعْلُوَ مكانَتُهُم عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: ذِكْرُ الإسلام العامِّ، الذي كان عليه جميع الرُّسُل وأتباعِهِم.

وفيها: أَنَّ الرُّسُلَ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ.

وفيها: جَوَازُ قَوْلِ الْإِنْسَانِ: «أَنَا مُسْلِمٌ»، إِذَا كَانَ صَادِقًا.

وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي -عِنْدَ الْحَاجَةِ- أَنْ يُعْلِنَ الْمُسْلِمُ نُصْرَتَهُ لِلدِّينِ وَالرُّسُلِ، كَمَا فَعَلَ الْخَوَارِثِيُّونَ، وَكَمَا فَعَلَ مُؤْمِنُ آلِ يَاسِينَ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ -فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وفيها: فَضْلُ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وفيها: أَنَّ الْمُسْلِمَ قَوِيٌّ بِإِخْوَانِهِ وَأَنْصَارِهِ.

وفيها: أَنَّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ: مُرُورُ الْأَنْبِيَاءِ وَدَعْوَتِهِمْ بِمَرَاكِحِ الْإِسْتِزْعَافِ، وَالْخَوْفِ مِنْ بَطْشِ الْعَدُوِّ، وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ.

وفيها: مَكْرُ الْيَهُودِ، وَخُبْثَتِهِمْ، حَتَّى أَجْأُوا نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاضْطَرُّوهُ إِلَى طَلَبِ النُّصْرَةِ وَالْحِمَايَةِ، بَعْدَمَا أَظْهَرُوا التَّكْذِيبَ، بَلْ سَعَوْا فِي قَتْلِهِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ اخْتَفَى عَنْهُمْ، وَخَرَجَ هُوَ وَأُمُّهُ يَسِيحَانِ فِي الْأَرْضِ، يَعْبُدَانِ اللَّهَ، وَيَدْعُوَانِ إِلَيْهِ.

وفيها: أَنَّ طَلَبَ الْأَنْبِيَاءِ النُّصْرَةَ وَالْأَنْصَارَ، هُوَ مِنْ بَابِ اخْتِذَاذِ الْوَسَائِلِ لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ، وَهُوَ التَّبْلِيغُ.

وفيها: حُسْنُ تَرْبِيَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ؛ فَقَدْ تَبَيَّنَ -مِنْ كَلَامِهِمْ- تَعَلُّقُهُمْ بِاللَّهِ، لَا بِشَخْصٍ نَبِيِّهِمْ؛ فَقَالُوا: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ عَامَّةً يَا اللَّهُ﴾.

وفيها: تَجَرُّدُ الدَّاعِيَةِ عَنِ الْمَآرِبِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْأَغْرَاضِ وَالْأَطْمَاعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَلَّا يَجْعَلَ نَفْسَهُ الْمِخْوَرَ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ الْمَدْعُودُونَ؛ وَإِنَّمَا يَجْعَلُ التَّفَافُهُمْ حَوْلَ الدِّينِ، وَعَمَلِهِمْ فِي نُصْرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وفيها: أَنَّ نُصْرَةَ الْحَقِّ فِي وَقْتِ الْخَطَرِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ، يَعْظُمُ بِهَا الْأَجْرُ، وَيَتِمَحَّصُ بِهَا الْمُخْلِصُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

وفيها: أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى الْحَقِّ إِذَا طَلَبَ النُّصْرَةَ؛ تَجِبُ إِجَابَتُهَا.

﴿رَبَّنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٧):

ولما أشهد الحواريون نبيهم عيسى عليه السلام على إيمانهم وإسلامهم؛ تضرعوا إلى الله تعالى، قائلين: ﴿رَبَّنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ على نبينا، من كتابك الإنجيل، وما سبق من الكتب. ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي: امتثلنا، وأطعنا ما جاء به نبينا؛ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: اجعلنا في جملتهم، واكتب أسماءنا مع أسمائهم.

ويدخل في الشاهدين: كل من شهد للرسل بالحق، ومنهم: أهل العلم؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله ﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، ولا تقتضي المخالطة ولا الموافقة في الزمن؛ ولذلك صحَّ عن ابن عباس رضيهما في قوله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال: «مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم» (١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التوسل إلى الله سبحانه بالأعمال التي يحبها، كما توسل الحواريون بالإيمان بكتبه، واتباعهم نبيه عليه السلام.

وفيها: أنه يجب الإيمان بجميع ما أنزل الله من الكتب.

وفيها: الاحتراز عن الكتب المخرفة؛ لأن الحواريين قالوا: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾.

وفيها: أن اتباع الرسول المرسل من الله، هو ثمرة الإيمان.

وفيها: أنه كلما قوي الإيمان قوي الاتباع، وكلما نقص الإيمان نقص الاتباع؛ لأن المؤمن حقاً لا بُدَّ أن يتعرف على ما آمن به، ويعمل به، وهذا لا يمكن إلا بمعرفة عمل النبي، الذي يبين ما أنزله الله إليه.

وفيها: أنه لا بُدَّ من العمل الصالح مع الإيمان، والعمل الصالح لا يمكن معرفته إلا بالاتباع.

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٦).

وفيها: الحِرْص على صُحبة الأخيار.

وفيها: فَضْل أُمَّة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ، يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَلَى قَوْمِهِ أَنَّهُ بَلَغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّاهَا.

وفيها: فَضْل مَنْ يَشْهَدُ لِلرُّسُلِ بِالْحَقِّ.

وفيها: الاقْتِدَاءُ بِالصَّالِحِينَ، وَاتِّبَاعُ مَنْهَجِهِمْ فِي الْإِيمَانِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَقَامَ الشَّاهِدِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي بِمَا يَنَالُهُ مِنْ أَذَى وَمَشَقَّةٍ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ الدِّينِ.

وفيها: فَضْلُ الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ، وَهَذَا يَقْتَضِي الْعِلْمَ بِالمَشْهُودِ بِهِ، وَاعْتِقَادَهُ، وَإِعْلَانَهُ، وَالْقِيَامَ بِمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْعَمَلِ.

وفيها: الطَّمَعُ بِالدُّخُولِ مَعَ أَهْلِ الْفَضْلِ؛ لَنَيْلِ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَحُسْنِ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وفيها: أَنَّ تَوْسُلَ الْخَوَارِئِينَ إِلَى رَبِّهِمْ بِالدُّعَاءِ، يُنَافِي أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ مَجَرَّدَ ادِّعَاءٍ.

وفيها: تَوْسُلُ الْمُؤْمِنِ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَالْمَوَاقِفِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي شَهِدَهَا، وَحُسْنِ الْبَلَاءِ الَّذِي أَبْلَاهُ.

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ (٥٤):

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مَكْرِ الْمُجْرِمِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِعَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَالَ: ﴿وَمَكْرُوا﴾ أَي: بِمَا هُمُومُوا بِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى عَادَتِهِمْ فِي قَتْلِ النَّبِيِّينَ، فَتَمَالَؤُوا عَلَى ذَلِكَ، وَاسْتَعْمَلُوا الْحِيلَةَ وَالْخِدَاعَ وَالْوِشَايَةَ، وَحَاكُوا الْمُوَاسَاةَ، وَاسْتَشَارُوا مَنْ عَاوَنَهُمْ، وَأَحَاطُوا بِمَنْزِلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَتْلِهِ. وَ(الْمَكْرُ): الْإِنْتِقَامُ مِنَ الْخَصْمِ بِأَسْبَابِ خَفِيَّةٍ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: وَهَذَا مَكْرٌ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ فَإِنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ مَكْرِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى

لَا يَمْكُرُ بِالْبَرِيِّ؛ وَإِنَّمَا يَمْكُرُ بِالْخَبِيثِ الْمَخَادِعِ، وَيَمْكُرُ بِأَعْدَائِهِ، وَبِمَنْ يَمْكُرُ بِرُسُلِهِ وَدِينِهِ.
وَكَانَ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ: أَنَّهُ أَبْطَلَ عَمَلَهُمْ، وَأَفْشَلَ مَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ، وَنَجَّى عَبْدَهُ وَنَبِيَّهَ
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى شَبَّهُهَ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ، فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ
وَصَلَبُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].
وَلِذَا قَالَ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِكِينَ﴾ أَي: لَا يَمْكُرُ أَحَدٌ إِلَّا وَمَكْرُ اللَّهِ فَوْقَهُ، وَخَيْرٌ مِنْهُ، وَاللَّهُ
أَقْوَى وَأَقْدَرُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جُزْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، وَاسْتِعْمَالُهُمُ الْحِيلَةَ وَالْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ
الْغَايَةِ الْخَبِيثَةِ.

وفيهما: إثبات صفة (المَكْر) لله عَزَّوَجَلَّ، كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ. وَهِيَ صِفَةُ كِمَالٍ فِي حَقِّ
اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ يَمْكُرُ بِأَعْدَائِهِ الْمَاكِرِينَ. لَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ نَشْتَقَّ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ اسْمًا لِلَّهِ؛ فَلَا
يُقَالُ عَنِ اللَّهِ: «مَّاكِرٌ»؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُسَمَّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَلِأَنَّ الْمَكْرَ لَيْسَ صِفَةً كِمَالٍ بِإِطْلَاقٍ؛ فَلَا
بَدَّ مِنْ تَقْيِيدِهَا؛ فَيُقَالُ -مَثَلًا-: «اللَّهُ يَمْكُرُ بِمَنْ مَكَرَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

وفيهما: أَنَّ مُقَابَلَةَ الْمَسِيءِ بِمَا يُسُوؤُهُ عَدْلٌ وَمُحَمَّدَةٌ وَكِمَالٌ، دَالٌّ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ.
وفي الآية: أَنَّ الْمَكْرَ مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى، يُجَازِي بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَيُدَافِعُ بِهِ عَنْ أَوْلِيَائِهِ؛ وَلِذَلِكَ
جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: «وَأَمْكُرْ لِي، وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ»^(١).
وفيهما: قُدْرَةُ اللَّهِ وَقُوَّتُهُ، فِي إِبْطَالِ مَكْرِ أَعْدَائِهِ، وَدِفَاعِهِ عَنْ أَوْلِيَائِهِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا
بِالْإِسْتِدْرَاجِ، وَإِتْيَانِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَخِدَاعَتِهِمْ، وَالْحَاقِ الضَّرَرَ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ، وَالْإِتْقَامَ مِنْهُمْ بِطَرِيقِ خَفِيٍّ، وَالْإِيقَاعَ بِهِمْ وَهُمْ غَافِلُونَ، وَمَعَاقِبَتَهُمْ بِنَقِيضِ
مَقْصُودِهِمْ وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْصَمُونَ.

(١) رواه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٨٥).

فقد نجى الله تعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلَام من أيدي اليهود، وهم يظنون أنهم ظفروا بمطلوبهم، وحقّقوا غرضهم، ولكن الله رفعه إليه، لينزل بإذن الله في آخر الزمان، فيقاتلهم، ويرغم أنوفهم، فلا يقبل منهم الجزية؛ وإنما الإسلام، أو القتل. فأبقاه الله تعالى ليُعَذَّب به اليهود في آخر الزمان.

وفيها: أن الله خير الماكِرين: يمكر بالحق والعدل، والمكذبون المعاندون يمكرون بالباطل. ومكر الكفار يكون سعيًا في إبطال دينه، ومكره عَجَلٌ لإعلاء ونصر دينه وشرعه. ومكر العباد ظلم، ومكر الله تعالى عدل.

وفيها: أن تدبير الله مُحْكَم؛ فلا يُفْلِت منه أحد، وأما مكر المخلوقين وتدبيرهم: فيعتريه القصور والخلل والفشل.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَبِيٍّ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾

ثم بين الله تعالى كيف مكر بهؤلاء اليهود، ونجى عبده ونبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَام؛ فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَبِيٍّ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ قال بعض المفسرين: قابضك. تقول العرب: «توفي» فلان دينه من فلان، أي: حازه وقبضه.

وأكثر المفسرين على أن الوفاة هنا هي: وفاة النوم، وهي المَوْتَةُ الصغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وليست الوفاة الكبرى بالموت. والمعنى: يُلقِي عليه النوم.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: في حال نومه، ليمكث في السماء حيًا، حتى ينزل في آخر الزمان قبل قيام الساعة.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مبرئك مما اتهموك به وافترؤا عليك بالباطل، كقولهم: إن أمه زانية، وأنه ابن زنا - والعياذ بالله - فيبين الله براءته من ذلك فيما أنزل عَزَّ وَجَلَّ. وطهره أيضًا من الذين كفروا، بأن نجاه منهم، وخلصه من شرهم.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ وآمنوا أنك عبدُ الله ورسوله، واتبَعُوا شَرِيعَتَكَ ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - من اليهود وغيرهم - ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، والمراد: أن هذه الفوقية والاستِعلاء والغلبة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذه الفوقية تشمل: فوقية الحُجَّة والبيان، وفوقية القهر بالسيف والسنان والسلطان.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «هم أهل الإسلام، الذين اتَّبَعُوهُ عَلَى فِطْرَتِهِ وَمِلَّتِهِ وَسُنَّتِهِ، فَلَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقد تحقَّق ذلك وحصل وَعْدُ اللهِ؛ فانتصر أتباعُ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ، فَذَهَبَ مُلْكُ الْيَهُودِ. وحصل التحريفُ في دين النصارى، ولكنَّهم - على كُلِّ حال - أَخَفُّ كُفْرًا مِنَ الْيَهُودِ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَكَانَ صَحَابَتُهُ هُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ صِدْقًا، وَأَوَّلَى بِالْمَسِيحِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَدُوًّا وَحَقًّا؛ فَجَعَلَهُمُ اللهُ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ، وَأَوْرَثَهُمُ بِلَادَ النَّصَارَى، فَفَتَحُوا الشَّامَ وَغَيْرَهَا، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ فِي الْأَرْضِ، وَالطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ - أَتْبَاعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظَاهِرِينَ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، أَوِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ، حَتَّى يُخْرِجَ الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُقَاتِلُونَ النَّصَارَى، وَيَتَنَصَّرُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَرِ مِثْلُهُ، وَيَفْتَحُونَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُقَاتِلُونَ مَعَهُ الْيَهُودَ وَالذُّجَالَ، وَيُهْلِكُ اللهُ الْكَفَّارَ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَتَتِمُّ الْفُوقِيَّةُ وَالظُّهُورُ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء الدنيا وقيام الساعة ﴿إِلَى مَرْجِعِكُمْ﴾ ومصيركم، إلى الله لا إلى غيره، ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ - يومئذٍ - ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدِّينِ.

وفي هذه الآية من القوائد:

تطهير الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتخليصه من أذى الكفار - حَسِيًّا وَمَعْنَوِيًّا - فَنَجَّاهُ مِنْ سُوءِ الْجَوَارِ، وَمِنْ مُعَاشِرَةِ مَنْ آذَاهُ مِنَ الْكَفَّارِ.

وفيها: دليلٌ بَيِّنٌ عَلَى عُلُوِّ اللهِ تَعَالَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: من الأرض إلى السماء.

(١) تفسير الطبري (٦/٤٦٢)، تفسير ابن المنذر (١/٢٢٣).

وفيها: أَنَّ رَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى السَّمَاءِ كَانَ بِيَدَنِهِ وَرُوحَهُ، وَأَنَّهُ رُفِعَ وَهُوَ نَائِمٌ.

وفيها: إِيْناسُ اللَّهِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِإِخْبَارِهِ عَنْ رَفْعِهِ إِلَيْهِ، وَمَا سَيَقَعُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ، وَفِي هَذَا إِعْدَادُ نَفْسِيٍّ لَهُ وَطُمَأْنِينَةٌ.

وفيها: شَرَفُ عَظِيمِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِخُطَابِ اللَّهِ لَهُ، وَبِرَفْعِهِ إِلَيْهِ، وَحِفْظِهِ أَثْنَاءَ رَفْعِهِ، وَتَبَرُّثِهِ مِنَ الْبُهْتَانِ الْعَظِيمِ، وَتَقْدِيرِ النِّصْرِ لِاتِّبَاعِهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَنْتَصِرُ لِأَنْبِيَائِهِ، وَيُدَافِعُ عَنْ أَوْلِيَائِهِ، وَيَحْفَظُهُمْ بِحِفْظِهِ، وَيُنَجِّيهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ.

وفيها: أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْتَهِ عُمُرُهُ بَعْدَ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ أَجَلَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عُمُرًا طَوِيلًا، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا - جَسَدًا وَرُوحًا - وَهُوَ يَعِيشُ الْآنَ فِي مَحَلِّ كَرَامَةِ اللَّهِ، وَمَقَرِّ مَلَائِكَتِهِ.

وفيها: شِنَاعَةُ فِعْلِ الْيَهُودِ، فِيمَا نَسَبُوهُ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَأُمَّهُ مِنَ التُّهْمِ الْبَاطِلَةِ.

وفيها: أَنَّ إِذْءَاءَ الْأَنْبِيَاءِ كُفْرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمُظْهِرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وفيها: أَنَّ الظُّهُورَ لِأَهْلِ الْحَقِّ بَاقٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، سِوَاءَ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، أَوْ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ النِّصْرَ لِاتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ.

وفيها: أَنَّ نُصْرَةَ الْإِتِّبَاعِ نُصْرَةٌ لِلْمُتَّبِعِ.

وفيها: أَنَّ أَتِّبَاعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هُمُ الْمُؤَخِّدُونَ الْمُسْتَجِيبُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: شَرَفُ عَظِيمٍ لِلَّذِينَ يُدَافِعُونَ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُظْهِرُونَ بَرَاءَتَهُ مِنَ التُّهْمِ الْبَاطِلَةِ وَقَالَةِ الشُّوْءِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَحَقَّقَ وَعَدُ اللَّهِ الْحَسَنُ عَلَى يَدَيْهِ - وَهُوَ مُؤْمِنٌ -؛ فَهُوَ صَاحِبُ مَنَزَلَةٍ رَفِيعَةٍ.

وفيها: مَكْرُ اللَّهِ بِأَعْدَاءِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَدْ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا، فَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ اللَّهُ مِمَّا كَانُوا يُرِيدُونَهُ، لَا فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي نَفْسِهِ.

وفيها: إخبار الله تعالى عن ذُلِّ اليهود، وهم أعداء عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وأنهم لا يزالون مغلوبين إلى قيام الساعة.

وفيها: أَنَّ الغُلَّةَ الحاصِلَ في عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، ليس هو من حقيقة اتِّباعه.

وفيها: أَنَّ انتصار الكفار على المسلمين في الدنيا، لا يُنافي وَعْدَ الله بِالْغَلْبَةِ للمؤمنين؛ لأنَّ انتصار الكفار لا يدوم، وما يُلْحَقُ بهم من الخسائر والهزائم والأذى أضعافُ ما يقع للمسلمين، ولا بُدَّ أن تعود الغلبة لأهل الإيمان.

ثم إنَّ انتصارهم ماديٌّ بالسَّلاح والطُّغيان، وليس انتصارٌ منهج وعقيدة، والانتصارُ الحقيقيُّ هو عُلُوُّ المنهج والعقيدة - وهو انتصار أهل الإسلام في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ - وغلبة الحُجَّة والبيان تكون لأهل الإيمان، لا غيرهم على كُلِّ حال.

وما يحصل من انتصار الكفار في بعض الجولات؛ فإنَّما هو استدراجٌ ومَكْرٌ من الله بهم، ثم تأتيهم الهزيمة.

وما يحصل من هزيمة المسلمين - إذا حصلت - فإنَّما هو من التمحيص والابتلاء، ولرفعِ الدرجات، واتِّخَاذِ الشُّهداء، والتطهير من العُجْب والغرور وغيرها من آفات القُلُوب، وليكونوا قُدُوةً لغيرهم في الثبات.

وأخيراً: فالنصر في الآخرة لا يكون إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وفي الآية: أَنَّ مرجع الخلائق إلى الله يوم القيامة، وأنَّ الحُكْمَ راجعٌ إليه، وأنَّه سبحانه الحَكَمُ في الدنيا والآخرة.

وفيها: بِشارةٌ للمؤمنين، بأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي سيقضي بينهم وبين الكفار، ومَنْ قضى الله له فهو منصور، ومَنْ كان الله حَصَمَهُ فهو مغلوبٌ مدحورٌ.

وفيها: أَنَّ الخُصُومة تقع بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، امتداداً لخصومة الدنيا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وفيها: أَنَّ الخلاف بين المسلمين والكفار جوهرِيٌّ أساسيٌّ، وأنَّه خلاف تضادٍّ، وأنَّه لا

يُمْكِنُ انْتِزَاعُ الْعِدَاوَةِ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَلَا يُمَكِّنُ اجْتِمَاعُهُمْ جَمِيعًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، إِلَّا بِدُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ.

وَفِي الْآيَةِ: وَعَذُّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَعِيدٌ لِلكَافِرِينَ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٥٦):

ثُمَّ فَصَّلَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَدَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَعِيدَهُ لِلكَافِرِينَ؛ فَبَدَأَ بِجَزَاءِ الْكَافِرِينَ؛ فَقَالَ:

﴿فَأَمَّا﴾ (الفاء) لِلإِسْتِثْنَاءِ، وَ(أَمَّا) حَرْفُ شَرْطٍ وَتَفْصِيلٍ، وَمَا بَعْدَهَا فَرْعٌ عَمَّا قَبْلُهَا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَ(الْكُفْرُ) فِي اللُّغَةِ: السُّتْرُ، وَسُمِّيَ الْكَافِرُ بِذَلِكَ؛ لِتَغْطِيَتِهِ حَقِيقَةُ الْأُلُوْهِيَّةِ وَالْعِبَادِيَّةِ، وَجَحْدِهَا، وَسُتِّرَ نَعَمَ اللَّهُ وَعَدَمَ الْاعْتِرَافِ بِهَا.

﴿فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾: بِالْقَتْلِ، وَالسَّبْيِ، وَالْأَسْرِ، وَالْجَزْيَةِ، وَالتَّسْلِيْطِ عَلَيْهِمْ، وَإِقْقَاعِ الصُّبْحِ وَالْحَسْرَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْقَلْقِ وَالِاضْطِرَابِ وَالْحَيْرَةِ وَالْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ؛ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِمُ الْأَلَمُ الْقَلْبِيُّ وَالْأَلَمُ الْبَدَنِيُّ. وَ(العذاب): هُوَ وَقُوعُ الْمَشَقَّةِ، بِذَنْبٍ أَوْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، فَإِذَا وَقَعَ بِذَنْبٍ فَهُوَ عَذَابٌ عَقُوبِيٌّ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا.

فكَذَلِكَ فَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَنْ كَفَرَ بِالْمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ، أَوْ غَلَا فِيهِ مِنَ النَّصَارَى؛ فَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ، وَالسَّبْيِ، وَأَخَذِ الْأَمْوَالِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِيُوتِهِمْ، وَإِزَالَةِ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْمَالِكِ وَالْدِّيَارِ.

﴿وَالْآخِرَةِ﴾: يَعَذِّبُهُمْ فِيهَا بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]. وَظَاهَرِ الْآيَةِ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمُ الْعَذَابُ فِي الدَّارَيْنِ.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أَي: لَا يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧):

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حُسْنَ جَزَائِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَمَا

أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خَالِصَةً لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَى السُّنَّةِ، وَامْتَثَلُوا الْأَوَامِرَ، وَاجْتَنَبُوا النَّوَاهِيَ؛ ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ أَي: يُعْطِيهِمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ مَوْفَرًا كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ. وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ -بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ- أَوْجِبَ الْأَجْرَ عَلَى نَفْسِهِ.

وهذه (التوفية) تكون في الدُّنْيَا: بِالنَّصْرِ وَالْإِعْزَازِ وَالْغَلْبَةِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ: بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ، وَقِسْمَةِ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: ظَلَمَ الْإِخْلَاصَ بِالشَّرْكِ وَالرِّيَاءِ، وَظَلَمَ الْعَمَلَ بِالنَّقْصِ وَالْبِدْعَةِ. وَمَنْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ؛ فَاللَّهُ لَا يُحِبُّهُ، وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾:

﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الْمَذْكُورُ، مِنْ خَبَرِ عِيسَى وَأُمِّهِ وَأُمَّهَا وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَخَبَرِ الْخَوَارِئِينَ، وَالْيَهُودِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. كُلُّ ذَلِكَ ﴿نَتْلُوهُ﴾: نَقْرُوهُ مُتَتَالِيًا، يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿عَلَيْكَ﴾ -يَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِوَسْطَةِ رَسُولِنَا جَبْرِيلَ ﴿مِنْ﴾ وَهِيَ بَيَانِيَّةٌ -تُبَيِّنُ الْمَشَارَإِلِيهِ فِي قَوْلِهِ (ذَلِكَ)- ﴿الْآيَاتِ﴾ أَي: الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى نُبُوَّتِكَ -يَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقُدْرَةِ رَبِّكَ.

﴿وَالذِّكْرِ﴾: مَا يَحْصُلُ بِهِ التَّذْكِيرُ وَالِانْتِفَاعُ، وَالْمَوْعِظَةُ ذِكْرِي، وَهُوَ أَيْضًا الشَّرَفُ الْعَظِيمُ. ﴿الْحَكِيمِ﴾ أَي: الْمُحْكَمُ الْمُتَقَنُّ، الَّذِي لَا خِلَالَ فِيهِ، وَالْحَاكِمُ بَيْنَ النَّاسِ.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى: تَعْجِيلَ شَيْءٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِلْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَتَعْجِيلَ شَيْءٍ مِنَ الْمَثُوبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهَا؛ رَدْعًا لِلْكَفَّارِ؛ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَتَثْبِيثًا لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ.

وفيها: اسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ طَرِيقَةَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فِي الْمَوْعِظَةِ.

وفيها: شِدَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخِطَابِ مَعَ الْكَفَّارِ، كَمَا فِي أَسْلُوبِ الْمَوَاجَهَةِ وَضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعَذِّبْهُمْ﴾.

وفيها: تودد الله تعالى للمؤمنين، وتلطّفه معهم؛ كما في ضمير الغائب في قوله: ﴿فَيُؤْفِقُهُمْ﴾.

وفيها: شدّة عذاب الله للكفار؛ فإنه جَمَعَ - في إخباره عن ذلك - بين قيامه به بنفسه، ووَصَفِهِ إِيَّاهُ بِالشَّدَةِ، وتأكّيده له، فقال: ﴿فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾، وأنه لا ناصر لهم يمنعه، ولا يرفّعه، ولا يخفّفه.

وفيها: أن عذاب الله للكافرين في الدُّنيا عامٌّ وشاملٌ، وهذا يدخل فيه: ما كان بأيدي المؤمنين من القتل والأسر والجُزْيَةِ، وما يُرْسِلُهُ اللهُ عَلَى الكافرين من الأوبئة والزلازل والأعاصير والفيضانات ونحوها.

وفيها: أن وفاء الأجر للمؤمنين مُرْتَبِطٌ بِوَصْفَيْنِ؛ هما: الإيمان والعمل الصالح. وفيها: علُوُّ منزلة الآخرة على منزلة الدُّنيا، وإِنَّمَا سُمِّيَتْ (دنيا)؛ لِدُنُوِّ منزلتها عن الآخرة؛ فنعيم الدُّنيا دَانٍ نَازِلٌ عن مرتبة نعيم الآخرة، وهو مَشُوبٌ بِالكَدَرِ، مَنْغَصٌ بِالْآفَاتِ، فَإِنِ بِالْهَرَمِ وَالْمَوْتِ.

وسُمِّيَتْ (الدُّنيا) بذلك أيضًا؛ لِدُنُوِّهَا وَقُرْبَاهَا، ووقوعها قبل الآخرة في الترتيب الزمني. وفيها: أن عذاب الدُّنيا لا يُغْنِي الكفار عن عذاب الآخرة.

وفيها: أن الكفار لا ناصر لهم من عذاب الله، ولا تنفعهم الشفاعة، ولا يؤذَن لأحد بالشفاعة فيهم أصلًا.

وفيها: أن الإيمان لا بُدَّ له من عمل يُعَدِّيهِ وَيُنْمِيهِ، وَيَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ.

وفيها: كَرَّمَ اللهُ تَعَالَى وَمِثَّتْهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَدْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْأَجْرَ لِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعِبَادِ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ	مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ
إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ	كَأَنَّ وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
فِي فَضْلِهِ، وَالْحَمْدُ لِلْمَنَّانِ ^(١)	إِنْ عَذَّبُوا فَبَعْدِلَهُ، أَوْ نَعَّمُوا

وفيها: مِنَّةُ اللَّهِ تعالى على المؤمنين؛ حيث جعل الجزاء كالأجر اللازم الوفاء، ولو قيل لهم: إنَّ أعمالكم الصالحة هي في مُقابلِ نِعَمِ اللَّهِ عليكم؛ لَبَقُوا مَدِينِينَ مَهْمَا فَعَلُوا. ولو قيل لهم: مُدَّةُ بَقَائِكُمْ فِي الْجَنَّةِ هي بِحَسَبِ مُدَّةِ عِبَادَتِكُمْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ تُخْرَجُونَ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ زِيَادَةُ فَضْلٍ وَإِنْعَامٍ، فَكَيْفَ وَهُوَ يُعْطِيهِمْ نَعِيمًا لَا يَفْنَى، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وفيها: سُؤْمُ الظُّلْمِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لَانْتِفَاءِ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلظَّالِمِ، فَاللَّهُ يَكْرَهُهُ، وَهُوَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

وفيها: أَنَّ الْإِخْلَالَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْمَتَابَعَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الظُّلْمِ.

وفيها: إِظْهَارُ السُّلْطَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْعِزَّةِ فِي بَابِ الْعُقُوبَةِ، وَإِظْهَارُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَاللِّينِ فِي بَابِ الْمَثُوبَةِ.

وَيُؤْخَذُ مِنَ الْآيَاتِ: الْفَرْقُ بَيْنَ طَرِيقَةِ خُطَابِ الْكَافِرِينَ، وَخُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفيها: تَثْبِيتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِقَصَصِ النَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ.

وفيها: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ شَرَفٌ عَظِيمٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ الذِّكْرِ ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وفيها: أَنَّ الْقُرْآنَ ذِكْرٌ بِاللِّسَانِ بِتِلَاوَتِهِ، وَذِكْرٌ لِلْمُسْلِمِ وَشَرَفٌ بِرَفْعَتِهِ، وَذِكْرٌ يَتَذَكَّرُ بِهِ الْمُؤْمِنُ بِمَوْعِظَتِهِ.

وفيها: وَصَفُ الْقُرْآنِ بِ(الذِّكْرِ الْحَكِيمِ)؛ فَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ الْإِحْكَامِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْحُكْمِ؛ فَهُوَ مُتَقَنَّ لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا اضْطِرَابٌ، وَهُوَ يَضَعُ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا اللَّائِقَةِ بِهَا، وَهُوَ الْحَاكِمُ وَالْقَاضِي الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ.

وفيها: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ تَلَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَامِلًا، عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أَنَّ قِصَصَ الْقِصَصِ الْمُفَصَّلَةِ أَحْدَاثُهَا، الْمَبِينَةُ أَشْخَاصُهَا، الْوَاضِحَةُ فِي السَّرْدِ، الْمَقْرُونَةُ بِالْعِبَرِ؛ دَلِيلٌ عَلَى نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآيَةٌ شَاهِدَةٌ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَهُوَ الَّذِي قَدَّرَ تِلْكَ الْأَحْدَاثَ وَأَجْرَى هَذِهِ الْوَقَائِعَ.

وأما كتب التاريخ وحكايات الناس: فكثيراً ما يعترها التضارب والتناقض، وغياب التفاصيل، والجهل ببعض الأحداث.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

ولما كانت هذه السورة العظيمة قد نزل أولها في شأن نصارى نجران، الذين جاءوا إلى النبي ﷺ، وهم يعتقدون أن عيسى ابن الله، وكانت شبهتهم في هذا أنه ولد بلا أب: جاءت الآيات في هذه السورة تفنيد شبهتهم، وتبين لهم أمر عيسى عليه السلام، وأن خلقه بلا أب لا يوجب أن يكون ابناً لله، كما أن خلق آدم عليه السلام بلا أب ولا أم لا يخرج عنه كونه عبداً مخلوقاً لله.

فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى﴾ أي: شأنه وصفته، في خلق الله له ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قدرته؛ ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي: كشأن آدم ومبدأ أمره؛ فقد ﴿خَلَقَهُ﴾: أوجده الله وابتدأ خلقه ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ ميت جماد، ثم صار طيناً لزجاً، وهيكلًا وجسمًا بلا روح، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾؛ فخلقته بالكلمة، وجعله بها حيًا ذا روح. ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فقام بين يدي الله بشراً ناطقًا متكلمًا، مستوي الأعضاء والجوارح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قدرة الله تعالى في الخلق.

وفيها: إثبات القياس الصحيح، واستعمال التشبيه لبيان الحق وتوضيحه للأذهان، والرجوع في المناظرة إلى ما يسلم به الخصم للبناء عليه.

وفيها: أن الله يخلق بالكلمة والأمر.

وفيها: إفحام النصارى، وتفنيدهم شبهتهم في عيسى عليه السلام؛ فإن من خلق آدم بلا أب ولا أم، يقدر - من باب أولى - على خلق عيسى من أم بلا أب، وأن من خلق آدم من تراب قادر على أن يخلق عيسى من دم مريم؛ بل تولد الإنسان من الدم أقرب إلى العقل من تولده من التراب اليابس. وخروج الحي من الجأمة الميت أعجب من خروج الحي من الحي.

وفيها: تشبيهٌ للعجيب بالأعجب؛ ليكونَ أوقعَ في النفس، وأشدَّ إفحامًا للخصم، وأحسمَ للشبهة.

وفيها: حكايةٌ ما حصل في الماضي بصيغة المضارع؛ فقال: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ولم يقل: «كُنْ فكان» - كما هو المتبادر -؛ وهذا تصويرٌ للحال، وعَرَضَ له كأنه يحدث الآن، وتنبيةٌ على أنَّ هذا هو الشأن دائمًا في خَلْقِ الله.

وفيها: إثباتُ بشريةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الله تعالى يَخْلُقُ من الأشياء ويُقَدِّرُ من الحوادث، ما فيه تمحيصٌ لإيمان البشر، فيزيغ بعضهم ويستجيب للشبهة، ويزداد إيمانُ بعضهم ويصبح أشدَّ بصيرة؛ فيكون الحدث الواحد نعمةً وفائدةً لقوم، وفِتْنَةً وبلاءً لآخرين.

وفي الآية: مَثَلٌ للدُّعَاةِ في تفنيدِ شُبُهَاتِ الكافرين والمكذِّبين.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ٦٠:

ثم أَكَّدَ عَزَّوَجَلَّ ما أَخْبَرَ به نبيُّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهاه - بعدما جاءه البيانُ - عن الشكِّ، مهما كانت شُبُهَاتُ هؤلاء النصارى.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَقُّ﴾ أي: ما قَصَصْنَاهُ عليك - في شأن عيسى وأُمَّه - هو الخبر الحقُّ، والقول الصدق، الذي لا شكَّ فيه. وأصل (الحقُّ): هو الشيء الثابت.

﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: مَصْدَرُهُ من الله، فلا تَطْلُبِ الحقَّ من غيره.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين فيه، فابْقَ على يقينك، واطمئنَّ، ودَعْ باطل الذين قالوا: إنَّ عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى لا يقول إلا الحقَّ.

وفيها: النهي عن الشكِّ فيما أَخْبَرَ به الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: عدم جواز التأثر بشبهات أهل الباطل.

وفيها: أنَّ كثرة الشاكِّين لا تفتن مَنْ هو على الحقِّ، وهذا هو الواجب عليه.

وفيها: وجوب الثبات على الحقِّ، والاستمرار عليه.

وفيها: أنَّ النصراني واليهود ليسوا على حقٍّ في اعتقادهم بشأن عيسى وأُمَّه عليهما السلام.

وفيها: أنَّ صاحب اليقين العظيم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا خُوطِبَ بالنهي عن الشكِّ - مع قوَّة إيمانه ورُسُوخه وعصمته -؛ فغيره - من باب أولى - عليه أن يحذَر.

وفيها: أثر كلام الله في طمأنينة النفوس، وتثبيتها على الحقِّ.

وفيها: أنَّه يجب عند الاختلاف وحصول الشبهة، الرجوعُ إلى مصدر اليقين، والتسليمُ له، ومعالجة النفس به، وهو كلام الله تعالى وما أنزله في القرآن.

وفيها: أنَّ (الحقَّ) يُوصَفُ به الخبر، كما يوصَفُ به الحكم؛ فالله يقصُّ الحقَّ ويقضي بالحقِّ، فتَمَّتْ كلمته عدلاً وصدقاً: عدلاً في الأحكام، وصدقاً في الأخبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وفيها: إرشادٌ للدُّعاة، لتحذير الناس من الشكِّ والشبهة، بعد عَرْضِ الحقِّ عليهم، وقَصِّ القصص من الوحي.

وفيها: إغلاقُ الباب أمامَ الوسوس، بعد تبينِ الأمور واتِّضاحِ الحقائق.

وفي هذه الآية: دليلٌ على قاعدة شريفة؛ وهي: أنَّ ما قامت الأدلة على أنَّه حقٌّ، وجزمَ به العبد - من مسائل العقائد وغيرها -؛ فيجب أن يجزم في المُقابل بأنَّ كلَّ ما عارض هذا الحقَّ فهو باطلٌ، وكلُّ شبهة تُورَد عليه فهي فاسدة، سواء عَلِمَ جوابها وفهمه، أم لا.

وفي هذه القاعدة الشرعيَّة حلٌّ لإشكالات كثيرة، وبها تذهبُ الوسوسُ والأباطيلُ عن المسلمين.

وفيها: إحسانُ الله إلى نبيِّه محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى أُمَّته، بتبيينِ ما اختلفَ فيه غيرُهم، وتعريفهم الحقَّ في ذلك.

وفيها: أنه لا يجوز قبول أخبار بني إسرائيل ورواياتهم، قبل عرضها على الوحي - قرآنا وسنة - فإذا عارضت الوحي فهي باطلة، ولا وزن لها.

وأخبار أهل الكتاب (الإسرائيليات) ثلاثة أقسام^(١):

الأول: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من الكتاب أو السنة، مما يشهد له بالصدق. فهذا صحيح، وإن كان لا حاجة بنا إليه؛ استغناءً بما عندنا.

الثاني: ما علمنا كذبه وبطلانه، بما عندنا مما يخالفه من الكتاب أو السنة. فهذا كذب مردود، لا تجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، ليس عندنا ما يصدقه أو يكذبه. فهذا هو المأذون في روايته وحكايته؛ لحديث: «حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»^(٢)، لكن لا تُصدِّقه ولا تُكذِّبه؛ لقوله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»^(٣)، وإن كان غالب هذا المسكوت عنه، مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١):

ثم أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بمباهلة من عاند الحق في أمر عيسى عليه السلام، والدعاء بالهلاك ولعنة الله على من كذب في هذا.

فقال عز وجل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ أي: خاصمك وجادلَكَ ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى عليه السلام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اليقيني والوحي، بالآيات البينات.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ - أيها المخالفون، من النصارى وغيرهم - ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ الذكور - من الطرفين - ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ للخروج إلى مكان المباهلة، ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ من الرجال البالغين العقلاء، ونجتمع جميعاً في مكان واحد.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) رواه البخاري (٤٤٨٥).

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتضرّع ونجتهد ونُبَالِغ في الدعاء. و(الابتهاال): كلُّ دعاء يُجْتَهِد فيه. ﴿فَنَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ﴾ أن تحلَّ وتنزل ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المخالفين الحق، المعاندين له، منّا أو منكم.

ولما نزلت هذه الآية؛ دعا النبي ﷺ وفد نصارى نَجْرَان إلى المِباحلة والمُلاعنة؛ فكانوا بين ثلاثة أمور: إمّا أن يُسَلِّمُوا ويتبعوا الحق، أو يُعَانِدُوا ويُبَاهِلُوا ويدخلوا في المِلاعنة، أو يَنْسَجِبُوا ويبقوا على دينهم - مع دفع الجزية -.

فتشاوروا فيما بينهم، ثم اتفقت كلمتهم على الانسحاب، ووقع في قلوبهم الخوف والهلع. فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ - صَاحِبَا نَجْرَان - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ؛ فَوَاللَّهِ، لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنَا؛ لَا تَفْلَحْ نَحْنُ، وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا!

قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ: «لَا بَعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»، فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(١). وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾؛ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»^(٢).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا»^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مواجهة أهل الباطل لا تكون بالدعوة إلى المِباحلة من أول الأمر؛ وإنما يُجَادَلُون

(١) رواه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠) - مختصراً -.

(٢) رواه مسلم (٢٤٠٤).

(٣) رواه أحمد (٢٢٢٥)، وصححه محققو المسند.

بالتّي هي أحسن، وتُقام عليهم الحُجَج والبراهين، وتُفَنَّد شُبُهَاتهم، فإذا أَصْرُوا جازَتْ المُبَاهَلَة.

وفيها: أَنَّ مَنْ عانَدَ الحَقَّ بعد ظهوره وإقامة الحُجَّة عليه؛ ينبغي تَرْكُ الجِدال معه؛ لأنّه لا فائدة منه، وتجاوز دعوته إلى المُبَاهَلَة؛ لإجباره على الاعتراف بالحَقّ.

وفيها: ثَقَّةُ أهل الحَقّ بأنفسهم، وتردُّد أهل الباطل وشكُّهم في عقيدتهم، فالحقُّ أَبْلَجُ، والباطل لَجَلَجٌ.

وفيها: ما عليه أهل الحَقّ من الثَقَّة بالحَقّ، حتّى أخرجوا أبناءهم ونساءهم، وضمُّوهم إليهم في المُبَاهَلَة؛ ليقينهم بالنصر والغلبة، وحِفْظِ الله لهم، مع أنّه ليس من شروط المُبَاهَلَة إخراج الأبناء والنساء، لكنّ هذا من كمالاتها وتماها.

وإن لم يوجد أبناء لأحد الطرفين؛ فيخرج بأقرب أقاربه وذُرِّيَّته، ويجوز أن يُباهل وحده دون أحدٍ من أقاربه.

وفيها: تعلُّق أهل الباطل بالدُّنيا، وخشيتُهم على نسائهم وأولادهم أكثر من خشيتهم عذاب الآخرة.

وفيها: اختيار أحبِّ الأشياء إلى الخصم في المُبَاهَلَة؛ لأنّ هذا أبلغ في الزجر، وأقوى في تخويف الخصم.

وفيها: جواز اللُّعن والدُّعاء بالهلاك، على مَنْ أَصْرَ على كُفْره وعِناده.

وفيها: أَنَّ أهل الحَقّ يختارون أعلمهم وأتقاهم وأصلحهم للمُبَاهَلَة؛ لأنّه أدعى لاستجابة دُعائه.

وفيها: أَنَّ الأصل في المُبَاهَلَة أن تكون بين أهل الحَقّ وأهل الباطل، ولا تكون بين المسلمين إلّا لضرورة، وقريب منها: المُلاعنة بين الزوجين.

وفيها: الاستعانة على استخراج الحَقّ، بإحاطة المتخاصمين بما أمكن من الهيبة والحرَج النفسي.

وفيها: أن من كان في شك من الأمر؛ فلا يُعرض نفسه للخطر.

وفيها: أنه لا تجوز المُباهلة إلا بعلم يقيني؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾.

وفيها: أن المُباهلة لا تكون في الأمور الاجتهادية؛ وإنما في الأمور الشرعية العظيمة الواضحة، كقضايا الإسلام والكفر، والتوحيد والشرك، والسنة والبدعة، والحق والباطل.

وفيها: أن المُباهلة لا تكون إلا بعد عناد الخصم.

وفيها: أن الدعاء في المُباهلة على من خالف الحق، يكون بالوصف لا بالشخص.

وفي المُباهلة: إثبات وإبراز دور المرأة المسلمة في إظهار الحق.

وفي الآية: إعطاء المهلة في التفكير، والتروي في الأمر، عند الاجتماع للمُباهلة وقبل الدعاء، كما يفيد حُرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ في الآية، وهو يدلُّ على التراخي. وفي ذلك موعظة للنصارى وإمهاهم للتفكير، كأنه يقول لهم: تأنّوا ولا تعجلوا، وانظروا في أمركم.

فوائد من الروايات الواردة في قصة المُباهلة:

فيها: أن من باهل النبي ﷺ؛ فهو هالك لا محالة.

وفيها: جواز مصالحة أهل الكتاب - غير المُحاربين - وإقرارهم على دينهم على شروط معينة.

وفيها: اختيار الإمام للرجل العالم الأمين، وبعثه إلى أهل الهدنة في مصلحة الإسلام.

وفيها: منقبة عظيمة للصحابي أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في شهادة النبي ﷺ له بالأمانة.

وفيها: حرص الصحابة على الفوز بهذه المنقبة.

وفيها: أن إقرار الكافر بالنبوة في نفسه، لا يُدخله في الإسلام، حتى ينطق بالشهادتين.

وفي طلب وفد نصارى نجران إرسال رجلٍ مسلمٍ يحكم بينهم: دليلٌ على عدل المسلمين، وعدالتهم، ورضا أهل الكتاب بحكمهم، وشهادتهم لهم بأنهم لا يظلمون.

وفيها: أَنَّ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ: إِبْسَاسَ الْبَاطِلِ لِبَاسِ الْحَقِّ؛ فَقَدْ ادَّعَى نَصَارَى نَجْرَانَ الْإِسْلَامَ، مَعَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَلَدًا، وَيَسْتَحِلُّونَ أَكْلَ الْخَنزِيرِ، وَيَعْبُدُونَ الصَّلِيبَ!

وفيها: استشارة أهل العقل والحكمة في الأمور العظيمة.

وفيها: أَنَّ الاستشارة من وسائل تحصيل الصواب.

وفيها: أَنَّ حُبَّ الرِّئَاسَةِ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَيُعْمِي صَاحِبَهُ عَنْ رُؤْيَيْهِ.

وفيها: نَصْرٌ عَظِيمٌ لِلْمُسْلِمِينَ، بِانْسِحَابِ النِّصَارَى مِنَ الْمُبَاهَلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْهَلَكَ، وَقَدْ عَلِمَ بِهَذَا الْانْسِحَابِ خُصُومُ الْمُسْلِمِينَ الْآخَرُونَ - كَالْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ -.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢):

قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: المذكور في القرآن، من شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: الخبر الصادق، والقول القاطع، حصرًا وتوكيدًا. و(القصص) في اللغة: هو الكلام الذي يَتَّبِعُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وهو: تتبُّع الوقائع، بالإخبار عنها شيئًا بعد شيء، على ترتيبها.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ أي: مألوه، وهو: المعبود محبةً وتعظيمًا ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا عيسى ولا غيره.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي يَغْلِبُ وَلَا يُمْنَعُ ﴿الْحَكِيمُ﴾: له الحكمة البالغة، وله الحكم والفصل، يشرع ما يشاء، وقد أحكم كل شيء. وإذا اقترنت (العزة) بـ (الحكمة) فقد كملت.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإكثار من المؤكِّدات، عند عَرْضِ الحقائق التي وقع التكذيبُ بها، أو الشُّكُّ، وكثرة الجدال.

وفيها: أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ قِصَصَ الْقُرْآنِ عَنْ عِيسَى وَأُمَّهُ؛ فَهُوَ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ.

وفيها: درسٌ للدُّعاة في استعمال أساليب التأكيد في الكلام، عند مواجهة الدُّعايات الباطلة.

وفيها: أنَّ مِنَ الْقَصَصِ ما يكون حقًّا، ومنها ما يكون باطلاً.

وفيها: كَذِبُ النصارى، في ادِّعاء الشريك لله والولد والزوجة.

وفيها: انفراد الله تعالى بصفات الرِّبَوِيَّة والألوهيَّة، كالقدرة على الإحياء، والإخبار بالغيوب، خلافاً لما ادَّعته النصارى لعيسى عَلَيْهِ السَّلَام من هذه الصُّفَات.

وفيها: أنَّ (العِزَّة) إذا اقترنت بـ (الحِكْمَة) فقد كَمَلَتْ؛ لأنَّ العِزَّة -وهي القوَّة والمَنعة- إذا كانت بغير حِكْمَة؛ أدَّت إلى الطَّيْش.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٦٣):

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي: أعرضوا عن أتباعك وتصديقك، ولم يقبلوا التوحيد، ولم يجيبوك إلى المُباهلة. فإن فعلوا ذلك؛ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ في الدِّين، وبنياتهم وأغراضهم الفاسدة، وسيُجازيهم على سرائرهم الخبيثة وأعمالهم السيئة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مَنْ تَوَلَّى عن دين الله، وعدل عن الحق إلى الباطل؛ فهو مُفْسِدٌ.

وفيها: تهديدُ الله تعالى لهؤلاء المُفْسِدِينَ، بأنَّ حالهم لا يخفى عليه.

وفيها: أَنَّ دينَ الله صلاحٌ، وما سواه فسادٌ وسببٌ للفساد.

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦٤):

ولمَّا بيَّنَّ الله تعالى حالَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، ودعا النَّاسَ إلى التوحيد والإسلام، وأمر نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة أهل الكتاب إلى المُباهلة -بعد ظهور عنادهم-: أمر عَزْرَقَلَّ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوتهم إلى أمرٍ عدلٍ، وسواءٍ بينَ الفريقين؛ وهو العودة إلى أصل الدِّين.

فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهذا الخطاب يُعْمُ اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ (الكلمة) تُطلق على: كل جملة مفيدة.

ثم وصفها تعالى، فقال: ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: كلمة عدل، نستوي فيها نحن وأنتم. ثم فسرها، فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾؛ فذكر التوحيد وضِدَّه - وهو الشُّرك -؛ ليكتمل الأساس من الجهتين: من جهة الدَّعوة إلى الشيء، ومن جهة النهي عن ضِدَّه.

ونفسي الشُّرك في العبادة يكون بعدم اتِّخاذ الوثن، أو الصُّنم، أو الصَّليب، أو الطَّاغوت، أو النَّار - أو غيرها ممَّا يُعبد من دون الله - ندًّا من دون الله.

وقوله ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لا يطيع أحدٌ أحدًا من الرُّؤساء وغيرهم في معصية الله تعالى، وفيما خالفوا فيه شرع الله، من التحليل والتحريم.

﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ عن هذه الدَّعوة العادلة المُنصفة، وأعرضوا عن التوحيد، وأبوا إلا الشُّرك؛ ﴿فَقُولُوا﴾ أنتم - أيها المؤمنون - لأهل الكتاب المُصرِّين على الباطل: ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُنقادون لأمر الله، مخلصون له بالعبادة، مُقرُّون له بالشرعية، مُستَمِرُّون على الإسلام الذي شرعه.

وهذه الآية قد كتبها النبي ﷺ في خطابه إلى النصارى، يدعوهم بها إلى الله، فقرأه هِرَقْل، فلما فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَىٰ هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسَلَّمَ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ^(١)، و﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢)».

وقد بلغ من عناية النبي ﷺ بهذه الآية: أنه كان يقرؤها أحيانًا بمفردها - بعد

(١) وهم: الأتباع من أهل مملكته، وهي جمع «أريسي» وهو: الحرَّاث والفلاح.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

الفاتحة- في إحدى ركعتي سنة الفجر: فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يقرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، والتي في آل عمران: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾»^(١).

وفي رواية: «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ، فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»^(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إظهار العدل مع الخصم، والإنصاف عند المناظرة.
وفيها: أن الإسلام العام الذي جاءت به جميع الرسل هو هذه الكلمة: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾.
وفيها: أن هذه الكلمة يجب أن تكون أساس ما يُسمَّى اليوم بـ «الحوار بين الأديان».
وفيها: أنه لا يجوز لأحد أن يُشرع للناس من دون الله، ولا يجوز لأحد أن يُطيعه في ذلك.
وفيها: أن أتباع الحكم والتشريع من صلب العبادة.
وفيها: أنه يجب دعوة الناس إلى أخذ الحلال الذي أحله الله، وترك الحرام الذي حرّمه الله.

وفيها: إعلان البراءة من الخصم إذا تولى، بعد إقامة الحجة عليه.
وفيها: إعلان الالتزام بالحق، والثبات على الإسلام.
وفيها: أنه ينبغي للمسلم أن يعتزّ بدينه، ويُعلنه ويُشهره، خلافاً لما يفعله اليوم بعض الضعفاء المنهزمين نفسياً، من التوازي والتخفي -بلا ضرورة- عند أدائهم لشعائر الدين العظيم!

وفيها: إشهاد الخصم على الالتزام بالحق.

(١) رواه مسلم (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢٧).

وفيها: أنه لا يجوز طاعة أحد من الرؤساء في المعصية.

وفيها: الإزراء على من قلد الرجال في مخالفة شرع الله.

وفيها: إبطال ما زعمته اليهود والنصارى، من اتخاذ عيسى وعزير عليهما السلام أرباباً من دون الله تعالى.

وفيها: إظهار مخالفة الكافرين.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥):

ولما حصلت المجادلة والمحاجة في شأن إبراهيم عليه السلام - وهو أبو الأنبياء - وحاول كل فريق من اليهود والنصارى أن يدّعيه وينسب إليه، وزعم أنه كان منهم، أو حاول أن يتنسب إليه في الملة والدين: أنكر الله تعالى عليهم، وأبطل ادّعاءاتهم ومزاعمهم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلّا نصرانياً! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾» (١).

وقوله تعالى ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ﴾ أي: يا معشر اليهود والنصارى. ناداهم بذلك؛ لأنهم هم الذين بقيت كتبهم قائمة إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم. ورغم التحريف الذي أصابها، إلّا أن صفة صلى الله عليه وسلم بقيت فيها.

﴿لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ أي: لماذا تُجادلون وتُنازعون. وسُميت (محاجة)؛ لأن كل فريق من المتخاصمين يُدلي بحجته.

﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: في شأنه ودينه، فيقول اليهود: إبراهيم على ديننا، ونحن على دين إبراهيم. ويقول النصارى: إبراهيم على ديننا، ونحن على دين إبراهيم.

﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: كيف تزعمون أنه على دينكم، ودينكم هو اليهودية والنصرانية، وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وإنما أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم عليه السلام بزمان طويل؛ فما كانت اليهودية ولا النصرانية إلا بعد زمنه بدهر طويل، وكان وجوده قبل إنزال التوراة والإنجيل؛ فكيف يكون من أهلهما؟! وكيف يكون على دين كتاب لم ينزل إلا بعد وفاته؟ وقد قيل: إن إبراهيم عليه السلام كان قبل موسى بألف سنة، وكان بينه وبين عيسى ألفا سنة - على تقديرات بعض المؤرخين -.

ولذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ أي: أفلا يكون لكم عقل رُشيد، تُدركون به فساد ادّعاءكم؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال التاريخ وترتيب الوجود الزمني في المناظرة.
وفيها: توبيخ أهل الكتاب على مجادلهم بالباطل.
وفيها: علو شأن الخليل عليه السلام، ومكانته بين جميع الطوائف.
وفيها: اعتبار العقل دليلاً، ما لم يخالف الشرع. والشرع الصحيح لا يمكن أن يخالفه العقل الصريح.

﴿هَكَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦):

ثم قال تعالى - موبخاً أهل الكتاب على دخولهم فيما لا يحسنونه ولا يعلمونه -:
﴿هَكَأَنْتُمْ﴾ (الهاء) للتنبيه ﴿هَؤُلَاءِ﴾: مُنادى، والتقدير: يا هؤلاء. أي: انتبهوا - يا معشر اليهود والنصارى -؛ فإنكم ﴿حُجَجْتُمْ﴾ وخاصمتم ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: فيما وجدتموه في كتبكم، في شأن أنبيائكم موسى وعيسى وغيرهما عليهم السلام.
﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: أي ليس في كتبكم، من أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ حقيقة الدين الذي كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو بكل شيء عليم،
﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حقائق كثير من الأمور وما خفي عنكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْمُحَاجَّةَ التي يُراد بها إثبات الباطل وإبطال الحقِّ مذمومةٌ، وأما الْمُحَاجَّةُ لإظهار الحقِّ وإبطال الباطل: فمحمودةٌ مشروعةٌ مطلوبةٌ.

وفيها: أَنَّ الْمُحَاجَّةَ يجب أن تكون عن عِلْمٍ.

وفيها: أَنَّ الْعِلْمَ يجب أن يُستعمل لنصرة الحقِّ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ فِي التَّلْبِيسِ والتدليس، ونُصرة الباطل.

وفيها: أَنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ لَا يَسْتَلْزِمُ رَفْعَ الْإِثْمِ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ يَأْتِمُ عَلَى خَوْضِهِ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ بغير عِلْمٍ، وعلى تقصيره وتفريطه في التعلُّمِ.

وفيها: ذَمُّ مُجَادَلَةِ الْجَاهِلِ لِلْعَالِمِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ الْاسْتِمَاعُ لَهُ، وَالتَّعَلُّمُ مِنْهُ، وَقَبُولُ مَا يَتْلَقَاهُ مِنَ الْحَقِّ.

وفيها: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حُسْنِ الْقَصْدِ وَالْإِخْلَاصِ وَإِرَادَةِ وَجْهِ اللَّهِ فِي الْمُحَاجَّةِ، إِضَافَةً إِلَى كَوْنِهَا مَبْنِيَّةً عَلَى الْعِلْمِ.

وفيها: اسْتِعْمَالُ أَسَالِيبِ التَّنْبِيهِ وَالنَّدَاءِ وَغَيْرِهَا فِي دَعْوَةِ الْمُخَالِفِينَ؛ لِاجْتِلَابِ عَقُولِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ.

وفيها: رَفْعُ الْحَرَجِ عَنِ الْمُتَنَازِلِينَ بِعِلْمٍ - مع أَنَّ الصَّوَابَ مع أَحَدِهِمَا - . قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ -: «يُعَذَّرُ مَنْ حَاجَّ بِعِلْمٍ، وَلَا يُعَذَّرُ مَنْ حَاجَّ بِالْجَهْلِ»^(١).

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٧):

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ أي: ما كان على دين اليهودية؛ فَإِنَّهَا مِلَّةٌ مَحْرُفَةٌ عَنْ شَرْعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٧٢).

﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي: لم يكن أيضًا على دين النصرانية؛ فإنها ملَّةٌ محرَّفة عن شَرع عيسى عليه السَّلام. ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَنِيْفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة وعن الشُّرك، إلى الدين الحقِّ القويم والتوحيد. ولذا بيَّن هذا فقال: ﴿مُسْلِمًا﴾ أي: مُوحِّدًا، مُنْقَادًا لأمر الله، ظاهرًا وباطنًا. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا شِرْكًا ظاهرًا، ولا خفيًّا؛ بل كان محاربًا للشُّرك، صابرًا على التوحيد، وألقي في النَّار؛ دفاعًا عن التوحيد ومحاربة للشُّرك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَبَرُّثُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ؛ إِذْ كَيْفَ يَتَدَيَّنُ بَيْنَ حَدَثٍ بَعْدَهُ، ثُمَّ هُوَ دِينَ مُحَرَّفٌ؟!

وفيها: اسْتِسْلَامُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْحَقِّ، وَبِرَاءَتُهُ مِنَ التَّعَصُّبِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

وفيها: تَعْرِیْضُ بِأَصْحَابِ الْمِلَّتَيْنِ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ؛ بِقَوْلِ الْيَهُودِ: «عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ»، وَقَوْلِ النَّصَارَى: «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ».

وفيها: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَلَى الْإِسْلَامِ الْعَامِّ - كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - وَالْإِسْلَامُ الْعَامُّ هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ - ظَاهِرًا وَبَاطِنًا - وَهُوَ دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وَالْإِسْلَامُ الْخَاصُّ هُوَ شَرِيعَةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، وَالْبَدْءُ بِنَفْيِ الْبَاطِلِ قَبْلَ الْوَصْفِ بِالْحَقِّ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْبَرِيِّ؛ لِأَنَّ تَحْلِيَةَ الشَّيْءِ مِمَّا يُشِينُهُ أَوَّلًا، ثُمَّ إِثْبَاتُ حُسْنِهِ؛ أَوَّلَى فِي الْكَمَالِ.

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي النَّفْيِ أَوَّلًا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، ثُمَّ قَالَ فِي الْإِثْبَاتِ ثَانِيًا: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَنِيْفًا مُسْلِمًا﴾.

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِنَفْيِ الشُّرْكِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَنِيْفًا مُسْلِمًا﴾ أي: تَارِكًا لِلشُّرْكِ، قَدْ عَدَلَ وَانْحَرَفَ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿مُسْلِمًا﴾ أي: مُوحِّدًا، ثُمَّ أَكَّدَ نَفْيَ الشُّرْكِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ فَالتَّوْحِيدُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِإِثْبَاتِ وَنَفْيِ.

وفيها: رَدُّ عَلَى قُرَيْشٍ - وَمَنْ وافقهم من مُشركي العرب - في زعمهم أنهم على دين إبراهيم ومِلَّتِه؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مُشْرِكُونَ، والله تعالى نفى أن يكون إبراهيم من المشركين.

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨):

ثم حكم الله تعالى بين الخصوم الثلاثة - المسلمين واليهود والنصارى - في قضية إبراهيم عليه السلام؛ فقال:

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ﴾ أي: أقربهم وأحقهم ﴿بِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: بالانتساب إليه ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وسلكوا طريقه، في حياته وبعد مماته.

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإفراده بالذكر تعظيماً له، وكفى بها فخراً، هذه الإشارة إليه من رب العالمين.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من أصحابه المهاجرين والأنصار، ومن بعدهم من هذه الأمة.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ناصرهم وحافظهم، وهو يتولاهم بالتأييد، والتوفيق والتسديد، والجزاء الحسن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسلمين أحقُّ من اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين بمتابعة إبراهيم الخليل عليه السلام، والانتساب إليه.

وفيها: استعمال المؤكِّدات في بيان الحكم في قضايا الاختلاف والصراع، كما جرى التأكيد عليه في الآية بـ (إن) و (اللام).

وفيها: تشریف الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالإشارة إليه في قوله: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾، واستعمال اسم الإشارة للقريب، يدلُّ على قُرب النبيِّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ربه عزَّ وجلَّ، وهو - بلا شك - أقربُّ الناس إلى الله منزلة.

وفيها: أنَّ طريق الإيمان واحد، يدخل فيه السابقون واللاحقون، من أتباع إبراهيم

عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَصْرِهِ - كِاسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَوْلَادِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ،
وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ وَتَابِعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَمَنْ سَارَ عَلَى هَدْيِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.
وَفِيهَا: أَنَّ الْإِيمَانَ يَسْتَلْزِمُ الْقَبُولَ وَالِإِذْعَانَ، وَاتِّبَاعَ كُلِّ الشَّرِيعَةِ.

وَفِي الْآيَةِ: بَيَانُ الْوَلَايَةِ الْخَاصَّةِ مِنَ اللَّهِ، الَّتِي تَقْتَضِي تَيْسِيرَ الْأُمُورِ، وَإِصْلَاحَ الشَّأْنِ،
وَالنُّصْرَةَ، وَالْحِفْظَ، وَالْإِكْرَامَ، وَحُسْنَ الثَّوَابِ. وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَفِيهَا: تَفَاضُلُ النَّاسِ فِي الْأَوَّلِيَّةِ وَالْوَلَايَةِ - فَهِيَ دَرَجَاتٌ -؛ فَهَنَّاكَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ فِي
الْإِتِّبَاعِ وَأَحَقُّ بِالْوَلَايَةِ مِنْ غَيْرِهِ.

وَفِيهَا: أَنَّ مَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا؛ فَوَلَايَةُ اللَّهِ لَهُ أَكْمَلُ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ (وَهُوَ الْوَلَايَةُ) الْمَعْلُوقُ
بِوَصْفٍ - وَهُوَ الْإِيمَانُ - يَزْدَادُ قُوَّةً بِقُوَّةِ هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي عُلقَ عَلَيْهِ الْحُكْمُ، فِي قَوْلِهِ:
﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَفِيهَا: شَرَفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ؛ لَكُونَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي
تَنَازَعَتْهُ الْأُمَمُ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ هُوَ طَرِيقُ وَلَايَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عُلِّقَ (وَلَايَتُهُ) بِالْإِيمَانِ، وَتَعْلِيقُ
الْحُكْمِ بِوَصْفٍ مَا، يُشْعِرُ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ عِلَّةٌ لِهَذَا الْحُكْمِ.

وَفِيهَا: أَنَّ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَبُ إِلَى شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.
فَشَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ - مَثَلًا - أَسْهَلُ وَأَسْمَحُ مِنْ شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَدْ عَاقَبَ
اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبَعْضِ التَّكَالِيفِ الصَّعْبَةِ وَالْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ؛ جَزَاءً لِعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ.
وَفِيهَا: أَنَّ الْإِتِّبَاعَ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ الْمَوَالَاةِ.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ١١:

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حُبَّ الْيَهُودِ لِنَشْرِ الشَّرِّ، وَإِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَالدَّعْوَةَ إِلَى ذَلِكَ - حَسَدًا
مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ -؛ فَقَالَ:

﴿وَدَّتْ﴾ أَي: أَحَبَّتْ حُبًّا شَدِيدًا، وَتَمَنَّتْ ﴿طَائِفَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وَهُمْ:

اليهود والنصارى. وكان اليهود أكثر أهل الكتابين مخالطةً للمسلمين في المدينة، وقت نزول هذه الآيات.

﴿فَوَدُّوا لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي: أن يُضِلُّوكم عن دينكم، ويُخرجوكم منه، ويُتفروكم عنه، ويُوقعوكم في الضلال، ويُعيدوكم إلى ظلمات الشرك والكفر، بالدعوة إلى ديانتهم الباطلة، وإلقاء الشبهات والتشكيك في دين الإسلام.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: أن اشتغالهم بإضلالكم هو في الحقيقة صرف لأنفسهم عن الحق؛ لأن من اشتغل بإضلال غيره؛ فقد انشغل عن الهدى والحق، وسلك السبل الضالة للدعوة إلى الباطل، ففصل عن الحق -مسلكاً ونتيجة- وبهذا يكون قد أضل نفسه، وعرضها للهلاك والعقوبة في الآخرة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يعلمون أنهم أضاعوا الوقت في محاولة إضلالكم؛ لأنكم ثابتون على الحق، ولا يُدرك هؤلاء أنهم قد ازدادوا إثمًا بتمنيئهم الباطل، وحرصهم وسعيهم على إفساد الآخرين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين، وأن هذه الحقيقة يجب ألا تغيب عن وعي المسلمين. وفيها: أن الحسد يدفع إلى البغي، والسعي في الإضلال، وتمني زوال النعمة عن الآخرين -ومنها: نعمة الهداية عن المهتدي-.

وفيها: التحذير من الطوائف الأخرى من الكفار، التي ستسلك مسلك هذه الطائفة من أهل الكتاب، في السعي إلى إضلال المسلمين.

وفيها: أن صاحب الضلال يسعى لإضلال الآخرين؛ ليكونوا مثله، فلا يتميزون عليه؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وفيها: أن العدو اللدود للمسلم هو: من يسعى في سلب نعمة الإسلام عنه؛ فيجب الحذر منه، والمحافظة على نعمة الإسلام.

وفيها: مجازاة الله تعالى للمعتدي بمثل عدوانه، ومعاملته بنقيض قصده، والمكر به؛ حيث يزداد ضللاً وإثماً وهلاكاً - وهو لا يشعر - حينما ينشغل بإضلال الآخرين.

وفيها: تثبيت للمسلمين؛ فكأن الله يقول لهم: اثبتوا على ما أنتم عليه من الحق؛ فإن هؤلاء لن يضروكم شيئاً، وإنما يضرون أنفسهم، وسعيهم في إضلالكم سيذهب هباءً منثوراً؛ لأنكم لن تتركوا الحق، ولن تتابعوهم في الباطل، ولن تحققوا لهم أمنيّتهم.

وفيها: أن الإنسان قد يعمى عن الباطل، مع ممارسته له.

وفيها: أن الله قد أحاط بما في القلوب؛ فإن (الودّ) و(التمني) محلّه القلب، وهو مخفيّ فيه، ومع هذا: أخبر الله المسلمين به.

وفي الآية: ردّ على من يُحسن الظنّ بأهل الكتاب، ويزعم أنّهم يُريدون بالمسلمين خيراً.

وفيها: منّة الله على المؤمنين، بإخبارهم عن مؤامرات الأعداء، وما يُضمرّونه من الشرّ، وما يُحطّطون له؛ ليكون المسلمون على حذر منهم.

وفيها: قُبْح جريمة اليهود، الذين تركوا الإيمان بالنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المعلوم عندهم صِفته، ومكان هجرته، وحالُه وأخبارُه، واشتغلوا - بدلاً من ذلك - بعداوته والتنفير عنه!

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾:

ثم ويخ الله تعالى أهل الكتاب على إصرارهم على الكفر؛ فقال:

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ﴾ من اليهود والنصارى - واليهود خاصّة - ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: تجحدونها وترفضونها، ومنها: الآيات الواردة عندكم في التوراة والإنجيل، في صفة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والبشارة به، ووجوب اتّباعه. و(الآيات): جمع «آية»، وهي العلامة الدالة البيّنة.

ولذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: تعلمون يقيناً بحواشكم وعقولكم، وتقرأون ما هو مكتوبٌ عندكم في كتبكم، وترون معجزات هذا النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمامكم، وتسمعون هذا القرآن يُتلى عليكم، وتشهدون إعجازه بقلوبكم وعقولكم؟!!

وفي هذه الآية من القوائد:

استعمال أسلوب الاستفهام التوبيخي، في دعوة المعاندين.

وفيها: أَنَّ الشَّهَادَةَ أَقْوَى مِنَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ يَكُونُ بِالْقَلْبِ وَحْدَهُ، وَالشَّهَادَةُ تَكُونُ بِالْقَلْبِ وَالْجِسِّ - كَالرُّؤْيَا بِالْعَيْنِ، مَعَ يَقِينِ الْقَلْبِ -.

وفيها: نَصٌّ وَاضِحٌ، وَحَكْمٌ صَرِيحٌ، فِي كُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ ضَلَالُ مَنْ يَصِفُهُمْ - مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا - بِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ السَّابِقَةِ عَلَى حَقِّ كَالْمُسْلِمِينَ! فَهَذَا ضَلَالٌ وَكُفْرٌ مُبِينٌ، مُخَالَفٌ وَمُنَاقِضٌ لِمَا حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ يَكْفُرُ عَنْ عِلْمٍ وَشَهَادَةٍ، أَقْبَحُ بِكَثِيرٍ مِمَّنْ يَكْفُرُ عَنْ جَهْلِ وَشُبْهَةٍ.

وفي الآية: بَيَانٌ تَنَاقُضٍ أَهْلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنْفُسِهِمْ؛ فَإِذَا كَانُوا يَدْعُونَ الْإِيمَانَ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ فَكَيْفَ يَكْفُرُونَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ وَجوبِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُوكَ الْحَقَّ يَٰلْبَاطِلَ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١):

ثم وَيَخُ الله تعالى أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَى جَرِيْمَةٍ أُخْرَى مِنْ جَرَائِمِهِمْ، وَوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِهِمْ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُوكَ الْحَقَّ يَٰلْبَاطِلَ﴾، فَتَخْلِطُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا كَتَبْتُمُوهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَتُفَسِّرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ، وَتُوقِنُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، ثُمَّ تَقُولُونَ: إِنَّهُ لَيْسَ مُرْسَلًا إِلَيْنَا، أَوْ تَجْحَدُونَ نُبُوَّتَهُ فِي الظَّاهِرِ، أَوْ تَأْتُونَ بِعِبَارَاتٍ مُجْمَلَةٍ تَحْتَمِلُ حَقًّا وَبَاطِلًا؛ بَغَرَضِ التَّلْيِيسِ عَلَى النَّاسِ.

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ الْمَذْكُورَ فِي كُتُبِكُمْ، مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَتَعْلَمُونَ عَقُوبَةَ الْكِتْمَانِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مَكْرُ أَحْبَارِ وَرُهبَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فِي التَّلْبِيسِ عَلَى النَّاسِ؛ لَعَلَّهِمْ أَتَّهَمُوا لَوْ جَاءُوا بِالْبَاطِلِ صَرِيحًا لَمَا تَبِعَهُمْ أَحَدٌ، وَلَا تُكْشَفَ أَمْرُهُمْ؛ فَعَمِدُوا إِلَى التَّمْوِيهِ وَالْخِدَاعِ.

وفيها: أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ يَسْتَعْمِلُونَ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ فِي التَّلْبِيسِ وَالتَّضْلِيلِ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْعَرَّافِينَ وَالسَّحَرَةِ وَالْمَشْعُودِينَ، مِنْ خَلْطِ رُقَاهُمْ الشَّرَكِيَّةَ بِبَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالتَّأْكِيدِ عَلَى النَّاسِ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، تَلْبِيسًا وَإِضْلَالًا لِلنَّاسِ!

وفيها: وَجُوبُ الْحَذَرِ مِنَ الْمُخَادِعِينَ، وَعَدَمُ الْاِغْتِرَارِ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَالتَّبَصُّرُ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ أَهْلِ الْبَاطِلِ.

وفيها: ذِكْرُ جَرِيْمَةِ التَّلْبِيسِ وَالكِثْمَانِ، وَأَنَّهَا مِنْ مَسَالِكِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ.

وفيها: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّوْحِيدِ حُلُّ الشُّبْهِ وَإِبْطَالُهَا وَتَفْنِيدُهَا، وَبَيَانُ الْحَقِّ وَإِظْهَارُهُ وَنَشْرُهُ.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢)

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ، وَكُشِفَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا مِنْ مَكْرِهِمْ وَكَيْدِهِمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: جَمَاعَةٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ، مُتَأَمِّرِينَ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ: ﴿ءَامِنُوا﴾ أَي: أَظْهَرُوا الْمَتَابَعَةَ وَالتَّصَدِيقَ ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَهُوَ: الْقُرْآنَ وَالشَّرِيعَةَ ﴿وَجَهُ النَّهَارِ﴾ أَي: أَوَّلَهُ، وَذَلِكَ بِصَلَاتِكُمْ الْفَجَرَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ جِهَةَ الْكَعْبَةِ ﴿وَآكْفُرُوا﴾ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ، أَي: ارْجِعُوا عَنْهُ، وَارْتَدُّوا إِلَى دِينِكُمْ ﴿ءَاخِرَهُ﴾ أَي: آخِرَ النَّهَارِ، وَعُودُوا لَصَلَاتِكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَكَانَ هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْهُمْ تَضْلِيلًا وَتَلْبِيسًا عَلَى عَوَامِّ النَّاسِ؛ وَلِذَا قَالُوا: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَي: الْعَامَّةُ وَجَهْلَةُ النَّاسِ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أَي: يَتْرُكُونَ الْإِسْلَامَ وَيَرْتَدُّونَ عَنْهُ، وَيَقُولُونَ: مَا رَجَعَ أُولَئِكَ الْأَحْبَارُ إِلَى دِينِهِمْ وَتَرَكُوا الْإِسْلَامَ، إِلَّا لِنَقَائِصٍ وَعُيُوبٍ أَطَّلَعُوا عَلَيْهَا، وَأَهْلُ الْكِتَابِ أَعْلَمُ، وَقَدْ جَرَّبُوا دِينَهُمْ، وَهَذَا الدِّينُ!

وفي هذه الآية من القوائد:

تأييد الله تعالى لعباده؛ بإطلاع نبيه ﷺ وأوليائه من المؤمنين على أسرار اليهود ومكرهم. وفيها: فُضِّحَ أهل الباطل؛ ليكون أهل الحق على بينة، فيحذروا منهم.

وفيها: عَلمَ الله بالخفياآت، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا يَكْشُوتُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وفيها: سَعِيَ أهل الباطل إلى تشكيك أهل الحق في دينهم، واستعمال أنواع المَكْرِ والحيلة لأجل ذلك، والتظاهر بأمرٍ للتوصل إلى آخر.

وفي الآية: مُعْجِزَةٌ للنبي ﷺ، بإطلاعه على أمورٍ من الخبايا والخفايا.

وفيها: تثبت المؤمنين بهتِك أَسْتَارَ مَنْ يَتَرَبَّصُ بِهِمْ مِنَ الْمُجْرِمِينَ.

وفيها: رَدْعٌ لأولئك المجرمين ووازعٌ؛ حتى لا يعودوا إلى مثل فعلهم، إذا عَلِمُوا أَنَّ عَاقِبَتَهُمُ: الْفُضْحُ وَالْإِنْكَشَافُ.

وفيها: أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ الصُّرَحَاءِ قَدْ يَسْلُكُونَ مَسَالِكَ الْمُنَافِقِينَ، وَيَسْتَعْمِلُونَ أَسَالِيِبَهُمْ.

وفيها: أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ الْحَذَرَ مِنَ الْمَوَاقِفَةِ الْمَفَاجِئَةِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ لَهُمْ؛ فَقَدْ يَكُونُ وَرَاءَ ذَلِكَ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْخُبْثِ وَالذَّهَاءِ؛ فَقَدْ يَتَظَاهَرُ الْيَوْمَ بَعْضُ الْكُفَّارِ بِالذُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَيُعْلِنُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْتَدُّونَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ، وَيَجْهَرُونَ بِهَذَا فِي النَّاسِ، وَيَعْلَلُونَ هَذَا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْعُدُوا بِهَذَا الدِّينِ، وَأَنَّهُمْ جَرَّبُوهُ فَوَجَدُوهُ مُرًّا نَكِدًا، لَا يُنَاسِبُ رُوحَ الْعَصْرِ... إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْإِفْتِرَاءَاتِ! ثُمَّ تُسْتَغْلُ مِثْلُ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ وَالْأَحْدَاثِ مِنْ قَبْلِ الْأَعْدَاءِ، فَيُفْزِزُونَهَا فِي إِعْلَامِهِمْ، وَيُضَخِّمُونَهَا فِي حَرْبِهِمُ النَّفْسِيَّةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ!!

ولذا: جَاءَ التَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ بِقَتْلِ الْمُرْتَدِّ؛ حِمَايَةً لِكِتَابِ الدِّينِ، وَحِفَاطًا عَلَى هَيْبَتِهِ، وَقَطْعًا لِدَابِرِ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ، الَّذِينَ يُمَكِّنُ أَنْ يُلْجَأُوا إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ لِمَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ وَكَشْفِ عَوْرَاتِهِمْ، ثُمَّ الرَّدَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ يَفْعَلُونَ هَذَا؛ خَلْخَلَةً لَصُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَدْمًا لِكَيَانِهِمْ، وَإِدْخَالًا لِلشُّكُوكِ فِي قُلُوبِ الْبُسْطَاءِ نَحَاهُ هَذَا الدِّينِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

وقريبٌ من هذا: ما قد تفعله بعضُ الفاسقات، من ارتداء الحِجاب مُدَّةً من الزمن، واعتزال بعض المعاصي، وإظهار التوبة، ثم ما تلبث أن تعودَ إلى سابق عهدها من الفسق والفُجور والتبرُّج؛ فيقع الشكُّ في قُلُوبِ عوامِّ المسلمين، ويعتقدون أنَّ حياةَ التدين صعبة لا تُطاق، ويُقطع الطريق على مَنْ يريد العودةَ إلى الله. وفي هذا أيضًا حُرْبٌ نفسيةٌ للتائبات الصادقات، اللَّاتي تَرُكْنَ هذه الأوساط العَفِنَة، أو اللَّاتي يَعُزَّمنَ على هذا؛ فيحصلُ لهن من الشَّيْطِ والتشكيك ما لا يخفى. والله المستعان على مَكْر هؤلاء.

وفيها: أنَّ أولَ النهار يُسمَّى (وجهاً) لحُسْنه، وهو ما بعد طلوع الفجر، وهو أفضل أوقات النهار، وفي البُكور بركة.

﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٧٣﴾ يَخْنَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٧٤﴾:

ثم ذكر الله تعالى مزيداً من كلام اليهود، الذي أسَرُّوه فيما بينهم، وتواصيهم على الكتمان، بقولهم: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا﴾ أي: لا تَطْمَئِنُّوا، وتُظهِروا مَكْرَكُمْ وحيلتكم، ولا تُفْشُوا سِرَّكُمْ، ولا تَكْشِفُوا ما في أيديكم من كُتُبكم للمسلمين - وفيها صفة النبي ﷺ والِبِشارة به - فيؤْمِنُوا به، ويَحْتَجُّوا به عليكم. فلا تفعلوا هذا ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وَتَطْمَئِنُّونَ إليه؛ فلا بأس أن يطلع على ذلك.

وقيل في معنى الآية: لا تُصَدِّقُوا إِلَّا مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، ووافق ملتكم اليهودية.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ فيهدي مَنْ يَشَاءُ، وَإِنْ كَتَمْتُمْ ما في كُتُبكم من الحقِّ، وامتنعتم عن الإقرار بنبوة أحدٍ غير نبيكم؛ فإنَّ ذلك لن يضرَّ المهتدين؛ فالله تعالى هو الذي يهدي قُلُوبَ المؤمنين إلى أئمِّ الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والحجج القاطعات.

ثم ذكر تعالى سببَ كتمان اليهود وعدم إيمانهم، وهو: خَشيتهم أن يظهر ما عندهم من العلم للمسلمين، فيساوَوْهم فيه، أو يتَّخِذُوا ذلك حُجَّةً عليهم.

فتقدير الكلام: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا ﴿أَنْ يُؤْفَقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ أي: لئلا يؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتِيتُمْ، من العلم والكتاب والحكمة والمُعْجِزات والآيات. فقد كان اليهود يمتنعون عن الإقرار بالنبوة لغير نبيهم، ويمتنعون عن الإيمان بفضائل ومعجزات لغير نبيهم؛ حتى لا يكون ذلك إدانة لهم، ولا يكون للمسلمين حجة عليهم من كلام أنفسهم، ولذا قالوا: ﴿أَوْ هُجِّجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فتكون للمسلمين الحجة عليكم يوم القيامة، إذا أقررتُم بنبوّة محمد ﷺ، ولم تدخلوا في دينه.

فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فالأمور كلها تحت تصرفه، وهو المُعْطِي المانع، فمهما حاولتم الإخفاء - حَسَدًا وَبَغْيًا - فلن تمنعوا أمر الله الواقع، وإيتاءه الفضل والنبوة لمحمد ﷺ، وتأيدته بالمُعْجِزات، وإكرام أمته بهذه الفضائل والشرائع، التي تزيد وتربو كثيرًا على الفضائل التي آتاكم الله إياها.

﴿وَاللَّهُ وَسِعَ﴾ في فضله وإحسانه، وجميع صفاته، أي: واسع العلم، واسع الرحمة، واسع الحكمة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للإحسان، وإيتاء الفضل.

ولذا قال بعدها: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يؤتي النبوة من يشاء، ويهب الفضل والهداية من يشاء، ويؤتي الإسلام والقرآن من يشاء.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والمنن الكثيرة، وقد اختص المسلمين بالفضائل العظيمة الكثيرة.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

مكر اليهود، ولجوؤهم إلى كتمان الحق؛ لخشيتهم من الهزيمة في معركة المُحَاجَّة.
وفيها: حسد اليهود، الذي يدفعهم إلى محاولة منع فضل الله من الوصول إلى عباده!
وفيها: تطمين المؤمنين إلى أن محاولات اليهود ستبوء بالفشل.
وفيها: شح اليهود بالعلم، وأنهم لا يريدون أن يتعلم أحد شيئًا من العلم؛ لئلا يساويهم أو يمتاز عليهم.

وفيها: عصيَّة اليهود البغيضة، التي يريدون بها حَضْر المزايا في دائرة (مَنْ تَبَعَ دِينَهُمْ) فقط!

وفيها: أَنْ هُدَى الله يصل إلى مَنْ يريدُه عَزَّوَجَلَّ، مهما كانت الحُجُب وموانع البشر، ومحاولات التعتيم والدُّعايات المُضِلَّة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وفيها: حِرْص اليهود أَنْ تبقى مؤامراتهم سرِّيَّة، ومن ذلك: ما تمالَّؤوا عليه من إظهار الإسلام في أول النهار، والكُفْر به في آخره.

وفيها: أَنَّ اليهود كُفَّار، رَغْم إيمانهم بيوم القيامة، وما سيكون فيه من المُحاجة والمُجادلة والمُخاصمة.

وفيها: عناية اليهود بتثبيت أشياعهم وجماعتهم، والسَّعي في تشكيك عاقبة المسلمين.

وفيها: أَنَّ الله تعالى لا يُخَصِّص الهدى لطائفة أو شعب أو جنس بعينه؛ وإنَّما يهدي مَنْ يشاء من الشُّعوب والأجناس والطوائف والأفراد.

وفيها: جَحْد اليهود لفضائل غيرهم، مهما كانت واضحة.

وفيها: أَنَّ حُبَّ النِّية وسوء القصد من أسباب جرمان التوفيق والهداية.

وفيها: أَنَّهُ ينبغي نشر الفضائل والمحاسن، ونقلها إلى أهل الأرض.

وفيها: عدم البُخل بالعلم، وألَّا يحزن المرء إذا صار غيره أفضل وأعلم منه، بسبب هذا العلم.

وفيها: أَنَّهُ لا يجوز حسد الغير على فَضْلٍ آتاه الله إيَّاه.

وفيها: إثبات صفة (اليد) لله تعالى، على الوجه اللائق به.

وفي قوله ﴿يَخْنَسُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: إجمال؛ ليبقى معه رجاء الراجي وخوف الخائف؛ فتتطَّلع النفوس إلى رجاء الفُضْل والدُّعاء به، وتخشى جرمانه بالمعصية، فتتوب منها؛ لعلَّ الفُضْل يشملُها.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

ولسَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خِيَانَةَ الْيَهُودِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَمَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ؛ ذَكَرَ خِيَانَتَهُمْ فِي الْمَالِ، وَأَنَّ مِنْهُمْ الْخَائِنَ وَالْأَمِينَ، وَأَنَّهُمْ قَسَمَانِ؛ فَقَالَ:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهذا يشمل: اليهود والنصارى ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ﴾ أي: تُودِعَ عنده أمانة، وتَجْعَلَهُ أَمِينًا عَلَيْهَا ﴿بِقِنطَارٍ﴾ وهو: المال الكثير الجزيل من الذهب ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: يَرُدُّهُ إِلَيْكَ سَالِمًا من غير نقص ولا مُطَاوَلَةٍ، وهو على الأمانة فيما دون القِنطَارِ، من باب أولى.

وليس في هذه الآية تعديلٌ لأهل الكتاب ولا لبعضهم - كما قد يُتَوَهَّم -؛ ففي فُسَّاقِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ وَيُؤْتِمِنُ عَلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ، ومع هذا لا يكون عدلاً بمجرد هذا؛ فكيف باليهود الذين يعتقدون استباحة أموالنا وحريمتنا بغير حَرَجٍ؟! ولو كان ذلك كافياً في عَدَالَتِهِمْ؛ لَقُبِلَتْ شَهَادَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، لكن هذا لم ولن يحصل.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب - واليهود خاصة - ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ﴾ أي: المال القليل، قيل: سُمِّيَ (دِينَارًا)؛ لِأَنَّهُ دِينَ وَنَارٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ دِينَهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ فَلَهُ النَّارُ^(١).

فَمِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ مَنْ إِذَا اسْتَوْثَمَ عَلَى مَالٍ قَلِيلٍ؛ ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وَلَا يَرُدُّهُ سَالِمًا، بَلْ يُنْقِصُهُ وَيَخُونُ فِيهِ، فَهُوَ عَلَى الْخِيَانَةِ فِيمَا فَوْقَ الدِّينَارِ مِنْ بَابِ أُولَى.

اللَّهُمَّ ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي: على رأسه، ملازمًا له ومُلِحًا عليه، نَاطِرًا أَحْوَالَهُ، غَيْرَ غَافِلٍ عَنْهُ، مُبَالِغًا فِي مُطَالَبَتِهِ. فَإِذَا غَفَلْتَ عَنْهُ خَانَكَ، وَأَكَلَ مَالَكَ، وَرُبَّمَا أَنْكَرَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ.

قال بعض المفسرين: الأمانة التي في أهل الكتاب هي إلى النصارى أقرب، والخيانة التي فيهم هي إلى اليهود أقرب.

(١) رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٨٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: خيانتهم تلك بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ فيما أخذنا ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ من أموالهم. و(الأميون): هم العرب؛ لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون، فنُسب (الأمي) إلى أمه، التي ولدته على هذا الجهل.

وقال بعض المفسرين: المقصود بـ (الأميين): من سوى اليهود، أو: من سوى أهل الكتاب.

فقالوا: ليس فيما أخذنا من أموال هؤلاء ﴿سَبِيلٌ﴾ أي: إثمٌ وخرجٌ، ولا يتطرق إلينا لومٌ. والمعنى: أن هؤلاء اليهود يعتقدون أنه ليس عليهم - فيما يأخذون ويخسرون ويحتسبون من أموال العرب - مؤاخذهٌ ولا إثمٌ، وأن أموال العرب حلالٌ على اليهود؛ لأنهم ليسوا على دينهم، ولا حرمة لهم، واليهود يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ فليس عليهم حرجٌ - بزعمهم - إذا أكلوا أموال عباده!

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: يفترون ويدعون أن هذا شرعٌ من الله، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن أكل أموال الناس بالباطل حرامٌ، وأنهم كاذبون فيما نسبوه إلى شريعتهم. ثم ردَّ الله تعالى عليهم، وأبطل مقولتهم وزعمهم؛ فقال: ﴿بَلَى﴾، وهذا حرفٌ يبطال - أي: لما قالوه -. والمعنى: بلى، عليهم سبيلٌ وإثمٌ وخرجٌ، هم، وكلُّ من خان الأمانة.

ثم قال تعالى - مبيناً محبته الوفاء بالعهد، وحفظ حقوق الخلق -: ﴿مَنْ أَوْفَى﴾ وأتم ﴿بِعَهْدِهِ﴾ الذي بينه وبين الله من الإيمان، وبينه وبين الناس من أداء الأمانة ﴿وَأَتَّقَى﴾ أي: فعل ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه - من الكفر والخيانة ونقض العهد - وعمل بطاعة الله، يتقي عذابه ويخشى عقابه؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: وهذه محبةٌ حقيقيةٌ، تقتضي إكرام هؤلاء وإثابتهم.

وفي الآيتين من الفوائد:

العدل في الحكم على الأعداء والخصوم.

وفيها: الحذر في المعاملة مع أهل الكتاب؛ فالخيانة فيهم كثيرة، وخيانتهم قائمةٌ على اعتقادٍ باطلٍ عندهم، بجواز أكل أموال الآخرين!

وفيها: الحذر من اتِّهَان اليهود والنصارى على مصالح المسلمين؛ لأنَّهم سَيَسْعُونَ للإضرار والإفساد والخيانة؛ ولذلك أنكر عمرُ على أبي موسى رضي الله عنه اتِّخَاذه رجلاً نصرانياً كاتباً - رَغِمَ إِتْقَانُهُ الْكِتَابَةَ - وقال له: «لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَأَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمْ اللَّهُ، وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّيَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وإذا كان اليهود والنصارى يخونون في الأموال؛ فخيانتهم بكشف أسرار المسلمين أشدُّ وأكثَرُ حِصُولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْمُونُكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفيها: اغترار أهل الكتاب بأنفسهم، واحتقارهم لغيرهم، وهذا هو الكِبَرُ؛ ففي الحديث: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٢)، ومعنى (بَطَرُ الْحَقِّ) أي: دَفَعَهُ وَإِنْكَارُهُ - تَرْفَعًا وَتَجَبُّرًا - و(غَمَطُ النَّاسِ): احْتِقَارُهُمْ.

وفيها: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَظْلِمُونَ وَيَعْتَدُونَ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ، اتِّبَاعًا لَهْوَى النَّفْسِ، وَيَنْسِبُونَ هَذَا - كَذِبًا - لَشَرِيعَتِهِمْ وَدِينِهِمْ.

وفيها: أَنَّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فِي الْفَتْوَى؛ ففِيهِ شَبَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يَعْلَمُ، أَشَدُّ إِثْمًا مَّنْ فَعَلَ هَذَا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

وفيها: أَنَّ التَّقْوَى وَالْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ مِنْ أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللَّهِ.

وفيها: تعظيم شأن العهود والعقود. و(العقد): عَهْدٌ بَيْنَ الْمُتَعَاقِدَيْنِ.

وفيها: تعظيم أمر الله، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا جَمِيعًا، وَأَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَفِيَ بِمَا التَّزَمَ بِهِ لِرَبِّهِ مِنَ الْعَهْدِ، وَمَا التَّزَمَ بِهِ لِلْخَلْقِ مِنَ الْعُقُودِ وَالْأَمَانَاتِ.

وفيها: أَنَّ الْإِنْتِسَابَ إِلَى جِنْسٍ أَوْ شَعْبٍ أَوْ قَبِيلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَا يَقْدَمُ وَلَا يُؤْخَرُ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ.

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/١٢٧).

(٢) رواه مسلم (٩١).

وفيها: أنه ينبغي مراقبة الخائن والقيام عليه، إذا اضطرَّ الإنسان إلى التعامل معه.
وفيها: أن من التضييع: اتِّهان الخائن.

وفيها: أن الخونة رُبما يبرِّرون لأنفسهم ما يفعلون؛ ليرفعوا عنها تأنيب الضمير.

وفيها: أن الخائن في الأموال لا يؤتمن على ما هو أخطر - كالأعراض والأسرار -.

وفيها: أن احتقار الآخرين يؤدي إلى أكل حقوقهم، والاستهانة بها.

وفيها: قُبْح الخيانة في جميع الشرائع.

وفيها: تعظيم الأمانة عند الله، ووجوب ردّها إلى البرِّ والفاجر.

وفيها: أن الاعتقاد الفاسد يجرُّ إلى العمل الفاسد.

وفيها: إثبات صفة (المحبّة) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته. ولا يجوز تأويلها إلى:

الإثابة والإكرام والرِّضا ونحوها من المعاني؛ بل هذا من لوازمها، وما يترتب عليها، فنُشِبَت (المحبّة) لله، ونُشِبَت لوازمها - من الإثابة والإكرام وغيرها -.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَآيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧):

ولما مدح الله تعالى الذين يوفون بعهودهم؛ ذمَّ خائني العهود؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾؛ فهم يتخلّون عن عهد الله ويبيعونه، فـ (الباء) تدخل على المتروك.

و(عهد الله): هو ما أخذَ عليه ميثاق العباد، مثل: عبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالرُّسل، ونصرهم، وتبيين الحق وعدم كتمانهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغيرها من العهود. ويدخل فيه أيضًا: العهود مع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَأَيْمَنِهِمْ﴾: جمع «يمين»، وهو: القسم والحلف.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: يأخذونه من عُروض الدنيا الفانية الزائلة، مُقابل خيانة العهد والحلف على الكذب، فلا يوفون بها عاهدوا الله عليه، ولا ما عاهدوا عليه الخلق.

فتوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالْجَحْرِ مَا مِنْ النِّعِيمِ، وَبِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ لَا تَخْلَقُ لَهُمْ﴾ أَي: لَا حَظًّا وَلَا نَصِيبًا مِنَ الْخَيْرِ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: مِنْ نَعِيمِهَا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ كَلَامَ رِضَا؛ بَلْ يُخَاطِبُهُمْ خُطَابَ إِهَانَةٍ وَتَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقوله ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: نَظَرَ رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ وَإِحْسَانٍ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أَي: لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالذَّنَسِ، وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلتَّزْكِيَةِ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: نَكَالٌ، وَعَقُوبَةٌ مُوجِعَةٌ.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ».

فَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: فِي - وَالله - كَانَ ذَلِكَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ؟»، قُلْتُ: لَا، فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «احْلِفْ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِإِلَيَّ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١).

وفي هذا دليل على: أَنَّ قِضَاءَ الْقَاضِي وَحُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يَغَيِّرُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ؛ فَلَوْ حَكَمَ الْقَاضِي بِالْمَالِ الْمُنْتَازِعِ عَلَيْهِ لِغَيْرِ صَاحِبِهِ - بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ لَهُ، أَوْ نَتِيجَةَ اسْتِعْمَالِ الْمَدَّعِي بِالْبَاطِلِ لِشُهُودِ الزُّورِ أَوْ الْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ -؛ فَإِنَّ هَذَا الْحُكْمَ لَا يُصِيرُ الْمَالَ حَالًا لِلظَّالِمِ.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْحِصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّهَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَرْكُهَا»^(٢).

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ

(١) رواه البخاري (٢٤١٦)، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطَ، لِيُوقَعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ! فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية (١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ»، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ» (٢).

وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ: لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا أَكْثَرُ مِمَّا أُعْطِيَ، وَهُوَ كَاذِبٌ. وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ. وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي، كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ» (٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم عهد الله.

وفيها: تحريم اليمين الغموس، الذي يُقْتَطِعُ بِهِ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وفيها: تقديم الآخرة على الدنيا.

وفيها: إثبات الكلام لله.

وفيها: أَنَّ انتفاء النظر الخاصِّ لله إلى بعض خَلْقِهِ، لَا يَنْفِي نَظَرَهُ الْعَامَّ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَى الْجَمِيعَ، وَلَا يَحْتَجِبُ شَيْءٌ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ عَنْهُ.

وفيها: تنوع العذاب على الخائنين؛ فمنه: عذاب للنفس - كَالسَّخَطِ وَالْإِحْتِجَابِ - وعذابٌ للجسد - كَالنَّارِ - والخائنون درجات - مِنَ الْكُفْرِ، فَمَا دُونَهُ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ، وَأَكْلِ الْحَقِّ - وَكُلُّ خَائِنٍ يَأْخُذُ مِنْ وَعِيدِ الْآيَةِ عَلَى قَدْرِ جَرِيمَتِهِ.

(١) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٢) رواه مسلم (١٠٦).

(٣) رواه البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

وفيها: أَنَّ من العقوبات العظيمة: الحرمان من التطهير؛ فيأتي المحروم يوم القيامة وهو متدنس متلطخ بالجرائم القبيحة، والذنوب العظام.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨):

ثم ذكر الله تعالى من جرائم أهل الكتاب - واليهود على الأخص - تحريفهم لكلام الله؛ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم﴾: يُغَيِّرُونَ وَيُعْطِفُونَ، بالتحريف والتغيير. وهذا يشمل اللفظي، واللي المعنوي:

فأمَّا اللي اللفظي: فتارة يكون بكلام مخترع أنشأوه، يقرأونه ويُلحِّنونه كما يقرأون التوراة، وتارة بتحريف الكلم، بإضافة حرفٍ أو إنقاص حرف - مثلاً - ليحسب من لا علم عنده بالتوراة أن هذا مما أنزله الله فيها. وهذا معنى قوله تعالى ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: لِتَظُنُّوهُ من كتاب الله المنزل عليهم.

وأمَّا التحريف المعنوي: فهو تفسير كلام الله على غير مراده؛ ليظن السامع أن هذا هو مراد الله.

وقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فيه ردٌ عليهم؛ فإنَّ هذا المحرف ليس منزلاً من عند الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: اليهود ﴿هُوَ﴾ أي: المحرف ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: من الكتب التي أنزلها على أنبيائه، كتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: تكررٌ للنفي؛ تأكيداً لكذبهم، وتشنيعاً عليهم وعلى جرأتهم التي بلغت حدَّ الافتراء على الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في أسمائه وصفاته، كقولهم: «يد الله مغلولة»، «إنَّ الله فقير»، «إنَّ الله تعب لما خلق السماوات والأرض، واستراح يوم السبت»، وقولهم: «عزير ابن الله»، وغيرها من الافتراءات والأكاذيب.

وَيَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَيْضًا فِي أَحْكَامِهِ؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّاتِ سَبِيلٌ﴾؛
 فَيَسْتَحِلُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِمْ وَلَا إِثْمَ فِي هَذَا!
 ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ، وَيَعْلَمُونَ حُكْمَهُ، وَأَنَّهُ إِثْمٌ وَحَرَامٌ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَعَمَّدُونَ
 فِعْلَهُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان جريمة الكَذِبِ عَلَى اللَّهِ والافتراءِ عليه.
 وفيها: التحذير من الانخداع بالأكاذيب وافتراءات أهل الكتاب.
 وفيها: أَنَّ أهل الكتاب يَسْعَوْنَ إِلَى إِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَالتَّلْيِيسِ عَلَى الْعَامَّةِ.
 وفيها: أَنَّ أهل الكتاب لَا يُؤْتَمِنُونَ عَلَى كُتُبِهِمْ.
 وفيها: جُرْأَةُ الْيَهُودِ، بِالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، وَنِسْبَةِ مَا لَمْ يَقُلْهُ إِلَيْهِ، وَنَفْيِ الْمَعْنَى الْحَقِّ، وَإِثْبَاتِ
 الْمَعْنَى الْبَاطِلِ.
 وفيها: جَمْعُ الْيَهُودِ بَيْنَ الْكَذِبِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.
 وفيها: سَعْيُ أَعْدَاءِ اللَّهِ إِلَى تَحْرِيفِ اللَّفْظِ وَإِفْسَادِ الْمَعْنَى، وَأَنَّهُمْ يَعْطِفُونَ أَلْسِنَتَهُمْ وَيَلْوُونَهَا
 عَنِ اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ إِلَى الْمَحْرَفِ.
 وفيها: أَنَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، بِحِفْظِ أَلْفَاظِهِ وَمَعْرِفَةِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى
 مِنْ كَلَامِهِ.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ﴾ (٧٩) ﴿الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

وَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى افْتِرَاءَ الْيَهُودِ عَلَيْهِ؛ أَرَدَفَ ذَلِكَ بِذِكْرِ افْتِرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَإِثْبَاتِ
 بَرَاءَةِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَقَالَ:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أَي: لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ (بَشَرًا)؛ لِظَهْوَرِ بَشَرَتِهِ وَعَدَمِ
 اسْتِئْذَانِهَا - بِخِلَافِ بَشَرَةِ الدَّوَابِّ -.

﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾ أي: يصطفيه نبياً، ويُعطيه ﴿الْكِتَابَ﴾ وهو: الوحي المنزّل من عنده - كالتوراة والإنجيل والقرآن - ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي: فهم الكتاب والعمل به ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾: الرسالة والوحي.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ﴾: يأمرهم قائلاً: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أعبدوني بأي نوع من أنواع العبادة، من دون الله - أي: مع الله - مُشركين به.

وإنما اللّائق بهذا النبي أن يقول لقومه: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِمَاءَ﴾ أي: حُكَمَاءَ، عُلَمَاءَ، حُلَمَاءَ، فَقَهَاءَ، مُخْلِصِينَ، تَجَمَّعُونَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى، وَتُرَبُّونَ النَّاسَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ بِالْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَتُرَبُّونَ الْخَلْقَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: بسبب كونكم مُعَلِّمِينَ النَّاسَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون وتحفظون وتفهمون، فتتعلّمون ثم تعلّمون. و(الدّراسة): هي تعلّم الألفاظ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ.

وفيها: تذكير الدّعاة بالإخلاص لله في دعوتهم، وأن يوجّهوا النَّاسَ إِلَى اللَّهِ، دُونَ رَبِّطِهِمْ بِأَشْخَاصِهِمْ أَوْ جَمَاعَتِهِمْ.

وفيها: أَنَّ الْعُلُوَّ فِي طَاعَةِ الْأَشْخَاصِ نَوْعٌ مِنْ عِبَادَتِهِمْ.

وفيها: أَنَّ مَنْ أَلْزَمَ النَّاسَ أَوْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا قَوْلَهُ - مهما كان -؛ فهو إنّما يدعُوهم لعبادة نفسه، وقد قال تعالى عن شرك الطاعة: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد جاء في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا هُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»^(١).

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

فليست الدَّعوة لعبادة غير الله أن يقول الداعي للناس: اركعوا لي، واسجدوا لي؛ بل إذا ألزمهم أيضًا بطاعته من دون الله؛ فقد دعاهم إلى عبادته مع الله.

وفيها: أنه ينبغي لمعلم الناس الخير أن يكون ربانيًا، يتأدب ويؤدّب، ويتعلّم ويُعلّم، بالقدوة.

وفيها: أهمية العمل بالعلم، ويدخل فيه: تعليمه الناس.

وفيها: أن الله يرزق أنبياءه فهم ما أنزله عليهم، والعمل به.

وفيها: أن العلم طريق العمل؛ فكيف يعمل من لا علم عنده؟

وفيها: استحالة كذب الأنبياء على الله تعالى، ودعوتهم إلى الشرك.

وفيها: أن العالم الرباني هو: الذي يُربي الناس على ما أنزله الله، ويدعوهم إلى التعلّم والعمل، ويتدرّج بهم في مسائل العلم، ويبدأ بالقواعد والكليات وأصول العلم، قبل التفاصيل والجزئيات.

وفيها: أهمية (دراسة) الكتاب الذي أنزله الله، وهذا يحتاج إلى مُذاكرة، وفهم، وتبصّر، ومواظبة على القراءة.

وفيها: أن من تعلّم ما أنزل الله وتمسك به؛ فهو رباني.

وفيها: أن الرباني لا بُدَّ أن ينفع الناس، ولا يقتصر نفعه على نفسه.

وفي الآية: بيان الأسباب التي يؤدي الأخذ بها إلى بلوغ مرتبة الربانيّة؛ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وفيها: أن التعليم النافع ليس مجرد حشو الأذهان بالمعلومات؛ وإنما لا بُدَّ من ظهور أثر العلم وثمرته، بالأعمال الصالحة، والأخلاق والآداب الكريمة الطيبة.

وفيها: أهمية البصّر بسياسة الناس، وقيادتهم للعمل بما أنزله الله، والالتزام بذلك والتمسك به.

وفيها: أن من الربانيّة: تولّي أمور الناس، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم ونفعهم في العاجل والآجل.

وفيها: أهمية النَّفْعِ المتعدّي، والسَّعْيِ في إِصْلَاحِ الخَلْقِ، وحملهم على طاعة الله.
وفيها: أَنَّ منهج الأنبياء: عِلْمٌ، وَعَمَلٌ، وَتَرْبِيَةٌ.

وفيها: تفخيم شأن المنتسب إلى (الرَّبِّ)، بتعلُّم ما أنزله، والعمل به.

وفيها: أَنَّ من أسباب ترسيخ العِلْمِ في النفوس الرِّبَانِيَّة: العمل به بعد دَرْسِهِ.

وفيها: أَنَّ النسبة بين العبد وربِّه مُنْقَطِعَةٌ، إذا لم يحصل العِلْمُ والعمل معًا.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠):

ولمَّا ذكرَ الله تعالى أَنَّ النَّبِيَّ المُرْسَلَ مِنْ عِنْدِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُوَ قَوْمَهُ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ وَإِنَّمَا يَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَكُونُوا رَبَّانِيَّينَ، والوسيلة لذلك هي: دِرَاسَةُ الكِتَابِ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ ذَكَرَ تَعَالَى أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ مَعَ اللَّهِ؛ فَقَالَ:

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ أَي: وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَأْمُرَكُمْ ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ الْمُقَرَّبِينَ ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ وَالْمُرْسَلِينَ ﴿أَرْبَابًا﴾ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ﴾: الْإِسْتِفْهَامُ لِلنَّفْسِ؛ أَي: لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.
﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ إِسْلَامُكُمْ وَاسْتَقَرَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَخُصُوصًا النَّصَارَى الَّذِينَ عَابَدُوا نَبِيِّهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: هُوَ أَمْرُنَا بِذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لِنَبِيِّهِ عِيسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وفيها: أَنَّ الأنبياء لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنَاقِضُوا مَبَادِي الدَّعْوَةِ، الَّتِي يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا.

وفيها: الرَّدُّ عَلَى مَا اشْتَهَرَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ، مِنْ عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، وَقَدْ عُبِدَ كُفَّارُ الْعَرَبِ الْمَلَائِكَةُ، وَعُبِدَ الْيَهُودُ عَزِيرًا، وَعُبِدَ النَّصَارَى الْمَسِيحَ، وَأَشْرَكُوا بِهِمْ مَعَ اللَّهِ.

وفيها: رَدُّ بَلِيغٍ عَلَى الَّذِينَ يَغْلُوبُونَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَصْرِفُونَ لَهُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَةِ،

مثل: الاستغاثة به، ودعائه مع الله، واللجوء إليه في الشدائد بعد موته، والغلو في مدحه، بوصفه بأوصاف لا تليق إلا بالله - كمغفرة الذنوب، وشفاء الأمراض، ومعرفة الغيب، ونحوها -.

وفيها: أن الأنبياء تركوا أقوامهم على الإسلام، ثم حصل التحريف والتبديل من بعدهم. ونبينا محمد ﷺ تركنا على البيضاء، ليلها كنهارها، ثم حدث الكفر والشرك بعد ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

ولمّا كان أهل الكتاب يُنكرون نبوة النبي ﷺ ووجوب اتباعهم له؛ بين الله عز وجل وأخبر أنه أخذ العهد على جميع الأنبياء عليهم السلام - من آدم إلى عيسى - بأنه إذا بعث محمد ﷺ وهم أحياء، أنهم سيتبعونه وينصرونه؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي: اذكر - يا محمد ﷺ - لمن أرسلناك إليهم، بأن ربك قد أخذ ﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ و(الميثاق) هو: العهد المؤكد باليمين.

﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: مهما أعطيتكم من كتاب - كالتوراة والإنجيل - وأنزلت عليكم من وحي، ورزقتكم من الحكمة، والصواب والفهم، والقضاء بين الناس، ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ من عندي ﴿رَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: موافق ومطابق ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ ممّا أنزلته عليكم، وأخبرتكم عنه في كتبكم؛ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ﴾ أي: تُصدّقون به أنتم ومن معكم، وتعملون بما يأتي به.

﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾: تُعينونه في نشر رسالته، وتجاهدون معه أعداءه.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: الاستيفهام للتقرير؛ أي: هل اعترفتم بذلك والتزمتم به، ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قبلتم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الإيمان والنصرة ﴿إِصْرِي﴾ (الإصر) هنا: العهد الثقيل، والميثاق الشديد.

﴿قَالُوا﴾ -أي: الأنبياء-: ﴿أَقْرَرْنَا﴾ واعترفنا، وقبلنا، والتزمنا.

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي: على أنفسكم بذلك، وعلى أتباعكم، وليشهد بعضكم على بعض به ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: شاهد معكم؛ فشهد الله تعالى بنفسه على هذا العهد، وكفى به شهيداً.

وقد قيل: إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء مجتمعين، في عالم الذر. وقيل: كل على حدة، في حياته ووقته -لما بعثه وأوحى إليه-. ولا مانع من حصول الأمرين جميعاً، والله أعلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إلزام أهل الكتاب بالإيمان بالنبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتباعه.

وفيها: أنه لا يكفي الإيمان بنبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دون اعتقاد لزوم أتباعه، والدخول في دينه، ونصرته؛ فإن بعض طوائف أهل الكتاب كانوا يقولون: نؤمن به نبياً، لكن للعرب، وليس لنا!

وفيها: أن الله تعالى أخذ العهد على الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً، وأن يؤمن الأول بما جاء به الآخر، وينصره، وأنهم جميعاً سيتبعون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو ظهر فيهم، وقد حصلت الإشارة إلى ذلك بإمامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم في بيت المقدس ليلة الإسراء؛ فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الخلق، وله المقام المحمود، والشفاعة العظمى يوم القيامة.

وفيها: أن خبر نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجود في جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، ومنها: كتاب موسى وعيسى عليهما السلام، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفيها: أن الأنبياء صاروا أهلاً لهذا الميثاق العظيم، بما آتاهم الله من الكتاب والحكمة.

وفيها: فضل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع الأنبياء، وهو خاتمهم وإمامهم.

وفيها: أن ما كان واجباً على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو واجب على أتباعه؛ لأن ما وجب على الإمام وجب على تابعه.

وفيها: أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِنَبِيِّهِ الَّذِي يَزْعُمُ اتِّبَاعَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُوا نُوْحِنُ مِنْ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١).

وعلى هذا: فَمَنْ أَنْكَرَ مَا جَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ -؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمُوسَى وَعِيسَى، وَبِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

وفيها: تَكَرَّرَ أَخْذُ الْعَهْدِ، وَتَوْثِيقُهُ، وَالْحَلْفُ عَلَيْهِ، وَالْإِشْهَادُ عَلَيْهِ، فِي الْأُمُورِ الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ.

وفيها: عِظَمُ مَسْئُولِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَوَاجِبِهِمْ نَحْوَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِمَا كَانَ سَيَقُومُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ - لَوْ ظَهَرَ فِيهِمْ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وفيها: وَجُوبُ الْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَنَشْرُ السُّنَّةِ، وَنَصْرُ الدِّينِ؛ نُصْرَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: شَرَفُ الْمُسْلِمِينَ، بِأَنَّهُ صَارَ مِنْ وَظِيفَتِهِمْ مَا كُتِّفَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلُ، وَلَزِمَهُمْ مَا كَانُوا قَدْ التَزَمُوا بِهِ.

وفيها: كَشَفُ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يُخْفِيهَا أَهْلُ الْكِتَابِ؛ إِقَامَةُ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَإِظْهَارًا لِعِنَادِهِمْ.

وفيها: أَنَّ الشَّهَادَةَ تَقْتَضِي تَحْمُلَ الْمَشْهُودِ بِهِ، وَاعْتِقَادَهُ، وَأَدَاءَهُ وَتَبْلِيغَهُ.

وفيها: أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ أُمِرَ قَوْمُهُ بِنُصْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أَنَّ صِفَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ مَعْلُومَةً لَدَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فِي حَيَاتِهِمْ.

وفيها: أَنَّ أَخْذَ الْإِقْرَارِ وَالاعْتِرَافِ بَعْدَ الْمِيثَاقِ، ثُمَّ الْإِشْهَادُ عَلَى ذَلِكَ؛ هُوَ مِنْ بَابِ

التَّأْكِيدِ، وَهَذَا يَبَيِّنُ شِنَاعَةَ جَرِيْمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَرْفُضُ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْمِيثَاقِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِشْهَادِ.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢):

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْمُعْرِضِ عَنْ هَذَا الْمِيثَاقِ؛ فَقَالَ: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أَي: أَعْرَضَ عَنْ

الإيمان بهذا النبي ﷺ ونُصرتَه ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعدما أخذ الله العهد والميثاق؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله، الجاحدون لشرعه ودينه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إطلاق الفسق على الكفر، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠]، والفسق الأكبر منه يُوجب الخلود في النار.

وفي الآية: أن الشرائع لا تلزم قبل العلم؛ فمن كان في بادية أو بلاد نائية، فلم تبلغه الدعوة والرّسالة؛ فلا يعذب على مخالفة ما لا يعلم، وأمره إلى الله تعالى يوم القيامة، يُكَلِّفه ويمتحنه، وهو بصيرٌ به وبمصيره. وكذلك المسلم الذي لم يبلغه حكم شرعيّ - بلا تفريط منه-؛ فهو معذورٌ، حتى يبلغه الحكم.

وفيها: أن على الدعوة إلى الله إبلاغ حجة الله إلى خلقه، ببيان ووضوح، بلغاتهم وألسنتهم؛ لأن هذا ممّا شرّعه الله وأوجبه وأحبه؛ كما قال في آية أخرى: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٢):

ثم قال تعالى، مُنْكَرًا على مَنْ أراد دينًا سوى دينه الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رُسُلَه، وهو عبادته وحده لا شريك له:

﴿أَفَغَيْرَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿دِينِ اللَّهِ﴾ وشريعته التي شرّعها لعباده ﴿يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون ويُريدون.

ومعنى الآية -بالنظر إلى ما سبقها-: أبتولون ويُعرضون عن الحق بعدما تبين لهم، ويطلبون دينًا غير دين الله -وهو الإسلام، والإخلاص لله في العبادة-؟!

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ (الواو) للحال، أي: والحال أنه أسلم له سبحانه، وخضع، وانقاد

لِحُكْمِهِ ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ وهذا هو الإسلام والانقياد الاختياري، ﴿وَكَرْهًا﴾ أي: انقادًا مُرْغَمًا، انقيادًا كونيًا، وهذا يشمل كل ما في السماوات والأرض، من العقلاء والجمادات، وغيرها من المخلوقات.

و(الطَّوع): ما فُعِلَ اختيارًا، و(الكَرْه): ما فُعِلَ اضطرارًا.

﴿وَالَيْتَهُ يُرْجَعُونَ﴾ أي: تَرْجَعُ الخلائق كلها إليه سبحانه يوم القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مخاطبة الكفار بما يلزمهم.

وفيها: إقامة الحُجَّة على الكفار؛ بأنهم إذا كانوا مُنْقَادِينَ لله كَرْهًا - في مثل المرض، وقَسَمِ الرِّزْق، والأَجَل والموت -؛ فلماذا لا يَنْقَادُونَ إليه طَوْعًا، فَيُسَلِّمُونَ له وَيَتَّبِعُونَ شَرْعَهُ؟!

وفيها: أَنَّ الإِعْرَاضَ عن حُكْمِ اللَّهِ تعالى لَا يَلِيْقُ بِالْعُقُلَاءِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ ابْتَغَى غير دين الله؛ فهو مُسْتَحِقٌّ للتوبيخ العظيم.

وفيها: أَنَّ مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ الْعَمَلِ: أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لَشَرْعِ اللَّهِ، مَبْنِيًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ له وَحْدَهُ.

وفيها: عُمُومُ مُلْكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهَيْمَتِهِ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُجَالَفُ، وَلَا يُبَالَعُ.

وفي الآية: أَنَّ الْمَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ فِي الدُّنْيَا: بِالْعِبَادَةِ وَالتَّشْرِيعِ، وَفِي الْآخِرَةِ: بِالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

وفيها: تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِلْمُتَمَتِّعِينَ عَنْ اتِّبَاعِ دِينِ اللَّهِ، بِأَنَّهُمْ سَيُرْجَعُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُحَاسِبَهُمْ وَيُجَازِيَهُمْ.

وفيها: أَنَّ الْإِنْقِيَادَ الْإِخْتِيَارِيَّ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ الْعَبْدَ وَيُثَابُ عَلَيْهِ، أَمَّا مَنْ انْقَادَ إِلَى الدِّينِ بِالْقُوَّةِ وَالسَّيْفِ - دُونَ انْقِيَادِ الْقَلْبِ -: فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا الْإِنْقِيَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

لكن، قد يَنْقَادُ بَعْضُ النَّاسِ فِي بَدَايَةِ أَمْرِهِمْ كَرْهًا - بِالسَّيْفِ وَالسَّلَاسِلِ وَالتَّهْدِيدِ، كَمَا حَصَلَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي رَفْعِ الْجَبَلِ عَلَى رُؤْسِهِمْ - ثُمَّ يَدْخُلُ الْإِيمَانُ إِلَى الْقُلُوبِ، فَيَنْقَادُونَ

طَوْعًا، ويعبدون الله اختيارًا؛ فيدخلون الجنة، كما في الحديث: «عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ»^(١).

وفيها: أَنْ تَمَّا يُعِينُ عَلَى الانْقِيَادِ طَوْعًا: معرفة الثواب والعقاب.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤):

ثم بين الله تعالى تصديق النبي محمد ﷺ لمن قبله من الأنبياء؛ فقال: ﴿قُلْ﴾ - يا محمد ﷺ - مبيِّنًا اعتقادك فيمن سبقك من إخوانك من الرُّسُل - ويدخل في هذا الخطاب أُمَّتُهُ ﷺ أيضًا -.

فقولوا جميعًا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: برُبوبيَّتِهِ، وإلهيَّتِهِ، وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من الوحي والتنزيل، وهو القرآن والسُّنَّة التي تبيِّنُهُ. وقَدَّمَ (القرآن) بالذكر؛ لآَنَّهُ أَشْرَفُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ.

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾: من الصُّحُف، وما أُوتِيَ أولادُهُ من الوحي. وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو الولد الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ وهو الذي يلي أخاه إسماعيل في الترتيب الزمني، وفي الفضل كذلك، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق، الملقَّب بـ (إسرائيل)، ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾: جمع (سبط)، وأصله في اللُّغة: ابن البنت، ويطلق على الذين يَرْجِعُونَ إلى أب واحد. والمراد هنا: أولاد يعقوب عليه السلام الاثنا عشر، ومن تشعب منهم من بطون بني إسرائيل.

و (الإنزال) قد حصل على أنبياء شعوب بني إسرائيل، لكن ما أُنزِلَ على النبي فكأنَّها أُنزِلَ على أُمَّتِهِ وقومه.

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

﴿وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ - التوراة والإنجيل - وَمِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ. وقد أفردهما عَمَّنْ قَبْلَهُمَا؛ لِمَا حَصَلَ بِهِمَا مِنَ التَّغْيِيرِ الْكَبِيرِ وَالْأَثَرِ الْعَظِيمِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلأنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ فِي الْآيَةِ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمُوسَى وَعِيسَى هُمَا نَبِيَّاهُ أَهْلُ الْكِتَابِ. وقوله ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ أي: مَا أُعْطِيَ النَّبِيُّونَ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَحَيًّا وَفَضْلًا وَمِنَّةً. ويدخل في (النبيين) هنا: داود وسليمان وأيوب وغيرهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ؛ بَلْ نُؤْمِنُ بِالْجَمِيعِ.

﴿وَنَحْنُ لَهُمُ﴾: الضمير يعود على الأصل في سياق الكلام، وهو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُسْتَسْلِمُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، شَرْعًا وَقَدَرًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إِجْلَالُ اللَّهِ لِقَدْرِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَدْ قَدَّمَهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدَّمَ (مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ) عَلَى (مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ).

وفيها: وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا - وهو القرآن - وهذا يقتضي التصديقَ بِأَخْبَارِهِ، وَامْتِثَالَ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ.

وفيها: الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْ أَسْمَاءَهُمَا وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ تَفْصِيلًا.

وفيها: أَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ أُنْزِلَ عَلَى أَقْوَامِهِمْ.

وفيها: وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ.

وفيها: الْحَذَرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ فِي الْإِيمَانِ، وَالْحَذَرُ مِنَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى إِنْكَارِ نُبُوَّةِ بَعْضِهِمْ - كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَغَيْرُهُمْ، بِالتَّكْذِيبِ بِغَيْرِ أَنْبِيَائِهِمْ -.

وفيها: أَنَّ الْاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ يَقْتَضِي تَقْدِيمَ طَاعَتِهِ عَلَى طَاعَةِ كُلِّ أَحَدٍ، وَالْاسْتِسْلَامَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْانْقِيَادَ لَشَرْعِهِ، وَالرِّضَا بِقَدْرِهِ.

وفيها: أَنَّ الْاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِمَا جَاءَ مِنْهُ، نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ. وهذا لا يتعارض

مع الإيمان بما أنزل على النبيين من قبل؛ فنحن نقتدي بهم، ونؤمن بما أنزل عليهم، لكن؛ لكل شريعة ومنهاج، وما جاء شرعنا به يلزمنا الأخذ به دون غيره.

وفيها: أن عطية الدين والإيمان هي رأس العطايا، وسبب السعادة في الآخرة؛ فيجب الاهتمام والفرح بها أكثر من الاهتمام والفرح بعطايا الدنيا.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٨٥):

يخبر الله تعالى في هذه الآية: أن كل دين غير الإسلام فهو باطل ومرفوض.

وقوله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ أي: يطلب ﴿غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ والتوحيد، والانقياد لحكم الله، والطريقة في التعبد التي أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿دِينًا﴾ يتعبد به، ويسلكه منهجاً، ويعتقه، ويدين الله به يرجو الثواب.

و(الدين) يُطلق على العمل، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويُطلق على الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ [الانفطار: ١٧] أي: يوم الجزاء.

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: مرفوض ومردود، ولا يُثاب عليه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي: المحرومين من الثواب، الواقعين في العقاب، النادمين حيث لا ينفع الندم؛ لأنهم تعبوا في الدنيا بالمسلك الباطل، وخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الإسلام في الآية هو الإسلام الخاص، وهو شريعة النبي صلى الله عليه وسلم. وأما الإسلام بالمعنى العام فهو: الاستسلام لله تعالى، وهو دين جميع الأنبياء، كما قال تعالى -حكاية عن يعقوب عليه السلام في وصيته لبنيه-: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكما قالت ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وفي الآية: أنه لا يجوز إقرار أحد على دين يخالف شريعة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيها: أن من دان بغير الإسلام -في أصل أو فرع-؛ فلن يقبل منه، ولن يعطى ثواباً في الآخرة؛ بل سيخسر نفسه في النار -عياداً بالله-.

وفيها: أَنْ مَنْ دَانَ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ دِينَهُ مَرْفُوضٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِنَاءُ الْفِعْلِ لِلْمَجْهُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ﴾.

وهذا يدلُّ على بطلان مبدأ «احترام جميع الأديان»؛ إذ كيف تُحترم الأديان الباطلة؟!

وفيها: بَيَانُ بَطْلَانِ قَوْلِ مَنْ قَالَ بِصِحَّةِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ، وَنَادَى بِعَدَمِ الطَّعْنِ فِيهَا! وَهَذَا ضَلَالٌ مُبِينٌ؛ فَجَمِيعُ الْأَدْيَانِ - مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَالْيَهُودِيَّةِ، وَالْبُودِيَّةِ، وَغَيْرِهَا - بَاطِلَةٌ، وَلَا دِينَ إِلَّا دِينُ الْإِسْلَامِ.

وفيها: أَنْ مَنْ دَانَ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ؛ يُتَعَبُ نَفْسَهُ، وَلَا يُقْبَلُ عَمَلُهُ، وَمَهُمَا أَنْفَقَ فِي الْخَيْرِ فَقَدْ أَضَاعَ مَالَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ عَنْ هَؤُلَاءِ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وفيها: بَيَانُ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْكَافِرِينَ، عِنْدَمَا يُلْحَقُهُمُ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

وفيها: تَوْفِيرُ الْوَقْتِ عَلَى مَنْ يَبْحَثُ عَنِ الدِّينِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّهُ الْإِسْلَامُ لَا غَيْرَ.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦):

سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشُّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: سَأُلُوا لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ»^(١).

وقيل: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ - مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - الَّذِينَ رَأَوْا نَعْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَتَهُ فِي كِتَابِهِمْ، وَأَقْرَأُوا بِهِ، وَشَهِدُوا أَنَّهُ حَقٌّ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ بَعْدَ بَعْثِهِ^(٢).

(١) رواه النسائي (٤٠٦٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٦٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٧٤/٦)، تفسير ابن المنذر (٢٨٠/١).

وقوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: الاستيفهام للإنكار. ويجوز أن يكون للتعجب من كفرهم بعد إيمانهم، أو للتوبيخ والاستبعاد.

والمعنى: من المستبعد أن يهدي الله قوماً ارتدوا بعد أن آمنوا وعرفوا الحق؛ واختاروا الكفر والضلال بعد الإيمان؛ فإن هداية مثل هؤلاء بعيدة؛ لأن من عرف الحق ثم ارتد عنه، أشدُّ جُرماً ممن لم يعرف الحق وبقي على كفره. ولذلك كانت عقوبة المرتد هي القتل بكل حال، إلا أن يُسلم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

﴿وَشَهِدُوا﴾، وأقروا بالسيئة ﴿أَنَّ الرَّمْسُولَ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿حَقٌّ﴾ ثابت، وخبره صدق، ولا مِرية في كونه مُرسلاً من عند الله، ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الحجج والبراهين والمعجزات، التي تبين صدقه صلى الله عليه وسلم وتدل على صحة نبوته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلا يُوفقهم للهداية، ولا يُيسر لهم أسبابها؛ لأنهم ظلموا أنفسهم، بإصرارهم على الكفر، بعدما تبين لهم الحق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن أهل الكتاب كانوا يُقرّون ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث، وأن قلوبهم صدقت بذلك، ونطقت به ألسنتهم.

وفيها: استبعاد هداية من جحد الحق، بعدما تبين له، وعرفه بالأدلة والبراهين.

وفيها: أن المرتد أعظمُ كفراً من الكافر الأصلي.

وفيها: أن الهداية أقرب إلى الكافر الذي لم يعرف الحق ثم عرّض عليه، من الذي عرفه وأصرَّ على الكفر.

وفيها: أن الهداية والإضلال بيد الله، وهي تابعة لحكمته تعالى، فمنهم من يهديه فضلاً، ومنهم من حقت عليه الضلالة عدلاً.

وفيها: حكمة الله تعالى ورحمته وعدله؛ حيث أقام للناس من البينات الشرعية والعقلية والحسية ما يذمهم على الحق.

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

وفيها: أَنْ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ، وَتَحَرَّاهُ، وَتَشَوَّفَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ جَدِيرٌ بِالْهُدَايَةِ.

وفيها: تسمية الكافر أو المشرِك (ظالمًا)؛ لِأَنَّهُ وَضَعَ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

وفيها: شناعة الرِّدَّة، وَأَنَّ عَقُوبَتَهَا مُعَجَّلَةٌ فِي الدُّنْيَا - بِالِاسْتِمْرَارِ فِي الضَّلَالَةِ - وَمُؤَجَّلَةٌ فِي الْآخِرَةِ - بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ -.

وفيها: أَنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ؛ فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى عاقبة هؤلاء الظالمين؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين ارتدُّوا وكفروا بعد إيمانهم. وصيغة الإشارة للبعيد هنا؛ تدلُّ على انحطاط مرتبتهم.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: أَنَّ مُكَافَأَتَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ: ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ أي: سَخَطُهُ وَغَضَبُهُ عَلَيْهِمْ، وَطَرْدُهُ لَهُمْ وَإِبْعَادُهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يَلْعَنُونَهُمْ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُمْ مَطْبُوعُونَ عَلَى الْكُفْرِ، مُسْتَحِقُّونَ لِلْعَنْ.

وقوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: فِي اللَّعْنَةِ، أَوْ: فِي عَذَابِ النَّارِ. وَ(الْخُلُودُ) يُطْلَقُ عَلَى الْمُكْتِثِ الطَّوِيلِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الدَّائِمُ، وَلِذَا قَالَ: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: لَا يُنْقَصُ، فَضْلًا عَنْ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ يُنَادُونَ الْمَلَائِكَةَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: يُوَخَّرُونَ وَيُؤَجَّلُونَ؛ بَلْ يُبَادِرُونَ بِالْعَذَابِ مُبَادَرَةً، وَيُؤَفَّوْنَهُ مُبَاشَرَةً.

ثم استثنى الله تعالى من هذا كُلِّهِ طَائِفَةً وَاحِدَةً؛ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وَرَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَآمَنُوا بَعْدَ كُفْرِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: مِنْ بَعْدِ رِدَّتِهِمْ. وَأَشَارَ إِلَى الْكُفْرِ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ؛ لِانْحِطَاطِ مَرَّتَبَتِهِ.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوه، وعملوا الصالحات، وأعلنوا براءتهم من الكُفر الذي كانوا عليه، ودَعَوْا مَنْ تَبِعَهُمْ إِلَى أَنْ يَتُوبَ مِثْلَهُمْ، وَقَنَدُوا الْبَاطِلَ الَّذِي نَشَرُوهُ.

فإن فعلوا كُلَّ ذَلِكَ؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: مقتضى هذين الاسمين أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمْ ويرحمهم، وَيَسْتُرُ ذُنُوبَهُمْ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ عَجَلًا؛ فهو (غفورٌ) بإزالة العذاب وآثار الذُّنُوبِ، و(رحيمٌ) بإعطاء الثواب.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

بيان استحقاق الذي يموتون على الرَّدَّةِ لِلْعَنَةِ اللهُ، وملائكته، وعباده الصالحين، ولعنة الناس أجمعين في الآخرة، حتى إِنَّ الْكُفَّارَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وكما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفيها: أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُمَهَّلُونَ لِيَعْتَذِرُوا؛ وَإِنَّمَا يَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْعَذَابِ دُونَ تَأْجِيلٍ، بَدَأَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثُمَّ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَيَسْتَمِرُّ أَبَدَ الْآبِدِينَ.

وفيها: أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَشْنَى مِنَ الْوَعِيدِ: التَّائِبِينَ مِنَ الْكُفْرِ.

وفيها: فَتُحُ الْبَابِ هَؤُلَاءِ، وَتَذَكِيرُهُمْ بِالْفُرْصَةِ؛ لِيَعُودُوا عَنْ ضَلَالِهِمْ، وَيُصْلِحُوا مَا أَفْسَدُوهُ.

وفيها: أَنَّ التَّوْبَةَ يَجِبُ أَنْ تَعْظُمَ كُلَّمَا عَظُمَ الذَّنْبُ.

وفيها: أَنَّ الْمُرْتَدَّ إِذَا تَعَدَّى شُرُّهُ بِدَعْوَةٍ غَيْرِهِ إِلَى الْكُفْرِ، وَتَزْيِينِهِ لِلْآخِرِينَ؛ فَإِنَّ مِنْ شُرُوطِ تَوْبَتِهِ: أَنْ يُصْلِحَ مَا أَفْسَدَهُ، وَيُبَيِّنَ عَلَى الْمَلَأِ ضَلَالَ مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيُرُدَّ عَلَى الْبَاطِلِ الَّذِي كَانَ قَدْ اعْتَنَقَهُ، وَيَدْعُو مَنْ أَضَلَّهُمْ إِلَى الْحَقِّ.

وفيها: أَنَّ التَّوْبَةَ إِذَا كَانَتْ فِي وَقْتِ الْقَبُولِ - قَبْلَ حُضُورِ الْأَجْلِ، وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا -؛ فَإِنَّهَا تَنْفَعُ، وَلَوْ كَانَتْ تَوْبَةً مِنَ الرَّدَّةِ.

وفيها: سَعَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَغَفْوِهِ؛ فَيَجْمَعُ لِلتَّائِبِ بَيْنَ زَوَالِ الْمَكْرُوهِ - بِمَغْفَرَةِ الذَّنْبِ، وَسِتْرِ آثَرِهِ - وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ - مِنَ الرَّحْمَةِ، وَالنَّعْمَةِ، وَالْإِحْسَانِ -.

وفيها: أَنَّ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يَتُوبُ تَوْبَةً صَادِقَةً تَنْفَعُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوْبَتُهُ فَاسِدَةٌ لَا تَنْفَعُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتُوبُ أَصْلًا.

وفيها: أَنَّ التَّوْبَةَ الَّتِي لَا أَثَرَهَا فِي الْعَمَلِ، لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا.

وفيها: وَجُوبُ الْإِسْتِقَامَةِ بَعْدَ التَّوْبَةِ، وَأَلَّا تَكُونَ التَّوْبَةُ مُؤَقَّتَةً.

وفي الآية: جَوَازُ لَعْنِ الْكُفَّارِ وَالْمُرْتَدِّينَ - عَلَى الْعُمُومِ - لَا عَلَى سَبِيلِ التَّعْيِينِ؛ فَلَا نَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لَهُمْ.

وفيها: أَنَّ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ لَا يَتَنَظَّرُونَ فَرَجًا، لَا بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا بِتَخْفِيفِهِ.

وفيها: مُبَادَرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفَّارِ بِالْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُذِيقُهُ بَعْضَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، ثُمَّ يَكُونُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ دُخُولِ النَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وفيها: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُصْلِحِينَ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ. وَمِنْ شُرُوطِ الْمُصْلِحِ: أَنْ يَكُونَ صَالِحًا فِي نَفْسِهِ، تَائِبًا إِلَى رَبِّهِ، مُصْلِحًا لغيرِهِ مَا فَسَدَ بِسَبَبِهِ.

وفيها: قَبُولُ تَوْبَةِ الْمُرْتَدِّ، إِذَا رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ مُخْلِصًا.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ أَكْبَرَ ذَنْبٍ إِذَا تَابَ مِنْهُ صَاحِبُهُ تَوْبَةً نَصُوحًا، مُخْلِصَةً صَادِقَةً.

وفيها: أَنَّ فَتْحَ الْبَابِ لِلْمُفْسِدِ لِيَتُوبَ؛ فِيهِ كَفٌّ لشرِّهِ، وَإِنْقَادٌ لِلنَّاسِ مِنْ إِفْسَادِهِ؛ فَالْمُصْلِحَةُ لَهُ، وَلِلْآخَرِينَ.

وفيها: عَدَمُ الْيَأْسِ مِنْ تَوْبَةِ أَسْوَأِ وَأَشَدِّ النَّاسِ جُرْمًا.

وفيها: أَنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَالْعَذَابُ يَعْظُمُ كُلَّمَا عَظُمَ الذَّنْبُ.

وفيها: أَنَّ عَقُوبَةَ الْمُرْتَدِّ هِيَ: الْخُلُودُ الدَّائِمُ فِي النَّارِ، وَلَا رَاحَةَ لَهُ فِيهَا، لَا بِتَخْفِيفٍ، وَلَا تَأْجِيلٍ.

وفيها: أَنَّ الْمُرْتَدَّ الَّذِي فَوَّتَ الْفُرْصَةَ عَلَى نَفْسِهِ بِالتَّوْبَةِ، وَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ إِمْهَالِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا؛ يُبَادِرُهُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ، وَلَا يُؤَجِّلُهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١):

ثم ذكر الله تعالى أهل التوبة الفاسدة؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ من المرتدين، واستمروا على ذلك إلى الممات.

وقيل: هم أهل الكتاب، الذين كفروا بعتسي والإنجيل، وموسى والتوراة.

﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾؛ فصاروا ينحدرون في دركات الكفر. وقيل: هم أهل الكتاب، الذين ازدادوا كُفْرًا بجحد نبوة النبي ﷺ، وما أنزل الله عليه من القرآن^(١).

فهؤلاء ﴿لَن تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا وماتوا كفارًا، يعني: إذا أخرجوا التوبة إلى حضور الموت، فتأبوا حينئذ.

وهذا التفسير يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَلَا الَّذِينَ يُمُونُوكَ وَهُمْ كُفَرَاءُ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: الذين ضلُّوا عن سبيل الحق، وتنكبوا طريقه بعدما عرفوه.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن قومًا أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألونهم؛ فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فسألهم: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ»^(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن المرتد يزداد كُفْرًا، كما أن المؤمن يزداد إيمانًا.

وفيها: أنه كلما ازداد العبد كُفْرًا؛ كان أبعد من التوبة.

وفيها: أن كل من اجتنب طريق الحق؛ فهو ضال؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَعَادَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/٥٧٨-٥٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٧٢).

وفيها: أَنَّ المرتدَّ مُتَكِسِرُ الْفِطْرَةِ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَ الْحَقَّ، وَذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ رَضِيَ بِأَن يَعُودَ إِلَى ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ، وَيَرْتَدَّ عَلَى عَقِيْبِهِ.

وفيها: شِنَاعَةُ كُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَقَدْ آمَنُوا بِمَا رَأَوْهُ فِي كُتُبِهِمْ أَوَّلًا مِنْ نَعْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَتِهِ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ بَعْدَ بَعْثِهِ، ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا بِأَصْرَارِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَحَرْبِهِمْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَصَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَالْيَهُودُ كَفَرُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَزْدَادُوا كُفْرًا بِجَحْدِ نَبْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أَنَّ النَّفْسَ إِذَا تَوَغَّلَ فِيهَا الْكُفْرُ، وَتَمَكَّنَ فِيهَا الضَّلَالُ، وَأَحَاطَتْ بِهَا الْخَطِيئَةُ؛ فَيَعُودُ جَدًّا أَنْ تَرْجِعَ وَتَتُوبَ؛ فَلَا يُؤَفِّقُ اللَّهُ صَاحِبَهَا لِلْعُودَةِ إِلَى الْحَقِّ - فِي الْغَالِبِ - بَلْ يُعَاقِبُهَا بِمَزِيدٍ مِنَ الضَّلَالِ، وَيَصْرِفُهَا عَمَّا انصَرَفَتْ عَنْهُ مِنَ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وفيها: أَنَّ مِنَ التَّوْبَةِ مَا لَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ، مِثْلُ: التَّوْبَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَمُعَايِنَةِ الْمَلَكِ، وَعِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَمَنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ نِفَاقًا، أَوْ التَّوْبَةَ مِنْ كُفْرٍ لِلدُّخُولِ فِي كُفْرٍ آخَرَ. وَالْكَافِرُ لَا تَنْفَعُهُ تَوْبَتُهُ مِنْ بَعْضِ الْمَعَاصِي - كَالزَّنا وَالْخَمْرِ - مَا دَامَ بَاقِيًا عَلَى الْكُفْرِ.

وفيها: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسُدُّ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الْخَيْرِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (١١):

ثُمَّ تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْكَافِرِينَ الْمَصْرِينَ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أَي: اسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ إِلَى الْمَوْتِ، وَلَمْ يَتُوبُوا. ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ لَوْ تَصَدَّقَ فِي الدُّنْيَا، أَوْ قَدَّمَهُ فِي الْآخِرَةِ فِدْيَةً مِنَ الْعَذَابِ ﴿مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أَي: بِوِزْنِ جِبَالِهَا وَتِلَاحِهَا، وَتُرَاهَا وَرِمَالِهَا، وَسَهْلِهَا وَوَعْرِهَا، وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا.

﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أَي: قَدَّمَهُ تَخْلِيصًا لَهُ مِنَ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ جَرَى الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ.

والمعنى مذكورٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].
وقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُوجِع ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله.

وفي «الصحيحين»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَلَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ جميع أعمال البرِّ التي يقدمها الكفار في الدنيا، ويبدلون فيها أموالهم خدمةً للبشر - كمساعدة الفقراء والمحتاجين، وإطعام الطعام، وبناء المستشفيات والمؤسسات التعليمية، وتمويل الأبحاث الطبية، والمساهمة في الأعمال الخيرية - لن يقبلها الله منهم يوم القيامة، ولن يُثيبهم عليها، بل سيجعلها هباءً منثورًا؛ لأنها لم تقوم على أساسٍ صحيح من الإيمان بالله وتوحيده.

وقد سُئِلَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عن عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ، وقد كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»^(٢).

فتكذيبُ هذا الكافر بيوم الدين وشرُّه بالله؛ منعه من الانتفاع بعمله يوم القيامة.
وفيها: أَنَّ الكافر لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة التزلف، بتقديم ملء الأرض ذهبًا لو كان معه، ولا يُقْبَلُ منه إعطاؤه إِيَّاه على سبيل المعاوضة والفداء، لفك نفسه من العذاب.
وفيها: أَنَّ الكُفْرَ يُحِيطُ بالأعمال، ويمحو الحسنات.

(١) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

وفيها: أن المرتد لا يُقبل منه خيرٌ.

وفيها: رحمة الله بالناس، بأنه لم يطلب منهم تقديم ما لا يطيقون دفعه؛ بل كلّفهم بأمر يستطيعونه، وهو: أن يعبدوه وحده، ولا يُشركوا به شيئاً.

وفيها: إذلال الله للكفار والمرتدين يوم الدين، وإنزال الألم النفسيّ بهم، حين لا يجدون أولياء ولا ناصرين يدفعون عنهم العذاب، كما كانوا يجدون في الدنيا من الأقرباء والأصدقاء والأعوان.

وفيها: أن الذّهب وكلّ الأموال لا تنفع يوم القيامة؛ وإنّما تنفع الحسنات.

وفيها: أن من قام بالحقوق والواجبات الماليّة عليه، مع الإيمان والاستقامة؛ فإن الله يقبل ما قدّمه ولو كان يسيراً، وليست العبرة عند الله بكثرة الإنفاق؛ ولكن العبرة بقيمة العمل، وما قام في القلب من الإيمان.

وفيها: أن الذّهب أنفَس الأموال، ومع ذلك يهون على الكافر بذله لو كان يستطيع؛ افتداءً لنفسه ممّا يرى من هَوَل العذاب.

وفيها: شدّة عذاب الآخرة، الذي يُنسي هؤلاء الكفار تعلّق نفوسهم بالمال.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١٦):

ولمّا ذكر الله تعالى ما لا يقبل من الكفّرة ولا ينفعهم؛ ذكر ما ينفع أهل الإيمان ويقبل منهم؛ فقال:

﴿لَنْ نَنَالُوا﴾ أي: لن تُدرِكوا وتصيبوا ﴿الْبِرَّ﴾ وهو: اسم جامع لكلّ خير. والمعنى: لن تبلغوا شرف الدين، ومرتبة البرّ ودرجته، فتكونوا أبراراً. أو: لن تبلغوا الجنة. أو: لن تنالوا برّ الله ورحمته وخبره: ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ وتُخرجوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أنواع المال.

وقد قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، والنفْس إذا تعلّقت بالشيء وأحبّته؛ شحّت به وبخلت.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير، طيّب أو خبيث، سواءً بإخلاص أو منّة ورياء؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؛ فسيُجازيكم عليه بحسبه، وبحسب نيّاتكم وإخلاصكم.

ولما نزلت هذه الآية؛ قام أبو طلحة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل - وقال: إن أحب أموالي إليَّ بئر حاء (وهو اسم بستان له)، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخير، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخير، لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: «إن شئت حبست أصلها، وتصدق بها»، فتصدق بها عمر^(٢).

ولأجل هذه الآية؛ اعتق عدد من السلف جواريتهم، مع شدة تعلق نفوسهم بهن؛ ومنهم: عمر وابنه عبد الله رضي الله عنهما، وهذا من قوة امتثالهم لما رغب الله فيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحث على الإنفاق مما يحبه الإنسان.

وفيهما: أن درجة البر تكون بحسب الإنفاق من المحبوبات.

وفيهما: شرف الأبرار، وعُلُوُّ مَنْ بلغ تلك المنزلة.

وفيهما: أن بر الله يُنال ببرِّ خلقه.

وفيهما: تغليب مَرَضَةِ الله على شهوات النفس.

وفيهما: دَمٌّ مَنْ يُنفق من أَرْدٍ ما عنده من الأموال وغيرها.

وفيهما: أن من طرُق مقاومة هوى النفوس: التصدق بكرائم الأموال، كما كان يفعل الصَّحابة والسلف رضي الله عنهم.

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

وفيها: سَعَة عِلْم الله، وأنه بصيرٌ بِنِيَّات عبادِهِ، عَلِيمٌ بِنَفَقَاتِهِمْ.
وفي أول الآية ترغيبٌ، وفي آخرها ترهيبٌ: لَتُقَدِّمَ النَّفْسُ عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَتَحْذَرُ الرِّيَاءَ
وَالْإِيذَاءَ.

وفيها: جواز إنفاق المرء جميعَ ماله، إذا كانت (مِنْ) في قوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ لبيان
الْجِنْسِ، لكن هذا الإنفاق مشروطٌ باستِطَاعَتِهِ الصَّبْرَ هو وأهله، والأمانُ من سؤال الناس،
وعدم النَّدَمِ في المستقبل على هذا الإنفاق، وأن يكون عنده من قُوَّةِ التَّوَكُّلِ على الله والأخذِ
بِالْأَسْبَابِ مَا يُغْنِيهِ، كما كان هو حال أبي بكر الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي قوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾: دليلٌ على أَنَّ الصَّدَقَةَ لَهِ تَنْفَعِ صَاحِبِهَا، مَهْمَا كَانَتْ قَلِيلَةً.
وفيها: فَضْلُ الْإِنْفَاقِ فِي أَوْجِهِ الْبِرِّ، مِنَ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ.
وفيها: أَنَّ الْإِنْفَاقَ مِنْ نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ فِي حَالِ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِهَا، وَفِي حَالِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا،
وَفِي حَالِ الصُّحَّةِ؛ يَدُلُّ عَلَى بَرِّ قَلْبِ الْمُتَصَدِّقِ، وَتَقْوَى نَفْسِهِ.

وفيها: أَنَّ الْإِنْفَاقَ مِنَ الْمَحَبُوبَاتِ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِالْأَمْوَالِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ: الْإِنْفَاقُ مِنْ
أَوْقَاتِ الرَّاحَةِ وَمِنْ الصُّحَّةِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ، وَإِثَارِ التَّعَبِ فِي الطَّاعَاتِ عَلَى إْجَامِ
النَّفْسِ وَتَنْزِيهِهَا وَمُتَعَتِّهَا، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْجَاهِ، وَالْعِلْمِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَقُوَّةِ الْجَسَدِ، وَالرَّأْيِ
وَالْخَبَرَاتِ - وَهِيَ تُقَوِّمُ بِالْمَبَالِغِ الطَّائِلَةِ فِي عَالَمِ الْاسْتِشَارَاتِ -. فَمَنْ فَعَلَ هَذَا؛ فَقَدْ نَالَ دَرَجَةً
عَظِيمَةً مِنَ الْبِرِّ.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣):

ولمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى الْإِنْفَاقَ مِنْ مَحَبُوبَاتِ النَّفْسِ وَمُشْتَهَاتِهَا؛ ذَكَرَ مِثَالًا مِنْ عِبَادَةٍ مَنِ
قَبَلْنَا، فِي نَذَرِهِمْ لَهِ تَرْكُ بَعْضِ الْمَحَبُوبَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أَي: مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الشَّرَابُ أَيْضًا ﴿كَانَ حِلالًا لِّبَنِي
إِسْرَءِيلَ﴾ أَي: حَلَالًا عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَوْلَادِهِ، وَشُعْبِ بْنِ إِسْرَائِيلَ. وَمَعْنَى
(إِسْرَائِيلَ): عَبْدُ اللهِ.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ بِالنَّذْرِ. وكان لذلك الامتناع من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام قِصَّة:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الْيَهُودَ أَقْبَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَتَيْنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ، وَاتَّبَعْنَاكَ.

فكان منها: قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَاطِمُهُ إِلَّا أَلْبَانُ كَذَا وَكَذَا - قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ - فَحَرَّمَ لُحُومَهَا»، قَالُوا: صَدَقْتَ^(١).

وفي رواية: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ: «أَنْشِدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِضٌ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَتَذَرُ اللَّهُ تَذْرًا: لَيْتَن شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سَقَمِهِ، لَيَحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟»، قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ»^(٢).

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فضيَّق الله على الذين هادوا بذنوبهم، وحرَّم عليهم في التوراة أنواعًا من الطعام لم تكن محرمة عليهم في شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال: ﴿فَيُطْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وعلى هذا: فشريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أوسع من شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَام، في باب الأطعمة.

﴿قُلْ﴾ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَدُّيًا لليهود -: ﴿قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ وَأَحْضِرُوهَا ﴿قَاتُلُوهَا﴾ وَاقْرَأُوهَا عَلَيَّ، لتكون حاكمة بيني وبينكم؛ حتى يتبين لكم أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ﴿إِنْ كُنْتُمْ

(١) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه أحمد (٢٥١٤)، وحسنه محققو المسند.

صَدِّقِينَ ﴿فِيمَا تَدَّعَوْنَهُ بِأَنَّ التَّحْرِيمَ قَدِيمٌ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَعْلَمُ خَبْرَ مَنْ قَدْ سَبَقَ، وَأَنَّ الشَّرَائِعَ لَا تَتَبَدَّلُ، وَالْأَحْكَامَ لَا تُنْسَخُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ افْتِرَاءَاتِ الْيَهُودِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز النسخ في الشرائع.

وفيها: إقامة الحجة على أهل الكتاب من كتبهم.

وفيها: مواجهة المفترّي بأدلة كذبه.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يُحِلُّ مَا يَشَاءُ وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ يَنْسَخُ مَا يَشَاءُ لِحُكْمَةٍ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ تَخْتَلِفُ مِنْ زَمَنٍ إِلَى آخَرٍ.

وفيها: مُنَاطَرَةُ الْخُصْمِ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ يَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ.

وفيها: تَحْذِي أَهْلِ الْحَقِّ لِلْمُبْطِلِينَ.

وفيها: أَنَّ كُتُبَ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ يُؤَيَّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وفيها: إِنْصَافُ الْخُصُومِ، وَالْإِحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ بِكُتُبِهِمْ.

وفيها: مُنَاطَرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ، بِأُمُورٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُمْ.

وفيها: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَطْعِمَةِ الْإِبَاحَةِ، إِلَّا مَا جَاءَ النَّصُّ بِتَحْرِيمِهِ.

وفيها: أَنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ لِمُعَاقِبَةِ الْعِبَادِ - شَرْعًا وَقَدْرًا -.

وفيها: أَنَّ تَرْكَ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ وَالِامْتِنَاعَ عَنْهَا - تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ - كَانَ سَائِعًا فِي شَرْعٍ مَنْ قَبْلُنَا. بِخِلَافِ شَرْعِنَا؛ فَإِنَّ كُلَّ الطَّيِّبَاتِ حَلَالٌ لَنَا، وَلَا يَصِحُّ النَّذْرُ بِالِامْتِنَاعِ عَنْ بَعْضِهَا، وَلَمْ يُحَرِّمِ اللَّهُ عَلَيْنَا إِلَّا الْخَبَائِثَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفيها: فَضْلُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ أَحَلَّ لَهَا الطَّيِّبَاتِ، وَلَمْ يَشْرَعْ لَهَا النَّذْرَ وَالتَّعَبُّدَ بِالِامْتِنَاعِ عَنْهَا، بَلِ التَّعَبُّدُ بِالِامْتِنَاعِ عَنِ الطَّيِّبَاتِ بِدَعَا وَضَلَالَةٍ.

وفيها: أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ، حَقٌّ خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٩٤ :

ثم قال تعالى - في بيان ظُلم اليهود وكذبهم - : ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى﴾ أي : اختلق . و (الافتراء) : هو القول بغير حق ، وأن تنسب إلى شخص ما لم يقله .

﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بأن شرع أو أخبر بخلاف ما أنزل الله ، كادعاء اليهود أن التوراة لا تُنسخ ، وأنه لا نبي يقضي على شريعة موسى ، ونحو هذا من أكاذيبهم وافتراءاتهم .

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي : من بعد ظهور الحق وانصاحه ، وقيام الحجة وظهورها .

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المصرون على الافتراء ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بإيرادها المهالك ، ولغيرهم فيما يضلونهم به ، ويوردونهم معهم العذاب .

وفي هذه الآية من الفوائد :

خطورة الكذب على الله .

وفيها : أن المفترين على الله كذبوا في الأخبار والأحكام .

وفيها : بيان أن اليهود قد افترّوا بعد علمهم بالحق .

وفيها : أن الافتراء على الأنبياء هو افتراء على الله ؛ لأنهم رُسُلُه ، والواسطةُ بينه وبين خلقه ، والطريقُ إلى معرفة شرّعه والأنباء التي يُخبر بها .

وفيها : أن من افترى على الله تعالى ؛ فافتراؤه على أنبيائه أسهلُّ عليه عنده .

وفيها : أن الافتراء على الله هو رأس الظُّلم ؛ لأن ﴿هُمُ﴾ في الآية ضمير فصل ، يُفيد الحصر والتوكيد .

وفيها : حرص اليهود على الرئاسة الدينية ، ولو باستعمال الكذب على الله .

وفيها : حرص أهل الباطل على التمسك بباطلهم ، الذي يميزون به أنفسهم عن غيرهم ، كما افترت اليهود على الله بأنه شرع لهم السبت .

وفيها : أن الإصرار على الباطل - بعد قيام الحجة - ظُلمٌ عظيمٌ .

وفي الآية -مع التي قبلها-: دليلٌ عظيمٌ على صحّة ما جاء به النبي ﷺ، وأنّه صادقٌ فيما أخبر به.

وفيها: ظهورُ صدق النبي ﷺ، مؤيِّداً من كتبُ خصومه.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥):

﴿قُلْ﴾ يا أيّها النبي ﷺ: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فيما شرّعه وأخبر به، ومن ذلك: ما أخبر به من حلّ الأطعمة على بني إسرائيل، وأنّ تحریم بعضها كان جزاء أفعالهم القبيحة. و(الصدق) هو: مطابقة الخبر للواقع.

﴿فَاتَّبِعُوا﴾: الخطاب لجميع الناس -بما فيهم المسلمون واليهود- ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دين إبراهيم عليه السلام، وهو التوحيد والبراءة من الشُّرك؛ ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن كلّ شرك ودين باطل، إلى التوحيد ودين الحقّ.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: تأكيدٌ لبراءة إبراهيم عليه السلام من أهل الشُّرك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثناء على الله تعالى بالصدق؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفيها: أنّ الله تعالى صادقٌ في كلّ شيء أخبر به، كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفيها: أنّ أساس دين النبي ﷺ هو أساس دين إبراهيم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وفي الآية: الثناء على إبراهيم عليه السلام، بأنّه إمامٌ، وحنيفٌ.

وفيها: وجوب اتّباع الحقّ أينما كان.

وفيها: وجوب الإيمان بالرُّسل السابقين.

وفيها: أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفَ كَذِبَ الْيَهُودِ بِوَاسِطَةِ مَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَمَيَّزَ صِدْقَهُمْ مِنْ كَذِبِهِمْ - فِيمَا يُحَدِّثُونَهُ بِهِ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ - بِمَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ.

وفيها: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ - وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ، بِحَسَبِ حَاجَاتِ أُمَمِهِمْ وَمَصَالِحِهَا - فَإِنَّ أَصْلَ شَرَائِعِهِمْ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفيها: ذَمُّ الَّذِينَ يُدْخِلُونَ الشِّرْكَ فِي عِبَادَتِهِمْ، وَالتَّعْرِيزُ بِشِرْكِ الْيَهُودِ - وَهُمْ الَّذِينَ قَالُوا: «عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ» -.

وفيها: إيراد هذه الكلمة العظيمة: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فِي مُنَاطَرَةِ الْخُصُومِ.

وفيها: الرَّدُّ عَلَى الْمَكْذِبِينَ، وَفَضْحُ الْمَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ تَصَدِيقًا لِلَّهِ هُمُ أَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَتَسْلِيمًا بِمَا جَاءَ عَنْ اللَّهِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ.

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ الْيَهُودَ لَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْ ادَّعَوْا ذَلِكَ.

وفيها: إلزام اليهود بالتوحيد، وَأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا يَعْتَزُّونَ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَائِهِ؛ فَلْيَتَّبِعُوا مِلَّةَ - إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي ذَلِكَ -.

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦):

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ: الْحَجَّ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَدَّعُونَ أَنَّ بَيْتَ الْمُقَدِّسِ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَأَحَقُّ بِالِاسْتِقْبَالِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَّهُ قَدِ بُنِيَ قَبْلَهَا؛ فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا، فَقَالَ:

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ أَي: بُنِيَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أَي: لِعِبَادَاتِهِمْ وَنُسُكِهِمْ، كَالطَّوَافِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْاعْتِكَافِ ﴿لِلَّذِي﴾ الْبَيْتِ ﴿بِبَكَّةَ﴾ أَي: بِمَكَّةَ. وَسُمِّيَتْ (بَكَّةَ)؛ لِأَنَّهُ يُبْكُ بَعْضُهُمْ فِيهَا بَعْضًا، أَي: يَزْدَحِمُونَ فِيهَا لِلطَّوَافِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا تَبْكُ أَعْنَاقَ الظَّالِمَةِ، أَي: تُهْلِكُهُمْ.

وقيل: لأن رقابهم تخضع فيها وتذل.

وقيل: (بكة) هي الكعبة والمسجد، و(مكة) هي ما وراء ذلك^(١).

وقد سأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وَضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى»، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(٢).

﴿مُبَارَكًا﴾ أي: وَضِعَ وفيه البركة. وبركاته متعددة؛ فمنها: مغفرة ذنوب مَنْ حَجَّ إليه، وأنَّ الحسنات فيه مُضَاعَفَةٌ، وأنَّ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وفيه الماء المبارك ماءٌ زَمْزَمٌ، وغير ذلك من البركات.

﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: منارًا يهتدي به العالم؛ فهو قِبْلَتُهُمْ، ويَجْتَمِعُونَ فيه للصلاة، وهو مأوى أفئدتهم للحجِّ والعمرة. فيحصل فيه: هداية الضالِّ، وتعليم الجاهل، وإقامة العبادات.

﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣):

﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك البيت ﴿أَيْتٌ﴾: دلائل وعلامات ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ تدلُّ على حُرْمَتِهِ وَفَضْلِهِ. ويدخل في تلك العلامات: موضع المناسك والمشاعر، كمنى ومزدلفة، و﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو: الحجر الذي وقف عليه الخليل لبناء الكعبة، حين ارتفع البنيان.

ومن المعجزات: بقاء أثر قدميه في الصخرة الصماء، وإلانة الصخرة لغوصه فيها، وبقاء الأثر آلاف السنين!

وكان الحجر مُلتصِقًا بالكعبة، فأخره عمر رضي الله عنه إلى ناحية الشرق، لما كثر المسلمون في الفتوحات؛ لئلا يتعارض الطواف بالبيت مع الصلاة خلف المقام.

(١) انظر: الدر المنثور (٢/ ٢٦٧، ٢٦٦)، تفسير الطبري (٦/ ٢٥، ٢٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

وقال بعض المفسرين: المراد بـ (مقام إبراهيم): كلُّ مقام قامه الخليل في مناسك الحج.
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ أي: هذا البيت، والمراد: جميع الحرم؛ كما دلّت على ذلك
السُّنَّةُ ﴿كَانَ آمِنًا﴾ أي: من السُّوء والأذى. وقيل: من النار، -يعني: إذا دخله معظماً له،
عارفاً بحقه، متقرباً إلى الله-.

ومن هذا الأمن: أَنَّ الطَّيْرَ وَالصَّيْدَ فِيهِ لَا يُنْفَرُ، وَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُ، وَأَنَّ الشَّجَرَ وَالْحَشِيشَ
فِيهِ لَا يُقْطَعُ، وَلَا يَجُوزُ قَلْعُهُ؛ ففي الحديث: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ
لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً»^(١)، يعني: يقطعها.
وهذا الأمن في الحرم كان استجابةً لدعوة إبراهيم الخليل، عندما قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقد جعله الله تعالى آمناً شريعاً - قطعاً - وقدراً - في الغالب -؛ كما قال تعالى - ممتناً على
قُرَيْشٍ -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].
ولمّا كان تأمينُ الحرم وسيلةً لإقامة العبادات فيه، ولمّا ادعى اليهود أنهم مسلمون؛
أمر الله تعالى بالحجّ؛ إظهاراً لفائدة الأمن، وكشفاً لحقيقة مَنْ يدّعي الإسلام، ثم لا يأتي
بيته للحجّ، فقال عزّ وجلّ:

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) للاستحقاق، أي: يجب حقاً لله ﴿عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ أي: أن
يقصّدوا بيته لأداء المناسك، على الوجه الذي شرّعه.

وقد خطب النبي ﷺ، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»،
فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجِبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

وفي حديثٍ آخر: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا، وَلَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا
عَذَّبْتُكُمْ»^(٣).

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٨٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٧٧).

وقوله تعالى ﴿مَنْ أَسْطَاعَ﴾ وأطاق وقدر ﴿إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي: بلوغ البيت، بوجود راحلة وزاد ونفقة لعياله، مع أمن الطريق، حتى يرجع.

وقوله ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بهذه الفريضة، سواء كفرًا أكبر بجحدها، أو كفرًا أصغر بترك أدائها مع الاستطاعة والإقرار بوجوبها؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي﴾ أي: مُسْتَعْنٍ ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وعن حجّهم وعبادتهم.

وقال صحّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ أطاق الحجّ، فلم يحجّ؛ فسواء عليه يهوديًا مات أو نصرانيًا»^(١).

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ أول بيت وُضِع للعبادة، وإتيان الناس إليه في الأرض، هو الكعبة. ودلّ الحديث على أنَّ آخر بيت وُضِع، يأتيه الناس للعبادة، هو المسجد النبوي، وبينهما بيت المقدس، وهذه هي المساجد الثلاثة التي يجوز السفر وشدُّ الرِّحال إليها للعبادة. وفيها: أنَّ المسجد الأسبق في الإقامة أفضل، ما لم يتميز الآخر بفضائل أخرى؛ فالأولى أحد أسباب التفضيل في المساجد.

وفيها: ردُّ على اليهود، الذين قالوا: إنَّ بيت المقدس أولى من غيره بأن يكون قبلة تُستقبل في الصَّلَاة.

وفيها: أنَّه ينبغي على أهل الحَرَم المكيِّ السَّعي في هداية الناس، والأخذ بالأسباب التي تجعل من الحَرَم هداية للعالمين.

وفيها: أنَّ إقامة الشعائر في المسجد الحرام، والتوجُّه إلى الكعبة في الصَّلَاة؛ من أسباب الهداية.

وفيها: أنَّه لا تصلح قُلُوب الناس إلَّا ببيت يجتمعون عليه، وتهوي أفئدتهم إليه. وفيها: أنَّ البيت الحرام قد حلَّت فيه البركة قدرًا وشرعًا؛ فينبغي التماسها وإصابتها هناك.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٥).

وفيها: فضيلة عظيمة للمسجد الحرام؛ بما جعل الله فيه من الآيات البيّنات، الظاهرة لكلّ أحد، ومنها: الكعبة، ومقام إبراهيم، وماء زمزم، وغيرها.

وفيها: فضيلة ظاهرة لإبراهيم الخليل عليه السلام؛ لأنّ مقاماته في المناسك صارت شعائر لجميع الناس.

وفيها: وجوب الحرّص البالغ على تأمين منطقة الحرم، ومن يدخلها.

وفيها: قوّة ورهبة هذا الحرم المكي، الذي أذلّ أعناق الجبابرة.

وفيها: بيان حقّ الله على عباده بالحجّ، ورحمة الله بهم؛ حيث قيّد الوجوب بالاستطاعة.

وفيها: أنّ إطلاق (الاستطاعة) في الآية، يُفيد شمولها للبدن والمال؛ فمن استطاع بهاله دون بدنه؛ وجب عليه الحجّ عن طريق الاستئابة. ويدخل في الاستطاعة: الاستطاعة الشرعيّة، كأن تجد المرأة القادرة على الحجّ محرّماً.

وفيها: أنّ تارك الحجّ يكفر كفراً أكبر أو أصغر، بحسب حاله.

وفيها: أنّ الله لم يأمر عباده بالحجّ ليتنفع بذلك؛ فهو سبحانه غنيّ عن العباد وعبادتهم، كما قال في الحديث القدسيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١).

وفيها: أنّ استغناء الله عن العالم، يلزم منه أن يكونوا جميعاً فقراء إليه.

وفي الآيتين: قدّم الصلاة والحجّ، وأتمّها في شرائع الأنبياء السابقين.

وفيها: فضل الكعبة، فالأمر ببنائها هو: المولى الجليل، بواسطة الأمين جبريل، والقائم بالبنيان: إبراهيم الخليل، والمساعد له: ولده إسماعيل.

وفيها: أنّ إتيان البيت للعبادة من أسباب الأمن من الذنوب، والخروج منها، وإتيانه للنّسك سبب للأمن من النّار.

وفيها: أنّ الغالب -واقعا- على حال الحرم هو الأمن، حتى إنّ أهل الجاهليّة

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

-وهم أرباب شرك- كان أحدهم لو وجد قاتل أبيه أو أخيه في الحرم؛ لم يتعرّض له بأذى^(١).

وفيها: عِظَمُ جُرْمِ مَنْ خَرَقَ أَمْنَ الْحَرَمِ، وخالفَ شَرَعَ الله، كالقرايمطة، والحجاج بن يوسف الثقفي الظالم.

وفيها: أَنَّ الْأَشْخَاصَ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِسْطَاعَةِ، بُعْدًا وَقُرْبًا، غِنًى وَفَقْرًا، صِحَّةً وَمَرَضًا، خَوْفًا وَأَمْنًا.

وفيها: فَضِيلَةُ عَظِيمَةِ الْحَرَمِ؛ حَيْثُ اخْتَصَّ بِعِبَادَاتٍ لَا تُؤَدَّى فِي غَيْرِهِ، وَأَجْرٍ وَفَضْلٍ فِيهِ لَا يُكْتَسَبُ إِلَّا فِيهِ؛ كَالطَّوَافِ، وَتَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَالصَّلَاةِ فِيهِ بِأَلْفِ صَلَاةٍ.

وفيها: أَنَّ مِنْ وَسَائِلِ تَحْيِيْبِ النَّاسِ فِي الْعِبَادَةِ: الْإِبْتِدَاءُ بِذِكْرِ فَضْلِهَا، وَشَرَفِ مَكَانِهَا؛ لِتَشْوِيقِ النُّفُوسِ إِلَيْهَا، وَتُسَارِعِ إِلَى أَدَائِهَا.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨):

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ كُفْرِهِمْ، تَوْبِيخًا؛ فَقَالَ: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ أَي: لِأَيِّ سَبَبٍ تُعَانِدُونَ وَتُنْكِرُونَ وَتُجَادِلُونَ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الَّتِي دَلَّتْكُمْ عَلَىٰ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا جَاءَ بِهِ، مِنْ وَجُوبِ الْحَجِّ وَغَيْرِهِ.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾: هَذَا تَهْدِيدٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، بِأَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَمَطْلَعٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلتَّوْبِيخِ.

وفيها: خَطَرُ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَهَذَا يَشْمَلُ: آيَاتِهِ الْكُونِيَّةَ، وَالْكَفْرَ بِهَا يَكُونُ: بِإِنْكَارِ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهَا، أَوْ اعْتِقَادِ أَنَّ لَهُ شَرِيكًا فِي إِيجَادِهَا، أَوْ مُعِينًا لَهُ فِيهَا.

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٤١٣)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٢٦).

وآياته الشرعيّة، والكُفر بها يكون: بتكذيب مجيئها من عند الله، أو رَدّها ومخالفتها. والمخالفة التامة لجميع الآيات الشرعيّة كُفرٌ أكبر، وإذا خالف بعضها - لهوى ونحوه - فهو كُفر أصغر.

وفي الآية: إثبات شهادة الله تعالى على أعمال بني آدم، وأنّه يُحصيها. وفيها: أنّ حديث النفس بالشر لا يؤاخذ عليه الإنسان، إلّا إذا عمِلَ به بقلبه اعتقادًا، أو بلسانه وجوارحه.

وفيها: إقامة الحُجّة على أهل الكتاب، وإظهار عجزهم عن إقامة العُذر على كُفرهم؛ لأنّ من معنى الآية: هاتوا عُذرَكم بعدَم اتّباعكم لآيات الله. فلم يأتوا بشيء.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوْنَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفِلٍۭ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾:

ولمّا أمر الله نبيّه ﷺ بتوبيخ أهل الكتاب على كُفرهم - القاصر على أنفسهم -؛ أمره - ثانية - بتوبيخهم على شرّهم المتعدّي إلى غيرهم؛ فقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ ﴿١٠﴾ أَي: لأيّ شيء وبأيّ حُجّة تمنعون وتَصْرِفون ﴿١١﴾ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿١٢﴾ ودينه وشرّعه - وهو الإسلام - . وأضيف (السَّيْل) إلى (الله)؛ لأنّه هو الذي وضعه للخلق ليسلكوه، وهو الذي يُوصلهم إليه سبحانه، ف(سبيل الله): هو الطريق المُوصِل إليه، وإلى جنته وثوابه.

﴿مَن ءَامَنَ ﴿١٣﴾ بالإسلام، من الرّجال والنساء، فتَتَقَاتَلُونَهُمْ عن دينهم ليكفروا، أو تُغروهم وتستميلوا قلوبهم ليركوا دينهم الحقّ.

وقوله ﴿تَبَغُّوْنَهَا ﴿١٤﴾ عِوَجًا﴾ يعني: مائلة عن الحقّ ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴿١٥﴾﴾ أي: والحال أنكم شُهَدَاء على ما تفعلون، وشُهَدَاء تَرَوْنَ وتسمعون معجزات النبي ﷺ، التي تدلّ على صدقه، وشُهَدَاء على الحقّ، بما تشهدون من علاماته وآياته.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَفِلٍۭ ﴿١٦﴾﴾ أي: ليس بتارك ولا ساهٍ ولا ناسٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ من الكُفر والصدّ، فيحصى عليكم أعمالكم، ثم يُجازيكم عليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من أفتح الأمور ألا يكتفي الكافر بالكُفر في نفسه، حتى يجرَّ غيره إليه، ويوقعه فيه.

وفيها: خطورةُ الصدِّ عن سبيل الله، والعُدوان على الغير.

وفيها: أنَّ مَنْ ثبَّط غيره عن الخير ورغبه في الشرِّ؛ ففيه شبهةٌ من اليهود والنصارى.

وفيها: خطورة الصدِّ عن سبيل الله بأيِّ وسيلة، سواءً كان بإعلان الجحْد والإنكار، أو التشكيك وإلقاء الشُّبهات، أو بفتنة ضَعْفَة المسلمين - بالسُّخرية منهم، أو اضطهادهم، أو استيائهم، أو إغرائهم ليهجروا دينهم - أو بتأليب بعض الأعداء على هذا الدِّين، أو بمنع مَنْ يريد الدُّخول فيه من الدُّخول فيه، أو القيام بتشويه سُمعة أهله، أو تنفير الآخرين عنه بالدُّعايات الباطلة - بالمقالات والكتب والأفلام ونحوها -.

وفيها: خطورة الاعوجاج عن الصُّراط المستقيم، بترك ما أمر الله به، أو فعل ما نهى عنه؛ فالاعوجاج في الأمر يكون بالتهاون فيها والتفريط، أو الإفراط والغلو. والاعوجاج في النواهي يكون بانتهاكها وارتكابها.

وفيها: الحثُّ على لزوم الشرع والتمسُّك به، ولو تكالب الأعداء على المسلمين.

وفيها: أنَّ رفع الخير أشدُّ قُبْحًا وضررًا من منعه.

وفيها: أنَّ التسبُّب في ردة المسلم، أسوأ من التسبُّب في بقاء الكافر على كُفْره. وأنَّ رفع الخير عن الغير، أسوأ من منع وصوله إليه.

وفيها: أنَّ رؤساء أهل الكتاب يميِّزون الحقَّ من الباطل، ويعلمون صحَّة دين الإسلام.

وفيها: توبيخ أهل الكتاب جميعًا؛ لأنَّ عوامَّهم تَبَعَ لكُبرائهم وعُلمائهم ومُجرِّمهم، المعاندين والصادِّين عن سبيل الله.

وفيها: أنَّ أحبار أهل الكتاب أشدُّ جُرْمًا من عوامَّهم؛ لأنَّهم من أكبر الشُّهداء على الحقِّ، وأكثر الناس معرفةً به، ولأنَّهم مُوثقون ومرضِيون ومتَّبَعون عند عوامَّهم.

وفيها: قُبْح جريمة مَنْ يكفر بالحقِّ وهو يعقل ويفهم، ويشهد دلائله وآياته.

وفيها: كمالُ مُراقبةِ الله تعالى لخلقه؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وفيها: انتفاءُ الغفلة عن الله تعالى، وتنزيهه عن تركِ مجازاةِ المُجرمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾^(١٠٠)؛
ولمَّا كان أهل الكتاب بهذه الخطورة، وهذا القدر من الشر؛ حذر الله تعالى عباده المؤمنين من طاعتهم؛ فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: النداء بالإيمان إغراءً لقبول ما يأتي من خيرٍ للتصديق به، أو أمرٍ ونهيٍ لامتناله.

﴿إِن تَطِيعُوا﴾ أي: تُوافقوا وتَتَّبِعُوا ﴿قَرِيبًا﴾ جماعة وطائفة ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم: اليهود والنصارى، والمقصود: رؤساؤهم وأحبارهم، ورؤوس الشر منهم؛ ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ بما يَسْعَوْنَ إليه من تشكيككم، وإلقاء الشُّبهات بينكم، أو جرَّكم إلى تقديم تنازلات تُخرجكم عن الإسلام، أو بما يُريدون من إشعالِ الفِتنة بينكم وإغرائكم بالاقْتتال. وقد رُوي أنَّ شاسَ بنَ قيسَ اليهوديَّ - وكان عظيمَ الكُفر، شديدَ الطَّعن في الإسلام - قد تمالَّأ مع بعض من معه، لتذكير الأوس والخزرج بما كان بينهم من الحروب والثرات أيام الجاهلية؛ تهيئاً لهم على الاقْتتال أو الفِتنة عن الدين؛ فنزلت هذه الآية^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحذير المؤمنين من مَكْرِ اليهود والنصارى، وأنَّهم يَسْعَوْنَ في إخراجنا عن ديننا، بل يَوَدُّون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، ومن ودَّ شيئاً سعى في تحقيقه بكلِّ سبيل.

وفيها: أنَّ طائفةً من أهل الكتاب يَسْعَوْنَ لتحقيق أسوأ ما يُمكن فعله بالمسلمين، وهو الرِّدة، بإخراجهم من الإيمان إلى الكُفر.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٦)، تفسير البغوي (٢/ ٧٥).

وفيها: التحذير من طاعة الكفار، وأن الاستجابة لهم ستؤدي إلى الهلاك، إمّا في الدنيا - كالاقتتال بين طوائف المسلمين - أو في الآخرة - بالعذاب على الردّة -.

وفيها: تحذير المسلمين من سعي أهل الكتاب لإخراجهم عن دينهم، وإن أظهروا المُسالمة والمُداهنة، والصداقة والولاية؛ لأنهم يستعملون سائر الوسائل لاستدراج المسلمين إلى الكفر، بالتمويه والتلبيس بالشعارات الكاذبة، والطعن والتشكيك في التشريعات، والتدرّج في ذلك.

وفيها: أن حرص أهل الكتاب على إخراج المسلمين من دينهم، إنّما هو لأجل ما يرون من تمسك المؤمنين بإيمانهم ووجدتهم.

وفيها: بيان أنه قد يوجد في أهل الكتاب من لا يشتغل بالسعي في ردّة المسلمين، لكن كثيراً منهم يعملون على ذلك؛ بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، وهم مستترون يخفون علينا؛ فوجب الحذر من الجميع.

وفيها: أن هؤلاء المفسدين لا يرضون منّا بما دون الكفر. ولو أظهروا القبول بشيء دونه؛ فإنّما يفعلون ذلك استدراجاً للمسلمين، لإيقاعهم في الردّة، وهي أعظم غاياتهم ومطالبهم.

وفيها: الحذر من التبعية لليهود والنصارى، والتشبّه بهم، ووجوب ممانعتهم وعدم طاعتهم.

وفيها: الحذر من أساليب أهل الكتاب الخبيثة في إضلال المسلمين وإغوائهم؛ ومنها: الدّعوة إلى دينهم في قالب النصّح والترغيب والترهيب، والتنوّع في الدّعوة إلى القبول بمبادئهم وأفكارهم؛ كالدّعوة إلى الديمقراطيّة والحرية المطلقة، ومساواة المرأة بالرجل، والدّعوة إلى التبرّج والسفور والاختلاط، واعتماد القوانين الجاهليّة الوضعيّة الأرضيّة المصادمة للشريعة، والدّعوة إلى حريّة الاعتقاد، والتقارب بين الأديان، وإزالة الفوارق بين المسلم وغيره، وفصل الدّين عن الحياة العمليّة، وترك بعض التشريعات - كالحجاب، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد - والحدّ من التعليم الدّيني الشرعيّ، واعتماد التفسير الماديّ في الأحداث والحياة.

ومن ذلك: إطلاق حرية التجارة من جهتهم، بما يمكنهم من السيطرة والهيمنة على اقتصاد المسلمين، وإيقاعهم في الرِّبَا، والدَّعوة إلى البعثات الخارجية - خاصة للطلاب، وللنساء من غير محرم -؛ ليتشبعوا بأفكارهم وثقافتهم ومعتقداتهم، ثم يعودوا لبث السموم ونشر الأفكار الهدامة في المجتمعات المسلمة.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

ثم ذكر الله تعالى استبعاد وقوع الكُفر من أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم، وهم يُعاينون تنزيله ويتعلمون تأويله؛ فقال:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الاستفهام للاستبعاد والتعجب، يعني: أن الكُفر بعيدٌ منكم - يا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - وحاشاكم منه.

﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: تنزل ليلاً ونهاراً، فيتلوها عليكم نبيكم صلى الله عليه وسلم، ويبلغكم إيّاها غُضّةً طريّةً، فيها البيان والهدى. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ أي: معكم، يعلمكم الكتاب والحكمة.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: «أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِيَّانَا؟»، قالوا: الملائكة، قَالَ: «الْمَلَائِكَةُ كَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!»، قَالَ: النَّبِيُّونَ، قَالَ: «النَّبِيُّونَ يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!»، قالوا: الصَّحَابَةُ، قَالَ: «الصَّحَابَةُ يَكُونُونَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟! وَلَكِنْ أَعْجَبَ النَّاسِ إِيَّانَا: قَوْمٌ يَحْيَوْنَ مِنْ بَعْدِكُمْ، فَيَجِدُونَ كِتَابًا مِنَ الْوَحْيِ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَهُ، فَهُمْ أَعْجَبُ النَّاسِ - أَوِ الْخَلْقِ - إِيَّانَا»^(١).

فمن أين يتطرق الكُفر إلى الصَّحابة رضي الله عنهم، والحال أن آيات الله تُتلى عليهم، ونبيهم صلى الله عليه وسلم يسير بها فيهم، ويمثلها، ويبينها لهم؟!

﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أي: يتوكَّل عليه، ويستعين به، ويلجأ إليه، ويستمسك بدينه وكتابه؛ ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واسع غير مُعَوَّج، وهو الإسلام المؤدِّي إلى الجنة.

وقد قال النبي ﷺ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ...» الحديث^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأسيس أهل الكتاب -مهما حاولوا- من نيل مُرادهم في ارتداد أصحاب النبي ﷺ، ولذلك كانت الرِّدَّة في عهده ﷺ نادرة، وإنما ارتدَّ بعض الناس بعد موته.

وفيها: رَدٌّ على بعض المبتدعة، الذين يقولون: إنَّ أصحاب النبي ﷺ ارتدُّوا بعده وكفروا -إلا أربعة، أو سبعة-! وهذا من أعظم الظُّلم للنبي ﷺ نفسه؛ لأنَّ فيه اتِّهامًا له بالفشل في تربية أصحابه -وحاشاه ﷺ- بل فيه اتِّهام لله تعالى بأنَّه اصطفى لنبيه وخير خلقه ﷺ أصحابًا، يعلم أنَّهم لن يثبتوا على الدِّين، وسيقعوا في الرِّدَّة! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كبيرًا.

وفيها: أنَّ الاعتصام بكتاب الله، والإقبال على حديث رسول الله ﷺ؛ أعظم مانع يمنع من الكفر.

وفيها: فضل الله تعالى على الصَّحابة، بأن جعل نيَّه ﷺ فيهم وبينهم، وقد قال عبد الله بن رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه النعمة:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ
إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعٌ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى، فَقُلُوبُنَا
بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ
إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ^(٢)

وفيها: أنَّ العيش والمُخَالَطَةَ للقُدوات العظيمة، من أسباب الثَّبات على الدِّين.

وفيها: أثر أهل العِلْم والقُدوة في دفع الشُّبه، وتثبيت الناس على الدِّين.

وفيها: أنَّ بقاء أنوار الكتاب والسُّنة بين الناس -بيان تفسير القرآن، وشروح الحديث- يُثبتهم، ويُبْعِدُهم عن الرِّدَّة.

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (١١٥٥).

وفيها: أَنَّ اللُّجُوءَ إِلَى اللَّهِ وَاللِّيَاذَ بِهِ، مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفَزَعَ إِلَيْهِ عِنْدَ وَسْوَسَةِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصِمُهُ وَيُثَبِّتُهُ.

وفيها: ضَمَانُ الْهُدَايَةِ وَتَأْكِيدُ وَقُوعِهَا لِمَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢):

ولَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ثَبَاتَ أَصْحَابِ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الدِّينِ؛ أَمَرَهُمُ بِالْتَّقْوَى، وَأَوْصَاهُمُ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الثَّبَاتِ حَتَّى الْمَمَاتِ؛ فَقَالَ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فَسَّرَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التَّقْوَى بِقَوْلِهِ: «أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعَصَى، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَّرَ فَلَا يُكْفَرُ» (١).

وقوله ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أَي: أَبْلَغَ التَّقْوَى وَأَدْوَمُهَا وَأَكْمَلُهَا، بِاسْتِيفَارِغِ الْوُسْعِ فِي اتِّخَاذِ وَقَايَةِ مَنْ عَذَابِ اللَّهِ، بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَعْنَى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: «أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَيَقُومُوا لِلَّهِ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ» (٢).

وقد قال كثيرٌ من المفسرين: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال آخرون: لَيْسَتْ مَنْسُوخَةٌ؛ بَلْ هِيَ مُقَيَّدَةٌ وَمُفَسَّرَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، يَعْنِي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

قوله تَعَالَى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ؛ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ سَبْحَانَهُ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ أَنْ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخِزَ عَنْ عَلَيْهِ».

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٧/١٣)، والحاكم في المستدرک (٣١٥٩)، وإسناده صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٨٧/٢).

النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَلَتَاتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»^(٢).

وذكر الله تعالى من أدعية الصالحين: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب العناية والاهتمام بالتقوى، وأنها من مقتضيات الإيمان.

وفيها: وجوب المبادرة إلى الإسلام، والبقاء عليه.

وفيها: أن مدار المصير على الخاتمة، وأن على المسلم ألا يُغَيَّر ولا يبدل. وبهذا تظهر العلاقة بين هذه الآية، وقوله تعالى في آية قبلها: ﴿رُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وفيها: الاستعداد للموت بعمل الصالحات؛ ليحصل التوفيق، للثبات على الإسلام حتى الممات.

وفيها: إشارة وتحذير مما بعد الموت.

وفيها: أن التقوى في القلوب تتفاوت.

وفيها: بيان العلاقة بين التقوى وحسن الخاتمة.

وفيها: أن من كان في حال صحته ونشاطه مُدَاوِمًا على تقوى الله وطاعته والإنابة إليه؛ ثبته الله عند موته، ورزقه حسن الخاتمة.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١٣):

ثم بيّن الله تعالى وسيلة الثبات على الدين حتى الممات؛ فقال:

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي: تمسكوا بدينه الذي شرعه - وهو الإسلام - وبكتابه - وهو القرآن -. و(حبل الله): هو عهده وكتابه وشرعه، سُمِّيَ بذلك؛ لأنه الموصِّل إليه، وأضيف إلى (الله)؛ لأنه هو الذي أنزله.

وقوله ﴿جَمِيعًا﴾ أي: كلُّكم، فكونوا مجتمعين على التمسك به. وقد قال النبي ﷺ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالتُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ...» الحديث^(١).

وفي رواية: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي...»^(٢).

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَبْلُ اللَّهِ: الْقُرْآنُ»^(٣)، وقال أبو العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعْتَصِمُوا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ»^(٤).

وقوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي: كما تفرَّق الذين من قبلكم شيعةً وأحزاباً، ولا تختلفوا اختلافَ أهل الجاهلية - يقتل بعضهم بعضاً -. والنهي عن التفرُّق هنا يتضمَّن الأمر بالاجتماع. فالمعنى: لا تفرَّقوا، وعليكم بالجماعة.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٥).

ومن مزايا هذه الأمة: أنها لا تجتمع على ضلالة، وإجماعها معصوم؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ»^(٦).

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٨٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٤٥٨).

(٣) رواه الدارمي في سننه (٣٣١٧)، بإسناد صحيح.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٧٢٤/٣).

(٥) رواه مسلم (١٧١٥).

(٦) رواه الترمذي (٢١٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨).

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ بالسِّتكم وقلوبكم، وتذكروا ما كنتم فيه في الجاهلية من العداوة والتفرق، وما أصبحتم عليه في الإسلام من الألفة والاجتماع. وهذه هي ﴿نِعْمَتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ومِنَّةُ وفضله ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ تتقاتلون بينكم، في حروبٍ وفتنٍ وثوراتٍ.

وقد قال النبي ﷺ للأنصار - وهم الأوس والخزرج -: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا، فَهَذَا كُمْ اللَّهُ بِ؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِ؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللَّهُ بِ؟»^(١).

وهذا معنى قوله ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جمعها على المحبة؛ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ صرتم ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ وهي: نعمة الإسلام، الذي أنعم الله به عليكم ﴿إِخْوَانًا﴾ في الدين، متحابين مجتمعين.

وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ...» الحديث^(٢).

﴿وَكُنْتُمْ﴾ - يا معشر الأوس والخزرج - قبل الإسلام ﴿عَلَى شِقَاٍ﴾ أي: طَرَفٍ وَحَرْفٍ ﴿حُفَرٍ مِّنَ النَّارِ﴾ من جهنم، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم؛ ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا﴾ ونجاكم.

قوله ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يُظهِرُ وَيُفَصِّلُ ﴿آيَاتِهِ﴾ وهي: العلامات الدالة على ربوبيته ووحدانيته وحكمته، سواء في ذلك الآيات الكونية، أو الشرعية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق إلى الحق، فتخرجوا من الضلالة، وتسلکوا سبيل الاستقامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الاجتماع على طاعة الله.

وفيها: وجوب التحاكم إلى شرع الله.

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) - واللفظ له -.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨).

وفيها: أَنَّ اجْتِمَاعَ الْأُمَّةِ عِصْمَةٌ لَهَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَعِصْمَةٌ لَهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِذَا تَفَرَّقَتْ: وَقَعَتْ فِي الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، وَتَسَلَّطَ عَلَيْهَا أَعْدَاؤُهَا.

وفي الآية: تحريم تفرُّق القُلُوبِ، أما تفرُّق الأبدان والاجتهادات: فلا بأس به، لكن بلا هجران، ولا تعصُّب.

وفيها: استحضار نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ، والتحدُّثُ بِهَا.

وفيها: أَنَّ التَّفَرُّقَ سَبَبٌ لَسَلْبِ النُّعْمَةِ.

وفيها: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أَنَّ النَّارَ فِيهَا حُفَرٌ لِلْعَذَابِ.

وفيها: تحريم الابتداع في الدين.

وفيها: النهي عن كُلِّ سَبَبٍ يُوَدِّي إِلَى التَّفَرُّقِ، كالتعصُّب للقبيلة، أو البلد، أو الجنسية.

وفيها: خطورة الموت على الكُفْرِ.

وفيها: أَنَّ الاختلاف في الرأي لا بأس به، إذا كان لا يُوَدِّي إِلَى تَنَافُرِ الْقُلُوبِ.

وفيها: أَنَّ الْجَمَاعَةَ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ.

وفيها: أَنَّ الْجَمَاعَةَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ، بعد الهداية إلى الإسلام.

وفيها: أَنَّ الْإِعْتِصَامَ بِشَرْعِ اللَّهِ، وَشُكْرَ نِعْمَتِهِ؛ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ.

وفيها: مِنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، بِالتَّأْلِيفِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَالْإِنْقَادِ مِنَ النَّارِ، وَتَبْيِينِ

الآيَاتِ.

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤)

ولمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّتَهُ عَلَى الصَّحَابَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ؛ ذَكَرَهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَجَاهَ دِينِهِ؛

فَقَالَ:

﴿وَلَتَكُنَّ﴾ (اللام) للأمر، أي: ولتوجد ﴿مِنْكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين. والمعنى: بعضكم، أو: لتكونوا أنتم جميعاً ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ﴾ أي: جماعة قائمة ومُنْتَصِبَةٌ يَدْعُونَ الناس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾: يشمل خير الدنيا والآخرة، وما فيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم.

﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ (المعروف): كلُّ ما استحسَنه الشَّرْع وأقرَّه، وهو معروفٌ عند العقلاء وأصحاب الفِطَر السليمة.

﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ (النهي): طَلَب الكَفِّ عن الشيء، أي: يطلبون من الناس أن يكفُّوا ﴿عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. و(المنكر): ما أنكره الشَّرْع، وعَرَف قُبْحه العقلاء، وأصحاب الفِطَر السليمة.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ الدَّاعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿هُمْ أَلْمُفْلِحُونَ﴾: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شرٍّ ما منه هربوا؛ فجمعوا بين السَّلامة والغنيمة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه يجب أن يكون في الأُمَّة مَنْ يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لم يحصل الاكتفاء ببعضهم؛ وجبَ على جميع الأُمَّة القيام بذلك، وإلاَّ أثموا جميعاً، وكان الجزاء كما قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١).

وفيها: فضيلة الدَّعوة إلى الخير، والترغيب فيه، والحثُّ عليه، وأنَّ هذا من صفات أهل الفلاح.

وفيها: أنَّه يجب إعداد مَنْ يقوم بفريضة الدَّعوة، والأمر، والنهي، ويُحَسِّن ذلك.

وفيها: أنَّه يجب الاستمرار في العمل بهذه الواجبات الثلاثة - الدَّعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر -؛ حتى يتحقَّق البلاغُ والمقصود الشرعيُّ.

وفيها: أنَّ فضيلة هذه الأُمَّة وشرَّفها؛ نابعٌ من القيام بهذه الواجبات الثلاثة.

(١) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

وفيها: أَنَّ هذه الأمور الثلاثة فرضٌ على الكفاية؛ بدليل: (لام الأمر) في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ﴾.

وفيها: أهمية الإخلاص في الدعوة؛ لأنَّ هؤلاء الدعاة يدعون الناس إلى الخير، لا إلى أنفسهم.

وفيها: وجوب تعلُّم الخير - لأجل الدعوة إليه -؛ فلا بُدَّ للداعية من العِلْم بالشرع، والعِلْم بالحال، وهذا يشمل: معرفة شُؤُونِ المدعوِّين، ولُغَتِهِمْ، والوسائل والأساليب الناجحة، والمُناسبة في دعوتهم.

وفيها: أَنَّ الدعوة الصحيحة هي الدعوة إلى الكتاب والسُّنة، لا إلى آراء الرِّجال، ولا إلى مُوافقة الدَّاعي على ما هو عليه.

وفيها: نُصرة الدعاة والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وتأيدهم وإعانتهم، وإكرامهم؛ لأنَّهم من أهل الفلاح، القائمين بأمر الله.

وفيها: الدعوة إلى الخير بالقول والعمل، والكَلِمة والقُدوة.

وفيها: أَنَّ هذه الأمور الثلاثة المأمور بها، تُبَيِّن هُويَّة هذه الأمة، وتُجَلِّي شخصيَّتها، وتميِّزها.

وفيها: فضيلة الأمر بالمعروف، سواءً كان المعروف واجباً أو مُستحبّاً، وأمَّا المنكر: فإنَّه كلُّه محرَّم.

وفيها: أَنَّ أولى الناس بهذه الآية هم: أصحاب العِلْم، وأصحاب السُّلطان؛ لقدَّرتهم على القيام بهذا الواجب العظيم.

وفيها: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فمع أنَّهما يدخلان في الدعوة إلى الخير، لكن خصَّهما الله تعالى بالذكر؛ لخطورة شأنهما.

وفيها: أَنَّهُ لا تعارض في الجَمْع بين خير الدنيا - كالبيع والشراء والتَّكاح - والآخرة - كالصَّلاة والصيام والحجَّ -.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥):

ولما أمر الله تعالى عباده بالاجتماع، وإقامة الدين بالدعوة إليه؛ حذّره من التفرّق والاختلاف؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ - يا معشر المؤمنين - ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ وتنافرت قلوبهم بالعداوة، كاليهود والنصارى ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في الدين، وكانوا شيعاً وأحزاباً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الآيات الواضحات، الدالة على الحق.

وفي الحديث: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(١).

وفي رواية: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قالوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(٢).

ثم ذكر تعالى عاقبة المختلفين؛ فقال: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ دلالة على انحطاط مرتبتهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا: بالافتتال والضعف والذل، وفي الآخرة: بالعذاب الأليم في النار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهي عن التشبه بأهل الكتاب.

وفيها: التحذير من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم قبلنا، من التفرّق والاختلاف.

وفيها: إقامة الله الحجّة على الناس، ببيان الآيات لهم.

وفيها: أن التفرّق لم يحصل فيمن قبلنا بسبب الجهل؛ وإنما حصل بسبب اتباع الهوى، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وبسببه نشأت البدع.

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

وفيها: أنَّ التفرُّق في المناهج والمسالك يؤدِّي إلى اختلاف القُلُوب، والشَّحناء والبغضاء، والافتتال.

وفيها: خطورة الابتداع في الدِّين، ثم التعصُّب للبدعة.

وفيها: أنَّ البدع من أسباب تفرُّق الأُمَّة وهزيمتها، وإراقة دماؤها، وطَمَع الأُمم الأخرى فيها.

وفيها: التحذير من الاختلاف في أصل الدِّين. وأمَّا المسائل الاجتهادية: فإنَّ اختلاف آراء العلماء فيها ليس عيباً، ولا مذموماً؛ لأنَّ الله تعالى فاوتَ بينَ عقول العباد، فلا يُمكن اتِّفاقهم على رأيٍ واحد في كلِّ الأمور.

وفيها: أنَّ التفرُّق بعد بيان الحقِّ، أشدُّ قبحاً من التفرُّق بسبب خفائه.

وفيها: وعيدٌ من الله للمُبتدعة في الأُمم السابقة، وفي هذه الأُمَّة، بالعذاب العظيم.

ويؤخذ من هذه الآية -مع التي قبلها-: أنَّ تَرَكَ الدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أسباب التفرُّق؛ لأنَّ الدَّعوة إلى الخير تمنع نُشوء البدع، وإنكار المنكر يقضي عليها إذا نشأت.

وفيها: أنَّ تَرَكَ البدع، والتمسُّك بالكتاب والسُّنة؛ سببٌ للوقاية من العذاب، وإنقاذ الغير منه.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى زمانَ وقوع هذا العذاب؛ فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ﴾ أي: فاذكروا يومَ القيامة، الذي تستنير فيه وتتلألأ ﴿وُجُوهٌ﴾ وهي: وجوه المؤمنين، ممَّا يروُّنه من الفرح والسُّرور بحسناتهم.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي: وجوه الكفار، وأهل البدع المكفرة، بسبب ما تراه من الكآبة والغمِّ بسيئاتها.

وقد قرأ أبو أمامة رضي الله عنه هذه الآية، حينما رأى رؤوس الخوارج منصوبة على درج مسجد دمشق، بعد قتلهم^(١).

وهذا البياض والسواد الذي يقع للوجوه على حقيقته؛ وهو بسبب ما يُشرب به هؤلاء، وهؤلاء. ﴿فَأَمَّا﴾ (أما) للتفريع والتفصيل ﴿الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ من المرتدين والمنافقين والمتبدعة - أصحاب البدع المكفرة - ومن كان مؤمناً من أهل الكتاب ثم ارتد بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكل كافر بعد الإيمان: فَيُلْقَوْنَ فِي النَّارِ، ويقول لهم الله تعالى وملائكته الزبانية: ﴿كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: استفهام توبيخي؛ أي: هل كان كفركم إلا بعد إيمانكم وظهور ما يوجب الإيمان - من دلائل التوحيد والنبوة -؟!

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وادخلوه. وفي هذا جمع لهم بين الألم البدني بالإحراق، والألم القلبي النفسي بالتوبيخ والإهانة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله، ورسوله، وما أنزل عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

انقسام الناس في الآخرة، كما انقسموا في الدنيا.

وفيها: الجمع بين العذاب البدني والنفسي للكفار في الآخرة.

وفيها: أن ما يقع يوم القيامة للكفار بعضه أشد وطأة من بعض؛ فمن الشدائد والأحوال التي تصيبهم: رؤية الأحوال بعد القيام من القبر، وعند قراءة الصحف، وعند وزن الأعمال، وعند فتح أبواب النار.

وفيها: المُقابلة بذكر حال أهل الجنة وأهل النار، والمقارنة بينهما؛ ليعظم في نفس المؤمن رجاء رحمة الله، والخوف من عذابه.

وفيها: أن نور الحق الذي كان عليه صاحبه في الدنيا، يُكسبه يوم القيامة نوراً في وجهه، ونوراً على الصراط، ونوراً في الجنة. كما أن ظلمة الباطل تُكسب صاحبها ظلمة الوجه يوم البعث، وظلمة في النار.

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٠)، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي: «حسن صحيح».

وفي هذه الآية: أَنَّ سَبَبَ سَوَادِ الْوَجْهِ هُوَ الْكُفْرُ وَالْبِدْعَةُ.

وفي آية أخرى: أَنَّ سَبَبَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وفي آية أخرى: أَنَّهَا السَّيِّئَات، كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وفي آية أخرى: أَنَّ سَبَبَهُ الْفُجُورُ أَيْضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يُومِضُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢]، و(القتر) هي: السَّوَادُ.

وفي الآية: أَنَّ الْجُزْءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

وفيها: أَنَّ تَبْدِيلَ اللَّوْنِ يَحْصُلُ تَبَعًا لِتَبْدِيلِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ فِي الدُّنْيَا، سَيُقَابِلُهُ تَحَوُّلٌ إِلَى السَّوَادِ وَالْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا أَبْيَضَ مُنْعَمًا.

وفيها: أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَرَّفُونَ وَيُمَيَّزُونَ فِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ بِأَلْوَانِهِمْ، خِلَافًا لِحَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا؛ فَلَا فَضْلَ لِأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ وَلَا غَيْرِهِ، إِلَّا بِالتَّقْوَى.

وفيها: انْكِشَافُ الْمَجْرِمِينَ وَافْتِضَاحُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧):

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ، وَابْتَدَأَ بِهِمْ لِلتَّحْذِيرِ مِنْ حَالِهِمْ؛ عَقَّبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ حَالِ أَهْلِ الْإِيمَانِ؛ فَقَالَ:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾: وَهَذَا الْبَيَاضُ حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ مِنْ اسْتِنَارَتِهَا بِالْفَرَحِ وَالشُّرُورِ؛ لِمَا يَرُونَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَثَوَابِهَا. وَهَذَا الْبَيَاضُ عَامٌّ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمَنْ سَبَقَهَا، وَلَكِنْ لِمُؤْمِنِي هَذِهِ الْأُمَّةِ زِيَادَةُ بَيَاضٍ خَاصٍّ وَنُورٍ فِي أَعْضَائِهِمْ؛ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَنْ مَصِيرِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا: الْجَنَّةُ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَي: دَائِمُونَ، لَا يَمُوتُونَ، وَلَا يَتَحَوَّلُونَ وَلَا يُخْرَجُونَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن المؤمنين لا يدخلون الجنة إلا برحمة الله، وأن من رحمة الله: نجاتهم من النار. وفيها: فضل اتباع السنة.

وفيها: أن خلود المؤمنين في الجنة يُراد به هنا: التأيد؛ فهو خلودٌ أبديٌّ.

وفيها: إطلاق (الرحمة) على الجنة، والجنة أثر من آثار رحمة الله تعالى؛ فالرحمة رحمتان: رحمة مخلوقة، ومنها: الجنة، والرحمة التي أنزلها الله إلى الأرض يتراحم بها العباد والبهائم، والرحمات التسع والتسعون التي أمسكها الله عنده، والرحمة بالمطر.

ورحمة غير مخلوقة، وهي الرحمة التي هي صفة من صفات الله تعالى.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨):

قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: حُجَّجَه وبيَّناهُ التي أنزلها، وهي: الآيات الشرعية في كتابه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: نقرؤها عليك - يا أيها النبي ﷺ - بواسطة جبريل ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: نازلة ومصحوبة به، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، فهي من عند الله حقًا بلا شك، ومتضمنة للحق فيها اشتملت عليه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: فلا يظلم الذين ابيضت وجوههم ولا الذين اسودت وجوههم من عباده، ولا يأخذ أحدًا بغير جرم منه، ولا يزيد في عقاب أحد بغير ذنب، ولا ينقص من ثواب المحسن. وهو سبحانه ما أراد بما أنزله عليهم إلا هدايتهم. و(الظلم): وضع الشيء في غير موضعه.

و(العالمون): كل شيء سوى الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إضافة (الآيات) إلى الله، والمقصود: آيات القرآن - وهي غير مخلوقة - وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، لا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

وفيها: أَنَّ القرآنَ حقٌّ، نزلَ من الحقِّ تعالى، فلا شُبْهةَ فيه، ولا باطلَ، ولا تناقُضَ، ولا اختلافَ.

وفيها: مَدْحُ عَظِيمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وبيانُ فَضْلِهِ على عباده؛ بأن حَرَّمَ الظُّلْمَ على نفسه، ونفى إرادةَ الظُّلْمِ بعباده، ولو أرادَ سبحانه أن يُعَذِّبَ خَلْقَهُ جميعًا؛ لعَذَّبَهُم وهو غيرُ ظالمٍ لهم؛ لأنَّه مالِكُهُم، يفعلُ فيهم ما يشاء.

وفي الآية: أَنَّهُ إذا انتَفَتِ إرادةُ الظُّلْمِ منه تعالى؛ انتفى الظُّلْمُ؛ لأنَّ الله لا مُكْرِهَ له، وما أرادَه فلا بُدَّ أن يكونَ.

وفيها: أَنَّ تنعيمَ الأبرارِ وتعذيبَ الكفارِ لا ظُلْمَ فيه؛ بل هو من فَضْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَدْلِهِ.

وفيها: إرشادُ العبادِ إلى مُجَازاةِ الْمُحْسِنِ والمُسيءِ، بما يستوجبُه عملُ كُلِّ منهما.

وفيها: إِياءُ إلى أَنَّ الكُفْرَةَ هم الذين يظلمون أنفسهم، بتعريضها للعذاب.

وفيها: نفي الظُّلْمِ القليل والكثير عن الله تعالى؛ لقوله في الآية: ﴿ظُلْمًا﴾، والنِّكَرَةُ في سياقِ النفي تُفيدُ العمومَ.

وفيها: أَنَّ الله لا يُريدُ ظُلْمًا بالعباد، لا فيما شرَّعه لهم من الأوامر والنواهي، ولا فيما يصيرون إليه من الثواب والعقاب.

وفيها: أَنَّ بيانَ الوَعْدِ والوَعْدِ قبل إقامة دارِ الثواب والعقاب؛ يدلُّ على تمامِ عدلِ الله، وعدمِ إرادته الظُّلْمَ بعباده.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٩):

ولمَّا ذكرَ الله تعالى أَنَّهُ لا يُريدُ ظُلْمًا للعالمين؛ بَيَّنَّ سَعَةَ مُلْكِهِ واستغناءَ عنهم. والظالم إنما يظلم غيره، ويُنْقِصُه حقَّه أو يعتدي عليه؛ ليزداد هو مالًا أو سلطانًا، والله مُسْتَغْنٍ عن ذلك؛ لأنَّ له مُلْكَ السماوات والأرض.

فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: تقديم الخبر على المبتدأ هنا يُفيدُ الحَصْرَ؛ أي: أَنَّها له لا لغيره. وهذا يشمل ما فيهما من: الملائكة، والجنِّ والإنس، وجميع المخلوقات. فهي له مُلْكًا، وخلقًا وإيجادًا، وتديرًا، ومصيرًا.

﴿وَالِىَ اللَّهُ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أي: تصير إليه أمورُ الخلائق وشؤونها، فيحكم فيها بما يشاء، ولا مفرَّ لأحدٍ من حكمه، ولا مُعَقَّبَ له، وإليه يُرْجَعُونَ يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُمومُ مُلكِ الله تعالى لهما في السماوات وما في الأرض، وانفرادُه عَزَّوَجَلَّ بذلك.

وفيها: أنَّ مرجعُ شُؤون الخلق إلى الله؛ لأنَّه هو الذي خلقهم، ومن حقِّه أن يُشَرِّعَ لهم ما يشاء، ومن حاول التشريع للخلق بخلاف ما شرَّعه الله؛ فقد جعل نفسه شريكاً مع الله، فويلُّ له!

فالحكم والتشريع فرَّعٌ عن الإيجاد والخلق؛ إذ إنَّ الذي خلق أعلم وأبصرُ بخلقه؛ فهو أحقُّ وأجدرُ بأن يُشَرِّعَ لهم من الأحكام ما يُنظِّمُ أمورهم، ويكون فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وفي الآية: سعةُ علمِ الله، وعظيمُ قدرته؛ فكلُّ الأمور -دقيقها وجليلها- لجميع المخلوقات -صغيرها وكبيرها- تُرْجِعُ إليه عَزَّوَجَلَّ؛ فيدبِّرُ أمورها، ويُجْري فيها قدره.

وفيها: أنَّ على العباد أن يسألوا ربَّهم ويعبدوه، ما دام هو الذي يملكهم، وإليه تُرْجِعُ أمورهم.

وفيها: أنَّ الله الحكم المطلق في عبادته، فتصدَّر عنه الأحكام الشرعية، والقدرية، والجزائية -من الثواب والعقاب-.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠):

ولمَّا أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، وذكر مَنته على المؤمنين بتأليف قلوبهم، وحذر من التفرُّق في الدين، وذكر فساد أهل الكتاب الذين ادَّعوا أنَّهم خيرُ الناس؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ مزيداً من فضله على هذه الأمة، وأنَّهم خيرُ الأمم، لا غيرهم؛ فقال:

﴿كُنْتُمْ﴾ أي: في علم الله السابق، وفي اللوح المحفوظ، وهذا مذكورٌ أيضًا في كتب الأمم السابقة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أفضل جماعة وطائفة ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أظهرها الله وأبرزها ﴿لِلنَّاسِ﴾، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «خير الناس للناس»^(١).

وقد قيل: إن المقصود بهذه الآية هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: الذين هاجروا معه. والصحيح: أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن وزمانٍ منها بحسبه، وخير القرون من بُعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أولى الناس بهذه الآية.

ثم ذكر عجل أسباب خيرية الأمة؛ فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو: ما عرفه الشرع، وعلى رأسه: توحيد الله ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: ما أنكره الشرع، وعلى رأسه: الشرك بالله.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ربًا واحدًا، لا تعبدون غيره، وتصدقون بشرعه وما أنزله، فتعملون بذلك.

وقدَّم (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على (الإيمان) -مع أنه داخل فيه ومن شعبه-؛ للدلالة على أهميته وقضاه، وأنه من أسباب تفضيل هذه الأمة.

وقد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة صحيحة، في فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم؛ ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: «أَنْتُمْ تُوفُونَ -وفي رواية: تُتِمُّونَ- سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(٢).

ومن مزايا هذه الأمة وفضائلها: أنهم أول الأمم في الحساب، وأول من يجوز الصراط، وأول الأمم دخولًا الجنة، وهم ثلثا أهل الجنة، وأعظم الأمم شفاعَةً، ويدخل الجنة منهم سبعون ألفًا بلا حساب ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات الرب عجل.

وأنهم شهداء الله في الأرض، ويشهدون على الأمم الأخرى يوم القيامة، وصفوفهم كصفوف الملائكة في الصلاة، ولا يجتمعون على ضلالة، وهم الأقصر عمراً، والأكثر أجراً.

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

وتميّزوا بوقت صلاة العشاء، وبالسُّحُور، والْتِيْمُ، ويوم الجمعة، ويُعذِّرون بالإكراه، وسياحتهم الجهاد، وأُجِلَّتْ لهم الغنائم.

ولا يُحَاسِبُونَ على الوَسْوَسة، ولهم أسهل توبة، وأكثر عقوبتهم مُعَجَّلَةٌ في الدُّنيا، وقد وضع الله عنهم الأَصَارَ والأَغْلَالَ التي كانت على غيرهم.

وهم أُمَّةُ الإسناد، وليس لبقية الأُمَمِ أسانيد معروفة، وقد تكفل الله لهم بحفظ كتابهم، وحفظ سُنَّةِ نبيِّهم ﷺ - التي تبيِّن الكتاب -.

ونبيُّهم ﷺ خير الخلق وخير الأنبياء؛ له المقام المحمود، والشفاعة العظيمة يوم القيامة، إلى غير ذلك من الفضائل.

وكلُّ هذه الفضائل وهذه الخيرية؛ لأنَّهم كَمَلُوا أَنْفُسَهُم بالإيمان، وكَمَلُوا نَقْصَ غيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولمَّا مدَّحَهم الله تعالى بذلك؛ ذَمَّ مَنْ خالفَهُم في الإيمان والأمر والنهي - من أهل الكتاب -؛ فقال:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بنبوة النبي ﷺ، وما جاء به من شريعة الإسلام؛ ﴿لَكَانَ﴾ إيمانهم ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ من بقائهم على الكفر واليهودية والنصرانية، ولكن حلَّهم حبُّ الرِّئاسة والهوى والحسد والكبر على البقاء على الكفر، ولم يُسَلِّم منهم إلَّا القليل.

﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين آمنوا بالنبي ﷺ - كعبد الله بن سلام، وعدي بن حاتم، والنجاشي - ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المراد بـ (الفاسق) هنا: الخروج الكلِّي عن طاعة الله، وهو الكفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَصَّلِ أُمَّةَ النَّبِيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّ الفاضل عليه أن يسعى في المحافظة على الخيرية، والأخذ بأسبابها؛ لتستمرَّ له هذه المنزلة.

وفيها: السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِ الْغَيْرِ، بَعْدَ إِصْلَاحِ النَّفْسِ.

وفيها: أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ.

وفيها: تَمْيِزُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ زَالَ عَنْهُ الْوَصْفُ الَّذِي فَضَّلَتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ - وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ -؛ خَرَجَ مِنَ الْخَيْرِيَّةِ.

وفيها: أَنَّهُ مَتَى قَامَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ قَامَ الْخَيْرُ وَاشْتَدَّ، وَإِذَا ضَعُفَ ضَعُفَ.

وفيها: أَنَّ مَنْ كَانَ أَشَدَّ سَعْيًا فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ كَانَ أَكْثَرَ فَضْلًا وَخَيْرًا.

وفيها: الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ خَيْرُ النَّاسِ، مَعَ الْعَدْلِ فِيهِمْ، وَالنَّشَاءُ عَلَى مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ.

وفيها: تَيْئِيسُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ إِضْلَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وفيها: تَثْبِيتُ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بِذِكْرِ فَضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ؛ لِيَزِدَادُوا طَاعَةً وَشُكْرًا لِلنُّعْمَةِ.

وفيها: الْإِشَادَةُ بِالْفَاضِلِ، وَإِبْرَازُ خَبْرِهِ؛ وَفَاءٌ بِحَقِّهِ، وَتَشْجِيعًا لِلْغَيْرِ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِ.

وفيها: أَنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَجْمَعُ بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُؤْتَى أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»^(١).

وفيها: دَعْوَةُ الْمَعَانِدِ، بِأَسْلُوبِ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّوْبِيخِ وَالنُّصْحِ؛ فَالشُّدَّةُ وَالتَّوْبِيخُ لِأَجْلِ عِنَادِهِ، وَالْإِغْرَاءُ وَالنُّصْحُ لِأَجْلِ تَرْغِيهِ فِي الْحَقِّ.

وفيها: عَدَمُ الْإِغْتِرَارِ بِالْأَكْثَرِيَّةِ، وَالْحُضُّ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ - وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ أَتْبَاعًا - . قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾: «ذَمَّ اللَّهُ أَكْثَرَ النَّاسِ»^(٢).

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠١١)، وَمُسْلِمٌ (١٥٤) - وَاللَّفْظُ لَهُ - .

(٢) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (١٠٨/٧)، تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٧٣٤/٣).

وفيها: دَمٌ مَنْ مَنَعَتْهُ الدُّنْيَا مِنَ الْإِيمَانِ وَاتَّبَعَ الْحَقُّ.

وفيها: أَنَّ الْخَيْرِيَّةَ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى الْأَسْبَقِيَّةِ فِي الزَّمَنِ؛ فَقَدْ يَفُوقُ الْمَتَأَخِّرُ بِهَا كِتَابَ اللَّهِ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ.

وفيها: أَنَّ خَيْرِيَّةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ نَعْمٌ جَمِيعَ طَبَقَاتِهَا وَقُرُونِهَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ، أَمْ آخِرُهُ»^(١).

وفيها: عِلْمُ اللَّهِ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تَسْتَحِقُّ التَّفْضِيلَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، بِقِيَامِهَا بِهَا أَمْرًا اللَّهُ بِهِ.

وفيها: عَدَمُ الْإِغْتِرَارِ بِالِاتِّسَابِ إِلَى الشَّيْءِ اسْمًا، أَوْ الْوُجُودِ فِيهِ زَمْنًا؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالِاخْتِصَاصِ بِالْأَوْصَافِ، وَالِاتِّزَامِ بِأَسْبَابِ التَّفْضِيلِ.

وفيها: أَنَّ الْخَيْرِيَّةَ الْمَذْكُورَةَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ تَزْدَادُ بِإِيمَانِ أَفْرَادِهَا وَعَمَلِهِمْ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَزْدَادُ فَضْلًا وَشَرَفًا بِانْضِمَامِ امْتِثَالِهِ إِلَيْهِ، وَأَنَّ الْاجْتِمَاعَ عَلَى الْخَيْرِ يُكْسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَجْرًا لَا يَكْسِبُهُ لَوْ انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ، وَلَوْ قَامَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ. فَأَجْرُ الْمُصَلِّينَ فِي جَمَاعَةٍ - مَثَلًا - يَزِيدُ عَنْ مَجْمُوعِ أَجْوَرِهِمْ مُنْفَرِدِينَ.

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْاجْتِمَاعِ وَالِاشْتِرَاكِ وَالتَّعَاوُنِ فِي إِقَامَةِ فَرِيضَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، خَاصَّةً إِذَا قَلَّ الْمَعْرُوفُ، وَكَثُرَ الْمُنْكَرُ.

وفيها: تَلَمُّسُ أَسْبَابِ الْفَضْلِ وَالْخَيْرِيَّةِ، وَالْعَمَلُ بِهَا.

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْبَدْءِ بِالْخَيْرِ، وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ؛ كَمَا تَدُلُّ صِيغَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ: (تُؤْمِنُونَ)، وَ(تَأْمُرُونَ)، وَ(تَنْهَوْنَ).

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدًا بَارئًا لَكُمْ لَا يَضُرُّونَ﴾^(١).

وَلَمَّا كَانَتْ مَخَالَفَةُ الْأَكْثَرِيَّةِ الْفَاسِقَةِ جَالِبَةً لِلضَّرَرِ؛ خَفَّفَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ أَي: هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَأَهْلُ الْكِتَابِ ﴿إِلَّا أَذًى﴾ بِالسِّتْهِمْ، كَالطَّنِّ

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٤).

في دين الإسلام، وإثارة الشُّبُهَات، وبالسَّباب والشَّتْم، والتخويف والإرهاب، وهذا كُلُّهُ يمكن للمسلمين أن يتحمَّلوه بالصَّبْر والتَّقْوَى.

لكن لن يستطيع هؤلاء الكُفَّارُ الوصولَ إلى ما يُريدون، من استِصالِ المسلمين والقضاءِ عليهم، أو إخراجهم عن دينهم، أو إلحاق الضررِ التامِّ بهم، ما داموا مُستَمْسِكِينَ بحَبْلِ اللَّهِ. ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ﴾ ويُقابِلوكم في مَيدانِ المعركة؛ ﴿تَوَلَّوْكُمْ أَلَدَبَارَ﴾ مُنْهَزِمِينَ، جاعِلِينَ ظهورَهم إليكم، ﴿ثُمَّ﴾ بعد توليهم وانْهزامهم ﴿لَا يُنْصَرُونَ﴾ عليكم أبدًا، ولا يجدون قوَّةً ولا منعةً تُمكنهم منكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بِشارة للنبي ﷺ وأصحابه، والمؤمنين من بعدهم، ومَن التحقَّ بهم مَن أسلمَ من أهل الكتاب، بأنَّ الكُفْرَ الفَسَقَةَ لن يستطيعوا استِصالُهم ولا القضاءَ عليهم، وإنَّما غايةُ ما يمكن أن يصلوا إليه هو (شيءٌ) من الإيذاء.

وفيها: أَنَّهُ لا يلزَم من الإيذاء وقوعُ ضررٍ؛ وهذا كما جاء في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(١)، مع قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ فَضْرُورِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(٢).

وفي الآية: أَنَّ وَعَدَ اللَّهِ لهذه الأمة بألَّا ينالها ضررٌ من أعدائها، مشروطٌ بقيامِ صفات الخيرِية فيها وتحقيقها، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، فإذا تخَلَّفت عن تحقيق الشرط؛ تسلَّطَ عليها الأعداء وأضرُّوا بها.

وفيها: أَنَّ المواجهة القتاليَّة إذا حصلت بين المسلمين الصادقين، وأعدائهم من أهل الكتاب؛ فلا بُدَّ أن يوليَّ الكُفَّارُ أدبارَهم مُنْهَزِمِينَ.

وفيها: نفْيُ وقوع الانتصار للكُفَّار، إذا صدَّقَ المؤمنون.

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفيها: أَنَّ الكُفْرَ من أسباب الخذلان والهزيمة.

وفيها: تبشِيرُ المسلمين بالنَّصْرِ والظَّفَر، وبثُّ الثقة في نفوسهم.

وفيها: انحطاط وخِسة مَنْ يُؤَلِّي دُبْرَهُ منهزِمًا عند القتال.

وفيها: تأييد الله للمؤمنين، وعدم تخليه عن أوليائه، عند مواجهتهم الكُفَّارَ.

وفيها: إعداد المؤمنين لمواجهة إيذاء الكُفَّار، اللُّسَانِي والنَّفْسِي.

وفيها: حَنَقُ الكُفَّارِ وَغَيْظُهُمْ من المسلمين؛ حيث لم يستطيعوا الإضرارَ ولا إيقاعَ النِّكَايةَ بهم، وغاية ما استطاعوا أن يظفروا به هو مجرد الإيذاء - بالهجو القبيح، والطعن في دين المسلمين، والخوض في أعراضهم، ونحو ذلك -.

وفيها: أَنَّ وَعْدَ الله باقٍ إلى قيام الساعة، ما دام المؤمنون على إيمانهم وخيرهم، والكُفَّار على فسقهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِعَصَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

ثم زاد الله تعالى في بشارة المؤمنين بهزيمة أعدائهم الكافرين من أهل الكتاب، وذكر سبب انهزامهم؛ فقال:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أي: جُعِلَتْ عليهم مطبوعةٌ مستمرةٌ ﴿الذَّلَّةُ﴾ وهو: الصَّغار والهوان، فلا تخرج هذه الذَّلَّةُ من قلوبهم - لأنَّ الله ألزَمَهُمْ إِيَّاهَا - ﴿أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ﴾: حيثما وجدوا في جميع البلاد ﴿إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ﴾ بِذِمَّةٍ وَعَهْدٍ مِنْهُ، وهو عَقْدُ الذِّمَّةِ لَهُمْ، وَضَرْبُ الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة. و(الْحَبْلُ): هو السَّبَب، سُمِّيَ بذلك؛ لأنه يُوصَلُ به إلى المقصود. وهو هنا: الأمن وزوال الخوف.

وقيل: المقصود بقوله تعالى ﴿يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ﴾: الإسلام، أي: أَنَّ هؤلاء الكُفَّارَ سَيَقُونُ أَذْلَاءً، إِلَّا أَنْ يُسَلِّمُوا، فَتَزُولَ عَنْهُمْ الذَّلَّةُ.

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: بعهد من المؤمنين وأمان، كما في المعاهد والأسير إذا أَمَّنه واحد من المسلمين، ودخولهم في عقد مع المسلمين يجمعهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿لَا يَحْبِلُ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: بعهد من الله، وعهد من الناس».

وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع ابن أنس^(١).

﴿وَبَاءُوا﴾ أي: استوجبوا واستحقوا، وانصرفوا ورجعوا ﴿يَغْضَبُ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولعنته وعقوبته، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الفقر والخضوع، فصار عليهم كالبيت الذي ضرب على أهله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما بَاءُوا ورجعوا به، من غَضَبِ الله والذَّلَّةِ والمسْكَنَةِ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: بسبب كونهم ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ويحذون هذه البيئات وينكرونها، ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ أي: عمداً وإجراماً، بلا سبب ارتكبه الأنبياء. وهذا مما يرجح أن المقصود بالآية: اليهود؛ فإنهم المعروفون عبر التاريخ بقتل الأنبياء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر والقتل ﴿بِمَاعَصُوا﴾ أي: بسبب تمردهم ومخالفتهم أمر الله ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: يتجاوزون حدود الله، ويغشون معاصيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن اليهود في أكثر الأوقات، وعلى مرَّ الأزمان - في عهد هذه الأمة المباركة - كانوا أذلاء صاغرين، فقراء مساكين، مُشرَّدين، ومغلوبين، وما حصل لهم في هذا الزمن المتأخر من قيام دولة مغتصبة، وجولة وصولة، وغنى وثروة، وهيمنة اقتصادية وعسكرية وإعلامية؛ إنما هو استثناء من الأصل، وما حصل إلا بسبب ما أصاب المسلمين من الضعف والبعد عن شرع الله.

وهذه القوة والغلبة - المؤقتة - مستمدة من حبل الناس، المذكور في الآية: ﴿لَا يَحْبِلُ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).

مَنْ اللَّهُ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ)؛ فبينهم وبين الناس حبلٌ، بواسطة المعاهدات والاتفاقيات التي قامت بين اليهود والصليبيين الذين نصرّوهم؛ فاستمدّ منهم اليهود أسباب القوة - من سلاح، ومالٍ، ومُسانداتٍ سياسية وإعلامية، وغيرها -.

ولأنَّ وَعْدَ اللَّهِ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، والله لا يُخْلِف الميعاد؛ فسيعود هؤلاء اليهود إلى الذَّلَّة والصَّغار، ولن يطول أمدُ دولتهم، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

هذا مع أنَّ الذَّلَّة لا تزال موجودةً في قلوبهم، ظاهرةً لمن تأملها، وبينهم وبين أنفسهم عداوات واختلافات، أخبارها بارزةٌ للعيان، ولا يزالون جُبْناء، يبنون الأسوار، ولا يعيشون إلا في المستوطنات المحصنة - ولو كانوا أقوى سلاحًا - ولو صارت مواجهة حقيقية لفرّوا؛ من دُهم وجُبْنهم وهوانهم عند أنفسهم.

وفيها: انتقام الله من اليهود؛ لاجترائهم عليه؛ فجعل الذَّلَّة في بواطنهم هوانًا، والمَسْكَنَة في ظواهرهم فقرًا، وكتب عليهم الهزيمة والتشريد.

وفيها: أنَّ عهد المسلمين متينٌ، فإذا أعطوه لأحدٍ صار في حماية وأمن.

وفيها: أنَّ المعصية والاعتداء سببٌ لعقوبات الله.

وفيها: ترغيبُ الكافر في الإسلام، بأنَّه إذا أسلم حُقِّن دمه، وصار له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم.

وفيها: إثبات صفة (الغضب) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

وفيها: عظيمُ مكانة الأنبياء عند ربِّ العالمين؛ حيث انتقم الله لهم من أعدائهم هذا الانتقام الطويل الأليم.

وفيها: جواز تعليل حُكم واحدٍ بعِلل متعددة؛ فالعقوبات التي ذُكرت متعددة؛ وهي: (الذَّلَّة)، و(الغضب)، و(المَسْكَنَة)، والسَّبب أو الحُكم واحد، وهو المعصية، لكن له أنواع وصور متعددة؛ منها: الاعتداء، والكفر، وقتل الأنبياء. ويجوز أن تكون العِلَّة واحدة، والأسباب أو الأحكام متعددة.

وفيها: أنَّ الاعتداء على الغير، قد يكون أشدَّ من المعصية التي تقتصر على النفس.

وفيها: أَنَّ ضَرْبَ الْحِزْبِ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، هُوَ لَوْنٌ مِنَ الدُّلَّةِ وَالْهَوَانِ، الَّذِي يُعَاقِبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَقَدْ يَدْفَعُهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ ابْتِغَاءَ الْحُصُولِ عَلَى الْعِزَّةِ، وَالتَّخْلُصِ مِنَ الْأَلَمِ النَّفْسِيِّ لِلذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ.

وفيها: أَنَّ الْيَهُودَ الْمُتَأَخِّرِينَ يَنَالُهُمْ نَصِيبٌ مِنْ عَقُوبَةِ آبَائِهِمْ الْمُتَقَدِّمِينَ، مَا دَامُوا رَاضِينَ بِأَفْعَالِهِمْ، مُتَّبِعِينَ لِسِيرَتِهِمْ، مُقَلِّدِينَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ.

وفيها: أَنَّهُ كُلَّمَا عَظُمَ الْجُرْمُ؛ عَظُمَتِ الْعَقُوبَةُ، وَأَنَّ قَتْلَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ لَيْسَ كَقَتْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَانْتِقَامُ اللَّهِ فِيهِ أَشَدُّ.

وفيها: سُؤْمُ الْمَعْصِيَةِ، وَأَنَّ أَثَرَهَا يَكُونُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

وفيها: أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ بَاءُوا بِنَصِيبٍ كَبِيرٍ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَقَدْ وَصَفَهُمْ فِي كِتَابِهِ بِـ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، كَمَا فِي سُورَةِ «الْفَاتِحَةِ»: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ (الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ) الْيَهُودُ، وَإِنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى»^(١).

وفيها: أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ يَنْصُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَبِلَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ تَحَالُفُ الْيَهُودِ مَعَ دُولِ الْكُفْرِ الْقَوِيَّةِ، وَمَا يَسْتَعِذُّونَهُ مِنْهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ، الَّتِي يَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَى الْعُدُوانِ عَلَى النَّاسِ.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

وَلَمَّا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عُمُومًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، أَثْنَى عَلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ فِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْدِّينِ، كَالْقَلَائِلِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ بَعْثَتِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

(١) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣).

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليس جميعُ أهل الكتاب مُستَوين؛ بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. هذا هو المشهور عند كثيرٍ من المفسرين.

واستدلُّوا بما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامَ، وَتَعَلَّيَ بِنِ سَعْيَةَ، وَأَسِيدُ بْنُ سَعْيَةَ، وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَهُمْ، فَأَمَنُوا وَصَدَّقُوا وَرَغَبُوا فِي الْإِسْلَامِ؛ فَقَالَتْ أَحْبَابُ يَهُودَ وَأَهْلُ الْكُفْرِ مِنْهُمْ: مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ وَتَبِعَهُ إِلَّا أَشْرَارُنَا، وَلَوْ كَانُوا مِنْ خِيَارِنَا مَا تَرَكُوا دِينَ آبَائِهِمْ وَذَهَبُوا إِلَى غَيْرِهِ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾»^(١).

أي: لا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُم بِالذِّمِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ - وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا؛ فَلَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ؛ بَلْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ الْمُجْرِمُونَ، وَلِذَا قَالَ بَعْدَهَا: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: منهم جماعة مستقيمة على الحقِّ، قائمة بأمر الله، مطبوعة لشريعته، آمَنت بالنبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بُعِثَ، وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ كَافِرَةٌ، مُصِرَّةٌ عَلَى الْكُفْرِ.

وقال بعضُ المفسرين - منهم ابن مسعود رضي الله عنه - في معنى المقارنة المذكورة في الآية: «لَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْقَائِمَةُ بِحَقِّ اللَّهِ - سَوَاءً عِنْدَ اللَّهِ»^(٢).

واستدلُّوا بما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: أَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ؛ فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ»، قَالَ: وَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية وما بعدها ثمانية صفات وأوصاف للأمة المؤمنة:

أولها: أَنَّهَا ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: ثابتة، مُستقيمة على أمر الله.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٧)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٣٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٢٢)، تفسير القرطبي (٤/ ١٧٥).

(٣) رواه أحمد (٣٧٦٠)، وحسنه محققو المسند.

وثانيها: ﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يقرأون القرآن، ويقومون به ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: في أوقاته وساعاته.

والصفة الثالثة: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يُصَلُّونَ، وهذا من باب تسمية الشيء ببعض أجزائه وأفضل ما فيه. وخصَّ (السُّجود) بالذكر؛ لفضله من بين أركان الصلاة، ولدلالته على كمال الخضوع والخشوع.

أو يكون المعنى: أنهم جمعوا بين التلاوة - حال القيام - والسجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]؛ فوفقهم الله لتلاوة أفضل الذكر، ووصفهم بأفضل الحالات.

والصفة الرابعة: قوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: بوجوده وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: سُمِّيَ بذلك؛ لأنه لا يوم بعده، وهو منتهى الخلائق، وهو يومٌ واحدٌ، لا ليل فيه ولا نهار، ولا شمس ولا قمر، فهو مستقرُّ العباد، وآخر ما يكونون فيه، إمَّا في الجنة وإمَّا في النار.

والصفة الخامسة: ﴿وَيَاْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ويُرشِدون غيرهم إلى ما ينبغي عليهم فعله ممَّا عرفه الشرع، فهم لما كملوا أنفسهم علمًا وعملاً؛ سعوا في تكميل غيرهم.

والصفة السادسة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ فيزجرون ويمنعون غيرهم من الوقوع فيما أنكره الشرع، بعد أن كفوا أنفسهم ومنعوها من معصية الله.

والصفة السابعة: ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يُبادرون فيها ويعملون، غير متأقلين، وهذا من رغبتهم في الحسنات، وحُبِّهم لما يُرضي الله عنهم. و(الخيرات): كلُّ ما يحبه الله من الأقوال والأفعال.

ولفظ (المسارعة) في الآية أبلغ من (العجلة)؛ لأنَّ (المسارعة) هي: التقدُّم فيما ينبغي تقديمه، وضدُّها الإبطاء، أمَّا (العجلة) فهي: التقدُّم فيما لا ينبغي التقدُّم فيه، وضدُّها التأني، فالمسارعة محمودَةٌ، والعجلة مذمومة.

وقوله ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أبلغ من (ويسارعون إلى الخيرات)؛ لأنَّ استعمال

حرف الجرّ (في) يُفيد المسارعة إليها وإتمامها - وكأنّ (الخيرات) طريقٌ يُسارعون في قطعه - والسَّعي إلى غيرها من الخيرات أيضًا أثناء القيام بها، لا أن يُسارعَ إليها ثم إذا وصلَ توقّف؛ فهم ينتقلون من طاعة إلى طاعة، فيُسارعون إلى الطاعة، وهم متلبّسون بطاعة أخرى.

والصفة الثامنة: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الذين صَلَحَتْ أحوالهم، وحُسُنَتْ أَعْمَالهم، وقاموا بحق الله، وحقّ عباده.

ثم ذكر الله تعالى جزاءهم وثوابهم؛ فقال: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ إيمانًا وطاعة. و(الخير): كلُّ ما يقرب إلى الله ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يُجرّموا ثوابه، ولن يُمنعوا جزاءه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفَكِينَ﴾؛ فيُجازيهم على تقواهم، ويُثيبهم بحسب ما يَعْلَم من أحوالهم وسرائرهم.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

العَدْل والإنصاف مع أهل الكتاب، والثناء على أهل الخير منهم.

وفيها: الإشادة بمن يقوم بطاعة الله؛ ترغيبًا في الاقتداء به.

وفيها: أن تلاوة الآيات تذكّر باليوم الآخر، وتُثَبِّت الإيمان به، ولذلك جاء ذكر (الإيمان) بعد ذكر (التلاوة).

وفيها: فَضْلُ المسارعة في أنواع الطاعات، والتسابق إليها، والشروع فيها وإكمالها، والانتقال إلى غيرها؛ فمن طاعة إلى طاعة، فيُسارع إلى طاعة وهو متلبّس بطاعة أخرى.

وفيها: فَضْلُ الصَّلاح، وهو يدور على العِلْم والعمل، وخصّه: الجهل والكُفر والتمرد. وأصل الصَّلاح فِطْرِيٌّ، ولكنه يُكتسب أيضًا.

وفيها: أن من أسباب الصَّلاح: تلاوة آيات الله، وكثرة الصَّلَاة، والإيمان بالله واليوم الآخر، والقيام بفريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وفيها: ثبوت الثواب على عمل الخير - قليلًا كان أو كثيرًا -؛ لقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾.

وفيها: أن عقْد المقارنة بين الحَسَن والقبيح، يزيد بيانَ هذا وهذا؛ فبُضِّدَها تبيينُ الأشياء.

وفيها: ذِكرُ خبرِ الصالحين من قبلنا؛ للاقتداء بهم، وقيامِ رابطة المحبة الإيمانية بين الإخوة في الله من جميع الأمم.

وفيها: أنَّ للإيمان ثمرات وأعمالاً صالحة، تدلُّ على وجوده وقوته.

وفيها: أنَّ الصلاح منه ما يقوم بالقلب، ومنه ما يقوم بالبدن.

وفيها: أنَّ الصالحين لا يتشاقلون ولا يتباطؤون في عمل الخير.

وفيها: الارتباط بين الإيمان باليوم الآخر، وحصول الثواب والجزاء في ذلك اليوم.

وفيها: أنَّ ذِكرَ أحدِ طَرَفَيِ المقارنة يُغني عن ذِكرِ الآخر، وهذا على أحدِ الأقوال في تفسير قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

وفيها: انتهازُ الفرصة لعمل الخير، والقيامُ به في أولِ وقته.

وفيها: الشَّناء على أصحابِ الهَمَمِ العالية في عمل الخير؛ ليكونوا قُدوةً ومِثالاً لغيرهم.

وفيها: تحفيز نفوس المؤمنين إلى العمل، بذكر سير أسلافهم؛ كي يتشبهوا بهم، ويسيروا على منوالهم.

وفيها: أنَّ معرفة فوائد الشيء وحسن عوائده؛ يدفع إلى فعله.

وفيها: أنَّ الله تعالى شكورٌ، لا يكفر أعمالَ الصالحين، ويسرُّها؛ بل يُظهرها يومَ الدين، ويجزيهم بها الجزاء الأوفى.

وفيها: أنَّ ثواب الأعمال لا يتوقف على الظاهر؛ وإنَّما لا بُدَّ من أساسٍ من التَّقوى يقوم عليه، وحيث إنَّ أصلَ التَّقوى باطنٌ لا يعلمه إلَّا الله؛ قال في الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

وفيها: بركة الاشتراك في الطاعة.

وفيها: التنافس في الخيرات مع الصالحين، والاشتراك في ذلك بين المؤمنين؛ كما تدلُّ عليه لفظة ﴿وَيُسْرِعُونَ﴾، التي تفيد وقوع الاشتراك في الفعل بين جماعة.

وفيها: أنَّه لا يكفي أن يكون الإنسان صالحاً في نفسه، بل لا بُدَّ أن يسعى في إصلاح

غيره؛ لأنَّ الصالحين الذين أثنى الله عليهم في الآية يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا معناه: أنَّ خيرهم يتعدى إلى غيرهم، ولا يقتصر على أنفسهم.

وفيها: فضيلة الكتابي إذا أسلم وحسن إسلامه، وقد قال النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»^(١).

وفيها: أن المسارعة في الخيرات أشد مرضاة للرب، وأكثر أجراً في ميزان العبد.

وفيها: تحفيز الغير إلى فعل الخير.

وفيها: القيام بالعمل قبل حضور الأجل، ونزول ما يقطعه - من مرض أو شغل -.

وفيها: إشغال النفس بالطاعة عن المعاصي.

وفيها: حسن الثواب في البرزخ؛ فإن العمل الصالح - كما في الحديث - يأتي العبد في قبره، في صورة رجل حسن الوجه، طيب الرائحة، حسن الثياب، ويقول: «أُبَشِّرُ بِكَرَامَةٍ مِنْ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ»، فيقول: وَأَنْتَ، فبَشِّرْكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ؛ مَنْ أَنْتَ؟ فيقول: «أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتُ - وَاللَّهِ - سَرِيحًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا»^(٢).

وفيها: الجمع بين حسن القول وحسن الفعل؛ لهما ورد في صفة الصالحين من الجمع بين التلاوة والسجود.

وفيها: الحث على إخفاء العمل، وأنه من شواهد الإخلاص؛ كما في قوله: ﴿إِنَّمَا أَتَى اللَّيْلُ﴾؛ فهم يستترون بظلمة الليل عن عيون الخلق.

وفيها: أن أعمال الصالحين تنوع وتتعدد، ضاربين في كل وادٍ من الخير بسهم ونصيب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣).

ولما ذكر الله تعالى حال مؤمني أهل الكتاب وجزاءهم؛ عقب بذكر حال الكفار وعاقبتهم؛ فقال:

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) - واللفظ له -.

(٢) رواه أحمد (١٨٦١٤)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا يشمل كلَّ كافرٍ، كتابيٍّ وغيرِ كتابيٍّ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تدفع عنهم ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ مهما كثرت. وقد جرت عادة الناس أن يفتدوا بالأموال أنفسهم في مواطن الحرج.

﴿وَلَا أَوْلَدُهُمْ﴾ من الذكور والإناث. وخصَّهم بالذكر؛ لأنَّهم أشدُّ الناس قرابةً، وقد جرت العادة أنَّهم أشدُّ الناس دفاعاً عن آبائهم وأُمَّهاتهم.

﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: من عذابه وبطشه. وهذا الرَّدُّ والبيان لنفي ما زعموه فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

ثم أكَّد الله تعالى وقوع العذاب عليهم؛ فقال: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: مُلَازِموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: دائمون وما كثون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله إذا أراد بقوم سوءاً؛ فلا مردَّ له.

وفيها: أنَّ الكفار لا يتفَعَّون بشيء من أموالهم وأولادهم يومَ القيامة، وكما أنَّها لا تُردُّ عنهم عذاب الله؛ فهي لا تقربهم إليه؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ [سبا: ٣٧].

وفيها: عدم الاغترار بقوة وغنى الكفار، مهما بلغت.

وفيها: تمام قُدرة الله على عباده.

وفيها: التحذير من الاغترار بالنعم، ومن الظنِّ بأنَّ متاع الدُّنيا ينفع ويقرِّب في الآخرة من الله.

وفيها: أنَّ من أنواع العذاب في الآخرة: أن يزول عن الكافر فائدة كلِّ ما كان متفِعّاً به في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ متاع الدُّنيا قد يكون سبباً للعذاب ودخول النار.

وفيها: خلود الكفار في النار، وتبيسُهم من أن يجدوا شيئاً يدفع عنهم العذاب يومَ القيامة.

وفيها - مع ما قبلها -: الجَمْع بين الوَعْد والوَعِيد، والترغيب والترهيب، بذكر ما أعدَّ الله للمؤمنين، وما أعدَّ للكافرين.

وفيها: تسخير الأموال والأولاد في طاعة الله؛ لتكون سبباً للنَّجاة يوم القيامة.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧):

ولمَّا كان الكفار يُنْفِقون أموالهم ليُصُدُّوا عن سبيل الله، وبعضهم يُنْفِق ماله في بعض وجوه الخير؛ ضرب الله تعالى مثلاً لمصير هذه النِّفقات بقوله:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ من الأموال والجهود والأوقات ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في وجوه الخير والصَّدقات، ككفالة الأيتام والأرامل، والقيام على أمور العَجْزة والمُسِنَّين، وعلاج الأمراض والأوبئة، والإحسان إلى الحيوانات، ونحو ذلك.

أو ما يُنْفِقونه في الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى، في مُحاربة الإسلام والمسلمين، كالحملات الصَّليبيَّة - قديماً وحديثاً - وفي حملاتهم العسكريَّة والإعلاميَّة، ومُساندة لأعدائهم من المنافقين الطاعنين في ظهور المسلمين، ونحو ذلك، وبعضهم يفعل ذلك تقرباً وتعبداً بحَسَب معتقداتهم.

فلإنَّ إنفاقهم في كلِّ هذه الأمور، مثله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ شديدة عاتية ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بردٌ شديدٌ وجليدٌ، أو: فيها نارٌ مُحرِّقة، أو: لها صريرٌ وصوتٌ مُزعجٌ مخيفٌ، من شدَّتها ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: زُرَّوعهم وبساتينهم وثمارهم ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأنواع المعاصي ومنع حقِّ الله ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾: أحرقتَه ودَمَرَتَه وأفسدته، وأعدمت زُرَّوعه وثماره، مع عِظَم حاجة أصحابه إليه.

فهذا مَثَلُ خيبة الكفار في الدُّنيا، عندما يُنْفِقون أموالهم للصَّدِّ عن سبيل الله، ثم ينتشر الإسلام ويعلُّو، ويَتَمُّ نورُ الله رِعْماً عنهم، وتفشل مُحْطَّطاتهم، وتذهب جهودهم أدراج الرياح.

وفي الآخرة تزداد الحُسرة والخيبة، إذا وجدوا أنَّ ثواب أعمالهم الخيريَّة - من الإطعام

والإيواء والعلاج ونحوها - قد ذهبَت هَبَاءٌ مَثُورًا، وليس لهم عليها حَسَنَةٌ واحدة؛ لأنَّ الله محقُّ ثوابِ أعمالهم الخيرية، بسببِ كُفْرِهِمْ وشُرِكِهِمْ؛ لأنَّهم لم يَبْنُواها على أصلٍ صحيحٍ وأساسٍ سليمٍ، وهو الإيمان بالله وتوحيده.

وقد سُئِلَ النبي ﷺ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ، وقد كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمُسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»^(١)؛ فتكذيبُ هذا الكافر بيوم الدِّين وشِرْكُهُ بالله؛ منعه من الانتفاع بعمله يوم القيامة.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ حين أذهبَ ثَمَرَةَ أعمالهم، ولم يَنْخَسْهُمْ وَيُقْصِمْهُمْ حَقَّهُمْ؛ ﴿وَلَكِنَّ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشُّرك والكُفر، والدُّنُوب والمعاصي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال التشبيه البليغ في بيان المعنى، وإيضاحه للأذهان.

وفيها: بلاغة القرآن العظيمة، بإيراد التشبيه التمثيلي أو المركَّب؛ حيث شَبَّهَ إِنْفَاقَ الْكُفَّارِ بِالزَّرْعِ الَّذِي أَصَابَتْهُ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الْبَارِدَةُ، فَدَمَّرَتْهُ وَجَعَلَتْهُ حُطَامًا؛ لبيان عدم انتفاع الكفار بِثَمَرَةِ أعمالهم.

وفيها: عِبْرَةٌ لِلْمُرَائِي، وَعِظَةٌ لِمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا؛ فَمَا يَتِمُّ إِنْفَاقُهُ فِي الْمَفَاخِرِ وَالْمَكَارِمِ وَكَسْبِ الثَّنَاءِ، يَذْهَبُ هَبَاءً مَثُورًا؛ لِأَنَّهُ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ وَإِرَادَةَ وَجْهِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ الْكُفْرَ مُحِيطٌ لِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَأَنَّ زَمْهَرِيرَ الشُّرْكِ وَنَارَ الْكُفْرِ مُهْلِكَةٌ وَمُحْرِقَةٌ لثَمَرَاتِ النِّفَاقَاتِ وَالصَّدَقَاتِ.

وفيها: خَبِيَّةُ الْكَافِرِ عِنْدَمَا تَذْهَبُ حَسَنَاتُهُ، أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا.

وفيها: أَنَّ الْجَوَائِحِ قَدْ تَنْزِلُ بِأَمْوَالِ النَّاسِ، وَتُهْلِكُ حَرْثَهُمْ وَنَسْلَهُمْ؛ عِقُوبَةٌ عَلَى ظُلْمِ أَنْفُسِهِمْ، بِمَا يَقْتَرِفُونَهُ مِنَ الدُّنُوبِ.

وفيها: انتصارُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخِزيٌّ لأعدائه، حيث ذهبت نفقاتُهم في عداوته هباءً منثورًا، كنفقاتِ مُشركي مكة واليهود والمنافقين، في التآمر وسُنِّ الحَرْبِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ثم كان للمسلمين النصرُ والتمكين والسيادة عليهم.

وفيها: أنَّ ما بُنيَ على فاسِدٍ وباطلٍ؛ فهو فاسِد.

وفيها: حفظُ الله لحسناتِ أهل التوحيد وأجورِ أعمالهم.

وفيها: تسييحُ الله وتنزيهُه، ونفيُ النقائق عنه.

وفيها: أنَّ مَنْ بذل الأسبابَ الشرعيَّة؛ جاءته النتائج على ما يُحِبُّ، وَمَنْ خالف ذلك خابَ أمله.

وفيها: مُعاقبة النفوس بظُلُومها، بأنواع المعاصي ومنعِ حق الله.

وفيها: أنَّ انتفاعَ الكفار بأعمالهم الخيريَّة في الدنيا، لا يمنع عنهم عذابَ الله يومَ القيامة.

وفيها: الفرقُ بينَ المؤمن والكافر في مصائب الدنيا؛ فإنَّ المؤمن يصبر فيؤجر، والكافر لا يرجو عند الله شيئًا؛ بل يكون ما أصابه عقوبةً، بخلاف ما يُصيب المؤمن؛ فهو له تطهيرٌ وكفارة.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: بيان أنَّ للعبد الحرية والاختيار في عمله، وعليه تكون المُجازاة يومَ الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

ثم حذَّر الله تعالى عباده المؤمنين من شرِّ الكفار والمنافقين، ونهاهم عن ائتمامهم وإقامة الأحلاف معهم؛ فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: النداء بالإيمان للدلالة على أهميَّة الخطاب، ولإغراء المؤمنين بالامتثال ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ وتجعلوا لأنفسكم ﴿بِطَانَةً﴾ أي: خواصًا وأصفياء، يستبطنون

أُمُورَكُمْ، وَتُظْلِعُونَهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَسْتَشِيرُونَهُمْ فِي خَاصَّةِ شُؤُونِكُمْ. وَ(الْبِطَانَةُ): مَأْخُودَةٌ مِنْ «بِطَانَةِ» الثَّوْبِ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى الْبَدَنِ مِنْ ظَاهِرِهِ.

﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أَي: مِنْ غَيْرِكُمْ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُوَاصِلُونَ رِجَالًا مِنَ الْيَهُودِ؛ لِإِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْجَوَارِ وَالْحِلْفِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ -يَنْهَاهُمْ عَنْ مُبَاطَلَتِهِمْ تَخَوُّفَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾، إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ ^(١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَوَلَّوْهُمْ» ^(٢).

ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْبِطَانَةَ الْخَبِيثَةَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:

الْأُولَى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ خَبَالًا﴾ أَي: لَا يَقْصُرُونَ، بَلْ يَجْتَهِدُونَ فِي مَضَرَّتِكُمْ وَعَدَاوَتِكُمْ وَإِفْسَادِ أُمُورِكُمْ، وَهَذَا شَأْنُهُمْ وَدَيْدَنُهُمْ. وَ(الْأَلُو): التَّقْصِيرُ، يُقَالُ: «لَا أَلُو جُهْدًا» يَعْنِي: لَا أَقْصُرُ بِحَسَبِ الْجُهْدِ. وَ(الْخَبَالُ): هُوَ الْفُسَادُ فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ.

وَالصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أَي: أَحْبَبُوا وَتَمَنَّوْا الْمَشَقَّةَ عَلَيْكُمْ، وَالْإِضْرَارَ بِكُمْ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿قَدْ بَدَتْ﴾: ظَهَرَتْ ﴿الْبَغْضَاءُ﴾ الْعَدَاوَةُ لَكُمْ ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وَالسِّنِّتِهِمْ، بِالْوَقِيعَةِ فِيكُمْ، وَشَتْمِكُمْ، وَتَكْذِيبِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْتِقَاصِ دِينِكُمْ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْبَغْضَاءُ أَيْضًا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُنَافِقِينَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، يُخَيِّرُونَهُمْ بَعْضَهُمُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَبَعْضُهُمُ الْمُسْلِمِينَ.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ أَي: مَا تُشْتَمِلُ عَلَيْهِ وَتُضْمِرُهُ مِنَ الْحِقْدِ وَالْغَيْظِ ﴿أَكْبَرُ﴾: أَعْظَمُ وَأَشَدُّ مِمَّا يَظْهَرُ عَلَى اللِّسَانِ.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٨)، تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

ثم بيّن الله تعالى أنّه قد امتنّ على عباده المؤمنين، بأن أنزل عليهم في كتابه التحذير الواضح من هؤلاء؛ فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: أظهرنا لكم العلامات الدالة على عداوتهم وحسدكم، وحكم موالاتهم، وعرفناكم الحق والصواب في هذه الأمور.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أي: لن يظهر هذا البيان إلا لأصحاب العقول وذوي الألباب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن اجتناب اتّخاذ الكفار بطانة هو من مقتضيات الإيمان، والإخلال به نقص في الإيمان. وفيها: أن بطانة الخير إذا قيّمت لشخص؛ فإنّها من توفيق الله له، وبطانة الشر إذا قيّمت لشخص فهو من مكر الله به. وقد تجتمع على الشخص بطانتان من الأخيار والأشرار؛ ففي الحديث: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ؛ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْبِرِّ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى»^(١). وفيها: أنّه لا يجوز اتّيان الكافر على أسرار المسلمين ومصالحهم العامة مهما كان فيه من الميزات الشخصية والمؤهلات الدنيوية.

وقد قيل لعمر رضي الله عنه: إن هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة، لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين^(٢).

وقد أنكر عمر على أبي موسى رضي الله عنه اتّخاذ رجلاً نصرانياً كاتباً - رغم إتقانه الكتابة - وقال له: «لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللَّهُ، وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

ولذا قال ابن القيم رحمه الله: «ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان؛ لشأنهم ذلك عن تقريبهم وتقليدكم الأعمال»^(٤).

(١) رواه البخاري (٧١٩٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٧٩/٤).

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (١٢٧/١٠).

(٤) أحكام أهل الدمة (٤٩٩/١).

وفيها: أَنَّ التَّغَايُرَ فِي الدِّينِ يَدْفَعُ إِلَى الْعَدَاوَةِ.

وفيها: أَنَّ اتِّخَاذَ الْبِطَانَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ مُحَالِفٌ لِلْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ.

وفيها: أَنَّ عَدَاوَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْبَاطِنِ، أَشَدُّ مِنَ الظَّاهِرِ، وَلَوْ تَمَكَّنُوا مِنْهُمْ لِأَظْهَرُوا أَضْعَافَ مَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الْعَدَاوَةِ، كَمَا شَهِدَ بِذَلِكَ التَّارِيخُ:

فَقَدْ قَامَ الْيَهُودُ بِظُلْمِ الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا تَوَلَّتْ الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ الْبَاطِنِيَّةَ الْحَاقِدَةَ، وَصَارَ الْعِزُّ فِيهَا لِلْيَهُودِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ!

وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْكُفَرَةُ يَحْرِضُونَ إِخْوَانَهُمِ وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى غَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا فَعَلَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ فِي تَحْرِيطِ قُرَيْشٍ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ خِيَانَةُ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ سَنَةَ ٦٥٦ هـ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَمْكِينِ التَّتَارِ مِنْ دِمَارِ بَغْدَادِ وَالْمَشْرِقِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْعَرَبِيِّ، فَسَقَطَتِ الْخِلَافَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ، وَقُتِلَ أَكْثَرُ مِنْ ثَمَانِ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِمَا فِيهِمُ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَعْصِمُ بِاللَّهِ وَأَرْكَانُ دَوْلَتِهِ^(١)!

وَعِنْدَمَا غَزَا التَّتَارُ دِمَشْقَ سَنَةِ ٦٥٨ هـ؛ اسْتَطَالَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِيهَا، وَاسْتَخَرَجُوا مِنْ هَوْلَاكِهِمْ قَانُونًا بِإِظْهَارِ دِينِهِمْ، فَشَرَبُوا الْخَمْرَ عَلَنًا فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، وَكَانَ يُرْشُونَهَا عَلَى ثِيَابِ الْمُسْلِمِينَ فِي الطَّرِيقَاتِ، وَصَبُّوْهَا عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ! وَأَلْزَمُوا الْمُسْلِمِينَ بِالْقِيَامِ لَهُمْ إِذَا مَرُّوا بِصَلِيِّهِمْ فِي الشُّوَارِعِ! وَكَانُوا يَقُولُونَ جَهْرًا: «ظَهَرَ الدِّينُ الصَّحِيحُ، دِينُ الْمَسِيحِ»^(٢)! وَكَانَ النَّصَارَى فِي بِلَادِ الشَّامِ يَدُلُّونَ إِخْوَانَهُمُ الْغُزَاةَ فِي الْحَمَلَاتِ الصَّلَيبِيَّةِ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَدْخُلُوا مِنْ خِلَالِهَا، وَعَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ لِيَنْهَبُوهَا، وَشَارَكُوا فِي الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالْإِحْرَاقِ!

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ يُغَايِرَكَ فِي الدُّنْيَا، أَسْهَلُ مِمَّنْ يُغَايِرَكَ فِي الدِّينِ.

(١) انظر: البداية والنهاية (١٧/٣٥٦).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤٨/٥٩)، البداية والنهاية (١٧/٣٩٨)، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (١/٥١٢).

وفيها: أَنَّ الكُفَّارَ يَتَمَنُّونَ لِلْمُسْلِمِينَ التَّعَبَ وَالْإِرْهَاقَ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى إِنْهَاقِهِمْ - فِكْرِيًّا وَبَدْنِيًّا وَمَالِيًّا - .

وفيها: أَنَّ الكُفَّارَ يَحْرِصُونَ عَلَى كَثْمِ بُغْضِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ، إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَكْشِفُ حَالَهُمَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ .

وفي الآية: عِناية الله بعبادته المؤمنين، حيث حذَّره مِمَّا قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِمْ .

وفيها: أَنَّ أعداءنا يعملون على إلحاق الضرر بديننا ودُّنيانا، ويُريدون تدمير عقيدتنا، كما يسعون لتدمير قوتنا الاقتصاديَّة والعسكريَّة والبشريَّة، ويعملون على بثِّ الهزيمة النفسيَّة في نفوسنا، بما يُشيعونه فينا من أجواء الإحباط واليأس والاستسلام؛ ليُصاب المسلمون بالكآبة والحزن .

وفيها: أَنَّ آيات الكتاب العزيز تُعين على التفريق بين النافع والضارِّ، والوليِّ الحميم والعدوِّ المبين .

وفيها: أَنَّ استشارة الكُفَّارِ في أمور المسلمين العامَّة، وإطْلَاعَهُمْ عَلَى الأسرار، أخطر بكثير من استشارتهم في الأمور الشخصيَّة والفردِيَّة، كاستشارة الطبيب الكافر في العلاج والدواء، واستشارة الخبير الاستشاريِّ الكافر في التجارة والصناعة والزراعة والبناء، ونحوها من الخدَمات الاستشاريَّة التي تقدِّمها بعض الشَّرِكَات والخبراء لأفراد المسلمين ومؤسَّساتهم الشخصيَّة .

وفيها: التعاون بين المنافقين والكُفَّار، واجتماعهم على حَرْبِ المسلمين والإضرارِ بهم .

وفيها: أَنَّ التَّأَكُّدَ مِنْ خُلُوءِ بَعْضِ الكُفَّارِ مِنْ هَذِهِ الصُّفَاتِ أَمْرٌ صَعْبٌ جَدًّا؛ لوجود بعضها في الباطن، وهو ما لا يطلَّع عليه إِلَّا اللهُ؛ وَلِذَا فَالاستعانة بأهل الذِّمَّةِ وغيرهم من الكُفَّارِ يَنْبَغِي أَنْ تَقَيَّدَ بِالْقِيُودِ وَالْحَذَرِ .

فمن شروط جواز الاستعانة: أَلَّا يَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا تَوَلِّيُّ الْكَافِرِينَ فِي وِلَايَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُجْعَلُ الْكَافِرُ رَئِيسًا أَوْ مَدِيرًا عَلَى مُسْلِمِينَ تَحْتَهُ .

وأن يكون حسن الرأي في المسلمين، كبعض من خالطنا من الكفار أو درس ديننا وتبين له من محاسنه ما غَيَّرَ رأيه في هذه الشريعة.

وكذلك ألا يستعان بهم إلا عند الحاجة إليهم، وقد استأجر النبي ﷺ في الهجرة دليلاً مشركاً خبيراً بالطرق، ولكنه كان مأموناً.

وفيها: أن بُغِضَ الكافرين لنا بلغَ مبلغاً عظيماً، كما يظهر في التعبير بـ ﴿أَفْوَهِهُمْ﴾ بدلاً من «أَلْسِنَتَهُمْ»، والتعبير بـ ﴿صُدُّوهُمْ﴾ بدلاً من «قُلُوبُهُمْ»؛ وذلك لبيان امتلائهم بُغْضاً وَغَيْظاً على المسلمين.

وفيها: الحرص على تولية الأمور واتخاذ المستشارين، من الأتقياء المُخْلِصِينَ، الخُبراء، الأُمَناء، الثَّقَات.

وفيها: أنه لا يجوز أن تدفع المصالح الشخصية المسلم إلى فعل ما يضرُّ بإخوانه المسلمين؛ لأنَّ الله نهي المسلمين في المدينة عن اتِّخاذ اليهود والمنافقين أولياء، تحت تأثير القرابة والصداقة والحلف والجوار والرِّضاع -الذي حصل بينهم في السابق-.

وفيها: الحرص على مصلحة المسلمين، وتسهيل أمورهم، وإزالة ما يشقُّ عليهم، وابتغاء الخير لهم، وتقديم النصيحة الخالصة المفيدة لتحسين أحوالهم، ودفع الضرر عنهم.

وفيها: سُفُولُ منزلة الكفار وانحطاطها؛ لقوله تعالى في الآية: ﴿مَنْ دُونَكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ العداوة الدِّينِيَّة تدفع إلى الاجتهاد في الإضرار بالخصم، وعدم التقصير في ذلك بكلِّ سبيل.

وفيها: أنَّ التحذير من الشيء ينبغي أن يقرَّن بالعلَّة؛ حتى يكتَمِل الاقتناع.

وفيها: أنَّ كلَّ بطانة مُفسِدة لها نصيبٌ من الدَّمِّ الوارد في هذه الآية، بحسب درجة الإفساد.

وفيها: أنَّ صاحب النِّيَّة الحسنة الصافية، ينبغي ألا يغفل عن عداوة الأعداء وكيد الكائدين.

وفيها: دليل على عدم قبول شهادة أصحاب العداوة على بعضهم البعض، فإذا تبين للقاضي وجود عداوة بين الشاهد والمشهد عليه؛ وجب عليه أن يمتنع عن قبول شهادته.

وفيها: أن اطلاع صاحب العداوة على الأسرار، يُفضي إلى ضرر بالغ.

وفيها: أن استشارة الكفار والأخذ بآرائهم، دون تمحيص؛ فيه ضرر بالغ على المجتمع المسلم، وإن أخلص بعضهم فيها؛ فإن مقصوده - في الغالب - هو كسب الثقة لأجل الربح وتحصيل المال، وقد يُخلص بعضهم في الدراسة المبدئية والمشورة الأولية، ليحصل على ما بعدها من العقود الكبيرة والمصالح المربحة، فإذا تمكّن غشّ وخدع، وألحق الضرر البالغ بالمسلمين. ولا يقلب هذا الميزان النواذر من الكفار، الذين يُخلصون في النصيحة حقيقة دون مقابل؛ فالشاذ لا حكم له.

﴿هَآأَنَآمُ أَؤُلَآءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١١﴾﴾:

ثم استمرّ تحذير رب العالمين عزّ وجلّ عباده المؤمنين، من اليهود والمنافقين؛ فنهى عن محبتهم - بعد أن نهى عن اتّخاذهم بطانة -؛ فقال تعالى:

﴿هَآأَنَآمُ أَؤُلَآءَ﴾ - يا معشر المؤمنين - ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾، وكان ذلك في أول الأمر قبل انكشاف الحقائق، وظهور خيانات اليهود والمنافقين، وكانت المحبة مبنية على حسن الظن؛ لما كان يُظهره المنافقون من الإسلام، واليهود من المهادنة، وكان ذلك أيضًا لأسباب القرابة والمصاهرة والخلف والمشاركات ونحوها.

وقيل: (المحبة) هنا بمعنى: الرحمة لهم؛ لما يفعلون من المعاصي التي يُقابلها العذاب الشديد.

وقيل: إن (المحبة) هنا بمعنى: إرادة الإسلام لهم، وهم يُريدون المسلمين على الكفر.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي: لا باطنًا ولا ظاهرًا، بسبب اختلاف الدين، واستقرار الكفر في بواطنهم، والحسد.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: مع أنكم - يا معشر المؤمنين، تؤمنون بكتبهم وكتبكم، ونبئهم ونبئكم، بينما هم يكفرون بكتبكم ونبئكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾، واجتمع معكم هؤلاء اليهود والمنافقون في المجالس؛ ﴿قَالُوا﴾ ﴿نِفَاقًا وَمُدَاهَنَةً﴾ ﴿ءَامِنًا﴾ بما أنزل الله من القرآن، وبما بعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم!

﴿وَإِذَا اخْلَوا﴾ أي: انفرد بعضهم ببعض، ورجعوا إلى حيث لا يراهم المؤمنون؛ ﴿عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: أظهروا شدة العداوة، حتى بلغ الأمر أن عصوا أطراف أصابعهم من شدة الغيظ عليكم؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ ائْتِلَافِكُمْ، واجتماع كلمتكم، ونصر الله لكم.

﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وكل مؤمن. والانتقال من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد؛ للتفتن في الخطاب، واستجلاب الانتباه.

فقولوا لهم جميعًا: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، وهذا دعاء عليهم بالموت في حال الغيظ والحق، قبل بلوغ ما يتمنونه، ورُبَّمَا يَمُوتُونَ غَمًّا مِنْ اِزْدِيَادِ الْخَيْرِ والنصر للمسلمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما في القلب من خير أو شر، وما انطوى عليه من الأمور المضمرة والخواطر، والله يجازي على ما في القلب من الاعتقاد، وما يقوم بالقلب من الأعمال، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

و(ذات الصدور): صاحبة الصدور، وهي: النوايا والخواطر والأحوال القائمة بالقلب، من الدواعي والصوارف الموجودة فيه. سُمِّيَتْ بذلك؛ لملازمتها القلب وعدم انفكاكها عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفي هذه الآية من الفوائد:

عناية الله بالمؤمنين في كشف ما خفي عنهم من كيد عدوهم، سواء في مجالس الأعداء الخاصة، أو في نفوس الأعداء وقلوبهم.

وفيها: شفقة المؤمن، ومحبة الخير لأعدائه - مع كرههم له -.

قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «فَوَاللَّهِ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُحِبُّ الْمُنَافِقَ، وَيَأْوِي إِلَيْهِ وَيَرْحَمُهُ، وَلَوْ أَنَّ الْمُنَافِقَ يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ مِنْهُ؛ لَأَبَادَ خَضِرَاءَهُ»^(١).

والمراد بكلامه: محبة الهداية والخير للمنافق.

وفيها: أَنَّ خَوْفَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْمَصَانَعَةِ وَمَجَامَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَلَّا يَغْتَرَّ بِمَا يُظْهِرُهُ الْأَعْدَاءُ مِنَ الْمَوَافَقَةِ وَالْمَدَاهَنَةِ؛ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَذِرًا قَاطِنًا.

وفيها: أَنَّ الْعَدَاوَةَ الدِّينِيَّةَ لَا تَحْمِلُ الْمُؤْمِنَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ، وَأَنَّ مُقَابَلَةَ إِيْذَاءِ الْأَعْدَاءِ لَا تَكُونُ بِجَحْدٍ مَا أُوتِيَ أَجْدَادُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ. وَلِذَا، فَمَنْ أَرَاكَ الْإِيمَانَ: الْإِيمَانَ بِكُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ جَمِيعًا.

وفيها: أَنَّ بُغْضَ الْمُسْلِمِ لِكُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، لَا يَحْمِلُهُ عَلَى جَحْدٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ. وفيها: أَخَذَ الْحَيْطَةَ مِنْ خَلْوَةِ الْكُفَّارِ بَعْضَهُمْ.

وفيها: الدُّعَاءُ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِبَقَاءِ الْغَيْظِ إِلَى الْمَوْتِ، وَالتَّعْجِيلُ بِمَوْتِهِمْ بِسَبَبِ الْغَيْظِ. وَمِنْ الْمُشَاهِدِ الْمَعْرُوفِ: أَنَّ اشْتِدَادَ بَعْضِ الْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ عَلَى الْإِنْسَانِ قَدْ يَقْتُلُهُ؛ كَشِدَّةِ الْحُزَنِ وَالْكَمَدِ، وَشِدَّةِ الْغَيْظِ وَالْحَنَقِ، وَشِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْإِنْفَعَالِ، وَشِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَرَعِ، بَلْ رَبُّهَا مَاتَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ وَالدَّهْشَةِ!

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْقَلْبِ، وَأَنَّهُ مَحَلُّ الْعَقْلِ وَالْإِدْرَاكِ وَالتَّدْبِيرِ لِلجَسَدِ.

وفيها: النَّظَرُ إِلَى الْأَفْعَالِ، وَعَدَمُ الْاِكْتِفَاءِ بِالْأَقْوَالِ، عِنْدَ الْحُكْمِ عَلَى شَخْصٍ مَا.

وفيها: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَوْلَى بِالْحَقِّ؛ لِإِيمَانِهَا بِمَا كَفَرَ بِهِ غَيْرُهَا مِمَّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ.

وفيها: الْقُوَّةُ وَالْحَزْمُ مَعَ الْأَعْدَاءِ، وَالتَّجَلُّدُ لَهُمْ، وَعَدَمُ إِظْهَارِ الْخَوْفِ مِنْهُمْ، وَمُوَاجَهَةُ الْمَعَانِدِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِمِثْلِ عِبَارَةِ: ﴿مُوقُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥١).

وفيها: تنبيه المؤمنين بأنه: لا يَصِحُّ أن يكون الكُفَّارُ أصْلَبَ في الباطل، من أهل الإيمان في الحق.

وفيها: أنَّ من أعظم ما يَغِيظُ المنافقين: ازديادُ قوَّةِ المسلمين.

وفيها: إشارة للمؤمنين، بأنَّ هؤلاء الذين يَقْصِدُونَ الإضرارَ بهم لن يَضُرُّوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.

وفيها: الفَرْقُ بينَ راحةِ المؤمن في انْشِراحِ صدره، ومحبةِ الخير للآخرين، وخُبْثِ نَفْسِ الكافر والمنافق، وتعاسةِ قَلْبِهِ، وتكْذِيبِ نفسه، وتألُّهُ بِالْغِيظِ وَالْحَسَدِ.

وفيها: أنَّ في قُلُوبِ الكُفَّارِ غِيظًا ما هم ببالغيه، ولا يَقْدِرُونَ على إنفاذه.

وفيها: أنَّ مَنْ اغْتَاطَ من المؤمنين لأجلِ إيمانهم وأتباعهم للسُّنَّةِ؛ فهو من جنسِ المنافقين والكُفَّارِ، وقد وقع مثلُ هذا من بعضِ أصحابِ الْبِدْعِ الْكُفْرِيَّةِ، في عداوتهم وحقدهم وعِيْظَهم على أهلِ السُّنَّةِ، كالخوارج.

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الصِّفَةُ قد تترتَّبُ في أهلِ بَدْعٍ من الناس، إلى يومِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفي هذه الآية: رَدُّ عَظِيمٍ على أربابِ مَبْدَأِ «التَّقْرِيبِ بَيْنَ الْأَدْيَانِ»، وما زَعَمُوهُ من أنَّ طوائفَ الْبَشَرِيَّةِ يمكن أن تعيش مع بعضها في سلام ومحبة، وتَقَارُبٍ وإِخاء! فكيف يمكن أن نعيش مع أعدائنا، وقد أخبرنا الله تعالى عنهم بما أخبر، من الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ وَإِرَادَةِ الشَّرِّ لَنَا؟!

وفيها: مُعَاتَبَةُ الله المؤمنين، بعقدِ المقارنةِ بينهم وبينِ عَدُوِّهِمْ؛ لِيَتَّخِذُوا الْمَوْقِفَ الصَّحِيحَ مِنْهُمْ، وَيُبَغِّضُوهُمْ فِي اللهِ، وَتَزُولَ مَحَبَّتُهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ.

وفيها: أنَّ الْعِيْظَ من قوَّةِ المسلمين من صفاتِ الْكُفَّارِ.

وفيها: أنَّ الْيَهُودَ وَالْمَنَافِقِينَ جُبَنَاءٌ، لَا يَجْرَأُونَ على المواجهة.

وفيها: أنَّ النِّفَاقَ كان من صفاتِ بعضِ الْيَهُودِ.

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠):

ثم ذكر الله تعالى مزيداً من عداوة أهل الكتاب وغيظهم من المسلمين؛ فقال:

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ﴾ أي: إن يصلكم - أيها المؤمنون - ﴿حَسَنَةٌ﴾ سواء كانت حسنة دينية أو دنيوية، مثل: نزول الوحي، واجتماعكم على العبادات العظيمة، والنصر من الله، والغنيمة من العدو، وتتابع دخول الناس في الإسلام، وحصول الخصب، وصحة الأبدان، والقوة المالية، ونحو ذلك. وكلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، تفيد العموم.

فإن حصل هذا؛ ﴿تَسُوهُمْ﴾ أي: تُخزئهم.

﴿وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كمرض، أو فقر، أو حدوث اختلاف، أو هزيمة من عدو، أو حصول جذب وقحط؛ ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي: اليهود والمنافقون، فيسرون بذلك ويبتهجون. فالمقصود: أن مثل هؤلاء لا يمكن أن يتخذوا بطانة.

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى طريقة مواجهة هؤلاء؛ فقال: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا﴾ على عداوتهم وأذيتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ربكم فيما نهاكم عنه - من اتخاذهم أولياء وبطانة - وتجتنبوا أسباب سخطه؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومكرهم وحيلهم. و(الكيد): هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم، بالأسباب الخفية.

وقوله ﴿شَيْئًا﴾ يعني: قليلاً، أو كثيراً.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من العداوة والمكر ﴿مُحِيطٌ﴾: عليم به، لا يغيب عنه من ذلك شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عناية الله بالمؤمنين، في دلالتهم على ما يُنجيهم من كيد أعدائهم.

وفيها: أنه ينبغي على المسلمين ألا يتسببوا في حصول ما يبتهج به الكفار، ويكون سبباً لشتمهم في المسلمين، كإظهار الخلافات فيما بينهم، وكثرة الشقاق والنزاع.

- وفيها: أَنْ تَرُكَ مُوَالَاةَ الْكَفَّارِ هُوَ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ، الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ.
- وفيها: أَنْ مَنْ وَفَّى لَهِ بِالْعِبَادَةِ، فَاتَّقَى وَصَبَرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهُ مِنَ الضَّرَرِ.
- وفيها: دَمُّ الْكَيْدِ الْحَبِيثِ - وَهُوَ: الْاِحْتِيَالُ لِإِقْوَاعِ الْغَيْرِ فِي مَكْرُوهِ - وَأَنَّهُ مِنْ أَعْمَالِ الْكَفَّارِ.
- وفيها: أَنْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتِبَ عَدُوَّهُ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ.
- وفيها: أَنْ مَنْ تَرَبَّيَ النُّفُوسَ: ذَكَرَ الصَّبْرَ فِي كُلِّ مَقَامٍ يَشُقُّ عَلَيْهَا احْتِمَالُهُ.
- وفيها: أَنْ الْحَذَرَ مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يَخَالِطُهُمُ الْمُؤْمِنُ وَيَعَاشِرُهُمْ أَمْرٌ صَعِبٌ، يَحْتَاجُ إِلَى مَجَاهِدَةٍ، خُصُوصًا إِذَا كَانُوا مِنْ عَشِيرَتِهِ وَأَقَارِبِهِ.
- وفيها: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ بِمُقَابَلَةِ الشَّرِّ بِمِثْلِهِ؛ بَلْ أَمَرَ بِمُقَابَلَتِهِ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى.
- وفيها: أَنَّ اتِّقَاءَ شَرِّ الْعَدُوِّ يَكُونُ بِالْأَحْسَنِ، فَإِذَا تَعَدَّرَ دَفَعَهُ بِالْأَحْسَنِ؛ جَازَ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ.
- وفيها: أَنَّ صَاحِبَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى يَنْجِيهِ رَبُّهُ مِنْ كَيْدِ عَدُوِّهِ.
- ويؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ: تَعْرِيفُ الْعَدُوِّ، وَهُوَ: مَنْ سَرَّهُ مَسَاءُ تُكَ، وَغَمَّهُ فَرَحُكَ. وَيَذَكِّرُ الْعُلَمَاءُ هَذَا التَّعْرِيفَ فِي بَابِ «الشَّهَادَاتِ» مِنْ كِتَابِ الْفَقْهِ^(١).
- وفيها: أَنَّ الْكَفَّارَ مِمَّا أَظْهَرُوا لَنَا مِنَ الصَّدَاقَةِ فَهَمُ كَاذِبُونَ؛ لِأَنَّ الَّذِي تَسُوَّهُ حَسَبُنَا وَتُسْرُهُ مُصِيبَتُنَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ صَدِيقًا؛ فَكَيْفَ يُؤَلَّى عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ؟!
- وفيها: أَنَّ الْمُؤْمِنَ مُطَالِبٌ فِي مَعَامَلَةِ أَعْدَائِهِ بِأَمْرَيْنِ: الصَّبْرُ عَلَى مَا فَعَلُوا، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فِيهَا يَفْعَلُ بِهِمْ.
- وفيها: أَنَّ الْمُتَدَرِّعَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى لَا يُبَالِي بِكَيْدِ عَدُوِّهِ، وَهَذَا يُكْسِبُهُ الْقُوَّةَ فِي مُوَاجَهَتِهِ.
- وفيها: أَنَّ الْعَدُوَّ الَّذِي تُفْرِحُهُ مُصِيبَتُنَا، إِذَا وَلَّيْنَاهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِنَا؛ سَيَسْعَى لِإِذَائِنَا، ثُمَّ يَفْرَحُ بِذَلِكَ!

(١) انظر: الإنصاف للمرداوي (٧٤ / ١٢)، كشاف القناع للبهوتي (٤٣٢ / ٦)، روضة الطالبين للأنواري (٢٣٧ / ١١).

وفيها: أنه ينبغي على المؤمنين أن يتجلّدوا ويتماسكوا إذا نزلت بهم مُصيبة؛ لئلا يُعطوا لعدوّهم فرصة الشّمانية بهم.

وفيها: أن أدنى حسنة تحضّل للمسلمين فهي تسوء الكفّار؛ كما يدلّ عليه التعبير بـ ﴿تَمَسَّكُمْ﴾، فإنّ (المَسَّ): أدنى درجات الإصابة.

وفي المقابل: فهم يفرحون بتمكّن المصائب من المسلمين؛ كما يدلّ على ذلك التعبير بـ ﴿نُصِبَكُمْ﴾.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣١):

ولمّا ذكر الله تعالى كيّد الكفّار وعداوتهم، وفرحهم بما يصيب المسلمين من مصائب؛ أعقب ذلك بمثالٍ عمليٍّ ومُصيبةٍ كبيرةٍ ألّمت بالمسلمين، نتيجة كيّد الكفّار وعداوتهم.

وذكر سبحانه مثالا للالتزام بالصّبر والتّقوى في مواجهتهم، وكيف كانت عاقبته النصر، كما حصل في غزوة بدر.

ومثالا آخر لعدم الالتزام بالصّبر والتّقوى في المواجهة؛ فكانت نتيجته المُصيبة والهزيمة، كما حصل في غزوة أُحُد.

فبدأ سبحانه بذكر أمر الهزيمة في غزوة أُحُد؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ﴾ أي: واذكر - يا أيّها النبي ﷺ - إِذْ ﴿عَدَوْتَ﴾ أي: خرجت في أول النهار ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: من بيت عائشة رضي الله عنها، خارجا إلى غزوة أُحُد، وكان ذلك صباح يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة خلّت من شهر شوال، سنة ثلاث للهجرة.

﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تُنزلهم وتهيئ لهم ﴿مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: أماكن ومراكز، يثبتون فيها لقتال عدوّهم، فعين ﷺ مراكز للرّماة، وللفُرسان، ولسائر جيش المسلمين.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال المؤمنين، وهم يقدمون مشورتهم لنبيه ﷺ، ويدعون ربهم سبحانه. وسميعٌ لأقوال المنافقين، وهم يُشيرون بما يُشيرون به جُبّنا وهَلَعًا، ويتأمرون، ويُعدّون للنكوص والانسحاب. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيّات والأحوال.

وكانت قريش قد اغتازت من انتصار المسلمين في بدر، وما غنموه من أموالهم، ورجعت جيوشهم مقهورة إلى مكة. فعقدوا العزم وتعاهدوا على أن يجتمعوا لحرب المسلمين، فلما استعدوا وتكامل جمعهم في ثلاثة آلاف، خرجوا حتى نزلوا أحدًا يوم الأربعاء.

وانتهز النبي ﷺ فرصة اجتماع أصحابه يوم الجمعة، فشاورهم، وقص عليهم رؤيا رآها، فأشار بعضهم بالمقام في المدينة والتحصن بها للقتال، ورأى بقيتهم الخروج؛ فأخذ النبي ﷺ برأيهم، ولبس لأمتة (درعه)، وظاهر بين درعين (يعني: لبس أحدهما فوق الآخر).

فلما رآوه لبسها ندموا، وقالوا: يا رسول الله، أقم، فالرأي رأيك! فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبى أن يضع أذاته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»^(١).

واستعرض النبي ﷺ أصحابه، فرد من استصغره منهم - مثل: ابن عمر، والبراء - وأجاز من رآهم مطيقين للقتال - كرافع بن خديج، وسمرة بن جندب -.

وخرج ﷺ في نحو من ألف مقاتل.

فلما بلغ ثنية الوداع؛ لحقت به كتيبة من اليهود للقتال معه؛ فردهم ﷺ، وقال: «إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»^(٢).

ولما بلغ ﷺ الشوط - وهو موضع بين المدينة وأحد -؛ رجع رأس النفاق عبد الله ابن أبي بثلث الجيش، وانسحب مغضبًا، يزعم أنه لم يؤخذ برأيه.

وتبع النبي ﷺ للقتال في سبعائة من أصحابه، وجعل خمسين رجلًا من الرماة فوق الجبل، وأمر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وقال لهم: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرُوا علينا فلا تعينونا»^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

حسن تدبير النبي ﷺ في الحرب، وبراعته في ذلك.

(١) رواه الحاكم (٢/ ١٤١)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم (٩/ ١١٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص ٢٥٧).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٤٨)، والحاكم (٢/ ١٣٣)، وانظر: الصحيحة (١/ ١١٠).

(٣) رواه البخاري (٤٠٤٣).

وفيها: أنه ينبغي على القائد تعيين أماكن المقاتلين، وترتيب الجيش، وتعريف كل واحد بمهامه، وأن الأفضل أن يتولى ذلك بنفسه.

وفيها: شهادة الله بالإيمان لمن شهد أحداً؛ لأن المنافقين انخدلوا قبل أن يصلوا إلى مكان القتال.

وفيها: فضل عائشة رضي الله عنها؛ لأن الله تعالى نصَّ على أنها من أهل نبيه، وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عندها للقتال.

وفيها: استحباب الخروج للقتال من أول النهار؛ لقوله: ﴿عَدَوْتَ﴾.

وفيها: حثُّ المقاتلين المسلمين على الثبات في الأماكن التي عينها الإمام لهم للقتال، وعدم تغييرها إلا بإذنه، فضلاً عن التولي والانسحاب. ومعلوم أن المقاتل يحتاج إلى الحركة والتقدم والتأخر عند القتال؛ فكان المقصود بـ (المقاعد): ثبات المقاتلين ولزومهم أماكنهم. وفيها: معية الله تعالى للمؤمنين؛ فهو سبحانه يسمع كلامهم، ويعلم حالهم، ويثبتهم، ويحيب دعاءهم.

وفيها: أن محبة أهل ينبغي ألا تمنع من الخروج للقتال في سبيل الله، ولا تحول دون التضحية.

وفيها: تذكير النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بهذا الموقف العظيم، وقصته على من بعدهم في الكتاب العزيز؛ لأخذ العبرة والعظة منه.

وفيها: إطلاق (الأهل) على الزوجة.

وفيها: اتخاذ الأسباب لملاقاة العدو.

وفيها: أن الجهاد يلزم بالشروع فيه، وأن الأصل فيمن تهيأ وخرج أنه لا يرجع، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن لبس درعه: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَعَ أَدَاتَهُ بَعْدَ أَنْ لَبَسَهَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ»^(١).

(١) رواه الحاكم (١٤١/٢)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم (١١٢/٩)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص ٢٥٧).

وفيها: أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ، عَلِيمٌ بِمَا فِيهَا، يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَمَا يُجِيبُونَهُ وَيَدَّبُرُونَهُ مِنْ مَّوَامِرَاتٍ، كَمَا أَنَّهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَيُجَازِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، كُلٌّ بِنِيَّتِهِ وَعَمَلِهِ.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

لَمَّا اخْتَذَلَ رَأْسُ النِّفَاقِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ، وَرَجَعَ بِثُلُثِ الْجَيْشِ؛ هَمَّتْ جَمَاعَتَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا وَيَرْجِعُوا مَعَهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَصَمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَثَبَّتَهُمْ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ أَي: وَادَّكَّرَ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذْ قَصَدَتْ وَأَرَادَتْ ﴿طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ وَهَمَّ: بَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْأَوْسِ، وَبَنُو سَلِمْةَ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَكَانَا جَنَاحِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أَي: تَضْعُفَا وَتَجْبُنَا، وَتَرْجِعَا عَنِ الْقِتَالِ. وَ(الْفَشْلُ): هُوَ الْكَسَلُ وَالضَّعْفُ، وَالتَّرَاخِي، وَالْخَوَرُ وَالْجُبْنُ. وَ(الْهَمُّ): يُطْلَقُ عَلَى مَجَرَّدِ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَيُطْلَقُ كَذَلِكَ عَلَى الْعَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ. وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ هُنَا الْأَوَّلَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْعِصْيَانِ. ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أَي: يَعْصِمُهُمَا، وَيَتَوَلَّى أُمُورَهُمَا. وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، تَقْتَضِي الْعِنَايَةَ وَالْحِمَايَةَ وَالنُّصْرَةَ.

وَلِذَا قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَرَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِينَا: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾: بَنِي سَلِمْةَ وَبَنِي حَارِثَةَ، وَمَا أَحْبَبُّ أُمَّتًا لَمْ تَنْزِلْ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾»^(١). ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: فَلْيَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ، وَلْيَتَّقُوا بِهِ فِي أُمُورِهِمْ، لَا بِحَوْلِهِمْ وَلَا بِقُوَّتِهِمْ. وَ(التَّوَكَّلُ) عَلَى اللَّهِ: هُوَ تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، ثِقَةً بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، مَعَ الْأَخْذِ فِي الْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ.

وفي هذه الآية من القوائد:

أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَعْتَرِيهِ الضَّعْفُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ.

(١) رواه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥).

وفيها: أنَّ المُنْبَطِّينَ والمتخاذِلِينَ لهم تأثيرٌ سيِّئٌ في نفوس غيرهم؛ فينبغي عدمُ الاعتِرَارِ بمواقِفهم، وتركُ تقليدِهم واتباعهم.

وفيها: لُطفُ الله بالمؤمنين، في تثبيتهم على الحقِّ.

وفيها: أنَّ من مقتَضيات ولاية الله للمؤمن: أن يعصمه ربُّه من الشرِّ والوقوعِ في الحرام.

وفيها: أنَّ على المؤمن أن يتوكَّلَ على الله، خاصَّةً في أحوال الشَّدَّةِ.

وفيها: أنَّه كلُّما قويَّ الإيمانُ؛ قويَّ التوكُّلُ.

وفيها: تحريمُ تقليدِ الغير في المعصية.

وفيها: إعانةُ الله للمؤمنين على إتمامِ العبادة والقيام بالطاعة.

وفيها: أنَّ صدقَ الاعتمادِ على الله والتوكُّلِ عليه، يقتضي الأخذَ بالأسباب.

وفيها: أنَّ مجردَ حديثِ النفس بالمعصية، لا يُخرجُ صاحبَه عن ولاية الله تعالى.

وفيها: أنَّ من عرض له عارضٌ نُقصٍ أو نُكوصٌ؛ فإنَّه ينبغي عليه أن يُقاومَه بالتوكُّلِ على الله.

وفيها: إطلاقُ (الفشل) على من تولَّى عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٢):

وهذا هو المثال الذي ذكره الله تعالى للالتزام بالصَّبر والتَّقوى في مواجهة الأعداء، وكيف كانت عاقبته النصر.

فلما ذكر تعالى مَطْلَعَ غزوة أُحُد، وكان فيها ما كان من التنازُع والعِصيان، وإرادة الدُّنيا، والمُصيبة الكبيرة التي حصلت بسبب ذلك؛ ذكَّر المؤمنين بغزوة بدرٍ، وما كان فيها من التوكُّلِ عليه والصَّبر والتَّقوى، فكان النصرُ.

فذكَّرهم بِمَنِّته عليهم فيها؛ لِيُخَفِّفَ عنهم ما وقعَ عليهم في أُحُد؛ فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ - أيها المؤمنون - بصبركم وتوكُّلكم ﴿بِبَدْرِ﴾.

و(بَدْر): اسم موضع بين مكة والمدينة، سُمِّيَتْ على اسم بشر فيها، تُنسب إلى رجلٍ حفرها، يُقال له: «بدر بن قريش»^(١).

وكانت عندها الموقعة العظيمة، التي خرج فيها رسول الله ﷺ، مع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المسلمين، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، وأكثرهم مشاة، حتى لُقوا كفَّار قريش في السابع عشر من رمضان، سنة اثنتين من الهجرة، وكان العدو بين التسعمائة إلى الألف، مع عُدَّة كاملة، من الحديد والأذراع والخيول المسومة، والحلي، والفخر والخيلاء.

لكن الله تعالى أعزَّ نبيَّه ﷺ، وأظهر دينه، وأخزى الشيطان وجنده، فنكَّص الشيطان على عقبيه، وولَّى الكفار مُنْهَزمين، والمسلمون يقتلون فيهم ويأسرون.

هذا مع أنَّ المسلمين كانوا ضُعفاء أذِلَّاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: ضُعفاء بقلَّة الحال والمال، والسَّلاح والعدَد، فلم يتجاوز عدَدُ المسلمين ثلث عدَدِ المشركين؛ لتعلموا أنَّ النصر إنَّما هو من عند الله، لا بكثرة العدَد ولا العُدَّة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما أمركم به عند القتال، من: الصَّبر، والتوكُّل، وطاعة الأمير، والثبات، وعدم التولَّى، وإرادة الآخرة، لا إرادة الدنيا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقومون بشكر نعمة النصر، التي حصلت لكم بالتقوى والأخذ بالأسباب، ولا تُصابون بالأسر والبَطَر إذا انتصرتُم.

ولذا: لما جاء عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطَّاباً من بعض أمرائه في معركة اليرموك، يطلب منه المدد؛ قال: «إنَّه قد جاءني كتابكم تستمدُّوني، وإني أدُلُّكم على مَنْ هو أعزُّ نصراً وأحضرُّ جُنُداً: الله عَزَّوَجَلَّ، فاستنصروه؛ فإنَّ محمداً ﷺ قد نُصِرَ يومَ بدرٍ في أقلَّ من عدَّتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم، ولا تُراجِعوني». فقاتلوهم فهزموهم^(٢).

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ٣٥٤)، البداية والنهاية (٣/ ٢٢٤).

(٢) رواه أحمد (٣٤٤)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير (٢/ ١١١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَقَدَ الْمُقَارَنَاتِ، وإجراء التعقيبات على الأحداث؛ لتربية النفوس.

وفيها: تذكير الله لعباده بِمَنَّتِهِ؛ ليشكروه عليها.

وفيها: أَنَّ النصرَ في بَذْرِ نِعْمَةٍ على جميع الأُمَّة؛ لَأَنَّهُ كَانَ من أسباب بقاء دينها.

وفيها: أَنَّ النصرَ من عند الله، لا بكثرة العَدَدِ والعُدَد.

وفيها: أَنَّ الضعيف إذا تَوَكَّلَ على الله نصرَه؛ فاستعمال جمع القِلَّةِ في قوله: ﴿أَذِلَّةٌ﴾، يدلُّ على ما كان عليه المسلمون في بَذْرِ من ضَعْفِ الحال، وَأَنَّهُ كَلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَذِلًّا لَلَّهِ؛ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى نَصْرِ اللَّهِ، وإذا شَعَرَ أَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْ رَبِّهِ؛ عَاقِبَهُ وَأَذِلَّهُ.

وفيها: أَنَّ تقوى الله من شُكْرِهِ سبحانه.

وفيها: استخراج عبودية نفوس المؤمنين في السَّراءِ والضَّرَّاءِ، بما يتوالى عليهم من الانتصار، والانتكسار.

وفيها: أَنَّ العِبْرَةَ بِعِزَّةِ التَّقْوَى والإيمان، لا بِقِلَّةِ المالِ وذِلَّةِ الحال.

وفيها: تحقيق ولاية الله تعالى، والافتقار إليه، قبل إعداد السلاح والعُدَّة.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٦٤﴾ بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾:

ثم ذكر الله تعالى عن نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَدَدٍ مِنْ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ، وهو ثلاثة آلاف من الملائكة، وإذا صَبَرُوا وَاتَّقُوا وجاء الكفَّار من فُورِهِمْ؛ يَزِيدُ الْعِدَدَ إِلَى خَمْسَةِ آَلَفٍ؛ كَثَبًا لِلْكَفَّارِ وَخِزْيًا لَهُمْ.

وقد اختلفَ المُفسِّرونَ في هذا الوَعْدِ: هل كان في غزوة بدر أم في أُحُدٍ؟

فَقِيلَ: كان هذا في غزوة بدر؛ ويدلُّ على هذا أن قول الله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾، وهي الغزوة التي قطعَ الله فيها طَرَفًا مِنَ الْكَفَّارِ، وقتلَ منهم سبعين، وأخزاهم وردَّهم خائبين.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَكِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وبين هذه الآية؟

فالجواب: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَدَّ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بِمَقْدَارِ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ سَمِعُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَيُمِدُّونَ إِخْوَانَهُمْ بِزِيَادَةِ عَنِ الْأَلْفِ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ؛ فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي آيَةِ «آلِ عِمْرَانَ» هَذِهِ - بِالْمَدَدِ إِنْ فَعَلُوا إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ، ثُمَّ إِلَى خَمْسَةِ آلَافٍ؛ بِشَارَةٍ مِنَ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ «الْأَنْفَالِ» ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُرْدِفُهُمْ غَيْرَهُمْ، وَيَتَّبِعُهُمُ الْوَفَا مِثْلَهُمْ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ كَانَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَاحْتَجَّجُوا عَلَى هَذَا بِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ» إِنَّمَا هُوَ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَجَاءَ ذِكْرُ يَوْمِ بَدْرٍ عَرَضًا، ثُمَّ رَجَعَ السِّيَاقُ إِلَى غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلقٌ بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾.

قَالُوا: وَقَدْ وَعَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ اللَّهَ سَيُمِدُّهُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - عَلَى عَدَدِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا فِي أُحُدٍ - وَأَنَّ الْعَدَدَ سَيَزِيدُ إِلَى خَمْسَةِ آلَافٍ إِذَا صَبَرُوا وَاتَّقَوْا؛ فَهُوَ وَعْدٌ مُشْرُوطٌ.

فَلَمَّا وَقَعَتِ الْمَعْصِيَةُ وَحَصَلَ الْفِرَارُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَخَلَّفَ الشَّرْطُ؛ لَمْ يَحْصُلِ الْإِمْدَادُ، فَلَمْ يُمَدُّوا بِمَلَكٍ وَاحِدٍ.

قَالُوا: وَالطَّرْفُ الَّذِي قُطِعَ مِنَ الْكُفَّارِ هُوَ قَتْلُهُمْ فِي أُحُدٍ، وَخَيْبَتُهُمْ بَعْدَ قَتْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَدَمُ اسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَاحْتَجَّجُوا عَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَيْضًا: بِأَنَّ إِنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ فِي بَدْرٍ كَانَ غَيْرَ مُشْرُوطٍ - كَمَا فِي آيَةِ «الْأَنْفَالِ» - بَيْنَمَا هُوَ هُنَا - فِي سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ» - مُشْرُوطٌ، وَكَانَ الْوَعْدُ هُنَاكَ مِنَ اللَّهِ مُبَاشَرَةً، وَهُنَا مِنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ لَمْ يَأْتُوا مِنْ قَوَرِهِمْ.

وَأَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ - . وَعَلَى هَذَا؛ فَيَكُونُ

ابتداءً عَوْدَ السِّيَاقِ القرآني إلى غزوة أُحُدٍ هو من قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧] - كما سيأتي -.

وقوله عز وجل: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ - أيها النبي ﷺ - ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم: الصَّحَابَةُ ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ (الكفاية): سَدُّ الْخَلَّةِ، والقيام بالأمر. والاستيفهام للإنكار؛ أي: أن النبي ﷺ يُنكَرُ عليهم عدمَ اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة.

وقيل: الاستيفهام للتقرير بما استقرَّ في نفوسهم واعتقدوه، من كفاية المدد هؤلاء الملائكة. ﴿أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبِّكُمْ﴾ ويُعينكم ﴿ثَلَاثَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ من السماء لنصرتكم. والله هو الْمُنَزِّلُ؛ لأنَّهم لا ينزلون إلاَّ بأمره.

﴿بَلَى﴾: حرف إثبات؛ أي: بلى، يكفيكم الإمداد بهم.

ثم وعدهم الله تعالى بزيادة، لكنَّها معلَّقة على شَرَطٍ، فقال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ مع نبيِّكم على لقاء العدو، وتثبتوا، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معصية الله، بعدم مخالفة أمرِ نبيِّه ﷺ، وعدم التوليُّ يومَ الزحف.

﴿وَيَأْتُواكُمْ﴾ أي: المشركون ﴿مِنْ قَوَرِهِمْ هَذَا﴾ أي: من ساعتهم هذه، أو من جهتهم التي جاءوا منها، أو من الغَضْبَةِ التي غَضِبوها.

﴿يُبَدِّلْكُمْ رَبِّكُمْ﴾ فوراً وحالاً، من غير تراخٍ ولا تأخير ﴿خَمْسَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ مدداً من عنده ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلِّمين بعلامات القتال، إمَّا في خيولهم - في نواصيها وأعرافها، أو أذنانها - وإمَّا أن تكون العلامة للملك نفسه - بصفرة في اللون مثلاً - وهكذا الشُّجعان يجعلون لهم علامات في الحرب ليُعرَفوا بها.

وفي الآيتين من الفوائد:

حِرْصُ النبي ﷺ على تعزيز نفوس المؤمنين، بنقل البشارة إليهم من الله.

وفيها: حِرْصُ القائد على بَعَثِ الأمل والتفاؤل، في نفوس جنوده.

وفيها: تذكير الخارجين إلى الجهاد في سبيل الله بوعد الله بالنصر؛ ليزدادوا إقداماً.

وفيها: شاهد لقوله تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفيها: خطورة المعصية على الجيش.

وفيها: أن تقوى الله من شروط النصر.

وفيها: أن المعونة من الله على قدر المئونة؛ لقوله: ﴿وَأَتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾، فإذا زاد الخطر بسُرعة قدوم الكفار؛ زاد المدد للمسلمين من الله.

وفيها: تأييد الله للمجاهدين في سبيله بالملائكة - ولهم وظائف في هذا -.

وفيها: تثبيت المؤمنين، وتكثير عددهم، ومباشرة القتال ضد الكفار، وزلزلة قلوب الكافرين، وهذا التأييد مستمر إلى قيام الساعة.

وفيها: عدم الاكتفاء بالأسباب الظاهرة من العدد والعدد، وعدم اليأس بسبب القلة والدلة.

وفيها: أن الملائكة أجسام، ويحصون بالعدد.

وفيها: أن موطن الملائكة في السماء.

وفيها: أن المدد الأعظم والمرجح للنصر، قد لا يكون مرئياً، كما قال تعالى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وفيها: استعمال الشارة والعلامة؛ لتمييز المقاتلين وكتائبهم.

وفيها: أن قوة الملائكة أكبر من قوة البشر.

فإن قيل: إذا كان الملك الواحد كافياً لقلب موازين المعركة؛ فلماذا أنزل الله ألفاً، ووعد بثلاثة آلاف وخمسة آلاف؟

فالجواب: أن ذكر العدد الكثير أعظم في التأييد، وأمكن في التثبيت، ويكون الملائكة كالمدد، بينما يتولى المجاهدون مباشرة القتال بأنفسهم.

وفيها: أن التوكل على الله لا يُنافي الأخذ بالأسباب. ومع أن الأصل هو الاعتماد الكامل على الله؛ إلا أن اتخاذ الأسباب يزيد نفوس المؤمنين طمأنينة، ويوافق سنة الله القدريّة والكونيّة

في ارتباط النتائج بالأسباب، ولذلك فالمطلوب من العبد: اتُّخَذَ ما أمكنه من الأسباب - ولو كانت ضعيفة - والسبب الضعيف يكون له نتيجة وأثر كبير بالتوكل على الله.

وفيها: أن الأقوياء والضعفاء مطالبون جميعًا بالأخذ بالأسباب.

وفيها: أن بعث المدد شيئًا بعد شيء، أبلغ من إرساله جميعًا في وقت واحد.

وفيها: أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن الفرج بعد الشدة.

وفيها: أن البشارة المشروطة - بتعليق المدد والنصر على شروط -؛ لا تتحقق إلا بتحقيق هذه الشروط.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾

ثم قال تعالى عن الحكمة من البشارة، وإخبار المؤمنين بها:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: الإمداد بالملائكة، والوعد بذلك، والإخبار من نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ وتطميناً لقلوبكم، وتطمينا، ولتكونوا أنشط وأقوى في قتال العدو. و(البشرى): هي الخبر بما يسر.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: تثبت وتسكن، ويزول عنها الخوف.

﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ على الأعداء ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ سبحانه، لا من عند غيره ﴿الْعَزِيزِ﴾: القوي، الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمِ﴾: ذو الحكمة والإحكام، في قدره وشرعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إدخال الشرور على قلوب المؤمنين.

وفيها: لطف الله بأوليائه، في تثبيت قلوبهم.

وفيها: أن إمداد المؤمن بما يُعينه على الطاعة وتحقيق مُراد الله، هو من أسباب طمأنينته وشروره.

وفيها: أن رجاء النصر من الله، لا من غيره.

وفيها: نقل الأخبار السارة إلى المقاتلين في سبيل الله، وعدم التشويش عليهم وتكدير خواطرهم بالأخبار المحزنة والمقلقة، وهذا من التعبئة النفسية للمجاهدين في سبيل الله. وفيها: أن الله لا ينصر إلا من اقتضت حكمته نصره.

وفيها: أن القوة بلا حكمة قد تكون طيشًا وسفهاً، والحكمة بلا قوة ضعف ونقص، والسفيه الضعيف أسوأ مراتب. وأمّا أفعال الله تعالى: فهي مبنية على حكمته وقوته.

وفيها: أن تخلف النصر عن المسلمين - أحياناً - فيه حكمة بالغة؛ كالتمحيص، والابتلاء، واتخاذ الشهداء.

وفيها: عدم الاعتماد على الأسباب مع اتّخاذها، وجعل التوكل والتفويض الكلي والاعتماد التام: على الله عز وجل وحده.

وفيها: عدم اليأس من النصر، ولو فقدت أسبابه الدنيوية.

وفيها: أن المؤمنين لا يعتمدون في النصر على المدد - ولو كان نزول الملائكة -؛ وإنما يعتمدون على الله عز وجل، القادر على نصرهم بأمره، وقد قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وفيها: مجاهدة النفوس لتجريد التوحيد؛ فإن أكثر الناس كلما اشتدّ اتّخاذهم للأسباب، وإعدادهم وإحكامهم لها؛ ازدادوا اعتماداً عليها.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (١٢٧):

ثم ذكر الله تعالى المقصود والعلة من فرض الجهاد، والإمداد بالملائكة، وإنزال النصر؛ فقال عز وجل:

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الطَّرَف): هو منتهى الشيء، من أسفله أو من أعلاه. والمراد هنا: المحاربون من الكفار، أو: طرف المشركين القريب من المسلمين، أو: هم الذين يبدأ الجهاد والقتال معهم.

والمعنى: إنّنا أمركم الله بالجهاد ومقاتلة الأعداء؛ ليُهْلِكَ طائفة من الكفار.

فإن كانت الآية في غزوة بدر؛ فالأمر واضح بما حصل من قتل صناديدهم. وإن كانت الآية في غزوة أُحُد؛ فالمقصود: الثمانية عشر من الكفار الذين قُتلوا يومها.

﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ﴾ أي: يُخْزِي، وَيُحْزِن، وَيَغِيظ هؤلاء الكفرة؛ ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ أي: يَرْجِعُوا إلى بلادهم ﴿خَائِبِينَ﴾: لم ينالوا خيراً، كما حصل يوم بدر من عودتهم فارّين منهزمين، وكما حصل يوم أُحُد من عودتهم دون حصول مقصودهم الذي خرجوا من أجله - وهو استئصال المسلمين والقضاء التام عليهم - وكما حصل يوم الخندق من رجوعهم دون أن ينالوا شيئاً من مقصودهم، ودون أن يتحقق شيء مما أمّلوه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن أحكام الله وتشريعاته إنما فرضها لحكم عظيمة، ومن أسماؤه سبحانه: (الحكيم)، ومن صفاته: (الحكمة)، و(اللام) في قوله ﴿لَيَقْطَعَنَّ﴾ للتعليل، والتعليل: هو بيان الحكمة من الشيء.

وفيها: أن القضاء بالهلاك لن يكون على جميع الكفار، ولكن على طَرَفٍ منهم، ويبقى الله منهم مَنْ يُبْقَى لإبقاء سُنَّةِ التدافع بين الإيمان والكفر، والصراع بين الحق والباطل. وفي ذلك حكم عظيمة؛ منها: تبيين أهل الإيمان، وكشف أهل النفاق، والتمحيص، واتخاذ الشهداء، وغير ذلك.

وفيها: أن الله ينتقم من أعدائه: إمّا بإهلاكهم، أو إذلالهم وخذلانهم.

وفيها: أن إهلاك أعداء الله وكبتهم، هو عادة لرب العالمين معهم؛ كما يدل عليه استعمال الفعل المضارع (يَقْطَعُ) و(يَكْبِتُ).

وفيها: البدء بقتال الذين يُلُون المسلمين من الكفار قبل غيرهم؛ لأنهم الأخطر والعدو الأقرب، ولأن المسلمين مطالبون بفتح بلاد الكفار بلدًا بلدًا، مبتدئين بأقربها إليهم، ثم تتوسع الفتوحات.

وفيها: شِدَّةُ وقع الخيبة على نفوس الكفار؛ لأن الخيبة لا تكون إلا بعد أمل، فتذهب آمالهم، وتخيب مساعيهم.

وفيها: أَنَّ الحزن الشديد يُصيب الكَيِّدَ، كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾، وأصله - عند كثير من أهل العلم -: «يَكْبِدُهُمْ»، أي: يُصِيبُهُمْ بالحزن والغَيْظ في أكبادِهِمْ، فأُبْدِلَتْ (الدال) تاءً^(١).

وفيها: أَنَّ الله تعالى يقضي على الكفار بتجرُّع الآلام النفسِيَّة، كما يصيَّبُهُم بالآلام الجسديَّة أيضًا.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨):

ورد في سبب نزول هذه الآية: عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كُسِرَتْ رِباعِيَّتُهُ^(٢) يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رِباعِيَّتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٣).

وقد ورد سبب آخر في نزول هذه الآية: فعن ابنِ عمر رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٤).

وقد جاء في بعض الروايات ذكرُ أسماء مَنْ وردَ لعنُهُمْ، وقد أسلَمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ؛ فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ، اللَّهُمَّ الْعَنْ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ... فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَسْلَمُوا، فَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ.

وفي رواية: «فَتِيبَ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ»^(٥).

ولعلَّ هذا هو السَّبَبُ في مُعَاتَبَةِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم، بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، يعني: إِنَّ أَمْرَ هَؤُلَاءِ كُلِّهِ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن للقيسي (١/ ١٧٤)، تفسير البغوي (٢/ ١٠١)، تفسير القرطبي (٤/ ١٩٨).

(٢) وهي: السنَّ التي تلي الثنِيَّة من كل جانب، وللإنسان أربع رِباعِيَّات.

(٣) رواه مسلم (١٧٩١).

(٤) رواه البخاري (٤٠٦٩).

(٥) رواه الترمذي (٣٠٠٤)، وأحمد (٥٦٧٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

ويمكن الجمع بين روايات سبب النزول: بأن النبي ﷺ لما أُوذِيَ في أحد، دعا عليهم في صلاته؛ فنزلت الآية في الأمرين معاً.

وقوله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ - أيها النبي ﷺ - ﴿مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: من حكم هؤلاء في الدنيا والآخرة، وحسابهم وتدبير أمرهم، وليس لك أن تدعو عليهم بالهلاك؛ فربما يهديهم الله، ويتجاوز عنهم.

فلذلك قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بإسلامهم بعد الكفر.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إذا أصرّوا على الكفر؛ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: من أجل بغيهم وعُدوانهم سيحق بهم العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن مصير الأشخاص بيد الله وحده، وليس لأحد من الناس - كائنًا من كان - الحكم في ذلك.

وفيها: أن النبي ﷺ لا يملك شيئاً من الأمر الكوني، ومن ذلك: هداية التوفيق والإلهام.

وفيها: أن الله قد يتوب على أعتى الناس وأشدّهم كفراً، ويهديه.

وفيها: أن الله عزّ وجلّ لا يُعَذِّبُ إلا بذنب.

وفيها: أن على الدّاعية البلاغ والدّعوة، وأمّا تدبير أمور العباد وحسابهم: فعلى الله تعالى، كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفيها: عدم لعن الكافر الحيّ المُعَيَّن؛ لأنه قد يُسَلِّم، ولا ندرى بِمَ يُخْتَمُ له. لكن يجوز لعن جنس أصحاب الكفر والمعصية، فنقول: «لعنة الله على الكافرين»، و«لعنة الله على الظالمين»، ونحو ذلك.

وفيها: أن المُصِرَّ على الكفر ظالمٌ لنفسه، مستحقٌّ للعذاب.

وفيها: أن العبد قد يختار شيئاً، والمصلحة في غيره.

وفيها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ.

وفيها: أَنَّ عَلَى صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْمُسْتَجَابَةِ أَنْ يَجْعَلَ دَعَاءَهُ فِيمَا يَنْفَعُ الْخَلْقَ، كَالدُّعَاءِ بِهَدَايَتِهِمْ.

وفيها: عَدَمُ اسْتِيعَادِ هِدَايَةِ صَنَادِيدِ الْكُفْرِ.

وفيها: أَنَّهُ مِمَّا اشْتَدَّ أَذَى الْكُفَّارِ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَدْعُو عَلَى أَعْيَانِهِم بِاللَّعْنِ، وَلَا يَقْطَعُ بَعْدَهُمْ فَلَاحَهُمْ؛ فَقَدْ يُسَلِّمُونَ وَيَهْتَدُونَ، وَلَكِنْ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ بِأَنْ يَكْفِيَ شَرَّهُمْ وَبَأْسَهُمْ، وَأَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ.

وَفِي الْآيَةِ: سَعَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَ صَنَادِيدَ الْكُفْرِ، فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ أَذْنِبَتْهُمْ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَتْلِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ.

وفيها: أَنَّ هِدَايَةَ اللَّهِ هُؤُلَاءِ وَتُوبَتُهُمْ إِلَيْهِ، هُوَ فَضْلٌ خَالِصٌ مِنْهُ تَعَالَى، وَمِنَّةٌ وَكَرَمٌ، وَلِذَلِكَ أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وَلَمْ يُسْنِدْهُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «يَتُوبُوا».

وَأَيْضًا: فَيُمْكِنُ أَنْ يَعَذِّبَ هُؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ عَذَابًا مُبَاشَرًا مِنْ عِنْدِهِ، لَا بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، بِخِلَافِ مَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَتَلَوَّهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

وفيها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ يَقَعُ مِنْهُ مَا هُوَ خِلَافُ الْأَوَّلَى وَالْأَفْضَلِ، وَلَكِنْ اللَّهُ - مِنْ حُبِّهِ لَهُ - يُرْشِدُهُ إِلَى الْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ؛ لِيَصِيرَ دَائِمًا فِي الْكَمَالِ اللَّائِقِ بِهِ، وَلِيَبَيِّنَ بَشَرِيَّتَهُ، وَلِيَكُونَ قُدُورَةً لِمَنْ بَعْدَهُ. وَفِي هَذَا: رَدُّ عَلَى الْغُلَاةِ، الَّذِينَ يَرْفَعُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ فَوْقَ مَنَزَلَتِهِمْ الَّتِي أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهَا.

وفيها: رَدُّ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْطِيَ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ الْحَقَّ فِي التَّشْرِيعِ فِي الدِّينِ - بِالنَّقْصِ، أَوْ الْإِضَافَةِ، أَوْ النَّسْخِ، أَوْ التَّغْيِيرِ - كَمَا فَعَلَ الْغُلَاةُ بِالْأُتَمَّةِ الْإِثْنِي عَشَرَ، وَغَيْرِهِمْ.

وفيها: أَنَّ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، لَا إِلَى نَفْسِهِ؛ فَمِمَّا اشْتَدَّتْ عِدَاوَةُ الْمَدْعُومِينَ وَإِذَاؤُهُمْ لَهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ وَالْإِسْتِثْصَالِ وَاللَّعْنِ؛ فَقَدْ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ.

ولا يدعو على أعيانهم باللَّعن، ويقطع بعدم فلاحهم، ولو كانوا كُفَّارًا؛ فقد يأذن الله بإسلامهم، أو يُخرج من أصلابهم مَنْ يعْبُدُه لا يُشْرِكُ به شيئًا؛ فليدعُ لهم بالهداية والصلاح، وله أن يدعو على مَنْ آذى المسلمين منهم، بأن يكُفَّ الله شرَّه وبأسه، ونحو ذلك.

وفيها: أنه ليس كلُّ مستحقٍّ للعقوبة يُعاقب فورًا، وقد يكون في تأخيرها أو عدم إيقاعها صلاحٌ له، ورجوعٌ عن الباطل.

وفيها: أن النعمة قد تحصل للعبد من غير سبب منه؛ رحمةً من الله، لكن العذاب لا يحصل إلا بظلمٍ من العبد.

وفيها: أن ولاية الله للعبد، لا تمنع حصول الأذى له.

وفيها: أن قبول توبة التائب خاصٌّ بالله تعالى وحده، وليس لأحدٍ من البشر قبولُ ذلك أو رده.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ (١١٨):

ثم أكد الله تعالى أن بيده الأمر كله، وأن جميع ما في السماوات وما في الأرض هو تحت حكمه وتصرفه، ليس لأحد نصيبٌ في ذلك؛ فقال:

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) هنا للاستحقاق والملك والاختصاص ﴿مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي

الْاَرْضِ﴾ من الأملاك، والجن والإنس، والجمادات، وجميع المخلوقات، يتصرف فيها كما يشاء، ويقضي في خلقه بما يشاء.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بفضله ورحمته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله وحكمته.

﴿وَاللَّهُ غَفُوْرٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيْمٌ﴾ يغفو ويصفح سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الله يتصرف في خلقه كيف يشاء، ولا مُعَقَّبٌ لحكمه.

وفيها: أن مغفرة الذنوب حقُّ لله تعالى، لا يُشاركه فيه غيره.

وفيها: إثبات تعدّد السّماوات.

وفيها: إثبات تمام سُلطانِ الله تعالى في مُلكه، وأنّ له الأمر في التعذيب والمغفرة، وهذا مقرون بالحكمة.

وفي تقديم ذكر (المغفرة) على (العذاب) في الآية: دليل على أنّ رحمته تسبق غضبه.

وفيها: أنّ مغفرة الله على سبيل التّفضّل، لا على سبيل الوجوب، ولا يجب على الله إلّا ما أوجبه سبحانه على نفسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَعْضٌ مِّنْكُمْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ لَمَّا كُنْتُمْ تُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (١١٣):

ثم نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل الرّبا أضعاظاً مضاعفة، كما كانت عادة المشركين في هذا الوقت.

وقد اختلف المفسّرون في مُناسبة ذكر تحريم الرّبا، في سياق آيات غزوة أُحُد، أو بدر. فقيل: لا يلزم وجود مُناسبة؛ وإنّما هو انتقال من موضوع لآخر، ثم رجوع له، بحسب نزول الآيات، ثم كتابتها في المصحف.

وقيل: لَمّا كان سياق الآيات السابقة هو في الجهاد ومحاربة الكفار؛ نهى الله تعالى عن الرّبا، الذي فيه مُحاربة الله ورسوله لَمَنْ أصرَّ عليه.

وقيل: لَمّا كان الجهاد يحتاج إلى نفقات، وكان المشركون قد أنفقوا على جيوشهم أموالاً جمعوها من الرّبا؛ نهى الله تعالى المؤمنين عن اتّباع سبيلهم -وسبيل اليهود- ولو في تجهيز الجيش للجهاد.

وقيل: لَمّا أرشد الله تعالى المؤمنين إلى الأصلح في أمر الدّين والجهاد؛ اتّبع ذلك بشيء من الأمر والنهي والتكاليف الشرعيّة؛ فنهى عباده عن الرّبا.

وقيل: لَمّا كرّر الله تعالى الأمر بالتّقوى -فيما سبق- وبين أثر التّقوى في حصول النصر في الجهاد؛ نهى عن بعض ما يُخالِف التّقوى من الذّنوب التي هي سبب للهزيمة في المعركة، ومن أعظمها: الرّبا.

وقيل: إنَّه لما أمر عباده بالجهاد، الذي فيه إنفاق المال في سبيله؛ نهاهم عن الربا، الذي فيه أكل المال بالباطل.

وقيل غير ذلك.

ومن لطائف ما يُذكر هنا: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن عمرو بن أقيش، كان له ربا في الجاهليَّة، فكَرِهَ أن يُسَلِّمَ حتَّى يأخذه، فجاء يوم أُحُد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا بأحد، قال: أين فلان؟ قالوا بأحد، قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمته، وركب فرسه، ثمَّ توجهَ قِبَلَهُمْ، فلَمَّا رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إني قد آمنت، فقاتل حتَّى جرح، فحُمِلَ إلى أهله جريحاً، فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليله: حمية لقومك، أو غصباً لهم، أم غصباً لله؟ فقال: بل غصباً لله ولرسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة ^(١).

وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: النداء لإيقاظ المخاطب وتنبيهه. وتوجيه النداء إلى المؤمنين فيه إغراء وحثُّهم، على الالتزام بما سيأتي من الأحكام.

﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ (الربا) في اللغة: الزيادة، وشرعاً: هو ربا نسيئة وربا فاضل، وربا النسيئة: الزيادة في الدين نظير الأجل أو الزيادة فيه، بأن يُقرضه إلى أجل، فإذا جاء الأجل يقول له: «إمّا أن تقضي ما عليك، أو أوّجلك وأزيد عليك».

وربا الفضل: هو التفاضل في الجنس الواحد من الأصناف الربويَّة - الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، وغيرها - كبيع درهم بدرهمين، أو صاع قمح بصاعين.

فإن كان بغير تقابض فهو ربا نسيئة - وإن كان متماثلاً في الوزن والكيل -.

وقد يجتمع نوعا الربا في بعض العقود.

﴿أَضْعَفُ مِثْقَلًا﴾ أي: زيادات مكررة، بسبب تأجيل القضاء، مُدَّة بعد مُدَّة، كلِّها زاد في الأجل زاده في النقد.

(١) رواه أبو داود (٢٥٣٧)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨).

وليس قوله تعالى ﴿أَضْعَفْنَا مِضْعَافَهُ﴾ قَيْدًا في التحريم؛ بل كُلُّ زيادة على القَرْض فهي رَبًّا - قَلَّتْ أو كَثُرَتْ - وإنَّما خرج الكلامُ هنا مخرجَ الغالب، وما كان يجري عليه عملُ أهل الجاهليَّة، من استمرار المضاعفات كلَّما طالَّت المُدَّة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باجتناب الرِّبَا، وغيره من أسباب عذاب الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فتظفرون بثواب الله، وتنجون من عقابه. و(الفلاح): كلمة جامعة لحصول المطلوب، وزوال المكروه.

وفي هذه الآية من القوائد:

أنَّه كلما قويَّ الإيمان؛ كان أعونَ لصاحبه على تَرْك ما حَرَّمَ الله.

وفيها: أنَّ أَكْلَ الرِّبَا يَضَادُّ الإيمانَ وَيُنْقِصُهُ، وقد دَلَّتْ النصوص على تحريمه.

وفيها: أنَّ الرِّبَا من الكبائر؛ لأنَّ الله تَوَعَّد عليه بالنَّار.

وفيها: أنَّ أَكْلَةَ الرِّبَا متوَعَّدون بالنَّار.

وفيها: أنَّ الكلامَ إذا خرجَ مخرجَ الواقعِ والغالب؛ فالقَيْدُ لا مفهوم له.

وفيها: تخويف المُرابِّين بعذاب الله.

وفيها: أنَّ تَرْكَ الحرام من أسباب الفلاح.

وفيها: شناعة الإضرار بالغير، وأكل المال بالباطل دون تَعَب.

وفيها: أنَّ الرِّبَا كلما زاد؛ كان أفحش، وما يُسَمَّى بـ «القوائد المركَّبة» أشدُّ فُحْشًا وسوءًا من النسبة القليلة الثابتة، وكلاهما حرام.

وفيها: التدرُّج في التشريع؛ فقد جاءت الإشارة - قبل نزول هذه الآية - إلى أنَّ الرِّبَا لا ينفع عند الله، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبِّ لِيَرْبُؤَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم نزل النهي عن أكل الرِّبَا أضعافًا مضاعفة - بهذه الآية - ثم نزل تحريم الرِّبَا بالكلية - مهما كان مقداره - في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:

وفيها: أن الانتفاع بالرِّبَا حرامٌ، سواءً كان أكلاً، أو لبساً، أو مسكناً، أو مركباً، أو غير ذلك، لكن في الآية عبرٌ بـ (الأكل)؛ لأنه أشدُّ أنواع الانتفاع وأسوأها، والجسد إذا نبت منه؛ فالنار أولى به.

وفيها: أن المعصية التي يتعدى ضررها، أشدُّ - غالباً - من المعصية التي يقتصر ضررها على مُرتكِبها، وهذا الرِّبَا - خاصّة في الفوائد المركّبة والأضعاف المضاعفة - يتعدّى سدادّه في النهاية، ويصل ضرره إلى الأفراد والمؤسسات والدول، فتصبح مدينة للأطراف المُرابية الجشعة.

وفيها: بذل المال في سبيل الله، والإحسان إلى عباد الله دون مُراباة.

وفيها: أن الفلاح يتوقّف على التقوى.

وفيها: أن الرِّبَا محرّم بجميع أنواعه، وقد يجتمع نوعا ربا الفضل والنسيئة في عقد واحد، مثل: بيع الشيك المؤجل بأقل من القيمة المدونة فيه.

وفيها: أن من استحلَّ الرِّبَا يكفر، ويكون مصيره التخليد في النار التي أُعدّت للكافرين.

وأما آكل الرِّبَا غير المستحلّ: فإنه مستحقٌّ للنار، وإذا مات على التوحيد؛ فهو في مشيئة الله: إن شاء الله عذّبه بمقدار ذنبه، ثم يكون مصيره الجنة، وإن شاء غفر له. وعذابه - على كل حال - يختلف عن عذاب المستحلّ؛ فالنار - وإن كانت واحدة - لكن العذاب يُخفّف ويُثقل، وينقطع ويستمر، بحسب عمل من دخل النار.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾:

ولمّا أمر الله تعالى بتقواه - التي معناها: فعل الأوامر تعبدًا لله، وترك النواهي تدللاً له، وخوفًا منه -؛ أمر عَزَّوَجَلَّ بتقوى داخلية في التقوى الأولى، ومؤكدة لها؛ وهي: اتقاء النار - التي هي عذاب الله الأكبر -؛ فقال:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: اتَّخِذُوا مَا يَتَّقِيكُمْ مِنْهَا. والفرق بين هذه التقوى وتقوى الله: أن تقوى الله فيها تدلُّ وتعبدٌ، بخلاف تقوى النار.

وهذه النار هي ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ وهيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الجاحدين المكذبين. فاتقوها بترك متابعتهم، والابتعاد عن أفعالهم.

قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: «هذه أخوف آية في القرآن؛ لأنَّ الله أوعَدَ المؤمنين بالنَّارِ المعدَّةَ للكافرين، إن لم يتَّقوه في اجتناب محارمه»^(١).

ولمَّا ذكر الله تعالى التخويف؛ أتبعه بفتح باب الرجاء، وذكر سبيل الرحمة؛ فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: امثلوا أمره، واتركوا ما نهى عنه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ طاعته داخلَةٌ في طاعة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (لعلَّ) هنا: وعدٌ من الله واجبٌ؛ أي: إذا حصلت التقوى منكم؛ فلا بُدَّ أن تحصل لكم الرحمة؛ لأنَّ الله تعالى وعد بذلك، وهو لا يُخلف الميعاد.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ مَنْ ترك مأمورًا به أو فعل منهيًا عنه؛ فليس بطائع لله ولا رسوله. وفيها: أنَّ الانقياد من علامات الإيمان.

وفيها: أنَّ النَّارَ مخلوقة وموجودة الآن؛ لقوله: ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾، والذي أعدَّها هو الله عَزَّ وَجَلَّ. وهذا فيه: ردُّ على الجهمية الذين يقولون: إنَّ النَّارَ لم تُخلَقْ بعد، وأهل السُّنة يقولون: قد خُلِقَتْ قبل خلق العباد.

وفي إخبارنا بأنَّ النَّارَ مخلوقة: زيادةٌ تخويف؛ ليتَّقِيها العباد.

وفيها: جواز اقتران اسم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسم الله تعالى، في الأمر المشترك - وهو الأمر الشرعي - ويجوز العطف بـ (الواو) في هذه الحالة، فتقول مثلاً: «الله ورسوله أعلم». وأمَّا في الأمور الكونية القدرية، المتعلقة بمشيئة الله تعالى؛ فلا يجوز العطف بـ (الواو)؛ فالأمر لله وحده. فإذا سأل شخصٌ عن مكان إنسان، أو عن أمرٍ غيبيٍّ: متى يحدث كذا؟ فلا يجوز أن نقول: «الله ورسوله أعلم»؛ لأنَّ هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشارِكًا لله في ذلك، خاصَّة بعد وفاته.

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٥٨/٣).

ولذا: لما قال رجل للنبي ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ! قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهِ عَدُوًّا - وفي رواية: ندًّا -؟ بَلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(١).

وفيها: أن طاعة الله ورسوله سبب للرحمة، والمقصود بها: الرحمة الخاصة، التي بها سعادة الدنيا والآخرة؛ لأن الرحمة العامة تشمل الجميع.

وفي هاتين الآيتين: ردٌّ على طوائف من أهل البدع، كالمرجئة الذين يقولون: «لا يضرُّ مع الإيمان ذنب»، والمعتزلة الذين يقولون: «لم تخلق النار بعد»، والممتنعين عن الأخذ بالسنة الذين يقولون: «لا نأخذ إلا بما في القرآن، ولا يعيننا الحديث».

وفيها: ردٌّ على الملاحدة، الذين يقولون بعدم وجود النار أصلاً!

وفيها: تهديد للمرابين وتخويف؛ لضبط شهوة المال.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٣٣).

ولما ذكر الله تعالى أنه أعدَّ النار للكافرين؛ ذكر أنه أعدَّ الجنة للمتقين، وذكر شيئاً من أوصافهم؛ فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾: وهو معطوف على قوله ﴿وَأَطِيعُوا﴾. أي: سارعوا وبادروا. و(المسارعة) مُفاعلة، تقتضي اشتراكاً بين اثنين فأكثر، بخلاف «أسرعوا».

﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ (المغفرة): ستر الذنب، ونحو آثاره؛ بالتجاوز عنه وعدم العقوبة عليه. وتنكير كلمة ﴿مَغْفِرَةٍ﴾؛ لبيان أنها عظيمة. فنَدَبَهُم إلى المبادرة إلى الأعمال التي تحصل بها المغفرة.

ف قيل في هذه الأعمال: الإسلام؛ لأنه يمحو ما قبله. وقيل: التوبة؛ لأنها تُوجب المغفرة. وقيل: تكبيرة الإحرام، وقيل: الإخلاص في الأعمال. وقيل: الهجرة أو الجهاد. وقيل: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، وقيل غير ذلك.

والمقصود بالآية: عموم الطاعات والأعمال الصالحة، التي تشمل هذا كله وغيره^(٢).

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠٣/٤).

فالمسارعة إلى مغفرة الله وجنته تكون بالسَّعي إلى أسباب المغفرة؛ من: التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبُعد عن الذُّنوب ومظائرها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يُرضي الله على الدوام، من: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع.

ولهذا ذكر الله تعالى الأعمال الموجبة لذلك في آية أخرى؛ فقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، والإيمان بالله ورُسُله يدخل فيه أصول الدين وفروعه.

وقوله ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ لا من غيره، وهذا يبيِّن شرف المغفرة، وأنها صادرة من الله تعالى مباشرة. ﴿وَجَنَّةٍ﴾: ذكر إيصال الثواب بعد إزالة العقاب. و(الجنة): هي البستان كثير الشجر، والمقصود: جنة الآخرة، وهي الدار التي أعدّها الله لأوليائه وعباده المؤمنين.

﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وهو كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]؛ فليس المعنى أن الجنة تحوي السماء والأرض؛ بل هي كعرضيهما، وإن كانت في محل آخر: فوق السماوات والأرض.

والمقصود: بيان عِظَم سَعَتِهَا، وقد ذكر العرض على المبالغة؛ لأنَّ طول كل شيء - في الأغلب - أكثر من عرضه، وكأنَّه يقول: هذه صفة عرضها، فكيف طولها؟ فلو جعلت السموات والأرض بعضها إلى بعض، كما تُبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض؛ لكانت مثل عرض الجنة؛ فكيف بطولها؟!

ولذلك لَمَّا أثار بعض أهل الكتاب شبهة حول هذا الآية، فسألوا: إن كان عرض الجنة هو السماوات والأرض؛ فأين النَّار؟ فأين اللّيل إذا جاء النهار؟ وقد رُوي هذا مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

(١) رواه أحمد (١٥٦٥٥)، وضعفه محققو المسند. وروى ابن حبان (١٠٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ جَنَّةَ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ هَذَا اللَّيْلُ قَدْ كَانَ، ثُمَّ لَيْسَ شَيْءٌ، أَيْنَ جُعِلَ؟» قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٩٢) على شرط مسلم.

وجاء موقوفاً عن عُمر رضي الله عنه، أن ناساً من اليهود سألوه عن ذلك؛ فأجاب بهذا^(١).
 والمعنى: أنه لا يلزم من عدم مُشاهدتنا الليل أثناء النهار، ألا يكون ليل مكان. وإذا
 كانت الجنة في أعلى عليين؛ فإن النار في أسفل سافلين.
 ثم قال تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: هيئت، وهذا معناه أنها مخلوقة موجودة الآن.
 ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يتقون عذاب الله، بامتنال الأمور واجتناب المنهيات.
 والتداء في الآية يشمل جميع المؤمنين؛ لتنهض همهم، ويتسابقوا في الخيرات التي تحصل
 بها المغفرة.
 وتشمل الآية العُصاة أيضاً؛ فيكون المعنى: سارعوا إلى توبة، تحصل بها مغفرة الذنوب
 والخطايا.
 ويدخل في الأمر أيضاً: الكفار؛ فيكون المعنى: وسارعوا إلى الدخول في الإسلام، الذي
 يمحو ما سبق، وتُغفر بدخوله الذنوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثارة التنافس بين المؤمنين في عمل الخيرات؛ وفي هذا استفراغ لقواهم وهمهم؛
 للازدیاد من الطاعات.
 وفيها: ترغيب للعباد في السعي إلى الجنة، بذكر وصفها وطولها واتساعها؛ فإن النفوس
 إذا عرفت الوصف الجميل للجائزة تاقّت واشتاقّت؛ فعملت.
 وفيها: أن من نافسك في الآخرة فنافسه، فإذا بكر إلى الصلاة: بكر قبله، وإذا أطمع
 مسكيناً: أطمع اثنين، وإذا حفظ سورة: فاحفظ أكثر. أمّا من نافسك في الدنيا: فألقيها في
 وجهه؛ لأن مجال التنافس في الآية هو في أعمال الآخرة، المؤدية للمغفرة.
 وفيها: الحث على الاستغفار؛ لأنه من أولى ما تحصل به المغفرة.
 وفيها: شرف عظيم للمؤمنين؛ بحصول المغفرة من ربهم. وبيان مصدر المغفرة ﴿مِنْ
 رَبِّكُمْ﴾ يحث على المزيد من العمل، ويقوّي التوحيد.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦/ ٣٩١).

وفيها: ازدياد محبة الله في نفس المؤمن، وهو يُوقِن أنَّ المغفرة من ربه، وأنه يحقُّق له ما هو محبوب ومرغوب ومطلوب.

وفيها: المبادرة إلى الأعمال قبل الموت، وقبل نزول المانع، كما قال الشاعر:

لَيْسَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ تَتِيهًا صَنَائِعُ الْإِحْسَانِ
فَإِذَا أُمَكَّنْتَ فَبَادِرِ إِلَيْهَا حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ^(١)

وفيها: مخالطة الأخيار، ومصاحبة الصالحين؛ ليتمكن من مُنافستهم.

وفيها: أنَّ السعادة لا تَتِمُّ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: زوال المكروه - وهو هنا بالمغفرة - وحصول المطلوب - وهو جنة الخلد -.

وفي الآية: بيانُ سَعَةِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ فَهِمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ طَوْلَهَا أَكْثَرُ مِنْ عَرْضِهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عَرْضُهَا وَطَوْلُهَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَدِيرَةٌ، وَالْفِرْدَوْسُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: كَرَمُ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِي أَعْطَى عِبَادَهُ هَذِهِ الْجَنَّةَ الْعَظِيمَةَ - عَلَى سَعَتِهَا - بِأَعْمَالٍ لَا تُكَافِئُهَا، وَلَا تُوقِي ثَمَنَهَا.

وفيها: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمَوْصِلِ إِلَى الشَّيْءِ، قَبْلَ ذِكْرِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ (المغفرة) قَبْلَ (الجنة).

وفيها: أَنَّ سَعَةَ الدَّارِ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٦١)

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ؛ شَرَعَ فِي تَفْصِيلِ حَالِهِمْ، وَبَعْضِ أَوْصَافِهِمْ؛ فَقَالَ:

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر (ص ٧٥).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ أموالهم في وجوه البرِّ والخير. وفي ذكر (الإنفاق) هنا بعد ما تقدّم من تحريم أكل الربّا: إشارة إلى أنه يجب إعانة المحتاج، لا استغلال حاجته. و(الإنفاق) هنا ضدُّ الربّا، فلما ذمَّ أكل الربّا؛ مدح المنفق والمتصدّق، وشَتَّانَ بَيْنَ المعطي في الخير، والأخذ من الحرام والشرِّ.

﴿فِي السَّرَّاءِ﴾: السَّعة والرَّخاء، والصَّحَّة والمنشَط.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: الفقر والضَّيق، والحُزن، والبُشْدَة، والمرض، ونحوه.

ولما مدح الله تعالى هؤلاء المتّقين، بتطهير باطنهم من الشُّحِّ - وهو من الأخلاق الذميمة -؛ ذكر من أخلاقهم الحسنة: كَظَمَ الغَيْظَ؛ فقال:

﴿وَالْكَاظِمِينَ﴾ (الكَظْم): هو المنع والكفُّ، وحَبْسُ الشيء عند امتلائه. ﴿الغَيْظُ﴾ وهو: أشدُّ الغَضَب. فيردُّ هؤلاء المتّقون غيظهم في أجوافهم، ولا يُظهرونه بقول ولا فعل؛ بل يصبرون، ويكتمون ويكفون شرَّهم، ويحتسبون الأجر في كلِّ هذا.

وقد ورد في فضل كَظَمَ الغَيْظَ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث كثيرة؛ فمنها:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ؛ دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْحَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»^(١).

وحديث: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَكْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةٍ غَيِظَ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ»^(٢).

وقد حثَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عدم الغَضَب؛ فقال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣).

وفي وصيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجُل الذي قال له: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»^(٤).

(١) رواه أبو داود (٤١٤٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٢٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٥٢) لغيره.

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) رواه البخاري (٦١١٦).

ووردَ أيضًا توجيهُ مَنْ غَضِبَ إلى أن يكون في أسكن حال؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»^(١).

قوله تعالى ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: يُسَامِحُونَهُمْ، وَيَعْفُونَ عَنْ ظُلْمَتِهِمْ، وَلَا يَبْقَى فِي نَفْسِهِمْ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ. و(العفو): هو تَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ. وأَعْلَاهُ: ما يكون مع الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

ثم هم لا يَكْتَفُونَ بِذَلِكَ؛ بَلْ يُحْسِنُونَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إلى النَّاسِ عُمُومًا، فَيُفَضِّلُونَ عَلَى الْخَلْقِ مُحْلِصِينَ لِلَّهِ.

وقد رُوي أَنَّ جَارِيَةَ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ جَعَلَتْ تَسْكُبُ عَلَيْهِ الْمَاءَ، لِيَتَهَيَّأَ لِلصَّلَاةِ، فَسَقَطَ الْإِبْرِيْقُ مِنْ يَدِهَا، فَشَجَّهَ، فَرَفَعَ عَلِيٌّ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾؛ فَقَالَ لَهَا: قَدْ كَظَمْتُ غَيْظِي. قَالَتْ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾؛ فَقَالَ لَهَا: قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. قَالَتْ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فَقَالَ: اذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ^(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ ذِكْرَ صِفَاتِ الْمُجَاوِرِينَ الطَّيِّبَةِ، مِمَّا يُرْغَبُ فِي السَّعْيِ لِسُكْنَى الدَّارِ.

وفي الآية: أَنَّ الصَّدَقَةَ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ التَّقْوَى: بَذْلُ الْمَالِ.

وفيها: الْمَدَاوِمَةُ عَلَى الصَّدَقَةِ؛ كما يفيدُه الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ: ﴿يُنْفِقُونَ﴾.

وفيها: عُمُومُ الْإِنْفَاقِ؛ كما دَلَّ عَلَيْهِ حَذْفُ الْمَفْعُولِ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ﴾؛ فَلَمْ يَذْكُرْ مَا يُنْفِقُونَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُتَقَنَّعُ بِهِ - كَالْمَالِ، وَالطَّعَامِ، وَالثِّيَابِ، وَالْوَقْتِ، وَالْجَاهِ، وَالرَّاحَةِ -.

وعُمُومُ الْإِنْفَاقِ يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، كما وردَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ التَّصَدُّقُ بِحَبَّةِ عِنَبٍ، وَبِالْتَمَرَةِ، وَبِالْبَصْلَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا تيسَّرَ لَهُمْ.

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤).

(٢) شُعَبُ الْإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٠/٥٤٥).

وفيها: ذكر ما يُعانيه كاظِم الغَيْظ من الشَّدَّة، ولهذا يكون أجرُه كبيرًا.

وفيها: فَضْل كَظَم الغيظ؛ لأنَّه يَدْرَأُ شَرًّا كَثِيرًا، ويمنع الآثامَ والمصائب، مثل: اللَّعْن، والقذف، والضرب والاعتداء، والإتلاف، والطلاق.

وفيها: عدم مُقَابَلَةِ الإساءة بالإساءة.

وفيها: الرحمة بالخلْق.

وفيها: الإحسان إلى الكافر - غير الحرَّبي -؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

وفيها: التَّرَقُّي في الأحوال من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ (العَفْو) - وهو إسقاط الإنسانِ حقَّه -؛ ذَكَرَ حَالًا أُخْرَى أَكْمَلَ مِنْهَا، وهي (الإحسان).

وفيها: أَنَّ الإحسان سَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ كَظَمَ الغَيْظ والعَفْو، من الإحسان.

وفيها: إيصال النفع إلى الغير، ودَفْعُ الضَّرَرِ عنه، وهذا من تعريفات (الإحسان).

وفيها: مُقَاوَمَةُ مَا يُلْهِي عن طاعة الله، ومن ذلك: الإنفاق في السَّرَّاء؛ لِأَنَّ السَّرَّاءَ مَدْعَاةٌ لِلْهُوِّ وَالانْشِغَالِ عَنِ الطَّاعَاتِ.

وفيها: الاستِمرار في الطَّاعات، مهما اشتدت الأحوال؛ فَإِنَّ الغُومَ والهُمُومَ والأحزان - وغيرها من أحوال الضَّرَّاء - قد تُقْعِدُ الْعَبْدَ عَنِ الطَّاعَةِ وَتُشْغِلُهُ عَنْهَا.

وفيها: أَنَّ عَلَى ابْنِ آدَمَ أَنْ يَغْلِبَ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ.

وفيها: أَنَّ الْإِنْفَاقَ، وَكَظَمَ الغيظ، والعَفْو، والإحسان - مع التَّقْوَى - كُلُّهَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٦٥)

ولَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، وَمَعَامِلَتَهُمُ الْحَسَنَةَ لِلْخَلْقِ؛ أَتْبَعَهُمْ بِصِنْفٍ آخَرَ دُونَهُمْ، لَكِنَّهُمْ يَلْحَقُونَ بِهِمْ فِي الْمَأْوَى إِلَى الْجَنَّةِ الْعَرِيضَةِ؛ وَهُمْ: التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ.

وقيل: بل هم أنفسهم المتّقون، المذكورون في الآية التي قبلها؛ فهم بشرٌ يُذنبون ويُحطّون، لكنّهم سرعان ما يعودون إلى ربّهم ويتوبون، فذكر الله تعالى حالهم عند وقوع الذنب منهم. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾ أي: وقَعُوا واقترفوا ﴿فَنَجِسَةً﴾ أي: ذنبًا قبيحًا، وهو: ما يُستَفْحَش شرعًا، ويتعدّى أثره للغير - كالزّنا والغيبة -.

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بذنوبٍ يقتصر أثرها عليهم.

وقيل: المراد بـ (الفاحشة): الكبائر، و(ظلم النفس): هو الصغائر.

فهؤلاء إذا وقعوا في الذّنوب؛ ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ بقلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم، وتذكّروا عظمتَه ووَعْدَه ووَعِيدَه؛ ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: سألوا ربّهم أن يغفرَها، ويتجاوزَ عنها، ويستُرّها.

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ ولذلك رجعوا إليه لا إلى غيره، وسألوه وحده.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ وُقيِمُوا ويُدَاوِمُوا ﴿عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ وارتكبوا، من الفواحش والآثام ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الإصرار يُحرّم من المغفرة.

أو: يعلمون أنّها معصية؛ فالمعنى: أنّهم لا يُصِرُّون على ذنوبهم عامدين للمُقَام عليها، وهم يعلمون أن الله نهي عنها وأوعدَ عليها العقوبة.

وقيل: وهم يعلمون أنّ لهم ربًّا يغفر الذّنوب، وأنّ الله لا يتعاضّطه العفو عن الذّنوب، وإن كثُرَت.

وقد ثبت في الحديث، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(١).

وفي الحديث: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ؛ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾^(٢).

(١) رواه أحمد (٦٥٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٨٠).

وفي هذه الآية من القوائد:

عِظَمُ شَأْنِ الاستغفار ومنزلته عند ربِّ العالمين، ودلالته على التوحيد؛ لأنَّ فيه لجوء العبد إلى الرَّبِّ في طلب مغفرة الذنب، ولذلك جاء في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١).

وفيها: أنَّه لا بُدَّ أن يكون لأسماء الله تعالى أثرٌ ومعنى في الخلق؛ فلو لم يكن من خلق الله مَنْ يُذْنِبُ، فكيف سيظهر أثرُ أسمائه: (الغفور)، و(التَّوَّابُ)، و(السَّيِّئُ)، و(العَفُوُّ)، ونحوها؟

وفيها: أنَّه ليس من شرط المتَّقِي أن يكون معصوماً.

وفيها: تفاوت الذُّنُوبِ، وأنَّ منها كبائر وصغائر، والكبائر بعضها أشدُّ من بعض، والصغائر بعضها أهون من بعض.

والكبيرة: كُلُّ ذَنْبٍ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عِقَابٌ خَاصَّةٌ - دُنْيَوِيَّةٌ أَوْ أُخْرَوِيَّةٌ -. وقيل: كُلُّ ذَنْبٍ تُوعَدُ عَلَيْهِ بَلْعَنٌ، أَوْ غَضَبٌ، أَوْ نَارٌ، أَوْ عَذَابٌ، أَوْ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا، أَوْ أَيْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ.

وفي الآية: سُرْعَةُ انتباه المتَّقِينَ عند فِعْلِ الذَنْبِ، وأنَّ من المُذْنِبِينَ مَنْ تَتَّقِظُ قُلُوبُهُمْ سَرِيعًا.

وفيها: أنَّ على المُذْنِبِ أن يستغفر لذنبه مباشرةً، بعد وقوعه في الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، و(الفاء) تُفيد التعقيب بلا تراخٍ.

وفيها: أنَّ ذكر الله سَبَبٌ للتوبة.

وفيها: أنَّ العِلْمَ يمنع صاحبه من فِعْلِ الذَنْبِ، أو الإصرار عليه.

وفيها: أنَّ معرفة ما حَرَّمَ الله، ومعرفة الوَعِيدِ المترتب على ذلك؛ يُعين كثيرًا في اجتناب المحرَّمات.

وفيها: أنَّ المُصِرَّ على الذنب مع العِلْمِ، أسوأ مَنْ ارتكب الذنب وهو لا يَعْلَمُ حُكْمَهُ.

وفيها: خطورة الإصرار على الذنب، وهذا معنى ما يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»^(١)، وقد عنون البخاري رحمه الله على هذه الآية: «باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر»^(٢).

وفيها: أن النفس عند الإنسان أمانة، يجب عليه رعايتها، ولا يجوز له أن يظلمها.

وفيها: أن ذكر القلب، يُورث استغفار اللسان.

وفيها: أن التوبة إلى الله واجبة، ولو كان الذنب متعلقاً بمخلوق، ولو سامح أو عفا عمن ظلمه؛ لأن المعاصي المتعدية فيها حقان: حق الله - ويخرج منه بالتوبة - وحق المخلوق - ويخرج منه بأداء الحقوق، أو العفو والمسامحة -.

وفيها: أنه لا مفرع للمذنبين إلا إلى الله ورحمته وعفوه؛ ولذلك يَفْرُونَ إليه من ذُنُوبِهِمْ؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وفيها: أن من عصى الله جاهلاً بحكم ما فعل، يُعَذَّر، إلا إذا كان مقصراً في التعلم، فيأثم على تجهيله لنفسه.

وفيها: أنه قد ينجو مُرتكب الكبيرة بحسن توبته، ويهلك مُرتكب الصغيرة بإصراره واستهانتة.

وفيها: أن الإصرار على فعل المعصية، والعزم التام عليها، مع العمل بالأسباب الموصلة إليها؛ يأثم به صاحبه، ولو لم يفعلها؛ لحديث: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٣).

ولحديث: «... وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فَلَانٍ، فَهُوَ بَيْنَهُمَا، فَوَزَّرَهُمَا سَوَاءً»^(٤).

(١) تفسير الطبري (٨ / ٢٤٥).

(٢) صحيح البخاري (١ / ١٨).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦) لغيره.

وفيها: أثر الجملة الاعتراضية في التنبيه على المعاني العظيمة؛ كما جاءت جملة: ﴿وَمَنْ يَغْفِرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ معترضة في سياق وصف حال المذنبين التائبين، وأفادت معنى عظيمًا.

وفيها: أن ذكر الله، ومعرفة وعده ووَعِيدِهِ؛ هو الباعث القوي على التوبة.

وفيها: أن الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة «الحديد»: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، يفيد بأن: الإيمان يستلزم العمل الصالح.

وفيها: أن من تكرر ذنوبه، وتكررت توبته بعد كل ذنب، وكانت توبة صحيحة بشروطها؛ فإنه لا يعتبر من المصيرين على الذنب.

وفيها: أن الإصرار ذنب، يجب الاستغفار والتوبة منه.

وفيها: أهمية استحضار الذنب، عند الاستغفار منه.

وللتوبة من الذنب أحوال:

فمنها: أن يتوب بعد فعل الذنب مباشرة.

ومنها: أن يبقى مدة لا يتوب، ثم يهديه الله، فيتذكر ذنبه الماضي، ويتوب منه.

ومنها: ألا يتذكر الذنب أصلاً، لكنه يعلم أنه أذنب. فهذا يفرع إلى التوبة العامة من جميع الذنوب، وعليه بجوامع أدعية الاستغفار والتوبة؛ كدعاء النبي ﷺ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١).

وكان ﷺ يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

(٢) رواه مسلم (٤٨٣).

وعلى المسلم كلما تذكَّر ذنبه أن يستغفر منه - ولو تذكَّره مرارًا - وقد قال عمر رضي الله عنه عن كلامه الذي اعترض به على النبي صلى الله عليه وسلم يومَ الحُدَيْبِيَّةِ: «فَعَمِلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا»^(١).

وفي الآية: أنَّ العلاجَ النفسيَّ بجَعْلِ المذنبِ ينسى الماضي - وفيه ذُنُوبُه -؛ منعًا للاكتئاب؛ هو علاجٌ فاسدٌ، مُصَادِمٌ لقوله تعالى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

والواجب على المسلم: أن يذكُر ذنبه، ويذكُر ربَّه، وأن يُقرَّ بالذنب، كما جاء في حديث سيِّد الاستغفار: «وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاعْفِرْ لِي»^(٢).

وأما الحالة التي تحتاج إلى علاج؛ فهي حالة مَنْ يصل إلى اليأس من رحمة الله - والعياذ بالله - عند التفكير في ذُنُوبه؛ فهذا لا يُنصح بِنسيان الذُّنُوب، لكنَّه يُنصح بأن يرجو رحمة الله وعَفْوه، ويؤمِّل في مَغْفِرته، ويستحضر وَعْدَ الله بمَغْفِرَةِ الذُّنُوب جميعًا مَنْ تاب منها، لا أن يتجاهل ما مضى ويتناساه؛ فَإِنَّ الله تعالى قال عن أهل الغفلة، الذين يغفلون عن ذُنُوبِهِمْ: ﴿أَخْصَسَهُ اللَّهُ وَسُوءُ﴾ [المجادلة: ٦].

وفي هذه الآية - مع التي قبلها -: ذِكرُ حال المؤمنين مع الله، بعد ذِكرِ حالهم مع الخلق؛ تذكيرًا بالحقِّين: حقَّ الله وحقَّ العباد.

وفيها: أَنَّهُ لا يَصِحُّ الاستغفار مع الإصرار، وهذا معنى قول بعض السلف: «استغفارنا يحتاجُ إلى استغفار»^(٣).

وفيها: أَنَّ ذِكرَ الله عند الذنب، يكون بالقلْب واللسان والجوارح:

فبالقلْب: بتذكُّر عَظَمَتِهِ، وحقوقه، ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ.

وباللسان: كالاستغفار، والتهلِيل، ونحوه.

(١) رواه البخاري (٢٧٣١) في أثناء حديث الحديبية عن الزهري قال: قال عمر ... فذكره. قال الحافظ في الفتح (٣٤٦/٥): «وهو منقطع بين الزهري وعمر ... والمراد به: الأعمالُ الصالحةُ ليُكَفِّرَ عنه ما مضى من التوقُّف في الامتثال ابتداءً».

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) الأذكار للنووي (ص ٤٠٥)، جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤١٠).

وذكر الله بالفعل وأعمال الجوارح: كالقيام بالأعمال التي تكفر الذنوب والخطايا، مثل: الصدقة التي تُطْفئ الخطيئة، والوضوء الذي يُخرج الخطايا من الأعضاء، وصلاة ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه بعد إسباغ الوضوء، ونحو ذلك.

وفيها: أن النفي بصيغة الاستفهام - كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ - أبلغ من النفي المجرد، فالأول يحمل معنى التحدي؛ كأنه يقول: «أنت لي بأحد غير الله يغفر الذنوب»؛ فلو اجتمع أهل الأرض ما استطاعوا أن يغفروا ذنباً لإنسان، ولو ساعوه في حقوقهم فيبقى حق الله تعالى.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ (١٣٦):

ولما ذكر الله تعالى المتقين وثوابهم وصفاتهم؛ ثم ذكر التائبين الذين لا يُصِرُّون؛ ذكر جزاءهم جميعاً؛ فقال:

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بالصفات السابقة ﴿جَزَاءُهم﴾ ثوابهم ومكافأتهم على أعمالهم: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ أي: عفو وتجاوز عن الذنوب، وستر لها عن الخلق ﴿مِنْ رَبِّهم﴾: وفي هذا زيادة ثقة وتأكيـد حصول المغفرة؛ لأنها صادرة من الله تعالى.

﴿وَجَنَّتْ﴾: جاءت هنا بصيغة الجمع - مع أن الجنة في الأصل واحدة -؛ لأنها درجات كثيرة، ومنازل متنوعة.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها وقصورها ومسكنها، على وجه الأرض، من غير أخاديد، وهي أنهارٌ متعددة، وقد جاء في القرآن ذكر بعض أنواعها، من الماء العذب، واللبن، والخمر، والعسل.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فلا يموتون، ولا يُخْرَجون.

﴿وَنِعَمَ﴾ هذا مدح للجنة ﴿أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾: أعطاهم الله إياها في مقابلة أعمالهم، وجزاء وثواباً على طاعاتهم، فضلاً منه سبحانه ونعمة؛ فالأعمال ليست ثمنًا للجنة، لكنها شرط لدخولها.

وفي هذه الآية من القوائد:

تحفيز العباد للارتقاء بالطاعات، والازدياد في الخيرات؛ وذلك بتنبههم على أن الجنة مراتب ودرجات -بصيغة الجمع- كما في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾.

وفيها: تحفيز هم العباد؛ بحيث لا يقتصر مطلوبهم على دخول الجنة، بل على تحصيل الدرجات العلى منها.

وفيها: ذكر الثواب والأجر؛ ليطمئن العاملون، ويزدادوا عملاً وسعيًا لنيل الأجر العظيم.

وفيها: الجمع في المكافأة بين زوال المكروه وحصول المطلوب، كما في قوله: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، وقوله ﴿وَجَنَّاتٌ﴾.

وفيها: أن المغفرة من أعظم الثواب.

وفيها: أن الجنة عظيمة؛ لأن الله تعالى إذا أثنى على شيء ومدحه؛ فلا بُدَّ أن يكون عظيمًا. بخلاف البشر؛ فربما مدحوا ما ليس بعظيم -كما يصنع كثير من الشعراء-.

وفيها: فضل الله العظيم على عباده التائبين؛ حيث جعل هذه الجنات جزاءهم، مع أن أعمالهم لا تكافئ الجنة، لكنه جعل هذه الأعمال سببًا لنيلها، ثم من كرمه عز وجل: أنه أعطاهم أضعافًا أضعاف ما يُقابل أعمالهم.

وفيها: عظم وفخامة ثواب الله وفضله، وما يأتي من عنده؛ كما يدل عليه قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وفيها: أن نعيم الجنة لا يحول ولا يزول، وأنه شيء كثير في مُقابلِ عملٍ قليل.

وفيها: أن دخول الجنة لا بُدَّ له من عمل؛ كما يدل عليه التعبير بـ ﴿أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾؛ فالأجر لا يستحق إلا بعد عمل، ولكن الكريم يُضاعف الأجر ويُنميه، ويدخره لصاحبه.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٢٧) :

ثم رجع السياق لبيان ما حصل في غزوة أحد؛ فقال تعالى -مخاطبًا عباده المؤمنين، الذين أصيبوا بمصيبة عظيمة في تلك الموقعة-:

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت. وهذه جملة محققة؛ لأنَّ (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي؛ أفادت التحقيق ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في الأَمَمِ الماضية ﴿سُنَّ﴾: جمع «سُنَّة»، وهي: الطريقة. والمراد: عادة الله الجارية في الناس.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (السَّير): هو المشي، ويشمل سير الأقدام بالتنقل، وسير القلوب بالفهم والتفكير.

﴿فَانظُرُوا﴾ بعين البصر والبصيرة، وتأملوا وتفكروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: مآلهم، ونتيجة أعمالهم، لما كذبوا الرُّسُلَ؛ فجرى عليهم من الله الهلاك والدمار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

المعالجة النفسية للمُصِيبَةِ العظيمة، التي كان حصولها مفيداً في تربية المسلمين -مع شدَّةِ ألمِها-؛ فجاء التأكيد من الله تعالى بأنَّ له سُنَّاً في الأَمَمِ وفيمن مضى من عباده، وأنها تجري على السابقين واللاحقين، وأنَّ أتباع الأنبياء يُبتَلَوْنَ ويُصابون بالمصائب العظيمة، ثم تكون لهم العاقبة والنصر على أعدائهم.

ولذا لما سُئِلَ الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: أيهما أفضل للعبد: أن يُمَكَّنَ أو يُبْتَلَى؟ فقال رَحِمَهُ اللهُ: «لا يُمَكَّنَ حتى يُبْتَلَى»^(١).

وفيها: الاستفادة من الأحداث -خاصَّة الكبار والعظام منها- بذكر ما يتعلَّق بها من الدُّروس والعِبَر.

وفيها: السَّير في الأرض لأخذ العِبَر؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

ومن وظيفة الإعلام الإسلامي: أن تتنقَّل العدسات ليرى المشاهدون والمشاهدات ما حصل للسابقين، مع ذكر الآيات المناسبة لتلك الأيام الماضية.

وفيها: أهمية عِلْمِ التاريخ، ومعرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأُمَمِ وفسادها، وهذا من التنقُّل المعنوي -وهو النظر في كتب التاريخ-.

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/١٣).

وفيها: الإرشاد إلى العلم الصحيح، المبني على المشاهدة.

وفيها: أنَّ الصراع بين الحقِّ والباطل قد حصل في الأمم السالفة.

وفيها: أنَّ العاقبة والغلبة تكون دائماً لأهل الحقِّ على أهل الباطل.

وفيها: أنَّ الاستفادة من آثار الأمم الماضية لا يكون ببيعها كنوزاً، وجعلها في المتاحف للتسلية؛ وإنما هي للعظة والاعتبار.

وفيها: تسلية المؤمنين إذا أُصيبوا على يد أعدائهم، بما حصل لأمثال هؤلاء الأعداء في الماضي، من الأخذ والإهلاك.

وفيها: أنَّ السير بالقدم في مواقع من بادوا واندثروا، قد يكون أشدَّ وقعاً من السير بالقلب؛ لأنه يجتمع فيه عينُ اليقين وحقُّ اليقين.

وفيها: أنَّ السير في الأرض ينبغي أن يكون لأغراضٍ شرعية، لا لأغراضٍ محرمة، أو لإضاعة الوقت والمال، أو لمجرد التسلية والسيّاحة - كحال كثير ممن يضيعون أوقاتهم وأموالهم وأعمارهم في السفر إلى بلاد الكفار، ولا يسلمون من الحرام -.

وفيها: أنَّ الأمر بالسير والنظر للاستحباب، لا للوجوب؛ فلو حصل بالوصف أو القراءة أو النقل والسماع، على سبيل التفكر والاتعاظ؛ فقد حصل المقصود، ولكن يبقى لمن شاهد فضل وميزة.

وفيها: أنَّ تحويل أماكن العذاب والاتعاظ والاعتبار إلى مناطق سياحية، تشمل: فنادق ومطاعم وملاعب وملاهي؛ يُنافي مُراد الله تعالى من عباده.

وفيها: أنَّ الخطاب بالسير للاتعاظ - وإن كان موجّهاً للمؤمنين - لكنه يشمل غيرهم؛ ليتعظوا بما أصاب أسلافهم، بل حاجة المكذّبين الجدد للاتعاظ بما أصاب أسلافهم، ربما تكون أشدَّ وأولى.

وفيها: خطورة التكذيب بآيات الله، وما أنزله تعالى على المكذّبين، وأنَّ عاقبة ذلك الهلاك.

وفيها: لَفَتَ أنظار المكذِّبين الجُدُد - عند دعوتهم - إلى ما حصلَ من أسلافهم، وأنَّ العِلَّةَ المشتركة التي أدَّت إلى إهلاك أولئك، حاصلةٌ وقائمةٌ في هؤلاء؛ فليحذروا، وليتوبوا، وليرجعوا إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ نزول العقوبات الدنيويَّة، وخَواء الدُّيار، وحصول الهلاك، كلُّها شواهد على صدق ما أخبر الله به، وهذا ممَّا يزيد الإيمان - أن تجد الواقع مطابقاً للخبر -.

وفيها: الجَمْع بين التسلية والتحذير، والجَمْع بين الخبر والنظر.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨)

ولمَّا ذكرَ الله تعالى من شواهد النظر، ما يدلُّ على صدق الخبر الذي جاء من عنده؛ قال عن مصدر الخبر:

﴿ هَذَا ﴾ القرآن الذي أنزله الله على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخبره، وأمره ونهيّه، ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ ﴿ بَيَانٌ ﴾ إيضاحٌ وجلالٌ ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ عامَّة؛ فهو دلالة ظاهرة، تبين للناس الحقَّ من الباطل، بما فيه من الحُجَج والبراهين الساطعة.

وهو أيضاً (بيان) للمؤمنين، يبيِّن لهم دينهم: عقيدة، وأحكاماً، وتفصيلاً في الحلال والحرام. ﴿ وَهُدًى ﴾ ودلالةٌ وإرشادٌ، ومُنَقِّذٌ من الضلالة والغواية، ومُخْرِجٌ من الظلمات إلى النور.

﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ تُلين به القُلُوب، فتحصل الطاعة والامتثال ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؛ لأنَّهم هم الذين يستفيدون منه، ويعملون به، امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيّه؛ ليذرُّوا عن أنفسهم عذابَ الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ القرآن صالحٌ لهداية المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر.

وفيها: أنَّ القرآن عِلْمٌ، لكن لا يتنفع به إلا المتقون؛ فمَن لم يتعظ بالقرآن فليتَّهم نفسه.

وفيها: فضيلة التقوى، وأنها سببٌ للائتمام بالقرآن، وكلِّما زادت زاد الانتفاع بكتاب الله.

وفيها: أنَّ القرآن بيانٌ لجميع الناس - على اختلاف ألسنتهم - وأولو العِلْم من العرب

يَعْقِلُونَهُ قَبْلَ غَيْرِهِمْ، وَأَمَّا تَرْجُمَةُ مَعَانِيهِ لِلْأَعَاجِمِ -لِللُّغَاتِهِمِ الْمُخْتَلَفَةِ- فَفِيهِ الْبَيَانُ الْكَافِي لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ؛ لِيَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ.

وفيها: اشْتِيَالُ الْقُرْآنِ عَلَى التَّخْوِيفِ وَالتَّذْكَرَةِ، الَّتِي تَحْيَا بِهَا الْقُلُوبُ؛ فَالْقُرْآنُ لَيْسَ مُصَدَّرًا لِلْمَعْرِفَةِ فَحَسْبُ؛ بَلْ هُوَ هِدَايَةٌ لِلْقُلُوبِ، وَفِيهِ مَا يُعِينُ عَلَى اسْتِقَامَةِ النُّفُوسِ، وَيُنِيرُ الطَّرِيقَ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، وَيَنْقِلُ النَّاسَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

وفيها: إِشْعَارُ النَّاسِ بِأَهْمِيَّةِ الْقُرْآنِ، وَلَقَدْ الْتَبَاهُ إِلَى عَظَمَتِهِ، وَالتَّدَبُّرِ فِي مَعَانِيهِ.

وفيها: أَنَّ الْقُرْآنَ عَامٌّ بِبَيَانِهِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، وَخَاصٌّ بِهُدَاهِ وَمَوْعِظَتِهِ لِلْمُتَّقِينَ.

وفيها: أَنَّ الْقُرْآنَ تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ، وَيُهْتَدَى بِهِ إِلَى الْمَحْجَّةِ.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٨)

وَلَمَّا مَدَحَ اللَّهُ كِتَابَهُ، وَبَيَّنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ وَالْهُدَى؛ قَالَ -مُسْلِيًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ نَزَلَتْ بِهِمُ الْمُصِيبَةُ الْعَظِيمَةُ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ-:

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَي: لَا تَضَعُفُوا عَنْ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ، لِأَجْلِ مَا أَصَابَكُمْ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ وَتَغْتَمُّوا لِمَا وَقَعَ بِكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، وَمَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ. فَلَا تَضَعُفْ أَبْدَانُكُمْ، وَلَا تَحْزَنْ قُلُوبُكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أَي: الْغَالِبُونَ، الْمُتَنَصِّرُونَ عَلَى عَدُوِّكُمْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: مُصَدِّقِينَ وَمُوقِنِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ.

قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «يُعْزِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كَمَا تَسْمَعُونَ- وَيَحْتُمُّهُمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْعَجْزِ وَالْوَهْنِ فِي طَلَبِ عَدُوِّهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ مُصِيبَةٌ فِي الْمَاضِي، أَوْ فَاتَهُ خَيْرٌ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْنَعَهُ حُزْنُهُ مِنَ الْعَمَلِ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وفيها: إِشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالْغَلَبَةَ وَالنَّصْرَ سَتَكُونُ لَهُمْ.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

وفيها: نهى المؤمنين في حال إقدامهم في الجهاد عن الضَّعْف، وفي حال إدبارهم عن الحُزْن.

وفيها: الإعراض عما مضى من الغُوم، والالتفات إلى استِدراكِ الأمر، وتحصيل ما ينفع.

وفيها: أنَّ الأعلى لا يليق به أن ينخَفِضَ ويذَلَّ.

وفيها: إعادة شَحْدِ هَمِّ المحزونين.

وفيها: تشجيعُ الأُمَّة، وبثُّ روح الأمل.

وفيها: أنَّ العبرة بغلبة النهاية، والنصر الحاسم.

وفيها: أنَّ الإيمان شرطٌ للعلوِّ.

وفيها: أنَّ العلاج النفسي لا يقلُّ أهمية عن العلاج البدنيّ، هذا إذا لم يكن مقدِّمًا عليه.

وفيها: أنَّ الاستِسْلامَ للحُزْن والقُعودَ عن العمل خلافُ العقل؛ لأنَّه لا يردُّ الفاتِت، بل يُضعِفُ العزيمة، ويَجْلِبُ التَّعب، وينغُصُ العيش.

وفيها: أنَّ الوَهْن يمنع من مُقابَلة الأمور بِجِدٍّ وحرَم؛ فلا بُدَّ من ترك الاستِسْلام له.

وفيها: أثر الإيمان في تقوية العزائم.

وفيها: صَرَفُ المؤمنين عما لا يليق بهم.

وفيها: أنَّ الإيمان يُوجِبُ قوَّةَ القلب، والثقة بنصر الله، وعدم التَّهَيُّب من الأعداء.

وفيها: أهميةُ التدبِيرِ للقتال، ووضع الخُطْط للمستقبل، وأثرُ التصديق بوعد الله في إنجاز ذلك.

وفيها: معالجة النفس بالمجاهدة، والتكَلُّف والتناسي، وإخراجها من نَقَى الإحباط.

وفيها: الحثُّ على تعويض الخسائر، واستِدراك ما فات، والإفاقة بعد المُصيبة.

وفيها: أهمية سلامة القلب والبدن، في مواجهة الأعداء.

وفيها: النهي عن الاستسلام لليأس، والاستسلام للأعداء.

وفيها: أنَّ المؤمنين أولى بالعودة إلى مُغَالَبَةِ العدوِّ بعد مُصِيبَةِ أَحَدٍ، من قريش الذين عادُوا إلى مهاجمة المسلمين بعد هزيمة بَدْرٍ.

وفيها: أنَّ عُلُوَّ الغَلَبَةِ المؤقَّتة يشترِك فيه المؤمن والكافر، وأمَّا عُلُوُّ الإِيَّان: فهو خاصٌّ بالمؤمنين، باقٍ لهم، سواء غلبوا، أو غلبوا.

وفيها: الإشارة للمُصاب، بما يخفِّف عنه أثر المُصِيبَةِ، ويدفعه للعمل؛ كما في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾:

ولما ذكر الله تعالى أنَّ له سُنَنًا ماضية في ابتلاء المؤمنين، وإهلاك المكذِّبين، ولَفَتَ النظرَ إلى ما في كتابه من البيان والهدى، ونهى المُصابين في أَحَدٍ عن الضَّعْفِ والحُزَنِ، وبشَّرَهم بالغُلُوِّ والغَلَبَةِ: أتى بمزيدٍ من المُواساة للصحابَةِ رضي الله عنهم؛ فقال:

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾ أي: يُصِيبُكُمْ ﴿قَرْحٌ﴾ قال مجاهد: «جراحٌ وقَتْلٌ»^(١)؛ ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ وهم كفَّار مكة ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ كما حصل في بَدْرٍ من قَتْلِ سبعين، وأسر سبعين، وما حصل في أول معركة أَحَدٍ مِنْ قَتْلِ نَحْوِ عشرين منهم، وجرح كثيرين.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ أي: أَيَّامُ الغَلَبَةِ والنصر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نُصِرَ فِيهَا وَنُاوِلُهَا ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ المؤمنين والكفار، والقُدَمَاءِ والجُدُدِ؛ فيومٌ لهم، ويومٌ عليهم.

وقد قال أبو سُفْيَانٍ يومَ أَحَدٍ - وكان مُشْرِكًا -: «يَوْمٌ بَيْنَ بَدْرٍ، وَالْحَرْبِ سِجَالٌ»^(٢).

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليظهر عِلْمُهُ في الواقع، ظهورًا تقوم به الحُجَّةُ،

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٩).

ويترتب عليه الجزاء في الآخرة، ويظهر إيمان المؤمنين، ويُعرف فضلهم، ويقتدي بهم من بعدهم.

﴿وَتَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: وهذا من حكمه تعالى أيضًا؛ فإنه يُقدّر القتل والجراح في المسلمين؛ لينال بعضهم مرتبة الشهادة، ويفوز الجريح بثواب الكلم، وسيلان الدّم في سبيل الله.

و(الشُّهَدَاءُ): جمع «شهيد»، وهو: مَنْ مَاتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَبِسَبَبِهِ. وَسُمِّيَ بذلك؛ لكونه مشهودًا له بالجنة، أو: لكونه كالمشاهد للجنة، أو: لأنّ قتله شاهدٌ على إيمانه وصدقه، وقيل غير ذلك.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الذين نقصوا حقه وحقَّ عباده.

وقوله تعالى ﴿وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: معطوفٌ على قوله ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾؛ أي: أن من حكمة الإصابة بالقتل والجراح أيضًا: التمهيص. وهو التطهير والتصفية، وتخليص الشيء من كل عيب. وهذا يكون من الذنوب والدواخل الرديئة في النفس، وتنقيتها من الشوائب؛ لتكون خالصة لله تعالى.

﴿وَيَمَحُوقَ الْكُفْرَ﴾ أي: يُهلكهم ويستأصلهم؛ لأنهم إذا انتصروا بغوا واستكبروا وبطروا؛ فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم، ومحقهم وفنائهم.

وفي الآيتين من الفوائد:

أن وقوع المصيبة على المؤمنين والكافرين معًا، لا يعني أن النتيجة والأثر واحد؛ لأن ذلك يكون عقوبة للكافرين، ورفعةً وتطهيرًا للمؤمنين.

وفيها: تناول المصيبة بالجمع بين علاج آثارها النفسية، وأخذ العبر والعظات والدروس منها. وهذا نهجٌ فريدٌ.

وفيها: أن المسلم المصاب إذا علم أن عدوه قد أصابه مثل الذي أصابه، هانت عليه المصيبة.

وفيها: حكمة الله العظيمة، في تنقل الغلبة بين الناس - مؤمنهم وكافرهم -؛ فلو بقيت دائماً للمؤمنين؛ لأصابهم العُجب والغرور، وحُرموا من منزلة الشهادة العظيمة. ولو بقيت الغلبة للكافرين؛ لأصبح دينُ الله مقهوراً مغلوباً، وصار أتباعه في هوان، ولا تقوم لهم قائمة، ورُبَّما أدَّى ذلك إلى عدم انتشار الدين في الأرض، أو زواله وانقراضه.

وفي الآية: بيان شيء من حكمة الله البالغة، في تقدير هذه المصيبة.

وفي ذكر الظالمين في الآية: إشارة للمنافقين، الذين ظلموا أنفسهم بالتخلف عن غزوة أحد، والانسحاب منها. وفيها أيضاً إشارة إلى الكافرين، الذين ظلموا المؤمنين الشهداء، فقتلواهم بغياً وعدواناً بغير حق.

وفي الآيتين: أنَّ الابتلاء طريق التمكين.

وفيها: أنَّه لا ينبغي للمسلمين أن تُعِدَّهم المصائب عن مواصلة الطريق، لإقامة دين الله في الأرض.

وفيها: أنَّ الأعداء إذا كانوا يعملون رَغْمَ ما يُصيبهم من جُهد ونفقات - وهم على باطلهم -؛ فالمؤمنون أجدر بمواصلة العمل بقوة وعزيمة منهم؛ ليقينهم بحسن العاقبة، وإيمانهم بوعد الله تعالى.

وفيها: أنَّ من حال الدنيا: ألا تدوم أفراحها، ولا أحزائها.

وفيها: أنَّ الناس لا يبقون على حال واحدة، وأنَّ النصر لا يستمرُّ مُلَازِمًا أحدَ الفريقين دون الآخر؛ فالنصر منصبٌ شريفٌ، لا يليق أن يكون للكافر دائماً وأبداً، ولا يدوم للمؤمنين أيضاً؛ لئلا تفوت حكمة الابتلاء والتمحيص وامتحان الثبات، واصطفاء الشهداء.

وفيها: أنَّ مداولة الغلبة بين المحقِّ والمبطل، من سُنَنِ الله في البشر. وأنَّ رجوعها إلى أهل الحق يكون بسبب بذلهم وتضحيتهم، وأنَّهم أهل لها. وذهابها إلى أهل الباطل يكون بسبب معصية أهل الحق، وتنازعهم، وعدم رعايتهم لما أمرهم الله به.

وفيها: أنَّه لا محاباة في السُّنَنِ الإلهية.

وفيها: أنَّ الابتلاء له جانبٌ إكرام، كاتِّخَاذِ الله الشهداء.

وفيها: أن الظالم ليس أهلاً لمقام الشهادة، ولا لدوام السلطة وثبات الدولة؛ بل قوته سريعة الزوال، قريبة الانحلال.

وفيها: تعزية المصابين، بذكر شيء من فوائد المصيبة، وما انطوت عليه من الحكم الإلهية، وأن أثرها يضعف بالنظر إلى ما أصاب الأعداء منها.

وفيها: أن استعادة النصر والغلبة من الأعداء، لا بُدَّ له من عمل ذؤوب وتضحيات، ولو دام النصر للمؤمنين؛ لركنوا إلى الدنيا، وأصابهم الكسل والدعة.

وفيها: أن علم الله يشمل: علمه بما مضى، وعلمه السابق بما سيحدث مستقبلاً، وعلمه بالشيء حين حصوله ووقوعه.

وفيها: أن الله يُقدِّر من الحوادث، ما يظهر بسببه علمه السابق، ويراه الناس واقعاً حاضراً.

وفيها: أن الله لا يُقدِّر المكروه ولا غيره عبثاً؛ وإنما لحكم بالغة.

وفيها: فضل الشهداء؛ لقوله ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: يتَّخذهم ويختارهم لنفسه. وفيها: فضل شهداء أحد.

وفيها: أن الله لا يوفق الظالمين للشبات، ولا لعمل الطاعات.

وفيها: أن الله قد يستدرج بالنعم، ويحرك النفوس بالمصائب.

وفيها: أن مداولة الأيام والغلبة بين الناس لها فوائد كثيرة؛ منها: إحداث خراك بين المسلمين، ودفعهم للعمل، واستنهاض الهِمَم، والإحساس بالتحدي، والعمل للإعداد، وحشد الطاقات، وبذل الجهود والتضحيات، وطرد الكسل، والعزم على التفوق، وتطوير القدرات، وحصول البركات، ومراغمة الأعداء، ومعالجة أدواء النفوس، وحصول المواجهة بين المسلمين والكافرين؛ فيكون بها النصر والأجر العظيم.

وفيها: إثارة الانتباه إلى أهمية الشيء، بأسلوب الالتفات البلاغي، بالانتقال من الحاضر في قوله: ﴿تَدَاوَلُهَا﴾، إلى الغيبة في قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ﴾، و﴿وَيَتَّخِذَ﴾.

ومن الأساليب البلاغية أيضًا: ذكر الشيء وضده، كما وقع في ﴿شُهَدَاءَ﴾، و﴿الظَّالِمِينَ﴾، وهذا يزيد في البيان.

وفيها: أَنَّهُ شَتَانٌ بَيْنَ مَنْ يَصِيْبُهُ الْقَرْحُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ يَصِيْبُهُ الْقَرْحُ فِي عِدَاوَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَنْتَقِمُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي نِهَايَةِ الصَّرَاحِ بَيْنَهُمُ وَالْكَافِرِينَ.

وفيها: أَنَّ تَصْفِيَةَ النَفُوسِ مِنْ شَوَائِبِ الرِّيَاءِ وَالتَّفَاقُ، وَالْعُجْبِ وَالْغُرُورِ، وَحُبِّ الدُّنْيَا، وَحُظُوظِ النَّفْسِ، وَذُنُوبِهَا، لَا بُدَّ مِنْهُ؛ لِيَكُونَ أَهْلُ الْإِيمَانِ مُؤَهَّلِينَ لِلنَّصْرِ.

وفيها: أَنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا مَا يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ أَمْرُ نَفْسِهِ، وَلَا تَتَجَلَّى لَهُ الْحَقِيقَةُ، إِلَّا بِالْإِمْتِحَانِ بِالشَّدَائِدِ الْعِظَامِ.

وفيها: أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَثْبُتَ لَهُمْ حَالٌ، وَلَا تَسْتَقَرُّ لَهُمُ الْأُمُورُ، إِلَّا فِي حَالِ غِيَابِ مَنْ يُوَاجِهُهُمْ وَيُقَاوِمُهُمْ - مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ -.

وفيها: أَنَّ الْكَفَّارَ إِذَا انْتَصَرُوا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ؛ أَصَابَهُمُ الْفَخْرُ وَالْكِبْرُ، فَيُغْرِيهِمْ هَذَا بِإِعَادَةِ الْكُرَّةِ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُمْ وَدِمَارُهُمْ.

وفيها: أَنَّ الْإِتِّلَاءَ إِذَا أَصَابَ أَهْلَ الْإِيمَانِ؛ كَانَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَذُنُوبِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذُنُوبٌ؛ رُفِعَتْ دَرَجَاتُهُمْ، بِحَسَبِ شِدَّةِ ابْتِلَائِهِمْ وَمَا أَصَابَهُمْ.

وفيها: أَنَّ نِعْمَةَ التَّغْلِبِ، قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِنِقْمَةٍ قَاصِمَةِ الظَّهْرِ.

وفيها: أَنَّ مُحَقِّقَ الْكَافِرِينَ يَكُونُ بَعْدَ تَمْحِيطِ الْمُؤْمِنِينَ.

وفيها: حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فِي تَخْلِيصِ صَفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُخْتَلِطِينَ بِهِمْ، وَتَمْحِيطِ مَوَاقِفِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَابْتِحَارِ صَبْرِهِمْ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ.

﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾: ﴿١٤٢﴾

ثم خاطب الله تعالى المؤمنين، الذين انهزموا وعصوا في غزوة أُحُد:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي: هل ظننتم. والاستيفهام للإنكار والتفريع والعتب ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وتفوزوا بنعيمها، دون اختبارٍ وابتلاءٍ.

ولذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: لم يظهر علمه في الواقع بعد. فهذا علم الوقوع والظهور ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ بالقتال في سبيله ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ على طاعته بالخروج للجهاد، وعن معصيته بعدم التوليّ والفرار، وعلى أقداره من القتل والجراح والشدة.

والمعنى: أظننتم - يا معشر المؤمنين - أن تنالوا كرامة ربكم، دون ابتلاءٍ يظهر به في الواقع علم الله السابق بالمجاهدين حقاً، والصابرين على البأساء والضراء وحين البأس؟! وهل ظننتم - أيها المنهزمون - أن تدخلوا الجنة، كما دخلها الذين قتلوا في سبيل الله، وبذلوا نفوسهم لأجله، وصبروا على ما أصابهم، إلا بعد أن تقدّموا كما قدّموا، وبذلوا أنفسهم لله؟!!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ محبة الله للمؤمنين لا تمنع من مُعَاتَبَتِهِمْ، وبيان تقصيرهم، وتوضيح معصيتهم.

وفيها: أنّ دخول الجنة لا يتمّ إلا بالجهاد والصبر.

وفيها: الصبر على عواقب الجهاد، من الجراح، والألم والشدة، والخوف، وكلّ المكروهات.

وفيها: تربية النفوس على مواجهة شدائد الحرب.

وفيها: وجوب سُلوِك طريق أهل الإيمان والصبر، من السابقين والحاضرين.

وفيها: أنّ سِلعة الله غالية، فلا تُنال إلا باقتحام المكاره؛ ولذلك حُفَّت الجنة بها؛ كما في الحديث: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١).

وفيها: تحمُّل ما يحدث في ذات الله وسبيله، من الآلام والمكاره.

وفيها: أنّ علم الله الأزلي السابق لا يترتب عليه الثواب والعقاب؛ وإنّما يترتب الثواب

(١) رواه مسلم (٢٨٢٢).

والعقاب على عِلْمِ الظُّهُور - وهو عِلْمُ الشيء عند حصوله ووجوده - وهو الذي تقوم به الحُجَّة على العباد؛ لأنَّ الله سبحانه لو حاسبهم بحَسَبِ عِلْمِهِ السابق الأزلِّي لقالوا: ما عَمِلْنَا، فَلِمَ نُعاقَب ونؤاخَذ؟

وفيها: أنَّ الصَّبر مطلوبٌ قبل القتال وبعده، وهو بعد القتال أصعبُ وأشقُّ على النفوس؛ فقد يظنُّ البعض من نفسه صبراً، فإذا رأى بارقةَ السُّيوف فرَّ وأصابه الفزع.

وفيها: أنَّ الله تعالى يمتحن عباده؛ ليظهر صبرهم أو ضجرهم.

وفيها: أنَّ راحة الآخرة لا تُدرك إلا بترك شيء من راحة الدنيا، وأنَّ نعيم الآخرة لا يُنال إلا بترك نعيم الدنيا، المُشغِل عن العمل للآخرة.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١١٣):

ولمَّا كان الصَّحابة رضي الله عنهم الذين لم يخرجوا في بدرٍ، قد رَأَوْا ما فاتهم من المشاهد العظيمة والمناقب الشريفة لمن حضرَ بدرًا، من رضوان الله تعالى، والمغفرة، وقاتل الملائكة، والنصر، ورَأَوْا الغنائم وأسرى قُرَيْش مع العائدين من بدرٍ، وسمِعوا أخبارَ مَنْ قُتِل من الكُفَّار؛ صار ذلك دافعاً عظيماً لهم ليلقوا العدو، وينالوا مثل تلك المناقب والفضائل.

ولم يكن ذلك ليتِمَّ إلا بمعركةٍ ولقاءٍ آخر معهم، فلمَّا حصل ذلك في أحد، وهم يترقبونه، وقد تشوَّقوا إليه، وأصرُّوا على الخروج من المدينة لأجله، ثم حصل ما حصل من العصيان والتنازع والتولي؛ قال الله لهم:

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ أي: كنتم - أيها المؤمنون - تَمَنَّوْنَ لقاء العدو قبل هذا اليوم، وتودُّون منازلته ومُصابرته، وكنتم تطلبون القتل والشَّهادة في سبيل الله.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ وأبصرتم أسبابه، في لَمعانِ السُّيوف وحدِّ الرِّماح واشتباكِ الصُّفوف، ورأيتُم من إخوانكم مَنْ يُقتل أمامكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى ذلك حقيقة لا خيالاً.

فما دامت قد حصلت لكم الفرصة لنيل الشَّهادة في سبيل الله؛ فلماذا لم تصبروا وتشبُّوا وتقاتلوا لنيل ذلك؟!

وفي هذه الآية من القوائد:

الحرص على استدراك ما فات.

وفيها: السعي لنيل الشهادة في سبيل الله، وأن تمنّي ملاقات العدو لأجل هذه الغاية أمرٌ حسنٌ محمودٌ. لكن إذا كان التمني باستهانة واستخفاف، واغترار بالنفس؛ فيكون - حينئذٍ - مذمومًا؛ ولذلك نهى النبي ﷺ عنه بقوله: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَأَصِرُّوا»^(١).

وفيها: تنبيه المؤمنين إلى اتقاء الغرور، بمجرد حديث النفس، والأمانى الكاذبة والتشهي، بلا إعداد ولا صبر.

وفيها: أن الله يبتلي النفوس بالمواقف الصعبة والأعمال الشاقة؛ لتظهر حقيقة الأمنيات.

وفيها: أن من تمنّى الشيء وسعى إليه؛ لا ينبغي أن يُخزّنه وقوعه، أو أن يسوءه لقاءه.

وفيها: أن شدة الأهوال تُري المرء الشيء المعنوي الغائب، محسوسًا حاضِرًا.

وفيها: أنه ينبغي على المؤمن أن يفِي بما عاهد الله عليه.

وفي الآية: تربية عظيمة لمن ظنّ بنفسه خيرًا، واتَّخَذَهَا مَكَانًا عَالِيًا، وزعمَ ما لا يقدر عليه، بأن ذلك كله سيتكشف ويتجلى إذا حَقَّتْ الحقائق.

وفيها: أن تمنّي الشهادة في سبيل الله أمرٌ محمودٌ؛ ولذلك أقرَّ الله عليه الصحابة رضي الله عنهم - كما في الآية - وإنما المذموم عدم العمل بمقتضيات هذه الأمانة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١١٤):

ولما كانت الغلبة للمسلمين في أول المعركة، وفرَّ المشركون، وسقط لواءهم؛ خالف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ، فزولوا وجعلوا يأخذون الغنائم، والتقت صفوفُ

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

المسلمين بعضهم مع بعض والتبسوا، ففاجأتهم خيل المشركين من الخلف، فوقعوا فيهم قتلاً، واضطرب أمر المسلمين، حتى جعل بعضهم يضرب بعضاً، وقُتِلَ من المسلمين كثيرون!

فعند ذلك صاح الشيطان: قُتِلَ مُحَمَّدًا!

فوقع ذلك الخبر في قلوب كثير من المؤمنين، ولم يشكوا فيه أنه حق، واضطرب أمرهم، فصاروا ثلاث فرق: ثلث جريح، وثلث مقتول، وثلث منهزم.

فعاتب الله تعالى المؤمنين على ما حصل منهم من الوهن والضعف، والتأخر عن القتال بسبب تلك الإشاعة؛ فقال عز وجل:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ ﴿بَشِّرْ، مُرْسَلٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ﴿أَي: مَضَتْ وَانْقَضَتْ، فَمَاتُوا أَوْ قَتَلَهُمْ أَقْوَامُهُمْ وَأَعْدَاؤُهُمْ، فَهُوَ سَيَمُوتُ كَمَا مَاتُوا قَبْلَهُ، وَسَيَخْلُو كَمَا خَلُوا.﴾

﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ﴾ ﴿كَمَا مَاتَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَغَيْرُهُمْ﴾ ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ ﴿كَمَا قُتِلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَغَيْرُهُمَا﴾ ﴿أَنْقَلَبْتُمْ﴾ ﴿رَجِعْتُمْ وَنَكَصْتُمْ﴾ ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ﴿وَأَدْبَارِكُمْ، وَارْتَدَدْتُمْ عَنِ الدِّينِ، وَتَوَلَّيْتُمْ عَنْ نُصْرَتِهِ؟! أَفَلَا تَقْتَدُونَ بِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ بَعْدَ رَحِيلِ أَنْبِيَائِهِمْ؟﴾

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ ﴿وَيَرْجِعْ إِلَى الشَّرِّ، وَيَتَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ ﴿لَأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَفِعُ بِطَاعَةِ الطَّائِعِينَ، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعْصِيَةِ الْعَاصِينَ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ الْمُنْقَلِبُ نَفْسَهُ، وَيَتَعَرَّضُ لِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.﴾

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: سَيُكَافِئُهُمْ عَلَى شُكْرِهِمْ نِعَمَهُ، وَعَلَى رَأْسِهَا: الْهُدَايَةَ لِدِينِ الْإِسْلَامِ، بِثَبَاتِهِمْ عَلَيْهِ، وَعَمَلِهِمْ بِهِ، وَيَذْلُجُهُمْ مِنْ أَجْلِهِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشِّرٌ، يَلْحَقُهُ الْمَوْتُ، كَمَا لَحِقَ جَمِيعَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ.

وفيها: إمكان مَوْت النبي ﷺ شهيدًا بالقتل.

وفيها: رَدُّ على مَنْ زعم أن النبي ﷺ لم يمت.

وفيها: انتفاء الضرر عن الله تعالى.

وفيها: الحثُّ على شكر النعم.

وفيها: تربية الله لعباده المؤمنين، على التعلُّق به، وبدينه، وأن يستمرَّ عملُهم بعد موت نبيِّه ﷺ، ولا يكون مقتصرًا على وجوده بينهم، ولو مات النبي ﷺ فإنَّ الله -المعبود بحق- حيٌّ لا يموت.

وفيها: التأسِّي بمن سلف من الأنبياء وأتباعهم.

وفيها: قياس الحاضر على الماضي، في السنن الإلهية.

وفيها: أنَّ الرسول ليس مقصودًا لذاته؛ ولكنه مقصودٌ لما أُرسل به من الدين والهداية، وأنَّه مُبلَّغٌ لا معبود، والمُبلَّغ يموت، والمعبود حيٌّ باقٍ لا يموت.

وفيها: التحذير من الرجوع عن الدين، إذا مات المُبلَّغ أو الدَّاعية، وأنَّ مَنْ اهتدى على يديه فعليه أن يُكَمِّل الطريق.

وفيها: أنَّه يجب أن ترتبط الاستقامة والثبات بالدين، لا بالأشخاص.

وفيها: إرشادٌ من الله تعالى، بأن يكون عباده المؤمنون على حالة، لا يُزعزعهم فيها عن إيمانهم فقدٌ كبير أو قُدوة -مهما علت منزلته- وذلك بالاستعداد في كلِّ أمرٍ من أمور الدين بعددٍ من أهل الكفاءات، بحيث إذا فُقد أحدُهم قامَ بالأمر مَنْ بعده.

وفي هذا: أهمية إعداد الصف الثاني في العلم والدعوة، بحيث يكون لكلِّ عملٍ مُهمٍّ وخطيرٍ رجالٌ كثيرون مُجربون للقيام به، فإذا فُقد مَنْ يتولاه غيره مقامه. وبهذا لا تنقرط الأمور، ولا تحدث الثغرات.

وفيها: الثبات على الحق.

وفيها: وجوب الاستمرار في مُناجزة الأعداء.

وفيها: عدم المبالاة بارتداد الضُّعفاء والمنافقين.

وفيها: أَنَّ المصائب التي تحلُّ بالإنسان، لا علاقة لها بكونه على الحقِّ أو الباطل؛ فأهل الحقِّ أصحاب مصائب وابتلاءات.

وفيها: أَنَّهُ لا يُعتمد في معرفة الحقِّ على غَلَبَةِ أهله الماديَّة؛ فقد يكونون على حقٍّ لكنَّهم مُستضعفون.

وفيها: أَنَّ الحكمة من إرسال الرُّسل هي تبليغ الدِّين، فإذا تمَّ البلاغ فقد حصل المقصود من الإرسال.

وفيها: أَنَّ القتال في الجهاد لا يَصِحُّ أَنْ يَرْتَبِطَ ببقاء القائد أو حياته؛ فيجب إكمال المعركة، ولو قُتِلَ أو أُصِيبَ القائد.

وفيها: أَنَّ جميع الرُّسل قد ماتوا؛ فليس منهم أحدٌ حيٌّ على الأرض، لا الخضر ولا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيرهما. أما عيسى عَلَيْهِ السَّلَام: فقد رُفِعَ إلى السماء، وهو حيٌّ، وسينزل في آخر الزمان.

وفيها: أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي جميعاً.

وفيها: أَنَّ رسالة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنقطع بموته.

وفيها: أَنَّ المتكس يسير إلى غير هُدًى؛ بل يسقط على قفاه، ولا يتقدَّم ولا يستقيم؛ فقد شُبِّهَ في الآية بـ (المنقلب على عقبيه)، و(العقب): هو العُرقوب في مؤخرة القدم، ومَنْ ينقلب على عَقْبِيهِ فهو كالذي يمشي مُكَبِّاً على وَجْهِهِ، يسير بغير هُدًى، وعلى غير الهيئة المعتادة، فيسقط، أو لا يستقيم في مشيته.

وفيها: أَنَّهُ ينبغي أَنْ تكون المصالح العامة جاريةً على نظام ثابت، ومصيرُها غيرَ مرتبطٍ بأشخاص.

وفيها: أَنَّ الحُزن على المُصيبة العظيمة، لا يَصِحُّ أَنْ يَمْنَعَ من مواصلة الطريق في نُصرة الدِّين.

وفي الآية: إعداد الأمة لِمَا سِيَأْتِي من الأحداث العظام، ومنها: وفاة النبي ﷺ؛ ولذلك استشهد أبو بكر رضي الله عنه بالآية في هذا المقام العظيم؛ فقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «والله، لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا، حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا بِتِلْوَاهَا»^(١).

وكذلك جرى إعداد الأمة بهذه الآية، لمواجهة ردة العرب بعد وفاة النبي ﷺ؛ فثبت الصحابة الذين تلووا هذه الآية، وعرفوا حقيقتها.

وفي الآية مع سبب نزولها:

الحذر من الإشاعات المثبّطة؛ لأنها تفت في العَصْد، وتُقعد عن العمل.

وفيها: أَنَّ الشَّيْطَانَ يُشِيعُ الإشاعات.

وفيها: الحذر من أخبار المجاهيل.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾^(١٤٥).

ثم ذكر الله تعالى أَنَّ وفاة نبيه ﷺ - أو غيره من الناس - إنما هي بأمر الله وإذنه وقدره عز وجل، وأنه إذا بقي من عمره ﷺ بقية - لإكمال إبلاغ الدين -؛ فلا يمكن أن يموت قبل ذلك؛ لأنَّ آجال النفوس مكتوبة، ولا بُدَّ أن تُستوفى، والله تعالى هو الذي قضى بذلك.

فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: يُمتنع غاية الامتناع، وليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها ﴿أَنْ تَمُوتَ﴾ مهما حاول الناس ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره،

(١) رواه البخاري (١٢٤١).

وقضائِهِ وقَدَرِهِ، وَعِلْمِهِ، وإِرَادَتِهِ ومَشِيئَتِهِ. والمقصود بـ (الإذن) هنا: الإذن الكونيُّ، لا الشرعيُّ.

﴿كَتَبْنَا﴾ كتبه الله ﴿مُؤَجَّلًا﴾ أي: لأجل معيَّن، فلا يزيد ولا ينقص.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: يكون عمله لها ومن أجلها، وَلِحَظْهَا ومنفَعَتِهَا؛ ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: نُعْطِيهِ جزاءَ عمله ما قَدَّرْنَا له من الدُّنْيَا، قليلاً أو كثيراً، وليس له في الآخرة من نصيب.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ ويقصد بعمله الصالح أجرَ الله ونعيمَ الآخرة؛ ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ الأضعافَ المضاعفة.

وهذه القاعدة - وإن كانت قد نزلت في سياق آياتِ الجهاد -؛ لكنها تعمُّ سائرَ الأعمال. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، ونثيب الثَّابِتِينَ، المقرِّين له بفَضْلِهِ، الشَّاكِرِينَ لِنِعْمِهِ، المستعملين لها في طاعته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكْرُ قضاءِ الله في الموت، وقَبْضِ أرواحِ العباد.

وفيها: أَنَّهُ مهما اجتمعَ الناسُ على قَتْلِ أو إماتَةِ أَحَدٍ لم يأذن الله بموته؛ فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

وفيها: تشجيعُ المقاتلين في سبيل الله على خَوْضِ غِمارِ الحروب، واقتحامِ الأهوال، وأنَّ هذا لن يؤدِّي بالضرورة إلى الموت؛ فقد يعيش الشَّجاع ويُقَتَّل الجَبَان، ويموت الشابُّ ويمتدُّ العمر بالشيخ الضعيف؛ فللأعمارِ آجالٌ، وللآجالِ أقدارٌ.

وفيها: أَنَّهُ لا عُذْرَ في الوَهْنِ وَالضَّعْفِ.

وفيها: تشجيعُ المؤمنين على لقاءِ العدوِّ، وأنَّ آجالهم لن تنتهيَ قبل الوقتِ المعلوم عند الله، والعمرُ مقدَّرٌ مكتوبٌ.

وفي الآية: إشارةٌ إلى حِفْظِ الله لِنَبِيِّهِ ﷺ، مع غَلَبَةِ العدو، والتفافِهِم عليه في غزوة

أُحْد، وَقَتْلَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَزِيمَةَ مَنْ انْهَزَمَ، وَجُرْحَ مَنْ جُرِحَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقِلَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَافِرُونَ كَثْرَةٌ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا حَفِظَ أَحَدًا فَلَنْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ حِفْظَ أَحَدٍ مِنَ الْمَوْتِ؛ هَيَّأَ لَذَلِكَ أَسْبَابًا.

وَمِنْ أَسْبَابِ حِفْظِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ:

أَنَّهُ أَخْفَى مَكَانَهُ عَنْ أَعْيُنِ الْكُفَّارِ وَصَرَفَهُمْ عَنْهُ تَارَةً، وَجَعَلَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ يِقَاتِلُ دُونَهُ تَارَةً أُخْرَى، وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ مِنْ جَسَدِهِ دِرْعًا يَقِيهِ سَهَامَ الْعَدُوِّ، حَتَّى وَقَعَتْ فِي ظَهْرِهِمْ بَعْضُهُمْ - وَقَدْ شَلَّتْ يَدُ طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَقَاهُ سَهْمًا - وَتَارَةً كَانَ الْحِفْظُ بِإِنْزَالِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَقَاتِلَانِ عَنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ بَيْنَهُمَا -.

فَهَذِهِ كُلُّهَا أَسْبَابٌ فِي حِفْظِ اللَّهِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكِلَالَتِهِ لَهُ.

وفيها: أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْأَعْمَالِ هِيَ نِيَّةُ الْعَبْدِ. فَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا؛ أَعْطَاهُ تَعَالَى مِنْهَا مَا شَاءَ، وَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْآخِرَةَ؛ جَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَاهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَكْفِيهِ، وَأَوْفَى لَهُ أَجْرَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وفيها: أَنَّ الْمُؤَثِّرَ فِي جَلْبِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ هُوَ: الدَّوَاعِي وَالنِّيَّاتُ وَالْمَقَاصِدُ، وَلَيْسَ ظَوَاهِرُ الْأَعْمَالِ فَقَطْ.

وفيها: أَنَّ مُبْتَغِي الدُّنْيَا لَا يُشْتَرِطُ أَنْ يَحْدُثَ لَهُ كُلُّ مَا يَرِيدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾؛ فَقَدْ لَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا النَّزْرُ الْيَسِيرُ، وَالشَّيْءُ التَّافِهُ.

وفيها: أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ؛ فَهُوَ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

وفيها: أَنَّهُ يَجِبُ الْاسْتِسْلَامُ لِمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجَالِ.

وفيها: أَنَّ النَّاسَ لَهُمْ مَشَارِبُ وَمَسَالِكُ مُخْتَلِفَةٌ فِي الدَّوَافِعِ.

وفيها: تَحْذِيرٌ مَنْ اِنْشَغَلَ بِالْغِنَائِمِ وَمَتَاعِ الدُّنْيَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ، وَالتَّعْرِضُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

وفيها: عَظِيمُ جَزَاءِ الشَّاكِرِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ لَهُ مَقْدَارًا وَلَا حَدًّا، وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى عَظَمِهِ.

﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦):

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين المصابين في أحد، بحال المؤمنين الذين كانوا مع الأنبياء الماضين؛ ليتأسى اللاحقون بالسابقين، ويقتدوا بهم، ويصبروا كصبرهم، ويثبتوا كثباتهم، ويكون في ذلك أيضاً تسليّة لهم عما أصابهم.

فقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: وكم من نبيٍّ. والمقصود: أنهم كثير ﴿قَاتَلَ﴾ لإعلاء كلمة الله، وفي سبيل الله ﴿مَعَهُ﴾ من أصحابه وأنصاره ﴿رِيتُونَ﴾ يعبدون الربَّ عزَّ وجلَّ، ومنهم الفقهاء والعلماء، وقد ربّاهم الأنبياء وتعاهدوهم ﴿كَثِيرٌ﴾ ألوف، وجموع كثيرة.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ما جبن ولا فتر هؤلاء الرّبّانيون ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ ولا عجزوا عن قتال عدوهم بسبب ما أصبهم من جراح، أو وصب ونصب، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: ما ذلّوا ولا خضعوا، ولا استسلموا لعدوهم، ولا ارتدوا.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على مشاق الجهاد، وشدائد التكليف، وعلى ما أمرهم به ربهم عزَّ وجلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد - مع ما قبلها وما بعدها -:

الجمع بين المواساة في المصيبة، واللوم على التقصير.

وفيها: تسليّة اللاحقين بما أصاب السابقين، وتصبير المتأخرين بمصائب المتقدمين.

وفيها: ضرب المثل للحاضرين بثبات من مضى من أهل الإيمان؛ ليفعلوا فِعْلَهُمْ، ولا ينهزموا أو يفرّوا.

وفيها: عتاب من الله لمن انهزم في أحد، وترك القتال لما سمع الصائح: «إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ»؛ فقليل لهم: إِنَّ أصحاب الأنبياء السابقين قد ثبتوا رغم قتل أنبيائهم، ولم يضعفوا ولم يجبنوا؛ بل واصلوا الطريق واستمروا في العمل.

وفيها: أَنَّ العِلْمَ والفقه والتربية، هي السبب العظيم في الصبر والتثبيت.

وفيها: اجتماع أهل الإيمان على نُصرة الأنبياء، والمواصلة في تحقيق ما أمر به الرحمن.

وفيها: أن البصيرة تمنع من الارتداد.

وفيها: أن صاحب الإيمان لا يذل ولا يستكين.

وفيها: أن عبادة الرب عز وجل تُورث الصبر عند اللقاء، والاستمرار في العطاء.

وفيها: أن أهل الحق يقدمون التضحيات الكبيرة، والشهداء، في سبيل نصر الحق والدين.

وفيها: أن الجهاد والاستمرار فيه من وسائل إعزاز الدين.

وفيها: مُعَاتَبَةُ قِصَارِ النَّفْسِ، الذين تقعد بهم المصائب والمصائب.

وفيها: النهي عن الذل والخنوع.

وفيها: إثراء هذه الأمة بخبرات وتجارب من سبقها.

وفيها: أن الجهاد كان مشروعاً لمن كان قبلنا.

وفيها: أن ذكر النماذج العظيمة يُشجّع الإنسان على الاقتداء بمن سلف من الرُّبَانِيِّين، ويُغريه للحاق بهم.

وفيها: انحطاط مرتبة الذين يذلُّون لأعداء الله، كما يؤخذ من قوله: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، وأنه لا ينبغي للمسلم أن يذل أمام عدوه.

وفيها: أن أتباع الأنبياء يبقون أوفياء.

وفيها: أن المؤمن عزيزٌ بدينه.

وفيها: أن نُصرة الدين تحتاج إلى قوَّة القلب، بالإضافة إلى قوَّة البدن والسلاح.

وفيها: كثرة من قُتل من الأنبياء في سبيل الحق، وذلك على قراءة من قرأ: (وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥٧):

ثم ذكر الله تعالى بعض كلام هؤلاء، الذين ثبتوا عند لقاء العدو - ممن سبقونا في الإيمان -؛ فقال عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ في تلك الشَّدائد والأهوال، وساحات القتال، أو عندما قُتِلَ أنبياءهم
 ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ - وهذا شأنهم، ودأبهم وعاداتهم -: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ أي: اسرُّ وتجاوز
 ﴿ذُنُوبَنَا﴾ كبيرها وصغيرها ﴿وَاِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوزنا الحدَّ في أمر ديننا وشأننا،
 بغُلُوٍّ أو تقصير.

﴿وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ عند مُلاَقاة الأعداء، وأفرغ علينا صبراً، واربط على قلوبنا؛ حتى لا
 نفرَّ منهم ﴿وَأَنْصُرْنَا﴾ أي: واجعل لنا الغلبة ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بك، وبمن أرسلته،
 وبما أنزلته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تواضع المؤمنين بذكر ذُنُوبِهِمْ.

وفيها: أهمية التوبة والاعتراف بالذنب، في وقت الشَّدة وقيام المعركة.

وفيها: اللُّجُوء إلى الله عند القتال.

وفيها: اعتياد الدُّعاء عند مواجهة الأعداء.

وفيها: طلب النصر بالاعتراف بالذنب.

وفيها: هَضْم النفس، بالاعتراف بتقصيرها وتجاوزها، وإضافة الذُّنُوب والإسراف
 إليها، مع أن أصحابها من الرِّبَّانِيِّينَ.

وفيها: اقتران الدُّعاء بالمُصَابَرة والمُجَاهَدة.

وفيها: المواظبة على اللُّجُوء إلى الله، وعدم الجَزَع والتزلُّزل، وأنَّ ذلك يَحْمِي من الفشل
 والهزيمة.

وفيها: أنَّ الذُّنُوبَ والإسرافَ من عوامل الخِذلان والفرار.

وفيها: أهمية الدُّعاء المذكور عند القتال.

وفيها: أهمية طلب الثبات عند مواجهة الأعداء، وعند الشُّبُهات والشَّهوات.

وفيها - مع التي قبلها -:

اقتِران كمال الأقوال، بكمال الأفعال والأحوال.

وفيها: إشارة إلى أن الرُّعْبَ من نتائج الذنب، والثبات من ثمرات الطاعة.

وفيها: أن الدُّعاء عند التِّقاء الصفوف لا يُرَدُّ؛ كما قال النبي ﷺ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ - أَوْ قَلَمًا تُرَدَّانِ -: الدُّعَاءُ عِنْدَ التَّنَادِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

وفي طلب (المغفرة) قبل طلب (تثبيت الأقدام): تقديم لطلب التَّخْلِيَةِ على طلب التَّحْلِيَةِ.

﴿فَتَأْتِيهِمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨):

ولمَّا حُسِنَت النوايا، وصدقت الأقوال، وصححت الأفعال من هؤلاء المؤمنين الربانيين؛ كان جزاؤهم في الدارين كاملاً موفوراً؛ ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَتَأْتِيهِمْ اللَّهُ﴾ أعطاهم ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: بالنصر على الأعداء، والظفر بالغنيمة، والتمكين في الأرض، والعِزَّة والكرامة، والأمن، والثناء الجميل.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: برفعة الدَّرَجَات في جنَّات النعيم، والنجاة من عذاب الجحيم.

وإنما خصَّ (ثواب الآخرة) بـ (الحسن)؛ إعلالاً بشرفه وفُضله، وأنه خالصٌ نقيٌّ من كلِّ شائبة، لا يُجَالِطُه عَنَاءٌ ولا يُلْحَقُه فَنَاءٌ، وهو ثواب مُضَاعَفَةٌ. فجَمَعَ ثوابُ الآخرة بينَ الحُسْنِ والفَضْلِ.

بخلاف (ثواب الدنيا)؛ فهو لا يخلو من عَنَاءٍ وكَدَرٍ، وهو ثواب مُكَافَأَةٌ لا مُضَاعَفَةٌ.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادتهم لربِّهم، ونُصرتهم لأنبيائه، وإقامة دين الله في الأرض، ومعاملتهم للخلق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إجابة الله دعاء المؤمنين، وإعطائهم أكثر مما سألوا.

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

وفيها: الجَمْع للمؤمنين بين الحَسَنَتَيْنِ، كما قال تعالى في آية أخرى عن دعائهم: ﴿رَبَّنَا
ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفيها: رَدُّ على الغالين المتنطعين، الذين يُحَرِّمون طيبات ما أحلَّ الله لهم، ويظنون أنَّ هذا
منافٍ للتقوى، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وفيها: تسمية حَسَنَةِ الدُّنْيَا بـ (الثواب)؛ لأنه جزاءٌ مُعَجَّلٌ على الطاعةِ وامْتِثَالٍ أوامر الله
تعالى.

وفيها: صفاء ثواب الآخرة، وأنه لا يشوبه أذى ولا تنغيص، بخلاف ثواب الدُّنْيَا؛ فإنه
مهما كَثُرَ يُعَدُّ قليلاً سريعَ الزوال.

وفيها: أنَّ الاستِمْتاعَ بما أفاء الله على المؤمنين من ثواب الدُّنْيَا - كالمغانم وغيرها - لا يُنافي
الزُّهْدَ فيها، ولا يتعارض مع رِضْوَانِ الله، ومضاعفةِ ثواب الآخرة.

وفيها: أنَّ من صفات المُحْسِنِينَ: الاعتراف بالإساءة والتقصير، فقد كان من دعائهم
- كما في الآية السابقة -: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

وفيها: أنَّ الإحسان سبيلٌ إلى محبةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ ثواب الدُّنْيَا لهذه الأمة أعلى من ثواب غيرها؛ لأنَّ المغانم أُحِلَّتْ لنا ولم تُحَلَّ
لمن قبلنا، وإنَّها كان ثواب الدُّنْيَا لهم بالنصر والأمن والتمكين، دون غنائم المعركة.

وفيها: سَعَةِ رحمةِ الله وكرمه؛ فإنه يُثِيبُ المطيعَ بثوابين في الدُّنْيَا والآخرة، وأمَّا العاصي
إذا أُقِيمَ عليه الحدُّ في الدُّنْيَا؛ فلا يُعَاقَبُ به في الآخرة.

وفيها: إثبات صفة (المحبة) لله، وأنها حَقِيقَةٌ، وهي من الصِّفَات الاختياريةِ لله عَزَّوَجَلَّ المتعلقة
بمشيئته، ولا يجوز تأويلُها إلى: الإثابة والإكرام والرِّضا ونحوها من المعاني؛ بل هذا من لوازمها
وما يترتَّب عليها، فنُشِيت (المحبة) لله، ونُشِيت لوازمها - من الإثابة والإكرام وغيرها -.

ففيها رَدُّ على المُنْكَرِينَ لهذه الصِّفة، الذين قالوا: إِنَّ الحُبَّ لا يكون إلا بين المتجانسين
- كالشجر مع بعضهم البعض -!

والجواب: أنَّ الحُبَّ مُتَبَادَلٌ بين الأجناس المختلفة، كالحبِّ بين المؤمنين والملائكة، وقد قال النبي ﷺ عن جَبَلٍ أُحِدٍ - وهو حماد - : «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(١).

فما يفعله نفاة الصفات من تأويل المحبة وغيرها، بحجة تنزيه الله عما لا يليق به؛ هو في الحقيقة تعطيل للصفات، وتحريف لها عن معانيها، وجحدٌ لِمَا أثبتته الله تعالى لنفسه.

وفيها: دليل لمن قال: إنَّ المَغْنَمَ الدُّنْيَوِيَّ لا يؤثر على الثواب الأخروي، إذا خلصت النية، ولم تتعلق قلوب المقاتلين بالدُّنْيَا، فما يحصل لهم دون إرادة منهم لا ينقص شيئاً من أجورهم الأخروية. بخلاف مَنْ كان قصده السعي إلى تلك الغنائم، وتعلق قلبه بها.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١١٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

ولمَّا ذكر الله تعالى حالَ المقتدِّين بالأنبياء؛ حذَّر - الصحابة والمؤمنين - من اتِّباع سبيل الكُفَّار والأعداء - وهم مصادر الخطر الخارجيّ على الدِّين - في مسيرة جهادهم المبارك؛ فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: نداءٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، تنبيهٌ لهم على الاعتناء بها سيُحذِّرهم منه. وناداهم بوصف الإيمان؛ إغراء لهم على الالتزام بذلك.

﴿إِن تَطِيعُوا﴾ و﴿تَتَابِعُوا﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما أنزلت وبِمَنْ أرسلت ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ عن الإيمان ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ وأدباركم ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ أي: تَرْجِعُوا. و(الانقلاب): هو التحوُّل من حال إلى حال ﴿خَاسِرِينَ﴾: مغبونين في الدُّنْيَا والآخرة؛ فأما خسران الدُّنْيَا: فبِخُضُوعِكُمْ لسلطانهم، وذُلَّتْكُمْ لهم، وحرمانكم من السعادة والتمكين. وأما خسران الآخرة: فبالحرمان من الثواب، والوقوع في العذاب.

ولا يبعد أن يكون الخسران الأول واقعاً في زماننا، والله المستعان، ونسأل الله تعالى التوبة والإنابة وإصلاح الأحوال.

(١) رواه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ﴾ أي: لا تطيعوهم؛ فإن لكم من هو خيرٌ منهم، يتولّاكم إذا تولّيتُموه، وينصركم إذا أطمعتموه؛ وهو ربكم سبحانه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ وأقواهم وأفضلهم؛ فلا حاجة معه إلى نصرة أحدٍ، كائنًا من كان.

وفي الآيتين من الفوائد:

التنبيه بالنداء، للعناية بالشيء والاهتمام به، والنداء بصفة الإيمان فيه إغراءً للمؤمنين وتشجيعاً لهم، على الالتزام بما يأمرهم الله به، وترك ما ينهاهم عنه.

وفيها: أن طاعة الكفار تخالف مقتضيات الإيمان.

وفيها: التحذير من متابعة اليهود والنصارى والمشرّكين، والركون إليهم، سواء كان خوفاً منهم، أو إعجاباً بهم، أو انجذاباً لِمَا زَيَّنَّوه من الكلام والآراء.

وفيها: أن التحذير من متابعة المشرّكين إنّما هو في أمور الدين والعبادة، وأمّا الانتفاع بهم في أمور الدنيا المحضة - كالصناعات، وأسباب القوة الدنيوية، والتقدم التكنولوجي، ونحو ذلك - فلا حرج فيه؛ بل هو مطلوبٌ، وهو من الأخذ بالأسباب، ويُستعان به على جهادهم ومواجهتهم.

وفيها: التحذير من الرّدة، والتحوّل من الإسلام إلى الكفر.

وفيها: تحذير المؤمنين من طاعة المنافقين، الذين قالوا لهم يوم أُحُد: «ارجعوا إلى دين آبائكم، واتركوا دينَ محمّد!»

وفيها: أن الله تعالى يتولّى المؤمنين، ويخذل الكافرين.

وفيها: أن من نصره الله وتولّاه؛ فلا يُخذل، ولا يُغلب.

وفيها: أن طاعة الكافرين وسيلةٌ إلى الكفر والرّدة.

وفيها: أن الكفر خسارة، والإيمان ربحٌ.

وفيها: تكريم المؤمنين بالولاية الخاصّة من ربّ العالمين.

وفيها: أن نصر المؤمنين في الدنيا، قد يكون بالغلبة في معارك السلاح والقتال، أو في المناظرات بظهور الحجّة والبيان. وقد يكون في حياة بعض المؤمنين ممن شارك في القتال، أو بعد موتهم - فإراه من بعدهم من إخوانهم -. والنصر يوم القيامة لهم، لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وفيها: ذلّة من استنصر بالأعداء، وأن الخذلان عاقبته - ولو بعد حين -.

وفيها: أن الثبات على الدين ومخالفة الكافرين، هو انتصارٌ بحدّ ذاته.

وفيها: التحذير من شُبُهات الكافرين. قال الحسن رحمه الله في هذه الآية: «لا تستنصحو اليهود والنصارى، وتقبلوا منهم؛ لأنهم كانوا يستغفون المؤمنين، ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب، ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجلٌ حاله كحال غيره من الناس: يوماً له، ويوماً عليه»^(١).

وفيها: عَدَم الاستكانة للكفار، أو النزول على حُكْمهم، أو استشارتهم، والحدّز من استئمانهم؛ فالغش طبعهم، وخيانة الأمانة من صفاتهم.

وفيها: ترك الاستنصار بغير الله، وطلب النصر منه وحده سبحانه.

وفيها: أن المؤمنين لا يحتاجون إلى نصر أحدٍ مع نصر الله. وأن ما يقبضه الله لهم من نصرة بعض الخلق لهم، أو دفاعهم عنهم، أو إعاتهم - بأيّ وجه من الوجوه -؛ فهو سبب من الله، وتوفيق منه.

وفيها: دفع توهم نبيل العزة بالدخول مع الكفار الأقوياء؛ لأنّ هؤلاء الكفار لن يُسلموا مقاليد الأمور للمؤمنين، ولن يتركوا لهم القيادة؛ بل سيُدخلونهم معهم في تحالفات ذلّ وصغارٍ وتبعيّة، يلزمونهم فيها بما يرونه، ويأمرونهم بما يريدونه، ويذلّونهم ويتسلّطون عليهم، ويتحكّمون فيهم. وهذا واقع، فالكفار يُذلّون إخوانهم الكفار (وهم على دينهم) ممن هم أقلّ قوّة - إذا دخلوا معهم في تحالفات سياسيّة -؛ فإذا لاهم للمسلمين من باب أولى.

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ٨٢).

﴿سَتُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١):

ولمَّا انصرف المشركون من أحد؛ راجع بعضهم بعضًا في طريق العودة: لماذا لم يستأصلوا المسلمين؟ ويجهزوا على من بقي منهم، وأرادوا الرجوع لهذا الغرض، وسمع المسلمون بالأمر، فأصابهم الخوف؛ فطمأنهم الله تعالى بأن قريشًا لن يرجعوا، وأنه سيلقي في قلوبهم الرعب؛ لئلا يفعلوا ما أرادوا.

فقال تعالى ﴿سَتُلْقَى﴾: ذكر الفعل هن بصيغة الجمع للتعظيم، و(السين) تدل على قرب وقوع الإلقاء، وتأكيده وتحقيقه.

﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في تقديم ذكر مكان الإلقاء - وهو القلب - على الملقى؛ اهتمامًا بالمحل ﴿الرُّعْبُ﴾ وهو أشد الخوف. والقلب إذا دخله الرعب؛ فلا يمكن للبدن أن يثبت.

وقد ثبت في «الصحيحين»^(١)، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...» الحديث.

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ (الباء) للسببية، أي: بسبب شركهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ولا برهانًا، ولا حجة.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مرجعهم، والدار التي أعدت لتعذيبهم ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (المثوى): هو مكان الإقامة الطويلة. وذكر (المثوى) بعد (المأوى) للترتيب؛ لأن الإنسان يأوي إلى المكان، ثم يثوي فيه؛ فالنار مصيرهم ومقرهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

نصرة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم.

وفيها: أنه إذا نزل الرعب في القلوب؛ حصلت الهزيمة.

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وفيها: خيلولة الله تعالى بين المشركين، وبين الوصول إلى تحقيق مآربهم.

وفيها: أنَّ الإِشْرَاقَ بالله سبَّبَ لِحْصُولِ الرُّعْبِ.

وفيها: أنَّ الكُفَّارَ أَشَدُّ تَأَثُّراً بالرُّعْبِ من غيرهم؛ لأنَّهم يكرهون الموت، ويؤثرون الحياة الدُّنيا، ولا آمال لهم في الآخرة.

وفيها: فساد مذهب المشركين، الفاقِدُ لِلْحُجَّةِ والبرهان، وأنَّه تقليدٌ أعمى.

وفيها: إلقاء الله هيبَةَ الْمُؤْمِنِينَ في نفوس أعدائهم؛ لتُصْبِحَ مضطربةً، ممتلئةً بالهَلَعِ.

وفيها: أنَّ القَلْبَ هو أَشَدُّ الأَعْضَاءِ تَأَثُّراً وتأثيراً.

وفي ذِكْرِ إلقاء الرُّعْبِ، بعد قوله ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: بيانٌ بأنَّ الرُّعْبَ أقوى أسباب النصر، وهو تأييدٌ من الله تعالى، يُعَمُّ الْمُؤْمِنِينَ في وقت النبي ﷺ، وبعده.

ومفهوم الآية يدلُّ على: أنَّ الأَمْنَ يُلْقَى في قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ -لتوحيدهم-؛ لأنَّ ما ثَبَتَ لشيءٍ، ثَبَتَ ضِدُّهُ لَضِدِّهِ.

وفيها: بَطْلانُ الشُّرْكِ -عقلاً وحسّاً-.

وفيها: قُبْحُ وُبُؤُسِ مَسَاكِينِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وفيها: أنَّ النصرَ الَّذِي وَقَعَ لِلْمُسْلِمِينَ في بداية المعركة، ثم أعقبته الهزيمة؛ قد أعقبه نصرٌ آخر من الله تعالى؛ فكانت الهزيمة بينَ نصرين -سابقٍ ولاحقٍ-. وفي هذا: تخفيفٌ لوقوع الهزيمة، ومداواةٌ للنفوس، وفيه شيءٌ من التعويض.

وفيها: تسميةُ الحُجَّةِ (سُلْطَانًا)، وفي ذلك دليلٌ على قُوَّتِها ونفوذِها وسُطُوْعِها.

وفيها: أنَّ الكُفَّارَ لَمَّا عَطَّلُوا عَقْلَهُمْ عن استعمالها في الحقِّ؛ أَصَابَهَا اللهُ بِالرُّعْبِ.

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ.

وفيها: أنَّ العِبْرَةَ بِالْحُجَّةِ هو البُرْهَانُ الإِلَهِيُّ، النازل من عنده سبحانه، دون آراء البشر المجرَّدة؛ فما لم يعتَبره الشَّرْعُ من الحُجَجِ: فلا قيمة له.

وفيها: أنَّ إلقاء الرُّعْبِ في نفوس الكُفَّارِ نصرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، بلا كُلفَةٍ، ولا خَسَائِرٍ.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَّيَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾﴾:

ثم ذكر الله تعالى كيف بدأت معركة أحد، وما حصل بعد ذلك من التغيير، بسبب تقصير المؤمنين ومعصيتهم، وما نتج عن ذلك من الهزيمة، ثم ذكر صرّفه الكفّار عن العودة لاستئصال المؤمنين، ثم ذكر منته وفضله على عباده؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ﴾: تأكيد بالقسم واللام (اللام) و(قد)؛ فالتقدير: «وعزّي وجلالي، لقد صدق الله المؤمنين وعده».

﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: أنجزه وحققه، بنصركم على عدوكم في أول المعركة؛ ﴿إِذْ تَحُسُونَهُمْ﴾ أي: تقتلونهم قتلاً شديداً ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بإرادته، ومعونته، وتسليطه إياكم عليهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: جُبُتُمْ وعجزتُمْ ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: اختلفتم ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر النبي ﷺ بالثبات في مواقعكم، وعصيتُم ربكم بالتوليّ والفرار ﴿مِمَّا أَرَّيَكُمْ﴾ في أول النهار وأول المعركة، رأي عيني ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، وانهِزام العدو، وتركه المغايم.

﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ﴾ بقتاله -حيثُ- ﴿الدُّنْيَا﴾ والمقصود: الغنائم، ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ﴾ بجهاده ﴿الْآخِرَةَ﴾ أي: ثوابها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا، حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد: ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾»^(١).

ولما غاب أنس بن النضر رضي الله عنه عن غزوة بدر؛ عاهد الله قائلاً: لئن الله أشهدني قتال

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٨).

المُشْرِكِينَ لَيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ! فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ؛ قَالَ: الْجَنَّةُ وَرَبِّ النَّظَرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ!

فقاتل وقُتل، وضحى بنفسه، حتى إنهم وجدوا به بضعا وتمايينَ ضربةً بالسيف أو طعنةً برمح أو رميةً بسهم، ومثل به المشركون، فما عرفته إلا أخته ببنائه!

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»^(١).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ غَضَبَنَا﴾ بالهزيمة، التي حصلت لكم، فردكم عن الكفار؛ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم، ويمتحن صبركم في المصائب، وثباتكم على الإيمان.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ وتجاوز، مع قدرته على العقوبة، ومنع الكفار من العودة لاستئصالكم، وأبقى من أبقى منكم.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ وإحسان ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: في مغفرة ذنوبهم، وحفظ نبيهم صلّى الله عليه وسلّم، وبقاء دولتهم، وتربيتهم بالأحداث.

وعن البراء رضي الله عنه قال: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم جَيْشًا مِنَ الرَّمَاةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: «لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا».

فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهْدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم أَنْ لَا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأَصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا.

وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لَا تُحْيِيوهُ»، فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «لَا تُحْيِيوهُ»، فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءَ لَأَجَابُوا!

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

قَلَمْ يَمْلِكْ عُمْرُ نَفْسِهِ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ! قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اْعْلُ هُبْلُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ».

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ»، قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ بَيْتِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سَجَالٌ، وَنَحْدُونَ مُثَلَّةً، لَمْ أَمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسْؤُنِي^(١).

وفي هذه الآية من القوائد:

أنَّ الله تعالى لا يُخْلِفُ الميعاد، وأنه عَزَّوَجَلَّ قد صدق وعده المؤمنين.

وفيها: أنَّ انتصار المسلمين في أول معركة أُحُد، كان قوياً وكاسحاً، وأنه قُتِلَ من الكفار عددٌ لا بأس به.

وفيها: الحثُّ على اجتِناع الكلمة، وخصوصاً في المعارك، وخطورة تنازع الجيش في وقت الحرب.

وفيها: سُؤْمُ معصية الأمير، ووجوب التزام المواقع التي حدَّدها لأفراد الجيش.

وفيها: خطورة إرادة الدنيا، وتأثير ذلك في الهزيمة، وأنه يُضْعِفُ الرأي والعمل.

وفيها: أنَّ بعض المسلمين لم يستطِعَ حبسَ نفسه عن إغراء الدنيا، رَغِمَ أَنَّهُ في قتالٍ وجهادٍ.

وفيها: أنَّ المعصية تقلِّبُ النصر إلى هزيمة.

وفيها: أنَّ النزاع والمعصية سببٌ للخِذلان.

وفيها: أنَّ المعصية بعد النعمة، أشدُّ من المعصية قبل النعمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ

بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

وفيها: أن الله يبتلي؛ ليميز الصادق من المنافق، وأهل الصبر من أهل الجزع.

وفيها: أن المؤمن قد يرتكب الكبيرة.

وفيها: بُعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم، وحسن معرفته بإدارة المعارك.

وفيها: الاجتهاد في سد الثغرة، التي يمكن أن يأتي منها العدو.

وفيها: أن المؤمنين رأوا النصر بأعينهم.

وفيها: أن إغراءات الدنيا تُحدث الانقسام في صفوف المؤمنين.

وفيها: فضل الله تعالى على المؤمنين؛ حيث عفا عن جميع المؤمنين، الذين عصوا أو فروا من معركة أحد، وأنه لا يجوز التشريب عليهم، ولا تعيير أحد منهم بذلك.

وفيها: شدة الصحابة على أعداء الله؛ كما حدث في أول المعركة، من إيقاعهم القتل الشديد فيهم، وقد وصفهم الله تعالى في آية أخرى بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفيها: ضرر النيات المختلطة بإرادة الدنيا مع الآخرة.

وفيها: سر العاصي؛ لأن الله تعالى خاطب الصحابة جميعًا بمعصية بعضهم، فقال: ﴿فَإِذْ لَمَسْتُمُوهُ﴾، ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ﴾، ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾.

وفيها: أن الواجب على من أنعم الله عليه، أعظم مما يجب على غيره.

وفيها: الاستفادة من المصيبة، في أخذ الدروس والعبر والفوائد.

وفيها: تربية المؤمنين من خلال الأحداث التي تقع لهم.

وفيها: أن معصية بعض المسلمين تكون سببًا لوقوع القتل فيهم، ولكن لا يلزم أن يكون المقتول مقصراً، أو أن يكون القتل عقوبة؛ فقد قُتل عبد الله بن جبير أمير الرماة - مع ثباته - بسبب تولي أصحابه رضي الله عنهم.

وفيها: أن الله يتفضل على المؤمنين، ولو في المصيبة؛ بتكفير الذنوب، والرحمة في الابتلاء، وتطهير النفوس من المعاييب، وأن يجعلها تذكرة لهم، وآية وعبرة في المستقبل.

وفيها: أَنَّ الْفَضْلَ لَا يَمْنَعُ الْعُقُوبَةَ.

وفيها: التحذير البالغ من الاستهانة بالمعصية؛ فقد أصاب الصحابة رضي الله عنهم ما أصابهم من البلاء والغم والقتل والجراح والهزيمة بسببها، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا معه، وخرجوا في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله. فما بال بعض العصاة والفاسقين اليوم، يرتكب الذنوب والجنايات، ويصرُّ عليها، ولا يخشى آثارها، ويحتج بعفو الله وسره؟! وهذه استهانة وجرأة على الله.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَاتَّبَعْتُمْ غَمًّا يَغْمِرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾:

ثم قال الله تعالى، في وصف الهزيمة التي حصلت يوم أُحُد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أي تهربون سراعاً في الصَّعيد -وهو الأرض المستوية- وهذا هو (الإِصعاد).

والمقصود بالآية: مَنْ وَلَّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُنْهَزِمًا، ثُمَّ رَجَعُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. فالتقدير: ولقد عفا الله عنكم، إِذْ تُصْعِدُونَ هَارِبِينَ. أو: صرفكم عنهم إِذْ تُصْعِدُونَ هَارِبِينَ.

وقيل: إِنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا ضَيَّقَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ فِي الْوَادِي؛ صَعَدُوا الْجَبَلَ.

وقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: لا تلتفتون وراءكم -هَرَبًا وَفِرَارًا- وَلَا يَلْتَفِتْ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَقِفِ الْوَاحِدُ مِنْكُمْ لِلْآخَرِ، مِنْ شِدَّةِ الدَّهْشَةِ وَالْخَوْفِ.

﴿وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ﴾ قائلًا: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادِ اللَّهِ»، وَيُنَادِيكُمْ لِتَرْجِعُوا ﴿فِي أَخْرَابِكُمْ﴾ من ورائكم، وهو واقفٌ في جماعتكم المتأخِّرة، وفي ساقية الجيش. وهذا موقف الأبطال في أعقاب الناس.

عن البراء رضي الله عنه في قصة أُحُد، قال: «فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةُ، أَيُّ قَوْمِ الْغَنِيمَةِ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ، فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنْسَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ قَالُوا: وَاللَّهِ، لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ! فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ،

فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أَخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ...»^(١).

﴿فَأَثْبِتْكُمْ عَمَّا يَغْمُرُ﴾ (ثاب) أي: رجع، و(الثواب): كل ما يعود على الفاعل من جزاء فعله -خيرًا أو شرًا-.

فإذا كانت (الإثابة) هنا بمعنى: العقاب على الهرب والفرار: فالغم الأول: هو: الهزيمة وما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثاني هو: ما نالهم من القتل والجراح والهزيمة.

وإذا كان المقصود بـ (الإثابة): المنحة، والمواساة على المصيبة؛ فيكون الغم الأول هو: الهزيمة وما أصابهم من القتل والجراح وفوات الغنيمة، والغم الثاني هو: صدمتهم بإشاعة مقتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنسأهم الغم الثاني الغم الأول! فلما تبين لهم عدم صحة الإشاعة؛ انكشف الغم الثاني، وكان الغم الأول قد هان!

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: من أجل ألا تحزنوا وتتأسفوا ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح والهزيمة.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: عليمٌ بيوطن الأمور، وبمقاصدكم، ونياتكم، ومطالعٌ على أعمالكم -من خير أو شر-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تذكيرُ الله المؤمنين بنعمه عليهم في أوقات الشدة؛ ليشكروه، وتذكيره لهم بعقوبته إيّاهم على تقصيرهم؛ ليستدركوا ولا يعودوا لمثله أبدًا.

وفيها: ثبات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المعركة، وتذكيرُ المؤمنين بذلك؛ ليقْتدوا به.

وقد ثبت في الصحيحين^(٢)، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيَاضٌ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ»، يَعْنِي: جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

(١) رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).

وفيها: تذكير الذين ولّوا مُدِيرِينَ بِهَيْئَتِهِم المذمومة؛ تنفيرًا منها، وحتى يستحيي المنهزم؛ فلا يعود لمثلها أبدًا.

وفيها: أَنَّ خيار الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعترّيه ما يعترّي بقيّة البشر، من الخوف ونحوه، لكنّهم سرعان ما يؤوبون، ويتوبون، ولا يعودون لمثله.

وفيها: حِكْمَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في اللّجوء إلى الجبل، في مكانٍ يجتمع فيه مَنْ رجع من جنوده.

وفيها: أَنَّ الغُموماً يُنسبى بعضها بعضًا، وأنها من طبيعة هذه الدُّنيا؛ لثَلَا يتعلّق بها الإنسان.

وفيها: أَنَّ المسلمين في أُحُدٍ قد اجتمعت عليهم مصائبٌ متعدّدة؛ منها: القتل، والجراح، والهزيمة، وفوات الغنيمة، وإشاعة مقتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما حصل من إصابته وجرحه.

وفيها: تواضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قيادته للجيش؛ حيث كان يسيرُ خلفهم أحيانًا.

وفيها: تَسْلِيَةُ الْمُؤْمِنِينَ، والمعالجة النفسيّة لِمَا أصابهم.

وفيها: نداء القائد جنوده الشاردين؛ لِيَقْبِروا إليه، ويقابلوا معه.

وفيها: تمرينٌ للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على المصائب، واحتمالِ الشَّدائد.

وفيها: منقبةٌ عظيمةٌ لمن استجابَ لدُعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَاتَلَ دونه، كطُلْحَة، وسَعْد، والأنصارِ السَّبعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أَنَّ التذكير بعُلمِ الله ببواطن الأمور، موعظةٌ تمنعُ أَهْلَ الإِيْمَانِ من الوقوع في العصيان.

وفيها: تربية النفوس على عَدَمِ التأسّفِ على ما فاتَ من الدُّنيا.

وفيها: تجاوز أثرِ المُصيبة؛ استعدادًا للعمل في المستقبل.

وفيها: اغْتِيَامُ الصَّحابة بِعُلُوِّ المشركين عليهم فوقَ الجبل، وهذا من إِيْائِهِمْ، وَحَمِيَّةِ نفوسِهِم للإسلام، وبُغْضِهِم للكُفْر وأهله.

وفيها: أَنَّ لله أسرارًا وحِكْمًا في ثنايا البَلَايا والمِحَن.

وفيها: شِدَّةُ مَحَبَّةِ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى كان خَيْرُ قَتْلِهِ أَشَدَّ عندهم من كُلِّ مُصِيبَةٍ، وكانوا يَفِدُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ.

وفي إِشَاعَةِ قَتْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

تَرْبِيَةٌ لَهُمْ عَلَى تَقَبُّلِ خَبَرِ مَوْتِهِ، واستمرارِهِم للعملَ لدينِ الله بعد وفاته.

وفي تلك الإِشَاعَةِ أَيضًا: إِرْجَافُ الشَّيْطَانِ، والمُشْرِكِينَ بالمُؤْمِنِينَ.

وفي الآية: أَنَّ ظَهْورَ كَذِبِ إِشَاعَةِ مَقْتَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان علاجًا عَظِيمًا لمُصَائِبِ الصَّحَابَةِ فِي تِلْكَ المَعْرَكَةِ؛ فَقَدْ كَانَ فَرَحُهُمْ بِكَذِبِ الإِشَاعَةِ طَاطِيًّا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الأَحْزَانِ.

وفيها: أَنَّ المُصِيبَةَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنْسِي المُؤْمِنِينَ جَمِيعَ مُصَائِبِهِمْ.

وفيها: أَنَّ اخْتِفَاءَ القَائِدِ سَبَبٌ لظَهْورِ الإِشَاعَاتِ.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا يَفْعَلُونَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾:

ولَمَّا نَزَلَتْ بالمُسْلِمِينَ المُصِيبَةُ العَظِيمَةُ، بِالْقَتْلِ والجِرَاحِ وَعُلُوِّ الأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ؛ أَصَابَهُمْ غَمٌّ كَبِيرٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَكَانُوا يَخَافُونَ أَيضًا أَنْ يَتَوَجَّهَ المُشْرِكُونَ إِلَى المَدِينَةِ بعد انْصِرَافِهِمْ مِنَ المَعْرَكَةِ؛ فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ: أَنْ خَفَّفَ عَنْهُمْ هَذَا الغَمُّ وَنَفْسَهُ، بِنُعَاسٍ غَشِيَهُمْ فِي آخِرِ المَعْرَكَةِ، كَانَ سَبَبًا فِي إِرَاحَةِ أَجْسَادِهِمُ الْمُنْهَكَةِ، وَطُمَأْنِينَةِ نَفُوسِهِمْ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ﴾ ﴿١﴾ أَي: طُمَأْنِينَةٌ فِي الْقَلْبِ.

ومن الفروق بَيْنَ (الأَمْنِ) وَ(الأَمْنَةِ): أَنَّ (الأَمْنَ) يَكُونُ مَعَ زَوَالِ أسبابِ الخوفِ، وَ(الأَمْنَةُ) طُمَأْنِينَةٌ مَعَ بَقَاءِ أسبابِ الخوفِ. وَكَانَ سَبَبُ الخوفِ لَا يَزَالُ باقِيًا؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ عَوْدَةِ المُشْرِكِينَ لِاسْتِصْصَالِهِمْ، أَوْ ذَهَابِهِمْ لِاجْتِيَاكِ المَدِينَةِ.

﴿نُعَاسًا﴾ أي: غشيهم نُعَاسٌ؛ ليسرَدُوا ما فقدوا من القوة، ويذهب عنهم الإرهاق والتعب الذي أصابهم بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿يَعْنِي طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾: هم المؤمنون الذين بقُوا واجتمعوا في ميدان المعركة - من المهاجرين والأنصار -.

وقد قال أبو طلحة رضي الله عنه: «كُنْتُ فِيْمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَأَخْذُهُ، وَيَسْقُطُ فَأَخْذُهُ»^(١).

وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: «رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ»^(٢) من النُّعَاسِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾^(٣).

﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أي: جماعة من المنافقين، أو من ضعاف الإيمان ﴿قَدْ أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: كلُّ هَمِّهم في خلاص أنفسهم، ونجاتها من القتل، فأذهلهم الخوف، حتى صاروا مشغولين عما سواهم.

﴿يَظُنُّوكَ بِاللهِ﴾ ويعتقدون اعتقادًا سيئًا وفاسدًا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾: من الباطل، بأن الله لا ينصر نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم - ونحو ذلك - وظنُّهم هذا ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي: قول أهل الجَهْل، كقولهم: لو كان مُحَمَّدٌ نبيًّا حقًّا؛ ما سلَّط الله عليه الكفار!

﴿يَقُولُونَ﴾ بناءً على ظنُّهم الجاهلي: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هل لنا من نصر أو فتح، ممَّا وعدنا به مُحَمَّدٌ؟ أي: لا نصيب لنا من ذلك.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلْ﴾ - يا أيُّها النبي صلَّى الله عليه وسلَّم - هؤلاء المنافقين: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ من النصر والغلبة، أو الهزيمة والمُصيبة، وغيرها من الأمور التي هي من قَدَر الله ﴿لِلَّهِ﴾: يقضي به كما يشاء، ويُدبِّره ويُصَرِّفه كيف يشاء.

(١) رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٢) أي: يتحرك ويميل من جانب إلى جانب، تحت ثَرَسه.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٠٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني اعتقادهم الباطل، وما سبق من كلامهم ﴿مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: ما لا يجروون على إظهاره لك.

﴿يَقُولُونَ﴾ أيضًا في الخفاء: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ من التدبير والرأي والاختيار؛ ﴿مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: في أرض المعركة. والمعنى: لو أن محمدًا جعل لنا منزلة، وأعطانا نصيبًا في اتخاذ القرار، وأخذ برأينا عندما أشرنا عليه بعدم الخروج من المدينة؛ لما حصلت هذه المقتلة الكبيرة في أرض أحد!

فقال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم -يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم-: ﴿لَوْ كُنْتُمْ بِقِيَمِ يَوْمِكُمْ﴾ أي: في المدينة، ولم تخرجوا إلى أحد؛ ﴿لَبَرَزَ﴾ أي: ظهر وخرج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ -في اللوح المحفوظ- من بيوتهم ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: المواضع التي قدر الله تعالى أن يقتلوا فيها.

والمعنى: أن من قدر الله موته وقتله بموضع؛ فسيُهيئ، ويقدر له سببًا يخرج به من بيته، إلى هذا المكان الذي قدره الله عليه. و(المضاجع) أيضًا: القبور؛ لأنَّ الأموات يُضَجَّعون فيها.

﴿وَلَيَبْتَلِيَنَّ اللَّهُ﴾ أي: إنَّما قدر الله هذه الأقدار والأحداث؛ ليختبر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ نَعَمَى الْقُلُوبُ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٤٦].

والمقصود بـ (ابتلاء القلوب): إظهار ما فيها من السرائر والاعتقادات، وما انطوت عليه من الإخلاص أو النفاق.

﴿وَلَيُمَحِّصَنَّ﴾ أي: يُصَفِّي وَيُطَهِّر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان، والشك والارتباب.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: مُطَّلِعٌ على السرائر والضمائر، وما فيها من الخفايا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

انقلاب الموازين عند المنافقين، فيظنون أنَّ المتَّصِر دائمًا على حقٍّ، والمهزوم دائمًا على باطل! وهذا باطل؛ فقد يتبلى الله أهل الحقِّ بمُصِيبَةٍ في معركة، ويستدرج أهل الباطل بانتصارهم فيها.

وفي الآية: كَشَفُ اللهُ خَبِيئَاتِ نَفُوسِ الْمُنَافِقِينَ؛ بِإِظْهَارِ مَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ، وَمَا أَسْرَوْهُ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْكَلَامِ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وفيها: أَنَّ إِسَاءَةَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ.

وفيها: أَنَّ إِسَاءَةَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَلِّي دِينَهُ، وَلَا يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَفِيهِ لَوُثَةٌ مِنْ لَوَثَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ أَيْ: أَنَّهُ جَاهِلٌ بِاللَّهِ، جَاهِلٌ بِسُنَنِهِ فِي الْعِبَادَةِ.

وفيها: أَنَّ صَاحِبَ الْجَزَعِ لَا يَهْنَأُ بَنُومٍ وَلَا رَاحَةٍ. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ بِقَدَرِ اللَّهِ، الْمُطْمَئِنُّ لَوَعْدِهِ؛ فَيُكَافِئُهُ اللَّهُ بِرَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وَيَنَامُ قَرِيرَ الْعَيْنِ.

وفيها: أَنَّ مَصِيرَ دِينِ الْإِسْلَامِ لَا تُحَدِّدُهُ مَعْرَكَةٌ وَاحِدَةٌ.

وفيها: أَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ: إِظْهَارَ أَقْوَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَفْعَالِهِمْ، وَكَشْفَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ؛ لِاسْتِخْرَاجِ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ أَوِ الْكُفْرِ وَالتَّقَاقُ، وَلِيَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ أَوْ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ لَا يَدْعُ أَهْلَ الْأَخْلَاطِ؛ حَتَّى يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

وفي الآية: أَنَّ شَرَفَ مَنَزَلَةِ النَّبُوَّةِ، لَا يُنَافِي ابْتِلَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَذَى فِي جَسَدِهِ، أَوْ نَفْسِهِ.

وفيها: أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَدْفَعُ الْقَدَرَ، وَالتَّدْبِيرَ لَا يَمْنَعُ التَّقْدِيرَ.

وفيها: أَنَّ الْأَسْبَابَ -مَهْمَا عَظُمَتْ- إِنَّمَا تَنْفَعُ إِذَا لَمْ يُعَارِضْهَا الْقَدَرُ وَالْقَضَاءُ، فَإِذَا عَارِضَهَا الْقَدَرُ لَمْ تَنْفَعْ شَيْئًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَمْضِيَ اللَّهُ مَا كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْحَيَاةِ.

وفي الآية: رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي إِذْهَابِ غُيُومِ نَفُوسِهِمْ وَإِرَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ، بِإِلْقَاءِ التُّعَاسِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التُّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(١).

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٤٩٩/٢)، والطبري في تفسيره (٣١٩/٧).

وفيها: أنَّ شديد الخوفِ والغَمِّ لا يكاد ينام.

وفيها: إثبات الكرامات لأهل الإيمان.

وفيها: تقديم مصلحة الإسلام على مصلحة النفس، وأنَّ المنافقين قد خالفوا ذلك.

وفيها: وجوب الوثوق بوعد الله، وأنَّ المنافقين قد شكُّوا في ذلك.

وفيها: تمييز الصفِّ بالابتلاء.

وفيها: استخراج ما في نفوس المنافقين من الباطل، وليظهر أمرهم وينكشف؛ فيحذرهم المؤمنون.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ قد لا يتَّصرون في بعض المعارك؛ اختباراً من الله لهم ولأعدائهم.

وفيها: أنَّ النصر بيد الله، يؤتاه من يشاء.

وفيها: أنَّ الغلبة للحقِّ في النهاية، وإن صار للباطل قبل ذلك صولات وجولات.

وفيها: جُبْنُ المنافقين، وعدم تصرُّيحهم علناً بما في نفوسهم.

وفيها: انتهاز أهل التَّفَاق للمُصِيبَةِ؛ ليطعنوا في الدين.

وفيها: علَمُ الله بما لم يكن، لو كان كيف كان يكون.

وفيها: أنَّ اختبار القلب وتنقيته، من أعظم المقاصد الرِّبَّانِيَّة في الابتلاءات.

وفيها: ترهيب الله لعباده، بأنَّه يَعْلَم ما يُخفونه.

وفيها: أنَّ الأمر الشرعيَّ والأمر الكونيَّ لله.

وفيها: إشارة إلى دَفْنِ الشُّهداء في مكان قَتْلِهِمْ؛ في قوله تعالى: ﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، وقد أمر النبي ﷺ برَدَّ الشُّهداء من المدينة إلى أُنْحَد لِيُدْفَنُوا فِيهِ.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم ما في نفوس العباد، دون حاجة إلى ابتلائهم واختبارهم، ولكن الابتلاء لفائدة عبادِهِ ومصلحتِهِمْ.

وفيها: أنَّ لفظة (لو) بعد حصول المكتوب والمقدَّر، لا تفيد شيئاً.

وفيها: أن استعمال (لو) الشرطيّة إذا كان للاعتراض على الشرع، أو على أقدار الله تعالى، أو للاحتجاج بالقدر على المعصية؛ فاستعمالها على هذا الوجه محرّم أشدّ التحريم.

ومنها قول المنافقين هنا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، ومثله قولهم فيما يأتي: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ فهذا اعتراض على أقدار الله تعالى.

ومثله: قول المشركين احتجاجاً بالقدر على المعصية: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وأيضاً، إذا كانت (لو) للنّدم والتّحسّر على شيء فات - كأن يقول على سبيل النّدم: «لو بعث هذا السلعة لربحت» -؛ فاستعمالها محرّم؛ لأنها تفتح باب الحزن والنّدم وعمل الشّيطان؛ كما في الحديث: «وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أنّي فعلت كان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشّيطان»^(١).

أما استعمال (لو) لمجرّد الخبر - كقول: «لو زرتني لأكرمتك» -؛ فلا حرج فيه، فإن كان الخبر صدقاً فهو صدق، وإن كان كذباً فهو حرام.

وكذا استعمالها لتمني أمر مباح - كأن يقول: «لو رزقني الله علماً؛ لنفعت به الناس» - فلا حرج فيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْجَمْعَيْنِ إِنَّمَا أَسْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

ولما ذكر الله تعالى حال المنافقين؛ أعقبه بتوجيه الخطاب إلى المسلمين؛ فقال عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ أي: أدبروا وهربوا، وانسحبوا من مواقعهم ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون. وقد انهزم أكثر جيش المسلمين، حتى لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا نحو ثلاثة عشر رجلاً ﴿يَوْمَ الْجَمْعَيْنِ﴾ وهما: جمع المسلمين وجمع الكفار، في غزوة أحد.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا وَهَرَبُوا ﴿إِنَّمَا أَصْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أَي: أوقعهم في الزَّلَلِ والخطيئة ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أَي: بسببِ بعضِ ما وقعَ منهم من الذُّنُوبِ، والعِصْيَانِ والمخالفة لأمر النبي ﷺ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: سامحَ وتجاوزَ. وأعادَ ذَكَرَ (العَفْو) هنا -مع ما تقدّم قريبا من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾-؛ لتأكيد العَفْو.

و(العَفْو): تَرَكَ المؤاخَذة على الذنب، ويكون غالبًا في تَرَكَ الواجبات. و(المغفرة) تكون لمن وقعَ في المحرّمات.

فعفا الله تعالى عن عقوبة المسلمين الأخرى، وجعلها مقتَصرةً على ما وقعَ فيهم من القتل والجراح، والمُصيبة، والتمحيص.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ أَي: ذو مغفرة، وستر للذنب، وتجاوز عنه وعن أثره. ﴿حَلِيمٌ﴾: يُمهِّل عِبَادَهُ، ولا يُعاجِلهم بعقوبته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مغفرة الله لجميع الصحابة رضي الله عنهم الذي فرّوا يوم أُحُد؛ فلا يجوز الطعن فيهم بهذا الأمر. وفيها: أَنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَجِرُّ المسلمَ لإيقاعه في الخطيئة، ويوالي عليه الذُّنُوبِ والخطايا الواحدة بعد الأخرى.

وفيها: أَنَّ المصائب التي تقع للناس، إِنَّمَا هي آثَارٌ طَبِيعِيَّةٌ لمعاصيهم.

وفيها: أَنَّ الإنسان قد يُعاقَب بوقوعه في معصية، لأجل معصية أخرى ارتكبها، وَأَنَّ الذنب يتولّد من الذنب؛ فالرُّمّة الذين عصّوا انهزموا أيضًا، وتولّوا يوم التقى الجمعان.

وفيها: أَنَّ العقوبة لا تختصُّ بألم البدن، أو خسارة المال والولد، ونحو ذلك؛ وَإِنَّمَا قد تكون بخذلانٍ عن الطاعات، كما قال الحسن رضي الله عنه: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيُذْنِبَ الذَّنْبَ، فَيُحْرَمَ بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ»^(١).

(١) المجالسة وجواهر العلم (٢/ ٢٦٢) للديبوري.

وفيها: حِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى، بَعْفُوهُ عَنْ عُقُوبَةٍ مَن يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ.

وفيها: أَنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ مَدْخَلٌ عَلَى مَن اعْتَصَمَ بِاللَّهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا أَدْخَلَهُ الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وَفَتَحَ لَهُ الثَّغْرَةَ، بِتَرْكِ وَاجِبٍ، أَوْ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ.

وفيها: أَنَّ مَن صَدَّقَ فِي تَوْبَتِهِ، وَنَدِمَ عَلَى تَفْرِيطِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحَسِّنُ إِلَيْهِ، وَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ التَّوْبَةِ وَالْأُوبَةِ.

وفيها: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَقَعُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ الْفَاسِقِينَ، وَلَكِنَّهَا تَخْتَلِفُ مِنْ جِهَةٍ: الْإِكْثَارُ، وَالْإِصْرَارُ، وَالدرَجَةُ.

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقَتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾:

ثم نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ قُلُوبَهُمْ بِالْوَسَاوِسِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ الْبَاطِلَةِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: لَا تَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ، أَوِ الْمُنَافِقِينَ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدَ ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أَي: عَنْ إِخْوَانِهِمْ - فِي الْكُفْرِ أَوِ النَّسَبِ - ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: سَافَرُوا فِيهَا لِلتَّجَارَةِ وَالْكَسْبِ، فَمَاتُوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أَي: خَرَجُوا فِي الْغَزْوِ، فَقَتِلُوا.

قَالُوا: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أَي: مُقِيمِينَ لَمْ يَخْرُجُوا؛ ﴿مَا مَاتُوا﴾ فِي سَفَرِهِمْ ﴿وَمَاقَتِلُوا﴾ فِي غَزْوِهِمْ.

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ أَي: اعْتِقَادَهُمْ وَقَوْلَهُمْ وَظَنَّهُمُ الْبَاطِلَ ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: نَدَمًا وَحُزْنًا، وَغَمًّا وَأَسْفًا، يَتَعَذَّبُونَ بِهِ عَلَى مَوْتِ إِخْوَانِهِمْ وَقَتْلِهِمْ.

ثم قال تعالى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ﴾ أَي: بِيَدِهِ الْأَمْرُ وَالْخَلْقُ، فَلَا يَحْيَا أَحَدٌ، وَلَا يَمُوتُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمَرِ أَحَدٍ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

فاعتقاد أن «القتال يقطع الأجل» اعتقاد باطل؛ فقد يُحيي الله الغازي، ويُميت القاعد في البلد.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مُطَّلِعٌ عليه، فيُجازيكم به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم التشبه بالكفار.

وفيها: أن المسلم يتميز عن غير المسلم بقوله، وعمله، واعتقاده.

وفيها: أن الإيمان بالله وقضائه وقدره يمنع الحسرة، ويُعين على مواجهة المصائب؛ لأنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ، فَيُثَبِّتْ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وفيها: أن الاعتقادات الباطلة سبب للشقاء النفسي، والألم والحسرة.

وفيها: معالجة نفسية للمُصابين في أحد، بما يمنع من زيادة آلامهم، وبما يُخَفِّف عنهم المُصيبة، بالأمر بالرُّضا بالقضاء، والتسليم بأنَّ الحياة والموت قدرٌ من الله، لا بُدُّ أن يقع كما يريد عَزَّوَجَلَّ، فلا تَبَتَّسُوا -أيها المؤمنون- بما حصلَ من موت أقاربكم؛ فإنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، والموت مكتوبٌ مقدَّرٌ، وليس السببُ في حصوله الخروجُ من المدينة.

وفيها: تعذيب الله للكافرين في الدُّنيا قبل الآخرة، بالغَمِّ، والحسرة، والندامة على فوت المحبوب.

وفيها: أن قِلَّةَ اليقين بالله سببٌ للحسرة.

وفي الآية: النهي عن القول الباطل، وأنه ينشأ عن اعتقاد باطل؛ فمقولات أهل البدع -مثلاً- ناشئة عما وقرَّ في قُلُوبِهِمْ من اعتقاداتهم الفاسدة.

وفيها: أن الإقامة والسفر ليستا مؤثرتين في الحياة والموت؛ فقد يُحيي الله المسافر، ويُميت المقيم، ويُحيي الغازي، ويُميت القاعد.

وفيها: اطلاع الله على العقائد المُخَبَّأة في الصدور.

وفيها: سُوء مقصد المنافقين وخبثهم، في إرادتهم تنفير المؤمنين عن الجهاد، بمقولة: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾، فكأنهم يقولون لهم: لا تخرجوا للغزوات القادمة حتى لا تموتوا!

وفيها: أَنَّ مَنْ يَمُوت فِي الْجِهَادِ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ؛ خَيْرٌ مِمَّنْ يَمُوتُ فِي بَيْتِهِ مَوْتَهُ الْبَعِيرِ. وفيها: أَنَّ النَّدَمَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنَ الْقَضَاءِ، لَا يُغَيِّرُ الْوَاقِعَ، وَلَا يَنْفَعُ النَّادِمَ، بخلاف النَّدَمِ عَلَى التَّفْرِيطِ؛ فَهُوَ مُوجِبٌ لِلتَّوْبَةِ، وَاسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ.

وفيها: دَمُّ اسْتِعْمَالِ (لَوْ)، فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الشَّرْعِ، أَوْ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ لِلْإِحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، أَوْ التَّحَسُّرِ وَالتَّنَدُّمِ عَلَى أَمْرِ قَدْ فَاتَ.

وَفِي الْآيَةِ: تَوْجِيهُ بَعْدَ النَّدَمِ عَلَى مَا لَمْ يَفْرُطْ فِيهِ الْإِنْسَانُ.

وفيها: تحفيز المؤمنين للجهاد في سبيل الله، وتشجيعهم على قتال أعداء الله، والنهي عن التأثر بكلام مَنْ يَشْبِطُهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

وفيها: أَنَّ الْمَوْعِظَةَ بِاطِّلَاعِ اللَّهِ عَلَى الْأَعْمَالِ، تَتَضَمَّنُ تَهْدِيدًا لِمَنْ يُشَابِهُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِهِمْ الْبَاطِلَةَ.

وفيها: أَنَّ الْأَجَلَ الْمَكْتُوبَ إِذَا لَمْ يَنْتَهِ بِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ بِسَبَبٍ آخَرَ، كَمَا قِيلَ: «تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ، وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ». لَكِنْ شَرَفَ الْوَيْتَاتِ وَمَوَاقِعِهَا يَتَفَاوَتُ، فَمَا دَامَ الْمَوْتُ سَيَأتِي بِكُلِّ حَالٍ؛ فَلْيَحْرِصِ الْإِنْسَانُ أَنْ تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُهُ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

ثُمَّ بَشَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يُقْتَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ يَمُوتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وَالْعَاقِبَةِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ﴾: هَذَا يَحْمِلُ مَعْنَى الْقَسَمِ، وَتَقْدِيرَ الْكَلَامِ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَئِنْ قُتِلْتُمْ» ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: فِي الْجِهَادِ. أَوْ خَرَجْتُمْ مُهَاجِرِينَ، أَوْ حُجَّاجًا، أَوْ مَعْتَمِرِينَ، أَوْ دُعَاةً فِي سَبِيلِهِ، فَقُتِلْتُمْ.

﴿أَوْ مُتُّ﴾ في بيوتكم، أو في أي مكان آخر، وكنتم على التوحيد مخلصين لله، عاملين بطاعته.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يسرُّ بها ذنوبكم، ويتجاوز بها عنكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ منه يشمُّكم بها؛ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال وحُطام الدنيا الفاني.

﴿وَلَيْنَ مُتُّ﴾ في حَضَرٍ أو سَفَرٍ ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في الجهاد أو في غيره؛ ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجْمَعُونَ، فتلاقونه لِيُجَازِيَكُمْ على أعمالكم.

وتقديم ذكر (القتل) في الآية الأولى على ذكر (الموت)؛ بياناً لشرفه ومنزلته؛ لأنه شهادة في سبيل الله.

وتقديم ذكر (الموت) على (القتل) في الآية الثانية؛ إشارة إلى أنه أكثر وقوعاً من القتل.

وفي الآيتين من الفوائد:

الموعظة بعد الترغيب؛ فإنه قال في الآية الأولى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾، وقال في الثانية: ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وفيها: أنَّ المنافقين والكفار حريصون على جمع الأموال.

وفيها: فَضْلُ الْقَتْلِ في سبيل الله -وعلى رأسه: الجهاد-. ويدخل فيه: مَنْ قُتِلَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي بيان الحق، وفي الدعوة إلى الله، وفي طريقه لطلب العلم، وكلُّ مَنْ قُتِلَ في مصلحة الدين.

وفيها: فَضْلُ مَنْ مَاتَ في سبيل الله في سَفَرِ الجهاد، ولو كان مِمَّنْ مَاتَ بغير أيدي الكفار، كَمَنْ مَاتَ من مرضي أو سقوطاً عن دابة، ونحو ذلك.

وفيها: أَنَّ انْقِضَاءَ الأجل في سبيل الله، يَنْتَقِلُ به الإنسان إلى ما هو خيرٌ من الدنيا.

وفيها: تسلية الله للمؤمنين المصابين، والجمع بين المغفرة والرحمة لتكتبَل سعادة الشهداء.

وفيها: أَنَّ المرجع إلى الله، مهما طالَّت حياة الإنسان.

وفيها: تحقير أمر الدنيا؛ ليسهل على طلاب الشهادة التنافس لنيل الشهادة، والخروج من الدنيا.

وفي ذكر (المغفرة) قبل (الرحمة): التَّخْلِيَةُ قبل التَّحْلِيَةِ، وفيها إشارة إلى الجَمْع بين: الخوف من العقاب، وطلب الثواب.

وفي الآيتين: فَضَّلَ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ قَدَّمُوا أَرْوَاحَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِشَارَةُ لِقَتْلِ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أَنَّ الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَيْسَ مِمَّا يُحْذَرُ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مِمَّا يُطْلَبُ، وَيُجْرَسُ عَلَيْهِ.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَوَ كُنْتَ فُظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾:

وَلَمَّا كَانَ مَا حَصَلَ فِي أَحَدٍ مِنَ الْهَزِيمَةِ: مُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ، خَالَفَ فِيهَا الْجُنُودُ أَمْرَ قَائِدِهِمْ، وَانْهَزَمَ أَكْثَرُهُمْ، فَثَبَّتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الرُّجُوعِ؛ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا مَكَانَةَ هَذَا الْقَائِدِ، وَفَضْلَهُ، وَحُسْنَ خُلُقِهِ، وَمَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ تَجَاهُ جُنُودِهِ، الَّذِينَ تَسَبَّبُوا فِي الْهَزِيمَةِ؛ فَقَالَ سَبِّحَانَهُ:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ (الباء) سَبَبِيَّةٌ، أَي: بِسَبَبِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ؛ صَارَ اللَّيْنُ مِنْ طَبْعِكَ، وَالسُّهُولةُ مِنْ أَخْلَاقِكَ ﴿لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ﴾ أَي: فِي قَوْلِكَ، وَمُعَامَلَتِكَ، وَتَحَمَّلْتَ مَا جَرَى مِنْهُمْ.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فُظًّا﴾ أَي: جَافِيًّا فِي كَلَامِكَ، عَنِيفًا شَدِيدًا ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ وَقَاسِيًّا؛ ﴿لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أَي: مَا تَحْمَلُوكَ، وَلِتَفَرَّقُوا عَنْكَ، وَتَبَاعَدُوا.

﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ﴾ أَي: سَامِحْهُمْ، وَتَجَاوِزْ عَنْ زَلَّاتِهِمْ وَمَا قَصُرُوا فِيهِ مِنْ حَقِّكَ.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أَي: ادْعُ لَهُم بِالْمَغْفِرَةِ، عَنْ تَقْصِيرِهِمْ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أَي: اسْتَطْلِعْ رَأْيَهُمْ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، الَّتِي تَرُدُّ عَلَيْكَ، مِمَّا لَيْسَ لِلَّهِ فِيهِ حُكْمٌ، مِثْلُ: أُمُورِ الْحَرْبِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَإِرْسَالِ الْبُعُوثِ، وَنَحْوِهَا.

وقد عمل النبي ﷺ بهذه الوصية الربانية؛ فشاوَر أصحابه في بَدْرِ، وأُحُد، والخندق، والحُدَيْبِيَّة، واستشار علياً وأسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حادثة الإفك^(١)، وعلى رأس مَنْ كان يستشيرهم: وزيراه: أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»^(٢).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وجَزَمْتَ على فِعْلٍ شَيْءٍ - بعد المشاورة - وقصدت إِمضاءه؛ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ واعتمد عليه، وثق به سبحانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والمعتمدين عليه، في جميع أمورهم، فيُرشدهم إلى ما فيه الخير والصالح لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ لَينَ جانبِ النبي ﷺ هو من توفيق الله له، ومن إكرامه تعالى لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي الآية: الثناء على قيادة النبي ﷺ لأصحابه في معركة أُحُد وغيرها. ويؤخذ منها: براءته ﷺ من أيِّ سَبَبٍ في الهزيمة.

وفيها: أنَّه كان في المسلمين مَنْ يَسْتَحِقُّ المَلامَةَ والتعنيف على ما صدرَ منه من المُخالفة والهزيمة، ومع ذلك أَمَرَ النبي ﷺ بمعاملتهم جميعاً بالحُسنى.

وفيها: العفو عن الأصحاب، وعدم مؤاخذتهم؛ حتى لا ينفروا، ولا ينفضُوا عن الصاحب. وفيها: أنَّ الفِظْ: غليظُ القلب، لا يجتمع حوله أحدٌ.

وفيها: أنَّ سُوءَ الخُلُق من أسباب انفراط عَقْد الجماعة.

وفيها: استِغفار الإمام والعالم لأصحابه.

وفيها: أهميَّة الشُّورى وفضلها؛ حيث أَمَرَ النبي ﷺ بمُشاوَرَة أصحابه، مع استِغنائهِ بالوحي، وكمالِ العقل الذي وهبَه الله إيَّاه، ولو استغنى أحدٌ عن الشُّورى، لكان النبي ﷺ أغنى الناس عنها.

(١) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٠).

وفيها: أهمية معرفة مقادير العقول والأفهام، وصالح الآراء؛ لانتخاب أصلحها، أو الجَمْع بينها.

وفيها: أنَّ من فوائد الشُّورى: عدم الاستبداد بالرأي، واجتماع القُلُوب، وحصول المطلوب، ودفع لوم النفس والغير عن المستشير.

وفيها: تحصيل الأجر والثواب، بامتنال الأمر، وإزالة ما يقع في القُلُوب عند حدوث المكروب.

وفيها: تواضع المستشير، وتطبيب خواطر المستشارين، وظهور منزلتهم عند المستشير. وفي الآية: أنَّ السيّد ينبغي أن يكون لينا.

وفيها: تدريب الأفراد على استنباط الصواب، وتنشيط النفوس واستجلاب الحماس للمشاركة في الأمر؛ لأنهم صاروا شركاء فيه لما بذلوا رأيهم.

وفيها: محاربة التردّد والتذبذب، وأنَّ على القائد أن يجتمع بين الحزم والعزم واللين.

وفيها: أنَّ الرئيس والقائد إذا شرع في العمل -تنفيذاً للشورى-؛ فلا يصح أن ينقض عزمته، ما لم يتبين وجود معارضٍ راجح؛ لأنَّ التراجع ضررٌ، وضعفٌ، وفشلٌ.

وفيها: فضل التوكّل على الله، ومحبة الله لأهل التوكّل.

وفيها: أنَّ تفويض الأمر إلى الله لا يُنافي الأخذ بالأسباب، والاستشارة سببٌ من الأسباب.

وفيها: أنَّ أمر النبي ﷺ بالمشاورة هو دعوة لمن دونه -من الأئمة والقادة- إليها؛ لأنَّ صدور الأمر إلى الأعلى شأنًا -مع استغنائه عنه- يدلُّ على أنَّ الأدنى مقصودٌ بذلك من باب أولى.

وفيها: عفو الله عن الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّه أمر نبيه ﷺ بالعفو عنهم، والأمر أولى بفعل ما أمر به.

وفيها: استشارة مَنْ هو أهلٌ للاستشارة؛ فإنَّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ باستشارة

أصحابه - وهم العدول الثقات -؛ فينبغي عند الاستشارة في المسائل الشرعية الدينية أن يكون المستشار عالماً، ثقةً، صاحب دين، وفي أمور الدنيا عليه أن يستشير عاقلاً مجرباً. فيستشير - مثلاً - قادة الجيش فيما يتعلق بالحرب، وأعيان الناس فيما يتعلق بالمصالح العامة.

وفي الآية: النهي عن الفظاظ في الأقوال، وغلظ القلب في الأفعال.

وفيها: الجمع بين الأخذ بالأسباب، والاعتصام بمسببها وخالقها.

وفيها: أن القلب إذا شرد عن الله؛ فإنه قد يُعيد إليه بمصيبة، أو بهداية، أو يتخلى عنه - والعياذ بالله -.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠):

ولما حصلت الهزيمة في أحد؛ بسبب تقصير بعض المسلمين ومعصيتهم؛ حذرهم الله تعالى من فعل أسباب الخذلان، ويئن لهم أنهم إذا عادوا إليه نصرهم، وإذا تولوا عنه خذلهم؛ فقال تعالى:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يهب لكم النصر، ويُعينكم عليه؛ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولا يقهركم أحد، مهما كانت قوته.

﴿وَإِنْ يَخْذُلكُمْ﴾ أي: يتخل عنكم، ويترك نصرتكم. و(الخذلان): ضد النصر. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد ينصركم من بعد خذلانه لكم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ الغالب القاهر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ويخصوه بالاعتماد، ولا يصرفوا شيئاً من التوكل إلى غيره.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب تعليق القلب بالله وحده في طلب الانتصار.

وفيها: وجوب الأخذ بأسباب النصر، وقد جاء ذكرها في الآيتين ٥٥، ٥٦ من سورة النور والآيتين ٤٠، ٤١ من سورة الحج. ومجملها: الإخلاص لله، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيها: التحذير من فعل أسباب الخذلان، وقد جاء ذكرها في آيات أخرى؛ ومنها: تولي الكفار ومناصرتهم.

وفي الآية: إفراد الله تعالى بالتوكل عليه، ووجوب ذلك؛ كما في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وتقديم ما حقه التأخير يُفيد الحَضْر، بخلاف ما لو قيل: «فليتوكل المؤمنون على الله».

وفيها: خطورة الخذلان على المؤمنين؛ لأنَّ (الخذلان) هو: التخلي والترك في مواطن الاحتياج. ولذا فالتوكل أعظم ما يكون في مقام الحاجة؛ كما يظهر جلياً في طلب النصر، والرِّزْق، والشِّفاء، كما قيل في تعريف (التوكل): «أَلَّا تَطْلُبَ لِنَفْسِكَ نَاصِراً غَيْرَ اللَّهِ، وَلَا لِرِزْقِكَ خَازِناً غَيْرَ اللَّهِ، وَلَا لِعَمَلِكَ شَاهِداً غَيْرَ اللَّهِ»، وطلب الرِّزْق بمعصية الله مُنَافٍ للتوكل، كما فعل الرُّماة في ترك مواقعهم، طلباً للغنائم؛ فكانت الهزيمة.

وفيها: بلاغة القرآن. ومن أمثلته في الآية: إيراد الاستيفهام بمعنى النفي؛ ليكون أبلغ في النفي؛ كقوله: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: لا أحد ينصركم.

ومنها: استعمال النفي المقتضي للعموم، في قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، و(لا) نافية للجنس، و(غالب) نكرة، والنكرة في سياق النفي تُفيد العموم.

ومنها: تقديم ما حقه التأخير؛ ليفيد الاختصاص والحَضْر، كما في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ومنها: استعمال المُقَابِل وِذْكَر الضَّدُّ؛ لأنَّ الكلمة تزداد ظهوراً في المعنى إذا قُرِنَ معها ضِدُّها، كما جاء في ذكر (الخذلان) مُقَابِل (النصر).

ومنها: استعمال الالتفات، وهو: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أي: من أسلوب المخاطب إلى الغائب، أو العكس؛ للتنبيه. فقد خاطبهم في أول الآية بقوله: ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾،

وبقوله: ﴿يَتَذَكَّرْكُمْ﴾، ثم انتقل إلى الغائب في آخر الآية فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ﴾، ولم يقل: «فتوكلوا».

ومنها: استعمال أسلوب النفي الأشد، في قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ﴾؛ ليطمئنوا. واستعمال أسلوب النفي بالاستيفهام - وهو أقل شدة - في قوله: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾؛ وذلك تلطفًا بالمؤمنين.

وفي الآية - مع التي قبلها -: التأكيد على التوكل، والحث عليه؛ فإنه قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم به فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم أمر المؤمنين عموماً به فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وليبين أنه من أعظم أسباب النصر.

وفيها: أن التوكل على الله من مقتضيات الإيمان، وكما يزيد الإيمان وينقص؛ فكذلك يزيد التوكل وينقص - تبعاً له -.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾:

ولما ذكر الله تعالى حسن خلق نبيه صلى الله عليه وسلم؛ ذكر هنا براءته مما اتهمه به بعض المنافقين، من أنه غلّ من غنيمته قبل قسمتها؛ فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي: لا يليق ذلك بمقامه الشريف ﴿أَنْ يَغُلَّ﴾ أي: يخون، لا بالأخذ من غنائم المعركة خفية لنفسه، ولا بإخفاء شيء من الوحي المنزل عليه. وأيضاً، فلا يجوز أن يغلل، بأن يخونه أحد.

﴿وَمَنْ يَغُلْ﴾ أي: يخن، بالأخذ من الغنيمه؛ ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ كما هو، يحمله على عنقه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ ليكون له فضيحة على رؤوس الأشهاد.

و(الغلول) لغة: أخذ الشيء خفية، والخيانة فيه. وشرعاً: الخيانة في الغنيمه. ويدخل فيه: الاختلاس من بيت مال المسلمين.

وهو من كبائر الذنوب، قد جاء الوعيد الشديد في عقوبة الغال يوم القيامة؛ فعن أبي

هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمُ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ (وهو صوت البعير)، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!

لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمُ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ (صوت الفرس)، فيقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!

لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمُ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ هَا تُغَاءُ (صوت الشاة)، يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!...»، ثم ذكر الشاة، والنفس، والشياب، والذهب والفضة^(١).

وفي الحديث: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا؛ طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢).

﴿ثُمَّ تَوَفَّى﴾ أي: تُجَازَى وتُعْطَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ سواء كانت غَالَةً أو غير ذلك ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما اقترفت وفعلت ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ لا ينقص ثواب، ولا بزيادة عقاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإشارة إلى مُعَابَةِ الرُّمَاءِ؛ فكأنه يقول لهم: لماذا تركتُم مواقعكم لتصيبوا من الغنائم؟ أكنتم تخشون أن تُحَرِّمُوا من نصيبكم منها؟ أو ما علمتُم أن نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخون، ولا يأخذ منها شيئًا، وسيعطيكم نصيبكم؟ فلماذا عصيتموه وتركتم مواقعكم؟

وفيها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يليق به غُلُولُ الْمَالِ، ولا غُلُولُ الْعِلْمِ، وأن الغُلُولَ دَنَاءَةٌ وَخِصَّةٌ؛ فلا يليق هذا بمقام الأنبياء، وليس من شيمهم الخيانة بجميع أنواعها؛ فالثبوة والخيانة لا تجتمعان.

وفيها: تحريم الغُلُولِ، وأنه من الكبائر، وأن الفضيحة يوم القيامة زيادة في عذاب صاحبه.

(١) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) - واللفظ له -.

(٢) رواه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) - واللفظ له -.

وفيها: أن الأخذ من غنائم المعركة قبل قِسْمَتِهَا خِيَانَةٌ للمسلمين، سواءً لأفراد الجيش، أو لجميع المسلمين - بالخُمُس الذي يذهب لبيت المال - وتزداد إثماً إذا أُخِذَتْ وهي عند نبيٍّ يُشْرِف على قِسْمَتِهَا.

وفيها: أن الغُلُول يزداد قُبْحًا في حق أصحاب المناصب الدِّينِيَّة. وليس الغُلُول خاصًّا بغنائم المعركة؛ فكلُّ مَنْ أَخَذَ مِنْ مَالٍ عَامٍّ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فهو داخلٌ فيه. ويدخل فيه أيضًا: غُلُول الكُتُب، باستعارتها ثم منع رَدِّهَا إلى أصحابها.

وفيها: أنَّ الجزء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وفيها: إثبات قُدرة الله تعالى؛ فإنَّ المغلول يكون قد فني في الدنيا؛ فيأتي به الله عزَّ وجلَّ يومَ الدِّين.

وفيها: أنَّ الإنسان لا ينتفع بشواب ما لم يَكْسِبْهُ؛ فلا فائدة من إهداء ثواب الطاعات للأَمْوات أو الأحياء. ويُستثنى من هذا: ما دلَّ الدليل على وصوله، كالحجَّ والعمرة عن الميت، والدُّعاء، وصيام النَّذْر عنه، والصَّدقة، وغيرها.

وفيها: تعظيم حقِّ المسلم على المسلم، وحُرمة أموال المسلمين.

وفيها: أنَّ بعض مَنْ يذهب للجهاد يقع في الخيانة والمعصية؛ كالانحيار، وشقَّ عصا الطاعة على أميره، والتوليُّ يومَ الزَّحف، أو الرِّياء بالقتال - ليُقَالَ: شجاعٌ - أو القتال عَصِيَّةً، لا بنية إعلاء كلمة الله، ونحو ذلك من المعاصي والكبائر، التي تحدث حتى في الأحوال العَصِيبة الخطيرة.

﴿أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ إِسْخَاطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ (١١٢):

ولمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى توفيقَه كُلَّ نفسٍ ما كَسَبَتْ - على وجه العموم -؛ أَرَدَفَ ذلك بالتفصيل والمقارنة، وأنَّ جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين؛ فقال تعالى:

﴿أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ أي: سعى في تحصيل رِضاه، بفعل الطاعات وترك المعاصي - ومنها الغُلُول - ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ ورجع ﴿إِسْخَاطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (السَّخَط): هو الغضب الشديد

﴿وَمَأْوَهُ﴾ مَرْجِعُهُ وَمَسْكَنُهُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ وهو اسمٌ من أسماء النَّار. قيل: مشتقٌّ من (الْجَهْم)، وهو الكراهة، يُقال: ﴿جَهْمَهُ﴾ إذا عُبِسَ في وَجْهِهِ وَقَطَبَهُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَلْقَى مَنْ يَدْخُلُهَا بِوَجْهِهِ عَابِسٌ مُتَجَهِّمٌ - والعياذ بالله -.

﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ أي: قُبْح، وساءَ هذا المَرْجِعُ والمُنْقَلَبُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَدَلَ اللهُ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يُسَاوِي بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ.

وفيها: وجوب السَّعْيِ لِتَحْصِيلِ مَرْضَاةِ اللهِ، بِفِعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ.

وفيها: الموعظة والتحذير من أسباب دخول النَّار، ومنها الغُلُولُ المذكور في الآية السابقة.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضَا)، وصفة (السَّخَطُ) لله تَعَالَى، كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ. وهما من الصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ الثَّابِتَةِ لله تَعَالَى، فَلَا يَجُوزُ نَفْيُهَا، أَوْ تَحْرِيفُهَا، أَوْ تَأْوِيلُهَا.

وفي الآية: دليلٌ على خطأ قول بعضِ النَّاسِ، إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ وَدُفِنَ فِي قَبْرِهِ: «شُيِّعَ إِلَى مِثْوَاهِ الْآخِرِ»؛ فَالْمِثْوَى الْآخِرُ هُوَ الْمُنْقَلَبُ وَالْمَصِيرُ، وَهُوَ إِمَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ، أَمَّا الْقَبْرُ فَهُوَ مَزَارٌ، وَدَارٌ مَحْرُومٌ لَا دَارَ مَقَرٍّ.

وفيها: أَنَّ التَّفْصِيلَ فِي الْمَصِيرِ، وَعَقْدَ الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ مَصِيرَيْنِ؛ أَبْلَغُ فِي الزَّجْرِ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالتَّحْرِيزِ عَلَى الطَّاعَاتِ.

﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

ثم قال تعالى في الفريقين - مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللهِ، وَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ -:

﴿هُمْ دَرَجَتٌ﴾ يعني: أَهْلَ الْخَيْرِ وَأَهْلَ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ، أي: أَصْحَابُ طَبَقَاتٍ وَمَرَاتِبٍ مُخْتَلِفَةٍ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حُكْمِهِ، يَتَفَاوَتُونَ فِي دَرَجَاتِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، مِنَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩].

وهذا بحسب علمه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِرَاطٍ يُعْمَلُونَ﴾: عليهم بأعمالهم، وسيوفيتهم إياها، ويُجازيهم عليها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأقوال والأفعال تتفاضل.

وفيها: أن أهل الخير كما هم درجات فيهِ، فأهل الشر درجات فيهِ.

وفيها: إحاطة الله تعالى بأعمال العباد.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٦):

ولما نفى الله تعالى الغلول والخيانة عن نبيه صلى الله عليه وسلم؛ مدحه ويثمن منة الله به على المؤمنين؛ فقال سبحانه:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنعم وتفضل عليهم، وأحسن إليهم ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ وأرسل إليهم. وأصل (البعث): الإنشاء، وسميت (الرسالة) بعثاً؛ لأنها تُخرج الناس من حال إلى حال، فكأنهم بُعثوا، وأنشئوا خلقاً جديداً ﴿رَسُولًا﴾ مرسلاً من عنده.

وقوله ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم، عربياً مثلهم، نشأ بينهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من مخاطبته وسؤاله، ومجالسته، والانتفاع به.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: كتابه وقرآنه ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُرِيهِم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ لتزكو نفوسهم، وتتخلص من النجاسات المعنوية، ودنس الشرك، وخبت الجاهلية. ويُطهروهم أيضاً من النجاسات الجسدية، بما أمرهم به من الاستنجاء والوضوء والغسل.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: معاني القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي: السنة والحديث، وهي بيان للكتاب.

﴿وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ وغيٍّ وجهلٍ، يُحِيطُ بِهِمْ ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ ظاهري، جليٍّ لكلِّ أحدٍ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التأكيد على بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالقسم المقدّر، و(لام) التأكيد، و(قد) التي تفيد التحقيق، في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وتقدير الكلام: «والله، لقد مَنَّ الله على المؤمنين»، وفي هذا بيان لقدر النعمة وأهميتها؛ ليرعوها، ويتعلّقوا بها، ويستفيدوا منها، ويحرموا عليها، لا لشكٍّ أو إنكارٍ منهم.

وفيها: أن أهل الإيمان تتبيّن لهم منّة الله، بينما الكفار يُنكرونها، ويُعرضون عنها، ولا يرفعون بها رأسًا، فيُحرّموا خيرها.

وفيها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرٌ للعرب، وشرفٌ لهم. وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد اشترك فيه اليهود والنصارى والعرب، وموسى قد افتخر به اليهود، وعيسى قد افتخر به النصارى؛ فإن أعظم شرفٍ للعرب: أن بُعثَ فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنفُسُ العرب -نسبًا وحسبًا- وما خلق الله نفسًا هي أكرمُ عليه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعثَ معروفَ الحال، قد استبان أمره لمن حوله؛ ولذا قال: ﴿بُعِثَ فِيهِمْ﴾؛ فلم يكن أمره ليخفى عليهم، والشخص المعروف عند قومٍ إذا جاءهم بشيء؛ كانت معرفتهم السابقة له سببًا في تصديقه وقبول ما جاء به.

وفيها: أنه ينبغي التأكيد على اختيار الدعاة المعروفين في أقوامهم وقبائلهم، والاهتمام بتعليمهم وتدريبهم؛ ليقوموا بالواجب المطلوب، ويكونوا أقدر على تحقيقه، وأن قيام المعروفين في الأقاليم والقبائل بدعوة من حولهم؛ يختصر الوقت والجهد.

وفيها: أن اختيار الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرًا من جنس العرب، أدعى إلى متابعتِهِ والإيمان به؛ لأنّه لو كان من الملائكة أو الجن؛ ما أُلْفِه الناس، ولا استطاعوا الاقتداء به، وإنّما كان

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُمْ يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَجَعَلَهُ عَرَبِيًّا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ أَعْجَمِيًّا لَمَا فُقِيَ قَوْمُهُ مِنْهُ، وَمَا فَهِمُوا عَنْهُ.

وفيها: أُمِّيَّةُ التَّلَاوَةِ اللَّفْظِيَّةُ لِلْقُرْآنِ - بِإِقَامَةِ حُرُوفِهِ وَتَجْوِيدِهِ - وَالتَّلَاوَةُ الْحُكْمِيَّةُ - بِالْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ -.

وفيها: أُمِّيَّةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الطَّهَارَةِ الْحُسْنَى - مِنَ النِّجَاسَاتِ وَالْأَخْبَاثِ - وَالتَّطَهُّرِ الْمَعْنَوِيِّ - مِنَ الشُّرْكِ، وَالتَّفَاقُ، وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ -.

وفيها: أُمِّيَّةُ الْجَمْعِ بَيْنَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالْعَمَلِ بِهِمَا.

وفيها: أَنَّ مِنْ وَظَائِفِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَرَثَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْجَمْعُ بَيْنَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ، وَتَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهُ. وَالتَّعْلِيمُ أَخْصَصَ مِنَ التَّلَاوَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ قَرَأَهُ وَلَقَّنَهُ يَكُونُ تَالِيًا لَهُ، أَمَّا التَّعْلِيمُ فَيَشْمَلُ: تَعْلِيمَ اللَّفْظِ، وَتَعْلِيمَ الْمَعْنَى، وَتَعْلِيمَ الْحُكْمِ وَالْعَمَلِ.

وفيها: أَنَّ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ سَبَبٌ لَفُشُوِّ الْكِتَابَةِ. وَالْقُرْآنُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَفِي صَحَائِفِ الْمَلَائِكَةِ - بِأَيْدِي السُّقَرَةِ - وَمَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وفيها: تَعْلِيمُ النَّاسِ وَضَعَ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَأَسْرَارَ التَّشْرِيعِ، وَمَصَالِحِهِ، وَعِلَلِ الْأَحْكَامِ. وَكُلُّ هَذَا مِنْ مَعَانِي (الْحِكْمَةِ).

وَفِي الْآيَةِ: وَجُوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ إِرْسَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَاتِّبَاعِهِ، وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَنَشْرُ سُنتِهِ، وَنُصْرَتِهِ.

وفيها: أَنَّ شَرَفَ الرَّسُولِ بِحَسَبِ مَنْ أَرْسَلَهُ.

وفيها: أَنَّ مَحَالَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ بُعِثَ فِيهِمْ، إِنَّمَا هِيَ فِي الْجَوَانِبِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالطَّبَعِيَّةِ؛ كَالنَّسَبِ، وَاللُّغَةِ وَالْوَطَنِ، وَيَفُوقُهُمْ بِالْوَحْيِ، وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْخِصَائِصِ الْعَظِيمَةِ الشَّرِيفَةِ.

وفيها: تَخْفِيفُ مُصِيبَةٍ وَقَعَتْ أُحُدٌ عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بِذِكْرِ مَكَانَةِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَرَجَعَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وفيها: أَنَّ ذِكْرَ شَرَفِ وَفَضْلِ الْمُتَّهَمِ الْبَرِيِّ، يُعِينُ عَلَى إِبْعَادِ التُّهْمَةِ عَنْهُ.

﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾:

ثم عادت الآيات إلى أخذ العظة والعبرة من هزيمة أحد، وبيان سبب حصولها، وكان في الصحابة رضي الله عنهم دهشة لما وقع، ويتساءلون عن سببه؛ فقال تعالى:

﴿أَوَلَمْآ﴾ يعني: أوحين، و(الهمزة) للاستفهام، وهو استفهام إنكار وتقريع.

﴿أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً﴾ وهي هزيمة المسلمين، وغلبة المشركين، وقتل السبعين، وما حصل من الجراح يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يوم بدر، حينما قتلتم منهم سبعين، وأسرتهم سبعين - وهم في حكم المقتولين؛ لقد رتكم على قتلهم -.

لما حصل هذا تساءلتم و﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي: تتساءلون متعجبين: كيف حصل لنا القتل والهزيمة، ولعدونا الغلبة، ونحن مسلمون على الحق، وأعداؤنا كفار على الباطل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معنا، أفلسنا أحق بالنصر؟!

﴿قُلْ﴾ - يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم - جواباً عن هذا التساؤل وهذه الشبهة: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. وقد جاء تفصيله في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢]. فالمعنى الإجمالي: إذن، لا ينبغي لكم أن تتعجبوا مما حلَّ بكم؛ فأنتم السبب في ذلك، بمعصيتكم وفراركم.

ثم هل نسيتم فضل الله عليكم في بدر، وقد كان نصره لكم أعظم من الهزيمة التي حلت بكم في أحد؟ فإنكم يوم بدر قد قتلتم سبعين وأسرتهم سبعين، بينما في أحد قُتل منكم سبعون فقط.

وهل نسيتم أنكم اخترتم أخذ الفداء في بدر، فقتل منكم سبعون رجلاً بعدتهم؟

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أن الله تعالى قادر أن يهزم هؤلاء المشركين، وينصركم عليهم، ولكنه قضى وقدر ما جرى لحكمة يريد بها عيلاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَسَبَلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وفيها: أَنَّ من فوائد البلاء: التَّنبِيْهَ على الأخطاء؛ للحدَر من الوقوع فيها مستقبلاً، وإصلاح مكامن الخلل وهوى النفوس.

﴿وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٣):

ثم ذَكَرَ الله تعالى عباده المؤمنين، بأنَّ كُلَّ ما حصلَ يومُ أُحُدٍ من المصائب إنما هو بتقديره وقضائه، وإذنه ومشيتته؛ فقال سبحانه:

﴿وَمَا أَصْبَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابل جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أي: الإذن القُدْرِي، والله هو الذي قَدَره.

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (اللام) للتعليل، أي: أَنَّ الله تعالى قَدَر هذه المصيبة؛ ليظهر علمه بأهل الإيمان، ويتبين رضاهم بقضائه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

السَّعْي في تخفيف المصيبة. ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين: أَنَّهُ أَنزَلَ عليهم ما يُعالج أثر المصيبة في نفوسهم.

وفيها: الإيمان بقضاء الله وقدره، وأَنَّهُ لا يحصل شيءٌ في العالم إلا بإذنه ومشيتته، وهذا من أعظم ما يخفف وقع المصائب.

وفيها: ذِكْرُ إِذْنِ الله القُدْرِي، وهو المتعلق بالتكوين والخلق. ومما ورد بشأنه في القرآن أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وأما الإذن الآخر، فهو الإذن الشرعي، المتعلق بما شرَّعه الله لعباده، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَقَرَّبُوا﴾ [يونس: ٥٩].

والإذن الكوني لا بُدَّ أن يقع، ويكون فيما يحبُّه الله، وفيما لا يحبُّه. بخلاف الإذن الشرعي؛ فلا يكون إلا فيما يحبُّه الله، ويرضاه، وقد يقع أو لا يقع -على حسب أحوال العباد واستجابتهم أو إعراضهم-.

وفيها: أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ الْأَزَلِّيَّ السَّابِقَ - ومنه عِلْمُهُ بِالْمُؤْمِنِينَ - لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ؛ وَإِنَّمَا يَتَرْتَّبُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عَلَى عِلْمِ الظُّهُورِ - وهو عِلْمُ الشَّيْءِ عِنْدَ حُصُولِهِ وَوُجُودِهِ - وهو المذكور في الآية. وهو الذي تقوم به الْحُجَّةُ عَلَى الْعِبَادِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَوْ حَاسِبَهُمْ بِحَسَبِ عِلْمِهِ السَّابِقِ الْأَزَلِيِّ، لَقَالُوا: مَا عَمِلْنَا، فَلِمَ تُعَاقِبُ وَتَوَاضَعُ؟ وفيها: تَرْبِيَةٌ أَهْلِ الْإِيمَانِ، مِنْ خِلَالِ الْمَصَائِبِ.

وفي الآية: الرَّذُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْلُقُ الشَّرَّ، وَلَا يَقْدَرُهُ! فَكُلُّ مَا يَجْرِي فِي الْعَالَمِ - مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ -؛ فَلِنَّمَا هُوَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَمَشِئَتِهِ.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾:

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حِكْمَةِ تَقْدِيرِهِ لِمُصِيبَةِ أَحَدٍ أَيْضًا: أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ النِّفَاقِ، وَيُنْكَشِفَ حَالُهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أَي: لَيَظْهَرِ عِلْمُهُ بِهِمْ، وَتَبَيَّنَ أَحْوَالُهُمُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَيَحْذَرُوهُمْ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أَي: قَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ - كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ، وَالِدِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ - لِلْمُنَافِقِينَ، يُخَرِّضُونَهُمْ عَلَى الرُّجُوعِ بَعْدَ مَا انْسَحَبُوا:

﴿تَعَالَوْا﴾ مَعْنَى إِلَى أَحَدٍ ﴿فَنَقِلُوا﴾ الْمَشْرِكِينَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ حِمَّةً عَنْ أَنْفُسِكُمْ، وَأَهْلِيكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ، وَبِلَدِّكُمْ. أَوْ: ادْفَعُوا الْمَشْرِكِينَ بِتَكْثِيرِ سَوَادِ الْمُسْلِمِينَ - وَإِنْ لَمْ تَقَاتِلُوا -؛ فَإِنَّ السَّوَادَ إِذَا كَثُرَ كَانَ أَرْهَبَ لِلْعَدُوِّ.

﴿قَالُوا﴾ - أَي: الْمُنَافِقِينَ - فِي جَوَابِ مَنْ دَعَاهُمْ لِمَوَاصِلَةِ الْمَسِيرِ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أَي: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ الْعَدُوَّ وَتُقَاتِلُونَهُمْ، أَوْ: لَوْ كُنَّا نَعْرِفُ الْقِتَالَ وَنُحْسِنُهُ، وَنَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ ﴿لَا تَبْعَنَكُمُ﴾ أَي: ذَهَبْنَا مَعَكُمْ.

﴿هُمُ﴾ أَي: الْمُنَافِقُونَ ﴿لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أَي: فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي

انخدلوا ورجعوا فيه، كانوا للكُفر أقرب - وإن كان معهم شيءٌ من الإيمان - بما يُشاهد من أحوالهم، وَيُسْتَدَلُّ به على أَنَّهُمْ يُبْطِنُونَ الكُفْرَ، فأَعْدَارُهُمْ ظاهرة الكَذِبِ.

وقيل: هم لأهل الكُفر - يومئذٍ - أقرب نُصرةً منهم لأهل الإيمان.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ كلامًا - كَالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ - وَيُظْهِرُونَ مِنَ الْإِيمَانِ ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حقيقة؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ خَالَطَهَا الْكُفْرُ.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: أَعْلَمُ من غيره سبحانه، وهو عَلِيمٌ بما يُخْفُونَ في أَنْفُسِهِمْ من: الْكُفْرِ، وتَوَقُّعِ الْقِتَالِ، والْعِدَاوَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وفي هذه الآية من الفوائد - مع التي قبلها -:

أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْأَصْلُ فِي التَّفُوسِ، وَالتَّفَاقُ طَائِرٌ عَلَى مَنْ نَافَقَ؛ وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالْوَصْفِ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَعَبَّرَ عَنْ أَهْلِ التَّفَاقِ بِالْفِعْلِ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

وفيها: تَمْيِيزُ الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ، وَتَمْيِيزُ أَهْلِ التَّفَاقِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ؛ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: إِعَادَةُ الْفِعْلِ وَتَكَرُّرُهُ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾؛ لِئَلَّا يَرْجَعَ نَفْسُ الْفِعْلِ (وليعلم) إِلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعًا؛ لِيَكْتَمَلَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَتَنْزِيهَا وَتَشْرِيفًا وَتَكَرُّبًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمُنَافِقِينَ.

وهكذا حصل في الواقع؛ فَقَدْ انْفَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرٍّْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، عَنْ جَيْشِ أَهْلِ الْإِيمَانِ!

وفيها: أَهْمِيَّةُ الْعَوَامِلِ النَّفْسِيَّةِ فِي الْقِتَالِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ عَدَدِ الْجَيْشِ فِي نَظَرِ عَيْنِ الْعَدُوِّ يُرْهِبُهُ، وَيَكُونُ أَبْلَغَ فِي دَفْعِهِ وَصَدِّهِ.

ومثلها: الْمُرَابِطَةُ عَلَى الْخَيْلِ مَعَ الْجَيْشِ؛ فَهِيَ تُرْهِبُ الْأَعْدَاءَ - وَلَوْ بِغَيْرِ قِتَالٍ -؛ لِأَنَّ الْمُرَابِطَ مُدَافِعٌ.

وفيها: اسْتِعْمَالُ الْمُنَافِقِينَ لِلْأَعْدَادِ الْوَاهِيَةِ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ، وَمِنْ ذَلِكَ: رَعْمُهُمْ أَنَّ

الْحَرْبُ غَيْرَ مَتَوَقَّعة، أَوْ أَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ - فَيَكُونُ خُرُوجُهُمْ بِزَعْمِهِمْ مِنْ بَابِ إلقاء النفس إلى التَّهْلُكَةِ -.

وَقَدْ عَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ؛ فَإِنَّ كُلَّ الدَّلَائِلِ كَانَتْ تُشِيرُ إِلَى وَقُوعِ حَرْبٍ؛ لِأَنَّ قَرِيشًا قَدْ خَرَجَتْ فِي جَيْشٍ كَبِيرٍ، تَرِيدُ الثَّارَ مِمَّا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ نَصَبُوا عَسْكَرَهُمْ، وَنَزَلُوا قُرْبَ الْمَدِينَةِ، أَفْبَعْدَ هَذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ الْقِتَالُ مَتَوَقَّعًا؟!

ثُمَّ إِنَّ عَامَّةَ رِجَالِ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْرِفُونَ فِتْنَةَ الْقِتَالِ، وَيَسْتَعْمِلُونَهُ فِي الْغَارَاتِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَفِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ!

ثُمَّ لَوْ كَانُوا صَادِقِينَ؛ لَخَرَجُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ حَصَلَ قِتَالٌ قَاتَلُوا، وَإِلَّا فَلَنْ يَكْلِفَهُمُ الرُّجُوعُ شَيْئًا.

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَغَلَّبَ بِهِ الْأَحْوَالُ، فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَنْوَاعٌ؛ فَمِنْهُمْ: مَنْ نَفَاقَهُ خَالِصٌ لَيْسَ مَعَهُ إِيْمَانٌ أَلْبَتَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْإِيْمَانِ يُحَالِطُهُ بَعْضُ التَّنَاقُ - يَقُلُّ وَيَكْثُرُ بِحَسَبِ حَالِهِ -.

وَفِيهَا: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُومُونَ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ فِي صَالِحِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَأَنَّهُمْ يَخْذُلُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَوَاقِفِ الْحَرِجَةِ؛ لِأَنَّ انْسِحَابَهُمْ بَعْدَ الْخُرُوجِ أَسْوَأُ مِنْ عَدَمِ خُرُوجِهِمْ أَصْلًا.

وَفِيهَا: أَنَّ الْأَحْدَاثَ وَالْمِحَنَ تَكْشِفُ الْمُنَافِقِينَ.

وَفِيهَا: وَجُوبُ مُوَاطَاةِ الظَّاهِرِ لِلْبَاطِنِ، وَالْقَلْبِ لِلَّسَانِ، فِي الْإِيْمَانِ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْعَلِيمَ بِمَكْنُونَاتِ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَهْتِكَ أَسْتَارَهُمْ، وَيُظْهِرَ أَسْرَارَهُمْ، وَيَفْضَحَ بَوَاطِنَهُمْ، وَيَكْشِفَ أَمْرَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْكَذِبَ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الْمُلَازِمَةِ لَهُمْ.

وَفِيهَا: أَنَّ خُرُوجَ الْكُفَّارِ مِنْ بِلَدِهِمْ، وَجَمْعَهُمْ لِعَسْكَرِهِمْ، وَنَزْوُلَهُمْ قُرْبَ الْمُسْلِمِينَ بِجَيْشِهِمْ؛ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى رَغْبَتِهِمْ وَعَزْمِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ.

وفيها: أَنَّ القولَ المعتبرَ هو ما كان له في القلبِ أساسٌ، وأنَّ مَنْ نطقَ بقولٍ دونَ قَصْدِ قلبه؛ فيعتبرَ قوله لَغْوًا.

وفيها: أَنَّ المنافقَ لا يُفيدُ المسلمين، في قليل ولا كثير.

وفيها: أَنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ، وكذلك الكُفرُ يزيدُ وينقُصُ.

وفيها: أَنَّ الإيمانَ والكُفرَ يجتمعانِ في قلبٍ واحدٍ - مع أنَّهما ضِدَّانِ - ولكن إيمانٌ جزئيٌّ وكُفرٌ جزئيٌّ، فأما الإيمانُ المطلقُ، والكُفرُ المطلقُ فلا يجتمعانِ معًا في قلبٍ واحدٍ أبدًا.

وفيها: أَنَّ للإيمانِ خصالًا، وللکُفرِ خصالًا، وقد يجمعُ الشخصُ الواحدُ بينَ شيءٍ من خصال الإيمانِ وشيءٍ من خصال الكُفرِ.

وفيها: الدِّقَّةُ والعَدْلُ في إطلاقِ الحُكْمِ على الأشخاصِ.

وفيها: أَنَّ قوله ﴿أَعْلَمُ﴾ - وإنْ كانَ يعني الاشتراكَ في بعضِ العِلْمِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ - لكن المُمَثِّلَةَ ممتنعة، فأين هذا من ذاك؟ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال الخَضِرُ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وقد جاء عُصْفُورٌ فنقرَ في البحرِ نَقْرَةً -: «مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ»^(١).

وفيها: فِعْلُ أدنى المصلحتينِ عندَ العَجْزِ عن أعلاهما؛ فَمَنْ لم يستطعِ القتالَ - مثلاً - فليخرجْ لتكثيرِ عددِ الجيشِ.

ولا يؤخَذُ من الآية: جوازُ الاستِيعانةِ بالكُفَّارِ في القتالِ؛ لأنَّ طَلَبَ القتالِ مِمَّنْ انسَحَبَ إنَّما كانَ لإظهارِهم الإسلامَ، والمعاملةُ تكونُ بناءً على الظاهرِ.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨):

ثم ذكرَ الله تعالى مقولةَ أهلِ النِّفاقِ: ﴿الَّذِينَ﴾ وهم: عبد الله بنُ أَبِيٍّ وأصحابه ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: الذين هم على شاكِلتهم في النِّفاقِ ﴿وَقَعَدُوا﴾ عن القتالِ، وتخلَّفوا عن الجهادِ.

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

ثم أضافوا لإثم القُعود إثماً آخر، وهو: إلقاء الشُّبُهات، فكانوا يتباهون بسلامتهم وقُعودهم، وَيَشْمَتُونَ بِمَنْ خَالَفَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقُتِلَ، ويقولون عنهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في عدم الخروج، والانسحاب كما انسحبنا ﴿مَا قُتِلُوا﴾ يومئذٍ، ولَسَلِمُوا كما سَلِمْنَا.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿الَّذِينَ﴾ أي: المنافقين ﴿قَالُوا لَا خَوْفَ مِنَّا﴾ أي: عن إخوانهم في النسب من الخزرج، من الشُّهداء الذين قُتلوا في أحد، يتحسرون على فقدهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في عدم الخروج مع النبي ﷺ؛ ﴿مَا قُتِلُوا﴾.

فدحض الله حُجَّتَهُمْ، وأبان كَذِبَهُمْ؛ فقال لنبيه ﷺ ليرُدَّ عليهم: ﴿قُلْ﴾ - يا أيها النبي ﷺ - في جواب هذه الشُّبهة: ﴿فَادْرَأُوا﴾ أي: ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَوْتَ﴾ أي: إن كان القعود يُنجي من الموت - كما زعمتم - فينبغي ألا تموتوا! ولكن الواقع أن الموت يأتيكم حتى في حال القُعود؛ فادفعوه إذا جاءكم!

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الحذر يُغني عن القدر، وأن القاعد سالمٌ، وممتنعٌ عن الموت.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافقين لا يكتفون بالتَّبَطُّة والتَّعْوِيق عن الجهاد قبل الخروج؛ بل يَشْمَتُونَ في المُسْلِمِينَ، ويُلْقُونَ الشُّبُهَات بعد الرُّجوع.

وفيها: أنَّ المنافقين يتناجون فيما بينهم - في مجالسهم السَّريَّة والخاصَّة - بشأن ما حصل للمؤمنين، لكنَّ الله تعالى لهم بالمرصاد؛ فيَهْتِك أَسْرَارَهُمْ، ويكشف للمؤمنين أسرارهم.

وفيها: أنَّ المنافق لا يخلو من شِائَةٍ بالمؤمنين عند مُصِيبَتِهِمْ، أو حَسْرَةٍ عند مُصِيبَةِ نَفْسِهِ.

وفيها: أنَّ الإثم يُجَرُّ إلى الإثم؛ فقعود المنافقين جرَّهم إلى إلقاء الشُّبُهات. وهكذا العاصي تجرُّه معصيته إلى معصية أخرى، كالكَذِب سترًا لنفسه وتسويغًا لمعصيته - وهكذا فعل المنافقون، تسويغًا لقعودهم عن القتال -.

وفيها: تلقين المؤمنين الحُجَج في الرَّدِّ على شُبُهَاتِ المنافقين.

وفيها: أنَّ القعود عن الجهاد لا يعني بالضرورة السلامة؛ فإنَّ للموت أسبابًا كثيرة، ومن

يموتون من غير قتالٍ في حال الأمن - لمرض أو حادث - قد يكونون أكثر ممن يُقتلون مع الجيش إذا خرج لجهادٍ وغزو.

وفيها: أَنَّ المنافقين يَجْمَعُونَ بَيْنَ قُبْحِ الْفِعْلِ وَقُبْحِ الْقَوْلِ.

وفيها: اعتراض المنافقين على القدر، في قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، وفيه مخالفة صريحة لحديث النبي ﷺ: «وَأِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

وفيها: قَهَرُ اللَّهِ لعباده بالموت، وتحذيه للمنافقين أن يدرؤوه عن أنفسهم.

وفيها: أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ دَرءُ الموت؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ التَّحْذِي بِهِ فِي الْقُرْآنِ لَا يُمَكِّنُ وَقُوعَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لِلتَّحْذِي بِهِ فَائِدَةٌ، وَلَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَجْزِ الْمُتَحْذِي - وَحَاشَاهُ سُبْحَانَهُ -.

وفيها: أَنَّ الْحَذَرَ - مَعَ أَهْمِيَّتِهِ - لَا يَمْنَعُ الْقَدَرَ.

وفيها: أَهْمِيَّةُ تَصَدِّي الدُّعَاةِ لَشُبُهَاتِ الْمُنَافِقِينَ، خَاصَّةً الَّتِي يَنْشُرُونَهَا فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ؛ حَتَّى لَا تَنْطَلِي عَلَى الْعَامَّةِ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾:

ثُمَّ عَزَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهَ ﷺ وَأَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ تَعْزِيَةٍ، عَمَّنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَبَيَّنَ حَالَ الَّذِينَ تَحَسَّرَ الْمُنَافِقُونَ أَوْ شَمِمْتُوا بِمَقْتَلِهِمْ؛ فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ أَي: لَا تَظُنَّنَّ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﷺ - وَيدخل غيره في هذا الخطاب تبعاً ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يشمل: شُهَدَاءَ أَحَدٍ، وَبِئْرَ مَعُونَةٍ، وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ مَعَ الْكُفَّارِ، سِوَاءِ بَيْدِ الْعَدُوِّ، أَوْ مَنْ قُتِلَ مُتَحَرِّفًا - كَمَنْ ارْتَدَّ عَلَيْهِ سَهْمُهُ فَقَتَلَهُ - ﴿أَمْوَاتًا﴾ أَي: لَا تَظُنَّ أَنَّهُمْ لَا يُحْسُونَ، وَلَا يَتَنَعَّمُونَ.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ، يُحْسُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ فَهُمْ قَدْ فَارَقُوا الدُّنْيَا، فَصَارُوا عِنْدَ اللَّهِ، وَهَذِهِ (الْعِنْدِيَّةُ) شَرَفٌ وَتَكْرِيمٌ لَهُمْ ﴿يُرْزَقُونَ﴾ أَي: يُعْطَوْنَ مِنَ النَّعِيمِ. وَأَصْلُ (الرُّزْقِ): الْعَطَاءُ.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في حمزة وأصحابه رضي الله عنهم من قتل أحد.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية:

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ؛ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَثْمَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ؛ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ؛ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ (أَي: يَجْبِنُوا وَيَتَأَخَّرُوا)! فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أَنَّهُمْ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، هُنَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطَّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوَنَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَسْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسَأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا»^(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التعزية بعد المصيبة، وهي: تخفيف أثرها على المصاب.

وفيها: فَضْلُ الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْ كَرَامَتِهِمْ: أَنَّهُمْ أَحْيَاءُ، وَلِلَّهِ بِهِمْ عِنَايَةٌ خَاصَّةٌ؛ فَهُمْ عِنْدَهُ يَتَنَعَّمُونَ.

وفيها: التَّوْبَةُ فِي الْجِهَادِ؛ لِلْحَصُولِ عَلَى الشَّهَادَةِ.

وفيها: إِثْبَاتُ نَعِيمِ الْبَرَزَخِ، وَمَنْزِلَةُ الشُّهَدَاءِ الْعَالِيَةِ فِيهِ.

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧).

وفيها: ثبوت نعيم الشُّهداء في البرزخ، وهو دون نعيمهم بعد قيام الساعة؛ لأنَّ النعيم بعد عودة الأرواح إلى أجسادها - بلا مفارقة بعد ذلك - أكمل من النعيم الذي يقع للجسد إذا فارقتهُ الرُّوحُ بعد الموت.

وفيها: أنَّ الشُّهداء يُرزقون وهم أمواتٌ، بلا أسبابٍ يبذلونها.

وفيها: شَرَف (العِندِيَّة) الخاصَّة، وهي أن يكون أحدٌ من أهل الإيمان عند الله.

وفيها: استمرار رِزق الشُّهداء، وأنَّه يبدأ من حين القتل.

وفيها: أنَّ فناء الجسد لا يلزم منه فناء الرُّوح. وقد تأكل الأرض أجساد الشُّهداء، وقد لا تأكل بعضهم. أمَّا الأنبياء فالأرض لا تأكل أجسادهم أبدًا.

وفيها: إكمالُ الرَّدِّ على المنافقين، الذين شَمِتوا بمقتل شُّهداء المسلمين، فبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّ هؤلاء - الذين هم في مَوْضِعِ الشِّمَاتَةِ أو التَّحَسُّرِ - في حالٍ عظيمٍ من النعيم.

وفيها: أنَّ الرِّزق المذكور للشُّهداء رِزقٌ حقيقيٌّ، وليس أمرًا نفسيًّا أو معنويًّا فقط؛ وقد ثبت في الحديث الصحيح: «الشُّهداءُ عَلَى بَارِقٍ - مَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ - فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(١).

وفيها: أنَّ التَّعْزِيَةَ تُقَوِّي الرِّضَا بالقضاء.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٧٠) :

ثم ذكر الله تعالى أنَّ للشُّهداء نعيمًا نفسيًّا - بالإضافة إلى النعيم المحسوس المتقدم -؛ فقال عن حالهم:

﴿فَرِحِينَ﴾ (الفرح): ضِدُّ الحُزن، وهو قريبٌ من معنى الشُّرور، ومنه المحمود والمذموم ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: بالذي أعطاهم وتفضَّل عليهم، من الكرامة واللَّوْن النعيم. و(الْفَضْل) في اللُّغة: الزَّيَادَةُ.

(١) رواه أحمد (٢٣٩٠)، وابن حبان (٤٦٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشّر بعضهم بعضًا مسرورين. و(البشرى): الخبر السار ﴿يَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ في القتل والشهادة من إخوانهم ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أي: مَنْ بقي في الدنيا بعدهم، ثابتين على الدين، يُريدون اللّحاق بإخوانهم الذين سبقوهم.

أو يكون المقصود بقوله ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾: الذين لم يُدركوا فضلهم ومنزلتهم.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بعدم الخوف والحزن على إخوانهم الأحياء؛ لثباتهم على الإيمان، ورغبتهم في الشهادة.

أو: لا يخافون ممّا أمامهم - من المصير - ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

والفرق بين (الخوف) و(الحزن): أن (الخوف): غمٌّ بما يتوقّعه الإنسان من الشّوء في المستقبل، و(الحزن): غمٌّ نتيجة قوّت منفعة، أو حصول مضرّة، في الماضي أو الحاضر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اجتماع الفرح والاستبشار للشهداء.

وفيها: اجتماع الأمن بزوال المحذور، والنّعمة بحصول المأمول، لمن سلك سبيل الشهداء.

وفيها: ظهور فضل الله على الشهداء؛ لأنّ الاستبشار والفرح كلاهما تظهر آثاره على الوجه والبشرة.

وفيها: أنّ من مقتضيات الأخوة الإيمانية: محبة شمول الفضل والنّعمة لأهل الإيمان الآخرين، وتغني السابق حصول الشهادة للأحق؛ ليحصل له من النعيم مثل ما حصل للأول.

وفيها: احتمال أن يُعرّف الله الشهداء بمن سيقدّم عليهم، من نظرائهم وأشباههم.

وفيها: تمنّي الخير لأهل الإيمان.

وفيها: استحباب تبشير المؤمن لأخيه المؤمن.

وفيها: أنّ غير الشهداء لو عرفوا ما حصل للشهداء؛ لأقدموا على بذل نفوسهم في سبيل الله.

وفيها: أنّ العلاقة بين الأحياء والأموات من أهل الإيمان، لا تنقطع بالموت؛ فالأحياء

يدعّون الله للأموات: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، والأموات يستبشرون للأحياء بالنّعمة والفضل.

وفيها: أَنَّ الشُّهَدَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْبَرْزَخِ؛ لَهُمْ لِقَاءٌ بِبَعْضِهِمْ، وَحَدِيثٌ مُتَبَادَلٌ.

وفيها: أَنَّ سُرُورَ الْمُؤْمِنِينَ يَكْتُمِلُ بِاجْتِمَاعِهِمْ بِإِخْوَانِهِمْ.

وَفِيهِمْ بَعْضُ الْمَفْسُورِينَ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ فِيهَا بَشَارَةً لِمَنْ بَقِيَ حَيًّا فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، أَنَّهُ لَا تُصِيبُهُ نَكْبَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١):

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى اسْتِبْشَارَ الشُّهَدَاءِ بِإِخْوَانِهِمْ؛ أَكَّدَ اسْتِبْشَارَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَأَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بِمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ دَارِ الْخُلْدِ، وَبِمَا سَيُشِيرُونَ بِهِ مِنَ الْخُلُودِ الَّذِي لَا مَوْتَ بَعْدَهُ. وَمَعْنَى (اسْتَبْشَرَ) أَيُّ: بَشَّرَ غَيْرَهُ - فَهُمْ يُهَيَّيْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَعْظَمِ مُهَنَّا بِهِ - أَوْ: دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْبُشْرَى بِتَبْشِيرِ غَيْرِهِ لَهُ.

﴿بِنِعْمَةٍ﴾ قِيلَ: ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ، وَقِيلَ: الْجَنَّةُ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ بَيَانٌ لِّمَصْدَرِ النِّعْمَةِ ﴿وَفَضْلٍ﴾ قِيلَ: (الْفَضْلُ) دَاخِلٌ فِي (النِّعْمَةِ)، بِمَعْنَى: الزِّيَادَةُ فِيهَا. وَقِيلَ: كَرَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَيْهَا، وَقِيلَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسُورِينَ فِي الْمَرَادِبِ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: هُمُ الْأَحْيَاءُ، الَّذِينَ نَصَرَهُمُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ، فَيُشِيرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ (النِّعْمَةِ) وَهِيَ: النَّصْرُ وَالْغَلْبَةُ، وَ(الْفَضْلُ) وَهُوَ: الْغَنِيمَةُ، وَمَا وَقَعَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْعَدُوِّ وَأَسْرَاهِمِ.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: لَا يَتْرَكُهُمْ هَمَلًا وَسُدًى؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُشِيَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَيَفْرَحُونَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْخَسَهُمْ أَجْرَهُمْ، وَلَمْ يُضَيِّعْ جُهِدَهُمْ وَعَمَلَهُمْ؛ بَلْ كَفَاهُمْ بِالنِّعْمَةِ، وَالْفَوْزِ الْمُبِينِ، وَحُسْنِ الْخَاتِمَةِ، وَجَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وفي هذه الآية من القوائد:

اجْتِمَاعُ الْبَشَارَاتِ لِلشُّهَدَاءِ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَيَسْتَبْشِرُونَ لغيرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ فَرِحُونَ بِمَا حَصَلَ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِي سَيَحْصُلُ.

وفيها: التَّوَجُّبُ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِلْحَصُولِ عَلَى الشَّهَادَةِ.

وفيها: أن ثواب الشهادة عظيم؛ لأنه من الله، والثواب يعظم بعظم المشيب.

وفيها: الفضل لله في الدنيا والآخرة.

وفيها: سلامة الشهداء من الحزن على ما مضى، ومن الغم بما يحصل، ومن الخوف من المستقبل.

وفيها: نسبة النعمة إلى خالقها، وإسنادها إلى مصدرها، وهو الله عز وجل.

وفيها: البشارة لأهل الإيمان عمومًا، بالإضافة إلى الشهداء.

وفيها - مع التي قبلها -: تقديم الاستبشار للغير على الاستبشار للنفس، وهذا من كمال الأخوة. وأين هذا ممن يتمنى زوال النعمة عن الغير، بل ويفرح إذا زالت عنه؟! نعوذ بالله من الحسد، ومن شر الحاسدين.

وفي الآية: حُبوب أعمال فاقِد الإيمان، وأنه لا ثواب له عليها عند الله تعالى.

وفيها: أن المحنة التي أصابت المسلمين في أحد، هي منحة لمن قُتل منهم في سبيل الله.

وفيها: أن الشهادة أعظم من الغنيمة.

وفيها - مع الآيتين قبلها -: مجموعة من مزايا الشهداء؛ ومنها: الحياة الدائمة، والقرب من الله، والكرامة بأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم واستبشارهم.

ومن فوائد آيات التعزية:

من قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، إلى قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أن الله تعالى ذكر الصحابة رضي الله عنهم بعظم نعمته عليهم، في إرسال هذا الرسول، الذي كان من أنفسهم، يُعلمهم، ويُزكّيهم، ويُخرجهم من الضلالة إلى الهداية، ومن الظلمة إلى النور، فتَهْوَن كل بليّة ومحنة بجانب هذه النعمة.

ثم أخبرهم سبحانه عن سبب المصيبة - ليحذروا أنفسهم - وأن المصيبة بقضائه وقدره؛ ليؤخّذوه، ويتوكلوا عليه، ولا يخافوا غيره.

وأخبرهم ببعض ما فيها من الحِكم؛ لئلا يقع في النفوس شيءٌ - من اتِّهامه في قضائه وقدره - وأنه أعطاهم أعظمَ مما فاتهم.

وعزَّاهم عن قتلاهم، بذكر ما ناله الشُّهداء من ثوابه وكرامته؛ لئلا يفسوهم، ولا يحزنوا عليهم؛ فله الحمدُ سبحانه، وله الحِكمة البالغة.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢):

ولمَّا ذكرَ الله تعالى ما أعدَّه للشُّهداء، وحُسْنَ مَا بِ شُهَدَاءِ أُحُدٍ؛ أثنى على الذين بقوا أحياء يُواصلون الجهادَ بعد تلك الغزوة، رغمَ ما أصابهم من جراحٍ وتعبٍ - طاعةً لله ورسوله -؛ فقال عزَّ وجلَّ:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي: أطاعوا وانقادوا ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ في الأمر بالخروج إلى الغزو، في اليوم التالي ليوم أُحُد، جهةَ حمراء الأسد؛ مطاردةً للمشرِّكين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ ووقعَ بالمسلمين ما وقعَ، من الجراح، والألم، والقتل. فلبُّوا النِّداء، بلا توانٍ ولا تباطؤ.

و(الْقَرْح): أثر السِّلاح في البدن، والجُرح الذي اجتمع فيه القَيْح.

وقد ندبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين إلى النَّهوض في طَلَبِ الْعُدُوِّ؛ إرهابًا لهم، وليريهِم أنَّهُم قوَّةٌ وجلدًا - رغمَ ما أصاب المسلمين في أُحُد من جراح وإصابات - وأمرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يخرج معه إلَّا مَنْ حضرَ أُحُدًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بالإجابة والخروج، على الرَّغم ممَّا بهم من إصابات وجراح ﴿وَاتَّقُوا﴾ العذاب، بعدَمِ تَخْلُفِهِمْ وقُعودِهِم - وأتمُّوا العملَ على أكملِ وجهٍ؛ فهؤلاء لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابٌ كبيرٌ، وأجرٌ جزيلٌ.

وروى البخاري في صحيحه^(١)، عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ

أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟»، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ثناء الله على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: فَضْلٌ مَنْ خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ.

وفيها: أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ كَانَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ.

وفيها: الْاسْتِجَابَةُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مَهْمَا كَانَ التَّعَبُ الْبَدَنِيُّ وَالنَّفْسِيُّ.

وفيها: عَدَمُ الْقُعُودِ بَعْدَ الْمُصِيبَةِ، وَالْعَمَلُ عَلَى تَلَاوِي آثَارِهَا، وَالتَّغْلِبُ عَلَى نَتَائِجِهَا.

وفيها: تَحْذِي الْمَشْرِكِينَ بِمَوَاصِلَةِ الْعَمَلِ وَالْجِهَادِ؛ حَتَّى لَا تَهْنَأَ نَفُوسُهُمْ بِأَيِّ إِنْجَازٍ.

وفيها: خِذْلَانُ اللَّهِ لِلْمَشْرِكِينَ، الَّذِينَ انْسَحَبُوا بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، دُونَ أَنْ يَسْتَأْصِلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَيَكْرَهُوا عَلَى الْمَدِينَةِ - كَمَا كَانُوا يَتَمَنُّونَ -.

وفيها: اسْتِعْمَالُ أَسَالِيبِ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ مَعَ الْكُفَّارِ، وَالْقِيَامُ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي تُرْعِبُهُمْ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ كَبِيرٍ لِمُوَاجَهَتِهِمْ.

وفيها: أَنَّ الْقِيَامَ بِالْأَعْمَالِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ يَمْنَعُ مِنَ الْاسْتِسْلَامِ لَهَا، وَيُخَفِّفُ مِنْ آثَارِهَا.

وفيها: فَضِيلَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى، وَأَنَّ مَنْ اجْتَمَعَ فِيهِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ الْمَصَائِبَ مَحَكُّ الرُّجَالِ.

وفيها: أَنَّ الطَّاعَةَ فِي وَقْتِ الشُّدَّةِ لَهَا أَجْرٌ خَاصٌّ.

وفيها: أَنَّ الْمُصِيبَةَ الْبَدَنِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ لَا تَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ قِيَامِهِ بِمَوَاصِلَةِ الْعَمَلِ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ.

وفيها: أَنَّ الْإِحْسَانَ وَالتَّقْوَى يُعِينَانِ الْعَبْدَ عَلَى تَحْمُلِ التَّكْلِيفِ فِي وَقْتِ الشُّدَّةِ.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٢):

ولما كان أبو سفيان - وكان مشركاً - قد أغرى ركباً لقيهم في الطريق - بعد الرجوع من أحد - بإبلاغ المسلمين، أنه ومن معه قد عزموا على الرجوع إلى المسلمين لاستئصالهم، وأنه يجمع الجموع ليكرّ عليهم، ووصل الخبر إلى النبي ﷺ؛ فقد ذكر الله تعالى ما جرى من النبي ﷺ وأصحابه لما سمعوا الخبر.

فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ أهل الإيمان ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ وهم من بلغوا خبر أبي سفيان: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أي: كفار قريش ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ الجموع والجيوش، لقتالكم واستئصالكم؛ ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ أي: خافوهم واحذروهم، وازجعوا؛ لأنه لا طاقة لكم بهم.

﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي: زاد المؤمنين ذلك الخبر والقول المنقول ﴿إِيمَانًا﴾ وتصديقاً بوعده الله، وثقة به، فلم يلتفتوا إلى التخويف، وثبتوا.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ يعني: كافينا أمر هؤلاء المشركين، وهو قادرٌ على ردِّ شرِّهم، وبغيهم، وكيدهم.

﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: نتوكل عليه في أمورنا كلها، ونلجأ إليه بالنصر على أعدائنا.

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» (١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثقة بالله تعالى، واليقين بوعده عز وجل، وهذا يدعو إلى الثبات، ويدفع نفوس المؤمنين إلى العزم والتصميم.

وفيها: فضل التوكل على الله، واللجوء إليه في الشدائد.

وفيها: قُوَّةُ إِيْمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ بِرَبِّهِمْ، وَحُسْنُ ظَنِّهِمْ فِيهِ، وَأَنَّهُ يَكْفِيهِمْ جَمِيعَ الشُّرُورِ.

وفيها: أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْتَعْمِلُونَ الْحُرُوبَ النَّفْسِيَّةَ فِي تَخْوِيفِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَسْرِيبِ الْأَخْبَارِ الْمُرْعَبَةِ إِلَيْهِمْ، وَأَنَّ طَرِيقَةَ مُوَاجَهَةِ ذَلِكَ تَكُونُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ.

وفيها: أَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ، وَيَنْقُصُ.

وفيها: الْعَلَاقَةُ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالْإِيْمَانِ.

وفيها: فَضْلُ الذِّكْرِ الْعَظِيمِ «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، وَاسْتِعْمَالُهُ فِي وَقْتِ الشَّدَّةِ، وَعِنْدَ سَمَاعِ الْأَخْبَارِ الْمُخَيِّفَةِ.

وَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ عَنِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، فَقَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ تَقَمَّ الْقَرْنُ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ، مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟»، فَكَأَنَّ ذَلِكَ نُقِلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ هُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»^(١).

وفيها: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا قَوِيَ إِيْمَانُهُمْ؛ لَمْ تُرْهِبْهُمْ جَمْعُ الْكُفَّارِ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ وَكَيْلَ عِبَادِهِ، وَإِلَيْهِ يُلْجَأُونَ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمُلِمَّاتِ.

وفيها: إِبْطَاتُ (الْوَكِيلِ) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ: الْمُتَكَفِّلُ بِشُؤْنِ عِبَادِهِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَقُومُ بِالْأَمْرِ نِيَابَةً عَنْهُمْ.

وفيها: أَنَّ (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) أَمَانٌ لِكُلِّ خَائِفٍ؛ فَهِيَ تُذْهِبُ الرُّوعَ، وَتُزِيلُ الْخَوْفَ.

﴿فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

وَلَمَّا قَالَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ، وَصَدَّقُوا مَعَ اللَّهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَفَوَّضُوا أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ؛ كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بِأَسْ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).

﴿فَانْقَلَبُوا﴾ أي: رجع الذين استجابوا لله ورسوله إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ﴾ سلامة وعافية، لم يلقوا عدوًّا ﴿وَفَضَّلِ﴾ أجر وثواب، وما حصل من ربح التجارة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «النَّعْمَةُ: أَتَمُّ سَلَمٍ، وَالْفَضْلُ: أَنَّ عِيْرًا مَرَّتْ - وكان في أيام الموسم - فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فربح فيها مالًا، فقسمه بين أصحابه»^(١).

وقوله تعالى ﴿لَمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ أي: لم يُصِبْهُمْ ما يُسُوؤُهُمْ، لا في ذهابهم ولا في عودتهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي: امتثلوا أمره، فنالوا رضاه.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب منة كبيرة، فتفضل على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم برُجوهم سائمين مأجورين.

وجمهور المفسرين على أن هذه الآيات نزلت في غزوة حَمْرَاءِ الْأَسَدِ.

وقال بعضهم: بل نزلت في غزوة بَدْر الصُّغرى - التي تُسَمَّى (بَدْر المَوْعِد)، أو (بَدْر الثانية) - ذلك أن أبا سفيان قال للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أُحُد: مَوْعِدُكَ مَوْسِمَ بَدْر، حيث قتلتم أصحابنا، فأخذ المسلمون أهبّة القتال، ورجع جيش قُرَيْش! وأتى المسلمون مَوْسِمَ بَدْر - حَسَبَ المَوْعِد - فلم يجدوا به أحدًا، فابتاعوا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن من عاقبة التَّوَكُّلِ على الله: السلامة والعافية.

وفيها: فَضْلُ الاستجابة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضَا) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

وفيها: اجتماع خير الدُّنيا والآخرة، لمن استجاب لله، وتوكل عليه.

وفيها: أن الله يُوفِّقُ العبدَ للعمل الصالح، ثم يُثيبه عليه، وهذا محض فَضْلٍ منه عز وجل.

وفيها: أن أَجْرَ الغزو يحصل لأصحابه، ولو لم يلقوا عدوهم.

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١٨). قال المحقق: وإسناده صحيح، تفسير ابن كثير، طبعة أولاد الشيخ.

وفيها: أَنَّ الْمَشْرِكِينَ جُبْنَاءٌ؛ فحِينَمَا لَحِقَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ وَلَّوْا الْأَدْبَارَ هَارِبِينَ!

وفيها: أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَجْعَلُ خَيْرًا كَثِيرًا فِيمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ، وَيُشْقُّ عَلَيْهَا.

وفيها: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي خَرَاءِ الْأَسَدِ؛ عَنِمُوا وَسَلِمُوا، وَلَمَّا عَصَوْا فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ أَصِيبُوا وَهُزِمُوا.

وفيها: أَنَّ رِبْحَ التَّجَارَةِ إِذَا حَصَلَ فِي سَفَرِ الْجِهَادِ تَبَعًا؛ فَإِنَّهُ لَا يُذْهِبُ أَجْرَهُ.

وفيها: أَنَّ حَصُولَ النُّعْمَةِ وَالْفَضْلِ يَكُونُ بِالْإِيْمَانِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ.

وَفِي الْآيَةِ: تَحْسِيرُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْغَزْوِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، بِأَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَقَدْ فَاتَتْهُمْ النُّعْمَةُ وَالْفَضْلُ.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥):

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَحْبَارَ التَّخْوِيفِ الَّتِي نَقَلَهَا الْمَشْرِكُونَ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ؛ لِتَحْذِيلِ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ أَي: الْمَثْبُطُ الَّذِي نَقَلَ الْخَبَرَ، وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنَ التَّخْوِيفِ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ أَي: مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَوَسْوَستِهِ ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾ أَي: يَخَوْفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ وَيَعْظَمُهُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ؛ لِتَرْكِكُمَا الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ، وَتَجَبُّنَا عَنْ مُقَاتَلَتِهِمْ.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أَي: لَا تَتَأَثَّرُوا بِهِمْ، وَلَا تَقْعُدُوا عَنْ قِتَالِهِمْ، وَلَا تَكْتَرِثُوا بِالْأَقْوَالِ الْمُنْقُولَةِ لِتَخْوِيفِكُمْ.

﴿وَخَافُوا﴾ أَي: لِيَكُنْ خَوْفُ اللَّهِ دَافِعًا لَكُمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَعَدَمُ الْقَعُودِ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَعْدَائِهِ.

وَقَوْلُهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ، وَوَعْدِهِ بِالنَّصْرِ، وَتَأْمِينِهِ عِبَادَهُ وَحِفْظِهِ لَهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

أَنَّ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ: تَعْظِيمُ الْأَعْدَاءِ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَخَافُوهُمْ، وَيَتْرَكُوا الْجِهَادَ.

وفيها: أَنَّ كُلَّ عَدُوٍّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمُخَذَّلٍ لَهُمْ، وَمُثَبِّطٍ لَهُمْ، وَنَاقِلٍ لِيَا تُخَيِّفُهُمْ؛ هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَأَعْوَانِهِ.

وفيها: أَنَّ مِنْ وَسَائِلِ الشَّيْطَانِ: إِرْعَابَ الْمُؤْمِنِينَ.

وفيها: أَنَّ الشَّيْطَانَ يُهَاجِمُ بِأَوْلِيَائِهِ، وَيَسْتَعْمِلُهُمْ فِي التَّخْوِيفِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ يُثَبِّطُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْجِهَادِ؛ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَتْبَاعِ الشَّيَاطِينِ.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْكُ الْجِهَادِ لِأَجْلِ الشَّائِعَاتِ الْمُخَيِّفَةِ.

وفي قوله تعالى ﴿وَحَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ؛ قَوِيَ خَوْفُهُ مِنْهُ، وَضَعُفَ خَوْفُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ.

وفي الآية: النَّهْيُ عَنِ الْخَوْفِ الطَّبِيعِيِّ، إِذَا كَانَ يُوَدِّي إِلَى تَرْكِ وَاجِبٍ، أَوْ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ؛ فَالْخَوْفُ قِسْمَانِ:

الأول: خَوْفُ عِبَادَةٍ، وَهُوَ خَوْفُ السَّرِّ. فَهَذَا لَا يَجُوزُ صَرْفُهُ إِلَّا لِلَّهِ؛ فَلَوْ خَافَ شَخْصٌ مِنْ مَيْتٍ -مَثَلًا- لَكَانَ شِرْكًَا.

والخوف الثاني: الْخَوْفُ الطَّبِيعِيُّ الْجَبَلِيُّ، وَهُوَ الَّذِي يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ بِسَبَبِ وَجُودِ مَا يُخَيِّفُ حَقِيقَةً -كَسَبْعٍ وَعَدُوٍّ-؛ فَهَذَا لَا يُلَامُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، إِلَّا إِذَا أَدَّى إِلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ.

وهناك خوف ثالث، وَهُوَ خَوْفُ الْجُبْنَاءِ، الَّذِينَ رُبَّمَا يَخَافُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِنْ ظِلِّهِ! وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الْمَرَضِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى عِلَاجٍ.

وفي الآية: أَنَّ مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ؛ فَإِنَّهُ سَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ، وَيَكُونُ لَهُ مِنَ اللَّهِ نَصْرٌ وَحِفْظٌ.

وفيها: أَنَّ التَّصَدِيقَ بِوَعْدِ اللَّهِ يَثْبُتُ فِي الْجِهَادِ.

وفيها: أَنَّ أَسْبَابَ الْخَوْفِ إِذَا قَامَتْ؛ فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُوَاجِهَهَا بِالْإِيمَانِ بِقُوَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ -التي لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ-.

وفيها: أَنَّهُ لَا يَخَافُ الشَّيْطَانَ إِلَّا وَلِيُّ الشَّيْطَانِ.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦):

ولما نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن الخوف من أولياء الشيطان؛ نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الحزن على حال من سارع في الكفر؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ولا يهمنك ﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: يُبادرونه، ويدخلون فيه بسرعة، ويجمعون الجموع لمحاربتك ومن معك؛ ف﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي: مهما فعلوا، وجعوا، وكادوا؛ فلن يلحقوا ضرراً بالله تعالى، ولن يبطلوا دينه، ولن يكتبوا نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ بل إنهم لا يضرون إلا أنفسهم.

قيل: المقصود كفار قريش، وقيل: المنافقون، ويؤيده آية المائدة.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ أي: نصيباً. و(الحظ) في اللغة: هو النصيب، من شيء نافع ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في الجنة، وذلك لأجل كفرهم وطغيانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عقوبة شديدة في النار، وبئس المصير.

قال مجاهد رحمه الله: «هم المنافقون»^(١)، وكذا قال في الآية التي تليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار، وحرصه على هدايتهم.

وفيها: أن الدعاية لا ينبغي أن يقعد به الحزن، وتتسلط عليه الغموم؛ بسبب مخالفة الآخرين للحق، وعصيانهم، وتمردهم.

وفيها: أن حكمة الله اقتضت حرمان الكفار من الخير في الآخرة، ودخولهم في العذاب الأليم؛ إذا عاندوا وأصرروا على الكفر، وماتوا على ذلك.

وفيها: أن التأمل في حكمة الله، يُعين على علاج الغم الذي يُصيب نفوس الدعاة؛ بسبب مسارعة كثير من الناس في الكفر.

(١) تفسير الطبري (٦/٢٥٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/٨٢٢).

وفيها: اجتِهاد كثير من الكُفَّار في حَرْبِهِم للإسلام، ومُسارعتهم في ذلك، وحِرْصهم على التَّمسُّك بالكُفر، والمقاتلة من أجله.

وفيها: أنَّ الإيمان بتعذيب الكُفَّار في الآخرة، يخفِّف على نفوس المؤمنين ما يلقونه من كيدهم.

وفيها: محبة الدَّاعية المسلم الخير لجميع الخلق.

وفيها: أنَّ بعض سُفهاء بني آدم يُسارعون فيما يضرُّهم، ويُهْلِكهم.

وفيها: أنَّ الله تعالى لا تضرُّه معصية العاصين ولا كُفر الكافرين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما قال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١).

وفيها: أنَّ مَنْ يُسارع مع الغير، أشدَّ اجتِهادًا ممَّن يُسرِع وحده. ولذا يتعاون الكُفَّار، ويتناصرون، ويحتِمعون لنشر كُفرهم، والقتال من أجله.

وفيها: أنَّ الكُفر أعظم سببٍ للحِرمان من الخير.

وفيها: أنَّ الكافر قد يكون له حظُّ في الدُّنيا، ولكن لا يُمكن أن يكون له حظُّ في الآخرة؛ بل ليس له إلا العذاب الأليم.

وفيها: تسلية الله لنبيه وسيد المؤمنين ﷺ، والاعتناء بشؤونهم، وتبشيرهم، وإلقاء الطمأنينة في نفسه، بأنَّ دينه باقٍ لا يزول - مهما كادَ الكُفَّار -.

وفيها: أنَّ بعض الناس يقع في الكُفر سريعاً؛ لافتتانه به، وحِرْصه عليه؛ ولذا جاء التعبير في الآية بـ (المسارعة في الكُفر)، وهو أبلغ من (المسارعة إلى الكُفر)؛ من جهة الانغماس التام، والتلبُّس الكامل.

وفيها: ذكرُ الإرادة الكونية لله تعالى. وأما النوع الآخر من نوعي الإرادة هو: الإرادة الشرعية.

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وقد تجتمع الإرادتان - كوقوع هداية مؤمن وطاعة مُطيع - وقد تقع الإرادة الكونية دون الشرعية - كإرادته كُفّر كافرٍ ومعصية عاصٍ - .

وقد تنفرد الإرادة الشرعية، كإرادة الله إيمانَ الكافر أو طاعةَ العاصي، مع أنَّ الكفر والمعصية واقعٌ ولا بُدَّ؛ فكونها محبوبة لله فهي شرعية، وكونها لم تقع - مع أمر الله بها ومحبتها لها - دليلٌ على أنَّها شرعيةٌ فحسب؛ فهي مُرادة محبوبة لم تقع.

وقد تنتفي الإرادتان، ككُفر المؤمن الذي مات على الإيمان؛ فهذا لا يحبُّه الله، ولم يقع لهذا المؤمن.

وفيها: أنَّ النفوس الكاملة قد يعترىها ما يعترى النفس البشرية، من الحزن، والهَم، والغَم.

وفيها: تسلية الدعاة، بآلا تذهب أنفسهم حراتٍ على مَنْ ضلَّ وكفر، ولا يبتسوا بما يصنعه هؤلاء من إيدائهم وحربهم؛ فإنَّ المؤمن إذا ثبت سينجو، والكافر - مهما كادَ - سيهلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٧٧:

ولمَّا ذكر الله تعالى عاقبة المُسارعين؛ ذكر بعدها عذاب مَنْ اختار الكُفر، وقدمه، وآثره؛ فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: قدَّموه عليه، واختاروه، وتركوا الإيمان؛ فشبه الكُفر بالسُّلعة، والكافر بالمشتري الذي يُفضَّل، ويختار.

و(الإيمان) لغة: هو التصديق، وشرعاً: هو الإقرار، المستلزم للقبول والإذعان، ويشمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح؛ فالإيمان قول وعمل واعتقاد.

فكان جزاء هؤلاء الكفار، أنَّهم ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بتفضيلهم الكُفر على الإيمان الذي يحبُّه الله، وتكرار ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ في الآية التي قبلها عن المنافقين وهذه عن الكفار، وقيل التكرار للتأكيد، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجه، يخلُص إلى قُلُوبهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أَنَّ الَّذِي يَشْتَرِي الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ؛ رَاغِبٌ فِيهِمَا أَخَذَ، مُعَرِّضٌ عَمَّا تَرَكَ.
 وفيها: أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَضُرَّ اللَّهَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿شَيْئًا﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ
 النَّفْيِ بِ (لَنْ)؛ فَهِيَ تَفِيدُ الْعُمُومَ، يَعْنِي: لَا يَضُرُّ اللَّهَ قَلِيلًا، وَلَا كَثِيرًا.
 وفي الآية: غِبَاءُ الْكُفَّارِ، وَحَمَاقَتُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَيَرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا مَغْبُورِينَ فِي
 اشْتِرَائِهِمُ الْكُفْرَ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ عَادَةِ الْمَغْبُورِ أَنْ يَتَأَلَّمْ؛ وَلِذَلِكَ نَاسَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي
 الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وفيها: شِدَّةُ عَذَابِ الرَّاغِبِ فِي الْكُفْرِ.

وفيها: أَنَّ أَخَذَ الْكُفْرَ بَدَلًا عَنِ الْإِيمَانِ، أَخْسَرُ صَفْقَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.
 وفيها: أَنَّ تَقْدِيمَ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ انْتِكَاسٌ لِلْفِطْرَةِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْبَشَرِ أَنَّ اللَّهَ فَطَرَهُمْ
 عَلَى الْإِيمَانِ، فَإِذَا كَفَرَ أَحَدُهُمْ؛ فَقَدْ قَدَّمَ الْكُفْرَ -الَّذِي زَيَّنَ لَهُ إِبْلِيسُ- وَاخْتَارَهُ عَلَى الْإِيمَانِ
 الَّذِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وفي الآية -مع التي قبلها والتي بعدها-: تَكْرِيرٌ لِلتَّأْكِيدِ.

وفيها جميعًا: أَنَّهُ لَمَّا تَعَدَّدَتْ صِفَاتُ الْكُفَّارِ، وَتَنَوَّعَتْ أَعْمَالُهُمْ؛ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْوَاعًا
 مُخْتَلِفَةً مِنَ الْعَذَابِ:

فَجَعَلَ لِلَّذِينَ (يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ) عَذَابًا (عَظِيمًا).

وَلِلَّذِينَ (اخْتَارُوا الْكُفْرَ وَقَدَّمُوهُ) عَذَابًا (أَلِيمًا).

وَلِلَّذِينَ (كَفَرُوا، وَاسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَازْدَادُوا مِنْ عَمَلِ الْكُفْرِ) عَذَابًا (مُهِينًا).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ
 عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨):

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْمُسَارِعِينَ إِلَى نُصْرَةِ الْكُفْرِ وَالِدِّفَاعِ عَنْهُ، وَمُقَاتَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ
 لِأَجْلِهِ، وَأَرَشَدَ أَنَّهُ لَا يُؤْتِيهِمْ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَجَارِبُونَ اللَّهَ، وَاللَّهُ غَالِبٌ.

وذكر عاقبة تقديم الكفر على الإيمان؛ بين بعد ذلك أن رغبة الكافرين في الحياة ليست خيراً لهم، إذا استمروا على الكفر؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ينهى الله الكفار أن يظنوا ﴿أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ﴾ أي: أن إمهالنا لهم، بتأخير الأجل وإطالة العمر، وعدم معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا ﴿خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ وفي مصلحتهم.

كَلَّا؛ ﴿أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ﴾ ونؤخرهم، ونمتعهم برغد العيش؛ ﴿لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ وذنبا وطغيانا في أنفسهم، وإضلالا لغيرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذللهم الله به، كما استكبروا في الأرض، وعلو فيها.

وقد ذكر الله تعالى في آيات أخرى، أنه يأخذ الكفار أولاً بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فإذا لم يؤمنوا يفتح عليهم من السراء وأبواب كل شيء؛ حتى إذا فرحوا بما أوتوا؛ أخذهم بغتة وهم لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٥].

وهذا الإمهال والاستدراج من كيده الله المتين؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُمِلُّ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من نفس برّة ولا فاجرة، إلا والموت خير لها»، وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾، وقرأ: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّائِزِينَ﴾^(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن تأخير الله للكافر ليس عناية به؛ بل ليزداد إثما.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠٩/٧)، والطبري في تفسيره (٤٢٣/٧).

وفيها: أن إمهال الكفار من أسباب غرورهم، واسترسالهم في فجورهم.

وفيها: أن من الناس من يزداد كفرًا بطول العمر.

ويؤخذ من مفهوم الآية: أن زيادة عمر المؤمن خير له؛ ليزداد من الطاعات، وترك نفسه بالاستمرار في عمل الصالحات، فتكثر حسناته، ويتضاعف أجره عند ربه، وقد سئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قيل: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»^(١).

وفي الآية: أن إمهال الكافرين والفاسقين ليس عبثًا؛ وإنما هو لحكمة من الله.

وفيها: أن على الإنسان أن يعتبر في عمره: هل أمضاه في طاعة؟ وهل تزود فيه من الخير؟ وليحذر من الانشغال بالمعاصي.

وفيها: أن الإنسان قد يغير بظاهر الحال، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنْ أَلْعَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفيها: أنجزاء من جنس العمل؛ فالله تعالى يبين ويذلل في الآخرة من تكبر وعلا في الدنيا.

وفيها: تقريع الكفار العائدين من أحد، بأن سلامتهم وعودتهم إلى مكة ليست في صالحهم - كما ظنوا -؛ بل هي شر لهم، إذا ازدادوا كفرًا، بمُعاندَةِ الْحَقِّ والاستمرار في محاربة أهله.

وفيها: تنبيه من عاش من الكفار، وسلم في رغد العيش، أن هذا ليس إكرامًا من الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾.

وفيها: أن العطاء في الدنيا لا يدل على رضا الله عن صاحبه.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حِكْمًا عَظِيمَةً أُخْرَى، لِمَا حَصَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ؛ فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: يَتْرُكَهُمْ ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾: مِنْ اخْتِلَاطِ الْمُنَافِقِينَ بِهِمْ، وَوُجُودِ الْكُفْرِ فِي بَعْضِ الْقُلُوبِ ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾، أَي: يُفَرِّقَ ﴿الْحَقِيقَ﴾: الْمُنَافِقَ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾: الْمُؤْمِنِ؛ فَيَزُولُ الِالْتِبَاسُ، وَتُظْهَرُ الْحَقَائِقُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ»^(١)، وَقَالَ قَتَادَةُ: «يُمِيزُ بَيْنَهُم بِالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ»^(٢).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾؛ لِأَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ؛ فَلَا يَكْشِفُهُ لَكُمْ سَلَفًا.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ أَي: يَخْتَارُ وَيَسْتَخْلَصُ وَيَخْتَصُّ ﴿مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فَيُطْلِعُهُ بِالْوَحْيِ عَلَى بَعْضِ الْغَيْبِ الَّذِي يَشَاوُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَسْمَاءُ الْمُنَافِقِينَ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٣) إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦-٢٧].

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ﴾: بِوُجُودِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَإِلَهِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَرُسُلِهِ﴾: تَصَدِّقًا بِالْوَحْيِ الَّذِي أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ اللَّهِ، وَعَمَلًا بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ شَرَعِ اللَّهِ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بِمَا جَاءَ مِنَ الْغَيْبِ بِقُلُوبِكُمْ، ﴿وَتَوَلَّيْتُمْ﴾ بِجَوَارِحِكُمْ، فَتَمَثَّلُوا أَوْامِرَ اللَّهِ، وَتَجَنَّبُوا نَوَاهِيهِ؛ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وَثَوَابٌ جَزِيلٌ عَلَى ذَلِكَ.

وفي هذه الآية مِنَ الْفَوَائِدِ - (وهي من كنوز القرآن) -:

أَنَّ الشَّدَائِدَ مَحَكُّ صِدْقِ الْإِيمَانِ.

وفيها: أَنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُ الْمُنَافِقِينَ الْمُنْدَسِّينَ وَسُطَّ الْمُؤْمِنِينَ، دُونَ كَشْفِ أَحْوَالِهِمْ، وَأَنَّ

(١) دلائل النبوة - لليبهي (٣/ ٧٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٥).

حِكْمَتُهُ تَعَالَى تَمَنَعُ بَقَاءَ الْأُمُورِ مَخْتَلِطَةً؛ بَلْ إِنَّهُ يُجِيرِي مِنَ الْأَحْدَاثِ مَا يَكْشِفُ الْخَفَايَا، وَيُبَيِّنُ الْمُنَافِقَ مِنَ الْمُؤْمِنِ.

وَفِيهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُبْقِي الْأُمُورَ مُتَلَبِّسَةً بِعُضِّ الْوَقْتِ؛ لِحِكْمَةٍ جَلِيلَةٍ، كَتَمَحِيصِ الْأُمُورِ، وَإِجْرَاءِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا امْتِحَانُ الْعِبَادِ.

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْقِدُ أَسْبَابًا مِنَ الْمِخْنَةِ؛ لِيُظْهِرَ أَوْلِيَاءَهُ، وَيَقْضَحَ أَعْدَاءَهُ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْمِخْنَ تَكْشِفُ الصَّابِرِينَ، وَتُمَيِّزُهُمْ عَنِ الْمُنَافِقِينَ.

وَفِيهَا: فَضْلُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الَّذِينَ ظَهَرَ إِيَابَتُهُمْ وَثَبَاتُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ. وَهَتِكَتْ فِيهِ أَسْتَارُ الْمُنَافِقِينَ؛ فَظَهَرَتْ مَخَالِفَتُهُمْ وَنُكُوصُهُمْ وَخِيَانَتُهُمْ.

وَفِي الْآيَةِ: الرَّدُّ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ قَالُوا: «إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا؛ فَلْيُخْبِرْنَا بِمَنْ يَوْمَن بِهِ مِنَّا مَن يَكْفُرُ بِهِ»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. وَفِي هَذَا: إِثْبَاتُ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْحَقَائِقَ تُعْرَفُ بِالْقَرَائِنِ، وَالْمَوَاقِفِ، وَأَفْعَالِ الْأَشْخَاصِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ.

وَفِيهَا: أَنَّ الشَّدَائِدَ تُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقَائِقَ أَنْفُسِهِمْ، فَيَطْمَئِنُّ الْمُؤْمِنُ لِسَلَامَةِ حَالِهِ وَصِحَّةِ عَمَلِهِ، وَتُظْهِرُ أَيْضًا حَالَ الْمُنَافِقِ؛ فَيَحْذَرُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَلَا يُؤَلُّونَهُ عَمَلًا، وَلَا يَأْخُذُونَ بِكَلَامِهِ، وَلَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى رَأْيِهِ؛ لِأَنَّهُ عَدُوٌّ.

وَفِيهَا: أَنَّ اللَّهَ لَا يُطْلِعُ عَامَّةَ النَّاسِ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَيْسَ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ مَعْرِفَةُ الْغَيْبِ.

وَفِيهَا: أَنَّ انْكِشَافَ الْحَقَائِقِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِشَّدَائِدِ الْامْتِحَانَاتِ.

وَفِيهَا: أَنَّ مَعْرِفَةَ بَعْضِ الْغَيْبِ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ، لَا يُؤْتَاهُ إِلَّا مَنْ شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ.

وَفِي الْآيَةِ: قَطْعُ أَمَلِ النُّفُوسِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْيَقِينِيَّةِ بِالْغَيْبِ، إِلَّا مَا جَاءَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ؛ وَبِذَلِكَ يُوقَّرُ الْمُؤْمِنُ جُهْدَهُ، وَوَقْتَهُ، وَمَالَهُ مِنْ أَنْ يُصَرَّفَ فِي الدَّجَلِ وَالشَّعْوَذَةِ، وَاتِّبَانِ الْكُفَّانِ، وَيدْعُ الْاِسْتِغَالَ بِمَا يَسْتَحِيلُ مَعْرِفَتُهُ.

وَفِيهَا: التَّنْبِيهُ عَلَى احْتِرَامِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِهِمْ مَنَازِلَهُمْ؛ لِأَنَّا مَا عَلِمْنَا الشَّرْعَ وَبَعْضَ الْغَيْبِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ.

وفيها: الارتباط بين الإيمان والتقوى، واستلزام كل منهما للآخر.

وفيها: أن الله تعالى يبين لأهل الإيمان ما تدعو حاجتهم إلى بيانه؛ فالمؤمن معروف والكافر معروف، لكن العدو الخفي المشتبه أمره هو من يحتاجون إلى معرفته وتبينه.

وفيها: أن بواطن القلوب وحقائق ما في الصدور؛ من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

وفيها: أن الله يتلي عباده؛ ليستخرج ما في صدورهم، ويظهره للعلن.

وفيها: أن الله راضٍ عن أنبيائه ورسله.

وفيها: أهمية تحقيق الإيمان، والانقياد لله، والإذعان، وعدم الاعتراض على القدر والشرع، وأنه إذا نزل الابتلاء بالعبادة؛ فالواجب على المسلم الثبات والانقياد لأمر الله، وأن يري ربه من نفسه خيراً.

وفيها: أن أعيان المنافقين إذا كانوا يعلمون بالوحي يقيناً - في زمن النبي صلى الله عليه وسلم -؛ فإنهم ينكشفون بعد انقطاع الوحي بالقرائن، ولحن القول، ومواقف الأشخاص.

وفيها: انقسام الناس إلى خبيث، وطيب، - والخبث والطيب في النفوس متفاوت -؛ فالبعض يغلب عليه الخبث، وآخرون يغلب عليهم الطيب.

وفيها: أن الله يفصح ما يقوله المنافقون، إذا غابوا عن الناس.

وفيها: أن الله يعذب المنافقين في الدنيا - بالفضيحة وغيرها - وعذاب الآخرة أشد.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠):

ولما حرص الله تعالى المؤمنين على بذل النفوس في سبيله؛ أعقب ذلك بالتحريض على بذل الأموال في ذلك، وذم من أملى لهم - ليزدادوا إثماً - والمنافقين في بخلهم، وذكر عاقبتهم في الآخرة؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا يظنن ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ ويمنعون حق الله - عموماً - و(البخل): هو منع الحق الواجب ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أعطاهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وخيره. و(الفضل)

في الأصل: هو الزيادة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ﴾ أي: ليس جمعهم المال، واستمتاعهم به، وادخاره، ومنعهم حق الله فيه؛ خيراً من إخراج الحق والبذل والعطاء.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ وضررٌ عليهم في الحقيقة؛ لأن أموالهم ستزول عنهم، وهم سيزولون عنها، ويبقى وبأل البخل عليهم.

فالجزاء: أثمهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ستجعل أموالهم التي منعوها طوقاً يُحِيط بأعناقهم، ويُلازمهم، فيُعَذَّبون بها يوم الحساب.

كما جاء في الحديث: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ؛ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ سُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ رَيْبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِغْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَتَرُكَ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الآية^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ميراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ما فيهما، مما يتوارثه أهلها، من مالٍ وغيره، والأمور كلها راجعة إليه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠].

و(الميراثُ): انتقال المال من سابقٍ إلى لاحقٍ.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مُطَّلِعٌ على أعمالكم، ونياتكم وضمائركم، ومنعكم وعطائكم، فيُجازيكم على كل ذلك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مضرة البخل في الدين والدنيا والآخرة: ففي الدين بنقصه، وفي الدنيا بالشمعة السيئة ونحوها، وفي الآخرة بالعذاب.

وفيها: عدمُ الاغترارِ بتكثيرِ المالِ، وحُبسه، وزيادته.

وفيها: مُعاقبة البخليل يوم القيامة بجزاء من جنس عمله؛ فالشعبانُ -الذي يتحوّل إليه ماله- يبدأ بقضم يده المغلولة التي بَخِلَتْ!

(١) رواه البخاري (١٤٠٣).

وفي الآية: تحريم مَنع الواجبات المالية، سواء كانت زكاة، أو نفقة، أو ضيافة، أو إطعام جائع مُشرفٍ على الموت، أو صدًا لعدوٍّ يحتاج البلد، أو إنفاقًا على أمرٍ ضروريٍّ لا يقدر على إزالته إلا صاحبُ المال، أو أيُّ بذلٍ واجبٍ للمال.

وفيها: انفراد الله تعالى بالسَّماواتِ، والأرض، بعد فناء الخلق.

وفيها: أنَّ إنفاقَ المالِ في سبيلِ الله؛ خيرٌ من التمتع به في اللذات، وأدَّخاره لدفعِ الغوائلِ والمصائبِ والآفات.

وفيها: أنَّ ما هو ميسورٌ في الدنيا - كبدلِ المال - سيكون معسورًا في الآخرة؛ فليبادر العبد.

وفيها: أنَّ سوءَ العملِ يُحيطُ بصاحبه يومَ القيامة، ويُهْلِكُه، وأنَّ التطويقَ في التعذيبِ حقيقيٌّ.

وفيها: وجوبُ بذلِ ما أفاء الله على العبد من فَضْلٍ؛ كمالٍ، وجاهٍ، وعِلْمٍ، وقوَّة، وراحة، ونحوها.

وفيها: أنَّ كلَّ مالٍ وَفَضْلٍ في السماء والأرض لا يستقرُّ في يدِ أحد، ولا ينفردُ به إلا ربُّ العالمين.

وفيها: بقاء المُلْكِ لله وحده، وتحوُّل جميع الممتلكات إليه.

وفيها: تحفيز الناس للإنفاق، بكون المال عاريةً مستردَّةً، خارجةً عن مُلكهم، وراجعةً لله.

وفيها: أنَّ العاقل لا يَسْتَبْقِي ما يَفْنَى.

وفيها: أنَّ العطاء خيرٌ، والمنع شرٌّ.

وفيها: مُعاقبة البخل بنقيضِ مقصوده؛ فإنه يظُنُّ أنَّ ما يَخَلُّ به سيقى له، وهو في الحقيقة سيخرج منه.

وفيها: أنَّ أسرارَ الناس - بما فيها: ممتلكاتهم وأرصدتهم المالية - معلومةٌ عند الله، وهو مطَّلِعٌ عليها.

وفيها: عدم الاستجابة لداعي الشَّيْطَان، الذي يقول للعبد: لا تُنفِق حتى لا يفنى المال!
وفيها: عدم الاغترار بما يحصل للإنسان من مالٍ أو مَتَاعٍ؛ لأنَّه من إيتاء الله له؛ فهو مَصْدَرُهُ وَمَالِكُهُ على الحقيقة.

وفيها: أنَّ كَنَزَ المَالِ: سَبَبٌ للعذاب، وقد يضطر البخلُ للإنفاق منه ببلايا يبتليها الله بها.
وفيها: أنَّ الرَّصِيدَ الحقيقيَّ للإنسان، هو: ما أنفقَه في سبيل الله.
وفيها: حماقة البخل، الذي يظُنُّ أنَّ كَنَزَ المال سيُبقِي المَال، ولو أراد بقاءه حقيقةً لأقرضه رِبَةً.

وفيها: أنَّ ادِّخَارَ المال وكَنَزَهُ ليس مذمومًا، إذا أخرج حقَّ الله فيه.
وفيها: أنَّه ينبغي على مَنْ يتولَّى أمورَ الناس أن يُلْزِمَهُم بالواجبات، وَيُرْغِبَهُم في المستحَبَّات، ولا يُلْزِمُهُم بما لا يجب عليهم شرعًا.
وفيها: تحريضُ العبدِ على الإنفاق؛ لكونه سيفارق ماله.
وفيها: أنَّ إيتاء الله للعبد لا يدلُّ على رِضاؤه عنه.
وفيها: أنَّه لا أمرَ وَسَطَ بَيْنَ الخَيْرِ والشرِّ؛ فإمَّا أن يكونَ الشَّيْءُ خَيْرًا، أو شرًّا.
وفيها: فضيحة البخل بحقِّ الله في أرض المَحْشَر، حينما يرى عذابه الأولون والآخرون، وهو يَفِرُّ من كَنَزِهِ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٨٢﴾﴾

ولمَّا ذكرَ الله تعالى كَيْدَ المشركين في مُحَارَبَةِ المسلمين بالسَّلاح؛ أتبعه بذكر شيء من كَيْدِ اليهود في مُحَارَبَةِ المسلمين، بالتشكيك وإلقاء الشُّبُهَات.

وذكرَهم الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذَمِّ البُخْلِ؛ لأنَّهم هم أهلُ البُخْلِ بالمال، وأهلُ البُخْلِ بالعِلْمِ؛ فكنتموا صِفة نبيِّنا عَلَيْهِ السَّلَام، وسَعَوْا في قَتْلِهِ - كما قتلوا الأنبياء من قبل -.

فلما تحبب الله تعالى إلى عباده المؤمنين، بتسميته صدقاتهم (قَرْضًا)؛ استغل اليهود ذلك في سب الله تعالى ووَصْفِهِ بالفقر؛ فقال عَزَّوَجَلَّ - حاكياً قولهم وراداً عليهم -:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ وَعِلْمَ، وَأَحْصَى ﴿قَوْلَ الَّذِينَ﴾ - وهم أحبار اليهود - ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وَنَحْنُ إِلَيْنَا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ!

سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

قال ابن عباس رضي الله عنه: «لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ قالت اليهود: يا مُحَمَّدُ، افتقر ربك، يسأل عباده القَرْضَ!؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية»^(١).

ويروى عن ابن عباس أنه قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدارس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبرٌ يقال له أشيع فقال أبو بكر رضي الله عنه لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ما حلك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وفي قول

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٦٠).

أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَا بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَضَبِ: ﴿وَلَقَسْمُكَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَفَوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْوَ الْأُمُورِ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي: من هذه المقالة الشنيعة، ونُشِيت في صُحُف ملائكتنا ونَحْفَظُهُ؛ لِنَقَرَّزَهُمْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَعَاقِبَهُمْ عَلَيْهِ، وَعَلَى جَرِيْمَتِهِمُ الْآخَرَى، وَهِيَ: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ فَقَدْ اعْتَدَوْا عَلَى حَقِّ اللَّهِ، وَعَلَى حَقِّ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ شَنَاةَ جَرِيْمَةِ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، فَسُنْعَاقِبُهُمْ عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وَبَاشِرُوهُ، وَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ، فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الشَّدِيدِ، الْمُحْرِقِ. وَ(الْحَرِيقُ) فِي اللَّغَةِ: هُوَ النَّارُ الْمُضْطَرِّمَةُ ذَاتَ اللَّهَبِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تهديدُ الله لليهود، بَأَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَهُمْ، وَكَتَبَتْهُ مَلَائِكَتُهُ. وفيها: أَنَّ الله يُدْرِكُ الْأَصْوَاتَ مَهْمَا خَفِيََتْ. وفي الآية: مِثَالُ لِسْمَعِ التَّهْدِيدِ، بِخِلَافِ سَمْعِ التَّأْيِيدِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. وفيها: جُرْأَةُ الْيَهُودِ عَلَى اللَّهِ، مَعَ تَكْبَرِهِمْ؛ فَهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِالنَّقْصِ وَأَنْفُسُهُمْ بِالْكَمَالِ! وَيَجْمَعُونَ فِي أَفْعَالِهِمْ بَيْنَ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَمَقَامِ الرِّسَالَةِ. وفيها: أَنَّ دَأْبَ الْيَهُودِ، هُوَ: اِنتِهَازُ مَا يَظُنُّونَهُ فُرْصَةً؛ لِإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ مَعْرِفَةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَعَانِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ يُفَوِّتُ عَلَى الْيَهُودِ غَرَضَهُمْ هَذَا. وفي الآية: اسْتِعْمَالُ الْكِتَابَةِ لِلْإِثْبَاتِ. وفيها: أَنَّ الْكِتَابَةَ تُقِيمُ الْحُجَّةَ عِنْدَ الْمُحَاسَبَةِ. وفيها: أَنَّهُ يَجُوزُ نِسْبَةُ الْفِعْلِ لْجَمَاعَةٍ، وَلَوْ كَانَ الْفَاعِلُ بَعْضُهُمْ، إِذَا كَانُوا مُقَرَّرِينَ بِهِ،

(١) رواه الطبري (٧/ ٤٤١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٧)، وإسناده ضعيف.

وراضين عنه، أو مشاركين ومُعِينين؛ كما دُلَّ عليه حديثُ: «إِذَا عُمِلَتِ الحَطِيطَةُ فِي الأَرْضِ؛ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا - وفي رواية: أَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»^(١)، وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن العلاء بن بدر أنه سُئِلَ عن قوله: ﴿وَقَتَلَهُمُ الْآتِيسَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم لم يدركوا ذلك (أي اليهود في العهد النبوي) فقال: بموالاتهم مَنْ قَتَلَ الأنبياء.

وفيها: مُقَابَلَةُ المجرِمِ بِمَا يُبَاثِلُ جَرمَتَهُ؛ فكما أَنَّ اليهودَ جَمَعُوا في جَرمَتِهِم بَيْنَ القولِ والفِعلِ؛ فقد جَمَعَ اللهُ عليهم في العذابِ بَيْنَ القولِ والفِعلِ.

وفيها: شَنَاعَةُ جَرمَةِ عُلَمَاءِ اليهودِ، مع أَنَّ الأصلَ في عالمِ الدِّينِ: أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ تَوْقِيرًا وتعظيمًا وخشيةً لله مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَلَكِنَّ عُلَمَاءَ اليهودِ وأَحْبَارَهُم كانوا أَشَدَّ كُفْرًا مِنْ عَامَّتِهِم، وَأَكْثَرَ استَهْزَاءً باللهِ تعالى منهم!

وفيها: أَنَّ اليهودَ مَرَّسُخٌ فيهِم الكُفْرُ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ الأنبياءَ؛ فليس بِمُسْتَغْرَبٍ مِنْهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ، وَيَشْتُمَهُ.

وفيها: أَنَّ كُفْرَ اليهودِ، كَانَ بالقولِ، والفِعلِ؛ فَسَبُّوا اللهُ تعالى وَاتَّهَمُوهُ بالفَقْرِ، وَقَتَلُوا أنبياءَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ حَاولُوا قَتْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ؛ كما في قِصَّةِ الشَّاةِ المسمومةِ، وفي قِصَّةِ خُرُوجِ ثَلَاثَةِ مِنَ اليهودِ قَدْ اشْتَمَلُوا عَلَى الخَنَاجِرِ، وَأَرَادُوا القَتْلَ بِهِ - في سَبَبِ غَزْوَةِ بَنِي النَضِيرِ -.

وفيها: أَنَّ التَّعْذِيبَ بِالإِحْرَاقِ بِالنَّارِ حَقِيقِيٌّ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَذوقُونَهُ، وَهَذَا أَشَدُّ مِنْ مَجْرَدِ الإِحْساسِ.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢):

ثُمَّ بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى سَبَبَ هَذَا الْعَذَابِ الشَّدِيدِ لِهَؤُلَاءِ اليهودِ؛ فَقَالَ:

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الحريقُ ﴿بِمَا﴾ بسببِ ﴿قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ما عَمِلْتُمُوهُ، والآثَامُ

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩).

والجرائم، تُكتسب باليد - كالقتل والبطش - وبالرجل، واللسان، والفرج، والعين، وغيرها. وإنما ذكر (الأيدي) تغييها؛ لأن أكثر الجرائم تُرتكب بها.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: ليس بذي ظلم لخلقه، لا في قليل، ولا كثير، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

نفى الصفات المذمومة عن الله، فكما ثبت الكمال لله تعالى؛ فإننا ننزه عنه ما لا يليق به.
وفي نفي الظلم عن الله: تطمين للخلق، الذين يذوقون ظلم بعضهم لبعض في الدنيا.
وفي الآية: إطلاق (البعض) على (الكل)؛ كما في قوله: ﴿يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب ما اقترفتموه، وعملتموه بكليتكم، و(الأيدي) من وسائل العمل.
وفيها: أن ترك الظلم اختياراً - مع القدرة عليه - هو نوع من المدح، ونفي الظلم عن الله؛ ليس لعدم قدرته عليه - حاشا وكلا -؛ بل لعدم رضاه به.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَا تَوْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣):

ولما ذكر الله تعالى موقف اليهود من ربهم في شتمهم له، وموقفهم من أنبيائه في قتلهم لهم؛ أتبع ذلك بذكر موقفهم من رفض اتباع النبي ﷺ وإيائهم عليه؛ فقال تعالى:
﴿الَّذِينَ﴾ وهم جماعة من اليهود: من زعمائهم، وأخبارهم، قيل: منهم كعب بن الأشرف، وحبي بن الأخطب.

قالوا للنبي ﷺ وأصحابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾ أي: أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿الْأَوْمِنَ﴾ ولا نصدق ﴿لِرَسُولٍ﴾ في دعواه الرسالة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي: بنار، تأكل ما نقربه إلى الله. وكان أنبياء بني إسرائيل إذا جمعوا صدقات القوم، وغنائم المعارك؛ تنزل نار من السماء فتأكلها.

﴿قُلْ﴾ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ - في جوابهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِي﴾ كزكريّا ويحيى وغيرهما ﴿بِأَيِّنِّتَ﴾: الآيات الواضحات على صدقهم ﴿وَالَّذِي قُلْتُمْ﴾ مِّنَ النَّارِ الَّتِي تَأْكُلُ الْقَرَّابِينَ.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، والقَتْلُ يتضمَّن التَّكْذِيبَ، وَزِيَادَةً ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقاتلتكم، أَنْتُمْ تُوْمِنُونَ بِالرُّسُولِ، الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِمَا اقْتَرَحْتُمُوهُ؟!

فَمَا أَنْتُمْ - يَا مَعْشَرَ يَهُودَ - إِلَّا كَأَسْلَافِكُمْ، فِي التَّعَنُّتِ، وَرَفْضِ الْحَقِّ!

وفي هذه الآية مِنَ الْقَوَائِدِ:

استمرارُ مُسَلْسَلِ التَّكْذِيبِ لدى اليهود، مِنْ عَهْدِ أَنْبِيَائِهِمْ إِلَى عَهْدِ نَبِيِّنَا.

وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي الرَّدِّ عَلَى الْخَصْمِ دَحْضُ حُجَّتِهِ الَّتِي أَتَى بِهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا خُوصِمَ بِهَا يَقُولُهُ لَا يَبْقَى لَهُ حُجَّةٌ.

وفيها: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَدْ أُعْطُوا مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفيها: أَنَّ مَعْرِفَةَ تَارِيخِ الْكُفَّارِ يُعِينُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ.

وفيها: أَنَّ مِنْ جُرْأَةِ الْكُفَّارِ عَلَى اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ، أَنَّهُمْ يَقْتَرِحُونَ الْمَعْجَزَاتِ وَيُطَالِبُونَ بِهَا، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِنْتِظَارَ، وَأَنْ يَرْضَوْا بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ - مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - إِذَا شَاءَ اللَّهُ، وَأَرَادَ.

وفي الآية: إِشَارَةٌ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ طَلَبِ الْمَعْجَزَةِ اسْتِرْشَادًا وَتَشْيِيتًا، وَبَيْنَ طَلَبِهَا تَعَنُّتًا وَعِنَادًا.

وفيها: نِسْبَةُ الْفِعْلِ إِلَى اللَّاحِقِينَ، مَعَ أَنَّ الَّذِي اقْتَرَفَهُ هُمُ السَّابِقُونَ؛ وَذَلِكَ لِإِقْرَارِهِمْ وَرِضَاهُمْ بِهِ.

وفيها: أَنَّ مِنَ الْإِفْحَامِ فِي الْمُنَاطَرَةِ - أَحْيَانًا -: الْعُدُولُ عَنْ مُنَاقَشَةِ الْخَصْمِ فِي صِحَّةِ مَا

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

يقوله، إلى مُناقَشته في مُحالَفته لِمَا يَقُوله، ويكون هذا من باب التَّنَزُّل معه، والانتقال للأهم المُفْهِم. وهذا إلزامٌ لهم بعدمِ صِدْقهم في قولهم بشيءٍ يَعْرِفونه.

وفيها: أَنَّ المعجزات ضروريةٌ للرسول -الذي يأتي بشريعة جديدة مستقلة- ولكنها ليست ضروريةٌ للنبي -الذي يأتي لتقرير شريعة رسولٍ قبله-.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤):

ثم قال الله تعالى، مُسَلِّيًا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يُواجهه من تكذيبِ اليهود:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ في بُرْهانِكَ، وشريعتِكَ، وما جئتَهم به من المعجزات الواضحات -وعلى رأسها: القرآن، الهادي إلى سواء السبيل-؛ فلا تحزن ولا تفزع من هذا التكذيب، ولا تحزن وتأس عليهم.

ولك أسوةٌ فيمن مضى؛ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، فجحدت أقوامهم ما أوحى إليهم، من الشرع الذي أمروا بتبليغه.

وقد ﴿جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ﴾ والآيات الشرعية، والحسبة الواضحة.

﴿وَالزُّبُرِ﴾ قال قتادة: كتب الأنبياء.

(الزُّبُر) في اللغة: الكلام والكتاب، و(الزُّبور) بمعنى: المزبور، أي: المكتوب. وهو الصُّحُف المشتملة على التَّغْيِيبِ والتَّهْيِيبِ، والمواعظ والزواجر. وسُمِّي الكتاب (زبورًا)؛ لأنَّه يُزَبَّرُ عن الباطل، ويدعُو إلى الحق.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ للظُّلُماتِ، المُزِيلِ لِلْجَهْلِ والضَّلالِ، والمنير لطريق الحقِّ سبيلَ النجاة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسليَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمن مضى قبله من الأنبياء، الذين جاءوا بالمعجزات، والآيات البيِّنات، ومع ذلك كُذِّبوا من أقوامهم، وجحدوا رسالتهم، فصبروا على ما نالهم من الأذى.

وفيها: بشارة للنبي ﷺ، بأن الله تعالى سينصُرُه على كلِّ مَنْ يكذِّبه ويؤذيه، كما نصرَ مَنْ قبله مِنَ الأنبياء.

وفيها: مواجهة النبي ﷺ لأصنافٍ كثيرةٍ مِنَ المكذِّبين، مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، واليهود والنصارى وغيرهم.

وفيها: أَنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أَنَّ غيره أُصِيبَ بما أُصِيبَ به؛ كَانَ في ذلك تخفيفٌ عنه، وتسليةٌ له.

وفيها: أَنَّ مِنْ أَشَقِّ الأمورِ على الرُّسل: الإيذاءُ بالتَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْدَقُ البشرِ.

وفيها: أَنَّ على الدَّاعيةِ المسلمِ أَنْ يصبرَ على ما يُلاقِيه مِنْ أَدَى في سبيلِ دعوته؛ اقتداءً بنبيِّه ﷺ، والأنبياءِ قبله.

وفيها: أَنَّهُ ما مِنْ رسولٍ إِلَّا نَزَلَ عليه كتابٌ مِنَ اللَّهِ تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فَتَرَى مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْكُتُبِ إجمالاً، سواءً عَرَفْنَا بَعْضَ تَفَاصِيلِهَا، أَمْ لَمْ نَعْرِفْ.

وفيها: أَنَّ كُتُبَ اللَّهِ تعالى تُنِيرُ السَّبِيلَ لِمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ، وتَهْدِي إلى الْحَقِّ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وفيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي على مَنْ يُوَاجِهُ الظُّلُمَاتِ، والاضْطِرَابَ، والحَيْرَةَ، والتَّشْكِكَ، والتَّشْوِيشَ، وعدمَ الوضوحِ في الآراءِ والمواقِفِ؛ أَنْ يَعودَ إلى القرآنِ الكريمِ؛ لِأَنَّهُ يُنِيرُ له الطَّرِيقَ، ويَهْدِيه سواءَ السَّبِيلَ، ويقْضِي على كُلِّ شَكٍّ وشُبْهَةٍ، وَيُضِيءُ له طَرِيقَ الْحَقِّ، بَيْنَ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ والضَّلَالَةِ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ رُحِّخَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥):

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى عَنِ الْخَلِيقَةِ عُمُومًا، بِأَنَّهُ حَكَمَ عَلَيْهِمُ بِالْفَنَاءِ، وَهَدَّدَ الْمُسِيءَ، وَبَشَّرَ الْمُحْسِنَ، وَوَعَظَّهُمْ بِزَوَالِ الدُّنْيَا؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: كُلُّ رُوحٍ سَتَذُوقُ طَعْمَ الْمَوْتِ، بخروجها مِنْ جَسَدِهَا، وكذلك الْبَدَنُ يَذُوقُهُ، وَلَكِنَّ الرُّوحَ لَا تَفْنَى. وَ(كُلُّ) مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُومِ؛ فَيَدْخُلُ فِي هَذَا: كُلُّ ذَاتِ رُوحٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ، جَنًّا وَإِنْسًا وَغَيْرِهِمْ، حَتَّى الْمَلَائِكَةُ يَمُوتُونَ. وَيُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ: كُلُّ مَنْ خُلِقَ لِلْبَقَاءِ؛ كَالْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدُونَ، وَالْحُورُ الْعِينُ فِي الْجَنَّةِ، وَخَزَنَةُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ -فِيَّهِمْ لَا يَمُوتُونَ-.

﴿وَلِكَمَا تُوَفَّتُكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ أي: تُعْطَوْنَ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ كَامِلًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَبْتَدِئُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، بِقِيَامِ النَّاسِ مِنَ الْقُبُورِ. وَالْمَرَادُ بِ(التَّوْفِيَةِ) هُنَا: تَوْفِيَةُ الْكَمَالِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُوفَّى بَعْضَ أَجْرِهِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ فِي الْبَرْزَخِ.

﴿فَمَنْ ذُحِّخَ﴾ أي: أُبْعِدَ وَأُزِيلَ. وَ(الزُّحْرَحَةُ) فِي اللُّغَةِ: الْإِبْعَادُ بِطَّيٍّ، وَمَشَقَّةٌ ﴿عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ لِأَنَّهُ نَجَا مِنَ الْمَرْهُوبِ، وَحَصَلَ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَظَفِرَ بِالْمَحْبُوبِ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ؛ فَلَتَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١).

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ سُمِّيَتْ بِـ (الدُّنْيَا)؛ لِذُنُوبِهَا زَمَنًا وَقَدَرًا؛ فَهِيَ قَبْلُ الْآخِرَةِ، وَلَا نِسْبَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآخِرَةِ ﴿إِلَّا مَتْنَعُ الْعُرُورِ﴾ فَمَتْنَعُ الدُّنْيَا مُتْنَعٌ عَابِرٌ، تَغُرُّ صَاحِبَهَا وَتُخَدَعُهُ، وَالْمَتْنَعُ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَتَنَفَّعُ بِهِ ثُمَّ يَزُولُ وَلَا يَبْقَى.

وَفِي الْحَدِيثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَوْضِعَ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ ذُحِّخَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْعُرُورِ﴾»^(٢).

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٠١٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٩٧٨).

والحديث ثابتٌ في صحيح البخاري^(١) - من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه - بدون زيادة الآية.

وفي هذه الآية من الفوائد:

- تعزيز المؤمنين، الذين نالتهم مصيبة في أحد، بأن الموت مصير الجميع.
- وفيها: تسليّة للنبي صلّى الله عليه وسلّم، بأن الله سيعاقب كلّ من عانده من كفّار اليهود وغيرهم.
- وفيها: أن الروح تذوق طعم مفارقة البدن، وتُحسّ به.
- وفيها: أن كلّ نفس ستموت. ويُسْتثنى من ذلك: كلّ من خلّق للبقاء؛ كالولدان المُخلّدون، والخور العين في الجنة، وخزنة الجنة والنار - فإنهم لا يموتون -.
- وفيها: أن الذوق يحصل به درجة من درجات اليقين، ويتّقلّ الذائق من علم اليقين إلى حقّ اليقين، بعد مروره بعين اليقين.
- وفيها: أن بعض الجزاء قد يحصل في الدنيا والبرزخ - وهو القيامة الصغرى - وأما التوفية الكاملة فتدّخر إلى القيامة الكبرى.
- وفيها: أن النفوس تميل، وتندفع إلى الشهوات، التي حُفّت بها النار، وتنجذب إليها؛ فلا تكاد تنصرف عنها إلا بزحزحة مشتملة على الشدة والمشقة.
- وفيها: أن الفوز الحقيقي لا يكون إلا بالنجاة من النار، ودخول الجنة.
- وفيها: أن متاع الدنيا زائل لا يبقى؛ فلا يصح أن يُشغل الإنسان عن العمل للآخرة.
- قال قتادة في قوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾: «هي متاع متروك، أو سكّت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تَضْمَحِلَّ عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله - إن استطعتم - ولا قوة إلا بالله»^(٢).
- وفيها: تهديد ووعيد لمن قال: إن الله فقير، وسائر المكذبين.

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٣ / ٣).

وفيها: وعد حسن للمؤمنين.

وفيها: أَنَّ الدُّنْيَا تَخَدَعُ أَهْلَهَا، بِمَا تُمَنِّيهِمْ بِهِ مِنْ طُولِ الدَّوَامِ، وَالْبَقَاءِ، وَبِمَا تُلْهِيهِمْ بِهِ مِنَ اللَّذَاتِ الْعَاجِلَةِ.

وفيها: تَصْغِيرُ لِسَانِ الدُّنْيَا، وَتَحْقِيرُ لَأَمْرِهَا، وَأَنَّهَا دَنِيَّةٌ زَائِلَةٌ.

﴿تَتَّبَلُّوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦):

ثُمَّ زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَسْلِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ، عَمَّا أَصَابَهُمْ فِي أَحَدٍ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى الَّذِي يَلْقَوْنَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَخْبَرَهُمْ - وَأَخْبَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ - أَنَّهُمْ سَيُبْتَكَونَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَتَّبَلُّوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾: مِنَ النِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ، وَالْمُسْتَحْبَةِ، وَمِنَ التَّعَرُّضِ لِإِتْلَافِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَعَرُّضِهَا لِلْجَوَائِحِ، وَالْفَقْدِ، وَالسَّرِقَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَ(الْلَامُ) فِي قَوْلِهِ ﴿تَتَّبَلُّوكَ﴾ لِلتَّأْكِيدِ، وَفِيهِ مَعْنَى الْقَسَمِ، وَ(النُّونُ) لِلتَّأْكِيدِ الْقَسَمِ.

﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾: بِأَعْيَاضِ التَّكَالُفِ الثَّقِيلَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالتَّعَرُّضِ فِيهِ لِلتَّعَبِ، وَالْقَتْلِ، وَالْأَسْرِ، وَالْجِرَاحِ - وَبِالْأَمْرَاضِ الَّتِي تُصِيبُكُمْ فِي النَّفْسِ، وَفِي مَنْ تُحِبُّونَ، وَبِالْمَصَائِبِ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُوكُنَّ إِشْيَاءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالسَّرْمَتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾: مِنَ الطَّعْنِ فِيكُمْ، وَفِي دِينِكُمْ، وَكِتَابِكُمْ، وَرَسُولِكُمْ.

وَقَدْ سَلَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ - عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ - عَمَّا نَاهُمْ

مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْمُشْرِكِينَ، وَأَمَرَهُم بِالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ؛ حَتَّى يَفْرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد روى البخاري^(١)، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلْتَسْمَعْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أُذَى كَثِيرًا﴾... وَكَانَ النَّبِيُّ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ».

وقد أخبرهم ربنا بهذا قبل وقوعه؛ لِيُوطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى وَقُوعِ ذَلِكَ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ إِذَا وَقَعَ، فِيهِونَ فِي أَنْفُسِهِمْ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: أَي: إِنْ تَصْبِرُوا عَلَى مَا نَالَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، مِنَ الْإِبْتِلَاءِ، وَالْامْتِحَانِ، وَعَلَى أَذَى الظَّالِمِينَ، وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِي ذَلِكَ الصَّبْرِ، بِأَنْ تَتَوَكَّلُوا بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَتَعَدَّوا فِي صَبْرِكُمْ الْحَدَّ الشَّرْعِيَّ مِنَ الصَّبْرِ، فِي مَوْضِعٍ لَا يَحِلُّ لَكُمْ فِيهِ الْإِحْتِمَالُ؛ بَلْ وَظَيْفَتُكُمْ فِيهِ: الْإِنْتِقَامُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

إِنْ فَعَلْتُمْ هَذَا؛ ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أَي: مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُعَزَّمُ عَلَيْهَا، وَيُنَافَسُ فِيهَا، وَلَا يُوفَّقُ لَهَا إِلَّا أَهْلُ الْعَزَائِمِ وَالْهَمَمِ الْعَالِيَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أُولُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٥]، وَعَزَمَ الْأَمْرَ: أَي شَدَّه وَأَصْلَحَهُ.

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِيَّ كَانَ شَاعِرًا، وَكَانَ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي شِعْرِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَأَهْلُهَا أَخْلَاطٌ، مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ تَجَمَّعَهُمْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْهُمْ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَمِنْهُمْ الْيَهُودُ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَلَقَةِ وَالْحُصُونِ، وَهُمْ حُلَفَاءُ لِلْحَيَّيْنِ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ اسْتِصْلَاحَهُمْ كُلَّهُمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَبُوهُ مُشْرِكًا، وَالرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَخُوهُ مُشْرِكًا، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ أَشَدَّ الْأَذَى، فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَالْمُسْلِمِينَ بِالصَّبْرِ

عَلَى ذَلِكَ، وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلْتَسْمَعْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]، فَلَمَّا أَبَى كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَذَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَذَى الْمُسْلِمِينَ، أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَبْعَثَ رَهْطًا لِيَقْتُلُوهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَأَبَا عَبْسٍ الْأَنْصَارِيِّ، وَالْحَارِثَ ابْنَ أَخِي سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فِي خَمْسَةِ رَهْطٍ، وَذَكَرَ الْحَدِيثُ فِي قَتْلِهِ. قَالَ: فَلَمَّا قَتَلُوهُ فَرَعَتِ الْيَهُودُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَغَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحُوا فَقَالُوا: إِنَّهُ طُرِقَ صَاحِبُنَا اللَّيْلَةَ، وَهُوَ سَيِّدٌ مِّنْ سَادَتِنَا، فَقُتِلَ. فَذَكَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ فِي أَشْعَارِهِ، وَيَنْهَاهُمْ بِهِ، وَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كِتَابًا، يَنْتَهُوا إِلَى مَا فِيهِ، فَكُتِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً صَحِيفَةً^(١).

وفي هذه الآية مِنَ الْفَوَائِدِ:

أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِّنْ مَّالِهِ، أَوْ نَفْسِهِ، أَوْ وَلَدِهِ، أَوْ أَهْلِهِ.

وفيهما: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُبْتَلَى عَلَى قَدَرِ دِينِهِ؛ وَأَنَّ الصَّلَاحَ لَا يَمْنَعُ الْبَلَاءَ، فَعِن سَعْدِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا مَثَلَ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٢).

وفيهما: أَنَّ مَنْ قَامَ بِحَقٍّ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوَدَّى؛ فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) رواه أبو داود (٣٠١٠)، والطبراني في الكبير (١٥٤)، والبيهقي في سننه (١٨٦٢٨) - واللفظ له -، وصححه

الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٣).

وفيها: أن من حكمة الله تعالى في عباده: أن يبتليهم في أموالهم وأنفسهم، وبأذية المشركين لهم؛ ليميز المؤمن الصادق من غيره، وليكون في ذلك رفعة لدرجاتهم.

وفي إخبار الله تعالى المسلمين بأذية الكفار لهم قبل وقوعها: زيادة لإيمانهم وبقينهم؛ فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧):

ولما أمر الله تعالى بالصبر على إيذاء أهل الكتاب؛ بين عز وجل أنه أمرهم ببيان الحق، وعدم كتم العلم، فكتموا الحق، وزادوا على ذلك أذية أهله!

فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي: واذكر - يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم - لأمتك قصة هؤلاء.

﴿مِيثَاقَ﴾ (الميثاق): هو العهد الثقيل، المؤكد باليمين ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم: أحبارهم ورهبانهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: لتظهرن للناس جميع ما فيه من الأحكام، والأخبار - التي من جملتها: نبوة النبي صلى الله عليه وسلم -.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: ولا تخفونه، سواء بكتمان بعضه، أو بتحريف معانيه.

قال الحسن البصري رحمه الله: «لَيْتَكَلَّمَنَّ بِالْحَقِّ، وَلْيَصِدَّقَنَّ بِالْعَمَلِ»^(١).

وقال قتادة رحمه الله: «هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم؛ فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلمن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلمين.

كان يُقال: مثل علم لا يُقال به؛ كمثل كنز لا يُنفق منه. ومثل حكمة لا تخرج، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٦٢).

وكان يُقال: طوبى لعالمٍ ناطقٍ، وطوبى لمستمعٍ واعٍ؛ هذا رجلٌ علِمَ علماً فعَلِمَهُ، وبَذَلَهُ، ودَعَا إليه، ورجلٌ سَمِعَ خيراً فحَفِظَهُ، ووعاه، وانتفع به^(١).

﴿فَتَبَدُّوهُ﴾ أي: طَرَحُوهُ وأَلْقُوهُ ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ زيادةً في الإعراض؛ فإنَّهم لم يُلْقُوهُ أمامهم؛ وإنَّما أَلْقُوهُ خلفهم؛ دلالةً على أنَّهم كَرِهُوهُ، واستكَبَرُوا عنه، وأَهْمَلُوهُ، ولم يبالوا به. قال السَّعْبِيُّ: «إِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَقْرَأُونَهُ، إِنَّمَا نَبَذُوا الْعَمَلَ بِهِ»^(٢).

﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: استبدلوا به متاعاً دُنْيَوِيًّا زَائِلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، وأموالها، وشَهَوَاتِهَا؛ كَالرَّئَاسَةِ، والجَاهِ، وأيضاً فعلوا ذلك؛ حتى لا تذهبَ أُعْطِيَاتُهُمْ، ومنزلتُهُمْ ومَنَاصِبُهُمْ عند قومهم.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي: قَبَحَ هَذَا الثَّمَنُ، وهذا الشَّرَاءُ.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: تبديلُ اليهودِ التَّوراةَ»^(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

خَطَرُ تَأْثِيرِ الْعُلَمَاءِ، وَأَنَّ زَلَّتْهُمْ مُضِلَّةٌ لِلنَّاسِ.

وفيها: وجوبُ إظهارِ الْعِلْمِ، وتَحْرِيمُ كِتْمَانِهِ، وأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي إِظْهَارِهِ: تَوْضِيحُ مَعَانِيهِ - لا تَبْلِيغَ أَلْفَاظِهِ فَحَسْبُ - وَيَدْخُلُ فِي كِتْمَانِهِ: تَحْرِيفُ مَعَانِيهِ.

وفيها: بيانُ الْكِتَابِ لِلنَّاسِ - مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ -؛ فَتَبْيِيهُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ لِهَدَايَتِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ، وَتَبْيِيهُهُ لغيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ.

وفيها: أَنَّ مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَبِيعُهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ، وَيَسْتَهِينُ بِهِ، وَيُعْرِضُ عَنْهُ؛ كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّفُهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا أَمَانِيَّ يَتَمَنَّاها، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ شَيْئًا، فَهُوَ كَالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالَ أَسْفَارًا.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٦١)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٣)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٧).

وفي الآية: تحذير لعلماء السوء في كل زمان ومكان، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سِئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ؛ أَجْزَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفيها: التحذير من الأسباب الباعثة على كتمان الوحي وتحريف معناه؛ طمعا في اللذات الفانية، والشهوات الفاسدة، والمال والجاه، أو خوفا من الحُكَّام، وسعيًا في إرضائهم، أو موافقة لأهواء الناس، ونحو ذلك.

وفيها: أنه كلما زاد علم الإنسان؛ ازداد ثقل العهد المأخوذ عليه.

وفيها: أنه يجب على أهل العلم توضيحه، ببيان، لا لبس فيه.

وفيها: شرف الصَّفَقَةِ، والعهد، الذي بين الله والعالمين به، وبشرعه.

وفيها: أن شرف العلم لا بُدَّ أن يُقابله التكليف؛ ببذله وتعليمه.

وفيها: خطر الرئاسة والجاه، وأن خوف زوالهما رُبَّمَا دفع صاحبهما إلى كتمان العلم، وإخفاء الحق.

وفيها: أنه يجب الأخذ بكل وسيلة لتبليغ العلم، سواء بالقول، أو الكتابة، أو عقد المجالس، وباغتنام واستثمار الوسائل التقنية الحديثة - التي تُسهِّل إبلاغه للقريب والبعيد -.

وفيها: أن الهَمَّ الدُّنْيَئَةَ، والنُّفُوسَ الخسيسة، ترضى بالأدنى، بدلا من الأعلى.

وفيها: تحريم مُحَابَاةِ الرؤساء والوجهاء والأغنياء، على حساب الحق وبيانه. وفي الحديث: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةٌ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ - أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ»^(٢).

وفيها: أن مجرد إيتاء الله العلم للعالم، يتضمن ميثاقا غليظا مؤكدا بالبيان، وعدم الكتمان.

وفيها: أنه يحرم على أهل العلم كتمان ألفاظ الوحي، أو كتمان معانيه، كالامتناع عن تفسيره، أو تحريف معناه، وتفسيره على غير مُراد الله، كقول بعض النصاري: إن الذي بشر به عيسى من بعده اسمه أحمد، وهذا محمد؛ فليس هو! مع أنه معلوم أن (أحمد) و(محمد) اسمان للنبي صلى الله عليه وسلم.

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وحسنه، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤) وحسنه، وابن ماجه (٤٠١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٩).

وفيها: أَنْ تَرُكَ الْعَمَلَ بِالْوَحْيِ هُوَ مِنْ تَبَذُّهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ.

وفيها: احْتِسَابُ الْأَجْرِ فِي تَعْلِيمِ الْعِلْمِ، وَالنَّشَاطِ فِي تَبْلِيغِهِ.

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهُ لَوْ لَا آيَاتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى﴾ [البقرة: ١٥٩] إِلَى قَوْلِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]»^(١).

وفيها: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ بِذُلِّ الْعِلْمِ لِلنَّاسِ، سَوَاءً سَأَلُوا عَنْهُ، أَمْ لَمْ يَسْأَلُوا.

وفيها: أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ؛ فَهُوَ وَاجِبٌ.

المسلمين؛ لِاتِّحَادِ جِنْسِ الْحُكْمِ، وَالْعِلَّةِ فِيهِ.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٨٨):

ثُمَّ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْيَهُودَ -وَمَنْ وافقهم- فِي فَرَحِهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَمُرَاءَاتِهِمْ، وَتَشَبُّعِهِمْ بِمَا لَيْسَ عَنْدهُمْ، وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أَي: لَا تَظُنَّنَّ ﴿الَّذِينَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، وَغَيْرِهِمْ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾ يُسَرُّونَ بِمَا فَعَلُوهُ مِنْ تَحْرِيفِ أَلْفَاظِ التَّوْرَةِ وَمَعَانِيهَا، وَبِالْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ -عَلَى رُغْمِهِمْ- وَيَفْرَحُونَ قَرَحَ أَشْرٍ وَبَطَرٍ، وَمِنَّةٍ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ!

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾ أَي: يُوصَفُوا وَيُذَكَّرُوا وَيُمَدِّحُوا ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ وَمَا لَيْسَ فِيهِمْ، كَالصَّدَقِ وَالْفَضْلِ وَالذِّينِ، وَكَقَوْلِ النَّاسِ عَنْهُمْ: «عِلْمَاءُ»، وَلَيْسُوا هُمْ أَهْلُ عِلْمٍ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ﴾ أَي: نَاجِينَ. وَ(المَفَازَةُ): مَكَانُ الْفُوزِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَكْرُوهِ ﴿مِنْ﴾ الْعَذَابِ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: بِالْحَرْبِ، وَالْقَتْلِ، وَالْأَسْرِ، وَضَرْبِ الْجَزْيَةِ، وَالذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

أَمَّا فِي الْآخِرَةِ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيِ مُؤْلِمٌ مُوجِعٌ. وَالْمَعْنَى: لَا يَحْسِبَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ فَرَحَهُمْ مُنِجٌ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ»، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أُتُوا مِنْ كِتَابِهِمْ إِيَّاهُ، مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ»^(١).

وجاء أيضًا أن هذه الآية نزلت في المنافقين:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَتَنَزَّلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية^(٢).

وفي هذه الآية مِنَ الْفَوَائِدِ:

التَّحْذِيرُ مِنْ فَرَحِ الْيَهُودِ بِكِتْمَانِ الْعِلْمِ وَتَحْرِيفِهِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِعِصْيَانِهِ، وَفَرَحِ الْمُنَافِقِينَ بِالْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَالتَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ.

وفيها: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَكْتَفِي بِالْمَعْصِيَةِ، حَتَّى يُضَيَّفَ إِلَيْهَا مَعْصِيَةٌ أُعْظَمَ مِنْهَا؛ وَهِيَ الْفَرَحُ بِهَا.

وفيها: تَحْذِيرُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَحَبَّةِ حَمْدِ النَّاسِ لَهُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَفْعَلْهُ، كَالْتِّظَاهُرِ بِالصَّلَاحِ، أَوْ إِيهَامِ السَّامِعِ أَنَّهُ فَعَلَ خَيْرًا لَمْ يَفْعَلْهُ؛ لِيُقَالَ عَنْهُ: مُؤْمِنٌ، وَصَاحِبُ دِينٍ! أَوْ التَّصْرِيحُ كَاذِبًا بِأَنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا؛ لِيَمْدَحَهُ النَّاسُ! وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ التَّسْمِيعِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ»^(٣)، أَي: فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(١) رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

ولا يدخل في الذَّمُّ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُحَمَّدَ عَلَى خَيْرِ فَعْلِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَظَاهَرَ بِشَيْءٍ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ. وَكَذَا مَنْ فَعَلَ خَيْرًا، وَأَخْفَاهُ، ثُمَّ أَظْهَرَهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ فَرَحَهُ مِنْ عَاجِلِ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ، أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(١).

وَفِي الْآيَةِ: التَّحْذِيرُ مِنْ تَشْبِيعِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ لَهُ، وَلَمْ يُعْطَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ كَلَّاسٍ ثَوْبِي زُورٍ»^(٢).

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا: مَنْ يَتَظَاهَرُ بِالتَّدْيِينِ لِإِقْنَاعِ أَهْلِ الْمَخْطُوبَةِ بِتَرْوِيحِهِ، وَمَنْ يُسَمِّعُ بِعَمَلٍ لَمْ يَعْمَلْهُ. وَيَدْخُلُ فِيهِ أَيْضًا: مَنْ يَسْرِقُ عَمَلَ غَيْرِهِ، وَيَتَحَلَّلُهُ لِنَالٍ بِهِ مَغْنَمًا مِنَ الدُّنْيَا، كَمَنْ يَدْفَعُ مَالًا لِمَنْ يَكْتُبُ لَهُ رِسَالَةً مَاجِسْتِيرٍ، أَوْ دِكْتُورَاه؛ لِنَالٍ بِهَا شَهَادَةُ زُورٍ، يَفْتَخِرُ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَيَزِيدُ بِهَا مَنْصِبَهُ وَمَالَهُ!

وَمِثْلُهُ: مَنْ يَسْرِقُ مَوْلًى أَوْ بَحْثًا عِلْمِيًّا، فَيُنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِهِ، لِيَشْتَهَرَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ! أَوْ يَسْرِقُ إِنْجَازًا أَوْ اخْتِرَاعًا لغيره؛ لِنَالٍ عَلَيْهِ تَرْقِيَّةٌ، أَوْ جَائِزَةٌ! أَوْ يَنْسِبُ إِلَى نَفْسِهِ أَعْمَالًا بِطَوْلِيَّةً، وَمَوَاقِفَ رَجُولَةٍ، لَمْ يَقُمْ بِهَا، ابْتِغَاءَ الشُّهْرَةِ وَالرَّفْعَةِ بَيْنَ النَّاسِ!

وَمِنْ الْعَجِيبِ السَّيِّئِ: أَنَّ الْبَعْضَ يَقَعُ فِي الْبِدْعِ وَالشَّرَكِيَّاتِ، ثُمَّ يُحِبُّ أَنْ يُحَمَّدَ، وَيُوصَفَ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ!

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَكْتَفِي بِالْمُرَآةِ فِيمَا يَفْعَلُهُ؛ حَتَّى يَرَاهُ بِمَا لَمْ يَفْعَلْهُ. وَإِذَا كَانَ الْأَوَّلُ يُحْبِطُ الْعَمَلَ؛ فَهَذَا عَذَابُهُ أَعْظَمُ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩):

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عُمُومَ مُلْكِهِ، وَقُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةَ، الَّتِي لَوْ شَاءَ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا مَنْ تَقَدَّمَتْ أَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ - مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ - لَفَعَلَ ذَلِكَ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٤٢).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٢١٩)، وَمُسْلِمٌ (٢١٣٠).

﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: له، وليس لغيره ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتديرهما، وخزائنها.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فلا يُعجزه شيء، فخافوه ولا تُخالفوه، واحذروا غضبه ولا تعصوه. و(القدرة): هي التمكن من الفعل بلا عجز، كما أن (القوة): هي التمكن من الفعل بلا ضعف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رد على اليهود، الذين قالوا: إن الله فقير.

وفيها: قدرة الله تعالى على عقاب هؤلاء الكفار والمنافقين -الذين تقدم ذكرهم-.

وفيها: تقوية للمؤمنين، في الصّدق بالحق، وبيان العلم، وعدم الخوف من الخلق؛ فإن الله قادر على كل شيء؛ فهو يكفيهم ويغنيهم، ومن اليسير عليه: التعجيل بعذاب خصومهم -من أهل الكتاب والمشرّكين-.

وفيها: أن المُلْك المطلق لله وحده؛ كما أفاده تقديم الخبر على المبتدأ، في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكٌ﴾، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

وفيها: كمال قدرة الله؛ فإنه يتصرّف فيما يملك. بخلاف البشر؛ فالبعض يملك ولا يستطيع التصرف في ملكه؛ بسبب حجر، أو حبس، أو مرض، ونحو ذلك.

وفيها: أنه لا يجوز للإنسان أن يتصرّف في ملك الله، إلا بإذنه وشرّعه تعالى.

وفيها: أن ملك المخلوق للأشياء ناقص ومحدود، والله تعالى هو الذي له الملك التام والمطلق لكل شيء.

وفي الآية: علاج لليأس؛ فإن من آمن بأن الله على كل شيء قدير؛ فلا يقعد عن العمل، ولا يُصيبه يأس من حصول المأمول؛ لأنه يوقن أن ربه قادر على تحقيق ذلك.

وفيها: علاج عظيم للوسوسة، والشبهات، التي تثور في نفس الإنسان، والاستشكالات، التي تعرض لمن يتدبّر في طلب العلم، وقراءة النصوص؛ فقد يحيل إليه -مثلاً- استحالة بعض المعجزات، وبعض الكرامات، وبعض الأخبار، التي لا تدركها العقول -من أمور الغيب- وبعض أفعال الله تعالى.

فالجواب عَنْهَا دائماً: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وفي الآية: الرَّغْبَةُ فيها عند الله؛ لأنه يملك السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، والخوفُ منه؛ لأنه قادرٌ على العذابِ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ١١٠﴾:

ولما ذكر الله تعالى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ ذكر أن في خَلْقِهَا دَلَالَاتٍ واضحةً لذوي العقولِ.

ولما كَانَ في بداية هذه السُّورَةِ: الرَّدُّ على شُبُهَاتِ نصارى وفِدَ نَجْرَانٍ - وغيرهم من أهلِ الباطلِ - في شِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ؛ خَتَمَهَا عَزَّوَجَلَّ بِذِكْرِ ما يدلُّ على التَّوْحِيدِ والأُلُوْهيَّةِ.

وقد روى ابنُ جَبَّانَ^(١)، عن عطاءٍ، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَعُمَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَ ابنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي»، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ، وَأَحِبُّ مَا سَرَّكَ.

قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ.

فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَبَلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾».

وقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ، فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنْ مُعَلَّقَةٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي...^(٢)، و(الشَّنُّ): الْوِعَاءُ وَالْقِرْبَةُ^(٣).

(١) برقم (٦٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

(٣) ينظر: فتح الباري (٢٨٨/١).

وقوله تعالى ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في إيجادهما وإنشائهما على هذه الصفات، من الإبداع، والإحكام:

فالسَّمَاوَات: في ارتفاعها واتساعها، وما فيها من الشَّمْسِ، والقَمَرِ، والنُّجُومِ، والكواكبِ السَّيَّارَةِ، والثَّابِتَةِ، والزَّيْنَةِ.

والأَرْض: في انخفاضها، وبسطها، وتذليلها، وما فيها من البحارِ، والجبالِ، والقفارِ، والنباتِ، والأشجارِ، والثَّمارِ، وأنواع المعادنِ، والحيوانِ، وغير ذلك.

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي: تعاقبهما، وتفاوتهما، في الظُّلْمَةِ والنُّورِ، والطُّولِ والقِصَرِ، واختلافهما: حرًّا وبردًا، ورخاءً وشِدَّةً، وعِزًّا وذُلًّا، وهزيمةً ونصرًا، وسعةً وضيقًا، وصِحَّةً ومَرَضًا.

﴿لَا يَنْتَرِ﴾ واضحة، وبراهين قاطعة ساطعة، على قُدْرَتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ سبحانه.

واللَّيْل والنَّهَار هما مُستودعا الأعمال، وخزائن ما يُفَعَّلُ فيهما من خيرٍ أو شرٍّ. ويقصُر النهار، فيُعِين على الصيام، ويطول اللَّيْل فيُتَلَذَّذ بالقيام.

﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾: لأصحاب العقول الصافية النقيّة. وسُمِّي (العقل) لُبًّا؛ لأنّه خالِصُ الإنسان؛ كما أنّ اللُّبَّ خالِصُ الحَبَّة.

وأولو الأبواب: هم الذين يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ، فلا يكونُ لِلرَّجُلِ لُبٌّ؛ حتّى يستجيبَ للحَقِّ، ويتَّبِعَهُ؛ وإلَّا فلو عَرَفَهُ، وعصاه لم يكن ذا لُبٍّ.

وفي هذه الآية مِنَ الفوائد:

الاستِدْلَالُ بالصَّنْعَةِ على عَظَمَةِ الصَّانِعِ، وأنَّ خَلْقَهُ تعالى هو ابتِدَاعٌ على غير مثالٍ سابق. وفيها: أَنَّ السَّمَاوَات آيَةٌ، مِنْ وجوه متعدّدة؛ منها: «عُلُوُّهَا، وَسَعَتُهَا، واستِدَارَتُهَا، وعِظَمُ خَلْقِهَا، وحُسْنُ بَنَائِهَا، وعَجَائِبُ شَمْسِهَا وقَمَرِهَا وكواكِبِهَا، ومقاديرُهَا، وأشكالُهَا، وتفاوتُ مشارِقِهَا ومغارِبِهَا، فلا ذَرَّةَ فيها تنفكُ عَن حِكْمَةٍ.

بَلْ هِيَ أَحْكَمُ خَلْقًا، وَأَتْقَنُ صُنْعًا، وأَجْمَعُ للعجائبِ مِنْ بَدَنِ الإنسانِ، بل لا نِسْبَةَ لجميع

ما في الأرض إلى عجائب السَّمَوَاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

فالأَرْضُ، والبحارُ، والهواءُ، وكلُّ ما تحت السَّمَاوَاتِ، بالإضافة إلى السَّمَاوَاتِ؛ كقطرة في بحرٍ. ولهذا قُلَّ أَنْ تَحْيِيَ سُورَةُ الْقُرْآنِ إِلَّا وفيها ذِكْرُهَا، إِمَّا إِنْخِبَارًا عَنْ عِظَمِهَا وَسَعَتِهَا، وَإِمَّا إِقْسَامًا بِهَا، وَإِمَّا دُعَاءَ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا، وَإِمَّا إِرْشَادًا لِلْعِبَادِ أَنْ يَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى عِظَمِ بَانِيهَا وَرَافِعِهَا سُبْحَانَهُ، وَإِمَّا اسْتِدْلَالَاً مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِخَلْقِهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْمَعَادِ، وَالْقِيَامَةِ. وَإِمَّا اسْتِدْلَالَاً مِنْهُ بِرَبُوبِيَّتِهِ لَهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَإِمَّا اسْتِدْلَالَاً مِنْهُ بِحُسْنِهَا، وَاسْتَوَائِهَا، وَالتَّامِّ أَجْزَائِهَا، وَعَدَمِ الْفُطُورِ فِيهَا، عَلَى تَمَامِ حِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ. وكذلك ما فيها مِنَ الْكَوَاكِبِ، وَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْعَجَائِبِ، الَّتِي تَقْصُرُ عَنْ عَقُولِ الْبَشَرِ عَنْ قَلِيلِهَا»^(١).

وفيها: أَنَّ فِي الْأَرْضِ آيَاتٍ؛ فِي تَنْوَعِ قِطْعِهَا -مَعَ تَجَاوُرِهَا- وَمَا سَلَكَ اللهُ فِيهَا مِنَ الْأَنْهَارِ، وَبَثَّ فِيهَا مِنَ الدَّوَابِّ، وَمَا أَحَاطَهَا مِنَ الْبَحَارِ، وَأَعَدَّهَا لِلْسُّكْنَى، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا أَوْدَعَ اللهُ فِيهَا مِنَ مَصَادِرِ الرِّزْقِ، وَالْمَالِ، وَطَعَامِ النَّاسِ. وفيها: أَنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ، وَيَعْتَبِرُ مِنَ آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ إِلَّا أُولُو الْعُقُولِ الْخَالِصَةِ -مِنْ أَصْحَابِ عُقُولِ الرُّشْدِ- وَهُمْ أَيْضًا الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِآيَاتِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ. والعقلُ عقْلانٍ: عَقْلُ إِدْرَاكِ، وَتَدْبِيرِ الْمَعِيشَةِ، وَعَقْلُ رُشْدٍ، يُهْتَدَى بِهِ لِلْحَقِّ. وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ، لَكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ عَقْلُ رُشْدٍ، يَهْتَدَى بِهِ لِلْحَقِّ، وَيَقْبَلُهُ، وَيَسْتَجِيبُ لَهُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٣)﴾:

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ أُولِي الْأَلْبَابِ يَعْبُدُونَهُ: فِكْرًا، وَذِكْرًا، قِيَمًا، وَقُعُودًا، وَعَلَى سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾؛ فَلَا يَقْطَعُونَ لَهُ ذِكْرًا، بِسَائِرِ أَرْوَاحِهِمْ، وَضَمَائِرِهِمْ،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦) لابن القيم، باختصار وتصرف.

وبقلوبهم: باستحضار خشيته، وعظمته سبحانه، وأستتهم: بالتَّهْلِيلِ، والتَّسْبِيحِ، والتَّحْمِيدِ، ونحوه، وبالجوارح: بالعمل على طاعته، واجتناب معصيته، فيذكرون أمره، ونهيه.

وأفضل الذكر: ما تَوَاطَأَ عليه القلبُ واللسان معاً.

وهم يذكرون الله تعالى ﴿فَيَمَّا وَقَعُوا دَاوَعَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: حال كونهم مُضْطَجِعِينَ، ومُستلقين؛ فلا يغفلون عن ذكره.

قال قتادة رحمه الله: «هذه حالُك كُلُّها - يا ابن آدم - اذكر الله وأنت قائم، فإن لم تستطع فاذكره وأنت قاعد، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك، يُسرُّ من الله وتخفيف»^(١).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ (الفكر): هو نظرُ العقل، وتردُّ القلب، بالنظر، والتدبر لطلب المعاني، وترتيب أمور في الذهن، يتوصَّل بها إلى مطلوب، يكون علماً، أو ظناً.

﴿فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، في صنعهما وإتقانها، وما أبدع الله فيهما، فيقودهم هذا إلى تعظيم خالقهما، وليدَّهم على كمال قدرته، فيُعْظَموه ويخشوه.

ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الذي نشاهده في السماء والأرض ﴿بِطَوْلٍ﴾ أي: عبثاً ضائعاً بلا حكمة؛ بل خلقته لأمرٍ عظيم جليل، وخلقته بالحق؛ لتجزِّي الذين أساءوا بها عَمَلُوا، وتجزِّي مَنْ عَمِلَ صالحاً بالحُسنى.

﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: نُزِّهَكَ عَنْ هَذَا الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ، وَأَنْ تَخْلُقَ شَيْئاً بَاطِلاً، وَنُزِّهَكَ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ. وأصل (التَّسْبِيحِ): هو التَّنْزِيهُ، والتَّقْدِيسُ، والتَّزْيِينُ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ.

وتسبيح هؤلاء المتفكرين: فيه طلبُ التوفيق للعمل الصالح، والهداية إليه، ليهديهم في النهاية إلى جنَّات النعيم، ويقيهم عذاب الجحيم؛ ولذا قالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: حتَّى يكون ما وفَّقتنا إليه واقياً وحامياً، ودافعاً عنا عذاب النار.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَخَرَجَ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٧٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٢).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴿١٢٤﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ ثُمَّ اضْطَجَعَ ثُمَّ قَامَ، فَخَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ رَجَعَ فَتَسَوَّكَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ ﴿١٢٥﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿١٢٦﴾:

ولما ذكر الله تعالى دعاء المؤمنين بالوقاية من النار؛ أتبعه بذكر التعليل لهذا الدعاء؛ فحكى عن دعائهم: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى، أي: يا ربنا ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي: أهنته وأذلته غاية الإذلال.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يمنعون عنهم عذاب الله.

وفي الآيتين من الفوائد:

بيان السبب الذي حمل المؤمنين على الدعاء بالوقاية من النار.

وفيها: أن الظلم سبب لدخول النار.

وفيها: أن خالق الأكوان لا يمكن لأحد أن ينتصر عليه.

وفيها: أن ظلم النفس، وظلم الغير، عاقبته وخيمة.

وفيها: أن أهل النار لا يجدون أعواناً يُجبرونهم منها، ولا يصرفون عنهم عذابها، ولا يُخرجونهم إذا سقطوا فيها.

وفيها: شيء من آداب الدعاء وفقهه؛ مثل: التوسل إلى الله تعالى بأسمائِهِ، وصفاته الحُسنى، وبالعمل الصالح الذي يعملُه العبد، والاستعاذة بالله تعالى من النار، وعدم الاعتداء في الدعاء.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ ﴿١٢٧﴾:

ولما سألوا الله الوقاية من النار؛ أتبعوا ذلك بسؤال مغفرة الذنوب وتكفير السيئات،

مُتَوَسِّلِينَ فِي دُعَائِهِمْ بِيَايَاهُمْ؛ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَبَلَّغَنَا مَا نَادَى بِهِ. وَ(النَّادِ): هُوَ رَفَعَ الصَّوْت. ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: هَذَا تَفْسِيرٌ لِنَدَاءِ الْمُنَادِي. وَ(الْأَم) فِي قَوْلِهِ ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ لِلْإِلْصَاقِ. وَالتَّعْبِيرُ بِ(الْأَم) بَدَلًا مِنْ (إِلَى)؛ دَلَالَةٌ عَلَى قُرْبِ الْإِيمَانِ، وَ(إِلَى) تَدُلُّ عَلَى الْبُعْدِ.

﴿أَنَّهُ امْنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ (أَنْ) تَفْسِيرِيَّةٌ، يَعْنِي: صَدَّقُوا بِهِ وَوَحَّدُوهُ. وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ: الْإِقْرَارُ، الْمُتَضَمِّنُ لِلْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، وَهُوَ: قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَاعْتِقَادٌ. قَالُوا: ﴿فَقَامَنَا﴾ أَي: اسْتَجَبْنَا لِلنَّدَاءِ، وَاتَّبَعْنَا الْمُنَادِيَّ، فِيمَا أَمَرَنَا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ، وَأَقْرَرْنَا مَعَ الْإِقْيَادِ.

وَأَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُنَادِي هُوَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ (دَاعِيًا) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الْأَحْزَاب: ٤٦].

وَلَمَّا اكْتَمَلَ التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ؛ جَاءَ الطَّلَبُ فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَي: اعْفُ عَنْهَا، وَتَجَاوَزْ، وَامْحُ أَثَارَهَا. وَ(الذُّنُوبُ): هِيَ الْمَعَاصِي، وَتَشْمَلُ الْكِبَائِرَ. ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أَي: اسْتُرْهَا.

وَ(الْغُفْرُ) وَ(الْكُفْرُ) مُتَقَارِبَانِ، وَهِيَ يَدُلُّ لَأَنَّ عَلَى: السِّرِّ وَالتَّغْطِيَةِ.

وَقِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ (الذُّنُوبِ) وَ(السَّيِّئَاتِ):

أَنَّ (الذُّنُوبَ): هِيَ الْكِبَائِرُ، وَ(السَّيِّئَاتِ): هِيَ الصَّغَائِرُ.

وَقِيلَ: (الذُّنُوبُ) مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَاضِي، وَ(السَّيِّئَاتِ) مَا سَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: (الذُّنُوبُ) مَا كَانَ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَ(السَّيِّئَاتِ) مَا كَانَ فِي حَقِّ الْعِبَادِ.

وَقِيلَ: (الذُّنُوبُ) مَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ مَعَ عِلْمِهِ بِتَحْرِيمِهِ، وَ(السَّيِّئَةُ): مَا يَفْعَلُهَا مَعَ الْجَهْلِ بِحُكْمِهَا.

وَقِيلَ: بَلَى (الذُّنُوبُ) وَ(السَّيِّئَاتِ) وَاحِدَةٌ؛ وَالتَّكْرَارُ لِلْمُبَالَغَةِ وَالتَّأْكِيدِ.

وَقَدْ طَلَبُوا مِنْ رَبِّهِمْ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ التَّوْبَةِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّهَا

تَزُولُ بِالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، وَالْمَصَائِبِ الْمَكْفِّرَةِ، وَدُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا كَانَتِ الْوَفَاةُ عَلَى الدِّينِ، وَالسُّنَّةِ، وَعَمَلِ الْخَيْرِ أَمْرًا عَظِيمًا؛ فَأَتَتْهُمْ سَأَلُوهَا رَبَّهُمْ؛

فقالوا: ﴿وَتَوَقَّنَا﴾ أي: اقْبِضْنَا إِلَيْكَ ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي: اجْعَلْنَا فِي حُكْمِهِمْ، وَجُمَلَتِهِمْ، وعلى أعمالهم، ومُصَاحِبِينَ لَهُمْ.

وفي هذه الآية مِنَ الْقَوَائِدِ:

تَصْدِيرُ الدُّعَاءِ بِالنَّدَاءِ؛ دَلَالَةً عَلَى كِمَالِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ.

وفيها: التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُقَدِّمَةِ الدُّعَاءِ.

وفيها: دَلِيلٌ عَلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوَسُّلِ الْمَشْرُوعِ فِي الدُّعَاءِ، وَهُوَ التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَمِنْ التَّوَسُّلِ الْمَشْرُوعِ أَيْضًا: التَّوَسُّلُ إِلَيْهِ تَعَالَى بِدُعَاءِ الصَّالِحِينَ الْأَحْيَاءِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِحَالِ الدَّاعِي؛ كَذِكْرِ الْإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [الْقَصَصُ: ٢٤]، وَكَقَوْلِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّيْتُ الضَّرْأَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٨٣].

وفيها: أَهَمِّيَّةُ النَّدَاءِ بِالْخَيْرِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِجَابَةِ الْمَدْعُومِينَ وَهَدَايَتِهِمْ.

وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِالْمُنَادِي فِي قَوْلِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّ قَوْلَ أُولَى الْأَلْبَابِ ﴿سَمِعْنَا﴾ يَشْمَلُ: السَّمْعَ الْمُبَاشَرَ - كَمَا حَصَلَ لِلْمُصْحَابَةِ وَالْجَنَّةِ - وَالسَّمْعَ غَيْرَ الْمُبَاشَرَ - كَالسَّمْعِ مِنْ وَرَثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالدُّعَاةُ إِلَى سَبِيلِهِ -.

وفيها: أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ: الْإِقْرَارُ فَقَطْ؛ بَلْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْإِنْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ.

وفيها: أَنَّ تَكْفِيرَ السَّيِّئَةِ يَشْمَلُ: الْكُفَّارَةَ الْعَامَّةَ - كَالْتَّكْفِيرِ بِالصَّلَاةِ، وَالْوُضُوءِ، وَالْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ - وَالكُفَّارَةَ الْخَاصَّةَ - كَكُفَّارَةِ الظُّهَارِ، وَالْجَمَاعِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، وَصَيْدِ الْمُحَرَّمِ، وَإِلْقَاءِ النُّخَامَةِ فِي الْمَسْجِدِ (وَكُفَّارَتُهَا دَفْنُهَا)، وَنَحْوِ ذَلِكَ -.

وفي الآية: فَضْلُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النَّسَاءُ: ٦٩].

وفيها: فَضْلُ الْمَوْتِ عَلَى مِثْلِ أَعْمَالِ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَقَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يُوسُفُ: ١٠١].

وفيها: أَنَّ الاستِجابةَ للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتباعِ سُنَّتِهِ؛ سَبَبٌ لمَغْفرةِ الذُّنُوبِ وتَكْفِيرِ السيِّئَاتِ.
وفيها: حَذَرُ المؤمنينَ الشَّدِيدِ مِنَ الفُضِيحَةِ في الآخرةِ.

وفيها: بَذَلُ الجُهدِ في الدَّعوةِ إلى الله، ومنْ ذَلِكَ: رَفْعُ الصَّوْتِ لِإِسْمَاعِ النَّاسِ.
وفيها: أَنَّ الكَلِمَاتِ الجَامِعَةَ يُسْتَغْنَى بِمَضْمُونِهَا عَنْ تَفْصِيلِهَا؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ءَاْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يَتَضَمَّنُ: كُلَّ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ الأُخْرَى، وَيَتَضَمَّنُ أَيْضًا: قَوْلَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ، وَقَوْلَ اللِّسَانِ، وَعَمَلَ الجَوَارِحِ.

وفيها: أَنَّ سَوَالَ المَوْتِ عَلَى عَمَلِ الأخِيَارِ؛ لَيْسَ اسْتِعْجَالًا بِطَلَبِ المَوْتِ.
وفيها: فَضْلُ المِبَادَرَةِ والسَّبْقِ إِلَى الإِيْمَانِ؛ كَمَا تُدَلُّ عَلَيْهِ الفَاءُ في قَوْلِهِ: ﴿فَتَأْمَنَّا﴾.
وفيها: العَلَاقةُ بَيْنَ التَّفَكُّرِ والخَوْفِ مِنَ اللهِ؛ لِذَلِكَ قَالَ: ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.
وفيها: أَنَّ المؤمنينَ يَذْكُرُونَ اللهَ، وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِهِ، وَيُسَبِّحُونَ لَهُ، وَيَدْعُوْنَهُ.

﴿رَبَّنَا وَعَانِئْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١١٤):

وَلَمَّا سَأَلَ أُولُو الْأَلْبَابِ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَتَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَأَنْ تَكُونَ وَفَاتِهِمْ مَعَ الْأَبْرَارِ؛ سَأَلُوا رَبَّهُمَ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا﴾ - يَتَلَذَّذُونَ بِتَكَرُّارِ نِدَائِهِ -
﴿وَعَانِئْنَا﴾: أَعْطِنَا ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ أَي: مَا تَعَهَّدْتَ بِهِ مِنْ حُسْنِ الْجَزَاءِ، كَالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّعِيمِ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: الَّذِينَ نَقَلُوا وَعْدَكَ إِلَيْنَا، وَنَحْنُ صَدَقْنَا بِهِمْ وَتَيَقَّنَّا بِالْوَعْدِ.
﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أَي: لَا تَفْضَحْنَا عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، وَلَا تُذِلَّنَا ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: الَّذِي يَقُومُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيَقُومُ فِيهِ الْأَشْهَادُ، وَيُقَامُ فِيهِ بِالْعَدْلِ.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الَّذِي وَعَدْتَ بِهِ عِبَادَكَ الْمُؤْمِنِينَ، سِوَاءَ بِالسِّيَادَةِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ.

وفي هذه الآية من القوائد:

تَكَرُّارُ لَفْظَةِ ﴿رَبَّنَا﴾ أَوْ (رَبِّ) عِنْدَ السَّوَالِ؛ مِبَالِغَةٌ فِي التَّضَرُّعِ.
وفيها: كِمَالُ إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِوَعْدِ اللهِ.

وفيها: الإِيمانُ بِالرُّسُلِ، وَتَصْدِيقُهُمْ جَمِيعًا فِيمَا جَاءُوا بِهِ، وَأَنْتُمْ قَدْ اشْتَرَكُوا فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِّمَّا أَخْبَرُوا بِهِ، وَمِنْهَا: وَعَدَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وَالْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وفيها: شِنَاعَةُ مَوْقِفِ الْفَضِيحَةِ، وَالْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ حَتَّى رُبَّمَا يَتَمَنَّى بَعْضُ الْمَفْضُوحِينَ أَنْ يُؤَمَّرَ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَلَا يَطُولُ مَقَامُهُ فِي الْخِزْيِ!

وفيها: كِبَالُ وَعْدِ اللَّهِ وَصِدْقِهِ، مَعَ كِبَالِ قُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّ الْوَاعِدَ يُخْلِفُ إِمَّا لَكَذِبِهِ أَوْ لَعَجْزِهِ، وَهُمَا مُتَتَفِيَانِ فِي حَقِّ اللَّهِ.

وَفِي الْآيَةِ: تَصْدِيقُ الْمُؤْمِنِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِذَلِكَ مَا سَأَلُوهُ.

وفيها: ثِقَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ، وَبِكِبَالِ قُدْرَتِهِ.

وفيها: التَّعَلُّمُ مِنْ أَدْعِيَةِ الصَّالِحِينَ، الَّتِي قَصَّهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ.

وفيها: اسْتِنْجَازُ وَعْدِ اللَّهِ، وَسُؤَالُهُ التَّعَجُّيلَ بِهِ.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِي بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا لَا نَهَرُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٦٥﴾﴾:

وَلَمَّا جَمَعَ أُولُو الْأَلْبَابِ شُرُوطَ الِاسْتِجَابَةِ فِي دُعَائِهِمْ لِرَبِّهِمْ، مِّنَ الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، وَالتَّفَكُّرِ، وَطَلَبِ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَتَوَسُّلُوا فِي دُعَائِهِمْ بِإِيمَانِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَسَأَلُوهُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ، وَتَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْوَفَاةَ مَعَ الْأَبْرَارِ، وَسَأَلُوهُ إِنْجَازَ وَعْدِهِ، وَالنَّجَاةَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى دُعَاءَهُمْ.

فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي: أَجَابَهُمْ ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ﴾ لَا أُبْطِلُ وَلَا أُخْطِئُ ﴿عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾، سِوَاءَ كَانَ ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَي: الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ فِي الثَّوَابِ سِوَاءَ؛ فَهَمَّ بِشَرِّكَوْنٍ فِي الدِّينِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْمُوَالَاةِ، وَالْأَصْلِ. ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ خَمْسَةَ أَوْصَافٍ:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وَتَرَكَوْا دَارَ الشَّرِّكَ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَفَارَقُوا الْأَمْوَالَ وَالْأَحْبَابَ، وَالْخِلَالَانَ، وَالْجِيرَانَ، فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ.

الوصف الثاني: ﴿وَأَخْرِجُوا مَن دِيكَرِهِمْ﴾، بمضايقة الكفار، وقهرهم لهم؛ حتى أُلجأوهم للخروج منها.

الوصف الثالث: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ بأنواع الإيذاء، بسبب الإيمان.

الوصف الرابع: ﴿وَقَتَلُوا﴾ أعداء الله، جهادًا في سبيله، وإعلاء لكلمته.

الوصف الخامس: ﴿وَقَتَلُوا﴾، وفي قراءة أخرى بفتح القاف (قَتَلُوا). وكل ذلك في المعركة، وكانوا صابرين.

فكان جزاؤهم: ﴿لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وأَمْحُونَ ذُنُوبَهُمْ، وأُسْرَهَا ﴿وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: خلالها، وتحت أشجارها، وقصورها، ومساكنها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ بأنواع المشارب، مِنَ الْمَاءِ، وَاللَّبَنِ، وَالْعَسَلِ، وَالْخَمْرِ. ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: مِنْ فَضْلِهِ، وإِحْسَانِهِ.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي: الجزاء الموفور في الجنة. و(الثواب): هو ما يُعطاه الإنسان.

سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(١)، وكانت أم سلمة، أَوَّلَ ظَعِينَةٍ (امرأة)، قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ مَعَهَا جَرَّةٌ^(٢).

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ:

سُرْعَةُ اسْتِجَابَةِ الرَّبِّ تَعَالَى لِلدُّعَاءِ.

وفيها: كَرَّمَ اللَّهُ، وَسَعَةَ عَطَائِهِ، بِإِيتَاءِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّ مَا سَأَلُوهُ - عَلَى كَثْرَةِ مَطْلُوبَاتِهِمْ -؛ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظَةُ (اسْتِجَابَ)، الَّتِي تَزِيدُ فِي حُرُوفِهَا وَمَبْنَاهَا عَلَى لَفْظَةِ (أَجَابَ).

وفيها: أَنَّهُ لَا يُضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَضْمَنُ الْأَجُورَ.

وَفِي الْآيَةِ: فَضْلُ الْهِجْرَةِ؛ لِإِمَّا فِيهَا مِنَ الْأَلَمِ، وَالْمَشَقَّةِ، وَالتَّضَحِّيَةِ.

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٣)، وصحَّحه لغيره الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٢).

والهجرة الشرعية تشمل: هجر ما حرم الله، والهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، والهجرة من بلد الفسق إلى بلد الطاعة.

فالأول: واجب على الجميع، والثاني: واجب على من عجز عن إظهار دينه، والثالث: واجب على من خشي على نفسه الفتنة.

وفيها: أن مفارقة الإنسان داره - بإيذاء الغير - سواء طرد منها مباشرة، أو ضايقه الأعداء حتى خرج منها؛ فيه تحرُّغ مرارة الظلم، وألم ترك ما يألوه ويحبُّه.

وفي الآية: أن الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أجرها عظيم، سواء حصلت اختياراً أو اضطراراً.

وفيها: احتساب أجر الإيذاء في سبيل الله؛ فإنه مهما تنوع، واشتدَّ فلا يضع أجره عند الله.

وفيها: فضل الجهاد، والثبات في المعركة، ومقاتلة الكفار، سواء قتل منهم، أو قتلوه.

وفيها: أن الأعمال العظيمة تكفر السيئات بأنواعها.

وإذا اجتمع ذكر (مغفرة الذنوب)، و(تكفير السيئات) في سياق واحد؛ فإن (المغفرة) تكون في الكبائر، و(التكفير) يكون في الصغائر.

وإذا أُفرد ذكر (السيئات) في السياق، ولم تُقرن بها (الذنوب)؛ فيُحتمل أن يُراد بها: كل أنواع السيئات.

وفيها: أن الجنات أنواع، وكذلك الأنهار.

وفيها: تفخيم الثواب وتعظيمه؛ إذا كان من عند الله.

وفيها: استواء الذكر والأنثى في الجزاء والحسنات، وفي إجابة الدعوات.

وفيها: أن الذكر لا يزيد على الأنثى في الثواب، إذا كان عملها واحداً.

وفيها: أن لكل واحد من الأعمال الخمسة الشريفة المذكورة في الآية - وهي: الهجرة، والإخراج من الديار، والإيذاء، والقتال، والقَتْل - تأثيراً في حصول الأجر العظيم المرتب عليها.

وفيها: أن معرفة الأجر وذكره، يزيد المؤمن صبراً وإقداماً على الأعمال الصالحة، ولو كانت شاقة.

وفيها: فَضْلُ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وفي الآية: التَّشْوِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ، بِذِكْرِ الدَّرَجَاتِ وَالْأَنْوَاعِ.

وفيها: أَنَّ الْعَطِيَّةَ تَعْظُمُ بِحَسَبِ مُعْطِيهَا.

وفيها: أَنَّ عَلَى الرَّجُلِ أَلَّا يَغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ، وَرِثَاسَتِهِ عَلَى الْمَرْأَةِ.

وفي قوله ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: بَيَانُ نَوْعٍ مِنَ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَأَنَّ الْجَنَسَيْنِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَبَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ؛ فَالرَّجُلُ مَوْلُودٌ مِنَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ مَوْلُودَةٌ مِنَ الرَّجُلِ. وفيها: رَفْعُ قَدْرِ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ، فِي أَنْفُسِهِنَّ، وَفِي نُفُوسِ الرِّجَالِ.

وفيها: أَنَّ تَفُوقَ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، فِي الْعَقْلِ، وَقُوَّةِ الْجَسَدِ، وَالْمِيرَاثِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لَا دَخَلَ لَهُ فِي التَّفَاضُلِ عِنْدَ اللَّهِ فِي الثَّوَابِ.

وفيها: أَنَّ الْإِيمَانَ يَجِبُ أَنْ يَقْتَرِنَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وفيها: فَضْلُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَالْمُهَاجِرَاتِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وفيها: فَضْلُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ، وَالشَّهَادَةِ - كَمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ -.

وفيها: أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ.

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٣١﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسُ الْإِهَادُ ﴿١٣٢﴾﴾:

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَاءَ الْكُفَّارِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِخْرَاجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَقِتَالَهُمْ إِيَّاهُمْ، وَكَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ فِي الْحَرَمِ الَّذِي تُحِبُّ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ فِي الْمَدِينَةِ - لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ - وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا مَا أَعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ؛ كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ يُتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ.

فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ، مُسَلِّيًا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ:

﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ أَي: لَا يَحْدَعَنَّكَ - وَأَنْتَ تَرَى حَالَ الْفَرِيقَيْنِ - ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أَي: تَقَلُّبُهُمْ فِيهَا لِلْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَحُسْنِ الْمَعَاشِ وَاللَّذَاتِ. وَلَا تَنْظُرُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - إِلَى تَرْفِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، وَلَا يَحْدَعَنَّكُمْ أَلْوَانُ النِّعَمِ، وَالْغِبْطَةِ وَالشَّرُورِ الَّتِي

فيها يتقلبون؛ فالله الذي مكّنهم من هذا التقلب، والتقلب في عالم الصناعات، والماديات؛ قادرٌ على إفقارهم وسلبهم إياهم، وأخذهم وما يملكون، وإذهاب نعيمهم، وعق ثرواتهم.

ثم وصف الله تعالى ما هم فيه من نعيم الدنيا، بقوله: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ (المتاع): ما تحصل به المتعة واللذة والانسباط، سواء كان متعة نفسية، أو جسدية، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَعَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ووصفه عز وجل (متاع الدنيا) بأنه (قليل)؛ يعني: أنه زائل لا يدوم، وهو قليل في قدره، قليل في وقته، مقارنة بما أعدّه الله تعالى لأصحابه في الآخرة من العذاب؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومترهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ ينتقلون إليها بعد تقلبهم في الدنيا، ويستقرون فيها.

﴿وَيَبَسَّ السَّيْلُ﴾ أي: الفراش، و(المهاد) أيضًا هو: مكان الاستقرار، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

وفي الآيتين من الفوائد:

بيان النظرة الصحيحة لمتاع الدنيا؛ لئلا يحصل به الاغترار، ولا يُعطى حجمًا أكبر من حجمه، ولا ينشغل به الإنسان عن العمل للآخرة. وفيها: جوابٌ عن بعض الشبهات، وشفاء للصدور.

كقول بعضهم: لقد أنعم الله على الكفار بالمال، والثروات، والتقدم، والازدهار، ورغد العيش، والبيئة الصحية، والتطور التكنولوجي، والاختراعات الحديثة، مع أنهم يشركون بالله، ويجعلون له الولد، ويكذبون نبيه، ويسبونه صلى الله عليه وسلم!

وأهل الإسلام يؤمنون بالله تعالى وبنبيه صلى الله عليه وسلم، ويصلون، ويقيمون شعائر الإسلام، ومع هذا؛ فهم يعيشون في فقر، وجوع، وتخلف، ومصائب، ابتلاءات عظيمة، وأوضاع معيشية صعبة! فأين الحكمة في هذا؟

والجواب عن هذه الشبهة في هاتين الآيتين: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْاِلْدِ ۝١٣﴾ متع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد؛ فالله تعالى ما أعطاهم إلا استدرأجأهم؛ ليغترأ بها هم

فيه، وليكونَ منهم العُلُوُّ والفسادُ في الأرضِ، وهذا يؤذِنُ بهلاكِهِم وزوالِهِم، وأخذَ اللهُ لهم، وبَطِشَهِ وانتقامِهِ منهم. وليستَعْلُوا بما هم فيه من نعيمِ الدُّنيا عن أمورِ الآخرة؛ فيكونَ عذابُهُم يومَ القيامةِ موفورًا، وبئسَ المهاد! وأيُّ نعيمٍ من نعيمِ الدُّنيا سيبقى بعد عذابِ الآخرة، وغَمَسَةٌ واحدةٌ في النَّارِ تُنسي كلَّ نعيمٍ كانَ للكفارِ؟! وما قيمة التَّقَلُّبِ في البلادِ، والتَّرَفِ، والنعيمِ الدُّنيويِّ، بجانبِ هذا العذابِ المُهِينِ، المقيمِ، العظيمِ، الأليمِ؟! فما هم فيه الآنَ ما هو إلَّا متاعٌ قليلٌ زائلٌ.

أضِفْ إلى ذلك: أنَّ الكفارَ في الدُّنيا لا يخلو أمرُهُم من شِدَّةٍ تصيبُهُم، وقارِعَةٍ تحُلُّ بِهِم، وقَحْطٍ، ومرَضٍ، وأعاصيرٍ، وأنَّ ما يتمتَّعون به مِنَ الأموالِ، والأولادِ، لَيْسَ خالصًا لهم؛ وإنَّما يكونُ أحيانًا وبالأعلى عليهم في الدُّنيا، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

كما أنَّ أهلَ الإيمانِ - في المُقَابِلِ - لا يخلو أمرُهُم في الدُّنيا من: التمكينِ والنصرِ، والعُلُوِّ، والغنى، والفتَحِ، والحياةِ السعيدةِ الهانئةِ.

والإسلامُ مع بلاءِ الدُّنيا، ثُمَّ النِّعَمِ في الآخرة؛ خيرٌ من الكُفْرِ مع النِّعَمِ الزَّائِلِ، ثُمَّ العذابِ الأبديِّ في الآخرةِ.

وهذه الشُّبْهَةُ فيها اعتراضٌ على قضاءِ اللهِ، وقَدَرِهِ، وقِسْمَتِهِ، واتِّهامٌ له تعالى بالظُّلْمِ؛ فنعوذُ بالله من الخِذلانِ، والله سبحانه الحَكَمَةُ البالغةُ، والحُجَّةُ الواضحةُ.

وفي الآيتين: أنَّ عطاءَ اللهِ للعبيدِ في الدُّنيا - مِنَ الرِّخاءِ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ، ونحوِه - لَيْسَ دليلًا على رِضاةِ عَنِّه؛ فَقَدْ يَسْتَدْرِجُ اللهُ المرءَ بإغداقِ النِّعَمِ عَلَيهِ؛ فِتْنَةً لَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْعِمُهُمْ لِيَزْدَادُوا إِشْعًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وفيها: أَنَّهُ مِمَّا أُعْطِيَ الإنسانُ مِنَ الدُّنيا؛ فَإِنَّهُ قَلِيلٌ.

وفيها: أنَّ «الابتلاءَ قَبْلَ التَّمْكِينِ» مِنْ سُنَّةِ اللهِ تعالى في المؤمنينَ، والله تعالى قد يُعْطِي الكافرَ في الدُّنيا الأَمْنَ، والرِّخاءَ، والصُّحَّةَ، والمالَ؛ زيادةً له في الإِثْمِ، ويُقَدِّرُ على المؤمنينَ التَّضْيِيقَ، والخوفَ، والابتلاءاتِ؛ تَمْحِصًا لَهُم، وَرِفْعَةً لِدَرَجَاتِهِم، وتكفيرًا عَنْ سَيِّئَاتِهِم، ثُمَّ تكونُ الغَلَبَةُ لَهُم.

وفيها: أَنَّ الدُّنْيَا سَجَنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ؛ فَالْكَافِرُ يَنْتَقِلُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يَنْتَقِلُ مِنْ ضَيْقِ الدُّنْيَا، وَشِدَّتِهَا إِلَى سَعَةِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا.

وفيها: أَنَّ التَّحْذِيرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ تَحْذِيرٌ لغيره - مِنْ بَابِ أُولَى -.

وفيها: أَنَّ تَحْذِيرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا، لَا يَعْنِي أَنَّهُ وَقَعَ فِيهِ، وَلَا أَنَّهُ سَيَقَعُ فِيهِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ تَرْبِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَأْكِيد.

وفيها: أَنَّ مَنْ ظَنَّ الشَّيْءَ الضَّارَّ نَافِعًا؛ فَهُوَ مَغْرُورٌ.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١١٨):

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَالَ الْكَافَرِ، وَأَنَّهُ إِلَى النَّارِ؛ ذَكَرَ بَعْدَهُ مَالَ الْمُؤْمِنِ، وَأَنَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَكِنَّ﴾ (لَكِنْ) تَأْتِي فِي اللَّغَةِ لِلْإِسْتِدْرَاكِ، وَدَفْعِ التَّوَهُّمِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ لَوْ حَصَلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِثْلُ مَا حَصَلَ لِلْكَافَرِ، مِنَ الثَّقُلِ فِي الْبِلَادِ، وَالسَّفَرِ لِلتَّجَارَاتِ، وَالتَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ أَجْرَهُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ بَلْ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ وَبَسَاتِينُ ﴿تَجْرَى﴾ أَي: تَسِيلُ ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بِأَنْوَاعِهَا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ فَلَا يَمُوتُونَ، وَلَا يُحْرَجُونَ مِنْهَا.

﴿نُزُلًا﴾ أَي: ضِيَافَةً، وَعَطَاءً، وَإِكْرَامًا ﴿مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ كَرَمًا، وَفَضْلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّ النَّازِلِينَ فِي الْجَنَّاتِ: هُمْ ضُيُوفُهُ.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الْكَرَامَةِ - فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ، كَرُوبَةٍ وَجْهَهُ عَزَّ وَجَلَّ - ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَيَبْرُؤُونَ غَيْرَهُمْ - كَالْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ - وَلَا يُؤْذُونَ حَتَّى صِغَارَ الْحَيَوَانَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

أَنَّ مَا يَكْتُبُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّصْرِ، وَالْمَكَاسِبِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَضُرُّهُمْ، وَلَا يُنْقِصُ أَجْرَهُمْ وَثَوَابَهُمْ، مَا دَامُوا بِرَّةً أَتْقِيَاءَ.

وفيها: فَضْلُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَأَنَّهَا سَبَبُ اكْتِمَالِ الْأَجْرِ، وَنَفَاسَتِهِ.

وفيها: أَنَّ الْبَارَّ يَتَعَدَّى خَيْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ، مِنَ الْقَرِيبِينَ، وَالْبَعِيدِينَ، حَتَّى الدَّوَابِّ.

وفيها: أن الموت خير للبار، من جهة أن ما عند الله له - من الأجر والثواب - أفضل مما في الدنيا.
وفيها: أن سيرة المؤمنين في الأرض تُخالِف سيرة الكفار فيها تمام المخالفة؛ لأن المؤمنين إذا حكموا وتمكّنوا؛ صاروا خيراً، ورحمة على العباد والبلاد.

وفي الآية: أن الجنة عالية؛ لأن الأنهار تجري من تحتها؛ وهذا يدل على علوّ قصورها وأشجارها.
وفي الآية: إكرام الضيف، بتعجيل شيء له عند قدومه؛ لأن (النزل) في اللغة: يُطلق على أول ما يقدّم للضيف من الطعام.

وفيها: إكرام الله تعالى لمن جاوره في دار كرامته، ونزل به في محل ضيافته، وهو سبحانه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين.

وفيها: أن نعيم الجنة أعظم وأفضل من أرباح الدنيا، وتجاراتها، ومكاسبها، ومن التسلّط والعلوّ فيها.

وفيها: أن من اتقى، وخاف عقاب ربه، بفعل المأمورات، واجتناب المنهيات؛ ستحسن سيرته في التجارة، وابتغاء المكاسب.

وفيها: أن من حصل لهم سعة في الدنيا، بما لا يخالف الشرع؛ فليس بمذموم، كما قال الشاعر:
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل^(١)

وفيها: إعداد الكرامة والضيافة، ومهيئة النزّل للضيف قبل قدومه.

وفيها: الحث على حسن العمل، وهذا معنى (البر)، وهو ضدّ (الفجور).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ
لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾﴾

ولما ذكر الله تعالى ما أعدّ للمتقين من الثواب؛ بيّن أن بعض أهل الكتاب لهم نصيب من هذا الثواب؛ لأجل إيمانهم.

(١) هذا البيت منسوب لأبي دلامة الأسدي. ينظر: ديوان أبي دلامة الأسدي (ص ٣٣)، إعداد: رشدي علي حسن.

ولما كانت بداية هذه السورة موجَّهة لدعوة أهل الكتاب - من نصارى نجران وغيرهم -؛ فقد بيَّنت خاتمتها أن بعضهم قد استجاب لذلك؛ فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: طائفة من اليهود والنصارى - كعبد الله بن سلام، والنجاشي - ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ حقَّ الإيمان ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن، وهذا لا يتمُّ إلا بالإيمان بالنبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من التوراة، والإنجيل، وما فيها من صفة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوته.

وحالهم أئهم: ﴿خَشِعِينَ لِلَّهِ﴾ مُطِيعِينَ لَهُ، خاضِعِينَ، متذللين بين يديه.

﴿لَا يَسْتَرْوْنَ بِعَايِنِ اللَّهِ﴾ أي: لا يأخذون، ولا يطلبون بدلاً عن آيات الله ﴿ثُمَّ نَكَا﴾ قليلاً ﴿وَلَا كَثِيرًا مِنَ الدُّنْيَا، مِنْ جَاهٍ، أَوْ رِئَاسَةٍ، أَوْ مَالٍ؛ فَهُمْ لَا يُحَرِّفُونَ كُتُبَهُمْ، وَلَا يَكْتُمُونَ شَأْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ رِشْوَةٍ، أَوْ مَحَافَظَةٍ عَلَى رِئَاسَةٍ. وَ(الشُّرَاءُ) هُنَا بِمَعْنَى: الْأَخْذُ. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كاملاً موفوراً؛ لأنهم لم يأخذوا من الدنيا بدلاً عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَآتَرُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يُوصِلُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ إِلَى صَاحِبِهِ بِسُرْعَةٍ، وَيُحَاسِبُ النَّاسَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ؛ حَتَّى إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُحَاسِبَ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فِي نِصْفِ يَوْمٍ؛ فَتَكُونُ قِيلُولَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ، وَ(القِيلُولَةُ) إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَخْرُجُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخٍ لَكُمْ» فَصَلَّى بِنَا، فَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ، فَقَالَ: «هَذَا النَّجَاشِيُّ أَصْحَمَةٌ»، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: انْظُرُوا هَذَا يُصَلِّي عَلَى عَلِجٍ نَصْرَانِيٍّ لَمْ يَرَهُ قَطُّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾^(١) [آل عمران: ١٩٩].

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ:

الثَّنَاءُ عَلَى مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْإِشَادَةُ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ آتَرُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩٧)، وضعفه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على التفسير.

فيها. وقد ورد مدحهم في آيات أخرى من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا بُنِيَتْ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [الفصص: ٥٢-٥٤].

وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة ١٢١]، وكقوله عز وجل: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ۚ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكَبُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۖ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وغيرها من الآيات، التي يُناسِبُ ذكرها؛ كمدخل مُهمٍّ في دعوة أهل الكتاب.

وفي الآية: عِظْمُ أَجْرِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَذَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ...»^(١).

وفي الآية: أَنَّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَنْ يَدْخُلُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَيُؤْمِنُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أُنزِلَ عليه، لَكِنْ مَنْ يَدْخُلُ الْإِسْلَامَ مِنَ النَّصَارَى أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهُ مِنَ الْيَهُودِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَرُؤَسَائِهِمْ إِلَّا أَقْلٌ مِنْ عَشْرَةٍ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ؛ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ»^(٢).

وفي الآية: أَنَّ الْإِيمَانَ يَقُودُ إِلَى الْخُشُوعِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ، أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ مَرْيَمَ بِحَضْرَةِ النَّجَاشِيِّ، مَلِكِ الْحَبَشَةِ، وَعِنْدَهُ الْبَطَارِكَةُ وَالْقَسَاوِسَةُ؛ بَكَى وَبَكَوْا مَعَهُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهِمَ^(٣)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَجَّ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ مَتَاعَرُفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وذلك لِمَا رَأَوْا أَنَّ مَا فِي الْقُرْآنِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ؛ فَفَرَحُوا بِالْوَحْيِ الْجَدِيدِ.

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٩٤١)، ومسلم (٢٧٩٣) - واللفظ له -.

(٣) رواه أحمد (١٧٤٠)، وحسن إسناده الألباني في صحيح السيرة (ص ١٨٠).

فَمِثْلَ هَؤُلَاءِ جَدِيرٌ أَنْ يُشَادَّ بِهِمْ، وَيُذَكَّرَ فَضْلُهُمْ - وَقَدْ كَادَ النَّجَاشِيُّ أَنْ يَفْقِدَ مُلْكَهُ مِنْ أَجْلِ الْإِسْلَامِ -.

ولذا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا^(١).

وفي الآية: أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الصَّادِقِينَ لَا يَأْخُذُونَ عَلَى تَبْلِيغِ الْعِلْمِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا؛ بَلْ يَبْذُلُونَهُ مَجَانًّا، وَلَا يَكْتُمُونَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ؛ بَلْ يُبَيِّنُونَهُ لِلنَّاسِ.

وفيها: أَنَّ مُسْلِمَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ هُمْ إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ، يَهْتَدُونَ بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُضَيِّفُونَ إِلَى الْهَدَايَةِ بِالْكِتَابِ السَّابِقَةِ - مِمَّا لَمْ يُحَرِّفْ مِنْهَا - الْاهْتِدَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ.

وفيها: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ - بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَوْ بَقُوا عَلَى دِينِهِمُ الْمُحَرَّفِ!

فَقَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ بِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَقْسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا؛ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(٢).

وفيها: سُرْعَةُ حِسَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْبَشَرِ، مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وَمَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَقَالَ يَخْلُو بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

وفيها: أَنَّ الْعِلْمَ بِيَا فِي كُتُبِ اللَّهِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، إِذَا كَانَ عِنْدَهُ خَشْيَةُ اللَّهِ.

وفيها: تَعْرِيطُ بَعِثٍ تَرُكُ اتِّبَاعَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا، كَمَا فَعَلَتْهُ الطَّائِفَةُ الْمُرْذُولَةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ كَتَمُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ؛ لئَلَّا يَخْسَرُوا بَعْضَ مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ! وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ سَبَقَتْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(١) رواه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

(٢) رواه مسلم (١٥٣).

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠):

ولما ذكر الله تعالى حال المؤمنين، وحال الكافرين، وما كان من قتال أعداء الله لأهل الإيمان، وعداوتهم الشديدة لهم، وصددهم عن سبيل الله؛ ختم الله عز وجل هذه السورة بوصايا عظيمة جامعة، فيها: الأمر بالصبر على الدين، والمصابرة عند لقاء الكفار، وحراسة ثغور المسلمين في سبيل الله؛ فقال عز وجل -مستنهضاً همم المؤمنين، وباعثاً للحماس في نفوسهم-:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: النداء للتنبيه، وليبيان أمور من مقتضيات الإيمان، ولإغراء من يناديهم بالمحافظة عليها.

﴿أَصْبِرُوا﴾: على أداء ما أوجبه الله عليكم، والقيام بتكاليف دينكم، وعلى ترك ما نهاكم الله عنه، وعلى قضاء الله وقدره، وآلام الدنيا ومصائبها -كالمرض والفقر والخوف-، والصبر إنما يكون في كل ما يخالف هوى النفس.

﴿وَاصْبِرُوا﴾ (المصابرة) مفاعلة، تقتضي اشتراكاً بين اثنين فأكثر. وعلى هذا؛ فالمراد بها: الصبر على الأذى الذي يحصل من الغير، وترك الانتقام؛ ف (المصابرة) تكون مع شخص يضادك.

﴿وَرَاطِبُوا﴾ أي: أقيموا على الطاعات، ومن ذلك: انتظار الصلاة بعد الصلاة.

وأعظم الرباط: ما يكون في الجهاد، في سبيل الله، بربط الخيل في الثغور والحدود مع الأعداء، والأماكن المشتركة مع الكفار، وفي السواحل البحرية الإسلامية، والأخذ بالأسباب لمنع العدو من المباغثة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مخالفة أمره ونهيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تظفرون بالسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن الصبر، والمرابطة، والتقوى من صفات المؤمنين؛ ولذلك ناداهم بلفظ الإيمان، وأغراهم بهذه الأعمال.

وفيها: فضل مخالفة هوى النفس، وتحمل المشقة إرضاءً لله تعالى.

وفيها: مُغَالَبَةُ النَّفْسِ، بِالصَّبْرِ عند لقاء الأعداء؛ لأنَّ المصَابِرَةَ (مُفاعلة)، فلا تكون إِلَّا بين اثْنَيْنِ. بخلاف الصَّبْرِ؛ فإنه يكون بحَبْسِ النَّفْسِ عَنِ الشَّيْءِ.
وفي الآية: فَضْلُ الثَّبَاتِ أَمَامَ مَنْ يُضَادُّ الدِّينَ، وَيُعَانِدُ الشَّرِيعَةَ.
وفيها: فَضْلُ (الرِّبَاطِ).

ومعناه العامُّ: المداوِمَةُ في مكانِ العِبَادَةِ وَالثَّبَاتُ. ويشمل: انتظار الصَّلَاةِ بعد الصَّلَاةِ، والإقامة في نَحْرِ العَدُوِّ - حِفْظًا لثغور الإسلام، وصيانتها عن دخول الأعداء واقتحامهم لها-.
وقد احتاج المسلمون إلى المِرابطة لِمَا فَتَحَتْ الفُتُوحَاتُ، أَمَّا في عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت المِرابطة قليلة؛ لَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى العَدُوِّ وَيَغْزُوهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ.
وفيها: أَنَّ العَاقِبَةَ الحَمِيدَةَ - وَهِيَ الفَلَاحُ - تكون لمن قام بأوامر الله، من: الصَّبْرِ، والمصَابِرَةِ، والمِرابطة، والتَّقْوَى.

وفيها: فَضْلُ الرِّبَاطِ وَعِظَمُ أَجْرِهِ؛ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ من تَعَبِ الحِرَاسَةِ، والخوف والقلق من هجوم العَدُوِّ، والاحتِباس عن المصالح الدُّنْيَوِيَّةِ - كالتجارة وطلب الرِّزْق ونحوها -، والبقاء مُسْتَبَها طيلة الوقت، ومُراغمة أعداء الله، والعمل الطويل الشاق.
وقد جاء في الحديث، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

وَإِذَا مَاتَ الْمُرَاطِبُ فِي الرِّبَاطِ؛ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَيُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُجْرَى عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَهُوَ فِي قَبْرِهِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ.

ففي الحديث: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وَإِنْ مَاتَ؛ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانَ»^(٢).

و(الْفَتَان) يعني: فِتْنَةُ الْقَبْرِ^(٣).

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٩١٣).

(٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦١ / ١٤).

وفي الآية: فَضِّلْ الحراسة في سبيل الله، وقد جاء في الحديث: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وفيها: أَنْ مَنْ اتَّقَى رَبَّهُ؛ أَفْلَحَ إِذَا لَقِيَهُ.

وفيها: التدرُّج من الأخف إلى الأثقل؛ فـ (المصابرة) أشد من (الصبر)، و(المرابطة) تشتمل عليهما.

وفيها: أَنَّ أفعال الترجي من الله - (لعل) و(عسى) ونحوها - تُفيد التحقيق والوقوع - إذا تحقق الشرط -؛ لأنَّ الله تعالى لا يُخلف الميعاد.

وأما الترجي من البشر؛ فقد يقع الموعود به، وقد لا يقع.

وفيها: ذَكَرْ ما يلزم لجهاد الكفار، وشياطين الإنس.

وأما شيطان الجن؛ فإنَّ المصابرة والمرابطة معه تقتضي حراسة الثغور، التي يُمكن أَنْ ينفذ منها؛ كالسمع، والبصر، وأن يحرسها صاحبها؛ لئلا ينفذ إليها شيء؛ ممَّا حرَّمه الله، فيدخل الشيطان منها للإفساد والخراب.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

انتهى تفسير سورة آل عمران

وبه تسم تفسير الزهراوي

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٢).

تَقْنِيَّةُ اثْرِيٍّ تَرْبُوِيْ مُعَاَصِرُ
تَنْهِيَاً لِلتَّدْبِرِ وَالْعَيْشِ مَعَ الْقُرْآنِ

